

حیات
محمد

محمدتین حسین

مَدِينَةُ بَيْتِ الْمَدِينَةِ
مَدِينَةُ بَيْتِ الْمَدِينَةِ
مَدِينَةُ بَيْتِ الْمَدِينَةِ

حِكَايَةُ مُحَمَّدٍ

إِنَّا لِلَّهِ وَمِلَّةِ نَبِيِّهِ
يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا

من كتبه
السيد محمد
عبد الرحمن
البيهقي

بقلم

محمد حسين
صالح

الطبعة الاولى

القاهرة

مطبعة دار المعارف (الجمهورية العربية السورية)

١٣٥٤



جميع الحقوق محفوظة

مَدِينَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ

بَنِي إِسْرَائِيلَ

السنة ١٩١٥
العدد ١٢٣



مَدِينَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ



تعريف بالكتاب

بقلم حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر

الشيخ محمد مصطفى المراغى

منذ وُجد الانسان على الأرض وهو مشوق إلى تعرف ما فى الكون المحيط به من سنن وخصائص . وكلما أعمق فى المعرفة ظهرت له عظمة الكون أكثر من ذى قبل ، وظهر له ضعفه وتضائل غروره . ونبي الاسلام صلوات الله عليه شبيه بالوجود . فقد جد العلماء منذ أشرقت الأرض بنوره يتلستون نواحي العظمة الانسانية فيه . ويتلستون مظاهر أسماء الله جلّت قدرته فى عقله وخلقه وعلوه . ومع أنهم استطاعوا الوصول إلى شىء من المعرفة ، فقد فاتهم حتى الآن كمال المعرفة ؛ وأمامهم جهاد طويل وبعُد شاسع وطريق لا نهاية له .

والنبوة هبة الله لا تُنال بالكسب ؛ لكن حكمة الله وعلوه قاضيان بأن تمنح للمستعد لها ، والقادر على حملها . الله أعلم حيث يجعل رسالته . ومحمد صلى الله عليه وسلم أعدّ لأن يحمل الرسالة للعالم أجمعه ، أحمره وأسوده ، إنسه وجنّه ؛ وأعدّ لأن يجعل أكمل رسالة وأكمل دين ؛ ولأن يتختم به الأنبياء والرسل ؛ وليكون شمس الهداية وحده إلى أن تنفطر السماء وتتكدر النجوم وتُبدل الارض غير الارض والسموات .

عصمة الأنبياء فى التبليغ وأداء أمانة الوحي قضية فرغ العلماء منها ؛ فليس للأنبياء فضل الاختيار فى التبليغ وأداء الأمانة بعد طبعهم بخاتم النبوة واختيارهم لها . وهذا التبليغ نتيجة حتمية للنبوة لا مرّة لها . غير أن الوحي لا يلزم الأنبياء فى كل عمل يصدر عنهم وفى كل قول يبدر منهم ؛ فهم عرضة

للخطأ ، يمتازون عن سائر البشر بأن الله لا يقرهم على الخطأ بعد صدوره .
 وإعتابهم عليه أحياناً .
 أمر محمد صلى الله عليه وسلم بأن يبلغ عن ربه ، ولم تبين له الطرق التي
 يتبعها في التبليغ وفي حماية الدعوة ، وترك له أن يتصرف بعقله وعلمه وفطنته
 كما يتصرف غيره من العلماء والعقلاء . وجاء الوحي مفصلاً قاطعاً في كل
 ما يخص ذات الاله ووحده وصفاته وكيفية عبادته : ولم يكن كذلك فيما
 يخص النظم الاجتماعية للأسرة والقرية والمدينة والدولة مسردة ومرتبطة
 بغيرها من الدول . فهناك مجال واسع للبحث عن عظمة النبي صلى الله عليه وسلم
 قبل الوحي ، وهناك مدى فسيح للبحث عن تلك العظمة بعد الوحي ؛ فقد صار
 مبدئاً عن ربه داعياً اليه . حامياً لتلك الدعوة وللحرية الداعين . مدافعاً عنهم :
 وأصبح حاكم الأمة الاسلامية وقائد حربها ومفتيها وقاضيها ومنظم جميع
 الصلات والروابط فيها ، وبينها وبين غيرها من الأمم . وقد أقام العدل في ذلك
 كله ، وألّف بين أمم وطوائف ما كان العقل يسبح إمكان التأليف بينها ؛ وظهرت
 الحكمة والرصانة وبُعْد النظر وكِمال الفطنة وسرعة الخاطر وقوة الحزم في
 كل ما صدر عنه من قول أو فعل . وتفجرت منه ينابيع العلم والمعرفة ، وينابيع
 البلاغة التي يطأطيء البلغاء رموسهم أمامها إجلالاً وهيبة : وفارق الدنيا وهو
 راض عن عمله مرضى عنه من الله ومن المسلمين .

كل هذه النواحي تستحق الدرس والتخصص ، وليس في مقدور
 شخص واحد أن يفهمها حقها ، بل ليس في مكنة شخص واحد أن يوفى على
 الغاية في ناحية من هذه النواحي .

وسيرة محمد صلوات الله عليه وعلى آله كسائر سير العظام أضيف إليها
 ما ليس منها ، إما عن حب وهوى وحسن قصد ، وإما عن سوء قصد وحققد .
 غير أنها تمتاز عن سير العظام جميعهم بأن منها شيئاً كثيراً ضمته الوحي الالهي

مؤلفه العلامة السيد محمد باقر الخليلي
 مؤلفه العلامة السيد محمد باقر الخليلي

المجلد الثاني
 الجزء الأول - الصفحات ١٠٠ - ١١٠

وضمن حفظه القرآن المطهر ، وشيئاً كثيراً روى على لسان الحفاظ الثقات من المحدثين . وعلى هذه الأسس الصحيحة يجب أن تبنى السيرة وأن يستبطن العلماء منها حكمها وأسرارها ودقائقها ، وأن تحلل التحليل العليّ الزيه ملاحظاً في ذلك ظروف الوسط وحال البيئته ونواحيها المختلفة من عقائد ونظم وعاد . وقد أخرج الدكتور هيكل للناس كتابه (حياة محمد) في سيرة محمد صلى الله عليه وسلم ، ويسر لي أن أطلع على جزء منه قبل إتمام طبعه . والدكتور هيكل معروف لقراء اللغة العربية غنى بآثاره فيها عن التعريف . وقد درس القانون واطلع على المنطق والفلسفة ، ومكنته ظروفه وطبيعة عمله من الاتصال بالثقافة القديمة والثقافة الحديثة وأوفى منها على حظ عظيم ، وناظرَ وجادل وهجم ودافع في المعتقدات والآراء وقواعد الاجتماع وفي السياسة وغيرها ، فضج عقله وكمل علمه واتسع اطلاعه وامتد أفقه ، فأصبح ينازع عن آرائه بمنطق قوى وحجج باهرة وأسلوب اختص به لا تخفى نسبته إليه . بهذه الثقافة وهذه القوة نسج الدكتور كتابه وقال في مقدمته : « لست مع ذلك أحسب أني أوفيت على الغاية من البحث في حياة محمد ؛ بل لعلني أكون أذني إلى الحق إذا ذكرت أني بدأت هذا البحث في العربية على الطريقة الحديثة . وقد تأخذ القارئ الدهشة إذا ذكرت ما بين دعوة محمد والطريقة العلمية الحديثة من شبه قوى . فهذه الطريقة العلمية تقتضيك إذا أردت بحثاً أن تمحو من نفسك كل رأي وكل عقيدة سابقة في هذا البحث ، وأن تبدأ بالملاحظة والتجربة ثم بالموازنة والترتيب ثم بالاستنباط القاسم على هذه المقدمات العلمية . فاذا وصلت إلى نتيجة من ذلك كله كانت نتيجة علمية خاضعة بطبيعة الحال للبحث والتمحيص ، ولكنها تظل علمية مالم يثبت البحث العلمي تسرباً ، الخطأ إلى ناحية من نواحيها . وهذه الطريقة العلمية هي أسمى ما وصلت إليه الانسانية في سبيل تحرير الفكر ، وهماهي ذى مع ذلك طريقة محمد وأساس ادعوته . »

أما أن هذه الطريقة طريقة القرآن فذلك حق لا ريب فيه : فقد جعل العقل حكماً والبرهان أساس العلم ، وعاب التقليد وذمَّ المقلدين ، وأنبَّ من يتبع الظن وقال : « إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا » ، وعاب تقديس ما عليه الآباء ، وفرض الدعوة بالحكمة لمن يفقهها . ولم تكن معجزة محمد صلى الله عليه وسلم القاهرة إلا في القرآن وهي معجزة عقلية . وما أبدع قول البوصيري :

لم يمتحننا بما تعيا العقول به حرصاً علينا فلم نرتب ولم نهم
وأما أن هذه الطريقة حديثة فهذا ما يعتذر عنه . وقد سائر الدكتور غيره من العلماء في هذا . ذلك لأنها طريقة القرآن كما اعترف هو ، ولأنها طريقة علماء سلف المسلمين . انظر كتب الكلام ترهم يقررون أن أول واجب على المكلف معرفة الله ، فيقول آخرون : لا . إن أول واجب هو الشك . ثم إنه لا طريق للمعرفة إلا البرهان . وهو وإن كان نوعاً من أنواع القياس إلا أنه يجب أن تكون مقدماته قطعية حسنة ، أو منتهية إلى الحس ، أو مدركة بالبداية ، أو معتمدة على التجربة الكاملة أو الاستقراء التام ، على ما هو معروف في المنطق . وكل خطأ يتسرب إلى إحدى المقدمات أو إلى شكل التأليف مفسد للبرهان .

وقد جرى الامام الغزالي على الطريقة نفسها . وقد قرر في أحد كتبه أنه جرد نفسه من جميع الآراء ثم فكر ، وقدر ، ورتب ، ووازن ، وقرب ، وباعد ، وعرض الأدلة وهذبها وحلها ثم اهتدى بعد ذلك كله إلى أن الاسلام حق والى ما اهتدى اليه من الآراء . وقد فعل هذا ليجافي التقليد ، وليكون إيمانه إيمان المستفيق المعتمد على الدليل والبرهان ؛ ذلك الإيمان الذي لا يختلف المسلمون في صحته ونجاة صاحبه .

وأنت واجد في كتب الكلام في مواضع كثيرة حكاية تجريد النفس

عما ألفته من العقائد ثم البحث والنظر . فطريق التجريد طريق قديم ، وطريق التجربة والاستقراء طريق قديم ، والتجربة والاستقراء التام وليدا الملاحظة ، فليس هناك جديد عندنا . ولكن هذه الطريقة القديمة بعد أن نسيت في التطبيق العلمي والعمل في الشرق ، وبعد أن فشا التقليد وأهدر العقل ، وبعد أن أبرزها الغربيون في ثوب ناصع وأفادوا منها في العلم والعمل ، رجعتنا نأخذها عنهم ونراها طريقة في العلم جديدة .

هذا القانون العلمي في البحث معروف قديماً وحديثاً . والمعرفة سهلة ولكن العمل عسير . ولا يتفاوت الناس كثيراً في معرفة القانون ولكنهم يتفاوتون جداً التفاوت في تطبيق القانون .

تجريد النفس والملاحظة والتجربة والموازنة والاستنباط كلمات سهلة ؛ لكن الانسان الرازح تحت أحمال الوراثة في دمه وعقله ، وأحمال البيئة في البيت والقرية والمدينة والدولة والمدرسة ، وأحمال المعتقدات والمزاج والصحة والمرض والشهوات ، كيف يسهل عليه تطبيق القانون ! . هذا موضع الداء قديماً وحديثاً ؛ وهو سبب تعدد المذاهب والآراء وسبب تبدلها وتقلبها من قطر إلى قطر ومن أمة إلى أمة . والفلسفة والآداب تبدل ثيابها على تعاقب الأجيال كما تبدل النساء أزياءها ، وقل أن تجد فيها شيئاً يصونه حرز أو يقيه حصن ؛ بل سرى التبدل إلى قواعد العلم التي لم تكن طوال الأجيال الماضية موضعاً للشك . ونظرية النسبية اضطرب لها العلماء وسرعان ما قام من يهدمها والآراء في الأمراض وأسبابها وطرق علاجها وفي التغذية لانزاع مطيعة للتبدل والتحول . وهكذا إذا أنعمنا النظر لانجد أماناً لما أتجه العقل وحده إلا ما كان البرهان بشروطه متوافراً فيه . ولكن مناسبة هذه الأشياء التي يتوافر فيها البرهان إلى غيرها بما تمليه الظنون وتسطره الأوهام ، وتمتجه الأذهان المريضة ، وتفرضه السياسة ، ويبدعه العلماء الذين يجدون كل اللذة في مخالفة

غيرهم وإحداث هذه المذاهب والآراء . ولعل هذه الحيرة ستخفف غلواء العلماء المعتزين بالعقل وحده وتلويهم يوماً من الأيام إلى الدخول في حضي الحق وحصن اليقين ، وهو الوحي الصادق ، وهو القرآن الكريم والسنة الصحيحة المطهرة .

نعود بعد هذا إلى الدكتور هيكل وكتابه :

يقول بعض علماء الكلام إن الاطلاع على علم تشريح الأفلاك وعلم تشريح الانسان يدلّ أوضح الدلالة على شمول العلم الالهي لدقائق الوجود . وأنا أقرر أيضاً أن العلم والكشف عن سنن الوجود وعجائبه سيكون نصير الدين، وسيقرب إلى العقل الانساني طريق فهم ما كان غامضاً مبهماً ، وما كان فوق طاقة العقل إدراكه من قبل ، مصداقاً لقوله تعالى : **سَتَرْنَاهُمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَلْتَمِسْنَ لَهُمُ أَنَّ الْحَقَّ ، أَوْلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . . والكهرباء وما نشأ عنها من المخترعات قربت إلى العقل فهم إمكان تحول المادة إلى قوة وتحول القوة إلى مادة . وعلم استحضار الأرواح فسر للناس شيئاً كثيراً مما كانوا فيه يختلفون ، وأعان على فهم تجرد الروح وإمكان انفصالها وفهم ما تستطيعه من السرعة في طي الأبعاد . وقد انتفع الدكتور هيكل بشيء من هذا في تقريب قصة الاسراء فأتى بشيء طريف .**

ويطول بي القول إذا أنا عرضت لما في كتاب الدكتور هيكل من حسنات . وحسبي أن أُنْبَهَ إلى تلك الحسنات إجمالاً ، وسيدرك الناس جماله بأنفسهم ويستمتعون بلذة تواج الفكر تهديه الأسانيد الصحيحة ، ويهديه المنطق الدقيق تسعده الفطرة الصادقة . وسيرون أن الدكتور كان مخلصاً الاخلاص كله للحقيقة ، عامر القلب بما في الوحي المحمدي من هدى ونور ، وبما في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم من جمال وجلال وعظمة وعبرة ، مطمئناً كل الاطمئنان إلى أن هذا الدين المحمدي سينقذ البشر مما هم فيه من

الحيرة ، وينشلهم من ظلمة المادة ، ويصرهم بنور الايمان ، ويوجههم إلى النور الالهي ، فيدركون به سعة رحمته التي وسعت كل شيء ، وعظمة مجده الذي تسبح به السموات والأرض وكل شيء فيهما ، وعزته التي تتضام أمامها الموجودات . ألا تراه يقول : « وأذهب أبعدهما تقدم فأقول إن هذا البحث جدير بأن يهدى الانسانية طريقها الى الحضارة الجديدة التي تلتبسها . وإذا كانت نصرانية الغرب تستكبر أن تجدد النور الجديد في الاسلام ورسوله وتلتبس هذا النور في « ثيوزوفية الهند ، وفي مختلف مذاهب الشرق الأقصى فان رجال هذا الشرق من المسلمين واليهود والنصارى خليقون بان يقوموا بهذه البحوث الجليلة بالنزاهة والانصاف للذين يكفلان وحدهما الوصول إلى الحق . فالتفكير الاسلامي على أنه تفكير علمي على الطريقة الحديثة في صلة الانسان بالحياة المحيطة به ، وهو من هذه الناحية واقعي بحت ، ينقلب تفكيراً ذاتياً حين يتصل الأمر بصلات الانسان بالكون وخالق الكون . » . ويقول : « لكن طلائع القضاء على الوثنية التي تتحكم في عالمنا الحاضر وتوجه الحضارة الحاكمة فيه تبدو واضحة لكل من يتتبع سير العالم وأحداثه . فلعل هذه الطلائع تتواتر وتقوى دلالتها إذا انجلت أمام العالم تلك المسائل الروحية بالتخصص لدراسة حياة محمد وتعاليمه وعصره والثورة الروحية التي انتشرت في العالم كأثر من آثاره . » .

وهذا الاطمئنان يؤيده الواقع : فان ما يرى الآن من عناية الغرب ببحث آثار الشرق ومن عناية علمائه بدراسة الاسلام من نواحيه المختلفة ودراسة تاريخه وأمنه قديماً وحديثاً ، ومن إنصاف بعضهم للنبي صلى الله عليه وسلم ، وما أيدته التجارب من أن الحق لا محالة غالب ؛ كل ذلك يرشدنا إلى أن الاسلام سينشر لواءه على العالم وسيكون أشد الناس عداوة له اليوم هم أشد الناس غيرة عليه ودفاعاً عنه ، وسيكون هؤلاء الغرباء عنه هم أنصاره وأهله .

وكما نصره أول أمره الغرباء عن البيئة التي نشأ فيها، فسينصره آخر الأمر الغرباء عن لغته ووطنه. وقد بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء. وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم خاتم الانبياء وليس للعالم بعده هادٍ ومرشد، وكان دينه أكمل دين بنص الوحي القاطع، فلا يمكن أن يقف أمره على ما هو عليه الآن، ولا بد أن يمحو نوره نور غيره كما تمحو الشمس أضواء غيرها من الكواكب.

وقد وفق الدكتور في تنسيق الحوادث وربط بعضها ببعض فجاء، كتابه عقداً منضداً وسلسلة متينة محكمة الحلقات. وقد أبدع في بيان الأسباب والأغراض والحكم بياناً قوياً واضحاً يجعل القارئ مطمئن النفس رضى القلب يستمتع بما يقرأ ويلج صدره ببرد اليقين، فيملك عليه أمره، ويجبره على متابعة القراءة حتى يوفى على آخر ما بيده من البحث.

وفي الكتاب بحوث قيمة ليست من السيرة ولكنها اتصلت بها بسبب الأسباب في بيان أغراضها.

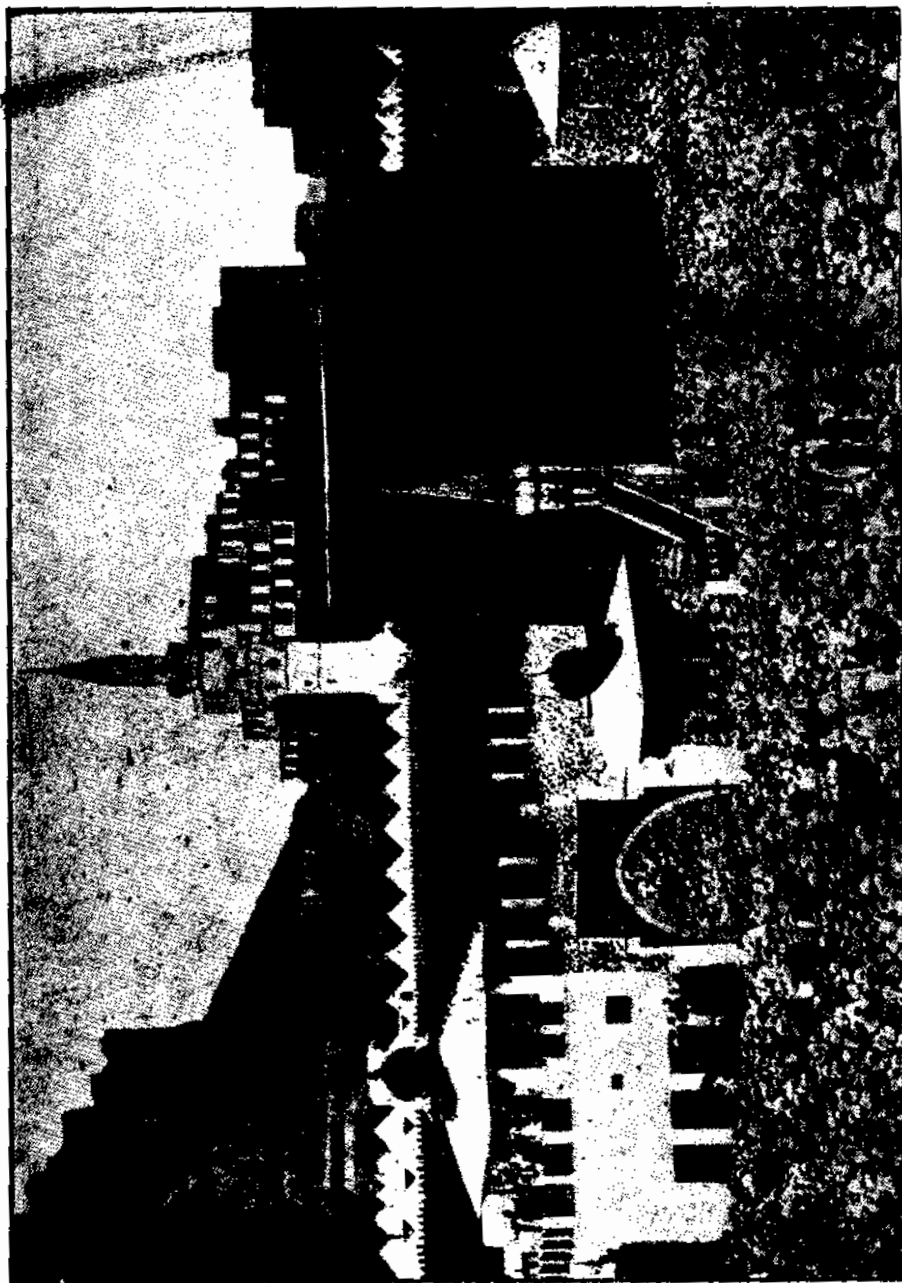
وأختم كلمتي هذه بقول سيد الخلق صلوات الله عليه وعلى آله الأطهار ومن اتبعه: «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل على غضبك أو تحل على سخطك، لك العتي حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بالله».

محمد مصطفى المراغى

١٥ فبراير سنة ١٩٣٥

للمؤلف

سنة	
١٩٣٣	ثورة الأدب
١٩٣١	ولدى
١٩٢٩	تراجم
١٩٢٧	عشرة أيام في السودان
١٩٢٥	في أوقات الفراغ
١٩٢٣ } ١٩٢١ }	جان جاك روسو
١٩١٤	زينب
١٩١٢	دين مصر العام — بالفرنسية



الكمية المكرمة

للعمراء

الى الذين يتقون الله لوجهه الكريم

محمد بن علي

مجلد المراجع

المراجع العربية

القرآن الكريم

كتب الحديث

تفسير الطبري جامع البيان في تفسير القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري - (مطبعة بولاق الأميرية سنة ١٣٢٩ هـ)

أسباب النزول، لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدى النيسابورى، وبهامشه الناسخ والمنسوخ، لأبي القاسم هبة الله بن سلامة أبى النصر (مطبعة هندية سنة ١٣١٥ هـ)

زاد المعاد فى هدى خير العباد، لشمس الدين أبى عبد الله الدمشقى المعروف بابن القيم الجوزى (المطبعة اليمنية بمصر سنة ١٣٢٤ هـ)

سيرة سيدنا محمد رسول الله، المعروفة بسيرة ابن هشام، لأبى محمد عبد الملك بن هشام (طبعة جتنجن سنة ١٢٧٥ هـ بعناية المستشرق وستنفلد) الطبقات الكبرى، لمحمد بن سعد كاتب الواقدى (بمطبعة برلن بليدين سنة ١٣٢٢ - عنى بطبعه وتصحيحه إدورڈ كنجو Imp. Brill. Leiden)

الغازى، لأبى عبد الله محمد بن عمر الواقدى (طبعة البعثة الممعدانية المسيحية بكلكتا ١٨٥٥ م)

تاريخ الرسل والملوك، لأبى جعفر محمد بن جرير الطبري (مطبعة برلن بليدين عنى به بارث وأندكى)

المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، لأحمد بن محمد بن أبى بكر الخطيب القسطلانى (مطبعة شاهين)

الشفاء للقاضي عياض (نسخة خطية بمكتبة جعفر باشا ولي)
الأصنام للكلي (مطبعة دار الكتب المصرية)
الاعلام بأعلام بيت الله الحرام ، لقطب الدين النهروالي (مطبعة
بز كهاوسن بليزج)
أخبار مكة ، لأبي الوليد محمد بن عبد الله بن احمد الأزرقى (مطبعة
بز كهاوسن بليزج Brockhaus, Leipzig)
فجر الاسلام ، للأستاذ أحمد أمين
فى الأدب الجاهلى . للدكتور طه حسين
قصص الأنبياء ، للأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار
الوحى المحمدى ، للسيد محمد رشيد رضا صاحب المنار
تفسير الفاتحة ومشكلات القرآن عن الشيخ محمد عبده
الرحلة الحجازية ، لمحمد بك ليب البتانوفى
اليهود فى بلاد العرب ، للدكتور اسرائيل ولفنسون
محمد المثل الكامل ، للأستاذ محمد أحمد جاد المولى
دائرة معارف القرن العشرين ، للسيد محمد فريد وجدى

المراجع الأجنبية

- The Spirit of Islam by SAYED AMEER ALY.
Life of Mahomet by WASHINGTON IRVING.
Life of Mohammad by Sir WILLIAM MUIR.
Heroes and Hero Worship by THOMAS CARLYLE.
La Vie de Mahomet par EMILE DERMENGHEM.
Essai sur l'histoire des Arabes par CAUSSIN DE PERCEVAL.
L'Islam par LAMMENS.
Les Grands Irités par EDOUARD SCHURÉ.
Dictionnaire Larousse Art. Mahomet.
Encyclopædia Britannica Art. Mahomet.
Historian's History of the World.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ
نَسْتَعِينُ * أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ
* صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ
غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ *

تقديم الكتاب

محمد عليه الصلاة والسلام :

بهذا الاسم الكريم تنطق ملايين الشفاه ، وله تهتز ملايين القلوب كل يوم مرات . وهذه الشفاه والقلوب به تنطق وله تهتز منذ أربعمائة وألف سنة لإلخمين . وبهذا الاسم الكريم ستنطق ملايين الشفاه وتهتز ملايين القلوب إلى يوم الدين . فاذا كان الفجر من كل يوم وتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، أهاب المؤذن بالناس إن الصلاة خير من النوم ، ودعاهم إلى السجود لله والصلاة على رسوله ، فاستجاب له الألوف والملايين في مختلف أنحاء المعمورة يحيون بالصلاة رحمة الله وفضله متجئتين في مطلع كل نهار . وإذا كانت الظهيرة وزالت الشمس أهاب المؤذن بالناس لصلاة الظهر ، ثم لصلوات العصر فالمغرب فالعشاء . وفي كل واحدة من هذه الصلوات يذكر المسلمون محمداً عبد الله ونبية ورسوله في ضراعة وخشية وإنابة . وهم فيما بين الصلوات الخس ما يكادون يسمعون اسمه حتى تجف قلوبهم بذكر الله وبذكر مصطفىاه . كذلك كانوا وكذلك سيكونون . حتى يظهر الله الدين القيم ويتم نعمته على الناس أجمعين .

الأمير الطورية
الاسلامية
الأولى

ولم يك محمد بحاجة إلى زمان طويل ليظهر دينه ولينتشر في الخافقين لوائه ، فقد أكمل الله للسلمين دينهم قبيل وفاته . ويومئذ وضع هو خطة انتشار الدين : فبعث إلى كسرى وإلى هرقل كي يسلموا . ولم تمض خمسون

ومائة سنة من بعد ذلك حتى كان علم الاسلام خفّاقاً ما بين الأندلس في غرب أوروبا إلى الهند وإلى التركستان وإلى الصين في شرق آسيا . وحتى كانت الشام والعراق وفارس وأفغانستان قد أسلمت كلها واصلة ما بين بلاد العرب ومملكة ابن السّام . وكانت مصر وبرقة وتونس والجزائر ومراً كُش قد وصلت ما بين أوروبا وإفريقية ومبعث محمد عليه السلام . ومن يومئذ إلى يومنا هذا بقيت راية الاسلام عالية في هذه الربوع جميعاً خلا الأندلس التي أغارت النصرانية عليها فعذّبت أهلها وأذاقهم من ألوان الشدة والبأس . حتى لم يطيقوا صبراً على الحياة فعادوا إلى إفريقية وارتد من ارتد منهم هولاً وفزعاً عن دينه ودين أبيه إلى دين العنّاة المعذّبين .

على أن ما خسره الاسلام في الأندلس من غرب أوروبا كان له عنه العوض حين فتح العثمانيون القسطنطينية ومكّنوا الدين محمد فيها ، فاستشرى في البلقان كلها وانبجج نوره في روسيا وفي بولونيا وخفقت أعلامه في أضعاف ما كانت تحفّق من أرض أسبانيا . ومن يوم انتشر الاسلام في صولته الأولى إلى يومنا لم تغلب عليه من الأديان متغلب . وإن تغلبت على أمه من شدائد الظلم وألوان التحكم ما جعلها أشد بالله ايماناً ، ولحكمة إسلاماً ، وفي رحمته وفي غفرانه أملاً ورجاء .

هذه القوة التي انتشر الاسلام بها سرعان ما جعلته يقف وجهاً لوجه أمام المسيحية وقفة نضال مستميت . لقد تغلب محمد على الوثنية ومحا من بلاد العرب كما محا خلفاؤه الأولون من بلاد الفرس والأفغان وطائفة كبيرة من بلاد الهند أثرها . ولقد تغلب خلفاء محمد على المسيحية في الجزيرة واليمن والشام ومصر الى مهد المسيحية في رومية وفي مدينة قسطنطين . أقدّر للمسيحية ما قدّر للوثنية وهي دين كتاب من الأديان التي أشاد بها محمد ووضع صاحبها في مصاف الانبياء ؟ وهل قدّر لهؤلاء العرب ، عرب البادية الزاحفين من

الاسلام
والمسيحية

شبه الجزيرة الصحراوية القاحلة ، أن يضعوا يدهم على حداق الأندلس ورومية
وسائر بلاد المسيحية ؟ الموت ولا هذا ! واستعر القتال بين أتباع عيسى وأتباع
محمد قروناً وقروناً متتالية . ولم يقف القتال عند حرب الأستة والمدافع ، بل
انتقل كذلك إلى ميادين الجدل والنضال الكلامي ، جاء المتقاتلون فيها بأسماء
محمد وعيسى ، وجعل كل فريق من انتقاص رسول الفريق الآخر وسيلة
لتأليب السواد واستثارة حماسة الجماهير وتعصُّبها .

المسلمون
وعيسى

على أن الاسلام حال بين المسلمين وبين الخط من مقام عيسى . إنه
عبد الله آتاه الكتاب وجعله نبيا وجعله مباركا أينما كان وأوصاه بالصلاة
والزكاة ما دام حيا . وبرا بوالدته ولم يكن جبارا شقيا ، فسلام عليه يوم وُلد
ويوم يموت ويوم يُبعث حيا . أما المسيحيون فقد جعل الكثيرون منهم
التعريض بمحمد ونعته بأوصاف يبرأ منها معروف الرجال ، شفاء لما في
نفوسهم من غل ، واستفزازاً وحفزاً للشهوات ثلث الناس الدنيا . ورغم ما وضعت
الحروب الصليبية أوزارها منذ مئات السنين فقد ظل تعصب الكنيسة المسيحية
ضد محمد على أشده إلى عصور قريبة . ولعله كذلك ما يزال إن لم يك أشد .
وإن يك خفياً يعمل في ظلمات التبشير بالدون من الوسائل . ولم يقف الأمر
عند الكنيسة بل تعداها إلى كتاب وفلاسفة في أوروبا وفي أمريكا لم تك
تصلهم بالكنيسة صلة تذكر .

ولقد يعجب الانسان أن يظن تعصب المسيحية على الاسلام بهذه الشدة
في عصر زُعم أنه عصر النور والعلم . وأنه لذلك عصر التسامح وسعة الأفق .
ويزداد الانسان عجباً حين يذكر المسلمين الأولين وكيف كانت اغتباطهم
بانتصار المسيحية على الجوسية عظيماً حين اقتحمت جيوش هرقل أرض
فارس وكسرت عسكر كسرى . فقد كانت فارس صاحبة النفوذ في جنوب
شبه جزيرة العرب منذ طرد كسرى الأحباش من اليمن . ثم إن كسرى

وجهه جيوشه - في سنة ٦١٤ ميلادية - تحت إمرة قائد من قواده يدعى
 بشهرَ بَرَّاز لغزو الروم ، فظهر عليهم حين التقى بهم بأذرعَات وبُصْرَى ، أدنى
 الشام إلى أرض العرب ، فقتلهم وخرَّب مدائنهم وقطع زيتونهم . وكان
 العرب وكان أهل مكة يتتبعون أخبار هذه الحرب بتلهف وشغف ، أن كانت
 القوتان المتناحرتان أكبر ما تعرف أمم الأرض يومئذ . وأن كانت في جوار
 بلاد العرب التي تخضع بعض أجزاءها لفارس وتناخم الروم بعض أجزاءها
 الأخرى . وسميت كفار مكة بالمسيحيين وفرحوا لهزيمتهم ، لأنهم أهل
 كتاب كالمسلمين . وحاولوا أن ياصقوا بدينهم عار اندحارهم . أما المسلمون
 فشق عليهم أمر الروم وهم أهل كتاب مثلهم . فكان محمد وأصحابه يكرهون
 أن يظهر المجوس عليهم . وأدى هذا الخلاف بين مسلمي مكة وكفارها إلى
 تآدر الفريقين وإلى تبهم الكفار بالمسلمين ، حتى أبدى أحدهم من السرور
 أمام أبي بكر ما غاظه ودفعه إلى أن يقول : لا تعجل بالمسرة ، فسيأخذ الروم
 بثأرهم . وأبو بكر معروف بالهدوء ووداعة النفس . فلما سمع الكافر قوله
 أجابه متهمًا : كذبت . فغضب أبو بكر وقال : كذبت أنت يا عدو الله ، وهذا
 رهان عشر جمال أن ستغلب الروم المجوس قبل عام . وعرف محمد أمر هذا
 الرهان فنصح إلى أبي بكر أن يزيد في الرهان وأن يطيل المدة . وزاد أبو بكر
 في الرهان إلى مائة بعير إن هُزمت الفرس قبل تسع سنين . واتصر هرقل
 سنة ٦٢٥ م وهزم فارس واسترد منها الشام واستعاد الصليب الأكبر وكسب
 أبو بكر رهانه . وفي النبوة بهذا النصر نزل قوله تعالى في صدر سورة الروم :
 « الْم . غَلَبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ .
 فِي بِضْعِ سِنِينَ . لِيهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ
 بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ . وَعِنْدَ اللَّهِ لَا يُخْلَفُ
 اللَّهُ وَعِنْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ، .

هذا غير صحيح ويطلب
 أكبر نبوة قرآنيه
 فهو انتمال المنافقين
 حسب الكهنة

شبه الجزيرة الصحراوية القاحلة . أن يضعوا أيديهم على حدائق الأندلس ورومية
وسائر بلاد المسيحية ؟ الموت ولا هذا ! واستعر القتال بين أتباع عيسى وأتباع
محمد قروناً وقروناً متتالية . ولم يقف القتال عند حرب الأستنة والمدافع ، بل
انتقل كذلك إلى ميادين الجدل والنضال الكلامي ، جاء المتقاتلون فيها بأسماء
محمد وعيسى ، وجعل كل فريق من اتقاص رسول الفريق الآخر وسيلة
لتأليب السواد واستثارة حماسة الجماهير وتعصبا .

السنين
وعيسى

على أن الاسلام حال بين المسلمين وبين الخط من مقام عيسى . إنه
عبد الله آتاه الكتاب وجعله نبيا وجعله مباركا أينما كان وأوصاه بالصلاة
والزكاة مادام حيا . وبراً بوالديه ولم يكن جباراً شقياً ، فسلام عليه يوم وُلد
ويوم يموت ويوم يُبعث حيا . أما المسيحيون فقد جعل الكثيرون منهم
التعريض بمحمد ونعته بأوصاف يبرأ منها معروف الرجال ، شفاء لما في
نفوسهم من غل . واستفزازاً وحفزاً لشهوات الناس الدنيا . وبرغم ما وضعت
الحروب الصليبية أوزارها منذ مئات السنين فقد ظل تعصب الكنيسة المسيحية
ضد محمد على أشده إلى عصور قريبة . ولعله كذلك ما يزال إن لم يك أشد .
وإن يك خفياً يعمد في ظلمات التبشير بالدون من الوسائل . ولم يقف الأمر
عند الكنيسة بل تعداها إلى كتاب وفلاسفة في أوروبا وفي أمريكا لم تك
تصلهم بالكنيسة صلة تذكر .

ولقد يعجب الانسان أن يظل تعصب المسيحية على الاسلام بهذه الشدة
في عصر زُعم أنه عصر النور والعلم . وأنه لذلك عصر التسامح وسعة الأفق .
ويزداد الانسان عجباً حين يذكر المسلمين الأوائل وكيف كان اغتباطهم
بانتصار المسيحية على المجوسية عظيماً حين اقتحمت جيوش هرقل أرض
فارس وكسرت عسكر كسرى . فقد كانت فارس صاحبة النفوذ في جنوب
شبه جزيرة العرب منذ طرد كسرى الأحباش من اليمن . ثم إن كسرى

وجه جوشه — في سنة ٦١٤ ميلادية — تحت إمرة قائد من قواده يدعى
 شهزبراز لغزو الروم ، فظهر عليهم حين التقى بهم بأذرعَات وبُصْرَى ، أذنى
 الشام إلى أرض العرب ، فقتلهم وخرّب مدائنهم وقطع زيتونهم . وكان
 العرب وكان أهل مكة يتبعون أخبار هذه الحرب بتلهف وشغف ، أن كانت
 القوتان المتناحرتان أكبر ما تعرف أمم الأرض يومئذ . وأن كانت في جوار
 بلاد العرب التي تخضع بعض أجزاءها لفارس وتناخِ الروم بعض أجزاءها
 الأخرى . وسميت كفار مكة بالمسيحيين وفرحوا لهزيمتهم ، لأنهم أهل
 كتاب كالمسلمين . وحاولوا أن ياصقوا بدينهم عار اندحارهم . أما المسلمون
 فشق عليهم أمر الروم وهم أهل كتاب مثلهم ، فكان محمد وأصحابه يكرهون
 أن يظهر المجوس عليهم . وأدى هذا الخلاف بين مسلمي مكة وكفارها إلى
 تآدر الفريقين وإلى تهكم الكفار بالمسلمين ، حتى أبدى أحدهم من السرور
 أمام أبي بكر ما غاظه ودفعه إلى أن يقول : لا تعجل بالمسرة ، فسيأخذ الروم
 بثأرهم . وأبو بكر معروف بالهدوء ووداعة النفس . فلما سمع الكافر قوله
 أجابه متهمًا : كذبت . فغضب أبو بكر وقال : كذبت أنت يا عدو الله ، وهذا
 رهان عشر جمال أن ستغلب الروم المجوس قبل عام . وعرف محمد أمر هذا
 الرهان فنصح إلى أبي بكر أن يزيد في الرهان وأن يطيل المدة . وزاد أبو بكر
 في الرهان إلى مائة بعير إن هُزمت الفرس قبل تسع سنين . وانتصر هرقل
 سنة ٦٢٥ م وهزم فارس واسترد منها الشام واستعاد الصليب الأكبر وكسب
 أبو بكر رهانه . وفي النبوءة بهذا النصر نزل قوله تعالى في صدر سورة الروم :
 « أَلَمْ نَغْلِبِ الرُّومَ . فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ .
 فِي بِضْعِ سِنِينَ . لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ
 بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ . وَعِنْدَ اللَّهِ لَا يُخْلَفُ
 اللَّهُ وَعِنْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » .

هذا غير صحيح ويبتل
 أكبر نبوءة قرآنيه
 تصور احتمال المنافقين
 هيب الكهنه

المبادئ
الأولية
في الدين

هنا رسالتي في الدين

كان اغتباط المسلمين يومئذ بانتصار هرقل والنصارى عظيماً، وظلت صلة الاخاء بين الذين اتبعوا محمداً والذين آمنوا بعيسى عظيمة طوال حياة النبي برغم ما وقع في غير ظرف بين الفريقين من مجادلة، على خلاف ما كان بين المسلمين واليهود من تهادن أول الأمر ثم عداوة استحرت وكان لها من الآثار والتناجح الدامية ما أجلى اليهود عن شبه جزيرة العرب جميعاً. ومصدق ذلك قوله تعالى: «لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ». ثم إنك لترى الدينين بصوران الحياة والمخلق صورة تكاد تكون واحدة. وهما في تصوير الانسانية ومبدأ خلقها سواء. خلق الله آدم وحواء وأسكنهما الجنة وأوحى إليهما ألا يسعما إلى نزع الشيطان فيأ كلا من الشجرة فيخرجهما من الجنة. والشيطان عدوهما الذي أنى أن يسجد لآدم فيما أوحاه الله لمحمد، والذي أنى أن يقدس كلمة الله على رواية كتب النصارى المقدسة. ووسوس الشيطان لحواء وزين لها، فزينت لآدم فأكلا من شجرة الخلد فبذت لهما سوءاتهما، فاستغفرا ربهما فبعثهما على الأرض بعض ذريتهم لبعض عدو، يفرهم الشيطان فيضل قوم ويقاوم الهلاك آخرون. ولتقوى الانسانية على حرب هذه الغواية بعث الله نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى والنبين، وبعث مع كل رسول كتاباً مصدقاً لما بين يديه. وكما يقوم في صف الشيطان أنصاره من أرواح الشر. تقوم الملائكة تسبح بحمد ربها وتقديس له. وهؤلاء وأولئك يتنازعون أسباب الحياة والكون جميعاً حتى يوم البعث، يوم تُجزى كل نفس بما كسبت ولا يسأل حميم حميماً.

وإنك لتجد في القرآن من ذكر عيسى ومريم وإكرام الله لهما وتقديمه إليهما ما تشعر معه حق الشعور بهذا الاخاء وما يجعلك تتساءل: ما بال

المسلمين والنصارى إذا ظلوا على القرون خصوماً متقاتلين؟ والجواب على سؤالك أن بين الاسلام والنصرانية خلافاً على مسائل أساسية كانت موضع جدل شديد في عهد النبي لم يتعد حدود الجدل إلى العداوة والبغضاء. فالنصرانية تقول بالتثليث، والاسلام ينكر كل ما سوى التوحيد أشد إنكار. والنصارى يؤلهون عيسى ويلتمسون الدليل على ألوهيته في أنه ليس بشراً كالناس، بل تكلم في المهد وأوتى من المعجزات ما لم يؤته غيره مما هو من عمل الخالق جل شأنه. وهم كانوا أيام الاسلام الأولى يحاجون المسلمين في ذلك بالقرآن ويقولون: أو ليس يقر القرآن الذي نزل على محمد رأينا حين يقول: «إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ . وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ . قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرًا . قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ . إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . وَيَعْلَمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ، وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ، أَمَّا قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْنِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ . وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ . وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . » فالقرآن قد ذكر إذاً أنه يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص ويخلق من الطين طيراً ويخبر بالغيب . وكل هذه خصائص إلهية ، هذا رأى نصارى عهد النبي الذين كانوا يحاجونه ويجادلونه ويذهبون إلى أن عيسى إله مع الله . وقد ذهبت طائفة منهم الى تأليه مريم أن ألقى الله اليها بكلمته . وكان أصحاب هذا الرأى من نصارى ذلك العهد يعتبرون مريم ثالث الثلاثة : الأب والابن والروح القدس . ولم يكن أصحاب هذا القول بتأليه عيسى وأمه إلا طائفة من طوائف النصرانية الكثيرة المتفرقة يومئذ شيعاً وأحزاباً .

كان نصارى شبه الجزيرة يجادلون محمداً على اختلافٍ يحلهم على أساس مذاهبهم . فكانوا يقولون إن المسيح هو الله ، ويقولون هو ولد الله . ويقولون هو ثالث ثلاثة . وكان القائلون بألوهيته يحتجون بما سبق بيانه . ويحتج القائلون بأنه ولد الله بأنه لم يكن له أب يُعلم . وأنه تكلم في المهد صبيّاً مما لم يقع لأحد من بنى آدم . ويحتج القائلون بأنه ثالث ثلاثة بأن الله يقول أمرنا وخلقنا وقضينا . ولو كان واحداً لقال أمرت وخلققت وقضيت . وكان محمد يستمع لهم جميعاً ويجادلهم بالتى هى أحسن . وهو لم يكن فى جدالهم يشتد شدته فى جدال المشركين وعباد الأصنام ، بل كان يحاجهم بالوحى من طريق المنطق ومن كتبهم وما جاء فيها . فالله تعالى يقول فى سورة المائدة : « لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ . قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ بْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ، وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا خَلِقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ، بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ ، يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ . » . وقال تعالى : « لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ . وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ . لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثٌ ثَلَاثَةٌ ، وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » وقال جل شأنه : « وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَلَمْ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَّ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ . قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ . إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ . تَعَلَّمْتُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ . مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ، أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ، وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ

شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ ، وَإِنْ تُغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

تقول المسيحية بالتثليث وبأن عيسى ابن الله . والاسلام ينكر إنكاراً صريحاً باتنا أن يكون لله ولد : . قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد . . وما كان لله أن يتخذ ولداً سبحانه . وه إنَّ مَثَلَّ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . . والاسلام دين توحيد في أشد معاني التوحيد صفاء وقوة ، وفي أشد معاني التوحيد بساطة ووضوحاً . كل ما يمكن أن يلقى ظلاً على فكرة التوحيد أو صورته ينكره الاسلام ويراه ككفراً . . إِنْ اللَّهُ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ . . فهما يكن للصورة المسيحية في التثليث من جمال فهي ليست من الحق عند محمد في شيء . إنما الحق هو الله وحده ، وحده لا شريك له . لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . فلا عجب إذا أن تكون بين محمد ونصارى عهده تلك المجادلة بالتي هي أحسن ، وأن يؤيد الوحي محمداً بما تلوت من الآيات .

ومسألة أخرى يختلف فيها الاسلام والنصرانية . وكانت مشار جدل في عهد النبي ، هي مسألة صلب عيسى ليشتري بدمه خطايا الخلق . فالقرآن صريح في نفي أن اليهود قتلوا المسيح أو صلبوه ، إذ يقول في سورة النساء « وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ بْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَسَكُنْ شُبُهَةً لَهُمْ . وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لِنِي شَكٍّ مِنْهُ ، مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ، وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا . بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . » .

ولئن كانت فكرة اقتداء المسيح بدمه خطايا إخوته بنى الانسان جميلة لاريب ويستحق ما كتب فيها دراسة من نواحيه الشعرية والخلقية والنفسية ،

مسألة صلب
المسيح

فان المبدأ الذى قرره الاسلام من أن لا تزر وازرة وزر أخرى وأن كل امرئ يوم القيامة مجزى بأعماله إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، يجعل التقريب المنطقي بين العقيدتين غير ممكن ، ويجعل منطق الاسلام من الدقة بحيث لا تجدى معه محاولات التوفيق مع التناقض الواضح بين فكرة الافتداء وفكرة الجزاء الذاتى « لا يَجْزَى وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا » . هل فكر أحد من نصارى يومئذ في هذا الدين الجديد وفي إمكان التوفيق بين فكرة التوحيد فيه وبين ما جاء به عيسى ؟ نعم ، وآمن به منهم كثيرون . لكن الروم الذين اغتبط المسلمون بتصرهم واعتبروه نصراً للأديان الكتابية ، لم يكلف سادتهم أنفسهم مؤونة البحث في الدين الجديد ، ولم يلبثوا أن نظروا للأمر من ناحيته السياسية وأن فكروا فيما يصيب ملكهم إذا تم للدين الجديد الغلب . لذلك بدءوا يأترون به وبأهله حتى أرسلوا جيشاً عرمرماً عدته مائة ألف في رواية ومائتا ألف في رواية أخرى . مما أدى إلى غزوة تبوك ، انسحب الروم فيها أمام المسلمين الذين خرجوا ومحمد على رأسهم لدفع عدوان لم يكن له ما يسوغه .

من يومئذ وقف المسلمون والنصارى موقف خصومة سياسية حالف النصر فيها المسلمين قروناً متتالية امتدت إمبراطوريتهم أثناءها إلى الأندلس غرباً وإلى الهند والصين شرقاً ، وآمنت أكثر أجزاء هذه الإمبراطورية بالدين الجديد واستقرت فيها لغته العربية . فلما آن لدورة التاريخ أن تدور . طرد النصارى المسلمين من الأندلس وحاربوهم الحروب الصليبية وأخذوا أنفسهم بالطعن أقبح الطعن على دينهم ونبيهم ، طعن كله الفحش والكذب والافتراء . ولقد بلغوا من الطعن على محمد عليه السلام ما بلغ هو في أحاديثه وما بلغ القرآن في الوحي الذى نزل عليه من الارتفاع بعيسى عليه السلام إلى المكان الذى اختاره الله له .

الروم
المسلمون

جاء في مرسوعة لاروس الفرنسية خلال العرض لآراء كتاب المسيحية إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر من نالوا من محمد شر النيل ما يأتي :
« بقي محمد مع ذلك ساحراً ممعناً في فساد الخلق ، لصراً نياق ، كردينا لا لم ينجح في الوصول إلى كرسى البابوية . فاخترع ديناً جديداً لينتقم من زملائه . واستولى القصص الخيالي والملاجن على سيرته . وسيرة باهومييه (محمد) تكاد تقم أدياً من هذا النوع . وقصة محمد التي نشر رينو وفرانسيسك ميشيل سنة ١٨٣١ تصور لنا الفكرة التي كانت لدى أهل العصور الوسطى عنه . وفي القرن السابع عشر نظر بيل في تاريخ أبي القرآن نظرة تاريخية ، مع ذلك ظلت مقررات ظالمة ثابتة في نفسه عنه . على أنه يعترف بالرغم من ذلك بأن النظام الخلق الذي أقام لا يختلف عن النظام المسيحي لولا القصاص وتعدد الزوجات » .

وإن واحداً من المستشرقين الذين عرضوا حياة محمد بشيء من الانصاف — ذلك هو الكاتب الفرنسي إميل در مينجيم — ليدكر من هذا الذي كتب إخوانه في الدين حين قال : « لما نشبت الحرب بين الاسلام والمسيحية اتسعت هوة الخنف وسوء الفهم بطبيعة الحال وازدادت حدة . ويجب أن يعترف الانسان بأن الغربيين كانوا السابقين الى أشد الخلاف . فمن البيزنطيين من أوفروا الاسلام احمقاراً من غير أن يكتفوا أنفسهم — فيما خلا جان داماسين — مؤونة دراسته . ولم يحارب الكتاب والنظامون مسلمي الأندلس إلا بأسخف المثالب . فقد زعموا محمداً لص نياق ، وزعموه متهاكاً على اللهو ، وزعموه ساحراً ، وزعموه رئيس عصابة من قطاع الطرق . بل زعموه قساً رومانياً مغيظاً مُحققاً أن لم ينتخب لكرسى البابوية . . وحسبه بعضهم إلهاً زائفاً يقرب له عباده الضحايا البشرية . وإن جبر دتو جن نفسه ، وهو رجل جد ، ليدكر أن محمداً مات في نوبة سكريين ، وأن جسده وجد ملق على كوم من

الروث وقد أكلت منه الخنازير ، وذلك ليفسر السبب الذي من أجله حرم الخمر
وحرّم لحم ذلك الحيوان ... وذهبت الأغنيات الى حد أن جعلت محمداً صنفاً
من ذهب وجعلت المساجد الاسلامية برابي ملائى بالتماثيل والصور !! وقد
تحدث واضع أغنية أنطاكية حديث من رأى صنم « ماحوم » مصنوعاً من
ذهب ومن فضة خالصين وقد جلس فوق فيل على مقعد من الفسيفساء . أما
أغنية رولان التي تصوّر فرسان شارلمان يحطمون الأوثان الاسلامية فتزعم
أن مسلى الأندلس يعبدون ثلاثاً مكوناً من ترفاجان وماهوم وأبولون .
وتحسب « قصة محمد » أن الاسلام يبيح للمرأة تعدد الأزواج !

« وقد ظلت حياة الأحقاد والخرافات قوية متشبثة بالحياة . فنذرو دلف
دلوهميم إلى وقتنا الحاضر أقام نيكولا دكيز . وفيفس . ومراثى ، وهو تنجر
وبيلياندر وبريدو وغيرهم فوصفوا محمداً بأنه دجال . والاسلام بأنه مجموعة
الهرطقة كلها وأنه من عمل الشيطان . والمسلمين بأنهم وحوش ، والقرآن
بأنه نسيج من السخافات . وقد كانوا يعتذرون عن الحديث الجسد في أمر هذا
مبلغ سخافته . مع ذلك فان نيدر المحترم (فبراير) مؤلف أول رسالة غربية
ضد الاسلام قد ترجم القرآن في القرن الثاني عشر إلى اللاتينية . وفي القرن
الرابع عشر كان نيدر باسكال من الذين توسعوا في الدراسات الاسلامية .
وقد وصف إنوسان الثامن محمداً يوماً بأنه عدو المسيح . أما القرون الوسطى
فلم تكن تحسب محمداً إلا هرطيقاً . وكان لريمون ليون في القرن الرابع عشر ،
ولغليوم بستل في القرن السادس عشر ، ولرولان وجانديه في القرن الثامن
عشر . وللقسيس دبرجلى ولرينان في القرن التاسع عشر أحكام وآراء مختلفة . .
على أن الكونت بولنفلييه وشول وكوسان دبرسفال ودوزى وسبرنجر
وبارتلى ساتلير ودكاسترى وكارليل وغيرهم يظهرون على وجه الاجمال
إنصافاً للاسلام ونيه ويُشيدون في بعض الأحيان بهما . مع ذلك فان دروتى

يتحدث في سنة ١٨٧٦ عن محمد قائلا : « هذا الأعرابي المناق القدر ، كما طعن عليه فوستر من قبل ذلك في سنة ١٨٢٢ . وما يزال للإسلام حتى اليوم محاربون متحمسون . »

أرأيت هذا الخضيض الذي هزت إليه هذه الطائفة من كتب الغرب ؟ أرأيت إصرارهم ، رغم مر القرون ، على الضلال وعلى إثارة العداوة والبغضاء بين أبناء الانسانية ! ومن هؤلاء من جاءوا في العصور التي نسميها عصور العلم والبحث والتفكير الحر وتقدير الاخاء بين الانسان والانسان . ورغم أولئك المنصفين إلى حدٍّ . ممن أشار إليهم درمنجيم ، وهو منهم ، ومنهم من أقر بصدق إيمان محمد بالرسالة التي ألقى الله إليه تبليغها من طريق الوحي ، ومنهم من أشاد بعظمة محمد الروحية وبسمو خلقه ورفعة نفسه وجم فضائله ، ومن صور ذلك في أقوى أسلوب وأروع -- برغم ذلك ما يزال الغرب يوجه للإسلام ونبيه أشد المطاعن . وتبلغ منه الجرأة حتى يبت المبتشرين في أنحاء البلاد الاسلامية يذيعون مثلهم الوضيعة ويحاولون صرف المسلمين عن دينهم إلى المسيحية .

يجب لذلك أن نبحث عن السبب الذي ترجع إليه هذه الخصومة الهوجاء وهذه الحرب العنيفة التي تثيرها المسيحية على الاسلام . وعندنا أن جهل الغرب بحقيقة الاسلام وبسيرة النبي في مقدمة ما يدعو إلى هذه الخصومة . والجهل لا ريب من أعقد أسباب الجود والتعصب وأشدّها استعصاء . ولقد تراكم هذا الجهل على مر القرون وقامت له في نفوس الأجيال تماثيل وأوثان يحتاج تحطيمها إلى قوة روحية كبرى كقوة الاسلام أول ظهوره . على أنا نحسب أن ثمة سبباً غير الجهل قد دفع أهل الغرب إلى هذا التعصب وإلى إثارة الحرب الضروس الشعواء التي أثاروها ويثيرونها الوقت بعد الوقت على الاسلام وعلى المسلمين . وليس ينصرف ذهننا إلى ما قد يدور بالخاطر من

سبب الخصومة
بين الاسلام
والسنة .

الجهل
للتعصب .

أقدار السياسة وحب الظفر بالشعوب لاستغلالها . فتملك في اعتقادنا نتيجة
وايست سبباً لهذا التعصب المستعصي حتى على العلم وعلى بحوثه . أما السبب في
رأينا فيرجع الى أن المسيحية وما تدعو اليه من الزهد في الحياة واعتزال العالم
ومن العفو والمغفرة ومن المعاني النفسانية السامية ليست مما يلائم طبيعة الغرب
الذي عاش ألوف السنين على دين تعدد الآلهة ، والذي يدعو مركزه
الجغرافي الى حياة الكفاح لمغالبة الزمهرير والضنك وسوء الحال . فاذا قضت
الظروف التاريخية عليه بأن يعتنق المسيحية فلا مفر له من أن يسبغ عليها ثوب
الكفاح ، وأن يخرجها بذلك عن طبيعتها السمحة الجميلة . وأن يفسد فيها هذا
التناسق الروحي الذي يجعل منها حلقة في سلسلة الوحدة التي أتم الاسلام .
والتي تؤاخي بين الروح والجسد وتزواج بين العاطفة والعقل . وتسلط الفرد
والانسانية جميعاً في نظام الكون على أنهم بعض منه متسق وإياد في لانهائية
الزمان والمكان . هذا في رأينا هو مرجع السبب في تعصب الغرب ومرجع
السبب في موقفه من الاسلام ، هذا الموقف الذي تحجفت الحبشة عنه حين
احتمى المسلمون بها أول ظهور النبي .

والى هذا السبب في رأينا يرجع إغراق الغربيين وغلوهم في التدين وفي
الالحاد جميعاً إغراق تعصب وكفاح لا يعرف الهوادة ولا يعرف التسامح .
وإذا كان التاريخ قد عرف منهم قديسين احتدوا في حياتهم مثال السيد المسيح
والحواريين ، فإن التاريخ أيضاً قد عرف أن حياة أمم الغرب كانت أبداً حياة
نضال وكفاح وحروب دامية باسم السياسة أو باسم الدين ، وعرف أن بابوات
الكنيسة وأرباب الساطة الزمنية كانوا في نزاع دائم يغالب بعضهم بعضاً ،
فيتغلب هذا يوماً ويتغلب ذلك يوماً آخر . ولما كان الكفاح في القرن التاسع
عشر قد تغلبت فيه الساطة الزمنية . حاولت هذه الساطة أن تقضي على الحياة
الروحية باسم العلم قضاء مبرماً عرفت اليوم بعد جهاد طويل أن لا سبيل اليه

وأنة مستحيل . والصيحة تعلو اليوم من جوانب الغرب المختلفة يريد أهله حياة روحية أضاعوها فهم يلمسونها في التيموزوفية وغير التيموزوفية . ولو أن المسيحية كانت تلائم غرائز الكفاح التي تنشأ بحكم الطبيعة كجزء من حياة أهل الغرب لرأيتهم ، وقد شعروا بعجز الفكرة المادية عن أن تلهمهم المدد الروحي . يعودون إلى الدين المسيحي الجميل دين عيسى بن مريم . إن لم يهدم الله إلى الاسلام ، ولما كانوا بحاجة إلى هذه الهجرة إلى الهند وإلى غيرها يستوردون منها حياة روحية يشعر الانسان بالحاجة إليها حاجته إلى التنفس لأنها بعض طبعه ، بل لأنها بعض نفسه وكيانه .

وقد عاون الاستعمار الغربي أهله على الاستمرار في الحملة التي أثاروا على الاسلام وعلى محمد . ودعاهم ليقولوا ما قال أهل مكة حين أرادوا أن يحملوا النصرانية عار هزيمة هرقم والروم أمام فارس . فقد قالوا وما يزال الكثيرون منهم يقولون إن الاسلام هو السبب في انحطاط الشعوب الآخذة به وفي خضوعهم لغيرهم . وهذه فرية يكفي لدحضها أن يذكر قائلها أن الشعوب الاسلامية ظلت صاحبة الحضارة الغالبة وصاحبة سيادة على العالم المعروف كله قرناً طويلاً متواليه ، وأنها كانت محط رحال العلم والعلماء وموئل الحرية التي لم يعرف الغرب إلا من أمد قريب . فاذا أمكن أن ينسب انحطاط طائفة من الشعوب للدين الذي يؤمن به أهلها فلا يكون هذا الدين هو الاسلام وهو الذي حفز بدو شبه جزيرة العرب وأثارهم ومكن لهم من حكم العالم .

على أن هؤلاء الذين يُحمَلون الاسلام وزر انحطاط الشعوب الاسلامية من العذر أن أضيف إلى دين الله شيء كثير لا يرضاه الله ورسوله واعتبر من صلب الدين ورؤى من ينكره بالزندقة . وندع الدين جانباً ونقف عند سيرة صاحبه عليه السلام . فقد أضافت أكثر كتب السيرة إلى حياة النبي ما لا يصدقها العقل ولا حاجة إليه في ثبوت الرسالة . وما أضيف من ذلك قد اعتمد عليه

الاستعمار
والدعوة ضد
الاسلام

الاسلام
وما صارت
اليه الشعوب
الاسلامية

المستشرقون واعتمد عليه اطاعنون على الاسلام ونيه وعلى الأمم الاسلامية واتخذوه ككاتبهم في مطاعنهم المثيرة لنفس كل منصف . اعتمدوا عليه وعلى ما ابتدعوه من عندهم وما زعموا أنهم يكتبونه على الطريقة العلمية الحديثة . هذه الطريقة التي تستعرض الحوادث والناس والأبطال فتصدر بعد ذلك حكمها عادلاً إن هي رأت لاصدار حكم محلاً . فإذا أنت وقفت عند ما كتبه هؤلاء رأيت تمليه شبهة الجدل والتجريح مصوغاً في عبارة لا تخلو من براعة تستهوي اخوانهم في العقيدة إلى الظن بأن البحث العلمي المجرد النزاع إلى الحقيقة وحدها يريد أن يستشفها من وراء كل الحجب ، هو الذي وجهه هؤلاء المتعصبين من الكتاب والمؤرخين . على أن السكينة التي ينزلها الله على نفوس الراضين من الناس . كتاباً وعلماً . قد أدت بأخريين من أحرار الفكر ومن المسيحيين ليكونوا أدنى إلى العدل وأحرص على النصفة .

الجمود
والاجتهاد
عند المسلمين

آثار الشيخ محمد عبده

ولقد قام بعض علماء المسلمين في ظروف مختلفة بمحاولة دحض مزاعم أولئك المتعصبين من أبناء الغرب . واسم الشيخ محمد عبده هو أنصع الأسماء في هذا الصدد . لكنهم لم يسلكوا الطريقة العلمية التي زعم أولئك الكتاب والمؤرخون الأوروبيون أنهم يسلكون . لتكون حججهم قوتها في وجه خصومهم . ثم إن هؤلاء العلماء المسلمين . والشيخ محمد عبده في مقدمتهم . قد اتهموا بالالحاد والكفر والزندقة فأضعف ذلك من حججهم أمام خصوم الاسلام . ولقد كان اتهامهم هذا بعيد الأثر في نفوس شباب المسلمين المتعلم . شعر هؤلاء الشبان بأن الزندقة تقابل ، في نظر جماعة من علماء المسلمين . حكم العقل ونظام المنطق . وأن الاحاد قرين الاجتهاد كما أن الايمان قرين الجمود : فجزعت نفوسهم وانصرفوا يقرءون كتب الغرب يلتمسون فيها الحقيقة . اقتناعاً منهم بأنهم لن يجدوها في كتب المسلمين . وهم لم يفكروا في كتب المسيحية والتاريخ المسيحي بطبيعة الحال : إنما فرغوا إلى كتب الفلسفة

آثار الجمود
في الشباب

يلتمسون في أسلوبها العلمي رثى ما في نفوسهم من ظمأ محرق للحق ، وفي منطقتها ضياء للجدوة المقدسة الكمية في النفس الانسانية ووسيلة إلى الاتصال بالكون وحقيقته العليا . وهم واجدون في كتب الفلسفة وفي كتب الأدب الفلسفي وفي كتب الأدب نفسه الشيء الكثير مما يأخذ الانسان عن نفسه ، لروعة أسلوبها ودقة منطقتها وما يظهر فيها من صدق القصد وخالص التوجه إلى المعرفة ابتغاء الحق . لذلك انصرفت نفوسهم عن هذا التفكير في الأديان كلها وفي الرسالة وصاحبها ، لأنهم لم يريدوا أن تثور بينهم وبين الجمود حرب لا ثقة لهم بالانتصار فيها ، ولأنهم لم يدركوا ضرورة الاتصال الروحي بين الانسان وعوالم الكون اتصالاً يرتفع به الانسان إلى أرقى مراتب الكمال وتتضاعف به قوته المعنوية .

إنصرف هؤلاء الشبان عن التفكير في الأديان كلها وفي الرسالة الاسلامية وصاحبها . وزادهم انصرافاً ما رأوا العلم الواقعي والفلسفة الواقعية (الوضعية) يقرانه من أن المسائل الدينية لا تخضع للمنطق ولا تدخل في حيز التفكير العلمي ، وأن ما يتصل بها من صور التفكير التجريدي (الميتافيزيقي) ليس هو أيضاً من الطريقة العلمية في شيء . ثم إنهم رأوا الفصل بين الكنيسة والدولة واضحاً صريحاً في البلاد الغربية . ورأوا البلاد التي تقرر دساتيرها أن ملكها هو حامي البروتستانتية أو الكاثوليكية ، أو تقرر أن دين الدولة الرسمي المسيحية ، لا تقصد من ذلك إلى أكثر من مظاهر الأعياد والمواسم وما يتصل بها ؛ فازدادوا انخراطاً في هذا التفكير العلمي وحرصاً على الأخذ منه وبما يتصل به من فلسفة وأدب وفق بأوفر نصيب . فلما آن لهم أن ينتقلوا من الدرس إلى الحياة العملية اشتغلوا بها وازدادوا انصرافاً عما انصرفوا من قبل عنه ، وظل اتجاههم الفكري في تياره الأول ينظر إلى الجمود العقلي مشفقاً مزدرياً ، وينهل من ورد التفكير الغربي والفلسفة الغربية ، فيجد فيهما لذة

علم الغرب
وأدبه

لناهلين ، فيزداد بهما إعجاباً وعلى ما نهل صدر الشباب منهما حرصاً .
وليس ريب في أن الشرق اليوم بحاجة أشد الحاجة الى النهل من ورد
الغرب في التفكير وفي الأدب والفن . فقد قطع ما بين حاضر الشرق
الاسلامى وماضيه قرون من الجمود والتعصب عشتت عل تفكيره السليم القديم
بطبقة سميكة من الجهل وسوء الظن بكل جديد . فلا مفر لمن يريد أن
يصهر هذه الطبقة من الاستعانة بأحدث صور التفكير في "عالم" ، ليستطيع
من هذه السبيل أن يصل بين الحاضر الحى وثروة الماضى وتراثه العظيم .

جهود
التجديد
الاسلامى

ومن الحق علينا للغرب أن نقول : إن ما يقوم به علماءه اليوم من
بحوث نفيسة فى تاريخ الدراسات الاسلاميه والدراسات الشرقيه قدمهدلأبناء
الاسلام وأبناء الشرق أن يتزيدوا من هذه البحوث فى تلك الدراسات
وأن يكونوا أكبر رجاء فى الاهتداء الى الحق . فهم أقرب بطبعهم الى حسن
ادراك الروح الاسلامى والروح الشرقى . وما دام التوجه الجديد قد بدأ فى
الغرب ، فواجب عليهم أن يتابعوه وأن يصححوا أغلاطه وأن يثبتوا فيه
الروح الصحيح الذى يعيده الى الحياة ويصله بالحاضر . لا كمجرد دراسة
وبحث بل كميراث روحى وعقلى يجب أن يتمثله الوارثون ، وأن يضيفوا
اليه وأن يزيدوا سناضياته بما يزيد الحقيقة الكامنة فيه ضياء ونوراً .

وقد توفّر منهم كثيرون على هذه البحوث يقومون اليوم بها على
الطريقة العلمية الحديثة ، والمستشرقون أنفسهم يقدرّون لهم ذلك ويشيدون
بفضلهم فيه .

وبينا يقوم هذا التعاون العلمى الجدير بأن يؤتى خير الثمرات ، إذا
بنشاط رجال الكنيسة المسيحية لا يفتّر فى الطعن على الاسلام وعلى محمد طعنا
لا يقل عما تلوت منه فيما سبقت الاشارة اليه ، وإذا الاستعمار الغربى يؤيد
بقوته أصحاب هذه المطاعن باسم حرية الرأى ، مع أن أصحاب هذه المطاعن

المبشرون
والجامدون

اسباب التأليف

كيف فكرت
في وضع هذا
الكتاب

قد أجبوا عن بلادهم وحيل بينهم وبين ما يسمونه تثبيت الايمان في نفوس
إخوانهم في الدين ، واذا هذا الاستعمار يؤيد كذلك دعاة الجلود من المسلمين .
وكذلك تضاقر العمل على تأييد ما دُس على الاسلام مما يبرأ الاسلام منه ،
وعلى سيرة الرسول من خرافات لا يسيع العقل ولا يقبل الذوق ، وعلى تأييد
الطاعنين على الاسلام وعلى محمد بما دُس على الاسلام وعلى سيرة الرسول .
أتاحت لي ظروف حياتي العملية أن أرى ذلك كله في مختلف بلاد الشرق
الاسلامي ، بل في البلاد الاسلامية كلها ، وأن أتبين ما يقصد اليه من القضاء
على الروح المعنوية في هذه البلاد بالقضاء على حرية الرأي وحرية البحث ،
ابتغاء الحقيقة ، وشعرت بأن علي واجباً أقوم به في هذا الموضوع لافساد
الغاية التي ترمى هذه الحطة اليها ، والتي تضر الانسانية كلها ولا يقف ضررها
عند الاسلام والشرق . وأى أذى يصيب الانسانية أكبر من العقم والجلود
يُصيب نصفها الأكبر والأعرق في الحضارة على حقب التاريخ . ولذلك فكرت
في هذا وفكرت ضويلاً . وهداني التفكير آخر الأمر الى دراسة حياة محمد
صاحب الرسالة الاسلامية ، وهدف مضاعف من ناحية ، وجود
الجامدين من المسلمين من الناحية الأخرى . على أن تكون دراسة علمية على
الطريقة الغربية الحديثة . خالصة لوجه الحق ، ولوجه الحق وحده .

بينا في عبارة المؤلف لوجه
الحق تعصباً له الباطل
صداً الشيعي في كلمات
تأليف

بدأت أراجع تاريخ محمد ، وأعيد النظر في سيرة ابن هشام وطبقات ابن
سعد ومغازي الواقدي ، وعدت الى كتاب سيد أمير علي (روح الاسلام) .
ثم حرصت على أن أقرأ ما كتب بعض المستشرقين ، فتلوت كتاب در منجم
وكتاب واشنطن إرفنج ، ثم انتهزت فرصة وجودي في الأقصر في شتاء
سنة ١٩٣٢ وبدأت أكتب . ولقد ترددت يومئذ في أن أجعل البحث الذي
أطالع قرائي به من وضعي أنا خيفة ما قد يقوم به أنصار الجلود والمؤمنون
بالخرافات من ضجة تفسد علي ما أريد . لكن ما لقيت من إقبال وتشجيع

من طائفة شيوخ المعاهد ، وما أبدى لى بعضهم من ملاحظات تدل على العناية بالبحث الذى أقوم به ، جعلنى أفكر تفكيراً جدياً فى تنفيذ ما اعترمت من كتابة حياة محمد على الطريقة العلمية الحديثة كتابة مفصلة . ودعائى للتفكير فى أمثل الوسائل لتمحيص السيرة تمحيصاً علمياً جهده ما أستطيع .

القرآن أصدق
مجمع

ولقد تبينت أن أصدق مرجع للسيرة إنما هو القرآن الكريم . فيه إشارة الى كل حادث من حياة النبي العربي يتخذها الباحث مناراً يهتدى به فى بحثه ويمحص على ضيائه ما ورد فى كتب السنة وما جاء فى كتب السير المختلفة . وأمعتت أريد أن أفق على كل ما ورد فى القرآن متصلاً بحياة النبي ، فاذا معونة صادقة فى هذا الباب يقدمها الى الأستاذ أحمد لطفى السيد الموظف بدار الكتب المصرية ، هى مجموعة وافية مبوبة لآيات القرآن المتصلة بحياة من أوحى الكتاب الكريم إليه . ورحت أدقق فى هذه الآيات ، فرأيت أن لا بد من الوقوف على أسباب نزولها وأوقات هذا النزول ومناسباته . وأعترف بأنى . برغم ما بذلت فى ذلك من جهد . لم أوفق إلى كل ما أردت منه . فكتب التفسير تشير أحياناً إليه وتهتم هذه الإشارة فى أكثر الأحيان . ثم إن كتاب « أسباب النزول » للوحدى . وكتاب « النسخ والمنسوخ » لأبى النصر ، إنما تناولا هذا الموضوع الجليل الجدير بكل تدقيق واستيفاء تناولاً موجزاً . على أنى وقفت فيهما وفيما رجعت إليه من كتب التفسير على مسائل عدة استطعت أن أخص بها ما ورد فى كتب السيرة . وأن وجدت فيهما وفى كتب التفسير نفسها أشياء جديدة بمراجعة العلماء المتبحرين فى علوم الكتاب والسنة وتحقيقهم من جديد .

المشورة
الصادقة

ولما تقدم لى البحث بعض الشيء ألفت المشورة الصادقة تصل إلى من كل صوب ، ومن ناحية الشيوخ أكثر من كل ناحية أخرى بطبيعة الحال . وكانت المعونة الكبرى معونة دار الكتب المصرية ورجالها الذين أمدتوني

من ألوان المعونة بما لا يفي بالشكر بحسن تقديره . ويكفي أن أذكر أن الأستاذ عبد الرحيم محمود المصحح بدار الكتب كان يكفيني مؤونة الذهاب إلى الدار في كثير من الأحيان ويستعير لي ما أريد استعارته من الكتب مشمولاً بموظف مدير الدار وكبار القائمين بالأمر فيها ، وأن أذكر أني في كل مرة ذهبت إلى الدار كنت أجد أجمل العون في البحث عما أريد البحث فيه من موظفي الدار كباراً وصغاراً ، من عرفت منهم ومن لم أعرف . ثم إنني كانت تستغلق عليّ بعض المسائل أحياناً فأفضي إلى من آنس فيه المعرفة من أصدقائي بما استغلق عليّ فأجد في كثير من الأحيان خير العون . وجدت ذلك غير مرة عند الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي ، ووجدته عند صديق الصليح جعفر باشا ولى الذي أعارني عدة كتب كصحيح مسلم وتواريخ مكة ، ودلني على غير مسألة من المسائل وهداني إلى موضوعها . وقد أعارني صديق الأستاذ مكرم عبيد كتاب المستشرق أسير وليم مؤير « حياة محمد » وكتاب الأب لأمس « الاسلام » . هذا إلى ما وجدت من عون في مؤلفات المعاصرين القيمة ككتاب « فجر الإسلام » للأستاذ أحمد أمين و « قصص الأنبياء » للأستاذ عبد الوهاب النجار و « الأدب الجاهلي » للدكتور طه حسين و « اليهود في بلاد العرب » لاسرائيل ولفينس ، وغير هذه من كتب المعاصرين كثير ذكرته في بيان المراجع القديمة والحديثة التي استعنت بها على وضع هذا الكتاب .

منايع أفكار هذا الكتاب

ولقد كنت كلما ازددت توسعاً في البحث أرى مسائل تنجم أمامي وتستدعي التفكير ومزيداً من البحث لحلها ، وكما عاوتني كتب السيرة وكتب التفسير في الاهتداء إلى غاية من تفكيري أطمئن لها ، كذلك عاوتني كتب المستشرقين في الاهتداء إلى غاية أطمئن لها . على أنني رأيتني مضطراً في كل المواقف لأقصر بحثي في حدود حياة محمد نفسه ما لم أضطر إلى تناول مسائل

أخرى متصلة بهذا البحث اضطراراً . ولو أنني أردت ان أبحث كل ما اتصل بهذه الحياة الفياضة العظيمة لاحتاج الأمر الى وضع مجلدات عدة في حجم هذا الكتاب . ويحسن أن أذكر أن كُوسَان دِيرِسْتَمَال وضع ثلاثة مجلدات بعنوان « رسالة في تاريخ العرب » جعل المجلدين الأولين منها في تاريخ قبائل العرب وحياتها ، وجعل الثالث عن محمد وخليفته الأولين أبي بكر وعمر . وطبقات ابن سعد تقع في مجلدات كثيرة يتناول جزؤها الأول حياة محمد ، وسائر أجزائها حياة أصحابه . ولم يكن غرضي أول ما بدأت البحث ليتجاوز حياة محمد ، فلم أرد أثناءه أن أتركه يتشعب فيحوّل ذلك بيني وبين الغاية التي إليها قصدت .

وشيء آخر كان يسكنني في حدود هذه الحياة . ذلك روعة جلالها وباهر ضيائها جلالاً وضياء يتوارى دونهما كل ما سواهما . فما كان أعظم أبابكر ! وما كان أعظم عمر ! إذ كان كل منهما في خلافته علماً يحجب من سواه ! ولم كان للسابقين الأولين إلى صحبة محمد من عظمة ثبتت على الأجيال وهي بعد ما تفاخر به الأجيال ! لكن هؤلاء جميعاً كانوا يستظلون أثناء حياة النبي بجلال عظمتهم ويستضيئون بباهر لآلته . فليس يسيراً على من يبحث في سيرة الرسول أن يدعها لشيء سواها . وهو أشد بذلك شعوراً إذا تناول البحث على الطريقة العلمية الحديثة على نحو ما حاولت أن أفعل ، هذه الطريقة التي تجلو عظمة محمد على نحو يبهز والعقل والقلب والعاطفة الفؤاد جميعاً ويعرس فيها من الاجلال للعظمة والايان بقوتها ما لا يحتف فيه المسلم وغير المسلم . وأنت إذا طرحت جانباً أولئك المتعصبين الحق الذين جعلوا النيل من محمد دأبهم كالمبشرين وأشباههم ، فانك واجد هذا الاجلال للعظمة . الايمان بقوتها في كتب العلماء المستشرقين واضحين جليين . عقد كارليل في كتابه « الأبطال » فصلا عن محمد صور في الجذوة الالهية المقدسة التي أوحى إلى محمد ما أوحته

في حدود
السيرة لا
أنهدما

من تعصب ان لم يذكر
علياً وهو اظهر رفته
نهما .

تعصب البشرين

القدم في كتب السيرة

إليه، فصوّر العظمة في جلال قوتها . ومؤير . وإرفنج . وسنبرنجر . وقيل ، وغيرهم من المستشرقين العلماء قد صور كل واحد منهم عظمة محمد تصويراً قوياً ، وإن وقف هذا أو ذلك منهم عند مسائل اعتبرها مأخذ على صاحب الرسالة بالاسلام ، لغير شيء إلا أنه لم يتحنها ولم يتحصها التحيص العلمي الدقيق ، ولأنه اعتمد فيها على ما ورد في كتاب أو في آخر من كتب السيرة أو من كتب التفسير . متناسياً أن أول كتب السيرة إنما كتبت بعد قرنين من عصر محمد دُست أثناءهما على حياته وعلى تعاليمه اسرائيليات كثيرة . ووُضعت أثناءهما ألوف الأحاديث لمكذوبة . ومع أن هؤلاء المستشرقين يقررون هذه الحقيقة ، فانهم لا يأبون مع ذلك تناسيها ليقرروا أموراً ، ينفيها شيء من التحيص ، على أنها صحيحة . كمسألة الغرائق وكمسألة زيد وزينب . وكمسألة أزواج النبي ، مما أتيج لي امتحانه وتمحيصه في هذا الكتاب .

نست مع ذلك أحسب أني أوفيت على الغاية من البحث في حياة محمد ، بل لعلّي أكون أدنى إلى الحق إذا ذكرت أني بدأت هذا البحث في العربية على الطريقة العلمية الحديثة . وأن ما بذلت في هذه السبيل من مجهود لا يخرج هذا الكتاب عن أنه بداية البحث من ناحية علمية إسلامية في هذا الموضوع الجليل . وإذا كان جماعة من العلماء والمؤرخين قد انقطعوا البحث عصر من العصور ، كما انقطع أولان في فرنسا لبحث عصر الثورة الفرنسية . وكما انقطع غيره من العلماء لبحث عصر أو عصور معينة من التاريخ في مختلف الأمم . فحياة محمد جدية بأن ينقطع لبحثها على طريقة علمية جامعية أكثر من أستاذ يتخصص فيها ويتوفر عليها . وليس يساورني شك في أن الانقطاع والبحث العلمي في هذه الفترة القصيرة من حياة بلاد العرب واتصالها بحياة الأمم المختلفة في ذلك العصر ، تفيض نتائجها على العالم كله . لا على الاسلام والمسلمين وحدهم ، أغزر الثمرات ، وتجلو أمام العلم كثيراً من المسائل النفسية

الكتاب
بداية البحث

والروحية ، فضلاً عما تفيض عليه من ضياء في نواحي الحياة الاجتماعية
والخلفية والتشريعية ما يزال العلم يتردد أمامها متأثراً بهذا النزاع الديني بين
الاسلام والنصرانية ، وهذه المحاولات العقيمة التي يُقصد منها إلى «تغريب»
الشرق أو تنصير المسلمين نما ثبت على الأجيال فشلها واستحاثته وسوء أثره في
علاقات أجزاء الانسانية المختلفة .

وأذهبُ الى أبعد مما تقدم فأقول : إن هذا البحث جدير بأن يهدى
الانسانية طريقها الى الحضارة الجديدة التي تاتمها . واذا كانت نصرانية
الغرب تستكبر أن تجد النور الجديد في الاسلام ورسوله وتلتمس هذا النور
في ثيوزوفية الهند وفي مختلف مذاهب الشرق الأقصى ، فإن رجال هذا الشرق
من المسلمين واليهود والنصارى جميعاً خليقون أن يقوموا بهذه البحوث الجليلة
بالنزاهة والانصاف اللذين يكفلان وحدهما الوصول الى الحق . فالتفكير
الاسلامي — عني أنه تفكير علمي الأساس على الطريقة الحديثة في صلة
الانسان بالحياة المحيطة به . وهو من هذه الناحية واقعي بحث — ينقلب
تفكيراً ذاتياً حين يتصل الأمر بعلاقة الانسان بالكون وخالق الكون ،
ويسدع لذلك في النواحي النفسية والنواحي الروحية آثاراً قد يقف العلم
بوسائله حائراً أمامها ، لا يستطيع أن يثبتها أو ينفيها ، وهو لذلك لا يعتبرها
حقائق علمية ، ثم هي تظن مع ذلك قوام سعادة لانسان في الحياة ومقومة
سلوكه فيها . فما الحياة ؟ وما الكون ؟ وما صلة الانسان بهذا الكون ؟ وما
حرصه على الحياة ؟ وما هي العقائد المشتركة التي تبعث في الجماعات القوة
المعنوية التي تضمحل بضعف هذه العقائد المشتركة ؟ وما الوجود ؟ وما
وحدة الوجود ؟ وما مكان الانسان من الوجود ووحده ؟ هذه مسائل
خضعت للمنطق التجريدي ووجدت منه أدباً متراعى الأطراف . لكنك
تجد حلها في حياة محمد وتعاليمه أدنى لتبليغ الناس سعادتهم من هذا المنطق

التجريدي الذي أفتى فيه المسلمون قرونًا منذ العهد العباسي ، وأفتى فيه الغربيون ثلاثة قرون منذ القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر. بما انتهى بالغرب إلى العلم الحديث على نحو ما انتهى بالمسلمين فيما مضى ، ثم وقف العلم في الماضي كما أنه مهدد اليوم بالوقوف دون إسعاد الإنسانية . ولا سبيل لدرك هذه السعادة إلا العود لحسن إدراك هذه الصلة الذاتية بالوجود وخالق الوجود في وحدته التي لا تتغير سننها ولا يعتبر للزمان أو المكان فيها إلا وجود نسبي لحياتنا القصيرة . وحياة محمد هي لا ريب خير مثل لدراسة هذه الصلة الذاتية دراسة علمية لمن أراد . ودراسة عملية لمن تؤهله مواهبه أن يحاول هذا الاتصال في مراتب أولية لبعدها بينها وبين الصلة الإلهية التي أفاء الله على رسوله . وأكبر ظني أن كلتا هاتين الدراستين خليقتان يوم يتاح لهما التوفيق أن تتقدا عالمنا الحاضر من وثنية تورط فيها على اختلاف عقائده الدينية أو العلمية ، وثنية جعلت المال وحده معبوداً ، وسخرت كل ما في الوجود من علم وفن وخلق ومواهب لعبادته والتسبيح بحمده .

قد يكون هذا التوفيق ما يزال بعيداً . لكن طلائع القضاء على هذه الوثنية التي تتحكم في عالمنا الحاضر ، وتوجه الحضارة الحاكمة فيه . تبدو واضحة لكل من تتبع سيرة العالم وأحداثه . فلعل هذه الطلائع تتواتر وتقوى دلالتها إذا انجلت أمام العلم تلك المسائل الروحية بالتخصص لدراسة حياة محمد النبي وتعاليمه وعصره والثورة الروحية التي انتشرت في العالم كأثر من آثاره . . وإذا أتاحت الدراسة العلمية والدراسة الذاتية لقوى الإنسانية الكريمة مزيداً من اتصال بني الإنسان بحقيقة الكون العليا ، كان ذلك الحجر الأول في أساس الحضارة الجديدة .

وهذا الكتاب ليس إلا محاولة بدائية في هذه السبيل كما قدمت . وبحسبي أن يُقنع هذا الكتاب الناس بما فيه ، وأن يقنع العلماء والباحثين

بضرورة الانقطاع والتخصص لبلوغ الغاية من بحث موضوعه . ولو أنه أتمر
أيا من هذين الأثرين أو كليهما لكان ذلك أكبر جزاء أرجو عن المجهود
الذي بذلت فيه . والله يجزي المحسنين .

محمد حسين هبكل

الفصل الأول

بلاد العرب قبل الإسلام

مهد الحضارة الأولى - اليهودية والمسيحية - الفرق المسيحية وتناحرها
مجوسية فارس - شبه جزيرة العرب - طريقا القوافل فيها
اليمن وحضارتها - بقاء شبه الجزيرة على الوثنية

ما يزال البحث في تاريخ الحضارة الانسانية وأيان كان منشؤها متصلا إلى عصرنا الحاضر . وكان هذا البحث قد استقر زماناً طويلاً عند القول بأن مصر كانت مهد هذه الحضارة منذ أكثر من ستة آلاف سنة مضت ، وأن ما قبل هذا الزمن يرجع إلى عصور ما قبل التاريخ مما يتعذر الكشف عنه بطريقة علمية صحيحة . أما اليوم فقد عاد علماء الآثار ينقبون في العراق وفي سوريا يريدون الوقوف على أصل الحضارة الآشورية والحضارة الفينيقية وتحقيق العصر الذي ترجع هذه الحضارات إليه . أهو سابق عصر الحضارة المصرية الفرعونية مؤثر فيها ، أم هو لاحق عصر هذه الحضارة متأثر بها ؟ ومهما يسفر تنقيب علماء الآثار عنه في هذه الناحية من نواحي التاريخ فهو لا يغير شيئاً من حقيقة لما يكشف التنقيب في آثار الصين والشرق الأقصى عما يخالفها . هذه الحقيقة هي أن مهد حضارة الانسان الأولى ، سواء أكان في مصر أم في فينقيا أم في آشور ، كان متصلاً بالبحر الأبيض المتوسط . وأن مصر كانت أقوى المراكز التي أصدرت الحضارة الأولى إلى اليونان وإلى رومية . وأن حضارة عالمنا في هذا العصر الذي نعيش فيه ما تزال وثيقة الصلة

مهد الحضارة
الانسانية

بتلك الحضارة الأولى ، وأن ما قد يكشف البحث عنه في الشرق الأقصى من تاريخ الحضارة في تلك الأقطار لم يكن له في عصر ما أثرٌ يذكر في الحضارات الفرعونية والآشورية والاعريقية ، ولم يغير من اتجاه تلك الحضارات وتطورها إلى أن اتصلت بها حضارة الاسلام فأثرت فيها وتأثرت بها وتفاعلت وإياها تفاعلا كانت الحضارة العالمية التي تخضع الانسانية اليوم لسلطانها بعض أثره .

حوصله اليوم
والقديم

وقد ازدهرت تلك الحضارات التي انتشرت على شواطئ البحر الأبيض أو على مقربة منه في مصر وآشور واليونان منذ ألوف السنين ازدهاراً ما يزال حتى اليوم موضع دهشة العالم وإعجابة : إزدهرت في العلم والصناعة والزراعة والتجارة وفي الحرب وفي كل نواحي النشاط الانساني . على أن الأصل الذي كانت تصدر تلك الحضارات عنه وكانت تستمد قوتها منه كان أصلاً دينياً دائماً . حقا أن هذا الأصل اختلف ما بين التثليث المصري القديم مصوراً في أوزوريس وإيزيس وهورس مشيراً إلى وحدة الحياة في أنهارها وتجدها ، وما بين الوثنية اليونانية في تصويرها للحق والخير والجمال تصويراً مستمداً من مظاهر الكون الخاضعة للحس . كما اختلف من بعد ذلك اختلافا هوى بهذا التصوير في عصور الانحلال المختلفة إلى دنيا المراتب . ولكنه بقي دائماً أصل هذه الحضارات التي شكّلت مصير العالم . كما أنه قوّى الأثر في حضارة هذا العصر الحاضر . وإن حاولت هذه الحضارة أن تتخلص منه وتقف في وجهه وقوفاً ما يزال الحين بعد الحين يستدرجها اليه . ومن يدرى لعله سيدمجها فيه في مستقبل قريب أو بعيد مرة أخرى .

حضارات
دينية

في هذه البيئة التي استندت حضاراتها منذ ألوف السنين الى أصل ديني ، نشأ أصحاب الرسالة بالأديان المعروفة حتى اليوم . في مصر نشأ موسى وفي حبر فرعون تُرْبِي وتهدب ، وعلى يد كهنته ورجال الدين من أهل دولته

عرف الوحدة الالهية وعرف أسرار الكون. فلما أذن الله له في أداء الرسالة ببلد كان فرعون يقول لأهله ، أنار بكم الأعلى ، وقف يجادل فرعون وسحرته حتى اضطره فرعون فهاجر ومعه بنو إسرائيل الى قَلَسْطِين . وفي فلسطين نشأ عيسى روح الله وكنسته اتى ألقاها الى مريم . فلما رفع الله عيسى بن مريم اليه ، قام الخواريون من بعده يدعون الى المسيحية التي دعا إليها . ولقى الخواريون ومن اتبعهم أشد العنت ، حتى إذا أذن الله للمسيحية أن تنشر حمل علمها عاهل رومية صاحبة السيادة على العالم يومئذ ، فدانت الأمبراطورية الرومانية لدين عيسى ، وانتشرت المسيحية في مصر والشام واليونان ، وامتدت من مصر الى الحبشة . وظلت ستة قرون متتابعة يزداد سلطانها اتساعاً ويستظل بلوائها كل من استظل بلواء رومية ، وكل من طمع في مودتها وفي حسن العلاقة بها .

المسيحية
والمجوسية

تجاه هذه المسيحية التي انتشرت في ظل لواء رومية ونفوذها وقفت مجوسية الفرس توازرها قوى الشرق الأقصى وقوى الهند المعنوية . وقد ظلت آشور وظلت مدينة مصر الممتدة في فينقيا عصوراً طويلة حائلة دون انتطاح الغرب والشرق وحضارتيهما . على أن دخول مصر وفينقيا في المسيحية أذاب هذا الحائل ووقف الغرب والشرق وجهاً لوجه . وقد ظلا عصوراً متصلة وفي نفس كل من هيبة الآخر ما أقام مكان ذلك الحائل الطبيعي الأول حائلاً معنوياً اقتضى فوته أن توجه كتابهما جهودها وغزواتها في ناحيتها دون مبادأة الأخرى بالعدوان . وبذلك ظلت غزوات الغرب في الغرب ، وغزوات الشرق في الشرق ، وبذلك كان الحائل المعنوي في مثل مَنعَة الحائل الطبيعي ، وكفل تكافؤ القوتين عدم تصادمهما .

وكذلك ظل الحال إلى القرن السادس المسيحي . وفي هذه الأثناء بدأت المنافسة بين رومية وبيزنطة ، وبدأت أعلام رومية ، التي أظلت من قبل

يوليوس قيصر وفي أثناء حكمه ربوع أوروبا الى الغال وإلى السلت في انكلترا ،
تنطوى وتنكش رويداً رويداً ، حتى أغار الفندال الهمج على رومية واستولوا
عليها وعلى سلطانها ، وانفردت بيرنطة بالسلطان وأصبحت وارثة الأمبراطورية
الرومانية المترامية الأطراف . وكان لانكاش رومية وقيام بيرنطة مكانها
أثره الطبيعي في المسيحية التي نشأت في أحضان رومية وتأثرت بحضارتها
وتعاليمها . بدأت المذاهب تتعدد وينقسم كل مذهب على توالي الزمن فرقاً
وأحزاباً ، ولكل شيعة في طقوس الدين وأسسها رأى يخالف رأى الشيعة
الأخرى . وتكررت هذه الطوائف بعضها لبعض بسبب خلافها في الرأى تنكراً
أنتج العداوة الشخصية التي تلمسها حيثما دبّ الضعف الخلق والذهنى الى
النفوس فجعلها سريعة الى الخوف سريعة لذلك الى التعصب الأعمى والجمود
العقيم . كان من بين طوائف المسيحية في تلك الأزمان من ينكرون أن لعيسى
جسداً يزيد على طيف كان يتبدى به للناس ! وكان من بينها من يزاجون بين
شخصه ونفسه زواجاً روحياً يحتاج الى كثير من كذا الخيال والذهن لتصوره .
وغير هؤلاء وأولئك من كانوا يعبدون مريم على حين كان ينكر غيرهم بقاءها
عذراء بعد وضع المسيح . وكذلك كان الجدل بين أتباع عيسى جدل أيام
الانحلال في كل أمة وعصر . كان يقف عند الألفاظ والأعداد يُسبغ على
كل لفظ وكل عدد من المعانى ويُضفي عليه من الأسرار ويحيطه من ألوان
الخيال بما يعجز عنه وهم المنطق ولا تسيعه إلا سفسطة الجدل العقيم .

قال أحد رهبان الكنيسة : « كانت أطراف المدينة جميعاً مملأى بالجدل
سواء في الأسواق وعند باعة الملابس وصرافى النقود وباعة الأطعمة . فأنت
تريد أن تبدل قطعة من ذهب ، فاذا بك في جدل عما خلق وما لم يخلق .
وأنت تريد أن تقف على ثمن الخبز فيجيبك من تسأله: الأب أعظم من الابن
والابن خاضع له .

وأنت تسأل عن حمامك وهل مأوّه ساخن فيجيبك غلامك : لقد خلق الابن من العدم .»

على أن هذا الانحلال الذي طرأ على المسيحية فجعلها أحزاباً وشيعاً لم يكن ذا أثر قوى في كيان الإمبراطورية الرومانية السياسي . بل ظلت هذه الإمبراطورية قوية متماسكة وظلّت هذه الفرق تعيش في كنفها في نوع من النضال لم يتعدّ الجدل الكلامي ولم يتعدّ المؤتمرات اللاهوتية تعقد لتثبت في مسألة من المسائل . فلا يكون لقرار طائفة ما من السلطان ما يلزم الطوائف أو الفرق الأخرى . وأظنت الإمبراطورية هذه الفرق جميعاً بحمايتها ، ومدّت لها جميعاً في حرية الجدل بما زاد في سلطان الإمبراطور المدني من غير أن يضعف من هيئته الدينية . أن كانت كل فرقة تعتمد على عطفه عليها ، بل تذهب إلى الزعم بأنها تعتمد على تأييده إياها . وهذا التماسك في كيان الإمبراطورية هو الذي طوع للمسيحية أن يضل انتشارها في مسيرته وأن يصل من مصر الرومانية إلى الحبشة المستنقطة المحاذية لرومية فيجعل لحوض البحر الأحمر من المكنانة ما حوض البحر الأبيض . وأن ينتقل من الشام وفلسطين حيث اعتنقه أهلها واعتنقه العرب الغساسنة الذين هاجروا إليها ، إلى شواطئ الفرات ليدين به أهل الحيرة ويؤمن به للخميون والمناذرة الذين ارتحلوا من جندب الصحراء وباديتها ليستقروا في هذه المدائن الخصبّة العامرة ، وليكونوا مستقلين زمنياً لحكمهم الفرس المجوسية من بعده .

في هذه الأثناء كذلك أصاب المجوسية في الفرس من أسباب الانحلال ما أصاب المسيحية في الإمبراطورية الرومانية . وإذا كانت عبادة النار قد ظلت الظاهرة المجوسية البادية للعيان ، فإن آلهة الخير والشر وأتباعها قد انقسمت هي أيضاً عند المجوس فرقاً وطوائف ، ليس هاهنا مكان عرضها . مع ذلك ظل كيان الفرس السياسي قوياً لم يؤثر فيه هذا الجدل الديني حول

انحلال
مجوسية

بيزنطة وارثه
رومية

يوليوس قيصر وفي أثناء حكمه ربوع أوروبا الى الغال وإلى السلت في انكلترا ،
تنطوى وتنكش رويداً رويداً ، حتى أغار الفندال الهمج على رومية واستولوا
عليها وعلى سلطانها ، وانفردت بيزنطة بالسلطان وأصبحت وارثة الأمبراطورية
الرومانية المترامية الأطراف . وكان لانكاش رومية وقيام بيزنطة مكانها
أثره الطبيعي في المسيحية التي نشأت في أحضان رومية وتأثرت بحضارتها
وتعاليمها . بدأت المذاهب تتعدد وينقسم كل مذهب على توالي الزمن فرقاً
وأحزاباً ، ولكل شيعة في طقوس الدين وأسسه رأى يخالف رأى الشيعة
الأخرى . وتكررت هذه الطوائف بعضها لبعض بسبب خلافها في الرأى تنكراً
أنتج العداوة الشخصية التي تلمسها حيثما دب الضعف الخلقى والذهنى الى
النفوس فجعلها سريعة الى الخوف سريعة لذلك الى التعصب الأعمى والجمود
العقيم . كان من بين طوائف المسيحية في تلك الأزمان من ينكرون أن لعيسى
جسداً يزيد على طيف كان يقبدي به للناس ! وكان من بينها من يزوجون بين
شخصه ونفسه زواجاً روحياً يحتاج الى كثير من كذا الخيال والذهن لتصوره .
وغير هؤلاء وأولئك من كانوا يعبدون مريم على حين كان ينكر غيرهم بقاءها
عذراء بعد وضع المسيح . وكذلك كان الجدل بين أتباع عيسى جدل أيام
الانحلال في كل أمة وعصر . كان يقف عند الألفاظ والأعداد يُسبغ على
كل لفظ وكل عدد من المعانى ويُضفي عليه من الأسرار ويحيطه من ألوان
الخيال بما يعجز عنه وهم المنطق ولا تسيغه إلا سفسطة الجدل العقيم .

الفرق
المسجبة

قال أحد رهبان الكنيسة : كانت أطراف المدينة جميعاً ملأى بالجدل
سواء في الأسواق وعند باعة الملابس وصرافى نقود وباعة الأطلعمة . فأنت
تريد أن تبدل قطعة من ذهب ، فاذا بك في جدل عما خلق وما لم يخلق .
وأنت تريد أن تقف على ثمن الخبز فيجيبك من تسأله: الأب أعظم من الابن
والابن خاضع له .

وأنت تسأل عن حماك وهل مأوه ساخن فيجيبك غلامك : لقد

خلق الابن من العدم .

على أن هذا الانحلال الذي طرأ على المسيحية فجعلها أحزاباً وشيعاً لم يكن ذا أثر قوى في كيان الأباطورية الرومانية السياسي . بل ظلت هذه الأباطورية قوية متماسكة وظلت هذه الفرق تعيش في كنفها في نوع من اتصال لم يتعد الجدال الكلامي ولم يتعد المؤتمرات اللاهوتية تعقد لتبث في مسألة من المسائل . فلا يكون لقرار طائفة ما من السلطان ما يلزم الطوائف أو الفرق الأخرى . وأظنت الأباطورية هذه الفرق جميعاً بحمايتها ، ومدت لها جميعاً في حرية الجدال بما زاد في سلطان الأباطور المدنى من غير أن يضعف من هيئته الدينية . أن كانت كل فرقة تعتمد على عطفه عليها ، بل تذهب إلى الزعم بأنها تعتمد على تأييده إياها . وهذا التماسك في كيان الأباطورية هو الذى طوع للمسيحية أن يظن انتشارها في مسيرده وأن يصل من مصر الرومانية إلى الحبشة المستقلة الخاففة لرومية فيجعل لحوض البحر الأحمر من المكائنة ما حوض البحر الأبيض ، وأن ينتقل من الشام وفلسطين حيث اعتنقه أهلها واعتنقه العرب الغساسنة نذير هاجروا إليها ، إلى شواطئ الفرات ليدين به أهل الحيرة ويؤمن به للخميون والمتأذرة الذين ارتحلوا من جدد الصحراء وبأديتها ليستقروا في هذه المدائن الخصبه العامرة ، وليكونوا مستقلين زمنياً لتحكمهم الفرس المجوسية من بعده .

في هذه الأثناء كذلك أصاب لمجوسية في الفرس من أسباب الانحلال ما أصاب لمسيحية في الأباطورية الرومانية . وإذا كانت عبادة النار قد ظلت الطاهرة المجوسية البادية للعيان ، فان آلهة الخير والشر وأتباعها قد انقسمت هي أيضاً عند المجوس فرقاً وطوائف ، ليس هاهنا مكان عرضها . مع ذلك ظل كيان الفرس السياسي قوياً لم يؤثر فيه هذا الجدال الدينى حول

حول

مجوسية

صور الآلهة والأفكار المطلقة التي ترسم وراء هذه الصور، واحتمت الفرق الدينية المختلفة بعاهل الفرس الذي أظلمها جميعاً بلوائه والذي ازداد باختلافها قوة على قوة، أن جعل من اختلافها وسيلة لضرب بعضها ببعض كلما خيف أن تقوى شوكة إحداها على حساب الملك أو على حساب الفرق الأخرى . هاتان القوتان المتقابلتان، قوة المسيحية وقوة المجوسية، قوة الغرب وقوة الشرق، ومعهما الدويلات المتصلة بهما والخاضعة لنفوذهما . كانتا في أوائل القرن السادس الميلادي تحيطان بشبه جزيرة العرب . ومع ما كان لكل واحدة منهما من مطامع في الاستعمار والتوسع، ومع ما كان يبذل رجال الدين في كليهما من الجهود لنشر الدعوة إلى العقيدة التي بها يؤمنون . فقد ظلت شبه الجزيرة وكأنها واحة حصينة آمنة من الغزو إلا في بعض أطرافها، آمنة من انتشار الدعوة الدينية، مسيحية أو مجوسية . إلا في قليل من قبائلها . وهذه ظاهرة قد تبدو في التاريخ عجيبة، لولا ما يفسرها من موقع بلاد العرب ومن طبيعتها وما للموقع والظبيعة من أثر في حياة أهلها وفي أخلاقهم وميولهم ونزعاتهم .

بلاد العرب
بين القوتين

فشبه جزيرة العرب مستطيل غير متوازي الاضلاع، شماله فلسطين وبادية الشام، وشمالها الخليج ودجلة والفرات وخليج فارس، وجنوبه المحيط الهندي وخليج عدن، وشرقها بحر القلزم (البحر الأحمر) . فهو إذاً حصين بالبحر من غربه وجنوبه، حصين بالصحراء من شماله . وبالصحراء وخليج فارس من شرقه . وليست هذه الممانعة هي وحدها التي أعفته من الغزو الاستعماري أو الغزو الديني، بل أعفاه كذلك ترامي أضرافه، إذ يبلغ طول شبه الجزيرة أكثر من ألف كيلو متر ويبلغ عرضها نحو الألف من الكيلومترات . وأعفاه أكثر من هذا جذبته جدياً صرف عين كل مستعمر عنه . فليس في هذه الناحية الفسيحة من الأرض نهر واحد، وليست لامطارها فصول معروفة

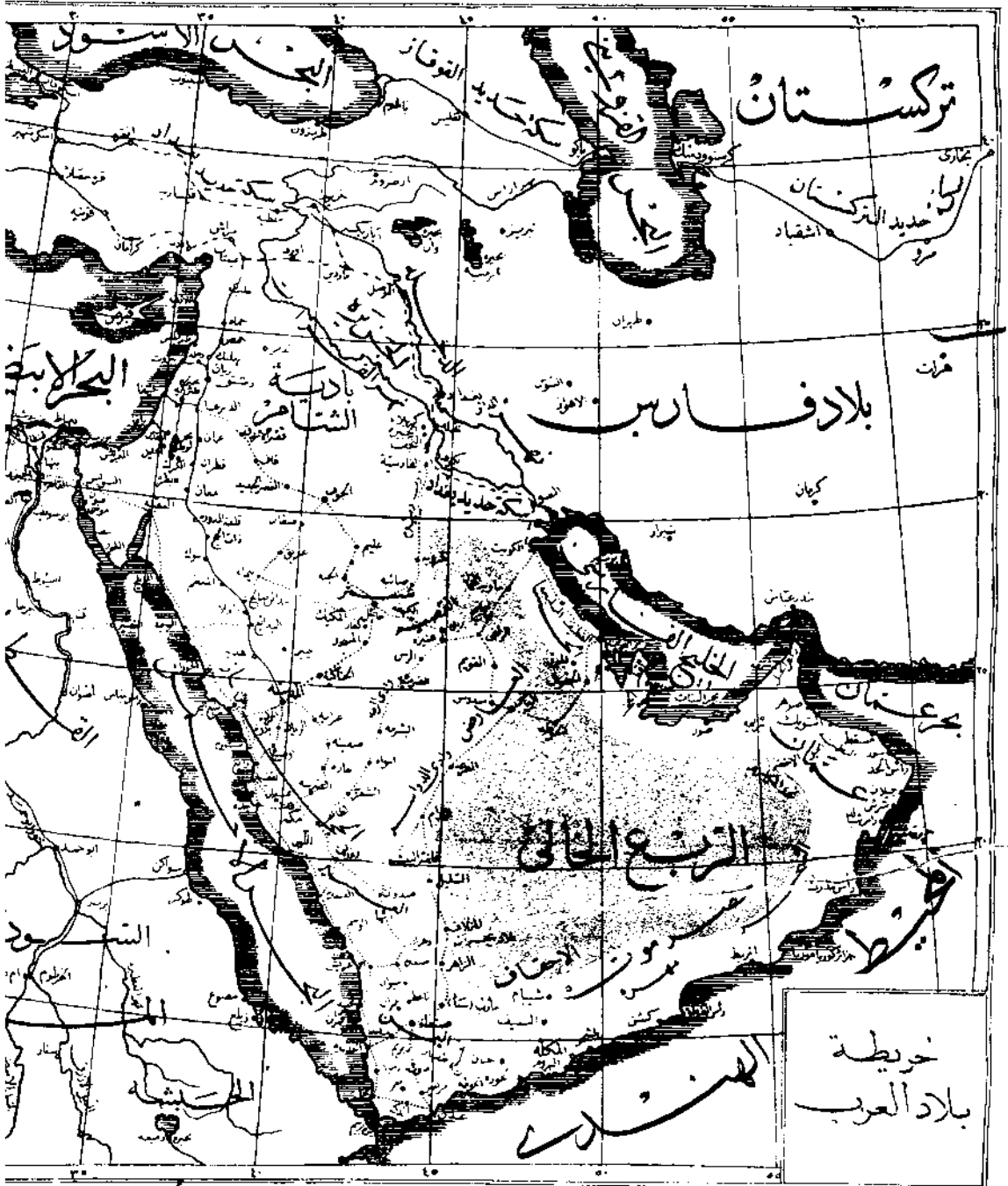
صناعة شبه
الجزيرة
الجغرافية

يمكن الاعتماد عليها وتنظيم الصناعة إياها . وفيما خلا اليمن الواقعة جنوب شبه الجزيرة والممتازة بخصب أرضها وكثرة نزول المطر فيها ، فسائر بلاد العرب جبال ونجود وأودية غير ذات زرع وطبيعة جرداء لا تيسر الاستقرار ولا تجلب الحضارة ولا تشجع على حياة غير الحياة البادية ، حياة الارتحال الدائم واتخاذ الجمل سفينة للصحراء واتجاع المرعى لهذه الأبل والاستقرار حيثما يكون هذا المرعى حتى تجيء الأبل عليه ، ثم الارتحال من جديد اتجاعا لمرعى جديد . وهذه المراعى التى ينتجعها بدو شبه الجزيرة إنما تنمو حول عين من العيون تتفجر عن ماء المطر الذى يتسلل خلال أرض البلاد الحجرية حتى يتفجر فى ناحية أو فى أخرى ، فينبت انفجاره الخضرة المنتشرة ها هنا وهناك فى واحات تحيط بهذه العيون .

طبيعى فى بلاد هذه حالها أن تكون كصحراء إفريقيا الكبرى لا يقيم بها مقيم ولا تعرف الحياة الانسانية إليها سبيلا . وطبيعى ألا يكون لمن يحل بهذه الصحراء غرض أكثر من ارتيادها والنجاة بنفسه منها ، إلا فى هذه النواحي القليلة التى تنبت السكلا والمرعى . وطبيعى أن تظل هذه النواحي مجهولة من الناس ، أقلية من يغامر بحياته لارتيادها . وقد كانت بلاد العرب فيما سوى اليمن مجهولة بالفعل من أهل تلك العصور القديمة .

مجهولة خلا
اليمن

لكن موقعها أنجاها من الإفطار حتى لا يقيم بها مقيم . فى تلك العصور القديمة لم يكن الناس قد آمنوا البحر ليأخذوه ركبا لتجارتهم أو لأسفارهم . وما تزال أمثال العرب تحت أنظارنا تذبذبا بما كان من خوف الناس بالبحر كخوفهم من الموت . فلم يكن بدءا إذا للتجار من أن تجد التجارة لها وسيلة انتقال غير هذا المركب الخطر المخوف . وكان أهم انتقال التجارة يومئذ بين الشرق والغرب ، بين رومية وما وراءها والهند وما وراءها . وكانت بلاد العرب هى طريق انتقال هذه التجارة التى كانت تجتاز إليها عن طريق مصر أو



تركستان

بلاد خديو التركستان
اشقباد

بلاد فارس

بلاد الشام

الربع الثاني

خريطة
بلاد العرب

عن طريق الخليج الفارسي متخطية البوغاز الواقع على مدخل خليج فارس .
فكان طبيعياً إذاً أن يكون بدو شبه جزيرة العرب هم أمراء الصحراء ، كما أصبح
رجال السفن في العصور التي تلت والتي طغى الماء فيها على اليابسة هم أمراء
البحر . وكان طبيعياً إذاً أن يرسم أمراء الصحراء هؤلاء طرق القوافل من
أنحاءها فيما لا يخاف خطره ، كما يرسم رجال البحر خطوط سير السفن بعيدة
عن شعاب البحر ومخاطره . يقول هيرن : « لم يكن طريق القافلة شيئاً متروكاً
للاختيار بل كان مقررأ بالعادة . ففي هذه المراحل الفسيحة من الصحراء
الرملية عما كان رجال القوافل يجتازون ، حبت الطبيعة المسافر بضعة أما كن
مبعثرة في جذب البادية يتخذها موئلاً لراحته . وهناك ، في ظلال أشجار
التخيل وإلى جانب المياه العذبة التي تجرى من حولها ، يستطيع التاجر ودابة
حملة أن ينهلا من طبيهما ما أحوجهما إليه العنت الذي لقيا . وأصبحت منازل
الراحة هذه مستودعات للتجارة ، وصار بعضها مقاماً للهيكل والمحاريب .
يتابع التاجر في حمايتها تجارته ويلجأ الحاج إليها للتماس العون منها . » (١)

أمراء
الصحراء

طريق
القوافل

وكانت شبه الجزيرة تروج بطرق القوافل . على أن طريقين منها كانا
رئيسيين ؛ فأما أحدهما فيتأخم الخليج الفارسي ويتأخم دجلة ويقتمح بادية
الشام إلى فلسطين ؛ ويصح لمجاورته لحدود البلاد الشرقية أن يسمى طريق
الشرق . وأما الآخر فيتأخم البحر الأحمر ؛ ويصح لذلك أن يسمى طريق
الغرب . وعن هذين الطريقين كانت تنتقل مصنوعات الغرب إلى الشرق
ومتاجر الشرق إلى الغرب ، وكانت تجي إلى البادية أسباب الرخاء والرفاهية .
على أن ذلك لم يزد أهل الغرب معرفة بهذه البلاد التي تجتاز تجارتهم ؛ فقد
كان الذين يعبرونها من أهل الشرق والغرب قليلون ؛ لما في عبورها من مشقة
لا يحتملها إلا الذين اعتادوها منذ نعومة أظفارهم ، والمجازفون الذين يستهنون

(١) نقله موير في كتابه (حياة محمد)

بالحياة والذين كانوا كثيراً ما يضيعونها في هذه المهامه والدفاد عبثاً . وما
 احتمال رجل اعتاد بلهنية الحضر لوعث هذه الجبال الجرداء التي تفصل تهامة
 بينها وبين شاطئ البحر الأحمر بفاصل ضيق ؛ فاذا بلغها المسافر في تلك الأيام
 التي لم تعرف غير الجمل مطية للسفر ظل يصعد بين قممها حتى تقذفه إلى هضاب
 نجد الصحراوية القليلة الغناء ! . وما احتمال رجل اعتاد النظام السياسي الذي
 يكفل للناس جميعاً طمأنينتهم لعنت هذه البادية التي لا يعرف أهلها نظاماً
 سياسياً ، بل تعيش كل قبيلة بل كل أسرة بل كل فرد وليس ما ينظم علاقاته
 بغيره إلا روابط عصبية الأسرة والقبيلة ، أو قوة الحلف ، أو حتى الجوار يلتمس
 الضعيف به رعاية قوى إياه . فقد كانت حياة البادية في كل العصور حياة
 خارجة على كل نظام عرف الحضر : مطمئنة إلى العيش في حمى مبادى ،
 القصاص ، ودفع العدوان بالعدوان ، واغتيال الضعيف ما لم يجد من يحميه .
 وليست هذه بالحياة التي تشجع التطلع إلى استكناه أخبارها والتحقق من
 تفاصيل نظمها . لذلك ظلت شبه الجزيرة مجهولة من سائر العالم يومئذ ، إلى
 أن أتاحت لها الأقدار ، بعد ظهور محمد عليه الصلاة والسلام فيها ، أن يقص
 أخبارها من نزع عنها من أهلها وأن يقفوا العالم على كثير مما كان العالم من
 قبل ذلك في أتم الجهل به .

لم يند من بلاد العرب عن جهالة العالم به سوى اليمن وما جاورها
 من البلاد المتاخمة للخليج الفارسي . وليس يرجع ذلك إلى متاخمتها الخليج
 الفارسي أو المحيط الهندي أو البحر الأحمر وكفى ، ولكنه يرجع قبل ذلك
 وأكثر منه إلى أنها لم تكن كسائر شبه الجزيرة صحراوية جرداء لا تلتفت العالم
 ولا تجعل لدولة من صداقتها فائدة ولا لمستعمر فيها مطمئناً ، بل كانت على
 العكس من ذلك موطن خصب في الأرض ومطر منتظم الفصول في تهاته ،
 ومن ثم موطن حضارة مستقرة ذات مدائن عامرة ومعابد قوية على نضال

حضارة اليمن

الزمان . وكان سكانها من بني حمير ذوى فطنة وذكا . وعلم هداهم إلى حسن الاستفادة من الأمطار حتى لا تتسرب إلى البحر فوق الأرض المنحدرة إلى ناحيته ؛ ولذلك أقاموا سدّاً مأرب ، فحُوروا اتجاهها الطبيعي تحويراً تقتضيه حياة الحضارة والاستقرار . وكانت الأمطار إلى أن أقيم هذا السد تنزل بجبال اليمن المرتفعة ثم تنحدر في وديان واقعة إلى شرق مدينة مأرب . وكانت في انحدارها الأول تنزل بين جبلين يقومان عن جانب هذه الوديان يفصل بينهما أربعائة متر تقريباً ؛ فإذا بلغت مأرب انفرج الوادى انفرجاً تضيع المياه فيه كما تضيع في منطقة السدود بأعلى النيل . وكان سدّ مأرب قد شيدّ بالحجر عند مضيق الوادى ، وجعلت له فتحات يمكن تصريف المياه منها وتوزيعها إلى حيث يشاء الناس لتروى الأرض وتزيد لها خصباً وإثماراً .

وإن ما كشف وما لا يزال يكشف عنه حتى اليوم من آثار هذه الحضارة الحميرية في اليمن ليدل على أنها بلغت في بعض العصور مكاناً محموداً ، وأنها حكمت لقسوة الزمان في عصور قسا باليمن فيها الزمان .

اليهودية
والنصرانية
في بلاد اليمن

على أن هذه الحضارة وليدة الخصب والاستقرار جلبت على اليمن من الأذى ما منع الجذب منه أو اسط شبه الجزيرة . فقد ظل ملك اليمن في بني حمير يتوارثونه حيناً ويثب عليه حميريٌّ من الشعب حيناً آخر حتى ملكهم ذو نُوَاس الحميرى . وكان ذو نواس هذا ميّالاً إلى دين موسى راغباً عن الوثنية التي تورط فيها قومه ، أن كان من اليهود من هاجر إلى اليمن وأقام بها . وإلى جانب هؤلاء اليهود قام بعض النصارى بنجران ، اتبعوا رجلاً صالحاً من أتباع عيسى يدعى فيميون . وذو نُوَاس الحميرى هذا هو ، فيما يذكر المؤرخون ، صاحب قصة أصحاب الأخدود التي نزل فيها قوله تعالى : **وَقَتِلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ ، النَّارِ ذَاتِ الْوُؤُودِ ، إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ، وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شَرُودٌ ، وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ**

الحميري . . وخلاصة هذه القصة أن ذا نواس ، وكان ذا ميل لليهودية ، نهي إليه استفحال النصرانية في نجران . فسار إليها ودعا أهلها إلى دين نبي إسرائيل أو يقتلوا . فلما أبوا شق لهم أخذوداً أوقد فيه النار ثم ألقى بهم فيها وقتل بالسيف من لم يمت بالنار ، ومثّل بهم . حتى هلك منهم ، على رواية كتب السيرة ، عشرون ألفاً . وقد فر أحد هؤلاء النصارى من القتل ومن يد ذى نواس حتى أتى قيصر الروم جوستينيان فاستنصره على ذى نواس . ولما كانت الروم بعيدة عن اليمن كتب القيصر إلى النجاشي ليأخذ بالنار من ملك اليمن . ويومئذ (في القرن الخامس الميلادي) كانت الحبشة والنجاشي على رأسها في ذروة مجدها ، تجرى بأمرها على البحار تجارة واسعة ، ويمخر لها العُباب أسطول قوياً يجعلها تتساقط بنفوذها على ما حاذها من البلاد : وكانت حليفة الإمبراطورية البيزنطية ورافعة علم المسيحية على البحر الأحمر ، كما كانت بيزنطة رافعة علمها على البحر الأبيض . فلما بلغت النجاشي رسالة القيصر بعث مع النبي الذي كان قد قر وجاء بالرسالة جيشاً ، جعل على رأسه أرباط ومعه في جنده أبرهة الأشرم ، فغزا اليمن وملكها باسم عاهل الحبشة ، وظل على حكمها حتى قتله أبرهة واستولى على الحكم مكانه . وأبرهة هذا هو صاحب الفيل ، وهو الذي غزا مكة ليهدم الكعبة ففشل ، على نحو ما سيرى القارىء في الفصل الآتي .

وملك أبناء أبرهة اليمن من بعده وفشا فيها استبدادهم ، حتى إذا طال على الناس البلاء خرج سيف بن ذى يزن الحميري حتى قدم على ملك الروم فشكا إليه ما هم فيه وسأله أن يبعث إليهم من الروم من يكون له ملك اليمن . لكن حلف القيصر والنجاشي حال دون سماعه شكاية ابن ذى يزن ؛ ففرج من عند القيصر حتى أتى العُثمان بن المنذر ، وهو عامل كسرى على الحيرة وما يليها من أرض العراق .

حكم فارس
اليمين

فلما دخل النعمان على كسرى أبرويز دخل سيف بن ذى يزن معه. وكان كسرى يجلس في إيوان مجلسه وقد جمع فيه أجزاء عرش دارا، وكانت موثاة بصور نجوم المجرة من أعلام فلك البروج؛ فاذا كان في مشتاه وضعت هذه الأجزاء يحيط بها ستار من أنفاس الفراء تتدلى أثناءه ثريات من فضة وأخرى من ذهب ملئت بالماء الفاتر ونصب فوقها تاجه العظيم يضرب فيه الياقوت والزبرجد واللؤلؤ بالذهب والفضة مشدوداً إلى السقف بسلسلة من ذهب، وكان يلبس نسج الذهب ويتشح بحلي الذهب؛ فما يلبث أن يراه من يدخل إلى مجلسه حتى تأخذه هيبتة. وكذلك كان شأن سيف بن ذى يزن. فلما نظامن وسأله كسرى عن أمره وما جاء فيه قص له أمر الحبشة وظلمها اليمن. وتردد كسرى بادية الرأي. ثم بعث معه جيشاً على رأسه وهريز من خير بيوت فارس وأكثرها فروسية وشجاعة. وتغلب الفرس وأجلوا الأحابش عن اليمن بعد أن ملكوها اثنتين وسبعين سنة. وظلت اليمن في حكم فارس حتى كان الإسلام ودخلت مع سائر البلاد العربية في دين الله وفي الإمبراطورية الإسلامية.

حكم شيرويه
في فارس

على أن الأعاجم الذين تولوا أمر اليمن لم يكونوا تابعين تبعية مباشرة إلى ملك فارس. وكان الأمر كذلك بنوع خاص بعد أن قتل شيرويه أباه كسرى أبرويز وقام في الملك مقامه، وخيل إليه في غرارة سذاجته أن العوالم تسير على هواه، وأن ممالك الأرض تعمل لمزء خزائنه ولتزيد فيما أغرق فيه نفسه من نعيم. فلقد انصرف هذا الملك الشاب عن كثير من شؤون الملك إلى متعه وملذاته: فكان يخرج للصيد في ترف لم تسمع به أذن؛ كان يخرج يحيط به الشبان الأمراء في ثياب حمر وصفرة وبنفسجية ومن حولهم حملة البزاة والخدم يسكون الفهود الأليفة بالكلمات، والعييد حملة الطيب ومطاردو الذباب والموسيقيون. وليشعر نفسه في قر الشتاء بهاء الربيع كان

يجلس وحاشيته على بساط فسيح صورت عليه طرق المملكة ومزارعها وفيها الأزهار المختلفة الألوان من ورائها الأحراش والغابات الخضراء والأنهار ذات اللون الفضي . على أن فارس ، رغم انصراف شيرويه إلى مسراته ، كانت ما تزال في قمة مجدها ، وكانت المنافس القوي لسلطان بزنطة ولا انتشار المسيحية ، وإن كان اعتلاء شيرويه عرشها قد آذن بأفول هذا المجد ومهد لغزو المسلمين من بعد إياها ولا انتشار الإسلام فيها .

هذا النزاع الذي كانت اليمن مسرحه منذ انقراض القرن الرابع المسيحي كان عميق الأثر في تاريخ شبه جزيرة العرب من حيث توزيع سكانها . فقد قيل : إن سد مأرب الذي حوّر الحميريون الطبيعة به لفائدة بلادهم ، قد طغى عليه سيل العرم فطمه ، أن كانت هذه المنازعات المستمرة قد صرفت الناس وصرفت الحكومات المتعاقبة عن تعهده والاستمرار في تقويته ، فضعف فلم يقو على صد هذا السيل . وقيل : إن ملك الروم لما رأى اليمن موطن نزاع بينه وبين فارس وأن تجارتها مهددة من جراء هذا النزاع ، جهز أسطولاً يشق البحر الأحمر ما بين مصر وبلاد الشرق البعيدة ويحلب التجارة التي تحتاج إليها بزنطة ، ويستغنى بذلك عن طريق القوافل . ويذكر المؤرخون واقعة يتفقون عليها ويحتفون في السبب الذي أدى إليها . هذه الواقعة هي هجرة أزد اليمن إلى الشمال . فكلمهم يقول بهذه الهجرة وإن نسبها بعضهم إلى إقفار كثير من مدائن اليمن بسبب اضمحلال التجارة التي كانت تمر بها ، وعزاها آخرون إلى انقطاع سد مأرب واضطرار كثير من القبائل إلى الهجرة مخافة الهلاك . وأينما كانت الحقيقة فهذه الهجرة هي السبب في اتصال اليمن بسائر بلاد العرب اتصال نسب واختلاط ما يزال الباحثون يحاولون حتى اليوم تحديده .

إذا كان النظام السياسي قد اضطرب في اليمن على نحو ما رأيت بسبب الظروف التي مرت ببلاد الحميريين بها؛ والغزوات التي كانت تلك البلاد ميداناً

انهار سد
مأرب

لها ، فقد كان هذا النظام السياسي غير معروف في سائر بلاد شبه الجزيرة . وكل نظام يمكن أن يوصف بأنه نظام سياسي على المعنى الذي نفهمه نحن اليوم أو الذي كانت الأمم المتحضرة تفهمه في تلك الأيام ، كان مجهولاً وأكثر من مجهول في ربوع تهامة والحجاز ونجد وتلك المساحات الشاسعة التي منها كانت تتكوّن بلاد العرب ؛ فقد كان هؤلاء الناس ، كما لا يزال أكثرهم حتى اليوم ، أهل بادية لا يألفون الحضرة . ولا يصب لهم المقام ولا الاستقرار بأرض معينة ، ولا يعرفون غير دوام الارتحال والنقلة طلباً للرعي وإرضاء لهوى نفوسهم التي لم تعرف غير حياة البادية ولا تطبق حياة غيرها . وأساس حياة البادية حيث وجدت من بقاع الأرض ، إنما هي القبيلة . والقبائل الدائمة التجوال والترحال لا تعرف قانوناً كالذي نعرف ، ولا تخضع لنظام كالذي نخضع له ، ولا تصبر على مادون الحرية كاملة للفرد وللأسرة وللقبيلة كلها . وإذا كان أهل الحضرة يرضون النزول باسم النظام عن جانب من حريتهم للجموع أو للحاكم الفرد مقابل ما يتعمون به من طمأنينة ورخاء ، فرجل البادية الزاهد في الرخاء التبرم بطمأنينة الاستقرار ، لا يخدعه عن شيء من حريته الكاملة رجاء فيما يفرح به أهل المدن من جاه أو مال . ولا يرضى بما دون المساواة الكاملة بينه وبين أفراد قبيلته جميعاً وبين قبيلته وغيرها من القبائل . وإنما ينتظم حياته ما ينتظم سائر الخلق من حب البقاء والحرص عليه والدفاع عنه ، على أن يكون ذلك كله متفقاً مع قواعد الشرف التي تملها حياة البادية الحرة ، لذلك لم يكن أهل هذه البادية يقيمون على ضيم يراد بهم . بل كانوا يدفعونه بقوتهم . فان لم يستطيعوا دفعه تخلّوا عن مواطنهم وارتحلوا عن شبه الجزيرة كلها إذا لم يكن من هذا الارتحال بدئ . لذلك لم يكن شيء أيسر عند هذه القبائل من القتال إذا نبت خلاف لم يتيسر في ظلال قواعد الكرامة والمروءة والشرف تسويته .

ولذلك نجحت في هذه القبائل خلال الكرم والشجاعة والنجدة وحماية الجار وانغفو عند القدرة وما إلى ذلك من خلال تقوى في النفس كلما قاربت حياة البادية ، وتضعف وتضعحل فيها كلما أوغلت في أسباب الحضارة . ولذلك ولما قدمنا من أسباب اقتصادية ، لم تطمع بيزنطة ولا طمعت فارس فيما سوى اليمن من بلاد شبه الجزيرة التي لا يمكن أن تخضع ؛ لأنها تؤثر على الخضوع هجرة الوطن ، ولأن أفرادها وقبائلها لا يدينون بالطاعة لنظام قائم ولا لهيئة حاكمة يكون إخضاعها إخضاعاً لهم والسلطان عليها سلطاناً عليهم .

وقد أثرت هذه الطبائع البدوية ، إلى حد كبير ، في البلاد القليلة التي نشأت في أنحاء شبه الجزيرة بسبب تجارة القوافل على نحو ما قدمنا . هذه البلاد الصغيرة التي يأوى إليها التجار يقطعون عندها متاعب رحلاتهم المضنية ويجدون بها هياكل عبادة يشكرون فيها الآلهة أن مننت عليهم بالنجاة من أخطار الفلوات ، وأن جابت تجارتهم سالمة إلى حيث وصلوا . من هذه البلاد مكة والطائف ويثرب وأشباهاها من الواحات المنشورة بين الجبال أو خلال رمال الصحراء . تأثرت هذه البلاد بطبائع البادية ، فكانت أقرب إلى البداوة منها إلى الحضارة في نظام قبائلها وطوائفها وفي أخلاق أهلها وعاداتهم وفي شدة نفورهم من كل حدٍّ لحريةهم ، وإن اضطرتهم حياة الاستقرار إلى نوع من الحياة غير ما اعتاد أهل البادية . وسنرى شيئاً من تفصيل ذلك عند الكلام في الفصول الآتية عن مكة وعن يثرب .

هذه البيئة الطبيعية وما ترتب عليها من هذه الأحوال الخلقية والسياسية والاجتماعية كان لها أثر مشابه في أخال الدينية . فهل تأثرت اليمن ، بطبيعة اتصالها بمسيحية رومية ومجوسية الفرس ، بهذين الدينين وأثرت بهما في سائر بلاد شبه الجزيرة ؟ هذا ما يتبادر إلى الذهن ، وهو كذلك بنوع خاص في أمر المسيحية . فالمبشرون بدين عيسى كان لهم في ذلك العصر ما لهم اليوم من

نشاط في الدعوة إلى دينهم والتبشير به . وفي طبيعة حياة البادية من تحريك المعاني الدينية في النفس ما ليس في طبيعة حياة الحضر . في حياة البادية يتصل الانسان بالكون في كثير من صور لا نهاية الوجود وألوانها، ويشعر بضرورة تنظيم ما بينه وبين الوجود في لا نهايته أكثر من شعور المقيم بالحضر . المحجوب عن لا نهاية الوجود بمشاغله وبجماية الجماعة إياه ونزوله عن جانب من حريته مقابل هذه الحماية ، وبضعف روح النضال ضد العناصر المحيطة به ضعفاً يهون عليه الاذعان لسلطان الحاكم ويقصر به عن الاتصال بما وراء الحاكم من القوى الطبيعية القوية الأثر في الحياة . تُرى هل أفادت هذه الظروف كلها المسيحية الجمة النشاط منذ عصورها الأولى في سبيل ذبيحتها وانتشارها؟! ربما انتهى الأمر إلى ذلك لولا ظروف أخرى حالت دونه وأبقت بلاد العرب كلها واليمن معها على الوثنية دين آباؤها وأجدادها . إلا قليلاً كان من القبائل التي لانت للدعوة المسيحية .

فقد كانت أقوى مظاهر الحضارة العالمية في ذلك العصر تحيط ، كما رأيت ، بحوضي البحر الأبيض (بحر الروم) والبحر الأحمر (بحر القلزم) . وكانت المسيحية واليهودية تتجاوزان في ذلك المحيط جواراً إلا يكن فيه عداء ظاهر فليست فيه مودة ظاهرة . وكان اليهود ما يزالون إلى يومئذ يذكرون ثورة عيسى بهم وخروجه على دينهم ، فكانوا يعملون في الخفية ما استطاعوا لصد تيار المسيحية الذي أخرجهم من أرض الميعاد ، والذي استظل بلواء رومية في امبراطوريتها الفسيحة المترامية الأطراف ، وكان لليهود في بلاد العرب جاليات كبيرة يقيم أكثرها في اليمن وفي يثرب . ثم كانت مجوسية الفرس تقف في وجه القوات المسيحية حتى لا تعبر الفرات إلى فارس ، وتؤيد بقوتها المعنوية طقوس الوثنية حيثما وجدت الوثنية . وكان سقوط رومية في يد الفندال الهمج وانتقال عاصمة حضارة العالم إلى بنزلة وما تلا ذلك من

بوادر التحلل، قد أكثر الشيع في المسيحية كثرة جعلتها - كما قدمنا - تتناحر وتقتتل وتهوى من عليا مراتب الايمان الى الجدل في الصور والألفاظ وفي مبلغ قداسة مريم وتقدمها على ابنها المسيح أو تقدمه عليها، جدلاً هو النذير أنني وُجد بتدهور ما يجرى بشأنه وما يحدث من أجله: ذلك بأنه يذر اللب ويأخذ بالقشور، ويظل يكذب من هذه القشور فوق اللب ما يخفيه وما يجعل من المحال على الناس إدراكه أو اختراق حجب القشور اليه.

تناحر الفرق
المسيحية

وقد كان ما يحدث جدل نصارى الشام حوله غير ما يحدث جدل أهل الحيرة أو أهل الحبشة حوله. ولم يكن اليهود بطبيعة صلتهم بالنصارى ليعملوا على تهدئة هذا الجدل أو التسكين من حدته. لذلك كان طبعياً أن يظل العرب الذين يتصلون في رحاى الشتاء والصيف بنصارى الشام وبنصارى اليمن ومن يفدون عليهم من نصارى الحبشة بعيدين عن أن ينتصروا لفرق على فريق، مطمئنين إلى وثنيتهم التي وُلدوا فيها وتابَعوا آباءهم عليها. ولذلك ظلت عبادة الأصنام مزدهرة عندهم، حتى امتد شيء من أثرها إلى جيرانهم نصارى نجران ويهود يثرب الذين تساحروا في أمرها ثم احتملوا ثم اطمانوا إليها، أن كانت من صلات التجارة أحسنه بينهم وبين هؤلاء العرب الذين يعبدونها لتقربهم إلى الله زُلْفَى.

ولعل تناحر الفرق المسيحية لم يكن وحده السبب في إصرار العرب على وثنيتهم: فقد كانت الوثنيات المختلفة ما تزال لها بقايا في الأمم التي انتشرت المسيحية فيها. كانت الوثنية المصرية والوثنية الاغريقية ما تزالان تَبَدَّيان من خلال المذاهب المختلفة. ومن خلال بعض المذاهب المسيحية نفسها. وكانت مدرسة الاسكندرية وفلسفتها ما تزال ذات أثر، إن يكن أقل بكثير مما كان في عهد البطالسة وفي أول العهد المسيحي، فقد كان على كل حال ما يزال متغلغلا في النفوس، وما يزال منطقَه البراق المظهر، وإن يكن فسفطاني الجوهر،

انتشار
الوثنية

يغرى بهذه الوثنية المتعددة الآلهة القريبة بأهتها إلى سلطان الانسان المحببة لذلك إليه . وأكبر ظني أن هذا هو ما يشتد بالنفوس الضعيفة إلى الحرص على الوثنية في كل الأزمان وفي زماننا هذا . النفوس الضعيفة أعجز من أن تسمو للاتصال بالوجود كله ولادراك وحدته ممثلة فيما هو أسمي من كل ما في الوجود : ممثلة في الله ذى الجلال . وهي لذلك تقف عند مظهر من مظاهر هذا الوجود كالشمس أو كالتنمر أو كالنار ، ثم تضعف عن الارتفاع بنفسها الى تمثل هذا المظهر فيما يدل عليه هر أيضاً من وحدة الوجود .

هذه النفوس الضعيفة تكثفي بوثن يتمثل لها فيه معنى مبهم وضيق من الوجود ووحدته ، فتصل بهذا الوثن وتخلع عليه من صور العبادة ما لا تزال تراه في بلاد العالم جميعاً ، برغم ما يزعم هذا العالم من تقدم في العلم وسمو في الحضارة . وإن الذين زاروا كنيسة القديس بطرس في رومية ورأوا قدم تمثال القديس تبريها قبلاات عبادة المؤمنين ، حتى اضطرت الكنيسة الى تغييرها كلما انبرت . ليعتدروا أولئك الذين لما لم يكن الله قد هداهم الى الايمان ، إذ يرون تناحر جيرانهم النصارى وبقاء طقوس الوثنية بينهم بقاء لم ينقطع حتى اليوم وما أحسبه ينقطع أبداً . وبقاء يفسر هذه الوثنية التي يرتضيها المسلمون اليوم في دينهم ، وهو الذي جاء حرباً على الوثنية ، وهو الذي قضى على كل عبادة غير عبادة الله ذى الجلال .

عبادة
الأصنام

ولقد كانت للعرب في عبادة الأوثان أفانين شتى يصعب على باحث اليوم أن يحيط بها ؛ فقد حطم النبي الأصنام وأمر أصحابه بتحطيمها حيثما أتفوها ، وتامى المسلمون عن التحدث عنها بعد أن عفاوا على آثارها وأزالوا من الوجود في التاريخ وفي الأدب كل ما يتصل بها . على أن ماورد من ذكرها في القرآن وما تناقلته الروايات في القرن الثاني للهجرة عنها بعد إذ أمن المسلمون الفتنة منها ، ينبيء عما كان لها قبل الاسلام من جليل المكائنة وما كانت

عليه من مختلف الصور ، ويدل على أنها كانت درجات في القداسة ، وأن كل قبيلة كان لها صنم تدين له . وكانت هذه المعبودات الجاهلية تختلف ما بين الصنم والوثن والنصب . فالصنم ما كان على شكل الانسان من معدن أو خشب . والوثن ما كان على شكله من حجر . أما النصب فصخرة غير ذات صورة معينة تجرى عليها قبيلة من القبائل طقوس القداسة لما تزعمه من أصلها السامى أن كانت حجراً بركانياً أو ما يشبهه . ولعل أدق الأصنام صنفاً ما كان لأهل اليمن . ولا عجب ، فخطهم من الحضارة لم يعرفه أهل الحجاز ولا عرفه أهل نجد وكندة . على أن كتب الأصنام لا تشير بالدقة إلى شيء من صور هذه الأصنام إلا ما قيل عن هبل من أنه كان من العقيق على صورة الانسان ، وأن ذراعه كسر فأبدله القرشيون منه ذراعاً من ذهب . وهبل كبير آلهة العرب وساكن الكعبة بمكة ، يحج إليه الناس من كل فج عميق . ولم يكن العرب ليكتفوا بهذه الأصنام الكبرى يقدمون إليها صلواتهم وقرابينهم . بل كان أكثرهم يتخذ له صنماً أو نصباً في بيته ، يطوف به حين خروجه وساعة أوبته ويأخذه معه عند سفره إذا أذن له هذا الصنم في السفر . وهذه الأصنام جميعاً سواء منها ما كان بالكعبة أو حولها وما كان في مختلف جهات بلاد العرب وبين مختلف قبائلها ، كانت تعتبر الوسيط بين عبادةها وبين الآلهة الأكبر . وكانت العرب لذلك تعتبر عبادتها إياها زلنى تتقرب بها إلى الله ، وإن كانت قد نسيت عبادة الله لعبادتها هذه الأصنام .

وعلى الرغم من أن اليمن كانت أرقى بلاد شبه الجزيرة كلها حضارة بسبب مكانة مكة خصبها وحسن تنظيم الحدار المياه إلى أرضها ، فانها مع ذلك لم تكن مطمح بصر أهل هذه البلاد الصحراوية المترامية الأطراف ولم يكن إلى معابدها حجيجهم ؛ وإنما كانت مكة وكانت كعبتها بيت إسماعيل مثابة الحج . إليها كانت تُشد الرحال والأبصار ، وفيها أكثر من كل جهة سراها كانت تُرعى الأشهر

الحرم . لذلك ولمركزها الممتاز في شؤون تجارة بلاد العرب كلها ، كانت تعتبر عاصمة شبه الجزيرة . ثم أراد القدر من بعد أن تكون مسقط رأس محمد النبي العربي ، فتكون بذلك مُتَّجِهَ نظر العالم على توالي القرون ، وتظل لبيتها العتيق قَدَاسته ، وتبقى لقريش فيها المكَانَةَ السامية . وإن ظلت وظلوا جميعاً أدنى إلى خشونة البداوة التي كانوا عليها منذ عشرات القرون .

الفصل الثاني

مكة . والكعبة . وقريش

موقع مكة - ابراهيم واسماعيل - قصة الفداء والذبح - زمزم
زواج اسماعيل من جرم - بناء الكعبة - ولاية جرم امر مكة
قصي وأولاده - اجتماع امر مكة لقصي القرشي - هشام وعبد المطلب
وظائف مكة لزمنية ولدينية - الحاج الى الكعبة - قصة أبرهة
والفيل - عبد الله بن عبد المطلب - قصة فدائه

في وسط طريق القوافل المحاذي للبحر الأحمر ما بين اليمن وفلسطين، تقوم
عدة سلاسل من الجبال تبعد نحو الثمانين كيلومترا من الشاطئ، تحيط بواد
غير فسيح وتكاد تحصره لولا منافذ ثلاثة يتصل أحدها بطريق اليمن، ويتصل
الثاني بطريق قريب إلى البحر الأحمر (بحر القلزم) عند مرفأ جدّة، ويتصل
الثالث بالطريق المؤدى إلى فلسطين. في هذا الوادي المحصور بين الجبال تقوم
مكة. ومن العسير معرفة تاريخ إقامتها. وأغلب الظن أنه يرجع إلى ألوف من
السنين مضت. والنايت أن وادها اتخذ من قبل أن تبنى موثلا لراحة رجال
القوافل، بسبب ما كان به من بعض العيون، وأن رجال القوافل هؤلاء كانوا
يجعلون منها مضارب لخيامهم سواء منهم القادمون من ناحية اليمن قاصدين
فلسطين، والقادمون من فلسطين متجهين إلى اليمن. والراجح أن اسماعيل
ابن ابراهيم أول من اتخذها مقاما وسكنا، بعد أن كانت مجرد محلة للقوافل

موقع مكة

وسوق للتجارة يقع فيها التبادل بين الآتين من جنوب شبه الجزيرة والمنحدرين من شمالها .

وإذ كان إسماعيل أول من اتخذ مكة مقاماً وسكناً فان تاريخها فيما قبل ذلك غامض كل الغموض ، وإن يكن من الممكن القول بأنها اتخذت مقاماً للعبادة قبل أن يحج إليها ويقم بها . وقصة مجيئه إليها تحملنا على أن نلخص قصة أبيه إبراهيم عليهما السلام : فقد ولد إبراهيم بالعراق لأب نجار كان يصنع الأصنام ويبيعها من قومه يعبدونها . فلما شب إبراهيم ورأى الأصنام يصنعها أبوه ثم رأى قومه من بعد ذلك كيف يعبدونها وكيف يخاعون على هذه القطع من الخشب اتى مرت بين يديه ويدي أبيه كل تلك القداسة ، ساوره الشك في أمرها ، وسأل أباه : كيف يعبدوا هوى من صنع يده ؟ ! وتحدث إبراهيم بذلك إلى الناس : فاهتم أبوه لأمره مخافة ما يجره من بوار تجارته . لكن إبراهيم كان ممن يحترمون عقولهم ويريدون أن يحملوا الناس بالحجة على الاقتناع بأرائهم ؛ فانتهر غفلة من الناس فذهب إلى هذه الآهة فكسرها إلا كبيرها . فلما جرى به على أعين الناس قيل له : « أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا يَا ابْنَتَنَا يَا إِبْرَاهِيمَ ؛ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْظِقُونَ » . وإنما فعل إبراهيم هذا بعد إذ فكر في ضلال عبادة الأصنام وفيمن يجب له العبادة . « فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي ، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفَلِينَ . فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْسَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ . فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إنيُّ بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . إنيُّ وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلدِّينِ فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ »

ولم ينجح إبراهيم في هداية قومه بل كان جزاؤه منهم أن ألقوه في النار .

إبراهيم
عليه السلام

ابراهيم
وسارة مصر

وأبجاء الله منها ففر إلى فلسطين مستصحباً معه زوجته سارة، ومن فلسطين ارتحل إلى مصر، وبها يومئذ ملوك العماليق (الهكسوس). وكانت سارة جميلة، وكان الملوك الهكسوس يأخذون الجميلات المتزوجات؛ فأظهر ابراهيم أن سارة أخته خشية أن يقتله الملك ليتخذها له زوجاً. وأراد الملك اتخاذها زوجاً، فرأى في المنام أنها ذات بعل فردّها إلى ابراهيم بعد أن عاتبه وأعطاه هدايا من بينها جارية تدعى هاجر. ولما كانت سارة قد سلخت السنين الطوال مع ابراهيم ولم تلد فقد دفعته ليدخل بها هاجر، فدخل بها فلم تبطن له أن ولدت له اسماعيل. ولما شبّ اسماعيل وترعرع دبت الغيرة في نفس سارة فحملت ثم ولدت إسحاق. يختلف الرواة ها هنا على مسألة إقدام ابراهيم على ذبح اسماعيل والفداء وهل كانت قبل ميلاد إسحاق أو بعده، وهل كانت بفلسطين أو بالحجاز. وإن مؤرخي اليهود ليذهبون إلى أن الذبيح إنما كان إسحاق ولم يكن اسماعيل. وليس ها هنا مقام تمحيص هذا الخلاف. وفي رأى الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار في كتاب قصص الأنبياء أن الذبيح هو اسماعيل. ودليله من التوراة نفسها أن الذبيح وصف فيها بأنه ابن ابراهيم الوحيد. وإلى أن ولد إسحاق كان اسماعيل هو الابن الوحيد. فلما ولدت سارة لم يبق لابراهيم ابن وحيد أن كان له اسماعيل وإسحاق. والتسليم بهذه الرواية يقتضى أن تكون قصة الذبح والفداء بفلسطين. وكذلك يكون الأمر إذا كان الذبيح إسحاق. فقد ظل إسحاق مع أمه سارة بفلسطين ولم يذهب إلى الحجاز. فأما الرواية التي تذهب إلى أن الذبح والفداء إنما كانا فوق منى فتجعل الذبيح اسماعيل. ولم يرد في القرآن ذكر لاسم الذبيح مما جعل المؤرخين المسلمين يختلفون فيه.

قصة العدا
في القرآن

وقصة الذبح والفداء أن ابراهيم رأى في منامه أن الله يأمره بأن يقدم ابنه قُرْبَاناً له فيذبحه ومحرّقه؛ فسار وابنه في الصباح. « فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى، قَالَ يَا أَبَتِ

افعل ما تؤمرُ ستجدني إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتلَّهُ
 للنجيين . وتاديتاه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذالك نجزي
 الْمُخْسِينَ . إن هذا لهُوَ البلاءُ الْمُبينُ وَوَدَّيْتَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ .

القصة في
 رواية التاريخ

وتسبغ بعض الروايات على هذه القصة خيالا شعريا تدعوننا روعته
 أن نقصه هنا وإن لم يقتض الحديث عن مكة قصصه : ذلك أن إبراهيم لما رأى
 في المنام أنه يذبح ابنه وتحقق أن ذلك أمر ربه قال لابنه : يا بني خذ الحبل
 والمدية وانطلق بنا إلى هذه الهضبة لنحتطب لاهنا . وفعل الغلام وتبع والده .
 فتمثل الشيطان رجلا فجاء أم الغلام فقال لها : أتدرين أين يذهب إبراهيم
 بابنك ؟ قالت : ذهب به يحتطب لنا من هذا الشَّعب . قال الشيطان : والله ما ذهب
 به إلا ليذبحه . قالت الأم : كلا ! هو أشفق به وأشد حبا له . قال الشيطان :
 إنه يزعم أن الله أمره بذلك . فأجابت الأم : إن كان الله قد أمره بذلك فليطع
 أمر ربه . فانصرف الشيطان خاسئا ، ثم لحق بالابن وهو يتبع أباه وألقى إبليس
 عليه ما ألقى على أمه . وأجاب الابن بما أجابت هي به . فأقبل الشيطان على
 إبراهيم يذكر له أن المنام الذي رأى خدعة من الشيطان ليذبح ابنه ثم يندم
 ولات ساعة مندم . فصرفه إبراهيم ولعنه ، فنكص إبليس على عقبيه خزيان
 مخفأ أن لم ينل من إبراهيم ولا من زوجه ولا ابنه ما أراد أن يبلغ منهم . ثم
 إن إبراهيم أفضى إلى ابنه برؤياه وسأله رأيه في الأمر . قال : يا أبت أفعل
 ما تؤمر . ثم قال في رواية القصة الشعرية : يا أبتاه إذا أردت ذبحي فأشدد
 وثاقي لتلا يصيبك شيء من دمي فينقص أجزى . وإن الموت لشديد ولا آمن
 أن أضرب عنده إذا وجدت مسه ، فأشحن شفرتك حتى تجهز علي ، فإذا أنت
 أضجعتني لتذبحني فاكبني على وجهي ولا تضجعي لجنبي ، فاني أخشى إن أنت
 نظرت إلى وجهي أن تدرك الرقة فتحول بينك وبين أمر ربك في . وإن
 رأيت أن ترد قيصي إلى أمي فقد عسى أن يكون أسلى لها فافعل . قال إبراهيم :

نعم العون يا بنى أنت على أمر الله . ثم إنه همّ بالتنفيذ فأوثق كنف الغلام وتله للجبن وأراد أن يقتله ، فردى أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا . وافندى الغلام بكبش عظيم وجده إبراهيم على مقربة منه فدبحه وحرّقه .
هذه قصة الذبح والفداء . وهى قصة الاسلام لأمر الله غاية الاسلام والتسليم لقضائه كل التسليم .

وشبّ إسحاق إلى جانب اسماعيل . وتساوى عطف الأب على الاثنين فأغضب ذلك سارة أن رأت هذه التسوية بين ابنها وابن هاجر أمّتها غير لائقة بها ، وأقسمت لا تسكن هاجر ولا ابنها حين رأت إسماعيل يضرب أخاه . وأحس إبراهيم بأن العيش لن يطيب وهاتان المرأتان فى مكان واحد . عند ذلك ذهب بهاجر وبابنها ميمما الجنوب حتى وصل إلى الوادى الذى تقوم مكة اليوم به . وكان هذا الوادى ، كما قدمنا ، مضرب خيام القوافل فى الأوقات التى تفصل فيها القوافل من الشام إلى اليمن أو من اليمن إلى الشام ، ولكنه كان فيما خلا ذلك من أوقات السنة خلاء أو يكاد . وترك إبراهيم إسماعيل وأمّه وترك لهما بعض ما يتبذغان به . واتخذت هاجر عريشاً أوت إليه مع ابنها . وعاد إبراهيم أدراجه من حيث أتى . فلما نفذ الماء والنزاد جعلت هاجر تجيل طرفها فيما حولها فلا ترى شيئاً ، فجعلت تهرول حتى نزلت الوادى تلتمس ماء ، وهى - فيما يقولون - لا تنفك فى هرولتها بين الصفا والمروة ، حتى إذا أتمت السعى سبعا عادت إلى ولدها وقد ملكها اليأس . فألفته قد فحّص الأرض بقدمه فنبع الماء من الأرض ، فارتوت وأروت إسماعيل معها وحبست الماء عن السيل حتى لا يضيع فى الرمال .

ابراهيم يذهب
باسماعيل وأمّه
إلى وادى مكة

رواية زمر

وأقام الغلام وأمّه ترد عليهم العرب أثناء رحلاتهم فينالان من الخير ما يكفيهم أسباب العيش إلى أن تمر بهم قوافل أخرى . على أن زمزم التى تفجر ماؤها قد استهوت بعض القبائل للمقام على مقربة منها . وجرهم أولى

القبائل التي أقامت والتي يقول بعض الرواة: إنها كانت هناك قبل أن تيجي. هاجر وابنها على حين تذهب روايات أخرى إلى أنها لم تقم إلا بعد أن تفجرت زمزم وجعلت العيش في هذا الوادي الأجرد مستطاعا. وشب اسماعيل وتزوج فتاة من جرهم، وأقام وإياها مع الجرهميين في هذا المكان الذي شيد به البيت الحرام وقامت مكة بعد ذلك من حوله. ويذكرون أن إبراهيم استأذن سارة يوما في زيارة اسماعيل وأمه فأذنت له فذهب: فلما سأل عن بيت اسماعيل وعرفه قال لامرأته: أين صاحبك؟ قالت: ذهب يتصيد ما نعيش به. فسألها أعندها ضيافة من طعام أو شراب؟ فأجابت بأن ليس عندها شيء. فانصرف إبراهيم بعد إذ قال لها: إذا جاء زوجك فأقرئيه مني السلام وقولي له غير عتبة بيتك. فلما أخبرت اسماعيل بما ذكر أبوه سرحها وتزوج جرهمية أخرى بنت مضاض بن عمرو. وقد أكرمت هذه وفادة إبراهيم لما جاء بعد ذلك بزمن. فلما انصرف طلب إليها أن تقرئ زوجها السلام وتقول له: الآن استقامت عتبة بيتك. وولد لاسماعيل من هذا الزواج اثنا عشر ولدا هم آباء العرب المستعربة. هؤلاء العرب الذين ينتمون من ناحية خزولتهم في جرهم إلى العرب العاربة أبناء يعزب بن قحطان، ومن ناحية أبوتهم لاسماعيل ابن إبراهيم الذي يمت من ناحية أمومته إلى مصر بأوثق نسب. ومن ناحية أبوته إلى العراق وإلى فلسطين وإلى حيث نزل إبراهيم من أرض الله.

هذه القصة من قصص التاريخ يكاد ينعقد الإجماع على جملتها من ذهب

مناقشة القصة

إبراهيم واسماعيل إلى مكة وإن وقع خلاف على التفاصيل. والذين يعرضون لتفاصيل حوادثها بالنقد يروونها على أن هاجر ذهبت باسماعيل إلى الوادي الذي به مكة اليوم، وكانت به عيون أقامت جرهم عندها، فنزلت هاجر منهم أهلا وسهلا لما جاء إبراهيم بها وابنها. فلما شب اسماعيل تزوج جرهمية ولدت له أولاده. وكان لهذا التلاحق بين اسماعيل العبري المصري وبين هؤلاء العرب

ما جعل ذريته على جانب من العزم وقوة البأس والجمع بين فضائل العرب
 والعبريين والمصريين . واذأفا ورد عن حيرة هاجر لما نضب الماء منها ، وعن
 سعيها سبعمائة الصفا والمروة . وعن زمزم وكيف نبع الماء منها ، موضع شك
 عندهم . لكن سير ولیم مویرير تآب فی ذهاب إبراهيم وإسماعيل إلى الحجاز
 وينفی القصة من أساسها ويذكر أنها بعض الاسرائيليات ابتدعتها اليهود قبل
 الاسلام بأجيال ليربطوا بها بينهم وبين العرب بالاشترك في أبوة إبراهيم لهم
 أجمعين أن كان إسحاق أباً لليهود . فاذا كان أخوه إسماعيل أبا العرب فهم اذا
 أبناء عمومة توجب على العرب حسن معاملة النازلين بينهم من اليهود وتيسر
 اتجارة اليهود في شبه الجزيرة . ويستند المؤرخ الانكليزي في رأيه هذا إلى
 أن طقوس العبادة في بلاد العرب لا صلة بينها وبين دين إبراهيم لأنها وثنية
 مفرقة في الوثنية ، وكان إبراهيم حنيفاً مسلماً . ولسنا نرى مثل هذا التعليل كافياً
 لنفي واقعة تاريخية . فوثنية العرب بعد موت إبراهيم وإسماعيل بما يزيد عن
 تسعمائة سنة لا تدل على أنهم كانوا كذلك حين جاء إبراهيم إلى الحجاز وحين
 اشترك إسماعيل في بناء الكعبة . ولو أنها كانت وثنية يومئذ لما أيد ذلك رأى
 سير مویرير . فقد كان قوم إبراهيم يعبدون الأصنام وحاول هو هدايتهم فلم
 ينجح . فاذا دعا العرب إلى مثل ما دعا اليه قومه فلم ينجح وتبقى العرب على
 عبادة الأوثان لم يطعن ذلك في ذهاب إبراهيم وإسماعيل إلى مكة . بل إن
 المنطق ليؤيد رواية التاريخ . فإبراهيم الذي خرج من العراق فاراً من أهله
 إلى فلسطين وإلى مصر ، رجل ألف الارتحال ، وألف اجتياز الصحارى .
 والطريق ما بين فلسطين ومكة كان من أقدم العصور مطروفاً من القوافل .
 فلا محل إذاً للريبة في واقعة تاريخية انعقد الاجماع على جملتها .

والسير ولیم مویرير والذين ارتأوا في هذه المسألة رأيه يقولون بإمكان
 انتقال جماعة من أبناء إبراهيم وإسماعيل بعد ذلك من فلسطين إلى بلاد العرب

واتصالهم وإياهم بصلة النسب . وما ندرى وهذا الامكان جائز عندهم في شأن أبناء ابراهيم واسماعيل كيف لا يكون جائزاً في شأن الرجلين بالذات ! وكيف لا يكون ثابتاً قطعاً ورواية التاريخ تؤكداه ! وكيف لا يكون بحيث لا يأتيه الريب وقد ذكره القرآن وتحدثت به بعض الكتب المقدسة الأخرى !

بناء ابراهيم
واسماعيل
الكتب

ورفع ابراهيم واسماعيل القواعد من البيت الحرام . و« إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لِلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ . فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مِّمَّا مَقَّامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا » . ويقول تعالى في سورة البقرة : « وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ . وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِّنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْرِبُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ . وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » .

كيف رفع ابراهيم البيت مثابة للناس وأمناً ، ليتوجه الناس فيه إلى الله مؤمنين به وحده ، ثم أصبح من بعد ذلك موئل الأصنام وعبادتها ؟ وكيف كانت طقوس العبادة تؤدي فيه بعد ابراهيم واسماعيل وعلى أى صورة كانت تؤدي ؟ ومتى تغيرت هذه الطقوس وتغلبت عليها الوثنية ؟ هذا ما لا يحدثنا التاريخ المعروف عنه : وكل ما هنالك فروض يحسبها أصحابها تصف ما كان واقعاً . فالصائبون من عباد النجوم كان لهم سلطان كبير في بلاد العرب . وقد كان هؤلاء ... فيما يقولون — لا يعبدون النجوم لذاتها وإنما كانوا ، في بداية أمرهم ، يعبدون الله وحده ويمضون النجوم على أنها مظاهر خلقه وقدرته . ولما كانت كثرة الناس الكبرى أقصر من أن يحيط ذهنها بمعنى

الألوهية السامى فقد اتخذوا من النجوم آلهة . ولما كانت بعض الأحجار
البركانية يخال الناس أنها ساقطة من السماء منحدره لذلك من بعض النجوم
فقد اتخذت أول أمرها مظاهر لهذه الآلهة الرفيعة وقدّست بهذه الصفة ، ثم
قدّست لذاتها ، ثم كانت عبادة الأحجار ، حتى كان العربي لا يكفيه أن يعبد
الحجر الأسود بالكعبة ، بل كان يأخذ معه في أسفاره أى حجر من أحجار
الكعبة يصل إليه ويستأذنه في الإقامة والسفر ويؤدى إليه كل ما يؤدى
للنجوم وخالق النجوم من طقوس العبادة : ومن ثم استقرت الوثنية
وقدّست التماثيل وقرّبت لها القرابين .

هذه صورة يصورها بعض المؤرخين لتطور الأمر في بلاد العرب من
بناء إبراهيم البيت لعبادة الله وما آل إليه أمره بعد ذلك ليكون مستقر
الأصنام . وقد ذكر هيرودوت أبو التاريخ المكتوب ، عبادة اللات في بلاد
العرب ، وذكر ديودور الصقلي بيت مكة الذى تعظمه العرب ؛ فدل ذلك على
قدم الوثنية في بلاد العرب وعلى أن دين إبراهيم لم يستمر فيها طويلا .

ولقد قام في هذه القرون أنبياء دعوا قبائلهم في بلاد العرب إلى عبادة
الله وحده فرفضوا وأصروا على وثنتهم : قام هود فدعا عاداً التى كانت تقيم
في شمال حضرموت إلى عبادة الله وحده فما آمن به إلا قليل . فأما كثرة قومه
فاستكبروا وقالوا له : يا هودُ ما جئتنا ببينةٍ وما نحنُ بتاركي آلهتنا عن
قولك وما نحنُ لك بمؤمنين ، وأقام هود يدعوهم السنين فلا يزيدهم دعوته إلا
عتوّا فى الأرض واستكباراً . وقام صالح يدعو للإيمان ثمود ، وكانت مساكنهم
بالحجر بين الحجاز والشام إلى وادى القرى فى الجنوب الشرقى من أرض
مدّين القرية من خليج العقبة ؛ ولم تثمر دعوة صالح ثموداً أكثر مما أثمرت
دعوة هود عاداً . وقام شعيب فى شعب مدّين وكانوا بالحجاز ، يدعوهم إلى الله
فلم يسمعوا له فهلكوا ونزل بهم ما نزل بعاد وثمود . وغير هؤلاء من الأنبياء

قص القرآن قصصهم ودعوتهم قومهم لعبادة الله وحده واستكبار قومهم وإقامتهم على عبادة الأوثان وعلى التوجه بقلوبهم لأصنام الكعبة وحجهم إليها كل عام من كل صوب في بلاد العرب وحَدَب . وفي ذلك نزل قوله تعالى : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً » .

سأص
الكعبة

أفكانت تحيط بالكعبة منذ إنشائها مناصب كالتي تولاها قُصَى بن كِلَاب في منتصف القرن الخامس الميلادي حين اجتمع له مُملك مكة على ما سنذكر من بعد؟ فقد اجتمعت لقُصَى الحِجَابَة والسقاية والرَّفَادَة والنَّدْوَة واللواء والقيادة . والحجَابَة سدانة البيت أي تولى مفاتيحه . والسقاية إسقاء الحجيج الماء العذب الذي كان عزيزاً بمكة وإسقاؤهم كذلك نبيذ التمر . والرَّفَادَة إطعام الحاج جميعاً . والنَّدْوَة رياسة الاجتماع كل أيام العام . واللواء راية يلوونها على رمح وينصبونها علامة للعسكر إذا توجهوا إلى العدو . والقيادة إمارة الجيش إذا خرجوا إلى حرب . وكانت هذه المناصب كلها معتبرة في مكة وكانها تحيط بالكعبة مُتَّجِهَةٌ أنظار العرب جميعاً في عباداتهم . وأحسبها لم تنبت كلها دفعة واحدة منذ أقيم البيت ، بل نشأت واحدة تلو أخرى ، مستقلاً بعضها عن الكعبة ومكاتها الدينية ، متصلاً بعضها بالكعبة من طبعه . فمكة لم تكن حين بناء الكعبة ، على خير ما يمكن أن يصوره خيائنا ، لتزيد على قبائل من العماليق ومن جُزهم . فلما استقر بها إسماعيل ورفع قواعد البيت مع أبيه إبراهيم اقتضى تطور مكة لتصير حضراً أو ما يشبه الحضرة زماناً طويلاً . ونقول : ما يشبه الحضرة ، أن ظلت مكة وما تزال وفي طباع أهلها بقايا متخلفة من معاني البداوة الأولى . ويريد بعض المؤرخين أن يذكر أنها ظلت على بداوتها إلى أن اجتمع أمرها لقصى في منتصف القرن الخامس للميلاد . وعسيرٌ أن تتصور بقاء بلد له ما لمكة وبيتها العتيق من القداسة في حالة البادية مع ما يثبت التاريخ من أن أمر البيت بقي بعد إسماعيل في يد جرهم أخوال

بنيه أجيالا متعاقبة أقاموها حوله ، ومع أن مكة كانت ملتقى طرق القوافل إلى اليمن وإلى الحيرة وإلى الشام وإلى نجد ، كما كانت تتصل من طريق البحر الأحمر القريب منها بتجارة العالم من غير أن تتعرض لغزو الغزاة من أية ملكة من ممالك العالم . فمن الحق لذلك أن نقدر أن مكة ، وقد دعاها إبراهيم بلداً ودعا الله له أن يكون آمناً مطمئناً ، قد عرفت حياة الاستقرار أجيالا طويلة قبل قُصَى .

اعلم فريش

وظل أمر مكة لجُرُهم بعد أن غلبوا العالقي عليها الى عهد مُضاض بن عمرو بن الحارث . ولقد راجت تجارة مكة خلال هذه الأجيال رواجاً أمر مترفها وجعلهم ينسون أنهم يواد غير ذى زرع وأنهم لذلك بحاجة الى الدأب المتصل واليقظة الدائمة . وبلغ من نسيانهم أن تَضِب ماء زمزم وأن قامت بنفس عرب خُزاعة الرغبة في الوثوب الى مناصب الأمر في البلد الحرام . ولم يُجِدْ تحذير مضاض قومه عاقبة ما انغمسوا فيه من ترفهم ، وأيقن أن الأمر زائل عنه وعنهم . فعمد الى زمزم فأعتمق حفرها والى غزالتين من ذهب كانتا مع طائفة من الأموال بالكعبة ، أن كانت تهدي لها ، فدفعها بقاع البئر وأهال الرمال عليها ، رجا أن يعود له الأمر يوماً فيفيد من الكشف عنها . وخرج ومعه بنو إسماعيل من مكة . ووليت خُزاعة أمرها وظلت تتوارثه حتى آل إلى قُصَى بن كلاب الجد الخامس للنبي .

قصي بن كلاب
(س ٤٠ م)

وكانت أم قصي فاطمة بنت سعد بن سَيْلٍ قد تزوجت من كلاب فولدت له زهرة وقصياً . ثم هلك كلاب وقصى طفل في المهد . وتزوجت فاطمة من ربيعة بن حرام فرحل بها إلى الشام وهناك ولدت له دراجا . وكبر قصى وهو لا يعرف لنفسه أباً غير ربيعة . ووقع بينه وبين آل ربيعة شر ، فغيروه بأنه في جوارهم وأنه ليس منهم . وشكا قصى الى أمه ما عيّر به . قالت : يا بني إنك والله لا كرم منهم أباً ، أنت ابن كلاب بن مرّة وقومك بمكة عند البيت

الحرام . وقدم قصي مكة وأقام بها وعرف عنه فيها من الجد وحسن الرأي ما جعله موضع احترام أهلها وأهله فيها . وكانت سداثة البيت في خزاعة لخليل بن حُبشية ، وكان رجلاً ثاقب النظر حسن التقدير : فإلبث أن خطب قصي إليه ابنته حَبِي حتى رحب به وزوجه منها . واستمر دأب قصي في السعي والتجارة . فكثرت أمواله كما كثر أولاده وعظم بين قومه شرفه . ومات خليل بعد أن أوصى بمفتاح البيت الحرام لخلبي زوج قصي . واعتذرت حتى عن ذلك وجعلت المفتاح لأبي غُبشان الخزاعي . وكان أبو غُبشان سكيراً ، فأعوزة الشراب يوماً فباع مفتاح البيت قصياً بزق من خمر . وقدرت خزاعة ما يصيب مكاتها بمكة إذا بقيت سداثة الكعبة لقصي بعد أن كثر ماله وبعد أن بدأت قريش تجتمع حوله ، فأنكروا أن يكون لغيرهم منصب من المناصب المتصلة بالبيت الحرام . واستنفر قصي قريشاً ، ورأت بعض القبائل أنه أحكم المقيمين بمكة وأعظمهم قدراً ، فانضموا له وأجلوا خزاعة عن مكة ، واجتمعت مناصب البيت كلها لقصي وأقر القوم له بالملك عليهم .

ويذهب البعض . كما قدمنا ، إلى أن مكة لم يكن بها بناء غير الكعبة إلى أن تولى قصي أمرها . ويعلمون ذلك بأن خزاعة وجرها قباها لم يريدوا أن يكون إلى جوار بيت الله بيت غيره ، وأنهم لم يكونوا يقيمون ليهم بالحرم بل يذهبون إلى الحِل . ويضيف هذا البعض أن قصياً لما تم له أمر مكة جمع قريشاً وأمرهم أن يبنوا بها ، وأبتدأ هو فبنى دار الندوة يجتمع فيها كبار أهل مكة تحت إمرته ليتشاوروا في أمور بلدهم ، ولم يكن يتم أمر إلا بموافقتهم ، فلم تكن تنكح امرأة ولا يتزوج رجل إلا في هذه الدار . وبنيت قريش بأمر قصي حول الكعبة دورها . وتركوا مكاناً كافياً للطواف بالبيت وتركوا بين كل بيتين طريقاً ينفذ منه إلى المضاف .

وكان عبد الدار أكبر أبناء قصي ، لكن أخاه عبد مناف كان قد تقدم

أبناء قصي

عليه أمام الناس وقد شرف فيهم . فلما كبر قصى وضعف بدنه ولم يبق قادراً على تولى أمور مكة جعل الحجابة لعبد الدار وسلم إليه مفتاح البيت ، كما أعطاه السقاية واللواء والرفادة . وكانت الرفادة قسطاً تخرجه قريش كل عام من أموالها فتدفعه إلى قصى يصنع منه في موسم الحج طعاماً ينال منه من الحاج من لم يكن ذا سعة ولا زاد . وكان قصى أول من فرض الرفادة على قريش حين جمعهم واعتز بهم وأخرج وإياهم خزاعة من مكة . فرضها عليهم وقال لهم : « يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته وأهل حرّمه ، وإن الحاج ضيف الله وزوار بيته ، وهم أحق الأضياف بالكرامة ، فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج حتى يصدروا عنكم » .

• بنو عبد مناف

وتولى عبد الدار مناصب الكعبة كأمر أبيه وتولاها أبنؤه من بعده . لكن أبناء عبد مناف كانوا أشرف في قومهم وأعظم مكانة . لذلك أجمع هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل بنو عبد مناف على أن يأخذوا ما بأيدي أبناء عمومهم . وتفرّق رأى قريش : تنصر طائفة هؤلاء ، وأخرى أولئك . وعقد بنو عبد مناف حلف المّطّيبين لأهم غمّسوا أيديهم في طيب جاءوا به إلى الكعبة وأقسموا لا يتقضون حلفهم . وعقد بنو عبد الدار حلف الأحلاف . وكان هؤلاء وأولئك يوشكون أن يقتلوا في حرب تذيب قريشا إذ تداعى الناس إلى الصلح على أن يعطوا بنى عبد مناف السقاية والرفادة ، وأن تبقى الحجابة واللواء والندوة لبنى عبد الدار . ورضى الفريقان بذلك ، وظل الأمر عليه إلى أن جاء الإسلام .

وكان هاشم كبير قومه . وكان ذا يسار ، فولى السقاية والرفادة ودعا قومه إلى مثل مادعاهم إليه قصى جده ، دعاهم إلى أن يخرج كل منهم من ماله ما ينفقه هو في إطعام الحاج أثناء الموسم . فزوار الله وحجاج بيته هم ضيف الله ، وأحق الضيف بالكرامة ضيف الله . وكذلك كان يطعم الحاج جميعاً حتى يصدروا

هاشم (س ٤٦٤ م)

عن مكة . ولم يقف أمر هاشم عند هذا ، بل اتصل برءه وكرمه بأهل مكة أنفسهم . أصابتهم سنة يجذب ، فجاء لهم من الطعام وثردهم الثريد بما جعلهم ينظرون من جديد إلى الحياة بوجه باسم . وهاشم هو كذلك الذي سن رحلتى الشتاء والصيف ، رحلة الشتاء إلى اليمن ، ورحلة الصيف إلى الشام . وبهذه المظاهر كلها ازدهرت مكة وسمت مكاتها في أنحاء شبه الجزيرة جميعاً ، واعتبرت العاصمة المعترف بها . وطوع هذا الازدهار لأبناء عبد مناف أن يعقدوا مع جيرانهم معاهدات أمن وسلام : عقد هاشم بنفسه مع الامبراطورية الرومانية ومع أمير غسان معاهدة حسن جوار ومودة ، وحصل من الامبراطور على الاذن لقريش بأن تجوب الشام في أمن وطمأنينة . وعقد عبد شمس معاهدة تجارية مع النجاشي ، كما عقد نوفل والمطلب حلفاً مع فارس ومعاهدة تجارية مع الحميريين في اليمن . وكذلك ازدادت مكة منعة جاه كما ازدادت يساراً ، وبلغ أهلها من المهارة في التجارة حتى أصبحوا لا يدانيهم فيها مدان من أهل عصرهم : كانت القوافل تجيء إليها من كل صوب وتصدر عنها في رحلتى الشتاء والصيف ، وكانت الأسواق تنصب فيها حولها لتصريف هذه التجارة فيها أو لتصرفها عنها ؛ ولذلك مهر أهلها في النسبة والربا وفي كل ما يتصل بالتجارة من أسباب المعاملات .

ازدهار الحياة
بمكة

وظل هاشم تتقدم به السن وهو في مكاته على رياسة مكة لا يفكر أحد في منافسته ، حتى خيل لابن أخيه أمية بن عبد شمس أنه قد بلغ مكاناً يسؤل له هذه المنافسة . لكنه لم يقدر وغلب على أمره : وبقي الأمر لهاشم ، وترك أمية مكة إلى الشام عشر سنوات كاملة . وإن هاشمًا لني رحلته يوماً عائداً من الشام ماراً بيثرب إذ رأى امرأة ذات شرف وحسب تطل على قوم يتجرون لها . تلك سلمى بنت عمرو الخزرجية . وقد أعجب هاشم بها وسأل أهي في عصمة رجل ؟ فلما عرف أنها مطلقة وأنها لا ترضى زوجاً إلا أن

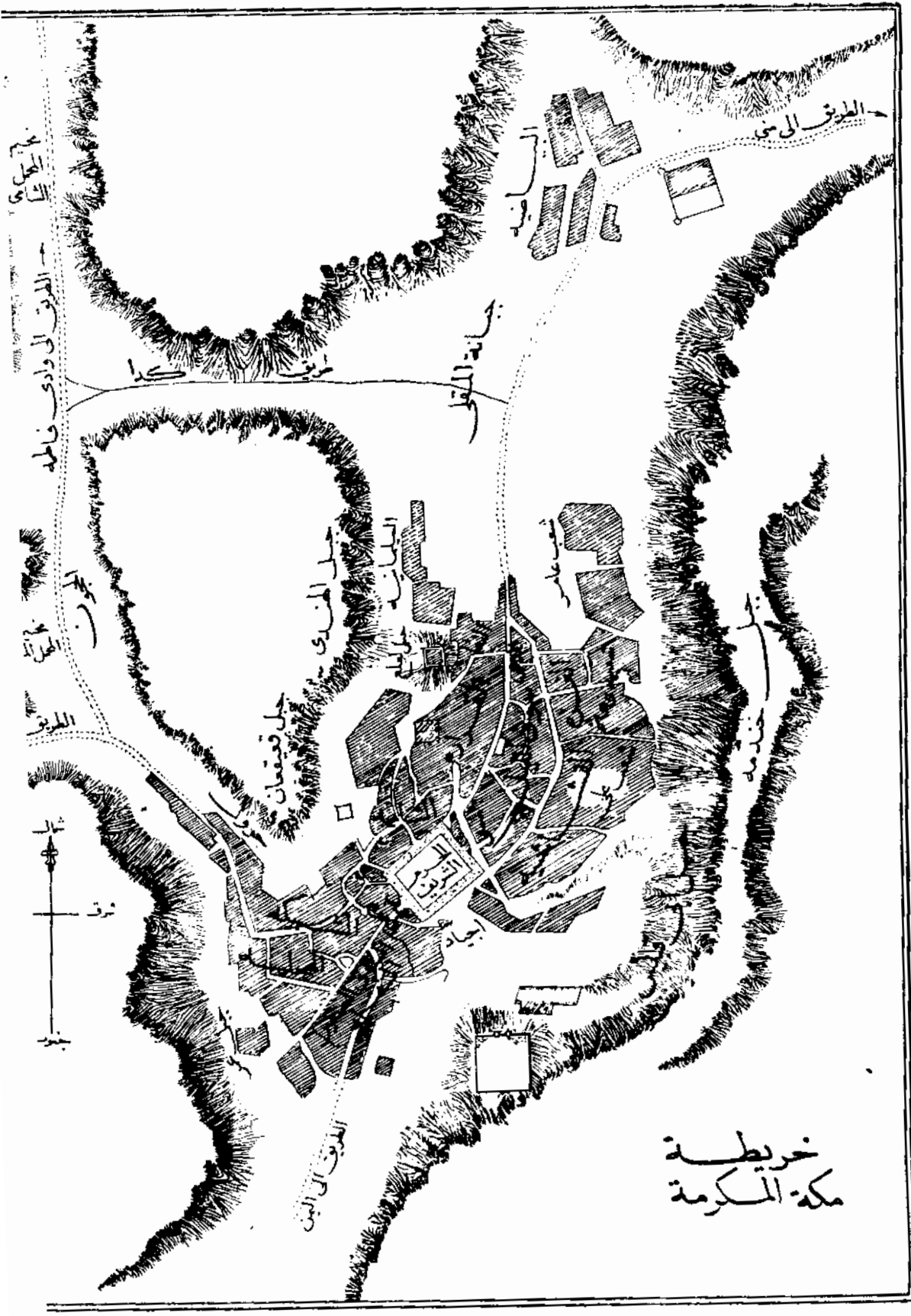
تكون عصمتها بيدها خطبها الى نفسها فرضيت لعلها بمكاته من قومه ،
وأقامت معه بمكة زمناً عادت بعده الى المدينة حيث ولدت له ولداً دعتة شيبه
ظل معها يثرب .

ومات هاشم بعد سنين من ذلك بغيره أثناء إحدى رحلات الصيف، خلفه
أخوه المطلب في مناصبه . وكان المطلب أصغر من أخيه عبد شمس ولكنه كان
ذا شرف في القوم وفضل ، وكانت قريش إنما تسميه الفيض لسماحته وفضله .
وطبيعي وذلك مكان المطلب من قومه أن تبقى الأمور تسير سيرتها مطمئنة هاتية .
وفكر المطلب يوماً في ابن أخيه هاشم . فذهب الى يثرب وطلب الى سلمى
أن تدفع اليه الفتى وقد بلغ أشده . وأردف المطلب الفتى على بعيره ودخل
به مكة ، فظنته قريش عبدأ له جاء به فتصايحت : عبد المطلب . قال المطلب :
ويحكم ! إنما هو ابن أخي هاشم قدمت به من يثرب . على أن هذا اللقب غلب
على الفتى فدعى به ونسب الناس اسم شيبه الذي دعى به منذ وُلد .

المطلب

وأراد المطلب أن يرد على ابن أخيه أموال هاشم . لكن نوفلاً أبن
ووضع يده عليها . فلما اشتد ساعد عبد المطلب استعدى أخواله يثرب على عمه
كى يردوا عليه حقه . وأقبل ثمانون فارساً من خزرج يثرب لنصرته ، فاضطر
نوفل إلى رد ماله إليه . وقام عبد المطلب في مناصب هاشم له السقاية والرفادة
من بعد عمه المطلب . وقد لقي في القيام بهذين المنصبين . وبالسقاية بنوع
خاص . شيئاً غير قليل من المشقة . فقد كان إلى يومئذ وليس له من الأبناء
إلا ولده الحارث . وكانت سقاية الحاج يوثق بها ، منذ فضبت زمزم ، من
آبار عدة مبعثرة حول مكة ، فتوضع في أحواض الى جوار مكة الأمر
كانت كثرة الولد عوناً على تيسير هذا العمل والاش
لعبد المطلب من ولد حين ولى السقاية
وطال فيه تفكيره .

عبد المطلب
(م ٢٩٥ م)



خريطة مكة المكرمة

وكانت العرب ما تفتأ تذكر زمزم منذ طمئنا مضاض بن عمرو الجرهمي
لثلاثمائة من السنين خلت وتسمى لو أنها كانت باقية ما تزال . وكان عبد المطلب
بطبيعة مركزه أكثرهم تفكيراً في هذا الأمر وأشدّهم تمناً أن يكون . ولقد
أحرج الرجاء به حتى كان يهتف به الهاتف أثناء نومه يحضه على أن يحفر البئر
التي تفجرت تحت أقدام جده إسماعيل . وأحج الهاتف يده على مظان وجودها ،
وأح هو باحثاً عن زمزم حتى اهتدى إليها بين الوثنين أساف وتائلة . وجعل
يحفر مستعيناً بابنه الحارث حتى نبع الماء وظهرت غزالتا الذهب وأسياف
مضاض الجرهمي . وأرادت قریش أن تشارك عبد المطلب في البئر وفيما وجد
فيها ، فقال لهم : لا ، ولكن هلّم إلى أمر نصّف بيني وبينكم . فضرب عليها
بالقداح فجعل للكعبة قدحين ، ولي قدحين ، ولكم قدحين . فمن خرج قدحاه
على شيء كان له . ومن تخلف قدحاه فلا شيء له . فارتضوا رأيه ثم أعطوا
القداح صاحب القداح الذي يضرب بها عند هبل في جوف الكعبة . فتخلف
قدحاقريش وخرجت الأسياف لعبد المطلب والغزالتان للكعبة ، فضرب
عبد المطلب الأسياف باباً للكعبة وضرب في الباب غزالتا الذهب حلية للبيت
الحرام . وأقام عبد المطلب في سقاية الحجاج بعد أن يسترها زمزم له .
وأحس عبد المطلب قلة حوله في قومه لقملة أولاده ، فنذر إن ولد له
عشرة بنين ثم بلغوا معه حتى يمنعوه من مثل ما لقي حين حفر زمزم لينحرن
أحدهم لله عند الكعبة . وتوافق بنود عشرة أنس فيهم المقدرة على أن يمنعوه ،
فدعاهم إلى الوفاء بنذره فأطاعوا . وفي سبيل هذا الوفاء كتب كل واحد من
البناء اسمه على قدح ، وأخذها عبد المطلب وذهب به إلى صاحب القداح عند
هبل في جوف الكعبة . وكانت العرب كلها اشتدت بها الحيرة في أمر لجأت
إلى صاحب القداح كي يستفتي لها كبر الآلهة الأصنام عن طريق القداح .
وكان عبد الله بن عبد المطاب أصغر أبنائه وأحبهم لذلك إليه . فلما ضرب

حفر زمزم

النذر
والوفاء به

صاحب القداح القداح التي عليها أسماء هؤلاء الأبناء ليختار هبل من بينها من ينحره أبوه خرج القدح على عبد الله ؛ فأخذ عبد المطلب القتي بيده وذهب به ينحره حيث كانت تنحر العرب عند زمزم بين إساف ونائمة ، إذ ذاك قامت فريش كلها من أندية تهب به ألا يفعل ، وأن يلتمس عن عدم ذبحه عند هبل عذرا . وتردد عبد المطلب لدى إلحاحهم وسألهم ما عساه يفعل لترضى الآلهة ؟ قال المغيرة بن عبد الله المخزومي : إن كان فداؤه بأموالنا فديناه . وتشاور القوم واستقر رأيهم على الذهاب إلى عرّافة يثرب لها في مثل هذه الأمور رأى . وجاءوا العرّافة فاستمتهتهم إلى الغد ثم قالت لهم : كم الدية فيكم ؟ قالوا : عشر من الابل . قالت : فارجعوا إلى بلادكم ثم تقربوا وقرّبوا عشرأ من الابل ثم اضربوا عليه وعليها بالقداح . فان خرجت على صاحبكم فزيدوا من الابل حتى يرضى ربكم . وفعلوا وجعلت القداح تخرج على عبد الله فيزيدون في الابل حتى بلغت مائة : عند ذلك خرجت القداح على الابل . فقالت فريش لعبد المطلب وكان أثناء ذلك كله واقفا يدعو ربه : قد رضى ربك يا عبد المطلب . قال عبد المطلب : لا والله ، حتى أضرب عليها ثلاث مرات . وفي المرات الثلاث خرجت القداح على الابل ؛ فاطمأن عبد المطلب الى رضى ربه ونحرت الابل ثم تركت لا يصد عنها إنسان ولا يمنع .

بذلك تجرى كتب السيرة فتصف طرفاً من عادات العرب وعقائدها وطقوس هذه العقائد، وتدل في نفس الوقت على ما بلغت مكة في بلاد العرب من مقام كريم بيئتها الحرام . على أن الطبرى يروى قصة الفداء وخروج القداح على عبد الله واقتدائه بالمائة من الابل، ثم يذكر أن مروان أمير المدينة لما عرف ذلك أنكره وقال : لا نذر في معصية ، فلم تنحر الابل . واعتبرت مقالته هذه سنة متبعة عند العرب .

أدت مكانة مكة ومقام بيئتها الحرام إلى إقامة بعض البلاد البعيدة معابد

فيها، لعلها تصرف الناس عن مكة وعن بيتها. فأقام الفساسة بيتاً بالحيرة، وأقام
 أبرهة الأشرم بيتاً باليمن، فلم يغن ذلك العرب عن بيت مكة ولا هو صرفهم
 عنها. وقد عني أبرهة بزخرفة بيت اليمن غاية العناية وجلب له من فاخر
 الأثاث ما خيّل إليه معه أنه صارف العرب وصارف أهل مكة أنفسهم إليه.
 فلما رأى العرب لا تتجه إلا إلى البيت العتيق، ورأى أهل اليمن يدعون
 البيت الذي بنى ولا يعتبرون حججهم مقبولاً إلا بمكة. لم يجد عامل النجاشي
 وسيلة إلا لهدم بيت إبراهيم وإسماعيل. وتهاياً للحرب في جيش من الحبيشة
 تقدمه هو على فيل عظيم ركه. فلما سمعت العرب بذلك خافت العاقبة وعظم
 عليها أن يقدم رجل حبشي على هدم بيت حججهم ومقام أصنامهم. وهباً
 رجل كان من أشراف أهل اليمن وملوكها يدعى ذانقر فاستنفر قومه ومن
 أجاب من غيرهم من العرب لمقاتلة أبرهة وصدّه عما يريد من هدم بيت الله.
 لكنه لم يستطع أن يصمد لأبرهة بل هُزم وأخذ أسيراً، وهُزم كذلك
 نقييل بن حبيب النخعي حين جمع قومه من قبيلتي شهران وناهس وأخذ هو
 أسيراً، فأقام نفسه دليلاً لأبرهة وحيشه. فلما نزل أبرهة الطائف كله أهلها
 بأن بيئتهم ليس هو البيت الذي يريد. إنما هو بيت اللات. وبعثوا معه بمن
 يدلّه على مكة. فلما اقترب أبرهة من مكة بعث رجلاً من الجيش على فرسان
 له فساق إليه أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم وبينها مائة بعير لعبد المطب
 ابن هاشم. وهمت قريش ومن معهم من أهل مكة بقتاله، فرأوا أن لا طاقة
 لهم به. وبعث أبرهة رجلاً من رجاله يدعى حُسنًا طة الحميري سأل عن سيد
 مكة فذهبوا به إلى عبد المطلب بن هاشم، فأبلغه رسالة أبرهة إليه أنه لم يأت
 للحرب وإنما جاء لهدم البيت. فان لم تحاربه مكة فلا حاجة له بدماء أهلها. فلما
 ذكر له عبد المطلب أنهم لا يريدون حرباً ساربه حنطة ومع عبد المطلب بعض
 أنسائه وبعض كبراء مكة حتى بلغوا معسكر الجيش. وأكرم أبرهة وفادة

عام الفيل
 (س ٢٥٧٠)

عبد المطلب وأجابه الى رد إبله اليه . لكنه رفض رفضا باتا كل حديث في أمر الكعبة ورجوعه عن هدمها ، برغم ما عرض عليه وفد مكة من النزول له عن ثلث ثروة تهامة . وعاد عبد المطلب وقومه الى مكة ، فنصح الى الناس بها أن يخرجوا منها الى شعاب الجبل من خيفة أبرهة وجيشه حين يدخلون البلد الحرام لهدم البيت العتيق . وكانت ليلة ليلاء تلك التي فكر فيها القوم في هجر بلدهم وما هو نازل بها وهم . ذهب عبد المطلب ودعاه نفر من قريش فأخذ حاقمة باب الكعبة وجعل يدعو ويدعون يستنصرون آلهتهم على هذا المعتدى على بيت الله . فلما انصرفوا وخلت مكة منهم وآن لأبرهة أن يوجه جيشه ليهزم ما اعترم فيهدم البيت ويعود أدراجة الى اليمن . كان وباء الجدري قد تفشى في الجيش وبدأ يفتك به ، وكان فتكا ذريعا لم يعهد من قبل قط . ولعل جرائم الوباء جاءت مع الريح من ناحية البحر . وأصاب العدي أبرهة نفسه ، فأخذه الروع وأمر قومه بالعودة الى اليمن . وفر الذين كانوا يدلون على الطريق ومات منهم من مات . وكان الوباء يزداد كل يوم شدة ورجال الجيش يموت منهم من يموت كل يوم بغير حساب . وبلغ أبرهة صنعاء وقد تناثر جسمه من المرض . فلم يبق إلا قليلا حتى خق بمن مات من جيشه . وبذلك أرتخ أهل مكة بعام الفيل هذا وقدسه القرآن بذكره : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ . أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ . وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ . تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ . فَجَعَلْنَاهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ . »

زاد هذا الحادث الفذ العجيب في مكانة مكة الدينية ، وزاد تبعاً لذلك في مكانتها التجارية ، وزاد أهلها انصرافا عن التفكير في شيء غير الاحتفاظ بتلك المكانة الرفيعة الممتازة ؛ ومحاربة كل من يحاول الانتقاص منها أو الاعتداء عليها .

وزاد المكين حرصا على مكانة مدينتهم ما كانت تتيحه لهم من رخاء

وتurf على أوسع صورة يستطيع الذهب تصورها للتurf في هذه الجهة الصحراوية البلقع الجرداء . فكان لأهلها غرام بالنبيذ أى غرام ، وكانوا يجدون في النشوة به نعيما أى نعيم: نعيما يبستر لهم أن يطلقوا الشهواتهم أعتبها، وأن يجدوا في الجوارى والعبيد الذين يتجرون فيهم والذين يشترون متعاً تغريمهم بالمزيد منها، وتغريمهم كذلك بالحرص على حريتهم وحرية مدينتهم ، وباليقظة للذود عن هذه الحرية ودفع كل معتد أئيم تحذته نفسه بالجناية عليها . ولم يكن شىء أشهى لهم من أن يجعلوا سمرهم وشرابهم في سرّة المدينة حول بناء الكعبة . هناك إلى جانب ثلاثمائة صنم أو تزيد، لكل قبيلة من قبائل العرب بيناصنم أو أكثر. كان أكابر قريش والمقدمون من أهل مكة يجلسون، يقص كل منهم أمر ما اتصل به من أخبار البادية واليمن وجماعة المناذرة في الحيرة والغساسنة في الشام، مما ترد به القوافل أو يتناقله سكان البادية، يصل إليهم على سبيل الرواية تناقلها قبيلة عن قبيلة . وكان كل قبيلة لها مذبح وملتقط لاسلكي يتلقى الأنباء ويذيعها . يقص كل ما اتصل به من أخبار البادية ويروى روايات جيرانه وأصحابه ويشرب نبيذه ويعتد نفسه بعد سمر الكعبة لسمر أشبع لأهوائه وأمتع لشهواته . وتظل هذه الأصنام بعيونها الحجرية على مجالس السمر هذه، وللسامرين فيها من الحماية أن جعلت الكعبة بيتاً حراماً ومكة بلداً آمناً ، وللأصنام على السامرين ألا يدخل مكة كتابي إلا أن يكون أجيراً لا يتحدث بشيء من أمر دينه ومن أمر كتابه . ولذلك لم تكن ثمة جاليات من اليهود كما كانت يثرب ، ولا من النصارى كما كانت بنجران . وإنما كانت كعبتها قدس أقداس الوثنية تحميها من كل مجدّف في أمرها، وتحمي بها من العدوان عليها، وتستقل بنفسها كما كانت تستقل كل قبيلة من قبائل العرب بنفسها ، لا ترضى لغيرها عليها سلطاناً . ولا ترضى باستقلالها بديلاً، ولا تُعنى من الحياة بغير هذا الاستقلال في حمى أوثانها ؛ لا تضار قبيلة قبيلة أخرى

صاحب القداح القداح التي عليها أسماء هؤلاء الأبناء ليختار هبل من بينها من ينحره أبوه خرج القداح على عبد الله ؛ فأخذ عبد المطلب الفتي بيده وذهب به ينحره حيث كانت تنحر العرب عند زمزم بين إساف ونائلة ، إذ ذاك قامت قريش كلها من أندية تهب به ألا يفعل ، وأن يلتمس عن عدم ذبحه عند هبل عذرا . وتردد عبد المطلب لدى إلحاحهم وسألهم ما عساه يفعل لترضى الآلهة ؟ قال المغيرة بن عبد الله المخزومي : إن كان فداؤه بأموالنا فديناه . وتشاور القوم واستقر رأيهم على الذهاب إلى عرّافة ييثرب لها في مثل هذه الأمور رأى . وجاءوا العرّافة فاستمتمتهم إلى الغد ثم قالت لهم : كم الدية فيكم ؟ قالوا : عشر من الابل . قالت : فارجعوا إلى بلادكم ثم تقربوا وقربوا عشراً من الابل ثم اضربوا عليه وعليها بالقداح . فان خرجت على صاحبكم فزيدوا من الابل حتى يرضى ربكم . وفعلوا وجعلت القداح تخرج على عبد الله فيزيدون في الابل حتى بلغت مائة ؛ عند ذلك خرجت القداح على الابل . فقالت قريش لعبد المطلب وكان أثناء ذلك كله واقفاً يدعو ربه : قد رضى ربك يا عبد المطلب . قال عبد المطلب : لا والله ، حتى أضرب عليها ثلاث مرات . وفي المرات الثلاث خرجت القداح على الابل ؛ فاطمأن عبد المطلب إلى رضى ربه ونحرت الابل ثم تركت لا يصد عنها إنسان ولا يمنع .

بذلك تجرى كتب السيرة فتصف طرفاً من عادات العرب وعقائدها وطقوس هذه العقائد، وتدل في نفس الوقت على ما بلغت مكة في سلاطينها من مقام كريم بيئتها الحرام . على أن الطريقة . سم ~~نحو~~ الابل . واعتبرت القداح على عبد الله واقفائه " لما عرف ذلك السبب عند العرب . أذت مكانة مكة ومقام بيئتها الحرام إلى إقانة من البلاد البعيدة معابد

فيها، لعلها تصرف الناس عن مكة وعن بيتها. فأقام الغساسنة بيتاً بالحيرة، وأقام
 أبرهة الأشرم بيتاً باليمن، فلم يغن ذلك العرب عن بيت مكة ولا هو صرفهم
 عنها. وقد عني أبرهة بزخرفة بيت اليمن غاية العناية وجلب له من فاخر
 الأثاث ما خيّل إليه معه أنه صارف العرب وصارف أهل مكة أنفسهم إليه.
 فلما رأى العرب لا تتجه إلا إلى البيت العتيق، ورأى أهل اليمن يدعون
 البيت الذي نبى ولا يعتبرون حجهم مقبولاً إلا بمكة. لم يجد عامل النجاشي
 وسيلة إلا هدم بيت إبراهيم وإسماعيل. ونهياً للحرب في جيش من الحبشة
 تقدمه هو على فيل عظيم ركبه. فلما سمعت العرب بذلك خافت العاقبة وعظم
 عليها أن يقدم رجل حبشي على هدم بيت حجهم ومقام أصنامهم. وهباً
 رجل كان من أشراف أهل اليمن وملوكها يدعى ذانقر فاستنفر قومه ومن
 أجاب من غيرهم من العرب لمقاتلة أبرهة وصدّه عما يريد من هدم بيت الله.
 لكنه لم يستطع أن يصمد لأبرهة بل هُزم وأخذ أسيراً، وهُزم كذلك
 نقيّل بن حبيب النخعي حين جمع قومه من قبيلتي شهران وناهس وأخذ هو
 أسيراً، فأقام نفسه دليلاً لأبرهة وجيشه. فلما نزل أبرهة الطائف كلبه أهلها
 بأن بيتهم ليس هو البيت الذي يريد. إنما هو بيت اللات. وبعثوا معه بمن
 يدلّه على مكة. فلما اقترب أبرهة من مكة بعث رجلاً من الجيش على فرسان
 له فساق إليه أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم وبينها مائة بعير لعبد المطلب
 ابن هاشم. وهمت قريش ومن معهم من أهل مكة بقتاله، فرأوا أن لا طاقة
 لهم به. وبعث أبرهة رجلاً من رجاله يدعى حنّاطة الحميري سأل عن سيد
 مكة فذهبوا به إلى عبد المطلب بن هاشم، فأبلغه رسالة أبرهة إليه أنه لم يأت
 لحرب وإنما جاء لهدم البيت. فان لم تحاربه مكة فلا حاجة له بدماء أهلها. فلما
 ذكر له عبد المطلب أنهم لا يريدون حرباً ساربه حنّاطة ومع عبد المطلب بعض
 أبنائه وبعض كبراء مكة حتى بلغوا معسكر الجيش. وأكرم أبرهة وفادة

عام الفيل
 (س ٣٥٧٠)

ولا تفكر طائفة من القبائل في الارتباط لتكون جماعة قوية ، لها ما للروم أو للفرس من مطامع في السيادة والغزو ، أو لها كيان غير كيان البداوة تنتجع في ظلاله المرعى وتعيش في كنفه عيشاً خشناً يحبه إليها ما فيه من استقلال وحرية وأنفة وفروسية .

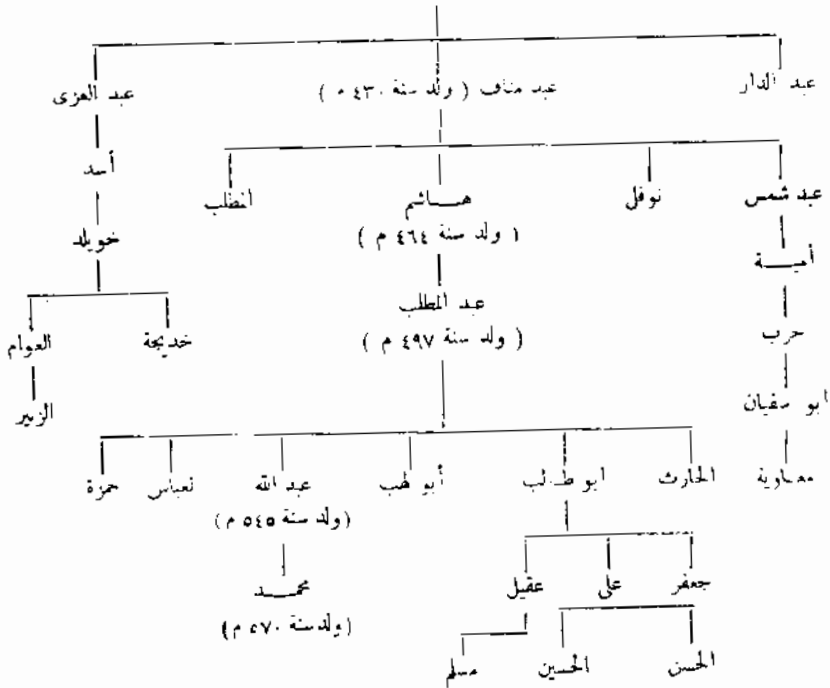
منازل
أهل مكة

وكانت منازل أهل مكة تحيط بدارة الكعبة وتقرب منها أو تبعد عنها تبعاً لما لكل أسرة وغذ من جلالٍ خَطَرٍ وجليلٍ مقامٍ ؛ فكان القرشيون أقربهم إليها داراً وأكثرهم بها اتصالاً ، كما كانت لهم سداتها وسقاية زمزم وكل ألقاب التشریف الوثنية التي قامت في سبيلها حروب ، وانعقدت من أجلها أحلاف ، ووُضعت من أجلها بين القبائل معاهدات صلح كانت تُحفظ في الكعبة تسجيلاً لها ، وإشهاداً للالهة الأصنام على ما فيها حتى ينزل غضبهم بمن يُخلّ بتعهداتها . وفيما وراء منازل قريش كانت تجيء منازل القبائل التي تليها في الخطر ، ثم تلي هذه منازل من دونهم ، حتى تكون منازل العبيد والخلعة المستهترين . وكان النصارى واليهود بمكة عبيداً . كما قدمنا . فكان مقامهم بهذه المنازل البعيدة عن الكعبة المتاخمة للصحراء ؛ ولذلك كان ما يتحدثون به من قصص دينية عن النصرانية واليهودية بعيداً عن أن يتصل بسمع أمجاد قريش وأشرف أهل البلد الحرام . على أن بعده ، كما أتاح لهم أن يصموا دونه آذانهم ، قد جعله بحيث لا يشغل بالهم ، وهم قد كانوا يسمعون مثله أثناء رحلاتهم كلما مروا بدير من الأديرة أو صومعة من الصوامع ، وإن كان مابداً يتحدث به الناس عن نبيّ يظهر بين العرب قد أخذ يقلق بعض المضاجع ، حتى لقد عتب أبو سفيان يوماً على أمية بن أبي الصلت كثرة تكريره لما يذكره الرهبان من هذا الأمر . وربما كان من حق أبي سفيان يومئذ أن يقول لصاحبه : إن هؤلاء الرهبان إنما يتحدثون من ذلك بما يتحدثون لأنهم في جهل من أمر دينهم ، فهم بحاجة إلى نبيّ يدلهم عليه ؛ أما نحن الذين يتخذون

الأصنام ليقرّبوهم إلى الله زلني فلا حاجة بنا إلى شيء من هذا ، ويجب علينا أن نحارب كل حديث من مثله . كان من حقه أن يقول هذا ؛ لأنه في تعصّبه لمكة ووثنيها لم يكن يقدر أن ساعة الهدى بالباب ، وأن نبوة محمد عليه السلام اقتربت ، وأن من بلاد العرب الوثنية المتدابرة سيضيء العالم كله نور التوحيد وكلمة الحق . وكان عبد الله بن عبد المطلب قتي وسما جميل الطلعة . وكانت أوانس مكة ونساؤها معجبات لذلك به . وزادهن إعجاباً بحديث الفداء والمائة من الإبل التي لم يرض هبل بما دونها فداء له . لكن القدر كان قد أعدّ عبد الله لأكرم أبوة عرف التاريخ ، وقد أعدّ آمنة بنت وهب لتكون أمّاً لابن عبد الله ؛ لذلك تزوجها . ولم تك إلا أشهر بعد زواجه منها حتى مات ، لم ينجه من الموت فداء أيّاً كان نوعه . وبقيت آمنة من بعده لتلد محمداً ولتموت ومحمد ما يزال طفلاً . (١)

عبد الله
ابن عبد المطلب

(١) وهذه شجرة النسب ومعها أهم تواريخ ميلاد أصحابها على وجه التقريب :
قتي (ولد سنة ٤٠٠ م)



الفصل الثالث

محمد : من ميلاده الى زواجه

زواج عبد الله من آمنة - وفاة عبد الله - مولد محمد - رضاعه في
بنى سعد - قصة الملائكين - مقامه خمس سنوات بالبادية
موت آمنة - كفالة عبد المطلب إياه - موت عبد المطلب - كفالة
أبي طالب إياه - خروجه إلى الشام في الثانية عشرة من عمره
حرب الفجار - يرعى الغنم - خروجه في تجارة خديجة
إلى الشام - زواجه من خديجة

كان عبد المطلب قد جاوز السبعين أو ناهزها حين حاول أبرهة مهاجمة مكة وهدم البيت العتيق . وكان ابنه عبد الله في الرابعة والعشرين من سنه . فرأى أن يزوجه ، فاختر له آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة سيد بني زهرة إذ ذاك سنًا وشرفًا . وخرج به حتى أتى منازل بني زهرة ، ودخل وإياه عند وهب وخطب إليه ابنته . ويذهب بعض المؤرخين إلى أنه إنما ذهب إلى أهيب عم آمنة ، لأن أباهما كان هلك وكانت هي في كفالة عمها . وفي اليوم الذي تزوج عبد الله فيه من آمنة تزوج عبد المطلب من ابنة عمها هالة فأولدها حمزة عم النبي وضربيه في سنه .

وأقام عبد الله مع آمنة في بيت أهلها ثلاثة أيام على عادة العرب حين يتم الزواج في بيت العروس . فلما انتقل وإياها إلى منازل بني عبد المطلب لم يقيم معها طويلًا ، إذ خرج في تجارة إلى الشام وتركها حاملًا . وتختلف الروايات

زواج
عبد الله
من آمنة

في أمر عبد الله وهل تزوج غير آمنة ، وهل عرضت عليه نساء غيرها أنفسهن .
 والوقوف لتقصي أمثال هذه الروايات لا غناء فيه . وكل ما يمدن الاطمئنان
 إليه أن عبد الله كان شابا وسما قويا؛ فلم يكن عجيباً أن تطمع غير آمنة في
 الزواج منه . فلما نبي بها تقطعت بغيرها أسباب الأمل ولو إلى حين . ومن
 يدري ! لعلمن قد انتظرن أوبته من رحلته إلى الشام ليسكن زوجات له
 مع آمنة . على أنه بعد أن مكث في رحلته هذه الأشهر التي يقتضيها الذهاب
 إلى غزوة والعود منها عرج على أخواله بالمدينة يستريح عندهم من عناء السفر
 ليقوم بعد ذلك في قافلة إلى مكة؛ لكنه مرض عند أخواله فتركه رفاقه؛ حتى
 إذا بلغوا مكة أخبروا أباه بمرضه . ولم يلبث عبد المطلب أن سمع منهم حتى
 أوفد الحارث أكبر بنيه إلى المدينة ليعود مع أخيه بعد إبلاله . وعلم الحارث
 حين بلغ المدينة أن عبد الله مات ودفن بها بعد شهر من مسير القافلة إلى
 مكة، فرجع أدراجه ينعي أخاه إلى أهله ويثير من قلب عبد المطلب ومن قلب
 آمنة همماً وشجناً لفقد زوج كانت آمنة ترجو في حياته هناء وسعادة ، وكان
 عبد المطلب عليه حريصاً حتى اقتداه من أهله فداء لم تسمع العرب من
 قبل بمثله .

موت عبدالله
وتركته

وترك عبد الله من بعده خمسة من الابل وقطيعاً من الغنم وجارية هي
 أم أيمن حاضنة النبي من بعد . وقد لا تكون هذه الثروة مظهر ثراء وسعة ؛
 لكنها كذلك لم تكن تدل على فقر ومترية . وقد كان عبد الله وما يزال في
 مقتبل عمره قديراً على الكسب والعمل والبلوغ إلى السعة في المال ، كما أن
 أباه كان ما يزال حياً فلم يؤل إليه شيء من ميراثه .

مولد محمد
(س ٢٥٧)

وتقدمت بآمنة أشهر الحمل حتى وضعت كما تضع كل أنثى . فلما تم لها
 الوضع بعثت إلى عبد المطلب عند الكعبة تخبره أنه ولد له غلام . وفاض
 بالشيخ السرور حين بلغه الخبر، وذكر ابنه عبد الله وقلبه مفعم بالغبطة لخلفه ،

وأُسرِعَ إلى زوج ابنة وأخذ طفلها بين يديه، وسار حتى دخل به الكعبة وسماه محمداً. وكان هذا الاسم غير متداول بين العرب ولكنه كان معروفاً. وردَّ الجدُّ الصبيَّ إلى أمه وجعل وإياها ينتظر المراضع من بني سَعْدَ لتُدفعَ الأم بوليدها إلى إحداهن، على عادة أشراف العرب من أهل مكة.

وقد اختلف المؤرخون في العام الذي وُلِدَ محمد فيه؛ فأكثرهم على أنه عام الفيل (٥٧٠ ميلادية)، ويقول ابن عباس: إنه وُلِدَ يوم الفيل. ويقول آخرون: إنه ولد قبل الفيل بخمس عشرة سنة. ويذهب غير هؤلاء إلى أنه وُلِدَ بعد الفيل بأيام، وبأشهر. وبسنتين يقدرها قوم بثلاثين سنة ويقدرها قوم بسبعين.

واختلف المؤرخون كذلك في الشهر الذي وُلِدَ فيه وإن كانت أكثرتهم على أنه ولد في شهر ربيع الأول. وقيل: ولد في المحرم. وقيل: ولد في صفر. والبعض يرجح رجياً على حين يرجح آخرون شهر رمضان.

كذلك اختلف في تاريخ اليوم من الشهر الذي وُلِدَ فيه؛ فقيل: ولد لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول. وقيل ثمان ليال، وقيل لتسع. والجمهور على أنه ولد في ثاني عشر شهر ربيع الأول، وهو قول ابن اسحاق وغيره. وكذلك اختلف في الوقت الذي ولد فيه أكان نهاراً أم ليلاً، كما اختلف في مكان ولادته بمكة. ويرجح كوسان دبرسفال في كتابه عن العرب أن محمداً وُلِدَ في ٢٠ أغسطس سنة ٥٧٠ - أي عام الفيل، وأنه ولد بمكة بدار جده عبد المطلب.

وفي سابع يوم لمولده أمر عبد المطلب بجزور فنجرت، ودعا رجالاً من قريش فحضروا وطعموا. فلما علموا منه أنه أسمى الطفل محمداً سألوه لم يرغب عن أسماء آبائه؟ فقال: أردت أن يكون محموداً في السماء لله وفي الأرض لخلقه.

انتظرت آمنة بحجى، المراضع من بنى سعد لتدفع به إلى إحداهن كعادة
أشراف العرب من أهل مكة . ولا تزال هذه العادة متبعة عند أشراف مكة
إذ يبعثون أبناءهم للبادية في اليوم الثامن من مولدهم ثم لا يعودون إلى الحضرة
حتى يبلغوا الثامنة أو العاشرة . ومن قبائل البادية من لها في المراضع شهرة ،
ومن بينها قبيلة بنى سعد . على أن آمنة دفعت بالغلام إلى ثُوَيْبَةَ جارية عمه أبى لُحَب
فأرضعته زمناً كما أرضعت من بعد عمه حمزة : فكانا أخوين في الرضاع .
ومع أن ثُوَيْبَةَ لم تُرضعه إلا أياماً فقد ظل يحفظ لها خير الودّ ويصلها
ما عاشت ، ولما ماتت في السنة السابعة من هجرته إلى المدينة سأل عن ابنها
الذى كان أخاه في الرضاع ليصله مكانها فعلم أنه مات قبلاً .

وجاءت مراضع بنى سعد إلى مكة يلتمسن الاطفال لارضاعهن . وكن
يُعرضن عن اليتامى لأنهن كن يرتجبن البرء من الآباء . أما الأيامى فكان الرجاء
فيهن قليلاً ؛ لذلك لم تُقبل واحدة من أولئك المراضع على محمد ، وذهبت كلُّ
بمن ترجو من أهله وافر الخير .

على أن حَلِيمَةَ بنت أبى ذُوَيْب السعدية التى أعرضت عن محمد أول
الأمم ، هى أيضاً ، لم تجد من يدفع إليها طفلها ؛ ذلك أنها كانت على جانب من
ضعف الحال صرف الأمهات عنها . فلما أجمع القوم على الانطلاق عن مكة
قالت حليلة لزوجها الحارث بن عبد العزى : والله إنى لأكره أن أرجع مع
صواحبى ولم آخذ رضيعاً . والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم ولأخذنه . وأجابها
زوجها : لا عليك أن تفعلى ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة . وأخذت حليلة
محمدأ وانطلقت به مع قومها إلى البادية . وكانت تحدث أنها وجدت فيه منذ
أخذته أى بركة ؛ سمعت غنمها وزاد لبنها وبارك الله لها فى كل ما عندها .

وأقام محمد فى الصحراء سنتين يرضعه حليلة وتحضنه ابنتها الشيماء . ويجد
هو فى هواء الصحراء وخشونة عيش البادية ما يسرع به إلى النمو ويزيد فى

حليلة بنت
أبى ذؤيب

وسامة خلقه وحسن تكوينه . فلما أتم سنتيه وآن فصاله ذهبت به حليلة الى أمه ثم عادت به إلى البادية ، رغبة من أمه في رواية ، ورغبة من حليلة في رواية أخرى . عادت به حتى يغلظ وخوفاً عليه من وباء مكة . وأقام الطفل بالصحراء سنتين آخرين يمرح في جو باديتها الصحو الطليق لا يعرف قيدياً من قيود الروح ولا من قيود المادة .

أسطورة
شق الصدر

في هذه الفترة وقبل أن يبلغ الثالثة تقع الرواية التي يقصونها من أنه كان مع أخيه الطفل من سنه في بهم لأهله خلف بيوتهم ، إذ عاد أخوه الطفل السعدى يعدو ويقول لأبيه وأمه : ذلك أخي القرشى قد أخذته رجلان عليهما ثياب بيض ، فأضجعا فشقاً بطنه ، فهما يسوطانه . ويروى عن حليلة أنها قالت عن نفسها وزوجها : « نخرجت أنا وأبوه نحوه فوجدناه قائماً ممتعاً وجهه ، فالتزمته والتزمته أبوه . فقلنا له : مالك يا بني ؟ قال : جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعا فشقاً بطني فالتمسا فيه شيئاً لم أدر ما هو . » ورجعت حليلة ورجع أبوه الى خباتهما . وخشى الرجل أن يكون الغلام أصابته الجن فاحتملاه الى أمه بمكة . ويروى ابن إسحاق في هذه الواقعة حديثاً عن النبي بعد بعثه . لكن ابن إسحاق يختاط بعد أن يقص هذه القصة ويذكر أن السبب في رده الى أمه لم يكن حكاية الملكين وإنما كان ، على ما روته حليلة لأمته ، أن نقرأ من نصارى الحبشة رأوه معها حين رجعت به بعد فظامه ، فنظروا إليه وسألوا عنه وقلوبه ثم قالوا : لناخذن هذا الغلام فلنذهب به الى ملكنا وبلدنا ؛ فان هذا غلام كائن له شأن نحن نعرف أمره ، ولم تكده حليلة تنفلات به منهم . وكذلك يروى بها الطبرى . لكنه يحيطها بالريية إذ يذكرها في هذه السنة من حياة محمد ، ثم يعود فيذكر أنها وقعت قبيل البعث وسنه أربعون سنة .

لا يطمئن المستشرقون ولا يطمئن جماعة من المسلمين كذلك إلى قصة الملكين هذه ويرونها ضعيفة السند . فالذى رأى الرجلين في رواية كتاب

السيرة إنما هو طفل لا يزيد على سنتين إلا قليلا ، وكانت كذلك سن محمد يومئذ .
 والروايات تجمع على أن محمداً أقام بيني سعد الى الخامسة من عمره . فلو كان
 هذا الحادث قد وقع وعمره ستان ونصف سنة . ورجعت حليلة وزوجها إذذاك
 به إلى أمه ، لكان في الروايتين تناقض غير مقبول . ولذلك يرى بعض الكتاب
 أنه عاد مع حليلة مرة ثالثة . ولا يرضى المستشرق سير ولیم مویر أن يشير
 إلى قصة الرجلين في ثياهما البيضاء . ويذكر أنه إن كانت حليلة وزوجها قد
 نهما إلى شئ . أصاب الطفل فلعلها نوبة عصبية أصابته ، ولم يكن لها أن تؤذى
 صحته لحسن تكوينه . ولعل آخرين يقولون : إنه لم يكن بحاجة إلى من يشق
 بطنه أو صدره ما دام الله قد أعدّه من يوم خلقه لتلقى رسالته . ويرى
 در منجم أن هذه القصة لا تستند إلى شئ . غير المعنى الحرفي للآية القرآنية :
 « أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزَّرَكَ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ » ،
 وأن ما يشير القرآن إليه إنما هي عملية روحية بحته ، الفكرة منها تطهير هذا
 القلب وتنظيفه لتلقى الرسالة القدسية خالصاً ويؤديها مخلصاً تمام الاخلاص
 محتملاً عبء الرسالة المضنى .

وإنما يدعو المستشرقين ويدعو المفكرين من المسلمين إلى هذا الموقف
 من ذلك الحادث أن حياة محمد كانت كلها حياة إنسانية سامية ، وأنه لم يلجأ في
 إثبات رسالته إلى ما لجأ إليه من سبقه من الخوارق . وهم في هذا يجدون
 من المؤرخين العرب والمسلمين سنداً حين ينكرون من حياة النبي العربي كل
 ما لا يدخل في معروف العقل . ويرون ما ورد من ذلك غير متفق مع ما دعا
 القرآن اليه من النظر في خلق الله ، وأن سنة الله لن تجد لها تبديلاً . غير متفق
 مع تعبير القرآن المشركين بأنهم لا يفقهون أن ليست لهم قلوب يعقلون بها .
 وأقام محمد في بني سعد إلى الخامسة من عمره ينهل من جو الصحراء
 الطليق روح الحرية والاستقلال النفسى ، ويتعلم من هذه القبيلة لغة العرب

مصفاة أحسن التصفية حتى لقد كان يقول من بعد لأصحابه : أنا أعربكم ، أنا قرشي^١ واسترضعت في بني سعد بن بكر . وتركت هذه السنوات الخمس في نفسه أجمل الأثر وأبقاه . كما بقيت حليلة وبقى أهلها موضع محبته وإكرامه طوال حياته . أصابت الناس سنة جذب بعد زواج محمد من خديجة ، فجاءته حليلة فعاتت من عنده ومعها من مال خديجة يعير يحمل الماء وأربعون رأساً من الغنم . وكانت كلما أقبلت عليه مدّ لها طرف رداؤه لتجلس عليه سيما الاحترام ، وكانت الشياهم ابنتها بين من أسرمع بنى هوازن بعد حصار الطائف ، فلما جرى بها إلى محمد وعرفها أكرمها ورددتها إلى أهلها كرجبتها .

وعاد إلى أمه بعد هذه السنوات الخمس . ويقال : إن حليلة التمسته وهي مقبلة به على أهله فلم تجده ؛ فأنت عبد المطلب فأخبرته أنه ضلّ منها بأعلى مكة . فبعث من يبحث عنه حتى رده عليه ورقة بن نوفل فيما يروون . وكفل عبد المطلب حفيده وأغدق عليه كل حبه وأسبغ عليه جمّ رعايته . كان يوضع لهذا الشيخ ، سيد قریش وسيد مكة كلها . فراش في ظل الكعبة ، فكان بنوه يجلسون حول ذلك الفراش إجلالا لأبيهم : فإذا جاء محمد أدناه عبد المطلب منه وأجلسه على الفراش معه ومسح ظهره بيده ، وأبدى من آيات عطفه ما يمنع أعمام محمد من تأخيره إلى حيث يجلسون .

في كفاية حده
عبد المطلب

وزاد في إعزاز الجدّ حفيده أن آمنة خرجت بابنها إلى المدينة لتريّ الغلام فيها أحوال أبيه من بني النجار ، وأخذت معها أم أيمن الجارية التي خلّف عبد الله من بعده . فلما كانوا بها أرت الغلام البيت الذي مات أبوه فيه والمكان الذي دفن به ، فكان ذلك أوّل معنى للتمّ الطبع في نفس الصبي . ولعل أمه حدّته طويلاً عن هذا الأب المحبوب الذي غادرها بعد مقامه معها أياماً معدودة ليحييه بين أحواله أجله . فقد كان النبي بعد هجرته إلى المدينة يقص لأصحابه حديث تلك الرحلة الأولى إلى المدينة مع أمه ، حديث محبّ

البيتم

للمدينة ، محزون لمن تحوى القبور من أهله بها . ولما تم مكثهم يثرب شهراً
اعتزمت أمّة العودة فركبت وركب من معها بغيرهما اللذين حملهما من مكة .
فلما كانوا في منتصف الطريق بين البلدين مرضت أمّة بالأبواء وماتت ودُفنت
بها ؛ وعادت أم أيمن بالطفل الى مكة منتحياً وحيداً ، يشعر بيبتمه ضاعفه عليه
القدر فيزداد وحدةً وألماً . لقد كان منذ أيام يسمع من أمه أنات الألم لفقد
أبيه وهو جنين ما يزال ، وها هو ذا قد رأى بعينه أمه تذهب كما ذهب أبوه
وتدع جسمه الصغير يحمل همّ اليتيم كاملاً .

موت أمّة

زاد ذلك في إعزاز عبد المطلب إياه . ومع ذلك بقيت ذكرى اليتيم
ألّية عميقة في نفسه ، حتى وردت في القرآن إذ يذكر الله نبيه بالنعمة عليه
فيقول : « أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ . » ولعل عمق هذه
الذكرى كان يهدأ بعض الشيء لو أن عبد المطلب عمراً أكثر مما عمّر ؛ لكنه
مات في الثمانين من عمره ومحمد في الثامنة ما يزال . وحزن محمد لموت جده بما
لا يقل عن حزنه لموت أمه . حزن حتى كان دائم البكاء وهو يتبع نعشه الى
مقره الأخير ، وحتى كان دائم الذكر من بعد ذلك له ، مع ما لقي بعد ذلك في
كفالة عمه أبي طالب من عناية ورعاية . ومن حياية امتدّت الى ما بعد بعثته
ورسالته ، ودامت بعد ذلك الى أن مات عمه . والحق أن موت عبد المطلب كان لبني
هاشم جميعاً ضربة قاسية . لم يكن من أبنائه من كان في مثل مكانته عزماً وقوة
أيد وأصالة رأى وكرماً وأثراً في العرب جميعاً . ألم يكن يُطعم الحاج ويسقيهم
ويبرأهل مكة جميعاً إذا أصابهم شرٌّ أو أذى أو هاهم أولاء أبنائهم لم يصل أحد منهم
الى مكاته ، أن كان فقيرهم عاجزاً عن مثل عمله ، وكان غنيهم حريصاً على ماله .
لذلك مالبت بنو أمية أن تهبوا ليأخذوا المكانة التي ظمعوها فيها من قبل دون
أن يخشوا من بني هاشم مزاحمة تخفيفهم .

موت
عبد المطلب
وأثره

في كفالة
عمه أبي طالب

وآلت كفالة محمد لابني طالب وإن لم يكن أكبر إخوته سنّاً ؛ فقد كان

الحارث أسنهم ، وإن لم يكن أكثرهم يساراً . وكان العباس أكثرهم مالاً ؛
 لكنه كان على ماله حريصاً ؛ لذلك احتفظ بالسقاية وحدها دون الرقادة .
 فلا عجب أن كان أبو طالب على فقره أنبلهم وأكرمهم في قريش مكانة
 واحتراماً ، ولا عجب أن عهد إليه عبد المطلب بكفالة محمد من بعده . وقد
 أحب أبو طالب ابن أخيه كحب عبد المطلب له . أحبه حتى كان يقدمه على
 أبنائه . وكان يحدفه من النجاسة والذكاء والبر وطيب النفس ما يزيده به
 تعلقاً . ولقد أراد أن يخرج يوماً في تجارة له إلى الشام حين كان محمد في الثانية
 عشرة من عمره ولم يفكر في استصحابه خوفاً عليه من وعثاء السفر واجتياز
 الصحراء . لكن محمداً أبدى من صادق الرغبة في مصاحبة عمه ما قضى على كل
 تردد في نفس أبي طالب . وصحب الغلام القافلة حتى بلغ بصرى في جنوب
 الشام . وتروى كتب السيرة أنه التقى في هذه الرحلة بالراهب بُحَيْرَا وأن
 الراهب رأى فيه أمارات النبوة على ما تدلّه عليه أنباء كتب النصرانية . وتذهب
 بعض الروايات إلى أن الراهب نصح إلى أهله ألا يُوغلوا به في بلاد الشام
 خوفاً عليه من اليهود يعرفون منه هذه الأمارات فينالونه بالأذى .

الرحلة الأولى
 إلى الشام

في هذه الرحلة وقعت عينا محمد الجليلتان على فسحة الصحراء وتعلقت
 بالنجوم اللامعة في سماءها الصافية البديعة ، وجعل يمر بمدينتيّ ووادي القرى
 وديار ثمود ، وتستمع أذناه المرهفتان إلى حديث العرب وأهل البادية عن هذه
 المنازل وأخبارها وماضي نبتها . وفي هذه الرحلة وقف من بلاد الشام عند
 الحدائق الغناء الياض التي أنسته حدائق الطائف وما يروى عنها . والتي تعتبر
 جنات إلى جانب جذب الصحراء المقفرة والجبال الجرداء ، فيما حول مكة .
 وفي الشام كذلك رأى محمد أجبار الروم ونصرانيّتهم . وسمع عن كتابهم
 وعن مناوأة الفرس من عبّاد النار لهم وانتظارهم الواقعة بهم . ولئن كان بعد
 في الثانية عشرة من سنه فقد كان له من عظمة الروح وذكاء القلب ورجحان

العقل ودقة الملاحظة وقوة الذاكرة وما الى ذلك من صفات جباه القدر بها تمهيداً للرسالة العظيمة التي أعده لها — كان له من ذلك كله ما جعله ينظر الى ما حوله ومن حوله نظرة الفاحص المحقق، فلا يستريح الى كل ما يسمع ويرى، فيرجع الى نفسه يسألها: أين الحق من ذلك كله؟.

والراجح أن أبا طالب لم يفد ما لا كثيراً من رحلته تلك، فلم يعد من بعدُ الى رحلة مثلها، بل قنع بحظه وأقام بمكة يكفل في حدود ماله القليل أولاده الكثيرين. وأقام محمد مع عمه قانعاً بنصيبه يقوم من الأمر بما يقوم به من هم في مثل سنه. فاذا جاءت الأشهر الحرم ظل بمكة مع أهله أو خرج وإياهم الى الأسواق المجاورة لها بعُكَاظ ومَجَنَّة وذى المَجَاز يستمع لانشاد أصحاب المذاهب والمعلقات وتلهم أذناه بلاغتهم في غزلهم ونغزهم وذكرهم أنسابهم ومغازيهم وكرمهم وفضلهم، ثم يعرض ذلك على بصيرته تلفظ منه ما لا تُسِيغ وتُعجَب بما تراه جديراً بالاعجاب، ويستمع الى خطب الخطباء، ومن بينهم اليهود والنصارى الذين كانوا يأخذون على إخوانهم من العرب وثنيهم ويحدثونهم عن كتب عيسى وموسى ويدعونهم الى ما يعتقدونه الحق، ويزن ذلك بميزان قلبه فيراه خيراً من هذه الوثنية التي غرق فيها أهله، ولكنه لا يطمئن كل الطمأنينة اليه. وكذلك جعل القدر يوجه نفسه منذ نعومة أظفاره الوجهة التي تهيمه لذلك اليوم العظيم. يوم الوحي الأول، حين دعاه ربه لتبليغ رسالته: رسالة الهدى والحق للناس كافة.

وكما عرف محمد طرق القوافل في الصحراء مع عمه أبي طالب، وكما استمع الى الشعراء والخطباء مع ذويه في الأسواق حول مكة أثناء الأشهر الحرم، فقد عرف كذلك حمل السلاح إذ وقف الى جانب أعمامه في حرب الفِجَار. وحرب الفِجَار تلك كانت بعض ما يثور ويتصل بين قبائل العرب من الحروب. وقد سميت الفِجَار لأنها وقعت في الأشهر الحرم إذ تمتنع قبائل

حرب الفِجَار

العرب عن القتال ويعقدون أسواق تجارتهم بعُكاظ بين الطائف ونخلة وبمَجَنَّة وذي المجاز على مقربة من عَرَافَات لتبادل التجارة وللتفاخر والجدل وللحج بعد ذلك عند أصنامهم بالكعبة . وكانت سوق عكاظ أكثر أسواق العرب شهرة : فيها أنشد أصحاب المعلقات معنقاتهم ، وفيها خطب قس ، وفيها كان اليهود والنصارى وعباد الأصنام يحدث كل عن رأيه وعقيدته آمناً ، لأنه في الشهر الحرام .

على أن البرّاض بن قيس الكناني لم يحترم هذه الحرمة حين غافل أثناءها عُرْوَةَ الرّحال بن عُثْبَةَ الهوازني وقتله . وسبب ذلك أن النعمان بن المُنذر كان يبعث كل سنة قافلة من الحيرة إلى عكاظ تحمل المسك وتجيء بديلاً منه بالجلود والحبال وأقشعة اليمين المزركشة . فعرض البرّاض الكناني نفسه عليه ليقود القافلة في حماية قبيلته كنانة ؛ وعرض عُرْوَةُ الهوازني نفسه كذلك على أن يتخطى إلى الحجاز طريق نجد . واختار النعمان عروة فأحفظ ذلك البرّاض فتبعه وغاله وأخذ قافلته . ثم أخبر بشر القرشي أن هوازن ستأخذ بثأرها من قريش . ولحقت هوازن بقريش قبل أن يدخلوا الحرم فاقتتلوا وتراجمت قريش حتى لاذت من المنتصرين بالحرم ، فأذرتهم هوازن الحرب بعكاظ للعام المقبل . وقد ظلت هذه الحرب تنشب بين الفريقين أربع سنوات تباعاً انتهت بعدها إلى صلح من نوع صلح البادية : ذلك بأن يدفع من كانوا أقل قتلى دية العدد الزائد على قتلاهم من الفريق الآخر . ودفعت قريش دية عشرين رجلاً من هوازن ، وذهب البرّاض مثلاً للشقاوة .

لم يحقق التاريخ سن محمد أيام حرب الفجار : فقيل : كان ابن خمس عشرة سنة ؛ وقيل : كان ابن عشرين . ولعل سبب الخلاف أن هذه الحرب استطلت أربع سنوات تجعل حاضر أولها وهو في الخامسة عشرة يلحق آخرها في جوار العشرين .

وقد اختلف فيما قام به محمد من عمل في هذه الحرب ، فقال أناس : إنه كان يجمع السهام التي تقع من هوازن ويدفعها الى أعمامه ليردوها في صدور خصومهم . وقال آخرون : بل اشترك فيها ورمى السهام بنفسه . وما دامت الحرب المذكورة قد امتدت فتراتها في سنوات أربع ، فليس ما يمنع صحة الروايتين ؛ فيكون قد جمع السهام لأعمامه أول الأمر ، ثم رمى من بعد ذلك . وقد ذكر رسول الله الفجار بعد سنوات من رسالته فقال : قد حضرته مع عمومتى ورميت فيه بأسهم وما أحب أنى لم أكن فعلت .

وقد شعرت قریش بعد الفجار بأن ما أصابها وما أصاب مكة جميعاً بعد موت هاشم وموت عبد المطلب من تفرق الكلمة وحرص كل فريق على أن يكون صاحب الامر ، قد أطمع فيها العرب بعد أن كانت أمنع من أن يطمع فيها ظامع . إذ ذاك دعا الزبير بن عبد المطلب ، فاجتمعت بنو هاشم ، وزهرة ، وتيم ، في دار عبد الله بن جدعان ، فصنع لهم طعاماً فتعاقدوا وتعاهدوا بالله القاتل لنكونن مع المظلوم حتى يؤدي إليه حقه ما بلى بحر صوفة . وقد حضر محمد هذا الحلف الذي سمته العرب حلف الفضول ؛ وكان يقول : « ما أحبُّ أن لي بحلف حضرته في دار ابن جدعان حمر النعم ولو دُعيت به لأجبت » . لم تكن حرب الفجار ، كما رأيت ، تستغرق إلا أياماً من كل عام . أما سائر العام فكان العرب يرجعون فيه إلى أعمالهم المعروفة يزاولونها دون أن تترك الحرب في نفوسهم من المرارة ما يحول بينهم وبين التجارة والربا والشراب والتسرى والأخذ من مختلف ألوان اللهب بأوفر نصيب . أفكان محمد يشاركهم في هذا ؟ أم أن رقة حاله وضيق ذات يده وكفالة عمه إياه جعلته بمنأى عنها ينظر الى الترف نظرة المحروم المشتبهى ؟ أمأ أنه نأى عنها فذلك ما يشهد به التاريخ . لكنه لم ينأ عنها عجزاً عن النيل منها ؛ فقد كانت الخلعاء المقيمون بأطراف مكة والذين لا يجدون من أسباب الرزق الا الضنك

والاملاق يجدون الوسيلة اليها . بل كان بعضهم أشد من أمجاد مكة وأشرف قريش إمعاناً فيها وإدماً لها . إنما كانت نفس محمد مشغوفة بأن ترى وأن تسمع وأن تعرف . . . كأن حرمانه من التعلم الذي يتعلمه أنداده جعله أشد للبرعة شوقاً وبها تعلقاً . كما أن النفس العظيمة التي تجلت من بعد آثارها وما يزال يغمر العالم ضياؤها . كانت في توقها الى الكمال ترغب عن هذا اللهو الذي يصبو إليه أهل مكة ، الى نور الحياة المتجلى في كل مظاهر الحياة لمن هداه الحق اليها ، ولا استكناه ما تدل هذه المظاهر عليه وما تحدث الموهوبين به . ولذلك ظهر منذ الصبا الأول في مظهر الكمال والرجولية وأمانة النفس . حتى لدعاه أهل مكة جميعاً بالأمين .

رعي الغنم

ومما زاده انصرافاً الى التفكير والتأمل اشتغاله برعي الغنم سنى صباه تلك . فقد كان يرعى غنم أهله ويرعى غنم أهل مكة ، وكان يذكر رعيه إياها مغتبطاً . وكان يقول : ما بعث الله نبياً إلا راعى الغنم ، ويقول : بعث موسى وهو راعى غنم ، وبعث داود وهو راعى غنم ، وبعث وأنا أراعى غنم أهلي بأجناد . وراعى الغنم الذكي القلب والفؤاد يجد في فسحة الجور الطليق أثناء النهار وفي تلاءؤ النجوم إذا جن الليل موضعاً لتفكيره وتأمله يسبح منه في هذه العوالم حتى يرى فيما وراءها ، ويلتمس في مختلف مظاهر الطبيعة تفسيراً لهذا الكون وخلقه . وهو يرى نفسه ، ما دام ذكي الفؤاد عليم القلب ، بعض هذا الكون غير منفصل عنه . أليس هو يتنفس هواءه ولولم يتنفسه قضي ؟ أليست تحييه أشعة الشمس ويغمره ضياء القمر ويتصل وجوده بالأفلاك والعوالم جميعاً ؟ هذه الأفلاك والعوالم التي يرى في فسحة الكون أمامه . متصلاً بعضها ببعض في نظام محكم ، لا الشمس ينبغي لها أن تترك القمر ولا الليل سابق النهار . وإذا كان نظام هذا القطيع من الغنم أمام محمد يقتضى اتبائه ويقظته حتى لا يعدو الذئب على شاة منها وحتى لا تضل إحداها في مهامه البادية ، فأى

انتباه وأية قوة تحفظ على نظام العالم كل إحكامه ؟ وهذا التفكير والتأمل من شأنهما صرف صاحبهما عن التفكير في شهوات الانسان الدنيا والسمو به عنها إذا تبدى له كاذب زخرفها . لذلك ارتفع محمد في أعماله وتصرفاته عن كل ما عيس هذا الاسم الذى أطاق عليه بمكة وبقي له : « الأمين » .

يدل على ذلك كله ما حدث هو عنه ، من أنه كان يرعى الغنم مع زميل له ، فحدثه نفسه يوماً أن يلهو كما يلهو الشباب ، فأفضى الى زميله هذا ذات مساء أنه يود أن يهبط الى مكة . يلهو بها ويعبت عبت الشباب في جنح الليل . وطلب لذلك اليه أن يقوم على حراسة أغنامه . لكنه ما إن بلغ أعلى مكة حتى استرعى انتباهه عرس زواج وقف عنده ثم ما ايث أن نام . ونزل مكة ليلة أخرى للغاية ذاتها ، فامتلات أذانه بأصوات موسيقية بارعة كأنما هي موسيقى السماء ، فجلس يستمع ثم نام حتى أصبح . وماذا عسى أن تفعل مغربيات مكة بقلب مهذب ونفس كلها التفكير والتأمل ؟ ماذا عسى أن تكون هذه المغربيات التى وصفنا التى لا يستريح إليها من يكون دون محمد سمواً بمراحل كثيرة ! لذلك أقام بعيداً عن النقص لا يجد لذة بذوقها أطيب لنفسه من لذة التفكير والتأمل .

حياة التفكير
والتأمل

وحياة التفكير والتأمل وما تستريح إليه من عمل بسيط كرعى الغنم ، ليست بالحياة التى تدر على صاحبها أخلاف الرزق أو تفتح أمامه أبواب اليسار . وما كان محمد يهتم لذلك أو يعنى به . وقد ظل طول حياته أشد الناس زهداً فى المادة ورغبة عنها . وما إقباله عليها وكان الزهد بعض طبعه ، وكان لا يحتاج من الحياة إلى أكثر مما يقيم صلبه ؟ ! . أليس هو القائل : نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع ؟ أليس هو الذى عرف عنه كل حياته حرصه على شطف العيش . ودعوة الناس إلى الاستمتاع بخشونة الحياة ؟ والذين يتوقون إلى المال ويباهون فى طلبه إنما يتبعونه لارضاء شهوات لم

ورقة شمائله وجمال نفسه ما زادها علما به فوق ما كانت تعرف من فضله على شباب مكة . ولم يك إلا رد الطرف حتى انقلبت غبطتها حبا جعلها وهي في الأربعين من سنها ، وهي التي ردت من قبل أيدى أعظم قريش شرفا ونسبا ، تود أن تزوج من هذا الشاب الذي نفذت نظراته ونفذت كلماته إلى أعماق قلبها . وتحذت في ذلك إلى أختها على قول . والى صديقها نفيسة بنت منية على قول آخر . وذهبت نفيسة دسيسا الى محمد فقالت له : ما يمنعك أن تزوج ؟ قال : ما يبدى ما تزوج به . قالت : فان كيفيت ذلك ودعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة ألا تجيب ؟ . قال : فن هي ؟ أجابت نفيسة بكلمة واحدة : خديجة . قال محمد : كيف لي بذلك ! . وكان هو أيضاً قد انس الى خديجة وإن لم تحدثه نفسه في زواج منها . أن كان يعلم ردها أشراف قريش وأغنياءها . فلما قالت له نفيسة جواباً على سؤاله : على ذلك ، سارع الى إعلان قبوله . ولم تبطل خديجة أن حددت الساعة التي يحضر فيها مع أعمامه ليجدوا أهلها عندها فيتم الزواج . وزوجها عمها عمر بن أسد أن كان خويلد قد مات قبل حرب الفجار ، مما يكذب ما يروى من أنه كان حاضراً ولم يكن راضياً هذا الزواج ؛ فسقته خديجة خمرأ حتى أخذت فيه . وحتى زوجها محمداً .

زواج محمد
من خديجة

وهنا تبدأ صفحة جديدة من حياة محمد : تبدأ حياة الزوجية والأبوة . الزوجية الموفقة المهنية من جانبه وجانب خديجة جميعا ، والأبوة التي تعرف من الآلام لفقد الأبناء . ما عرف محمد في طفولته لفقد الآباء ..

الفصل الرابع

من الزواج إلى البعث

صفة محمد -- بناء المسكين الكعبة -- حكم محمد بينهم في الحجر الأسود
حكاه قريش والوثنية -- أبناء محمد وبناته -- موت أبنائه -- زواج بناته
ميل محمد للعزلة -- تحننه في حراء -- الرؤيا الصادقة -- أول الوحي

تزوج محمد من خديجة بعد أن أصدقها عشرين بكرة. وانتقل إلى بيتها
ليبدأ وإياها صفحة جديدة من حياته؛ ليبدأ حياة الزوجية والأبوة. وليأدبها
من جانبه حب شاب في الخامسة والعشرين لم يعرف نزوات الشباب
ولا طيشه، ولا هو عرف هذا الحب الأهوج يبدأ كأنه الشعلة المتوجهة
لينطلق من بعد ذلك سراجها. وليرزق منها البنين والبنات. فيحتسب أبناءه
القاسم والظاهر والطيب بما يثير في نفسه لآعج الحزن والألم، وتبقى له بناته
وهو بن البر والشقفة. وهن له الأكرام والاعزاز الخالص.

وكان محمد وسيم الطائفة رابعة في الرجال ليس بالطويل البائن ولا
بالقصير المتردد، ضخم الرأس. ذا شعر رجل شديد سواده. مبطوط الجبين
فوق حاجبين سابغين منونين متصلين، واسع العينين أدعجهما. تشوب بياضهما
في الجوانب حمرة خفيفة. وتزيد في قوة جاذبيتهما وذكاء نظرتيهما أهداب طوال
حوالك، مستوى الأنف دقيقة. مفلج الأسنان، يرسل ذقناً كثة؛ على العنق
جميله، عريض الصدر. رَحْب الساحتين. أزهر اللون. شثن الكفين والقدمين
(أى غليظها). يسير ملقياً جسمه إلى الأمام مسرع الخطو ثابتة. على ملاحظه
سيما التفكير والتأمل. وفي نظرتيه سلطان الأمر الذي يخضع الناس لأمره.

فلا عجب وتلك صفته أن تجمع خديجة بين حبه والاذعان له . ولا عجب أن تعفيه من تديير ما لها لتقوم هي على هذا التديير كما كان دأبها من قبل ، وأن تدع له ما شاء من فسحة الوقت ليفكر وليتأمل .

وأقام محمد وقد أغناه الله بزواج خديجة في ذروة من النسب وسعة من المال، وأهل مكة جميعاً ينظرون له نظرة غبطة وإكبار . وهو في شغل عن نظرهم بما أسبغ الله عليه من فضله ، وبما يبشره به خصب خديجة من عقب صالح . لكن ذلك لم يصرفه عن الاختلاط بهم والأخذ معهم بنصيب في الحياة العامة على ما كان يفعل من قبل ، بل لقد زاده جاهاً بينهم ومكانة فيهم ، وزاده لذلك تواضعاً على جم تواضعه ؛ فلقد كان على عظيم ذكائه وظاهر تفوقه حسن الاصغاء الى محدثه ، لا يلوى عن أحد وجهه ولا يكتفي بالقاء السمع الى من يحدثه ، بل يلتفت اليه بكل جسمه . وكان قليل الكلام ، كثير الانصات ، ميالاً للجد من القول . وإن كان لا يأبى أن يشارك في مفاكحة وأن يهزل ثم لا يقول إلا حقاً . وكان يضحك أحياناً حتى تبدو نواجذه . فاذا غضب لم يظهر لذلك من أثر الغضب الا نفرة عرق بين حاجبيه . أن كان يكظم غيظه ولا يريد أن يظهر غضبه . لما جيل عليه من سعة الصدر وصدق الهمة والوفاء للناس . ومن البر والجود وكرم العشرة . وما كان عليه الى جانب ذلك من ثبات العزيمة وقوة الارادة وشدة البأس ومضاء التصميم مضاء . لا يعرف التردد . وهذه الصفات مجتمعة فيه كانت تجعل من رآه بديهته هابه . ومن خالطه أحبه . فما كان أعظم أثرها إذا فيما اتسق بينه وبين خديجة الزوج الوفية من مودة صادقة ووفاء كامل .

لم ينقطع محمد عن مخالطة أهل مكة والأخذ معهم بنصيب في الحياة العامة . وكانوا يومئذ في شغل بما أصاب الكعبة . فقد طغى عليها سيل عظيم انحدر من الجبال فصعد جدرانها بعد توهينها . وكانت قريش من قبل ذلك تفكر

إعادة
سار الكعبة

في أمرها . أن كانت ، ولا سقف لها ، عرضةً لانتهاب السارقين ما تحتوى من نفائس .
 لكنها كانت تخشى . إن هي شددت بنيانها ورفعت بابها وسقفها . أن يصيبها من
 رب الكعبة المقدسة شرٌّ وأذى . فقد كانت تحيط بها في مختلف عهود الجاهلية
 أساطير تخيف الناس من الإقدام على تغيير شيء من أمرها ، وتجعلهم يعتبرون
 ذلك بدعاً محرّماً . فلما طغى عليها السيل لم يكن بدءاً من الإقدام ولو في شيء
 من الخوف والتردد . وصادف أن رمى البحر إذ ذاك بسفينة قادمة من مصر
 مملوكة لتاجر رومي اسمه باقوم فحطمها . وكان باقوم هذا بناءً على شيء من العلم
 بالنجارة . فلما سمعت قريش بخبرها خرج الوليد بن المغيرة في نفر من قريش إلى
 جدة فابتاعوا السفينة من الرومي ، وكتبوه في أن يتقدم معهم إلى مكة ليعاونهم
 في بناء الكعبة . وقبل باقوم . وكان بمكة قبطن يعرف نجر الخشب وتسميته .
 فوافقهم على أن يعمل لهم ويعاونهم باقوم . ثم إن قريشاً اقتسمت جوانب
 البيت أربعة ، لكل قبيلة جانب تقوم بهدمه وبنائه . على أنهم ترددوا قبل هدمها
 مخافة أن يصيبهم أذى . ثم إن الوليد بن المغيرة أقدم في شيء من الخوف . فدعا
 آلهته وهدم بعض الجانب من الركن اليماني . وأمسى القوم ينتظرون ما الله
 فاعل بالوليد . فلما أصبح ولم يصبه شيء أقدموا يهدمون وينقلون الحجارة .
 ومحمد ينقل معهم ، حتى انتهى الهدم إلى حجارة خضر ضربوا عليها بالمعول
 فارتد عنها . فاتخذوها أساساً للبناء فوقه . ونقلت قريش أحجار الجرانيت
 الأزرق من الجبال المجاورة للبدء في البناء وبدأت فيه . فلما ارتفع إلى قامه
 الرجل وأن أن يوضع الحجر الأسود المقدس في مكانه في الجانب الشرقي .
 اختلفت قريش أيهم يكون له نثار وضع الحجر في هذا المكان . واستحرت
 الخلاف حتى كادت الحرب الأهلية تنشب بسببه . تحالف بنو عبد الدار
 وبنو عدى أن يحولوا بين أية قبيلة وهذا الشرف العظيم . وأقسموا على ذلك
 جهد أيامهم ، حتى قرب بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً وأدخلوا أيديهم فيه

حكم محمد
في أمر الحجر
الأسود

توكيداً لأيمانهم . ولذلك سما : لعقة الدم . فلما رأى أبو أمية بن المغيرة
الخنزومي ما صار إليه أمر القوم ، وكان أسنهم وكان فيهم شريفاً مطاعاً ، قال
لهم : اجعلوا الحكم فيما بينكم أول من يدخل من باب الصفا . فلما رأوا محمداً
أول من دخل قالوا : هذا الأمين رضينا بحكمه ، وقصوا عليه قصتهم . وسمع
هو لهم ، ورأى العداوة تبدو في عيونهم . ففكر قليلاً ثم قال : هلتم إلي
ثوباً ، فأني به . فنشره وأخذ الحجر فوضعه بيده فيه ، ثم قال : ليأخذ كبير
كل قبيلة بطرف من أطراف هذا الثوب ؛ فحملوه جميعاً إلى ما يجاذى موضع
الحجر من البناء ، ثم تناوله محمد من الثوب ووضعه في موضعه . وبذلك انحسم
الخلاف وانفض الشر . وأتمت قريش بناء الكعبة حتى جعلت ارتفاعها ثمانين
عشرة ذراعاً ، ورفعوا بابها عن الأرض ليُدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا .
وجعلوا في داخلها ست دعائم في صفين ، وجعلوا في ركنها الشامي من داخلها
دُرَجاً يصعد به إلى سطحها . ووضع هُبُلَ داخل الكعبة ، كما وضعت النفائس
التي تعرّضت من قبل بنائها وسقفها لمطامع اللصوص .

أختلف في سن محمد حين بناء الكعبة وحين حكمه بين قريش في أمر
الحجر ، فقيل : كان ابن خمس وعشرين . وقال ابن اسحاق : كان ابن خمس وثلاثين .
وسواء أصحت الواحدة أم الأخرى من هاتين الروايتين فإن إسراع قريش إلى
الرضا بحكمه أول ما دخل من باب الصفا ، وتصرفه هو في أخذ الحجر ووضعه
على الثوب وأخذه من الثوب لوضعه مكانه من جدار الكعبة ، يدل على
ما كان له من مكانة سامية في نفوس أهل مكة ومن احترام جمّ لما عرف عنه
من سمو النفس ونزاهة القصد .

وهذا الخلاف بين القبائل . وهذا التحالف بين لعقة الدم . وهذا الاحتكام
لأول مقبل من باب الصفا . يدل على أن السلطة في مكة كانت انحلت فلم يبق
لرجل منها ما كان لقصى ولا لهاشم ولا لعبد المطلب من سلطان . ولقد كان

انحلال السلطة
في مكة وأثره

لتنازع بني هاشم وبني أمية السلطان بعد وفاة عبد المطلب أثره في ذلك لا ريب . وكان هذا الانحلال في السطة جديراً بأن يجر على مكة الأذى، لولا ما كان لبيتها العتيق في نفوس العرب جميعاً من قداسة . على أن انحلال السلطان قد أدى إلى نتيجته الطبيعية : أدى إلى مزيد من حرية الناس في التفكير والجهر بالرأى، وإلى إقدام اليهود والنصارى . ممن كانوا يخافون صاحب السلطان . على تعبير العرب بعبادة الأوثان . وانتهى ذلك بكثير من أهل مكة ومن القرشيين أنفسهم إلى أن زالت من نفوسهم قداسة الأصنام . وإن ظل أجداد مكة وساداتها يظهرون لها التقديس والعبادة . وهؤلاء من العذر ما للذين يرون في الدين القائم وسيلة من وسائل ضبط النظام وعدم تبلبل الأفكار ، وفي عبادة الأصنام بالكعبة ما يحفظ على مكة مكاتها الدينية والتجارية . ولقد ظلت مكة بالفعل تنعم من وراء هذه المكاة بالرخاء واتصال التجارة . لكن ذلك لم يغير من انحلال قداسة الأصنام في نفوس المكين أنفسهم .

ذكروا أن قريشا اجتمعت يوماً بتخلة تحيي عيد العزى . فخلص منهم أربعة نجياً هم زيد بن عمرو وعثمان بن الحويرث وعبيد الله بن جحش وورقة بن نوفل . فقال بعضهم لبعض : « تعلموا ، والله ما قومكم على شيء . وإنهم لنفي ضلال . فما جرنظيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضرب ولا ينفع ، ومن فوقه يجرى دم النحور . يا قوم التمسوا لكم ديناً غير هذا الدين الذي أنتم عليه . » أما ورقة فدخل النصرانية ، وقيل : إنه نقل إلى العربية بعضاً مما في الأناجيل . وأما عبيد الله بن جحش فظل فيما هو فيه من الالتباس حتى أسلم ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة ، وهناك اعتنق النصرانية ومات عليها ، وأقامت امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان على الإسلام حتى صارت من أزواج النبي وأمهاة المؤمنين . وأما زيد بن عمرو ففر من زوجه ومن عمه الخطاب . وطوف في الشام وفي العراق ثم عاد ولم يدخل في يهودية ولا نصرانية . وفارق

بدر انحلال
لوثمة

دين قومه واعتزل الأوثان. وكان يقول وهو مستند إلى الكعبة: « اللهم لو أنى أعلم أى الوجوه أحب إليك لعبدتك به ، ولكنى لا أعلمه . » وأما عثمان بن الحويرث . وكان من ذوى قرابة خديجة ، فذهب إلى بيزنطة وتصر وحسنت مكاتته عند قيصر ملك الروم . ويقال : إنه أراد أن يخضع مكة إلى حماية الروم وأن يكون عامل قيصر عليها . فطرده المكيون فاحتمى بالفساسنة فى الشام ، وأراد أن يقطع الطريق على تجارة مكة . فوصلت الفساسنة هدايا المكيين فمات ابن الحويرث عندهم مسموماً .

أنا . محمد

تعاقت السنون ومحمد يشارك أهل مكة فى حياتها العامة ويجد فى خديجة خير النساء حقاً : الودود الولود التى وهبت كل نفسها له ، التى أنجبت له من الأبناء القاسم والظاهر والطيب ، ومن البنات زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة . أما القاسم والظاهر والطيب فلم يعرف عنهم إلا أنهم ماتوا أطفالاً فى الجاهلية لم يتركوا على الحياة أثراً يتقأ أو يذكر . لكنهم من غير شك قد ترك موتهم فى نفس أبويهم ما يتركه موت الابن من أثر عميق . وترك موتهم من غير شك فى نفس خديجة ما جرح أوموتها ثلاث جراحات دامية . وهى لا ريب قد أتجعت عند موت كل واحد منهم فى الجاهلية الى آلهتها الأصنام تسألها ، ما بالذا لم تشملها برحمتها وبرها ، وما بالها لم ترحم قلبها من أن يهوى به الشكل ليتحطم على قرارة الحزن مرةً فمرة فمرة ! وقد شعر زوجها لا ريب معها بالألم لوفاة بنيه ، كما حزت فى قلبه هذا الألم الحى ممثلة صورته فى زوجه يراه كلما عاد الى بيته وجلس اليها . وليس يتعذر علينا أن نقدر عمق هذا الحزن السحيق فى عصر كان البنات يؤأذن فيه ، وكان الحرص على العقب الذكر يوازى الحرص على الحياة بل يزيد عليه . وبحسبك مظهراً لهذا الألم أن لم يطق محمد على الحرمان صبراً ، حتى اذا جرى يزيد بن حارثة يشتري طلب الى خديجة أن تبناعه ففعلت ، ثم أعتقه وتبناه ، فكان يدعى زيد بن

محمد . واستبقاه ليكون من بعدُ من خيرة أتباعه وصحبه . ولقد حزن محمد من بعد حين مات ابنه ابراهيم أشد الحزن بعد أن حرّم الاسلام وآد البنات ، وبعد أن جعل الجنة تحت أقدام الأمهات . فلا ريب إذاً أن قد كان لما أصاب محمداً في بنيه ما هو جدير بأن يترك في حياته وتفكيره أثره . ولا ريب في أنه استوقف تفكيره ولفت نظره في كل واحدة من هذه الفواجع ما كانت خديجة تقرب به الى أصنام الكعبة ، وما كانت تنحر نُهَيْل وللات والعزرى ولمناة الثالثة الأخرى تريد أن تفتدى ما ألمَّ بها من ألم الشكل . فلا تفيد القربان ولا تجدى النحور .

وأما البنات فقد عني محمد بتزويجهن من أكفاه لهن . فزوج زينب كبراهن من أبي العاص بن الربيع بن عبد شمس ، وكانت أمه أختاً لخديجة ، وكان قتي مقدراً من قومه لاستقامته ونجاح تجارته . وكان هذا الزواج موفقاً برغم ما كان بعد الاسلام ، وحين أرادت زينب الهجرة من مكة الى المدينة . من شوائب شابهة سنرى من بعدُ تفصيلها . وزوج رُقِيَّة وأم كلثوم من عتبة وعُتَيْبَة ابني عمه أبي لُهب . ولم تبق هاتان الزوجتان مع زوجيهما بعد الاسلام أن أمر أبو لُهب ابنه بتسريحهما . فتزوجهما عثمان واحدة بعد الأخرى . وكانت فاطمة طفلة ما تزال فلم تزوج من على إلا بعد الاسلام .

حياة طمأنينة ودعة إذا كانت حياة محمد في هذه السنين من عمره . ولولا احتسابه بنيه لكانت حياة نعمة بمودة خديجة ووفائها ، وبهذه الأبوّة السعيدة الراضية . طبعي مع ذلك أن يترك محمد نفسه لسجيتها ، بتجية التفكير والتأمل ، وأن يستمع الى قومه فيما كان حوارهم يقع عليه من أمور أصنامهم ، وما كان النصارى واليهود يقولونه لهم ، وأن يفكر ويتدبر ، وأن يكون أشد من كل قومه تدبراً وتفكيراً . فهذا الروح القوي الملهم ، هذا الروح الذي أعدت الأقدار ليلبغ الناس من بعدُ رسالات ربه . ويوجه حياة العالم الروحية

الاتجاه الحق ، لا يمكن أن يظل مطمئنا الى ماغرق الناس فيه الى الأذقان من ضلال ، ولا بد أن يلتمس في الكون أسباب الهدى ، حتى يُعده الله ليلقى عليه ماقدّر في الغيب من رسالته . ومع عظيم توجهه لهذه الناحية الروحية وشديد تعلقه بها فإنه لم يكن يريد لنفسه أن يكون من طراز الكهان ولا أراد أن ينصب نفسه حكيمًا على نحو ما كان ورقة بن نوفل وأمثاله . هو إنما كان يريد الحق لنفسه . فكان لذلك كثير التفكير ، طويل التأمل ، قليل الافضاء لغيره بما يحيش بنفسه من آثار تفكيره وتأمله .

التحنث

وقد كان من عادة العرب — إذ ذاك — أن ينقطع مفكر وهم للعبادة زمنًا في كل عام يقضونه بعيداً عن الناس في خلوة ، يتقربون إلى آلهتهم بالزهد والدعاء ، ويتوجهون إليها بقلوبهم يتمسكون عندها الخير والحكمة . وكانوا يُسمون هذا الانقطاع للعبادة التحنث أو التحنث . وقد وجد محمد فيه خير ما يُمكنه من الامعان فيما شغلت به نفسه من تفكير وتأمل ، كما وجد فيه طمأنينة نفسه وشفاء شغفه بالوحدة يلتمس أثناءها الوسيلة الى ما برح شوقه يشتد إليه من نشدان المعرفة واستلهاهم ما في الكون من أسبابها . وكان بأعلى جبل حرام — على فرسخين من شمال مكة — غار هو خير ما يصلح للانقطاع والتحنث ، فكان يذهب إليه طوال شهر رمضان من كل سنة يقيم به مكتفياً بالقليل من الزاد يحمل إليه ، بمعنا في التأمل والعبادة ، بعيدا عن ضجة الناس وضوضاء الحياة ، ماتمسا الحق ، والحق وحده . ولقد كان يشتد به التأمل ابتغاء الحقيقة حتى لكان ينسى نفسه وينسى طعامه وينسى كل ما في الحياة : لأن هذا الذي يرى في الحياة التي حوله ليس حقا . وهناك كان يقرب في صحف ذهنه كل ما وعى فيزداد عما يزاول الناس من ألوان الظن رغبة وازورارا . وهو لم يكن يطمع في أن يجد في قصص الأحبار وفي كتب الرهبان الحق الذي يبتد ، بل في هذا الكون المحيط به : في السماء ونجومها وقمرها وشمسها . وفي الصحراء ساعات لهيها المحرق تحت

في غار حرام



جبل حراء حيث بدء الرحي . ويعرف الآن بجبل النمر

ضوء الشمس الباهرة اللائع، وساعات صفوها البديع إذ تكسوها أشعة القمر أو أضواء النجوم بلباسها الرطب الندى، وفي البحر وموجه، وفي كل ما وراء ذلك مما يتصل بالوجود وتشمله وحدة الوجود. في هذا الكون كان ياتمس الحقيقة العليا، وابتغاء إدراكها كان يسمو بنفسه ساعات خلوته ليتصل بهذا الكون وليخترق الحجب إلى مكنون سره. ولم يكن بحاجة إلى كثير من التأمل ليرى أن ما يباشر قومه من شؤون الحياة وما يتقربون به إلى آلهتهم ليس حقا. فهاهذه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع ولا تخلق ولا ترزق ولا تدفع عن أحد غائلة شر يصيبه! وهُبَل واللات والعزى، وكل هذه الأنصاب والأصنام القائمة في جوف الكعبة أو حولها، لم تخلق يوماً ذُباباً ولا جادت مكة بخير! ولكن أين الحق إذا؟ أين الحق في هذا الكون الفسيح بأرضه وسمواته ونجومه؟ أهو في هذه الكواكب المضيئة التي تبعث إلى الناس النور والدفء، ومن عندها ينحدر ماء المطر، فيكون للناس ولأهل الأرض كافة من خلائق، حياة بالماء والنور والدفء؟ كلا! فما هذه الكواكب إلا أفلاك كالأرض سواء. أهو فيما وراء هذه الأفلاك من أثر لا حد ولا نهاية له؟ ولكن ما الأثر؟ وهذه الحياة التي نحيا اليوم فتتقضى غداً. ما أصلها وما مصدرها؟! أهى مصادفة تلك التي أوجدت الأرض وأوجدتنا عليها؟ لكن للأرض وللحياة سننا ثابتة لا تبدل لها ولا يمدن أن تكون المصادفة أساسها. وما يأتي الناس من خير أو شر. أفيأتونه طواعية واختياراً. أم هو بعض سلبقتهم فلا سلطان لاختيارهم عليه؟ في هذه الأمور النفسية والروحية كان محمد يفكر أثناء انقطاعه وتعبده بغار حراء. وكان يريد أن يرى الحق فيها وفي الحياة جميعاً. وكان تفكيره يملأ نفسه وقواده وضميره وكل ما في وجوده. ويشغله لذلك عن هذه الحياة وصيحتها ومسائها. فاذا انقضى شهر رمضان عاد إلى خديجة وبه من أثر التفكير ما يجعلها

تسائله تريد أن تطمئن إلى أنه بخير وعافية . وإذا استدار العام وجاء شهر رمضان كرتة أخرى ذهب إلى حراء وعاد إلى تفكيره . ينضجه شيئاً فشيئاً وتزداد به نفسه امتلاء . وبعد سنوات شغلت أثناءها هذه الحقائق العليا نفسه ، صار يرى في نومه الرؤيا الصادقة تنبلج أثناءها أمام باصرته أنوار الحقيقة التي ينشد ، ويرى معها باطل الحياة وغرور زخرفها . إذ ذاك آمن أن قومه قد ضلوا سبيل الهدى . وأن حياتهم الروحية قد أفسدها الخضوع لأوهام الأصنام وما إليها من عقائد متصلة بها ليست دونها ضلالا . وليس فيما يذكر اليهود وما يذكر النصارى ما يتقد قومه من ضلالهم . فقيا يذكر هؤلاء وأولئك حق . لكن فيه كذلك ألواناً من الوهم ، وصوراً من الوثنية ، لا يمكن أن تتفق والحق المجرد البسيط الذي لا يعرف كل هذه المضاربات الجدلية العقيمة ، بما يعنى فيه هؤلاء وأولئك من أهل الكتاب . وهذا الحق هو الله خالق الكون لا إله إلا هو . وهذا الحق هو أن الله رب العالمين . هو الرحمن الرحيم . وهذا الحق هو أن الناس مجزيون بأعمالهم . « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » ، وأن الجنة حق والنار حق ، وأن الذين يعبدون من دون الله إلهاً آخر لهم جهنم ، وساءت مستقراً ومقاماً .

وشارف محمد الأربعين ، وذهب إلى حراء يتحنث وقد امتلأت نفسه إيماناً بما رأى في رؤاه الصادقة ، وقد خلصت نفسه من الباطل كله ، وقد أذبه ربه فأحسن تأديبه ، وقد اتجه بقلبه إلى الصراط المستقيم ، وإلى الحقيقة الخالدة ، وقد اتجه إلى الله بكل روحه أن يهدي قومه بعد أن ضربوا في تيه الضلال . وهو في توجهه هذا يقوم الليل ويرهف ذهنه وقلبه ، ويطيل الصوم وتثور به تأملاته ، فينحدر من الغار إلى طرق الصحراء ، ثم يعود إلى خلوته ليعود فيمتحن ما يدور بذهنه وما يتبين له في رؤاه . ولقد طالت به الحال ستة أشهر حتى خشى على نفسه عاقبة أمره ، فأسر بمخاوفه إلى خديجة وأظهرها على ما يرى ، وأنه

يخاف عبث الجن به . فطمأنته الزوج المخلصة الوفية وجعلت تحدته بأنه الأمين، وبأن الجن لا يمكن أن تقترب منه .

أول الوحي
(سنة ٦١٠ م)

وفيما هو نائم بالغار يوماً جاءه ملك وفي يده صحيفة فقال له : اقرأ . فأجاب مأخوذاً : ما اقرأ . فأحس كأن الملك يخنقه ثم يرسله ويقول له : اقرأ . قال محمد ما اقرأ . فأحس كأن الملك يخنقه كرة أخرى . ثم يرسله ويقول له : اقرأ . قال محمد — وقد خاف أن يخنق مرة أخرى — : ماذا اقرأ ؟ قال الملك : « اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم » . فقرأها وانصرف الملك عنه وقد نقشت في قلبه . لكنه ما لبث أن استيقظ فزعاً يسأل نفسه : أي شيء رأيت ؟ أتراه أصابه ما كان يخشى من جنّة ؟ وتلفت يمينه ويسرّة فلم ير شيئاً . ومكث برهة أصابته فيها رعدة الخوف وتولاه أشد الوجع ، وخاف ما قد يكون بالغار فقتر منه وكله الحيرة لا يستطيع تفسير ما رأى ، وانطلق هائماً في شعاب الجبل يسأل نفسه عمن دفعه ليقراء . لقد كان إلى يومئذ يرى وهو في تحته الرؤيا الصادقة تنبلج من خلال تأمله فتملاً صدره فتضى أمامه وتدلّه على الحق أين هو . وتبهر له أكاسر النظلمات التي زجت قريشاً في وثنيهم إلى عبادة أصنامهم . وهذا النور الذي أضاه أمامه وهذا الحق الذي هداه سبيله هو الواحد الأحد . فن هذا المذكور به وبأنه الذي خلق الإنسان وبأنه الأكرم الذي علم الإنسان بالقلم ما لم يعلم ؛ وتوسط الجبل وهو في هذه الحال من فزع وخشية وتساؤل ، فسمع صوتاً يناديه . فأخذه الروح ورفع رأسه إلى السماء ، فاذا الملك في صورة رجل هو المنادي . وزاد به الفزع ووقفه الرعب مكانه ، وجعل يصرف وجهه عما يرى . فاذا هو يراه في أفق السماء جميعاً ، ويتقدم ويتأخر فلا تنصرف صورة الملك الجميل من أمامه . وأقام على ذلك زمناً كانت خديجة قد بعثت أنسائه بمن يلتمسه في الغار فلا يجده .

الفزع

فلما انصرفت صورة الملك رجع محمد ممتلئاً بما أوحى إليه ، وفؤاده يَجِفُّ وقلبه يضطرب خوفاً وهلعاً . ودخل على خديجة وهو يقول : زَمَّوْنِي . فزملته وهو يرتعد كأن به الحَيَّ . فلما ذهب عنه الروع نظر إلى زوجه نظرة العائد المستنجد ، وقال : يا خديجة ! مالي ؟ وحدثها بالذي رأى . وأفضى إليها بمخاوفه أن تخدعه بصيرته أو أن يكون كاهناً . وكانت خديجة ، كما كانت أيام تحنثه في الغار ومخاوفه أن تكون به جنة . ملاك الرحمة وملاذ السلام لهذا القلب الكبير الخائف الوجل . لم تبد له أى خوف أو رية ، بل رنت إليه بنظرة الاكبار وقالت : أبشر يا ابن عم واثبت ، فوالذي نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة ، والله لا يخزيك الله أبداً ، وإنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

واطمأن روع محمد والتقى الى خديجة بنظرة شكر ومودة ، ثم أحس بجسمه متعباً في حاجة الى النوم فنام . نام ليستيقظ من بعد الى حياة روحية قوية غاية القوة ، حياة تأخذ بالأبصار والألباب ، ولكنها حياة تضحية خالصة لوجه الله والحق والانسانية . تلك رسالة ربه يبلغها ويدعو الناس إليها بالتي هي احسن ، حتى يتم الله نوره ولو كره الكافرون .

الفصل الخامس

من البعث الى إسلام عمر

حديث خديجة وورقة بن نوفل - فتور الوحي - إسلام أبي بكر
المسلمون الأولون - دعوة محمد أهله للإسلام - إغراء قريش
شعراءها بمحمد - ذكر محمد آلهة قريش بالسوء - سفارة
قريش إلى أبي طالب - موقف محمد من عمه - تمذيب
قريش للمسلمين - هجرة المسلمين إلى الحبشة - إسلام عمر

نام محمد وحدثت به خديجة وقد امتلأ قلبها إشفاقاً وأملاً لهذا الذي سمعت منه . فلما رأته استغرق في نوم مطمئن هادئ . تركته وخرجت تقلب في نفسها هذا الذي ملأ قلبها وأثار هو اجسها ، وتفكر في الغد ترجوه خيراً ، وترجو أن يكون زوجها فيه نبي هذه الأمة العربية التي أغرقت في الضلال : يهديها دين الحق ويدلها على الصراط المستقيم . وتخشاه . مع ذلك ، أشد الخشية على هذا الزوج البار الوفي الحميم . وطفقت تعرض أمام بصيرتها ما قصت عاينها ، وتخيّل هذا الملك الجميل الذي تعرّض له في السماء بعد أن أوحى إليه كلمات ربه ، والذي ملأ عليه الوجود كله زمناً كان يراه أثناءه أينما صرف وجهه ، وتستعيد الكلمات التي تلا محمد بعد أن نقشت في صدره . جعلت تعرض ذلك كله أمام بصيرتها ففتقر شفهاها طوراً عن ابتسامة الأمل ، وتنكش أساريرها طوراً آخر خيفة ما قد يكون أصاب الأملين . ولم تطلق البقاء في وحدتها طويلاً ، تنتقل من الأمل الحلو الباسم الى الريبة والاشفاق المخوف ، ففكرت في أن تقضى بما في نفسها الى من تعرف فيه الحكمة وحسن النصيحة .

لذلك انطلقت الى ابن عمها ورقة بن نوفل ، وكان ، كما قدمنا ، قد تنصرت وعرف الانجيل ونقل بعضه الى العربية . فلما أخبرته بما رأى محمد وسمع ، وقصت عليه كل ما حدثها به . وذكرت له إشفاقها وأملها ، أطرق ملياً ثم قال : « قُدُوس قدوس ! والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى ، وإنه لنتى هذه الأمة ، فقولى له فليثبت . وعادت خديجة فألفت محمداً تماماً ما يزال ، فحذقت به وكلها الحب والاخلاص وكلها الاشفاق والأمل . وفيما هو في هدأة نومه إذا به اهتز وثقل تنفسه وبلل العرق جبينه يقوم ليستمع الى الملك يوحى إليه : « يَا أَيُّهَا الْمُدْتَرُّ . فَمُ قَانْذِرْ ، وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ، وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ، وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْشِرْ ، وَلِرَبِّكَ قَاصِرٌ » . ورأته خديجة كذلك فازدادت إشفاقاً وتقدمت إليه في رقة وضراعة أن يعود إلى فراشه وأن ينام ليستريح . فكان جوابه أو كما قال : انقضى يا خديجة عهد النوم والراحة ، فقد أمرني جبريل أن أنذر الناس وأن أدعوهم الى الله والى عبادته . فمن ذا أدعو ومن ذا يستجيب إلي ؟ . فجهدت خديجة تهوّن عليه الأمر وثبتته . وسارعت فقصت عليه نبأ ورقة وما حدثها به . ثم أعلنت إليه في شوق ولطف إسلامها له وإيمانها بنبوته .

وكان طبيعياً أن تسارع الى الايمان به ، وقد جرت عليه طوال حياته الأمانة والصدق وعلو النفس وحب البر والرحمة ، وقد رأته في سنوات تحنّته كيف تُشغلت نفسه بالحق دائماً . يطلبه مرتفعاً بقلبه وبروحه وبعقله فوق أوهام هذا الناس ممن يعبدون الأصنام ويقرّبون لها النجور . ويرون فيها آلهة يزعمونها تضر وتنفع ، ويتوهمونها خليفة بالعبادة والاجلال . رأته في سنوات تحنّته ورأت كيف كان حاله أول عودته من حراء بعد البعث وهو في أشد الحيرة من أمره . ورأت إذ طلبت هي اليه متى جاءه الملك أن يخبرها ، فلما رآه أجلسته على نخذه اليسرى ثم على نخذه اليمنى ثم في

حجرها وهو ما يزال يراه ، فتحسرت وألقت خمارها فاذا هو لا يراه ؛ فلم يبق ريب عندها في أنه ملك وليس بشيطان .

ورقة ومحمد

وخرج محمد من بعد ذلك يوماً للطواف بالكعبة فلقبه ورقة بن نوفل . فلما قص عليه محمد أمره قال ورقة : «والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى . ولتُكذِّبَن ، ولتؤذِنَن ، ولتخرجَن ولتقاتلَن ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرأ يعلمه .» ثم أذن رأسه منه فقبل يافوخه . وشعر محمد بصدق ورقة في قوله وبثقل ما ألقى عليه ، وطفق يفكر كيف يدعو قريشا إلى ما آمن هو به وهم أحرص ما يكونون على باطلهم ، وهم في سبيله يقاتلون ويقتلون . وهم أهله وعشيرته الأقربون .

إنهم في ضلال وإن ما يدعوهم إليه هو الحق . أليس يدعوهم إلى الارتفاع بقلوبهم وبأرواحهم لتتصل بالله الذي خلقهم وخلق من قبل آباءهم ليعبدوه مخلصين له الدين طاهرة نفوسهم . ولتقربوا إليه بالعمل الصالح وإيتاء ذى القربى حقه ، ابن السبيل ، بدل أن يعبدوا هذه الأحجار التي اتخذوا منها أصنامهم فتجعل عبادتها نفوسهم أشد منها تحجراً وقسوة ، ثم يزعمون أنها تغفر لهم ما يعنون فيه من لهو وفسوق ، ومن أكل الربا وما مال اليتيم ! . أليس يطلب إليهم أن ينظروا إلى ما في السموات والأرض من خلق الله . وأن تتمثل نفوسهم ذلك كله وماله من خطر وجلال . ثم ترى ذلك كله من خلق الله الذي تعبدوه وحده لا شريك له فتكبر بما يخلق ما في السموات والأرض . وتكبر بعبادتها خالق الوجود كله ، وتسمو عن كل وضع وتعالى عن كل دون وتأخذها الرحمة بكل من لم يهده الله وتعمل لهديته . وتكون البر بكل يقيم وبكل بائس أو ضعيف . نعم إلى هذا أمره الله أن يدعوهم . لكن هذه القلوب القاسية وهذه الأرواح الغلاظ قد يبست على عبادة ما كان يعبد آباؤها ، ووجدت فيه تجارة تجعل مكة مركز حجيج عبدة الأصنام ! أفتركون دين آباءهم ويُعَرِّضُونَ

مكانة مدينتهم الى ما قد تعرّض له اذا لم يبق على عبادة الاصنام أحد؟ ثم كيف تظهر هذه القلوب وتخلص من أدران شهواتها والشهوة تهبط بها إلى ارضاء بهيمتها، في حين هو ينذر الناس أن يرتفعوا فوق شهواتهم وفوق أصنامهم. واذا هم لم يؤمنوا به فاذا عساه يفعل؟ هذه هي المسألة الكبرى!!

واتنظر هداية الوحي إياه في أمره وإنارة سبيله. فاذا الوحي يفترّ وإذا جبريل لا ينزل عليه. وإذا ما حوله سكينه صامته. واذا هو في وحدة من الناس ومن نفسه. وحدة جعلته يعود الى مثل مخاوفه قبل نزول الوحي. وإذا خديجة تقول له: ما أرى ربك إلا قد فلاك. واذا الخوف والوجل يتعثانه من جديد يطوى الجبال وينقطع في حرام ويرتفع بكل نفسه ابتغاء وجه ربه يسأله: لم قلاه بعد أن اصطفاه. ولم تكن خديجة أقل منه إشفاقاً ووجلاً. ويتمنى الموت صادقاً لولا أنه كان يشعر بما أمر به فيرجع الى نفسه ثم الى ربه. وفكر في أن يلقى بنفسه من أعلى حرام أو أبي قبيس. وأي خير في الحياة وهذا أكبر أمله فيها يندوى وينفضي. وإنه لكذلك تساوره هذه المخاوف اذ جاءه الوحي بعد طول فتوره وإذ نزل عليه بقوله تعالى:

« وَالضُّحَىٰ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ، وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ، وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ . أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ، وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ . وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ؛ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ؛ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ .»

فتور الوحي

نزول سورة الضحى

يا لجلال الله! أية سكينه للنفس وغبطة للقلب وبهجة للفؤاد!! انجابت مخاوف محمد وزال كل روعه وطوّقت ثغره ابتسامه الرضا واقترت شفقاته عن معاني الحمد وآى التقديس والعبادة. لم يبق لما كانت خديجة تقول له من أن الله قلاه ولم يبق لفزعه وهلعه موضع، بل تولاه الله وتولاها برحمته، وأزال كل خشية أورية من نفسه. لا اتحار اذا ولكن حياة ودعوة الى الله،

والى الله وحده . الى الله العليّ الكبير تعنوا له الجباه ويسجد له من فى السموات
والأرض جميعاً . هو وحده الحق وكل ما يدعون من دونه الباطل . اليه وحده
يتوجه القلب ، وبه وحده يجب أن تتعلق النفس ، وفيه وحده يجب أن تفتى
الروح . وللآخرة خير لك من الأولى . الآخرة التى تحيط فيها النفس بكل
الوجود فى كمال وحدته ، والتى يتلاشى فيها المكان والزمن وتندى فيها اعتبارات
هذه الحياة الوضيعة الأولى ؛ الآخرة التى يصير فيها الضحى ولألا . شمس
الباهر ، والليل ودجاء الساجى ، والسموات والكواكب والأرض والجبال
كلّاً واحداً تتصل به الروح الراضية المرضية : هذه هى الحياة التى يجب أن
تكون اليها الغاية من سفر هذه الحياة ! هذا هو الحق وكل ما دونه صور منه
لا تغنى عنه ! هذا هو الحق الذى أضاء بنوره روح محمد والذى ابتعثه من
جديد ليفكر فى الدعوة الى ربه . وللدعوة الى ربه يجب أن يطهر ثيابه ، وأن
يهجر المنكر . وألا يمن على أحد بدعوة الى الحق ، وأن ينير للناس سبيل
العلم بما لم يكونوا يعلمون ، وألا ينهر من أجل ذلك سائلاً ، وألا يقهر يتيماً .
حسبه نعمة اختيار الله إياه لكلمته فليتحدث عنها . وحسبه أن الله وحده
يتيماً فأواه فى كفالة جده عبد المصاب وعمه أنى طالب ؛ وأنه وجدده فقيراً
فأغناه بأمانته ويسر له خديجة شريكة صباه . شريكة تحثه . شريكة بعثه ،
شريكة المحبة الناصحة الرموف ؛ وأنه وجدده ضالاً فهداه برسالته . حسبه بهذا
وليدع الناس من غير من عليهم . ذلك أمر الله الى نبيه الذى اصطفاه ،
ما ودّعه وما قلاه .

وعلم الله نبيه الصلاة فضلى وصلت خديجة معه . وكان يقيم معهما
غير بناتهما على بن أبى طالب الذى كان صبيّاً لَمَا يبلغ الحلم . ذلك أن قريشاً
أصابتهم أزمة شديدة ؛ وكان أبو طالب كثير العيال . فقال محمد لعمة العباس
وكان من أكثر نبي هاشم يساراً : وإن أخاك أباطال كثير العيال وقد أصاب

الناس ما ترى من هذه الأزمة ، فانطلق بنا إليه فلنخفف من عياله، آخذ من بنيه رجلاً وتأخذ أنت رجلاً فنكفلهما عنه . . وكفل العباس جعفرآ وكفل محمد عليآ، فلم يزل معه حتى بعثه الله . وفيما محمد وخديجة يصليان يوماً دخل عليهما على مفاجأة فرآهما يركعان ويسجدان ويتلوان ما تيسر بما أوحاه الله يومئذ من القرآن . فوقف الشاب دهشاً حتى أتتا صلاتهما ثم سأل : لمن تسجدان ؟ فأجابه محمد أو كما قال : إنما نسجد لله الذي بعثني نبياً وأمرني أن أدعو الناس إليه . ودعا محمد ابن عمه إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وإلى دينه الذي بعث به نبيه ، وإلى إنكار الأصنام من أمثال اللات والعزى . وتلا محمد ما تيسر من القرآن ، فأخذ علي عن نفسه وسخره جمال الآيات وإعجازها ، واستمهل ابن عمه حتى يشاور أباه . ثم قضى ليله مضطرباً حتى إذا أصبح أعلن إليهما أنه اتبعهما من غير حاجة لرأى أبي طالب وقال : « لقد خلقني الله من غير أن يشاور أبا طالب . فما حاجتي أنا إلى مشاورته لأعبد الله . » وكذلك كان علي أول رجل أسلم . ومن بعده أسلم زيد بن حارثة مولى النبي ، وبذلك بقي الاسلام محصوراً في بيت محمد فيه وفي زوجته وابن عمه ومولاه . وظل هو يفكر كيف يدعو قريشاً إليه ، وهو يعلم ما هي عليه من شدة البأس وبالغ التعلق بعبادات آباؤها وأصنامهم .

السلام على بن
أبي طالب

دعوة محمد لعلي

وكان أبو بكر بن أبي قحافة التيمي صديقاً حميماً لمحمد يستريح إليه ويعرف فيه النزاهة والأمانة والصدق . لذلك كان هو أول من دعا إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأوثان ، وأول من أفضى إليه بما رأى وبما أوحى إليه . ولم يتردد أبو بكر في إجابة محمد إلى دعوته وفي الايمان بها . وأى نفس مفتوحة للحق تتردد في ترك عبادة الأوثان لعبادة الله وحده ! . وأى نفس فيها شيء من السمو ترضى عن عبادة الله عبادة حجر أياً كانت صورته ! . وأى نفس تتردد في طهر الثياب وطهر النفس وإعطاء السائل والبر باليتيم ! . وأذاع أبو بكر

السلام ابى بكر

بين أصحابه إيمانه بالله وبرسوله . وكان أبو بكر رجلاً وسيماً « مألفاً لقومه مُحبباً سهلاً ؛ وكان أنسب قريش لقريش وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير وشر ؛ وكان رجلاً تاجراً ذا خلق ومعروف . وكان رجال قومه يألفونه لغير واحد من الأمر ، لعلمه وتجارته وحسن مجالسته . . وجعل أبو بكر يدعو إلى الإسلام من وثقه من قومه ، فتابعه على الإسلام عثمان بن عفان وعبد الرحمن ابن عوف وطلحة بن عبّيد الله وسعد بن أبي وقاص والزبير بن العوام . ثم أسلم من بعد ذلك عبّيدة بن الجراح وكثيرون غيره من أهل مكة . وكان أحدهم إذا أسلم ذهب إلى النبي فأعلن إليه إسلامه وتلقى عنه تعاليمه . وكان المسلمون الأولون يستخفون لعلمهم بما تضمن قريش من عداوة لكل خارج على أوثانها . فكانوا إذا أرادوا الصلاة انطلقوا إلى شعاب مكة وصلى فيها . وظلوا على ذلك ثلاث سنوات ازداد الإسلام فيها انتشاراً بين أهل مكة ونزل على محمد فيها من الوحي ما زاد المسلمين إيماناً وثبتتاً . وكان مثله هو خير ما يزيد الدعوة انتشاراً . كان برّاً رحيماً جم التواضع كامل الرجولية عذب الحديث محبباً للعدل يعطي كل ذي حق حقه ، وينظر إلى الضعيف واليتيم وإلى البائس والمسكين نظرة كلها الأبوة والحنان والعطف والمودة . وكان في تهجده وسهره الليل وترتيله ما أنزل عليه ودوام نظره في السموات والأرض والتماس العبرة من الوجود كله وكل ما فيه ، وفي توجهه الدائم لله وحده والتماسه حياة الكون كله في أطواء نفسه ودخيلة حياته ، مثلاً جعل الذين آمنوا به وأسلموا له أحرص على إسلامهم وأشدّ يقيناً بإيمانهم . على ما في ذلك من إنكار ما كان عليه آباؤهم واحتمال تعرضهم لأذى المشركين ممن لم يدخل الإيمان إلى قلوبهم . آمن بمحمد من تجار مكة وأشرفها من عرفت نفوسهم الطهر والنزاهة والمغفرة والرحمة . وآمن به كل ضعيف وكل بائس وكل محروم . وانتشر أمر محمد بمكة ، ودخل الناس في الإسلام أرسالا رجالا ونساء .

قريش
والمسلمون

وتحدث الناس عن محمد وعن دعوته . على أن أهل مكة من قساة
الأكباد ومن على قلوبهم أقفالها لم يعجبوا به أول أمره ، وظنوا أن حديثه لن
يزيد على حديث الرهبان والحكماء أمثال قس وأمية وورقة وغيرهم ، وأن
الناس عائدون لا محالة إلى دين آباؤهم وأجدادهم . وأن هبل واللات والعزى
وإساف ونائلة اللذين كان ينجر عندهما ستكون آخر الأمر صاحبة الغلب ،
ناسين أن الإيمان الصادق لا يغلبه غالب . وأن الحق قد كتب له الفوز أبداً .

بعد ثلاث سنين من حين البعث أمر الله رسوله أن يظهر ما خفي من
أمره وأن يصدع بما جاءه منه ، ونزل الوحي « أن أنذرت عشيرتك الأقرنين ،
واخفص جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ؛ وقل إني أنا النذير المبين ،
فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » . ودعا محمد عشيرته إلى طعام في
بيته وحاول أن يحدثهم داعياً إياهم إلى الله ، فقطع عمه أبو لهب حديثه واستنفر
القوم ليقوموا . ودعاهم محمد في الغداة ككرة أخرى؛ فلما طعموا قال لهم : ما أعلم
إنساناً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتم به ، قد جئتم بخير الدنيا والآخرة .
وقد أمرني ربي أن أدعوكم إليه . فأيكم يؤازرنى على هذا الأمر (وأن يكون
أخي ووصي وخليفة فيكم ؟) فأعرضوا عنه وهموا بتركه . لكن علياً نهض
وما يزال صديقاً دون الحلم وقال : « أنا يا رسول الله عونك ، أنا حرب على من
حاربت ، فابتم بنو هاشم وفقه بعضهم . وجعل نظرهم ينتقل من أبي طالب
إلى ابنه ، ثم انصرفوا مستهزئين .

عشيرته
الأقربون

لهذا الخبر
وعمره
الطبعة الثانية

انتقل محمد بعد ذلك بدعوته من عشيرته الأقرنين إلى أهل مكة جميعاً .
صعد يوماً على الصفا ونادى : يا معشر قريش . قالت قريش : محمد على الصفا
يهتف ، وأقبلوا عليه يسألون ما له . قال : أرأيتم لو أخبرتمكم أن خيلاً بسفح
هذا الجبل أكنتم تصدقوني ؟ قالوا : نعم ، أنت عندنا غير متهم وما جربنا عليك
كذباً قط . قال : فأني نذير لكم بين يدي عذاب شديد . يا بني عبد المطلب ،

يا بنى عبد مناف ، يا بنى زُهرة ، يا بنى تَيْم ، يا بنى مَخزُوم ، يا بنى أَسَد، إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقرين . وإنى لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا : لا إله إلا الله . أو كما قال .
« فهُض أَبُو لَهَبٍ وَكَانَ رَجُلًا بَدِينًا سَرِيعَ الْغَضَبِ فَصَاح :

— تَبَّأَ لَكَ سَائِرُ هَذَا الْيَوْمِ! أَلْهَذَا جَمَعْتَنَا!

« وَأُرْتَجَّ عَلَى مُحَمَّدٍ فَنَظَرَ إِلَى عَمِّهِ . ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ جَاءَهُ الْوَحْيُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى :
« تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ . مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ . سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ » .

الاسلام
والحرية

لم يَحُلْ غَضَبُ أَبِي لَهَبٍ وَلَا خُصُومَةُ أَبِي سَفِيَانَ دُونَ اتِّشَارِ الدَّعْوَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ بَيْنَ أَهْلِ مَكَّةَ . فَلَمْ يَكُنْ يَوْمَ الْإِسْلَامِ فِيهِ بَعْضُهُمْ لِلَّهِ وَجْهًا . وَكَانَ الرَّاهِدُونَ فِي الدُّنْيَا أَشَدَّ عَلَى الْإِسْلَامِ إِقْبَالًا . أَوْلَيْكَ لَا تَلْهِمُهُمُ التَّجَارَةَ وَلَا يَلْهِمُهُمُ الْبَيْعُ عَنِ التَّأَمُّلِ فِيمَا يَدْعُوهُمُ الدَّاعِي إِلَيْهِ . وَهُمْ قَدَرُوا مُحَمَّدًا فِي غِنَى بَمَالِ خَدِيجَةَ وَمَالِهِ . وَهَاهُوَذَا مَعَ ذَلِكَ لَا يَعْأَبُهُذَا الْمَالُ وَالْمَزِيدُ عَلَيْهِ وَالْأَكْثَارُ مِنْهُ ، وَيَدْعُو إِلَى الْحُبِّ وَالْعُطْفِ وَالْمُودَةِ وَالتَّسَامُحِ . بَلْ هَاهُوَذَا يَجِيئُهُ الْوَحْيُ بِأَنَّ فِي الْأَكْثَارِ مِنَ الثَّرْوَةِ لَعْنَةٌ لِلرُّوحِ . أَلَيْسَ يَقُولُ : « أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ، حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ، كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ . لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ، ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ، ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ » . وَأَيُّ شَيْءٍ خَيْرٌ مِمَّا يَدْعُو إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ ! أَلَيْسَ هُوَ يَدْعُو إِلَى الْحُرِّيَةِ ! إِلَى الْحُرِّيَةِ الْمُطْلَقَةِ الَّتِي لَا حُدُودَ لَهَا !! إِلَى الْحُرِّيَةِ الْعَزِيزَةِ عَلَى نَفْسِ الْعَرَبِيِّ إِعْزَازَهُ حَيَاتِهِ ! نَعَمْ ! أَلَيْسَ يُطْلَقُ النَّاسُ مِنَ التَّقِيدِ بِأَيَّةِ عِبَادَةٍ غَيْرِ عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ ! أَلَيْسَ يَحْطِمُ كُلَّ مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ مِنْ أَعْلَالٍ : لَاهِلٍ وَلَا نِلَاتٍ وَلَا الْعَرْشَى وَلَا نَارَ الْمُجُوسِ وَلَا شَمْسَ الْمَصْرِيِّينَ وَلَا نَجْمِ عِبَادِ النُّجُومِ وَلَا الْخَوَارِيظِ وَلَا أَحَدٍ مِنَ الْإِنْسِ أَوْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ أَوْ مِنَ الْجِنِّ يَحْجُبُ بَيْنَ اللَّهِ

والانسان . وأمام الله ، أمامه وحده لا شريك له ، يسأل الانسان عما قدم من خير أو شر . وأعمال الانسان هي وحدها شفيعة . وضميره هو الذى يزن أعماله ، وهو وحده صاحب السلطان عليه ليتقدم يوم تُجزى كل نفس بما كسبت . أية حرية أوسع مدى من هذه الحرية التى يدعو محمد إليها؟! وهل يدعو أبو لهب أو أبو سفيان الى شيء من مثلها؟! أم هم يدعون الناس لتظل نفوسهم فى رقٍّ وعبودية بما تكسب عنهما من خرافات حجبت عنها نور الحق وضياء الهدى !.

على أن أباهب و أباسفيان وأشرف قريش وأمجادها ، أشرف المال وأمجاد اللهو ، بدوا يشعرون بما فى دعوة محمد من خطر على مكاتهم ، فأوا بادية الرأى أن يحاربوه بالخط من شأنه وتكذيبه فيما يزعم من نبوته . وكان أول ما صنعوا من هذا أن أغرّوا به شعراءهم أباسفيان بن الحارث وعمرو بن العاص وعبد الله بن الزبعرى ، يهجونه ويقارعونه . وتولت طائفة من شعراء المسلمين الرد على هؤلاء من غير أن تكون بمحمد حاجة لمناقشتهم . هناك تقدم غير الشعراء يسألون محمداً عن معجزاته التى ثبت بها رسالته . معجزات كعجرات موسى وعيسى . فما باله لا يحيل الصفا والمروة ذهباً ، ولا ينزل عليه الكتاب الذى يتحدث عنه مخطوطاً من السماء! ولم لا يبدو لهم جبريل الذى يطول حديث محمد عنه! ولم لا يحيى الموتى ولا يسير الجبال حتى لا تظل مكة حبيسة بينها! ولم لا يفجر ينبوعاً أعذب من زمزم ماء وهو أعلم بحاجة أهل بلده إلى الماء! ولم يقف أمر المشركين عند التهمك بالمسألة فى هذه المعجزات . بل كانوا يزدادون تهكماً ويسألونه : لم لا يوحى اليه ربه أثمان السلع حتى يضاربون على المستقبل . وطال بهم اللجاج ، فرد الوحي لجاجهم بما أنزل على محمد من قوله تعالى : : **قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ. وَأَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثِرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ. إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ.**

شراء قريش

مطالبة محمد
المعجزات

نعم . ما محمد إلا نذير . وفيم يطالبونه بما لا يقبل العقل وهو لا يطلب إليهم إلا ما يقبله العقل بل ما يمليه ويحتمه ! . وفيم يطلبون إليه ما تأنف منه النفس الفاضلة وهو لا يطلبهم إلا أن يستجيبوا لوحى النفس الفاضلة ! . وفيم يطلبون إليه المعجزات وهذا الكتاب الذى يوحى إليه ، والذى يهدى الى الحق ، معجزة المعجزات ! . وما لهم يطالبون إليه إثبات رسالته بالخوارق ليرددوا من بعد ذلك أيتبعونه أم لا يتبعونه ، وهذه التى يزعمونها آلهتهم ليست إلا حجارة أو خشباً مسندة أو أنصبا قائمة فى عرض الفلاة لا تملك لنفسها أو لهم نفعاً ولا ضرراً ، وهم مع ذلك يعبدونها دون أن يطلبوا إليها ما ثبت ألوهيتها ؟! ولو أنهم طلبوه لظلت خشباً أو حجارة لا حياة فيها ولا حركة لها ، لا تستطيع لنفسها ضرراً ولا نفعاً ، ولا تستطيع إذا حطمها محطم عن نفسها دفعاً . وبأدأهم محمد بذكر آلهتهم وكان من قبل لا يذكرها ، وعابها وكان من قبل لا يعيها ؛ فعظم ذلك على قریش وحزبى صدورهم : وبدموا التفكير الجد فى أمر هذا الرجل وما هو لاق منهم وما هم لاقون منه . لقد كانوا الى يومئذ يسخرون من قوله ، وكانوا إذا جلسوا فى دار الندوة أو حول الكعبة وأصنامها فجرى ذكره على لسانهم لم يثر أكثر من ابتسامات استخفافهم واستهزائهم . أما وقد حقر من شأن آلهتهم وسخر مما يعبدون وما كان يعبد آباؤهم ، ونال من هبل ومن اللات والعزى ومن الأصنام جميعاً ، فلم يبق الأمر موضع استخفاف وسخرية ، بل أصبح موضع جدّ ونديير . أولو أتيج لهذا الرجل ان يؤلب عليهم أهل مكة وأن يصرّ فهم عن عبادتهم فإذا تؤول إليه تجارة مكة ؟ وماذا يكون مقامها الدينى ؟ .

ضعف محمد
على الأصنام

ولم يكن عمه أبو طالب قد دخل فى دين الله ، لكنه ظل حامياً لابن أخيه قائماً دونه . معانداً استعداده للدفاع عنه . لذلك مشى رجال من أشرف قریش عند أبى طالب وفى مقدمتهم أبوسفيان بن حرب فقالوا : « يا أبا طالب

إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفّه أعلامنا وضلل آباءنا ، فامتا
أن تكفه عنا وإما أن تخلى بيننا وبينه ، فانك على مثل ما نحن عليه من خلاف
فسنكفيك . ، فردهم أبو طالب رداً جميلاً . ومضى محمد يشتد في الدعوة الى
رسالته ، ويزداد لدعوته أعواناً . واتصرت قريش بمحمد ومشوا الى
أبي طالب مرة أخرى ومعهم عمارة بن الوليد بن المغيرة ، وكان أنهدقني
في قريش وأجمله ، وطلبوا اليه أن يتخذ ولدأ ويسلمهم محمداً فأبى . ومضى
محمد في دعوته ومضت قريش في ائتمارها ، ثم ذهبوا الى أبي طالب مرةً ثالثة
وقالوا له : يا أبا طالب ، إن لك سناً وشرفاً ومنزلةً فينا ، وقد استهيناك من
ابن أخيك فلم تنهه عنا . وإنا والله لانصبر على هذا من شتم آباءنا وتسفيه
أعلامنا وعب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين .
وعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم يطب نفساً باسلام ابن أخيه
ولا خذلانه . ماذا تراد يصنع ؟ بعث إلى محمد فقص عليه رسالة قريش ثم
قال : له فابق عليّ وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق . ،

وأطرق محمد إطراقةً وقف أزاها تاريخ الوجود كله برهة باهتاً لا يدري
أيان يكون اتجاهه . في الكلمة التي تفتّر عنها شفتا هذا الرجل حُكْم علي
العالم أهر يظل في الضلال يمدّ له فيه . فتطغى المجوسية على النصرانية المتخاذلة
المضطربة وترفع الوثنية وباطلها رأسها الخرف الآفن ؛ أم هو يضيء أمامه نور
الحق وتعلن فيه كلمة التوحيد وتحرر فيه العقول من رق العبودية والقلوب من
أسر الأوهام ، وترتفع فيه النفس الانسانية لتتصل بالملا الأعلى . وهذا عمه
كأنه ضعف عن نصرته والقيام معه . فهو خاذله ومسله . وهؤلاء المسلمون
ما يزالون ضعافاً لا يقوون على حرب ولا يستطيعون مقاومة قريش ذات
السلطان والمال والعُدّة والعدد . إذ ألم يبق له دون الحق الذي ينادى الناس
باسمه نصير ، ولم يبق له سوى إيمانه بالحق عدّة . ليكن !! إن الآخرة خير له

أيان يتجه
التاريخ

من الأولى . وليؤد رسالته وليدعُ إلى ما أمره ربه . ولتخيرُ له أن يموت مؤمناً بالحق الذي أوحى إليه على أن يخذله أو يتردد فيه . لذلك التفت الى عمه ممتليء النفس بقوة إرادته وقال له : يا عم ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته . بالعظمة الحق وجلال الايمان به ! اهتز الشيخ لما سمع من جواب محمد ووقف هو أيضا باهتاً أمام هذه القوة القدسية والارادة السامية فوق الحياة وكل ما في الحياة . وقام محمد وقد خنفته العبرة بما فاجأه به عمه وإن لم تدرب نفسه خلجة ريب في السبيل الذي يسلك . ولم تك إلا لحظة اهتز فيها وجود أبي طالب متحيراً بين غضبة قومه وموقف ابن أخيه حتى نادى محمداً : أن أقبل . فلما أقبل قال له : اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلك لشيء أبداً .

وأفضى أبو طالب إلى بني هاشم وبني المطلب بقول ابن أخيه وبموقفه ، وحديثه عنه يتدفق بروعة ما شهد وجلال ما شعر به ، وطلب إليهم أن يمنعوا محمداً من قريش ؛ فاستجابوا له جميعاً إلا أبا لُب فانه صارحهم العداوة وانضم إلى خصومهم عليهم . وهم لا ريب قد منعوه متأثرين بالعصية القومية وبالخصومة القديمة بين بني هاشم وبني أمية . لكننا نعتقد أن العصية لم تكن وحدها التي حفزتهم إلى الوقوف هذا الموقف من قريش كلها في أمر له من جلال الخطر ما للدعوة إلى نبد دينهم والخروج على عقائدهم التي وجدوا عليها آباءهم . واعتقادنا أن موقف محمد منهم وشدة إيمانه برأيه بينهم ودعوته الناس بالحسنى إلى عبادة الواحد الأحد ، وما كان شأنه يوماً منذ بين قبائل العرب جميعاً من أن لله ديناً غير دينهم الذي هم عليه ، جعلهم يرون حقاً لابن أخيه محمد أن يعالن الناس برأيه كما كان يفعل أمية بن أبي الصلت وورقة بن نوفل وغيرهما . فان يكن محمد على الحق — وذلك ما لا ثقة لهم به — فسيظهر الحق من بعدُ وسيكون لهم من مجده نصيب ، وإلا يكن على الحق فسينصرف

بنو هاشم
يمنعون محمداً
من قريش

الناس عنه كما انصرفوا من قبل عن غيره ، ثم لن يكون لدعوته من الأثر
أن يخرجوا على تقاليدهم وأن يسلبوه لخصومه كي يقتلوه .

اعتصم محمد بقومه من أذى قريش ، كما اعتصم في داره بخديجة من هجم
نفسه . فقد كانت له . بصدق إيمانها وعظيم حبها . وزير صدق تسرى عنه كل
همه وتقوى فيه كل عارض ضعف من أثر أذى خصومه وإمعانهم في مناوآته
وإيصال الأذى لأتباعه . والحق أن قريشاً لم تتم ولم تعد لما عرفت من قبل من
دعة النعيم ، بل وثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم
عن دينهم ، حتى ألقى أحدهم عبده الحبشى بلالاً على الرمل تحت الشمس المحرقة
ووضع حجراً على صدره وتركه ليبت ، لغير شيء إلا أنه أصر على الإسلام .
ولم يزد بلال وهو في هذه الحال على أن يكرر كلمة : « أحدٌ . أحدٌ » محتملاً
هذا العذاب في سبيل دينه . وقد رآه أبو بكر يوماً يعانى هذا العذاب فاشتراه
وأعتقه . واشترى أبو بكر كثيراً من الموالى الذين كانوا يعذبون ، ومن بينهم
جارية لعمر بن الخطاب اشتراها منه قبل إسلامه . وعذبت امرأة حتى ماتت
لأنها لم ترض أن ترجع عن الإسلام إلى دين آبائها . وكان المسلمون من غير
الموالى يضربون وتوجه إليهم أشد صور المهانة . ولم يسلم محمد ، رغم منع بنى
هاشم وبنى المطلب له ، من هذه الاساءات . كانت أم جميل زوج أبى لهب تلقى
النجس أمام بيته فيكتفى محمد بأن يزيله . وكان أبو جهل يلقى عليه أثناء
صلواته رحم شاة مذبوحة ضحية للأصنام ، فيتحمل الأذى ويذهب الى ابنته
فاطمة لتعيد إليه نظافته وظهرته . هذا الى جانب ما كان المسلمون يسمعون
من لغو القول وهجر الكلام حينما ذهبوا . واستمر الأمر على ذلك طويلاً
فلم يزد هم إلا حرصاً على دينهم وابتهاجاً بالأذى وبالتضحية في سبيل عقيدتهم
وإيمانهم . والحق أن هذه الفترة من فترات حياة محمد عليه السلام هى من
أروع ما عرف التاريخ الانسانى في العصور جميعاً . فما كان محمد والذين اتبعوه

أبداً . قريش
المسلمين

صبر المسكين
على الأذى

طلاب مال ولا جاه ولا حكم أو سلطان، إنما كانوا طلاب حق وإيمان به .
وكان محمد طالب هدى للذين يصيرونه بالأذى وتحرير لهم من ربة الوثنية
الوضيعة التي تنحدر بالنفس الانسانية الى خزي المذلة والهوان . في سبيل
هذه الغاية الروحية السامية، لا في سبيل شيء آخر، كان الأذى يصله وكان الشعراء
يسبونونه، وكانت قريش تأمر به، حتى حاول رجل قتله عند الكعبة . وكان منزله
يرجم، وكان أهله وأتباعه يهددون، فلا يزيد ذلك إلا صبراً وإمعاناً في الدعوة .
وامتلأت نفوس المؤمنين الذين اتبعوه بقوله : « والله لو وضعوا الشمس
في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه
ما تركته » . وهانت عليهم جميعاً التضحيات الجسام وهان عليهم الموت في
سبيل الحق وهداية قريش له . وقد تعجب لهذا الإيمان الآخذ بنفوس أولئك
المكيين ولمّا يكن الدين قد كمل ولما يكن قد نزل من القرآن إلا القليل . وقد
تحسب أن شخصية محمد ودماثة طبعه وجميل خلقه وما عرف من صدقه وما
بدا من صلابة عوده وقوة عزمه وثبات إرادته، كان السبب في كل هذا :
ولا ريب قد كان لهذا كله حظّه ونصيبه .

محمد ومن سببه
من الرسل

لكن عوامل أخرى جديرة بالتقدير والاعتبار كان لها هي أيضاً
في ذلك نصيب غير قليل . فقد كان محمد في بلاد حرة هي بالجمهورية أشبه . وكان
في الذروة والسنام منها حساباً ونسباً . وكان قد وصل من المال الى ما يشاء ،
وكان إلى ذلك من بنى هاشم . اجتمعت لهم سدانة الكعبة وسقاية الحاج وما
شابهوا من مجد الألقاب الدينية . فلم يكن لذلك في حاجة إلى المال أو الجاه أو
المكانة السياسية أو الدينية . وكان في ذلك على خلاف من سبقه من الرسل
والأنبياء . فقد ولد موسى بمصر وفيها فرعون يدين له أهلها بالألوهية وينادي
هو فيهم ، «أنا رَبُّكُمْ الأعلى» ، وتعاونته طائفة رجال الدين على سوم الناس
ألوان الظلم والاستغلال والعسف ؛ فكانت الثورة التي قام بها موسى بأمر

ربه ثورة على نظام سياسي وديني معاً . أليس يريد أن يكون فرعون
والرجل الذي يرفع الماء بالشادوف من النيل أمام الله سيين ؟ إذاً فما ألوهية
فرعون وما هذا النظام القائم ؟ يجب أن يحطم ذلك كله ، ويجب أن تكون
الثورة سياسية أولاً . لهذا لقيت الدعوة الموسوية منذ بدايتها حرباً من
فرعون شعواء . . ولذلك آزرت المعجزات موسى ليؤمن الناس بدعوته . ألقى
عصاه فإذا هي حية تسعى تلقف ما صنع سحرة فرعون . ولم يُجد ذلك موسى
شيئاً فاضطر إلى مغادرة وطنه مصر ، وقد آزرته في هجرته معجزة انفلاق
الطريق في البحر عبر الماء . وقد وُلد عيسى في الناصرة من أعمال فلسطين ، وهي
يومئذ ولاية رومانية خاضعة لحكم القياصرة ولظلم المستعمرين بها ولآلهة
رومية ، فدعا الناس إلى الصبر على الظلم وإلى المغفرة للتائب المنيب وإلى ألوان
من الرحمة اعتبرها القائمون بالأمر ثورة على تجبرهم ؛ فأزرت عيسى معجزات
إحياء الموتى وإبراء المرضى وسائر ما أيده به روح القدس من عنده . صحيح
أن تعاليمهم تنتهي في جوهرها إلى ما تنتهي إليه تعاليم محمد في جوهرها ، مع
خلاف في التفاصيل ليس هنا موضع إيضاحه . لكن هذه العوامل المختلفة
والعامل السياسي في مقدمتها وجهت دعوتها اتجاهها . أما محمد ، وكانت ما قدمنا
ظروفه ، فكانت رسالته عقلية روحية أساسها الدعوة للحق والخير والجمال
دعوة مجردة في بدئها وفي غايتها . ولبعدها عن كل خصومة سياسية لم تزجج
النظام الجمهوري الذي كان قائماً بمكة بأية صورة من صور الازعاج .

وقد تأخذ القارئ الدهشة إذا ذكر ما بين دعوة محمد والطريقة العلمية
الحديثة من شبه قوى . فهذه الطريقة العلمية تقتضيك إذا أردت بحثاً أن تمحو
من نفسك كل رأى وكل عقيدة سابقة لك في هذا البحث ، وأن تبدأ بالملاحظة
والتجربة ، ثم بالموازنة والترتيب ، ثم بالاستنباط القائم على هذه المقدمات العلمية .
فإذا وصلت إلى نتيجة من ذلك كانت نتيجة علمية خاضعة بطبيعة الحال للبحث

دعوة محمد
والطريقة
العلمية الحديثة

والتمحيص ، ولكنها تظل علمية ما لم يثبت البحث العلمى تسرب الخطأ الى ناحية من نواحيها . وهذه الطريقة العلمية هى أسمى ما وصلت إليه الانسانية فى سبيل تحرير الفكر . وهماهى ذى مع ذلك طريقة محمد وأساس دعوته . فكيف اقتنع الذين اتبعوه بدعوته وآمنوا بها ؟ نزعوا من نفوسهم كل عقيدة سابقة وبدموا يفكرون فيما أمامهم . لقد كان لكل قبيلة من قبائل العرب صنم ؛ فأى صنم هو الحق وأى صنم هو الباطل ؟ وكان فى العرب وفى البلاد التى تجاورها صابئة ومجوس يعبدون النار ، والذين يعبدون الشمس ؟ فأى هؤلاء على الحق ، وأيهم على الباطل ؟ لنذر هذا كله إذاً جانباً ولنمخ أثره من نفوسنا ولنتجرد من كل رأى ومن كل عقيدة سابقة . ولننظر . والنظر والملاحظة بطبيعة الحال سيان . مما لا شبهة فيه أن لكل موجود بسائر الموجودات اتصالاً . فالانسان تتصل قبائله بعضها ببعض وأمه بعضها ببعض . والانسان يتصل بالحيوان والجماد . وأرضنا تتصل بالشمس والقمر وبسائر الأفلاك . وذلك كله يتصل فى سنين مطردة لا تحوّل لها ولا تبديل . فلا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار . ولو أن إحدى موجودات الكون تحولت أو تبدلت لتبدل ما فى الكون . فلو أن الشمس لم تسعد الأرض بالنور والحرارة على السنة التى تجرى عليها منذ ملايين السنين لتبدلت الأرض غير الأرض والسماء . وما دام ذلك لم يحدث ، فلا بد لهذا الكل من روح يمسكه ؛ منه نشأ وعنه تطوّر وإليه يعود . هذا الروح وحده هو الذى يجب أن يخضع له الانسان . أما سائر ما فى الكون فهو خاضع لهذا الروح كالانسان سواء . والانسان والكون والزمان والمكان وحدةٌ ، هذا الروح جوهرها ومصدرها . إذاً فلتسكن لهذا الروح وحده العبادة ، ولهذا الروح يجب أن تتجه القلوب والأقنعة . وفى الكون كله يجب أن نالتمس من طريق النظر والتأمل سننه الخالدة . وإذاً فما يعبد الناس من دون الله أصناماً وملوكاً

جوهر الدعوة
المحمدية

وفراعين وناراً وشمساً إنما هو وهم باطل غير جدير بالكرامة الانسانية ، ولا هو يتفق مع عقل الانسان وما كُرم به من القدرة على استنباط سنة الله من طريق النظر في خلقه .

هذا جوهر الدعوة المحمدية على ما عرفها المسلمون الأولون . وقد أبلغهم الوحي إياها على لسان محمد في آي من البلاغة كانت وما تزال معجزة ، فجمع لهم بذلك بين الحق وتصويره في كمال جماله . هناك ارتقت نفوسهم وارتفعت قلوبهم تريد الاتصال بهذا الروح الكريم : فهداهم محمد إلى أن الخير هو طريق الوصول . وأنهم مجزيون عن هذا الخير يوم يتمون واجههم في الحياة بالتقوى ، ويوم تجزى كل نفس بما كسبت . « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » .

أى سمو بالعقل الانسان أعظم من هذا السمو؟ وأى تحطيم لقيوده أشد من هذا التحطيم ؟ ؟ حَسْبُ الانسان أن يفهم هذا وأن يؤمن به وأن يعمل عليه ليلبغ الذروة من مراتب الانسان . وفي سبيل هذه المكانة تهون كل تضحية على من يؤمن بها .

وقد كان من جلال موقف محمد ومن اتبعه أن ازداد بنو هاشم وبنو عبد المطلب منعاً له ودفعاً لئلاذى عنه ؛ حتى لقد مر أبو جهل بمحمد يوماً فأذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتضعيف لأمره . فأعرض محمد عنه وانصرف ولم يكلمه . وكان حمزة ، عمه وأخوه في الرضاع ، ما يزال على دين قريش ، وكان رجلاً قوياً مخوفاً . وكان ذا ولع بالصيد ، فإذا رجع منه طاف بالكعبة قبل أن يعود إلى داره . فلما جاء في ذلك اليوم وعلم بما أصاب ابن أخيه من أذى أبي جهل ملأه الغضب : وذهب إلى الكعبة ولم يقف مسلماً على أحد ممن كان عندهما كعادته : ودخل المسجد فأبى أبا جهل فقصد إليه ، حتى إذا بلغه رفع القوس فضربه بها فشقجه شقجة منكرة . وأراد

إسلام حمزة

رجال من بني مخزوم أن ينصروا أبا جهل فمنعهم حسماً للشر ومخافة استفحالها معترفاً أنه سب محمد سباً قبيحاً . ثم أعلن حمزة إسلامه وعاهد محمداً على نصرته والتضحية في سبيل الله حتى النهاية .

ضاق قريش ذرعاً بمحمد وأصحابه أن رأيتهم يزدادون كل يوم قوة ثم لا يثنيهم الأذى ولا يصرفهم العذاب عن إيمانهم والجهربه ، وعن صلواتهم وأداء فرضها ، فحليل اليهم أن يتخلصوا من محمد بما توهموا من إرضاء مطامعه . ناسين عظمة الدعوة الإسلامية ونزاهة جوهرها الروحي السامي عن الخصومة السياسية . فقد رغب عتبة بن ربيعة ، وكان من سادات العرب ، إلى قريش وهم في ناديتهم أن يكلم محمداً وأن يعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فيعطونه أيها شاء ويكف عنهم . وكلم عتبة محمداً فقال : « يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت من المكان في النسب : وقد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم ؛ فاسمع مني أعرض عليك أموراً لعلك تقبل بعضها . إن كنت إنما تريد بهذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا . وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا . وإن كان هذا الذي يأتيك رأياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرأ » . فلما فرغ من قوله تلا محمد عليه سورة السجدة وعتبة منعت يستمع إلى أحسن القول ويرى أمامه رجلاً لا مطمع له في مال ولا في شرف ولا في ملك ولا هو بالمريض ، وإنما يدلي بالحق والدعوة إلى الخير والدفء بالتي هي أحسن والاعجاز في العبارة . فلما انتهى محمد انصرف عتبة إلى قريش مأخوذاً بجمال ما رأى وسمع : مأخوذاً بعظمة هذا الرجل وسحر بيانه . ولم يرق قريشاً أمر عتبة ولا راقها رأيه أن تترك للعرب محمداً ، فإن تغلبت عليه استراحت قريش وإن اتبعته فلها فخاره ، وعادت تناوته وتناوى أصحابه وتصيبهم من البلاء بما كان هو في منجاة منه

سفارة عتبة
بن ربيعة

بمكاته من قومه ومنعته بأبي طالب وبني هاشم وبني المطلب . وزاد ما ينزل
 بالمسلمين من الأذى، وبلغ منهم القتل والتعذيب والتشيل . هناك أشار عليهم
 محمد أن يتفرقوا في الأرض . فلما سألوه أين نذهب ؟ نصح اليهم أن يذهبوا الى
 بلاد الحبشة المسيحية « فان بهاملكالا يُظلم عنده أحد وهي أرض صدق حتى
 يجعل الله لكم فرجاً مما أتم فيه » . فخرج فريق من المسلمين عد ذلك الى أرض
 الحبشة مخافة الفتنة وفراراً الى الله بدينهم . وخرجوا في هجرتين . كانوا في الأولى
 أحد عشر رجلاً وأربع نساء . تسللوا من مكة لواداً ، ثم أقاموا في خير جوار
 من النجاشي ، حتى ترامى اليهم أن المسلمين بمكة أصبحوا بمأمن من أذى قريش
 فعادوا ، كما سبقه من بعد . فلما لقوا عنت قريش وأذاهم أبلغ مما كان عادوا
 الى الحبشة في ثمانين رجلاً غير نساءهم وأطفالهم ، وأقاموا بها الى ما بعد هجرة
 النبي الى يثرب . وهذه الهجرة الى الحبشة كانت أول هجرة في الاسلام .

الهجرة الى
 الحبشة

من حق من يؤرخ لمحمد أن يتساءل : أكان كل القصد من هذه الهجرة
 التي قام بها المسلمون بأمره ورأيه ، الفرار من كفار مكة وما يلحقون بهم من
 الأذى ، أم أنها كان لها كذلك غرض سياسي إسلامي رمى محمد من ورائه
 الى غاية عليا ؟ . من حق مؤرخ محمد أن يتساءل عن هذا بعد الذي ثبت من
 تاريخ هذا النبي العربي في أدوار حياته جميعاً أنه كان سياسياً بعيد الغور كما كان
 صاحب رسالة وأدب نفس لا يدانئهما في السو والجلال والعظمة مدان .
 ويدعوننا الى هذا التساؤل ما تجرى به الرواية من أن أهل مكة لم يستريحوا
 الى خروج من خرج من المسلمين الى الحبشة ، بل بعثوا رجلين الى النجاشي
 ومعهما الهدايا القيمة ليقتنعوه كي يرد المسلمين من مواطنهم اليهم . والحبشة
 ونجاشيها كانوا نصارى ، فليس تخشى قريش عليهم من الناحية الدينية أن يتبعوا
 محمداً . فهل تراهم عثوا بالأمر وبعثوا يستردون المسلمين الا لأنهم رأوا أن
 حماية النجاشي إياهم بعد سماعه أقوالهم قد تكون ذات أثر في إقبال أهل جزيرة

سفيرا قريش
 الى النجاشي

العرب على دين محمد واتباعهم إياه؟ أو أنهم خافوا، إن بقي هؤلاء في الحبشة، أن تشتد شوكتهم، فاذا عادوا بعد ذلك لمعونته محمد عادوا أقوياء بالمال والرجال .
كان الرسولان عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة . ولقد دفعا إلى النجاشي وإلى بطارقتيه بالهدايا كي يردوا المهاجرين من أهل مكة إليها، ثم قالوا :
« أيها الملك إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوا لا نعرفه نحن ولا أنت . وقد بعثنا إليك فيهم أشرف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه . . . وكان السفيران قد اتفقا مع بطارقة النجاشي بعد أن أتحفاهم بهدايا أهل مكة أن يعاونوهما على رد المسلمين إلى قريش دون أن يسمع النجاشي كلامهم . فأتى النجاشي أن يفعل حتى يسمع ما يقولون ويمت في طلبهم . فلما جاءوا سألهم :

— ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا به في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل ؟

فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب قال :

— أيها الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسئ الجوار ويأكل القوي منا الضعيف . فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام — وعدد عليه أمور الإسلام — فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده لا نشرك به شيئا

رد المسلمين
على السفيرين

وحرّمنا ما حرّم علينا وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا وقتلونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث؛ فلما قهرونا وظلمونا وضيّقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترتناك على من سواك ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك.

فقال النجاشي :

... هل معك مما جاء به عن الله من شيء تقرّوه على ؟

قال جعفر: نعم، وتلاً من سورة مريم إلى قوله تعالى: « فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ، قَالُوا : كَيْفَ نُسَكِّمُ مَنْ كَانَتْ فِي الْبَيْتِ صَبِيًّا ، قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا . وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ، وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا . وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا . »

فلما سمع البطارقة هذا القول مصدقا لما في الانجيل أخذوا وقالوا :

هذه كلمات تصدر من النبع الذي صدرت منه كلمات سيدنا يسوع المسيح. وقال النجاشي : إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة . انطلقا ، والله لا أسلمهم اليكما . فلما كان الغد عاد ابن العاص إلى النجاشي فقال له : إن المسلمين ليقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً ، فأرسل اليهم فسلمهم عما يقولون فيه . فلما دخلوا عليه قال جعفر بن أبي طالب : تقول فيه الذي جاء به نبينا ، يقول هو عبد الله ورسوله وروحه وكتبته ألقاها إلى مريم العذراء البتول . فأخذ النجاشي عوداً وخطّ به على الأرض وقال وقد بلغت منه المسرة أكبر مبلغ : ليس بين دينكم وديننا أكثر من هذا الخط . وكذلك تبين للنجاشي بعد سماع الفريقين أن هؤلاء المسلمين يعترفون بعيسى ويقرون النصرانية ويعبدون الله . ووجد المسلمون في جوار النجاشي أمناً ودعة حتى رجعوا إلى مكة للمرة

جواب
النجاشي
والبطارقة

الأولى ومحمد ما يزال بها، وحين تراءى لهم أن خصومة قريش هدأت . فلما رأوا المكيين ما يزالون يُنزلون به وبأعوانه الأذى عادوا الى الحبشة في ثمانين رجلا غير نسائهم وأطفالهم . أفكانت هجرتاهم هاتان مجرد الفرار من الأذى ، أم كان لهما ، ولو في تدبير محمد وحده ، غاية سياسية يحمل بالمؤرخ أن يجلوها ؛ ومن حق مؤرخ محمد أن يتساءل : كيف أمن محمد على أصحابه هؤلاء أن يذهبوا الى أرض الحبشة والنصرانية دين أهلها دين كتاب ، ورسولها عيسى يقر محمد رسالته ، ثم لا يخاف عليهم فتنة كفتنة قريش وإن تسكن من نوع آخر ؟ وكيف أمن هذه الفتنة والحبشة بلاد بها من الخصب ما ليس بمكة فهي أشد من قريش فتنة ؟ ولقد تنصّر بالفعل أحد المسلمين الذين ذهبوا الى الحبشة ، فدل تنصره على أن خوف هذه الفتنة كان جديراً بأن يساور محمداً وهو ما يزال ضعيفا ، وما يزال الذين اتبعوه في أشد الريب من قدرته على حمايتهم أو الانتصار به على عدوهم ! وأكبر الظن أن يكون ذلك قد دار بخاطر محمد أن كانت سعة ذهنه وذكاء فؤاده وبعد نظره عدلا لسور روجه وكرم نفسه وحسن أدبه ورقة عاطفته . ولقد كان من هذه الناحية مطمئنا تمام الطمأنينة . فقد كان الاسلام يومئذ ، والى يوم مات صاحب الرسالة . في صفاء جوهره لم تشب نقاهه ولا سموه شائبة . وكانت نصرانية الحبشة كنصرانية نجران والحيرة والشام قد اندس اليها من شوائب الخلاف بين مؤلّهي مريم ومؤلّهي عيسى والمخالفين لهؤلاء وأولئك بما لا يخشى معه على أولئك المسلمين الذين كانوا ينهلون من نبع الرسالة المصنّى .

والحق أن أكثر الأديان ما كانت تتخطى على الزمان أجيالا معدودة حتى يندس إليها نوع من الوثنية ، إن لم يكن من هذا الطراز الوضيع الشائع يومئذ في بلاد العرب فانه وثنية على كل حال . والاسلام نزل عدو الوثنية اللدود في جميع صورها وأوضاعها . ثم إن النصرانية تعترف من ذلك التاريخ

المسلمون
ونصرانية
الحبشة

لطائفة رجال الدين بمكانة خاصة لم يعرفها الإسلام قط ، وكان يومئذ أشد ما يكون عليها سموًا ومنها براءة . ثم إنه كان يومئذ وبق في جوهره دين السموم بالنفس الانسانية الى غاية الذروة من السموم . حطم كل صلة بين المرء وربه غير العمل الصالح والتقوى، وأن يحب الانسان لأخيه ما يجب لنفسه . لم تبق أصنام ولم يبق كهنة ولم يبق عرافون ولم يبق شئ، يحول دون أن ترتفع الروح الانسانية لتتصل بالوجود كله صلة خير ومعروف ، ليكون جزاؤها عند الله أكبر من عماها أضعافا مضاعفة . والروح ! الروح الذي هو من أمر الله ! الروح المتصل بأزل الزمن وأبده ! هذا الروح ما عمل صالحاً فلا حجاب بينه وبين وجه الله ولا سلطان لغير الله عليه . يستطيع الأغنياء والأقوياء والشريرين أن يعدّوا الجسد وأن يحولوا بينه وبين ملاذّه وشهواته وأن يهلكوه ، لكنهم لم يصلوا الى الروح ما دام صاحبه يريد به سموًا فوق سلطان المادة وفوق سلطان الزمن واتصالا بالوجود كله . إنما يجزى الانسان عن أعماله يوم تجزى كل نفس بما كسبت . يومئذ لا تجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ، ويومئذ لا ينفع الأغنياء ما لهم ، ولا الأقوياء قوتهم ، ولا المتكلمين كلامهم . إنما هي الأعمال وحدها تشهد لصاحبها أو تشهد عليه . ويومئذ يقف هذا الوجود جميعاً متسقة وحدته مجتمعاً أزله وأبده . لا يظلم ربك أحداً . ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون .

كيف يخاف محمد الفتنة على من علمهم هذه المعاني ومن بثها في نفوسهم فخلت منهم في سويداء القلب ومكان العقيدة والايان ! . ثم كيف يخاف عليهم الفتنة ومثله حاضر أمامهم بشخصه المحبوب ، حتى ليحبه أحدهم أكثر من حبه نفسه وبنيه وأهله . شخصه الذي يضع هذه العقيدة فوق ملك الأرض والسماء والشمس والقمر ويقول لعنه : والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته . شخصه الذي يضيء بنور الايمان

والحكمة والعدل والخير والحق والجمال، الممتلىء الى جانب ذلك تواضعا وبراً ومودة ورحمة. لذلك كان مطمئناً الى هجرة أصحابه هؤلاء الى الحبشة كل الاطمئنان. وكان منهم عند النجاشي وسكيتهم إلى دينهم بين قوم لا تربطهم بهم أو اصر عطف أو قربى مما جعل قريشا تشعر بما في إيذائها للمسلمين، وهم منهم وهم أهلهم وأنسابهم، من ظلم ومن عنت ومن إمعان في الفجور، ومن تحصيل كل ألوان الأذى لهؤلاء الذين ارتفعت نفوسهم فوق الأذى، فأصبح لا يبالغهم سوء وأصبحوا يرون في الصبر على البأساء قربى إلى الله ومغفرة منه. وكان عمر بن الخطاب يومئذ رجلاً في فتوة الرجولية بين الثلاثين والخامسة والثلاثين. وكان مقبول العضل قوتى الشكيمة حاذ الطبع سريع الغضب مجباً للهو والخمر. وفيه الى ذلك بر بأهله ورقة لهم. وكان من أشد قريش أذى للمسلمين ووقعة فيهم. فلما رأهم هاجروا الى الحبشة ورأى النجاشي حاتم شعر لفرأقهم بوحشة وبما لفرأقهم وظنهم بن ألم يحز في الكبد ويفرى المهجة. وكان محمد يوماً مجتمعاً مع أصحابه الذين لم يهاجروا في بيت عند الصفا، ومن بينهم عمه حمزة وابن عمه علي بن أبي طالب وأبو بكر بن أبي قحافة وغيرهم من سائر المسلمين. وعرف عمر اجتماعهم، فقصد اليهم يريد أن يقتل محمداً كي تستريح قريش وتعود اليها وحدتها بعد أن فرق أمرها وسفاه أحلامها وعاب آلهتها. ولقيه نعيم بن عبد الله في الطريق وعرف أمره فقال له: « والله لقد غشتك نفسك من نفسك يا عمر. أتري بنى عبد مناف تاركيك تمشى على وجه الأرض وقد قتلت محمداً؟! أفلا ترجع الى أهل بيتك وتقيم أمرهم». وكانت فاطمة أخت عمر وزوجها سعيد بن زيد قد أسلما. فلما عرف عمر من نعيم أمرهما كرتا راجعاً اليهما ودخل البيت عليهما، فاذا عندهما من يقرأ عليهما القرآن. فلما أحسوا دنوت داخل عليهم اختفى القارى. وأخفت فاطمة الصحيفة. وسأل عمر: ما هذه الهينة التي سمعت؟ فلما أنكرها صاح بهما: لقد علمت أنكما تابعتما محمداً

اسلام عمر
ابن الخطاب

على دينه : وبطش بسعيد : فقامت فاطمة تحمي زوجها فضربها فشجها ، فهاج إذ
ذاك هائج الزوجين وصاحا به : نعم أسلنا ، فاقض ما أنت قاض . واضطرب عمر
حين رأى ما بأخته من الدم ، وغلبه بره وعطفه فارعوى وسأل أخته أن تعطيه
الصحيفة التي كانوا يقرءون . فلما قرأها تغير وجهه وأحس بالندم لصنيعه ، ثم
اهتز لما قرأ في الصحيفة وأخذة إعجازها وجلالها وسمو الدعوة التي تدعو إليها ،
فزاد جانب البر غلبةً عليه . وخرج وقد لان قلبه واطمأنت نفسه ، فقصده إلى
مجلس محمد وأصحابه عند الصفا . فاستأذن وأعلن إسلامه ، فوجد المسلمون فيه
وفي حمزة للإسلام منعةً وللمسلمين حمى .

وفت إسلام عمر في عضد قريش ، فأتمرت مرة أخرى ما تصنع ؟ . والحق
أن هذا الحادث عزز المسلمين بعنصر جديد قوى غاية القوة جعل موقف
قريش منهم وموقفهم من قريش غير ما كان : واستتبع بين الطرفين سياسة
جديدة مليئة بأحداث وتضحيات وقوى جديدة أدت إلى الهجرة وإلى ظهور
محمد السياسي إلى جانب محمد الرسول .

الفصل الثاني

قصة الغرائق

عود مهاجري الحبشة - الغرائق الملا - تمسك المستشرقين بقصتها
أسانيدهم في ذلك - ضعف هذه الأسانيد - القصة ظاهرة
الكذب ينفىها التحييص العلمى

أقام المسلمون الذين هاجروا إلى الحبشة ثلاثة أشهر أسلم أثناءها عمر بن الخطاب، فعاد كثير منهم في رواية، وعادوا كلهم في رواية أخرى، إلى مكة أن علموا برجوع قريش عن أذاها لمحمد ومن اتبعه . فلما بلغوها رأوا قريشا عادت إلى إيذاء المسلمين وإلى إمعان في عداوتهم أشد من كل ما عرف هؤلاء المهاجرون من قبل . فعاد منهم إلى الحبشة من عاد، ودخل مكة من دخل مستخفيا أو بجوار . ويقال إن الذين عادوا استصحبوا وإياهم عددا آخر من المسلمين أقام بالحبشة إلى ما بعد الهجرة وإلى حين استتباب الأمر للمسلمين بالمدينة .

عود مهاجري
الحبشة

أى داع حفز مسلمى الحبشة إلى العودة بعد ثلاثة أشهر من مةامهم؟ هنا يرد حديث الغرائق الذى أورده ابن سعد فى طبقاته الكبرى والطبرى فى تاريخ الرسل والملوك، وأورده كثيرون من المفسرين المسلمين وكتاب السيرة، وأخذ به جماعة المستشرقين ووقفوا يؤيدونه طويلا . وحديث الغرائق أن محمدا لما رأى من تجنب قريش إياه وأذاهم أصحابه تمنى فقال: لبيته لا ينزل على شىء ينفرهم عنى . وقارب قومه ودنا منهم ودنوا منه . فجلس يوما فى ناد من

تلك الأندية حول الكعبة فقرأ عليهم سورة النجم حتى بلغ قوله تعالى :
 (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ) ، فقرأ بعد ذلك :
 تلك الغرائق العلاء . وإن شفاعتهن لترجي . ثم مضى وقرأ السورة كلها
 وسجد في آخرها وسجد القوم جميعاً لم يتخلف منهم أحد . وأعلنت قريش
 رضاها عما تلا النبي وقالوا : قد عرفنا أن الله يحيي ويميت ويخلق ويرزق ،
 ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده . أما إذ جعلت لها نصيباً فنحن معك .
 وبذلك زال وجه الخلاف بينه وبينهم . وفتنا أمر ذلك في الناس حتى بلغ
 أرض الحبشة ، فقال المسلمون بها : عشائراً أحب إلينا ، وخرجوا راجعين ، حتى
 إذا كانوا دون مكة بساعة من نهار تقواركباً من كنانة فسألوهم فقالوا : ذكر
 آلهتهم بخير فتابعه الملاء . ثم ارتد عنها فعاد لشم آلهتهم وعادوا له بالشر .
 وأتمر المسلمون ما يصنعون فلم يطبقوا عن لقاء أهلهم صبراً فدخلوا مكة .
 وإنما ارتد محمد عن ذكر آلهة قريش بالخير في مختلف الروايات التي
 أثبتت هذا الخبر لأنه كبير عليه قول قريش : « أما إذ جعلت لآلهتنا نصيباً
 فنحن معك » . وأنه جلس في بيته حتى إذا أمسى أتاه جبريل فعرض النبي عليه
 سورة النجم فقال جبريل : أوجتتك بهاتين الكلمتين !! مشيراً إلى تلك
 الغرائق العلاء . وإن شفاعتهن لترجي . قال محمد : قُلتُ على الله ما لم يقل .
 ثم أوحى الله إليه : (وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ
 لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذْنٌ لَاتُخَذُوكَ خَلِيلًا . وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدَّتْ
 تَرَكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا . إِذْنٌ لِّأَذْنُكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ
 لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا) وبذلك عاد يذكر آلهة قريش بالشر ويسبهم وعادت
 قريش لمناواته وإيذاء أصحابه .

هذا حديث الغرائق ، رواه غير واحد من كتب السيرة ، وأشار إليه غير
 واحد من المفسرين ، ووقف عنده كثيرون من المستشرقين طويلاً . وهو حديث

ظاهر التفات ينقضه قليل من التمهيص . وهو بعدُ حديث ينقض ما لكل نبي من العصمة في تبليغ رسالات ربه . فمن عجب أن يأخذ به بعض كتاب السيرة وبعض المفسرين المسلمين . ولذلك لم يتردد ابن اسحاق حين سئل عنه في أن قال : إنه من وضع الزنادقة . لكن بعض الذين أخذوا به حاولوا تبرير أخذهم هذا فاستندوا الى الآيات : (وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ) والى قوله تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَعَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ) . ويفسر بعضهم كلمة (تمنى) في الآية بمعنى قرأ ، ويفسرها آخرون بمعنى الأمانة المعروفة . ويذهب هؤلاء . وأولئك ، ويتابعهم المستشرقون ، إلى أن النبي لما بلغ منه أذى المشركين حتى كانوا يقتلون بعض أصحابه ويلقون بعضهم في الصحراء يلفحهم لظى الشمس المحرقة وقد أوقروهم بالحجارة كما فعلوا بيلال ، وحتى اضطر النبي للاذن لأصحابه في الهجرة إلى الحبشة ، ولما رأى من جفاء قومه إياه وإعراضهم عنه ، ولأنه كان حريصاً على إسلامهم ونجاتهم من عبادة الأصنام ، تقرب إليهم وتلا سورة النجم وأضاف إليها حكاية الغرائق ، فلما سجد سجدوا وإياه وأظهروا له الميل لاتباعه ما دام قد جعل لأهلهم نصيباً مع الله .

ويضيف سير ولیم مویر إلى هذه الرواية التي تروى كتب السيرة والمفسرون حجة يراها قاطعة في نظره بصحة حديث الغرائق . ذلك أن المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة لم يك قد مضى على هجرتهم إليها غير ثلاثة أشهر أجازهم النجاشي أثناءها وأحسن جوارهم . فلولا يكن قد ترامي إليهم خبر الصلح بين محمد وقريش لما دفعهم دافع إلى العود حرصاً على الاتصال بأهلهم وعشائرهم . وأنى يكون صلح بين محمد وقريش إذا لم يسع محمد إليه وقد كان

في مكة أقل نفراً وأضعف قوة ، وقد كان أصحابه أعجز من أن ينعخوا أنفسهم من أذى قريش ومن تعذيبهم إياهم .

هذه هي الحجج التي يسوقها من يقولون بصحة حديث الغرائق . وهي حجج واهية لا تقوم أمام التحيص . ونبدأ بدفع حجة المستشرق موير .

دفع هذه
الحجج

فالمسلمون الذين عادوا من الحبشة إنما دفعهم إلى العود لمكة سببان : أولهما أن عمر بن الخطاب أسلم بعد هجرتهم بقليل ، وقد دخل عمر في دين الله بالحمية

أسباب عود
المهاجرين
إلى الحبشة

التي كان يحاربه من قبل بها . لم يخف إسلامه ولم يستتر بل ذهب يعلنه على رموس الملاء ويقائاتهم في سبيله ، ولم يرض عن استخفاء المسلمين وتسلمهم إلى

شعاب مكة يقيمون الصلاة فيها بعيدين عن أذى قريش ، بل دأب هو على نضال قريش حتى صلى عند الكعبة وصلى المسلمون معه . هنالك أيقنت قريش

١ - إسلام عمر

أن ما تنال به محمداً وأصحابه من الأذى يوشك أن يثير حرباً أهلية لا يعرف أحد مداها ولا من تدور عليه دائرتها . فقد أسلم من مختلف قبائل قريش

ويوماتها رجال ثور لقتل أي واحد منهم قبيلته وإن كانت على غير دينه . فلا مفر إذاً من الاتجاء في محاربة محمد إلى وسيلة لا يترتب عليها هذا الخطر .

والى أن تتفق قريش على هذه الوسيلة هادنت المسلمين فلم تزل أحداً منهم بأذى . وهذا هو ما اتصل بالمهاجرين إلى الحبشة ودعاهم إلى التفكير في العود لمكة .

وربما ترددوا في هذا العود لو لم يكن السبب الثاني الذي ثبتت عزيمتهم . ذلك أن الحبشة شبت بها يومئذ ثورة على النجاشي ، كان دينه وكان ما أبدى من

٢ - ثورة
الحبشة

عطف على المسلمين بعض ما أذيع فيها من تهم وجهت إليه . ولقد أبدى المسلمون أحسن الأمان أن ينصر الله النجاشي على خصومه . لكنهم لم يكونوا

ليشاركوا في هذه الثورة وهم أجانب ، ولم يك قد مضى على مقامهم بالحبشة غير زمن قليل . أما وقد ترامت إليهم أخبار الهدنة بين محمد وقريش هدنة

أنجحت المسلمين بما كان يصيبهم من الأذى ، فغير لهم أن يدعوا الفتنة وراء

ظهورهم وأن يلحقوا بأهلهم . وهذا ما فعلوه كلهم أو بعضهم .
 على أنهم ما لبثوا أن بلغوا مكة حتى كانت قريش قد اتصحت بمحمد
 وأصحابه ، وانفقت عشائرها وكتبوا كتاباً تعاقدوا فيه على مقاطعة بني هاشم
 مقاطعة تامة ، فلا يُنكحوا إليهم ولا يُنكحوهم ولا يبيعوهم ولا يبتاعوا منهم
 شيئاً . وبهذا الكتاب عادت الحرب العوان بين الفريقين ورجع الذين عادوا
 من الحبشة وذهب معهم من استطاع اللحاق بهم . وقد وجدوا هذه المرة عنتا
 من قريش إذ حاولت أن تمنعهم من الهجرة .

ليس الصلح الذي يشير إليه المستشرق موير هو إذاً الذي دعا المسلمين
 إلى العريضة من بلاد الحبشة . إنما هي هذه الهدنة التي حدثت على إثر إسلام
 عمر وحماسته في تأييد دين الله . فتأييد حديث الغرائق بحجة الصلح تأييد
 إذاً غير ناهض .

الاحتجاج
 بالآيات
 مقلوب

أما احتجاج المحتجين من كتاب السير والمفسرين بالآيات . « إن كأدوا
 لِيَفْتِنُونَكَ . . . » وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى
 الشيطان في أميته . . . » فهو احتجاج أشد تهافتاً من قصة السير موير . ويكفي
 أن نذكر في الآيات الأولى قوله تعالى : « ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن
 إليهم شيئاً قليلاً » لرى أنه إن كان الشيطان قد ألقى في أمية الرسول حتى لقد
 كاد يركن إليهم شيئاً قليلاً فقد ثبته الله فلم يفعل ، ولو أنه فعل لأذاقه الله ضعف
 الحياة وضعف المات . وإذاً فالاحتجاج بهذه الآيات احتجاج مقلوب .
قصة الغرائق تجرى بأن محمداً ركن إلى قريش بالفعل وأن قريشاً فتنته بالفعل
 فقال على الله ما لم يقل . والآيات هنا أن الله ثبته فلم يفعل . فاذا ذكرت كذلك
 أن كتب التفسير وأسباب النزول جعلت لهذه الآيات موضعاً غير مسألة
 الغرائق رأيت أن الاحتجاج بها في مسألة تتنافى مع عصمة الرسل في تبليغ
 رسالاتهم ، وتتنافى مع تاريخ محمد كله ، احتجاج تهافت ، بل احتجاج سقيم .

أما آيات : ، وما أرسلنا من قبلك من رسول ، فلا صلة لها بحديث الغرائق البتة ؛ فضلا عن ذكرها أن الله ينسخ ما يلقى الشيطان ويجعله فتنه للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم ، وبحكم الله آياته والله عليم حكيم .
 وتدع هذا الى تمحيص القصة التمحيص العلي الذي يثبت عدم صحتها .
 وأول ما يدل على ذلك تعدد الروايات فيها . فقد رويت ، كما سبق القول ، على أنها : تلك الغرائق العلاء وان شفاعتهن لترجي . ورواها بعضهم : « الغرائقة العلاء . ان شفاعتهن ترجي » . وروى آخرون ان شفاعتهن ترجي دون ذكر الغرائقة أو الغرائق . وفي رواية رابعة : وانها لهي الغرائق العلاء . وفي رواية خامسة : « وانهن لهن الغرائق العلاء . وان شفاعتهن لهي التي ترجي »
 وهذا التعدد في الروايات يدل على أن الحديث موضوع ، وأنه من وضع الزنادقة ، كما قال ابن اسحاق ، وأن الغرض منه التشكيك في صدق تبليغ محمد رسالات ربه .

تهافت
القصة علي

تعدد الروايات
فيها

ودليل آخر أقوى وأقطع سياق سورة النجم وعدم احتمالها لمسألة الغرائق . فالسياق يجري بقوله تعالى : « لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ، أَوْرَأَيْتُمْ اللَّاتَ وَالْعُزَّى . وَمِنَ الثَّالِثَةِ الْآخَرَى . أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَى . تِلْكَ إِذْ قَسَمَ ضِيزَى . إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ . إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ . وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى » . وهذا السياق صريح في أن اللات والعزى أسماء سماها المشركون هم وآباؤهم ما أنزل الله بها من سلطان . فكيف يحتمل أن يجري السياق بما يأتي : « أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى . تلك الغرائق العلاء . ان شفاعتهن لترجي . ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذن قسمة ضيزى . ان هي إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » . إن في هذا السياق من الفساد ومن الاضطراب والتناقض ، ومن مدح اللات والعزى

سياق سورة
النجم ياهاها

وذمها في أربع آيات متعاقبة ما لا يسلم به عقل ولا يقول به إنسان ، وما لا تبقى معه شبهة في أن حديث الغرائق مفترى وضعه الزنادقة لغاياتهم ، وصدقه من يسيغون كل غريب ومن تقبل عقولهم ما لا يسيع العقل .

وحجة أخرى ساقها المغفور له الأستاذ الشيخ محمد عبده حين كتب يفند قصة الغرائق . تلك أن وصف العرب لأهتهم بأنها الغرائق لم يرد في نظمهم ولا في خطبهم ، ولم ينقل عن أحد أن ذلك الوصف كان جارياً على ألسنتهم ، وإنما ورد الغرنوق والغرنيق على أنها لظائر مائى أسود أو أبيض ، والغرنيق الشاب الأبيض الجميل . ولا شيء من ذلك يلائم معنى الآلهة أو وصفها عند العرب .

بقيت حجة قاطعة نسوقها للدلالة على استحالة قصة الغرائق هذه من حياة محمد نفسه . فهو منذ طفولته وصباه وشبابه لم يجرب عليه الكذب قط حتى سمى الأمين ولما يبلغ الخامسة والعشرين من عمره . وكان صدقه أمراً مسلماً به من الناس جميعاً ، حتى لقد سأل قريشاً يوماً بعد بعثته : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقوننى . فكان جوابهم : نعم ، أنت عندنا غير متهم وما جربنا عليك كذباً قط . فالرجل الذى عرف بالصدق فى صلاته بالناس منذ نعومة أظفاره الى كهولته كيف يصدق إنسان أنه يقول على ربه ما لم يقل ، ويخشى الناس والله أحق أن يخشاه ! . هذا أمر مستحيل يدرك استحاطته الذين درسوا هذه النفوس القوية الممتازة التى تعرف الصلابة فى الحق ولا تداجى فيه لأى اعتبار . وكيف ترى يقول محمد لو وضعت قريش الشمس فى يمينه والقمر فى شماله على أن يترك هذا الأمر أو يموت دونه ما فعل ، ثم يقول على الله ما لم يوح إليه ، ويقوله لينقض به أساس الدين الذى بعثه الله به هدى وبشرى للعالمين !

ومتى يرجع الى قريش ليمدح آلهتهم ! بعد عشر سنوات أو نحوها من

صدق محمد
بأبى صحة
القصة

بعثه ، وبعد أن احتمل هو وأصحابه في سبيل الرسالة من ألوان الأذى وصنوف التضحية ما احتمل ، وبعد أن أعز الله الاسلام بحمزة وعمر ، وبعد أن بدأ المسلمون يصبحون قوة بمكة ، ويمتد خبرهم الى بلاد العرب كلها والى الحبشة والى مختلف نواحي العالم . إن القول بذلك حديث خرافة وأكذوبة ممنوعة . ولقد شعر الذين اخترعوها بسهولة اقتضاحها فأرادوا سترها بقولهم : إن محمداً ما كاد يسمع كلام قريش إذ جعل لأهلهم نصيباً في الشفاعة حتى كبر ذلك عليه ، وحتى رجع الى الله تائباً أول ما أمسى بيته وجاءه جبريل فيه . لكن هذا السر أحرى بأن يفضحها . فما دام الأمر قد كان كبر على محمد منذ سمع مقالة قريش ، فما كان أحرأه أن يراجع الوحي لساعته . وما كان أحرأه أن يُجرى الوحي الصواب على لسانه ! . وإذا فلا أصل لمسألة الغرائق إلا الوضع والاختراع قامت بهما طائفة الذين أخذوا أنفسهم بالكيد للاسلام ، بعد انقضاء الصدر الأول من الاسلام .

افتراء على
الوحيد

وأعجب ما في جرأة هؤلاء المفترين أنهم عرضوا للافتراء في أم مسائل الاسلام جميعاً : في التوحيد : في المسألة التي بعث محمد لتبليغها للناس منذ اللحظة الأولى ، والتي لم يقبل فيها منذ تلك اللحظة هوادة ولا أماله عنها ما عرض عليه قريش أن يعطوه ما يشاء من المال أو يجعلوه ملكاً عليهم . وعرضوا ذلك عليه حين لم يكن قد اتبعه من أهل مكة إلا عدد يسير . وما كان أذى قريش لأصحابه ليحمله يرجع عن دعوة أمره ربه أن يبلغها للناس . فاختيار المفترين لهذه المسألة التي كانت صلابه محمد فيها غاية ما عرف عنه من الصلابه ، تدل على جرأة غير معقولة ، وتدل في نفس الوقت على أن الذين مالوا الى تصديقهم قد خدعوا فيما لا يجوز أن يُخدع فيه أحد .

لا أصل إذاً لمسألة الغرائق على الاطلاق ، ولا صلة البتة بينها وبين عودة المسلمين من الحبشة . إنما عادوا ، كما قدمنا ، بعد أن أسلم عمر ونصر

الاسلام بمثل الحمية التي كان يحاربه من قبل بها ، حتى اضطرت قريش لمهادنة المسلمين . وعادوا حين شبت الثورة في بلاد الحبشة ثورة خافوا مغبتها . فلما علمت قريش بعودتهم ازدادت مخاوفها أن يعظم أمر محمد بهم ، فأتمرت ما تصنع . وقد انتهت بوضع الصحيفة التي قرروا فيها فيما قرروا ألا يناكحوا بنى هاشم ولا يبايعوهم ولا يخالطوهم ؛ كما أجمعوا فيما بينهم أن يقتلوا محمداً إن استطاعوا .

الفصل السابع

مساءات قريش

إعلان عمر إسلامه وصلاة المسلمين عند الكعبة - صحيفة المقاطعة
جهود قريش في محاربة محمد - سلاح الدعاية - سحر البيان
جبر النصراني - تأثر قريش بالدعوة الجديدة - الطفيل الدوسي
وفد النصراني - ما منع قريش أن تتابع محمداً! - المنافسة
الخوف على مكانة مكة - الفزع من البعث

فتَ إسلام عمر في عضد قريش أن دخل ابن الخطاب في دين الله بالحمية
والحاسة التي كان يحاربه من قبل بها . لم يُخفِ إسلامه ولم يستتر بل ذهب يعلنه
على ربوس الملأ ويقائلهم في سبيله . ولم يرض عن استخفاء المسلمين
وذهابهم إلى شعاب مكة يقيمون الصلاة فيها بعيدين عن أذى قريش ، بل
دأب هو على نضال قريش حتى صلى عند الكعبة وصلى المسلمون معه .
وأيقنت قريش أن ما تنال به محمداً وأصحابه من الأذى لن يحول دون إقبال
الناس على دين الله ليحتموا من بعد ذلك بعمر وحزرة أو بالحبشة أو بمن يقدر
على حمايتهم فأثرت من جديد ماذا تصنع . وانفقوا فيما بينهم وكتبوا كتاباً
تعاقدوا فيه على مقاطعة بنى هاشم وبنى المطلب مقاطعة تامة ، فلا ينكحوا إليهم
ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم . وعلقوا صحيفة هذا العقد
في جوف الكعبة تؤكداً لها وتسجيلاً . وكان أكبر ظنهم أن هذه السياسة
السلبية . سياسة التجويع والمقاطعة ، ستكون أفضل أثراً من سياسة الأذى

حبة عمر

الصحيفة

والاعتات . وإن لم ينقطعوا عن الاعتات ولا عن الأذى . وأقامت قريش على حصار المسلمين وحصار بنى هاشم وبنى عبد المطلب سنتين أو ثلاثاً ، كانت ترجو خلالها أن تصل من محمد إلى اعتزال قومه إياه ، فيعود وحيداً ولا يبقى له ولا لدعوته من خطر .

فأما محمد فلم يزد ذلك إلا اعتصاماً بجبل الله ، ولم يزد أهله والذين آمنوا به إلا ذوداً عنه وعن دين الله . ولم يحل دون انتشار الدعوة إلى الاسلام انتشاراً خرج بها من حدود مكة . وذاع أمر الدعوة بين العرب وقبائلها بما جعل الدين الجديد يفشو ذكره في شبه الجزيرة بعد أن كان حبيساً بين جبال مكة ، وما جعل قريشاً تزيد إمعاناً في تفكيرها كيف تحارب هذا الخارج عليها والذي يسب آلهتها ، وكيف تقف دون انتشار دعوته بين قبائل العرب ، ولا غنى لمكة عن هذه القبائل ولا غنى للقبائل عن مكة في التجارة المتصلة التي تصدر عن أم القرى وترد إليها .

أذى قريش

والحق أن ما بذلته قريش من مجهود في محاربة هذا الخارج عليها وعلى دينها ودين آبائها وما ثابرت وصابرت السنين الطوال للقضاء على هذه الدعوة الجديدة يعدو ما يتصوره العقل . هددت محمداً وهددت أهله وأعمامه ! تهكمت به وبدعوته وسخرت منه ومن اتبعه ! أرسلت شعراءها تهجوه وتفري أدبمه ! نالته بالأذى ونالت من اتبعه بالسوء والعذاب ! عرضت عليه الرشوة وعرضت عليه الملك وعرضت عليه كل ما يطمع الناس فيه عادة ! شردت أنصاره عن أوطانهم وأصابتهم في تجارتهم وفي أرزاقهم ! أذنته وأذنتهم الحرب وأهوالها وما تجنى وما تدمر ! وها هي ذى تحاصرهم أخيراً لئيمتهم جوعاً إن استطاعت إلى ذلك سبيلاً . ومع ذلك ظل محمد يشدد في دعوة الناس بالحسنى إلى الحق الذي بعثه الله به للناس بشيراً ونذيراً . أفأن لقريش أن تلقى سلاحها وأن تصدق الأمين الذي عرفته منذ طفوليته وكل

صباه وشبابه أميناً؟ أم أنها لجأت إلى سلاح غير ما قدمنا من أسلحة النضال
وخيل إليها أنها مستطبعة به أن تكسب الموقعة، وأن تستبق لأصنامها مكانة
الالهوية التي تزعمها، وأن تستبق بمكة متحف هذه الأصنام ومكان قداستها
وكل ما ينالها بسبب هذه الأصنام من قداسة؟!

كلا! لم يأن لقريش أن تدعن وأن تسلم. وهي الآن أشد ما تكون
خوفاً من انتشار دعوة محمد بين قبائل العرب بعد أن انتشرت بمكة؛ وقد بقي
لديها سلاح لجأت إليه منذ الساعة الأولى ولا يزال لها في قوته وفي مضائه
مطمع. ذلك سلاح الدعاية. الدعاية بكل ما تنطوى عليه من مجادلة وحجج
ومهارة وترويج إشاعات وتضعيف لحجة الخصم واستعلاء بالدليل على دليله.
الدعاية ضد الفكرة وضد صاحب الفكرة واتهامه فيها واتهامها لذاتها. الدعاية
التي لا تقف عند حدود مكة والتي لم تكن مكة بحاجة إليها كحاجة البادية
وقبائلها وشبه الجزيرة وسائر أهلها. كان التهديد والاعراء والارهاب والتعذيب
بعض ما يفتنى عن الدعاية في مكة. لكنها لم تكن لتغني عنها شيئاً عند الألوف
الذين يفدون إلى مكة كل عام في التجارة والحج، والذين يجتمعون في أسواق
عكاظ ومجنة وذى المجاز ليحجوا إلى الكعبة بعد ذلك مقرّبين إلى أصنامهم
ناحرين عندها ملتسمين منها البركة والمغفرة. لذلك فكرت قريش منذ
استحرت الخصومة بينها وبين محمد في تنظيم الدعاية ضده. وكانت في تفكيرها
هذا أشد إمعاناً منذ فكر هو في مبادأة الحاج بدعوتهم إلى عبادة الله وحده
لاشريك له. وهو قد فكر في هذا بعد السنين الأولى من بعثته. فهو قد بدأ
نبيّاً منذ بعثته إلى أن جاءه الوحي أن ينذر عشيرته الأقربين. فلما أنذر قريشاً
وأسلم منها من أسلم وألح في الكفر والعناد من ألح، ألقي عليه أن يدعو قومه
العرب جميعاً، ليلتقى عليه من بعد ذلك أن يدعو الناس كافة.

لما فكر في مبادأة الحاج من مختلف قبائل العرب بالدعوة إلى الله

سلاح الدعاية

اجتمع نفر من قريش إلى الوليد بن المغيرة يتشاورون ماذا عسى أن يقولوا في شأن محمد للعرب القادمين إلى موسم الحج، حتى لا يختلف بعضهم مع بعض ويكذب بعضهم بعضاً. واقترح بعضهم أن يقولوا: إن محمداً كاهن: فردّ الوليد هذا الرأي أن ليس ما يقول محمد بزمنة الكاهن ولا بسجعه. واقترح آخرون أن يزعموا أن محمداً مجنون: فردّ الوليد هذا الرأي بأنه لا تبدو عليه لهذا الزعم ظاهرة. واقترح غيرهم أن يتهموا محمداً بالسحر: فردّ الوليد بأن محمداً لا ينفث في العُقد ولا يأتي من عمل السحرة شيئاً. وبعد حوار اقترح الوليد عليهم أن يقولوا للحاج من العرب: إن هذا الرجل ساحر البيان، وإن ما يقوله سحر يفرق بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجه وبين المرء وعشيرته. وكان لهم عند العرب من الحجّة على قولهم هذا ما أصابهم في مكة من فرقة وتحاذل وتناحر، بعد أن كانت مكة مضرب المثل في العصية وفي قوة الرابطة. وانطلقت قريش في الموسم تحذّر الحاج من الاستماع إلى هذا الرجل وسحر بيانه حتى لا يصيبها ما أصاب مكة، فتكون فتنة تصلى حرّها جزيرة العرب جميعاً.

اتهم محمد
بسحر البيان

لكن دعاية كهذه لا يمكن أن تقوم وحدها أو تقاوم سحر هذا البيان الذي يوثق إليه. فإذا جاء الحق في هذا البيان الساحر فما يمنع الناس أن يؤمنوا به؟ وهل كان الاعتراف بالعجز وتفوق الخصم دعاية ناجعة في يوم من الأيام؟ فلتكن لقريش إلى جانب هذه الدعاية دعاية أخرى. ولتلمس قريش هذه الدعاية عند الضّر بن الحارث. وقد كان هذا الضّر من شياطين قريش. وكان قد قدم الحيرة وتعلّم بها أحاديث ملوك الفرس وعباداتها وأقوالها في الخير والشر وفي عناصر الكون. فأخذ نفسه، كلما جلس محمد مجلساً يدعو فيه قومه إلى الله ويحذّرهم عاقبة ما أصاب من قبلهم من الأمم التي أعرضت عن عبادة الله، بأن يخلف محمداً في مجلسه وأن يقص على قريش

الضّر بن
الحارث

حديث فارس ودينها ثم يقول : بماذا يكون محمد أحسن حديثاً مني ؟ أليس محمد يتلو من أساطير الأولين ما أتلو ؟ وكانت قريش تدعي أحاديث النضر من طريق الرواية دعاية ضد ما ينذر محمد الناس به وما يدعوهم إليه .

جبر النصراني

وكان محمد يكثر من الجلوس عند المروة الى مبيعة غلام نصراني يقال له جبر، فكانت قريش تزعم أن جبراً النصراني هذا هو الذي يعلم محمداً أكثر ما يأتي به، فاذا كان لا أحد أن يخرج على دين آباءه فالنصرانية أولى . وروجت قريش لزعمها هذا، فنزل في ذلك قوله تعالى : « وَتَقَدَّرَ نَعْلُهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ . لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ ، وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ » .

بهذه الضروب وأمثالها من الدعاية جعلت قريش تحارب محمداً ترجو أن تبلغ بها منه أكثر مما يبلغ منه الأذى ومن اتبعه العذاب . على أن قوة الحق في الصورة الواضحة البسيطة التي صور فيها على لسان محمد كانت تعلو على ما يقولون، وما تفتأ لذلك تزداد كل يوم بين العرب انتشاراً . قدم الطفيل بن عمرو والدوسى مكة ، وكان رجلاً شريفاً شاعراً لبيباً ، فمشت إليه قريش تحذره من محمد وأن

الطفيل الدوسي

قوله كالسحر يفرق بين المرء وأهله ، بل بين المرء ونفسه ، وأنهم يخشون عليه وعلى قومه مثل ما أصابهم بمكة ، وأن الخير في ألا يكلمه ولا يستمع اليه . وذهب الطفيل يوماً إلى الكعبة وكان محمد هناك ، فسمع بعض قوله فاذا هو كلام حسن ، فقال في نفسه : « وَائْتِكُلْ أُمَّي . وَاللَّهِ إِنِّي لَرَجُلٌ لَيْبٌ شَاعِرٌ مَا يَخْفَى عَلَى الْحَسَنِ مِنَ الْقَبِيحِ ، فَمَا يَمْنَعُنِي أَنْ أَسْمَعَ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ مَا يَقُولُ ، فَإِنْ كَانَ حَسَنًا قَبْلَتَهُ وَإِنْ كَانَ قَبِيحًا تَرَكْتَهُ » . واتبع محمداً إلى بيته وأظهره على أمره ومادار بنفسه ، فعرض محمد عليه الاسلام وتلا عليه القرآن ، فأسلم وشهد شهادة الحق ورجع إلى قومه يدعوهم إلى الاسلام ، فلبثاه بعضهم وأبطأ بعض ، وما زال الطفيل بهم يدعوهم سنين متعاقبة حتى أسلم أكثرهم وانضموا إلى النبي بعد فتح مكة وبعد أن بدأ النظام السياسي يأخذ في الاسلام صورة معينة .

وليس الطفيل الدوسي إلا مثلاً من كثير . ولم يكن عبادة الأصنام
 وحدهم هم الذين يستجيبون الى دعوة محمد . قدم عليه وهو بمكة عشرون
 رجلاً من النصارى حين بلغهم خبره . جلسوا اليه وسألوه واستمعوا له فاستجابوا
 وآمنوا به وصدقوه ، بما غاظ قريشاً حتى سيوهم وقالوا لهم : « خبيكم الله من
 ركب . بعثكم من وراءكم من أهل دينكم لتأتوهم بخبر الرجل فلم تطمئن مجالسكم
 عنده حتى فارقم دينكم وصدقتموه بما قال » . ولم تكن مقالة قريش هذا الوفد
 عن متابعة محمد ولم ترده عن الاسلام ، بل زادتهم بالله إيماناً على إيمانهم إذ
 كانوا نصارى وإذا كانوا من قبل أن يستمعوا إلى محمد لله مسلمين .

بل لقد بلغ من أمر محمد ما هو أعظم من هذا . بدأ أشد قريش خصومة
 يسألون أنفسهم : أحقاً أنه يدعو إلى الدين القيم وأن ما يعدهم وما يندرهم هو
 الصحيح . خرج أبو سفيان بن حرب وأبو جهل بن هشام والأخنس بن
 شريق ليلة ليستمعوا إلى محمد وهو في بيته ، فأخذ كل منهم مجلساً يستمع فيه
 وكل منهم لا يعلم بمكان صاحبه . وكان محمد يقوم الليل إلا قليلاً يرتل القرآن
 في هدوء وسكينة ، ويردد بصوته العذب آياته القدسية على أوتار سمعه وقلبه
 وفؤاده . فلما كان الفجر تفرق المستمعون عائدين إلى منازلهم ، فجمعهم الطريق
 فتلاوموا وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا ، فلورآكم بعض سفهاكم لأضعف
 ذلك من أمركم ولنصر محمد عليكم . فلما كانت الليلة الثانية شعر كل واحد منهم
 في مثل الموعد الذي ذهب فيه أمس كأن رجليه تحملانه من غير أن يستطيع
 امتناعاً ليقتضى ليله حيث قضاه أمس ، وليستمع إلى محمد يتلو كتاب ربه .
 وتلاقوا عند عودتهم مطلع الفجر وتلاوموا من جديد ، فلم يحل تلاومهم
 دون الذهاب في الليلة الثالثة . فلما أدركوا ما بهم لدعوة محمد من ضعف
 تعاهدوا ألا يعودوا لمثل فعلتهم وإن ترك ما سمعوا من محمد في نفوسهم
 من الأثر ما جعلهم يتساءلون فيما بينهم : وكاهم تضطرب نفسه ويخاف أن

أبو سفيان
 وأبو جهل
 والأخنس

يضعف وهو سيد قومه فيضعف قومه ويتابعوا محمداً معه .

ما منعهم من أن يتابعوا محمداً ؟ إنه لا يريد منهم مالا ولا فيهم سيادة ولا عليهم ملكا أو سلطاناً . وهو بعد رجل جم التواضع شديد الحب لقومه والبر بهم والحرص على هدايتهم ، شديد حساب النفس ، حتى ليخشى إساءة المسكين والضعيف ، ويرى في المغفرة عن أذى يحتمله طمأنينة لقلبه وراحة لضميره . ألم يقف مع الوليد بن المغيرة يوماً وقد طمع في إسلامه . والوليد سيد من سادات قريش . فمر به ابن أم مكتوم الأعمى وجعل يستقرئه القرآن وألح في ذلك حتى شق على محمد إلحاحه ، لما شغله عما كان فيه من أمر الوليد ، فتولى عنه وانصرف عابساً . فلما خلا إلى نفسه جعل يحاسبها عن صنيعها ويسألها أهو أخطأ ؟ حتى نزل عليه الوحي بهذه الآيات : « عَبَسَ وَتَوَلَّى . أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي ، أَوْ يُذَكِّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ، أَمَّا مَنْ اسْتَعْنَى فَأَنْتَ نَهْ تُصَدِّقِي ، وَمَا عَلَيْكَ الْأَلْيَزَكِّي . وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ، كَلَّا ! إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ . فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ . فِي صُحُفٍ مَكْرُومَةٍ ، مَرْفُوعَةٍ مُصَهَّرَةٍ . بِأَيْدِي سَفَرَةٍ . كِرَامٍ بَرَرَةٍ . » فما دام ذلك أمره فما منع قريشاً أن يتابعوه : وأن يعينوه على دعوته ؟ وبخاصة بعد إذ لانت قلوبهم . واذ أنسبهم السنون ما تدفع اليه المحافظة على القديم البالي من جمود النفس . وإذ رأوا في دعوة محمد جلالاً وكلالاً !

ولكن ! أحقاً تُنسى السنون النفوس جمودها ومحافظتها على القديم البالي ؟ إنما يكون ذلك عند الممتازين ومن في قلوبهم نزوع دائم إلى الكمال . هؤلاء ما يزالون حياتهم كلها يقبلون الحقائق التي آمنوا من قبل بها لينفوا ما يعلق بها من زيف بالغة ما بلغت تفاهته . وهؤلاء قلوبهم وأفتدتهم وعقولهم كأنها بوتقة دائمة الاتقاد ؛ تتقبل كل جديد من الرأي يُلقى إليها فتصهره وتطهره وتنقى خبثه وتسبقي ما فيه من خير وحق وجمال . وهؤلاء يلتمسون

عبس وتولى

النزوع
إلى الكمال

الحق في كل شيء وفي كل مكان وعلى كل لسان . لكن هؤلاء في كل أمة وعصر هم الصفوة المختارة وهم لذلك قلة أبداً . وهم يجدون الخصومة دائماً ناشبة على أشدها بينهم وبين ذوى المال والجاه والسلطان ؛ لأن هؤلاء يخافون من كل جديد أن يجنى على ماله أو جاههم أو سلطانهم . وهم لا يعرفون غير هذه في الحياة حقائق ملموسة . كل ما سوى هذه حق إذا هو أدى الى مزيد منها ، باطل إذا بعث إلى أصحابها أيسر ظل من الريبة إزائها . رب المال عنده أن الفضيلة حق إذا زادت في ماله ، باطل إذا حرمته منه . وأن الدين حق إذا عرف كيف يسخره لشهواته ، باطل إذا وقف في وجه هذه الشهوات وحطمها . ورب الجاه ورب السلطان في ذلك كرب المال سواء . وهؤلاء في خصومتهم لكل جديد يخافون منه يستعدون السواد الذي يفيد منهم رزقه على المتأدى بهذا الرأي الجديد . وهم يستعدون السواد بتقديس الصروح القديمة التي نخر السوس فيها بعد أن فر الروح منها . وهم يقيمون هذه الصروح هياكل من الحجر ليزعموا للسواد البريء أن الروح المقدس ، الذي لغوه هم في أكفائه ، ما يزال في جلاله بين محبس هذه الهياكل . والسواد ينصرهم أكثر الأمر : لأنه ينظر قبل كل شيء إلى رزقه ، ولا يسهل عليه أن يدرك أن أية حقيقة لا تطبق أن تبقى حبيسة بين جدران معبد من المعابد بالغاً ما بلغ جماله وجلاله ، وأن في طبع الحقيقة أن تكون حرة طليقة تغزو النفوس وتغذوها لا تفرق فيها بين نفس سيد ونفس عبد ، ولا يقف نظام من النظم في سبيلها بالغة ما بلغت قسوته وبطش أصحابه في حمايته . فكيف تريد هؤلاء الذين كانوا يتسللون لوأذا يستمعون الى القرآن أن يؤمنوا به وهو يؤاخذهم في كثير مما يرتكبون ، وهو لا يفرق بين الأعمى ومن استغنى إلا بطهارة النفس لا بكثرة المال ، وهو ينادى الناس جميعاً : « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ » . فاذا ظل أبو سفيان ومن معه على دين آبائهم فليس ذلك إيماناً منهم به وبحق محتويه ، بل هو حرص

ما منهم أن
يتابعوا محمداً

على نظام قديم أقامه ثم أفاء الحظ عليهم في ظل هذا النظام من بسطة المال
والجاه ما يحرصون عليه ويحاربون الحياة كلها دونه .

الحمد
والثناء

وإلى جانب هذا الحرص كان يقوم الحسد والتنافس والتنازع مانعاً
من إقبال قريش على متابعة النبي . كان أمية بن أبي الصلت من حدثوا عن نبي
يقوم في العرب قبل ظهور محمد حتى طمع في النبوة ؛ وأكلت قلبه الغيرة حين
لم ينزل الوحي عليه ، فلم يرض أن يتابع من ظنه منافسه مع غلبة الحكمة على
شعره ، حتى قال عليه السلام يوماً وهذا الشعر يروى أمامه : « أمية آمن شعره
وكفر قلبه » . وكان الوليد بن المغيرة يقول : « أئزل على محمد وأترك أنا كبير
قريش وسيدها ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفي سيد ثقيف ونحن
عظما القريتين » . وإلى هذا أشار قوله تعالى : « وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا
الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ، أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ، نَحْنُ
قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » . ولما استمع أبو سفيان وأبو جهل
والأخنس إلى القرآن ثلاث ليال متتابعة في القصة التي رويها ذهب الأخنس
إلى أبي جهل في بيته فسأله : يا أبا الحكم ، مارأيت فيما سمعنا من محمد ؟ فكان
جواب أبي جهل : « ماذا سمعت ؟ : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ،
أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا . حتى إذا تحاذينا على
الركب وكنا كفرسى رهان قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء افنتي ندرك
مثل هذه ؟ ! والله لا تؤمن به أبداً ولا نصدقه » . وللحسد وللتنافس والتنازع
في هذه النفوس البدوية من عميق الأثر ما يخطيء الانسان إذا هو حاول
الاعضاء عنه أو لم يقدره حق قدره . ويكفي أن تذكر مالهذه الشهوات على
النفوس جميعاً من سلطان ، لتقدر أن التخلص من أثرها يجب أن يسبقه تهذيب
طويل يصقل الفؤاد ويرفع حكم العقل على نزعات الهوى ويسمو بالعاطفة
وبالروح إلى مرتق يجعلك ترى الحقيقة على لسان خصمك بل عدوك هي

الحقيقة على لسان حميمك ووليك ، وتؤمن بأنك أكثر غنى بملك الحقيقة منك
بمال قارون وجاء الاسكندر وملك قيصر . هذه مكانة قل من يصل اليها إلا
من هدى الله قلبه للحق . أما سائر الناس فتعميهم العاجلة من مال ونسب ،
ويعميهم الاستمتاع باللحظة التي يعيشون فيها ، عن الارتفاع إلى هذه المعاني .
وهم في سبيل هذه العاجلة واقتناص تلك اللحظة يحاربون ويقاتلون ، لا يحول
شيء دون أن ينسب أحدهم أظفاره وأنيابه في عنق الحق والخير والفضيلة ،
وأن يدوس تحت أقدام دنسة أظهر معاني الكمال . ما بالك بهؤلاء العرب من
قريش وهم يرون محمداً يزداد أنصاره كل يوم عدداً ، ويخشون يوماً يكون
للحق الذي يعلنه السلطان عليهم وعلى من يدين لهم بالطاعة ، ويمتد من وراء
ذلك إلى العرب في مختلف أنحاء الجزيرة ! دون هذا قط الرقاب إذا استطاعوا
قطها . ودون هذا الدعاية والمقاطعة والحصار والتعذيب والتكليل يصبونه على
هام خصومهم صبا .

الفرع
من البعث
والحساب

وسبب ثالث منع قريشا من متابعة محمد . ذلك فزعهم من البعث ومن
عذاب جهنم يوم الحساب . فقد رأيتهم قوماً مكبين على اللهو مسرفين فيه
يتخذون من التجارة ومن الربا إليه الوسيلة ، ولا يرى الغنى منهم في شيء من
الأشياء رذيلة يتجافى عنها . ثم كان لهم من التقرب إلى أصنامهم ما يزعمون أنه
يكفر عن سيئاتهم وذنوبهم . بحسب الرجل أن يضرب القداح عند هبل قبل
أن يقدم على أمر ليكون ما تشير به عليه القداح أمر هبل . وبحسبه أن ينحر
للأصنام لتجوز الأصنام سيئاته وذنوبه ! . هو في حل من أن يقتل وينهب
ويرتكب الفحشاء ولا يعف عن الخنا ما دام قديراً على رشوة هذه الآلهة
بالقرايين والنحور ! . وهذا محمد يعلن إليهم في آيات مرعبة تنخلع من هولها
القلوب وتضطرب الأقدرة أن ربهم لهم بالمرصاد ، وأنهم مبعوثون في اليوم
الآخر خلقاً جديداً ، وأن أعمالهم هي وحدها الشفيع لهم . « فإذا جاءت

الصَّاحَّةُ . يَوْمَ يَفْرُ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ : وَأُمَّهُ وَأَبِيهِ ، وَصَاحَتِهِ وَبَنِيهِ ، لِكُلِّ
 أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ، وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ، ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ :
 وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ، أُولَئِكَ هُمُ الْكُفَرَةُ الْفَجَرَةُ .
 والصَّاحَّةُ نَجْمٌ « يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ . وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِزِّ ، وَلَا
 يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ، يُبْصِرُونَهُمْ ، يَوْمَذُ الْمَجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمَئِذٍ
 بَيْنِيهِ ، وَصَاحَتِهِ وَأَخِيهِ . وَفَصِيلَتُهُ الَّتِي تُؤْوِيهِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ
 يُنْجِيهِ ، كَلَّا إِنَّمَا لَطَى تَزَاعَةَ لِلشَّوَى . تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى وَجَمَعَ فَأَوْعَى »
 « يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ . فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ
 هَآؤُمُ أَقْرَبُوا كِتَابِيَّةً ، إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةً ، فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ فِي
 جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ، قَطُوفُهَا دَانِيَةٌ . كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ، وَأَمَّا
 مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَّةً ، وَلَمْ أَدْرُ مَا حِسَابِيَّةً ،
 يَا لَيْتَنِي كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ، مَا أُغْنِي عَنِّي مَالِيهِ ، هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ ، خَذُوهُ فَعَلُوهُ ، ثُمَّ
 الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ، إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ
 بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ، وَلَا يَحْضُرُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ . فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ
 وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينَ ، لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ . « أَتَلَوْتِ هَذَا ؟ أَسْمَعْتِ ؟
 أَلَمْ يَأْخُذْكَ الْهَوْلُ وَيَتَوَلَّكَ الْفَزَعُ ؟ وَلَيْسَ هَذَا إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا كَانَ يَنْذِرُ مُحَمَّدٌ بِهِ
 قَوْمَهُ . وَأَنْتِ تَتْلُوهُ الْيَوْمَ وَقَدْ تَلَوْتِهِ وَسَمِعْتِهِ مِنْ قَبْلِ مَرَاتٍ . وَأَنْتِ تَعِيدِ إِلَى
 ذَهْنِكَ إِذْ تَتْلُوهُ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ تَصْوِيرِ جَهَنَّمَ : « يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ
 وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ، وَكَلِمًا نَضَّجَتْ جُلُودَهُمْ بَدَّلْنَا هُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا
 الْعَذَابَ » . يَسِيرٌ عَلَيْكَ إِذْ تَرَى رُوعَ نَفْسِكَ أَنْ تَقْدِرَ مَا كَانَ يَتَوَلَّى قَرِيشًا
 وَالْمُتَرَفِينَ مِنْهَا خَاصَّةً ، إِذْ كَانُوا يَسْتَمْعُونَ إِلَى هَذَا الْقَوْلِ بَعْدَ إِذْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ
 مَا يَنْذِرُهُمْ مِنَ الْعَذَابِ بِنَجْوَةٍ فِي حَمِي آلِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ . وَيَسِيرٌ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ
 تَقْدِرَ مَبْلَغَ حَمَاسَتِهِمْ فِي تَكْذِيبِ مُحَمَّدٍ وَالدَّعَايَةِ ضَدَّهُ وَمَنَاوَأَتِهِ وَالتَّأْلِيبِ عَلَيْهِ .

تصوير
 يوم الحساب
 في القرآن

روى قريش
 سه

فهم لم يكونوا يعرفون البعث ولم يكونوا يعترفون بما يسمعون عنه . لم يكن أحدهم ليتوهم أنه مجزى عن عمل هذه الحياة بعد مفارقتها الحياة ، إنما كان خوفهم من المستقبل في هذه الحياة . كان خوفهم من المرض ومن الإصابة في الأموال والبنين وفي المكانة والجاه . كانت الحياة عندهم غاية الحياة ، فكان كل همهم منصرفاً لجمع كل أسباب الاستمتاع فيها ودفع كل ما يخشونه منها . وإذا كان المستقبل غيباً محجوباً أمامهم وكانت نفوسهم تحس أن من أعمالهم شرّاً قد يصيبهم الغيب من أجله بأذى ، فقد كانوا يتفادلون ويتطرون ، وكانوا يضربون القداح ، وكان عندهم السائح والبارح . وكانوا ينحرون للأوثان ، كل ذلك يذرعون به ضد ما يخافون من هذا المستقبل القريب في الحياة . أما الجزاء بعد الموت ! أما البعث والنشور يوم ينفخ في الصور ! أما الجنة التي أعدت للمتقين وجهنم التي أعدت للظالمين ! أما ذلك كله فلم يكن يدور بخاطرهم ، وذلك كله قد سمعوا به في دين اليهود وفي دين النصارى ، ولكنهم لم يسمعوا عنه تصويراً قوياً رهيباً كالذي يسمعونه الوحي على لسان محمد ، والذي يُنذره ، إن هم ظلوا فيما هم فيه من لهُو الحياة أو الاستكثار من المال بظلم الضعيف وأكل مال اليتيم وإهمال المسكين والغلو في الربا ، بعداب خالد في درك سقر تصطك القنوب فرعا من هوله مجرد سماع صورته ، ما بالك به محققاً تراه البصيرة جاثماً وراء الخطوة الضيقة التي يتخطى الانسان من جانب الحياة إلى ناحية الموت ، بعده البعث والنشور والرضا أو الثبور .

أما ما وعد الله المتقين جنة عرضها السموات والأرض لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قبلاً سلاماً سلاماً ، فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ، فكانت قريش في ريب منها ، وكان يزيد لها ريباً تعلقها بالعاجلة وحرصها على أن ترى هذا النعيم محققاً لها في حياة هذا العالم . وضيقها بالانتظار إلى يوم الجزاء على حين لم تكن هي تؤمن بيوم الجزاء .

ولقد يأخذ الانسان العجب كيف أفضلت قلوب العرب دون تصور الحياة الأخرى والجزء فيها في حين لا تزال معركة بين الخير والشر قائمة أمام هذا العالم الانساني منذ الأزل لم تعرف يوماً هوادة ولا هي اطمأنت يوماً إلى سكينته . كان المصريون القدماء قبل ألوف السنين من بعث محمد يزودون الميت بزاد الدار الآخرة ويضعون معه في أكفانه كتاب الموتى وأغنياته ونذره ، ويصورون على معابدهم صور الميزان والحساب والتوبة والعقاب . وكان الهنود يصورون رضا النفس الراضية في « الثرفانا » وتناسخ روح المسمى في صور من الخلق تتعذب أثناءها ألوف السنين وملايينها حتى تُسلمهم الحق فتطهر وتعود كرة أخرى إلى الخير طمعاً في بلوغ « الثرفانا » . ولم يكن مجوس فارس لينكروا معركة الخير والشر وآلهة الظلمة والنور . والموسوية والعيسوية تصفان حياة الخلد ورضا الله وغضبه . أفلم يبلغ هؤلاء العرب شيء من ذلك كله وقد كانوا أهل تجارة يتصلون في رحلاتهم وأسفارهم بأهل هذه النحل جميعاً ؟ وكيف لا يبلغهم وكيف لا تكون لهم صورة خاصة منه وهم أهل بادية أشد اتصالاً باللانهاية وأقرب لتصور ما يشتمل عليه هذا الوجود من أرواح تتبدى في لهب الظهيرة وفي غسق الليل ؟ أرواح خيِّرة وأخرى شريرة ! أرواح هي التي يحسبونها تسكن جوف الأصنام التي تقربهم إلى الله زلفى . لا ريب أنه كانت عندهم فكرة من هذا الغيب المحيط بهم . لكنهم كأهل تجارة ، كانت نفوسهم أكثر للواقع المحسوس قدراً ؛ وكأهل لهو وخمر أشد لجزء الآخرة إنكاراً . فكانوا يحسبون ما يلقاه الانسان في هذه الحياة من خير أو شر جزء عمله ولا جزء عنه بعد الحياة . ولذلك كان أكثر ما نزل من الوحي نذيراً وبشيراً قد نزل بهكمة في أول الرسالة ، حرصاً على الخلاص لأرواح هؤلاء الذين بعث محمد بينهم . ولقد كان جديراً بأن ينبههم إلى ما هم فيه من غي وضلالة ؛ جديراً بأن يرتفع بهم من عبادة الأصنام إلى عبادة الله الواحد القهار .

وفي سبيل هذا الخلاص الروحي لأهله وللناس كافة احتمل محمد ومن آمن به من ألوان الأذى وصور التضحية . ومن آلام النفس والجسد . ومن الارتحال عن الوطن ، ومن عداوة الأهل والولد ، ما مريبك شيء منه . وكانما كان محمد يرداد لأهله حباً وعلى خلاصهم حرصاً كلما ازدادوا إيذاءً ومساءة . ويوم البعث والحساب كان آية الآيات التي يجب أن يتنبهوا لها لتتقدم من شر وثنيهم ومن التورط في آثامهم . ولذلك لم يكن الوحي في السنوات الأولى يفتّر عن إنذارهم بها وتفتيح عيونهم عليها ، برغم إمعانهم في إنكارها وفي الازورار عنها . مما دعاهم إلى إشعال هذه الحرب الضروس التي لم تهدأ بينهم وبين محمد ثأرتها . حتى تم للإسلام النصر . وحتى أظهر الله دينه على الدين كله .

الفصل الثاني

من نقض الصحيفة الى الاسراء

فرار المسلمين من مكة الى شعاب الجبل - عدم اختلاطهم بالناس إلا
في الأشهر الحرم - قيام زهير وأصحابه في نقض الصحيفة - وفاة
أبي طالب وخديجة - إيذاء قريش محمداً - ذهاب محمد الى الطائف
وردد ثقيف إياه - الاسراء والمعراج

ظلت الصحيفة التي تعاقبت قريش فيها على مقاطعة محمد وحصار المسلمين نافذة ثلاث سنوات متتابعة، احتفى محمد وأهله وأصحابه خلالها في شعب من شعاب الجبل خارج مكة، يعانون الحرمان ألواناً، ولا يجدون في بعض الأحيان وسيلة إلى الطعام يدفعون به جوعهم. ولم يكن يتاح لمحمد ولا للمسلمين الاختلاط بالناس والتحدث اليهم إلا في الأشهر الحرم، حين يفد العرب الى مكة حاجين، وحين تضع الخصومات أوزارها، فلا قتل ولا تعذيب ولا اعتداء ولا انتقام. في هذه الأشهر كان محمد ينزل الى العرب يدعوهم الى دين الله ويبشرهم بشوابه ويؤذرهم عذابه. وكان ما أصاب محمداً من الأذى في سبيل دعوته شفيحه عند كثيرين: كانوا يسمعون من ذلك ما يزيدهم عليه عطفاً وعلى دعوته إقبالا. وهذا الحصار الذي أوقعته قريش واحتاله إياه صابراً في سبيل رسالته. كسب له كثيراً من القلوب التي لم تبلغ منها القسوة ما بلغت من قلب أبي جهل وأبي لهب وأمثالهما.

على أن طول الزمن وكثرة ما أصاب المسلمين من عنت قريش، وهم منهم وإخوانهم وأصهارهم وأبناء عمومته، جعل كثيرين يشعرون بفداحة

دعوة القبائل
في الأشهر
الحرم

حصار المسلمين
في الشعب

ما ارتكبوا من ظلم وقسوة : فلولا أن كان من أهل مكة رجال لهم على المسلمين عطف يحملون اليهم الطعام في الشعب الذي احتموا به لهلكوا جوعاً . وكان هشام بن عمرو من أحسن قریش في هذا الطرف عطفاً على المسلمين . كان يأتي بالبعير قد أوقره طعاماً أو بُراً فيسير به جوف الليل ، حتى إذا استقبل فيه الشعب خلع خطامه ثم ضرب على جنبه فدخل البعير الشعب عليهم . ولما ضاق بما يحتمل محمد وأصحابه من الأذى صدرأ ، مشى الى زهير بن أبي أمية ، وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب ، فقال : يا زهير : أفدرضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء وأخوالك حيث قد علمنا ، لا يتعاونون ولا يتبايعون منهم ولا ينكحون ولا ينكح اليهم ! . أما إني أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام ثم دعوته الى مثل ما دعاك اليه منهم ما أجابك اليه أبداً . وتعاهد الرجلان على نقض الصحيفة ، على أن يستعينوا على ذلك بغيرهم يقنعونهم به سرأ . واتفق معهما المطعم بن عدى وأبي البختري بن هشام وزمعة بن الأسود . وأجمع الخمسة أمرهم وتعاهدوا على القيام في أمر الصحيفة حتى يقضوها . وغدا زهير بن أمية فطاف بالبيت سبأ ثم نادى في الناس : يا أهل مكة ، أنا أكل الطعام ونابس الثياب وبنو هاشم هلكني لا يتعاونون ولا يتبايعون منهم . والله لا أقعد حتى تنشق هذه الصحيفة للقاطعة الظالمة . وما كاد أبو جهل يسمعه حتى صاح به : كذبت والله لا تنشق ! . فتجاوبت أصوات زمعة وأبو البختري والمطعم وهشام بن عمرو وكلهم يكذبون أباً جهل ويؤيدون زهيراً . وأدرك أبو جهل أن الأمر قضي بليل ، وأن القوم انفقوا عليه ، وأن مخالفتهم قد تثير شرأ ، فأوجس خيفة وتراجع . وقام المطعم ليشق الصحيفة فوجد الأرضة قد أكتتها إلا فاتحتها « باسمك اللهم » . وبذلك أتيج لمحمد وأصحابه أن يعودوا من الشعب الى مكة وأن يبيعوا قریشاً ويتعاونوا منها ، وإن بقيت صلات الفريقين كما كانت وبقي كل منهم متحفظاً ليوم يستعلي فيه على صاحبه .

نقض
 الصحيفة

ذهب بعض كتاب السيرة إلى أن الذين قاموا في نقض الصحيفة من كانوا لا يزالون على عبادة الأوثان ، ذهبوا إلى محمد يسألونه ، منعاً للشر ، أن يتصلح وقرشاً على شيء . كأن يسلم بأهلهم ولو يطوف بأصابعه ؛ فالتت نفسه إلى شيء من هذا تقديراً لجميلهم ، وقال فيما بينه وبين نفسه : « وما على لو فعلت والله يعلم أني بارء ؛ أو إلى أن هؤلاء الذين نقضوا الصحيفة وجماعة معهم خلوا بمحمد ذات ليلة إلى الصبح يكلمونه ويفخّمونه ويسودّونه ويقاربونه ويقولون له : أنت سيدنا ، ياسيدنا ؛ وأنهم ما زالوا به حتى كاد يقاربهم في بعض ما يريدون . وهاتان الروايتان هما بعض ما حدث به سعيد بن جبير في الأولى وقناة في الثانية . ويذكرون أن الله عصم محمداً بعد ذلك وأنزل عليه قوله : « وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ لَتَفْتِرِي عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذْنٌ لَا تَخَذُوكَ خَلِيلاً . وَلَوْ لَا أَنْ تَبْتَئَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرَكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً . إِذْنٌ لَأَدْفَنَّاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً » . وهذه الآيات قد نزلت في رأي أصحاب قصة الغرائق في تلك القصة المكذوبة كما قد رأيت . وهذان المحدثان يردّانها إلى قصة نقض الصحيفة . وقد نزلت هذه الآيات في حديث عطاء عن ابن عباس في وفد ثقيف إذ طلبوا إلى محمد أن يحرّم وادهم كما حرّمت مكة . شجرها وطيرها ووحشها ؛ فتردد النبي عليه السلام حتى نزلت . ومهما تكن الحقيقة الثابتة التي لا تختلف الروايات عليها للواقعة أو الوقائع التي نزلت الآيات فيها ، فإنها تصور ناحية من نواحي العظمة النفسية لمحمد ، كما تصور صدق إخلاصه تصويراً قوياً . وهذه الناحية تصوّرها كذلك الآيات التي نقلنا من سورة « عبس » ؛ ويشهد بها تاريخ محمد كله . تلك أنه كان يصارع الناس بأنه بشر مثلم يوحى ربه إليه لهدايتهم ، وأنه وهو بشر مثلم معترض للخطأ لولا عصمة الله إياه . فهو قد أخطأ حين عبس لابن أم مكتوم وتولّى عنه ، وهو قد كاد يخطيء فيما نزلت آيات الاسراء بشأنه ،

وكاد يفتن عن الذى أوحى إليه ليفترى غيره . فاذا نزل عليه الوحي ينهبه إلى ما صنع فى أمر الأعمى . وفى أمر هذه الفتنة التى كادت قريش تدفعه إليها ، صدق فى تبليغ هذا الوحي إلى الناس صدقه فى تبليغ رسالات ربه ، ولم يقف حائل من أنفة أو كبرياء ولا وقف اعتبار إنسانى ، حتى مما يسيع الفضلاء . دون إعلان هذا الحق فى أمر نفسه . فالحق إذاً . والحق وحده كان رسالته . وإذا كان احتمال أذى الغير فى سبيل ما تؤمن به بعض ما تطيق النفوس الكبيرة ، فإن إقرار العظيم بأنه كاد يُفْتَنُ ليس مما ألّف الناس حتى من العطاء؛ إنما يخفى هؤلاء أمثال ذلك من الأمر ويكتفون بحساب النفس عليه ولو حساباً عسيراً . فهو شيء إذاً أكبر من العظمة وأعظم من كل عظيم ذلك الذى يتيح للنفس هذا السمو فتكشف عن الحق كله . ذلك الشيء الأكبر من العظمة والأعظم من كل عظيم هو صدق الاخلاص فى إبلاغ رسالة الحق جل شأنه .

عاد محمد ومن معه من الشعب بعد تمزيق الصحيفة ، وجعل من جديد يذيع دعوته فى مكة وفى القبائل التى تجىء إليها فى الأشهر الحرم . ومع ما ذاع من أمر محمد بين قبائل العرب جميعاً وما كان من كثرة الذين اتبعوه ، فانه ظل لا يسلم أصحابه من أذى قريش ، ولا يستطيع هو لهم منعا . ولم تمض إلا شهور على نقض الصحيفة حتى فجأت محمداً فى عام واحد فاجعتان اهتزت لهما نفسه ، هما موت أبى طالب وخديجة جميعاً . وكان أبو طالب يومئذ قد تيف على الثمانين . فلما اشتكى وبلغ قريشاً أنه موفى على ختام حياته خشيت ما يكون بينهما وبين محمد وأصحابه من بعد ، وفيهم حمزة وعمر المعروفان بشدتها وبطشهما ؛ فشئى أشرافها إلى أبى طالب وقالوا له : يا أبا طالب ، أنت منا حيث ما قد علمت ، وحضرك ما ترى وتخوفنا عليك . وقد علمت الذى بيننا وبين ابن أخيك ، فادعه فخذله منا وخذ لنا منه ، ليكف عنا ونكف عنه ، وليدعنا وديننا وندعه ودينه .

موت
أبى طالب
و خديجة

وجاء محمد والقوم في حضرة عمه . فلما عرف ما جاءوا فيه قال : نعم كلمة واحدة تعطونها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم !! قال أبو جهل : نعم وأبيك ، وعشر كلمات . قال : تقولون : لا إله إلا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه . قال بعضهم : أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ . ثم قال بعضهم لبعض : والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئاً مما تريدون . وانطلقوا ، وتوفي أبو طالب والأمر بين محمد وقريش أشد مما كان .

ومن بعد أني طالب توفيت خديجة . خديجة التي كانت سند محمد بما توليه من حبا وبرها ومن رقة نفسها وطهارة قلبها وقوة إيمانها . خديجة التي كانت تهون عليه كل شدة وتزيل من نفسه كل خشية ، والتي كانت ملك رحمة يرى في عينها وعلى ثغرها من معاني الإيمان به ما يزيد إيماناً بنفسه . وتوفي أبو طالب الذي كان لمحمد حمي وملاذأ من خصومه وأعدائه . أي أثر تركت هاتان الفاجعتان الأليمتان في نفس محمد عليه السلام !! إنهما لجديرتان بأن تترك أقوى النفوس كليمته مضعضعة يدس إليها اليأس سموم الضعف ، ويدفع إليها الأسى والحزن من لواذع الهم المبرح ما يجعلها تنهد أمامهما ولا تفكر في شيء سواهما .

ما لبث محمد بعد أن فقد هذين النصيرين حتى رأى قريشا يزيد في إيذائه ، وكان من أيسر ذلك أن اعترضه سفيه من سفهاء قريش فرمى على رأسه تراباً . أفندرى ما صنع محمد ؟ دخل الى بيته والتراب على رأسه ؛ فقامت اليه فاطمة ابنته وجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي . وليس أوجع لنفوسنا من أن نسمع بكاء أبنائنا ، وأوجع منه أن نسمع بكاء بناتنا . كل دمة ألم تسيل من مآقي البنت قطرة حم يهوى على قلبنا فينبض انزعاجا . حتى لنكاد من شدة انزعاجه نصيح ألماً ؛ وكل أنه حزن تثير في الحشا وفي الكبد أنات ما أقساها ، تحتق لها حلوقنا وتكاد تهوى بالدمع من وقعها عيوننا . وقد كان محمد أبر أب

قريش يزداد
ذاهبا

بيناته وأحناه عليهم . فإذا تراء صنع لبكاء هذه البنت التي فقدت منذ قريب أمها . ولبكائها هي من أجل ما أصاب أباه ؛ ! لم يزد ذلك كله إلا توجهاً بقلبه لله وإيماناً بنصره إياه . قال لابنته وعينها تهمى بالدمع : لا تبكي يا بنية فإن الله مانعُ أباك . ثم كان يردد : والله ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب .

خروج محمد
إلى الطائف
(س ٢٦٠ م)

وكثرت مسادات قريش من بعد ذلك لمحمد حتى ضاق بهم ذرعاً ، فخرج إلى الطائف وحيداً منفرداً لا يعرف بأمره أحد يلتمس من ثقيف النصرة والمنعة بهم من قومه ويرجو إسلامهم . لكنه رجع منهم بشر جواب . فرجاهم ألا يذكروا من استنصاره بهم شيئاً حتى لا يشمت به قومه . أما هم فلم يسمعوا له بل أغروا به سفهاءهم يسبونهم ويصيحون به ، ففر منهم إلى حائط لعنتية وشيبة ابني ربيعة فاحتسب به . فرجع السفهاء عنه . وجلس إلى ظل شجرة من عنب وابنا ربيعة ينظران إليه وإلى ما هو فيه من شدة الكرب . فلما اطمان رفع عليه السلام رأسه إلى السماء ضارعاً في شكاية وألم وقال : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حياتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين . أنت رب المستضعفين وأنت ربي . إلى من تكلني ؛ إلى بعيد يتجهمني أو إلى عدو ملكته أمرى . إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي . ولكن عافيتك أوسع لي . أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو تحل علي سخطك . لك العتي حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك . »

عداس
النصراني

وطال تحديق ابنا ربيعة به ، فتحركت نفسها شفقةً عليه وإشفاقاً من سوء مآلتي ، فبعثا غلامهما النصراني عداساً إليه يقطف من عنب الحائط ؛ فلما وضع محمد يده فيه قال : باسم الله ، ثم أكل . ونظر عداس دهشاً وقال : هذا كلام لا يقوله أهل هذه البلاد فسأله محمد عن بلده ودينه : فلما علم أنه نصراني

نينوى قال له : أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟ فسأله عداس : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ قال محمد : ذاك أخي كان نبياً وأنا نبي . فأكب عداس على محمد يقبل رأسه ويديه وقدميه . وعجب ابنا ربيعة لما رأيا وإن لم يصر فهما ذلك عن دينهما ، ولم يمتعهما من التحدث إلى عداس حين عاد إليهما يقولان : يا عداس ، لا يصرفك هذا الرجل عن دينك فهو خير من دينه . وكان ما رأيا خفف من سخط ثقيف وإن لم يغير من جمودهم عن متابعة النبي . وعرفت قريش الأمر فازدادت لمحمد إبداء ، فلم يصرفه ذلك عن الدعوة إلى دين الله . وجعل يعرض نفسه في المواسم على قبائل العرب يدعوهم إلى الحق ويخبرهم أنه نبي مرسل ويسألهم أن يصدقوه . غير أن عمه عبد العزى ابن عبد المطلب أباً له لم يكن يدعه ؛ بل كان يتبعه أيتان ذهب ويحرض الناس على ألا يستمعوا له . ولم يكتف بعرض نفسه على قبائل العرب في مواسم الحج بمكة ، بل أتى كندة في منازلها وأتى كلباً في منازلهم وأتى بني حنيفة وبني عامر بن صعصعة فلم يسمع له منهم أحد . وردوه جميعاً رداً غير جميل ؛ بل رده بنو حنيفة رداً قبيحاً . أما بنو عامر فطمعوا إذا هوانتصر بهم أن يكون لهم الأمر من بعده ؛ فلما قال لهم : إن الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء ، لووا عنه وجوههم وردوه كما رده غيرهم .

محمد
 يعرض نفسه
 على القبائل

هل أصرت هذه القبائل على عناد محمد لمثل الأسباب التي أصرت قريش من أجلها على عناده ؛ لقد رأيت بنى عامر وكيف كانوا يطمعون في الملك إذا هم انتصروا وإياه . أما ثقيف فكان لها رأى آخر ؛ فهي فضلا على أنها كانت مصيف أهل مكة لجمال طقسها وحلو أعتها ، قد كانت مستقر عبادة اللات وكان لها هناك صنم يعبد ويحج إليه . فلو أن ثقيفا تابعت محمداً لفقدت اللات التي عندها مكاتبها ، ولقامت بينها وبين قريش خصومة ترك لاريب أثرها الاقتصادي في موسم الاصطياف . وكذلك كانت لكل قبيلة علة محلية اقتصادية كانت

رد القبائل
 دعوة

أقوى أثراً في إعراضها عن الاسلام من تعلقها بدين آباؤها وعبادة أصنامها .
 زاد عناد هذه القبائل محمداً عزلة ، كما زاده إمعان قريش في أذى أصحابه
 ألبماً وهمماً . وانقضى زمن الحداد على خديجة . ففكر في أن يتزوج لعله يجد في
 زوجه من العزاء ما كانت خديجة تأسوه به جراحه . على أنه رأى أن يزيد
 الأواصر بينه وبين السابقين إلى الاسلام متانة وقرين . فخطب إلى أبي بكر ابنته
 عائشة . ولما كانت ما تزال طفلة في السابعة من عمرها عقد عليها ولم يبن بها إلا
 بعد سنتين حين بلغت التاسعة . وفي هذه الأثناء تزوج من سودة أرملة أحد
 المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة وعادوا إلى مكة وماتوا بها . وأحسب
 القارئ يلمح ما في هاتين الصلتين من معنى يزداد وضوحاً من بعد في صلوات
 زواج محمد ومصاهرته .

محمد يخطب
 عائشة

ويتزوج
 من سودة

الاسراء
 (س ٢٢١)

في هذه الفترة كان الاسراء والمعراج . وكان محمد ليلة الاسراء في بيت
 ابنة عمه هند ابنة أبي طالب ، وكنيتها أم هانيء . وقد كانت هند تقول : « إن
 رسول الله نام عندي تلك الليلة في بيتي فصلى العشاء الآخرة ثم نام ونامنا . فلما
 كان قبيل الفجر أهبنا رسول الله ؛ فلما صلى الصبح وصلينا معه قال : يا أم هانيء
 لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادي ، ثم جئت بيت المقدس
 فضليت فيه ثم قد صليت صلاة الغداة معكم الآن كما ترين . فقلت له يانبي الله
 لا تتحدث بها الناس فيكذبوك ويؤذوك ؛ قال : والله لأحدثنهموه . »

الاسراء بالروح
 أم بالجسد

ويضيف أصحاب الرأي بأن الاسراء والمعراج إنما كانا بروح محمد عليه
 السلام إلى حديث أم هانيء هذا ما كانت تقول عائشة : ما فقد جسد رسول الله
 صلى الله عليه وسلم ولكنه أسرى بروحه ، وأن معاوية بن أبي سفيان
 كان إذا سئل عن مسرى الرسول قال : كانت رؤيا من الله صادقة . وهم يستشهدون
 إلى جانب ذلك كله بقوله تعالى في سورة الاسراء : « وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا
 الَّتِي آرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ » . وفي رأى آخرين أن الاسراء من مكة إلى

بيت المقدس كان بالجسد، مستدلين على ذلك بما ذكر محمد أنه شاهده في البادية أثناء مسراه مما سيأتي خبره، وأن المعراج الى السماء كان بالروح . ويذهب غير هؤلاء وأولئك إلى أن الاسراء والمعراج كانا جميعاً بالجسد . وقد كثرت مناقشات الفقهاء والمتكلمين في هذا الخلاف حتى كتبت فيه ألوف الصحف . ولنا في حكمة الاسراء رأى بُدِيه ، ولنا ندرى لعله قد سبقنا إليه أحد . لكننا قبل أن نبدي هذا الرأى ، بل لكي نبديه ، يجب أن نروى قصة الاسراء والمعراج على نحو ما جاءت به كتب السيرة .

سرد المستشرق درمنجم هذه القصة مستخلصة من مختلف كتب السيرة في عبارة طليّة شيقّة هذه ترجمتها : « في منتصف ليلة بلغ السكون فيها غاية جلاله وصمتت فيها طيور الليل نفسها وسكنت الضواري وانقطع خرير الغدران وصفير الرياح استيقظ محمد على صوت يصبح به : أيها النائم قم . وقام فاذا أمامه الملك جبريل وضآء الجبين أبيض الوجه كيباض الثلج مرسلٌ شعره الأشقر، واقفاً في ثيابه المزركشة بالدرّ والذهب ومن حوله أجنحة من كل الألوان ترعش، وفي يده دابة عجيبة هي البراق . لها أجنحة كأجنحة النسر، انحنت أمام الرسول فاعتلاها وانطلقت به انطلاق السهم فوق جبال مكة ورمال الصحراء متجهة الى الشمال . . . وصحبهم الملك في هذه الرحلة ثم وقف بهم عند جبل سيناء حيث كلم الله موسى ، ثم وقف بهم مرة أخرى في بيت لَحْمٍ حيث وُلد عيسى، وانطلقوا بعد ذلك في الهواء في حين حاولت أصوات خفية أن تستوقف النبي الذي رأى في إخلاصه لرسالته أن ليس لغير الله أن يستوقف حيث شاء دابته . وبلغوا بيت المقدس ، فقيّد محمد دابته وصلى على أطلال هيكل سليمان ومعه إبراهيم وموسى وعيسى . ثم أتى بالمعراج فارتكز على صخرة يعقوب وعليه صعد محمد سراعاً الى السموات . وكانت السماء الأولى من فضة خالصة علقت اليها النجوم بسلاسل من ذهب ، وقد قام على

تصوير
الاسراء في
كتب السيرة

كلّ منها ملك يحرسها حتى لا تعرج الشياطين الى علوّ عليها أو يستمع الجن منها الى أسرار السماء . في هذه السماء ألقى محمد التحية على آدم ، وفيها كانت صور الخلق جميعاً تسبح بحمد ربها . والتقى محمد في السموات الست الأخرى بنوح وهارون وموسى وإبراهيم وداود وسليمان وإدريس ويحيى وعيسى ، ورأى ملك الموت عزرائيل ؛ بلغ من ضخامته أن كان ما بين عينيه مسيرة سبعين الف يوم ، ومن سلطانه أن كان تحت إمرته مائة الف فرقة . وكان يسجل في كتاب ضخّم أسماء من يولدون ومن يموتون . ورأى ملك الدمع يبكي خطايا الناس ، وملك النقمة ذا الوجه النحاسي المتصرف في عنصر النار والجالس على عرش من لُهب . وقد رأى كذلك ملكاً ضخماً نصفه من نار ونصفه من لُجج وحوله من الملائكة فرقة لا تفتر عن ذكر الله قائلة : اللهم قد جمعت الثلج والنار وجمعت كل عبادك في طاعة سنّتك . وكان في السماء السابعة مقر أهل العدل ملك أكبر من الأرض كلها له سبعون الف رأس ، في كل رأس سبعون الف فم ، في كل فم سبعون الف لسان ، يتكلم كل لسان سبعين الف لغة ، من كل لغة سبعين الف لهجة ، كلفها تسبح بحمد الله وتقدّس له .

« وفيما هو يتأمل هذا الخلق الغريب اذا به ارتفع الى قمة سِدْرَةِ المنتهى ، تقوم الى يمين العرش وتُظَلُّ ملايين الملايين من الأرواح الملائكية . وبعد أن تخطى في أقل من لمح البصر بحاراً شاسعة ومناطق ضياء يعشى وظلمة قائمه وملايين الحجب من ظلمات ونار وماء وهواء وفضاء يفصل بين كل واحد منها وما بعده مسيرة خمسمائة عام ، تخطى حجب الجبال والسهال والسر والجلال والوحدة . قامت وراءها سبعون الف فرقة من الملائكة سجداً لا يتحركون ولا يُؤدّن لهم فينطقون . ثم أحس بنفسه يرتفع إلى حيث المولى جل شأنه ، فأخذ الدهش . وإذا الأرض والسماء مجتمعتان لا يكاد يراهما ، وكأنما ابتلعهما الفناء فلم ير منهما إلا حجم سمسة في مزرعة

واسعة . وكذلك يجب أن يكون الانسان في حضرة ملك العالم .
 ثم كان في حضرة العرش وكان منه قاب قوسين أو أدنى ، يشهد الله
 بعين بصيرته ، ويرى أشياء يعجز اللسان عن التعبير عنها وت فوق كل ما يحيط
 به فهم الانسان . ومدّ العلي العظيم يداً علي صدر محمد والأخرى علي كتفه .
 فأحس النبي كأنه أُلجج إلى فقّاره . ثم بسكينة راضية وفناء في الله مستطاب .
 « وبعد حديث لم تحترم كتب الأثر المدققة قداسته أمر الله عبده أن
 يصلي كل مسلم خمسين صلاة في كل يوم . فلما عاد محمد يهبط السماء التقى بموسى ،
 فقال ابن عمران له :

« كيف ترجو أن يقوم أتباعك بخمسين صلاة في كل يوم ؟ لقد
 جربت الناس قبلك وحاولت مع أبناء إسرائيل كل ما يدخل في الطوق محولته ،
 فصدّقتني وعدتني إلى ربنا واضلّب إليه أن ينقص الصلوات .
 وعاد محمد فنقص عدد الصلوات إلى أربعين وجدها موسى فوق الطاقة ،
 وجعل يرد خليفته في النبوة إلى الله مرّات عدة حتى انتهت الصلوات إلى خمس .
 » وذهب جبريل بالنبي فزار الجنة التي أعدت للمتقين بعد البعث : ثم
 عاد محمد علي المعراج إلى الأرض ، ففك البراق وامتطاء وعاد من بيت المقدس
 إلى مكة على الدابة المجنحة .

هذه رواية المستشرق درمنجيم عن قصة الاسراء والمعراج . وأنت تقع
 علي ما قصه مشوراً في كثير من كتب السيرة جميعاً ، وإن كنت تجد فيها جميعاً
 خلافاً بزيادة ونقص في بعض نواحيها . من ذلك مثلاً ما روى ابن هشام علي لسان
 النبي عليه السلام بعد أن لقي آدم في السماء الأولى أنه قال : « ثم رأيت رجالاً
 لهم مشافر كمشافر الابل . في أيديهم قطع من نار كالأفهار يقذفونها في أفواههم
 فتخرج من أديبارهم . فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء أكلة مال اليتامى
 ظلماً . ثم رأيت رجالاً لهم بطون لم أر مثاهم قط بسبيل آل فرعون يبرون

رواه
 ابن هشام
 عن الاسراء

عليهم كالابل المهيومة حين يعرضون على النار يطئونهم لا يقدرنون على أن يتحولوا من مكانهم ذلك. قلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء أكلة الربا . ثم رأيت رجالا بين أيديهم لحم سمين طيب إلى جانبه لحم غث متين . يأكلون من الغث المتين ويتركون السمين الطيب . قلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يتركون ما أحل الله من النساء ويذهبون إلى ما حرم الله عليهم منهن . ثم رأيت نساء معلقات بشدتين ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء اللاتي أدخلن على الرجال من ليس من أولادهم . . . ثم دخل بي الجنة فرأيت فيها جارية لعساء . فسألته لمن أنت ؟ وقد أعجبتني حين رأيتها : فقالت : لزيد بن حارثة ، فبشر بها رسول الله (صلعم) زيد بن حارثة . .

وأنت واجد في غير ابن هشام من كتب السيرة وفي كتب التفسير أموراً أخرى غير هذه . ومن حق المؤرخ أن يتساءل عن مبلغ التدقيق والتحريص في أمر ذلك كله وما يمكن أن يسند منه إلى النبي بسند صحيح وما يمكن أن يكون من خيال المتصوفة وغيرهم . ولئن لم يكن ها هنا مجال للحكم في ذلك أو لاستقصائه . كما أنه ليس ها هنا مجال القول في المعراج والاسراء بالجسم ، أو المعراج بالروح والاسراء بالجسم ، أو المعراج والاسراء جميعاً بالروح ، فما لاشك فيه أن لكل رأى من هذه الآراء سنداً عند الفقهاء والمتكلمين ، وأنه لا جناح على من يقول بواحد دون غيره من هذه الآراء . فمن شاء أن يرى أن الاسراء والمعراج كانا بالروح فله من السند ما قدمنا وما تكرر في القرآن وعلى لسان الرسول : **إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ** ، وأن كتاب الله هو وحده معجزة محمد ، **وَإِن لَّيْلَهُ لَا يَخْفَىٰ لِيَنَّ بِشْرَكَ بِهِ وَيَخْفَىٰ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ** . . . ولصاحب هذا الرأي أكثر من غيره أن يسأل عن حكمة الاسراء والمعراج ما هي . وهنا موضع الرأي الذي نريد أن نبديه ولا ندرى لعله قد سبقنا إليه أحد .

ففي الاسراء والمعراج في حياة محمد الروحية معنى سام غاية السمو . معنى أكبر من هذا الذي يَصَوِّرون والذي قد يشوب بعضهم من خيال المتكلمين المخلص حظاً غير قليل . فهذا الروح القوي قد اجتمعت فيه في ساعة الاسراء والمعراج وحدة هذا الوجود بالغة غاية كمالها . لم يقف أمام ذهن محمد وروحه في تلك الساعة حجاب من الزمان أو المكان أو غيرهما من الحجب التي تجعل حكماً نحن في الحياة نسبياً محدوداً بحدود قوانا المُحِسَّة والمدبَّرَة والعاقلة . تداعت في هذه الساعة كل الحدود أمام بصيرة محمد واجتمع الكون كله في روحه . فوعاه منذ أزله إلى أبده وصوره في تطوُّر وحدته إلى الكمال عن طريق الخير والفضل والجمال والحق في مغالبتها وتغلُّبها على الشر والنقص والقبح والباطل بفضل من الله ومغفرة . وليس يستطيع هذا السمو الا قوة فوق ما تعرف الطبائع الانسانية . فاذا جاء بعد ذلك ممن اتبعوا محمداً من عجز عن متابعتة في سمو فكرته وقوة إحاضته بوحدة الكون في كماله وفي جهاده لبلوغ هذا الكمال ، فلا عجب في ذلك ولا عيب فيه . والممتازون من الناس والموهوبون منهم درجات . وبلوغنا الحقيقة معرض دائماً لهذه الحدود التي تعجز قوانا عن تخطيها . واذا كان من القياس مع الفارق أن نذكر ، لمناسبة ما نحن الآن بصدده ، قصة أولئك المكشوفين الذين أرادوا أن يعرفوا ثقيل ما هو : فقال أحدهم : إنه جبل طويل لأنه صادف ذنبه . وقال الآخر : إنه غليظ كالشجرة لأنه صادف رجله ، وقال ثالث : إنه مدبب كالرمح لأنه صادف سنه ، وقال رابع : إنه مستدير ملتو كثير الحركة لأنه صادف خرطومه ، فان هذا المثل مقروننا إلى الصورة التي تتكوّن لدى المبصر من الفيل الأول ما يراه ، يسمح لنا بموازنة ما بين إدراك محمد كنه وحدة الكون والوجود وتصويره في الاسراء والمعراج حيث يتصل بأول الزمن من قبل آدم إلى آخره يوم البعث ، حيث تنعدم نهائية المكان ، إذ يُظَلَّ بعين البصيرة من لدن سدرة المنتهى إلى هذا الكون يصبح أمامه سديماً ،

وبين ما يستطيع الكثيرون إدراكه من حكمة هذا الاسراء والمعراج . إذ يقفون عند تفاصيل ليست من وحدة الكون وحياته الا كذرات الجسم بل كالذرات العالقة به من غير أن يتأثر بها نظامه . أين الواحدة من هذه الذرات من حياة هذا الجسم ومن نبض قلبه وإشراق روحه وضياء ذهنه وامتلأته بالحياة التي لا تعرف حدًا لأنها تتصل من الوجود بكل حياة الوجود . والاسراء بالروح هو في معناه كالاسراء والمعراج بالروح جميعاً سموًا وجمالًا وجلالًا . فهو تصوير قوى للوحدة الروحية من أزل الوجود الى أبده . فهذا التعريج على جبل سيناء حيث كلم الله موسى تكليماً ، وعلى بيت لحم حيث ولد عيسى ؛ وهذا الاجتماع الروحي ضمت الصلاة فيه محمداً وعيسى وموسى وإبراهيم ، مظهر قوى لوحدة الحياة الدينية على أنها من قوام وحدة الكون في مؤثره الدائم الى الكمال .

والعلم في عصرنا الحاضر يقر هذا الاسراء بالروح ويقر المعراج بالروح؛ حيث تتقابل القوى السليمة يشع ضياء الحقيقة ، كما أن تتقابل قوى الكون في صورة معينة قد طوع «الماركوني» إذ سلط تياراً كهربائياً خاصاً من سفينة التي كانت راسية بالبندقية أن يضئ بقوة موجات الأثير مدينة سدني في أستراليا . وفي عصرنا هذا يقر العلم نظريات قرارة الأفكار ومعرفة ما تنطوي عليه، كما يقر انتقال الأصوات على الأثير بالراديو وانتقال الصور والمكتوبات كذلك مما كان يعتبر فيما مضى بعض أفانين الخيال . وما تزال القوى الكمية في الكون تتكشف لعلنا كل يوم عن جديد . فاذا بلغ روح من القوة ومن السلطان ما بلغت نفس محمد فأسرى به الله ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي بارك حوله ليريه من آياته ، كان ذلك مما يقر العلم، وكانت حكمة ذلك هذه المعاني القوية السامية في جمالها وجلالها والتي تصور الوحدة الروحية ووحدة الكون في نفس محمد تصويراً صريحاً ، يستطيع الانسان أن يصل الى

الاسراء
والعلم الحديث

إدراكه إذ هو حاول السمو بنفسه عن أوهام العاجلة في الحياة ، وحاول الوصول الى كنه الحقيقة العليا ليعرف حقيقة مكانه ومكان العالم كله منها .

لم يكن العرب من أهل مكة ليستطيعوا إدراك هذه المعاني . لذلك ما لبث محمد أن حدثهم بأمر إسرائه حتى وقفوا عند الصورة المادية من أمر هذا الاسراء وإمكانه وعدم إمكانه ، وحتى ساور أتباعه والذين صدقوه أنفسهم بعض الريب فيما يقوله . وقال كثيرون : هذا والله الأمر البين . والله إن العير لتطرد شهراً من مكة الى الشام مدبرة وشهراً مقبلة ، أذهب محمد ذلك في ليلة واحدة ويرجع الى مكة ! . وارتد كثير من أسلم . وذهب من أخذتهم الريبة في الأمر الى أبي بكر وحدثوه حديث محمد : فقال أبو بكر : إنكم تكذبون عليه . قالوا : بلى ، ها هو ذلك في المسجد يحدث الناس . قال أبو بكر : والله لئن كان قد قاله لقد صدق ، إنه ليخبرني إن الخبر ليأتيه من الله من السماء الى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه . وجاء أبو بكر الى النبي واستمع اليه يصف بيت المسجد ، وكان أبو بكر قد جاءه . فلما أتم النبي صفة المسجد قال له أبو بكر : صدقت يا رسول الله . ومن يومئذ دعا محمد أبا بكر بالصديق . ويدل الذين يقولون : إن الاسراء بالجسد على رأيهم بأن قريشاً لما سمعت بأمر إسرائه سألته وسأله بعض الذين آمنوا به عن آية ذلك ، فانهم لم يسمعوا بشيء من مثله . فوصف لهم عيراً مرتبها في الطريق فضلت دابة من العير فدلهم عليها ، وأنه شرب من عير أخرى وغطى الاناء بعد أن شرب منه . فسألت قريش في ذلك فصدقت العيران ما روى محمد عنهما . وأحسبك لو سألت الذين يقولون بالاسراء بالروح في هذا لما رأوا فيه عجباً بعد الذي عرف العلم في وقتنا الحاضر من إمكان التنويم المغناطيسي التحدث عن أشياء واقعة في جهات نائية . ما بالك بروح يجمع وحدة الحياة الروحية في الكون كله ويستطيع بما وهبه الله من قوة أن يتصل بصورة الحياة من أزل الكون الى أبده .

ريبة قريش
وارتداد بعض
من أسلم

القول
بالاسراء
بالجسد

الفصل الثاني

بيعتا العقبة

رد القبائل لمحمد ردًا غير جميل - بشار الفوز من ناحية يثرب
صلوات اليهود بالأوس والخزرج - إسلام بعض اليربيين
وقعة بعاث - بيعة العقبة الصغرى - مصعب بن عمير - عوده مع
الحاج إلى مكة بعد عام - المسامون من يثرب - بيعة العقبة الكبرى
أبناؤها عند قريش - اتجارها بمحمد كي تقتله
إذنه لمسلمى مكة بالهجرة إلى يثرب

تصمغ
المسلمين بعد
الاسراء

لم تدرك قريش معنى الاسراء ، ولم يدرك كثير من أسلموا معناه الذي
قدّمنا . لذلك انصرف جماعة من هؤلاء عن متابعة محمد بعد أن اتبعوه زمنًا
طويلا . ولذلك ازدادت مسامات قريش لمحمد وللمسلمين حتى ضاقوا بها
ذرعاً . ولم يبق لمحمد رجاء في نصره القبائل إياه بعد إذ رده ثقيف من
الطائف بشر جواب ، وبعد إذ رده كندة وكتب وبنو عامر وبنو حنيفة
لمعرض نفسه عليها في موسم الحج . وشعر محمد بعد ذلك كله بأنه لم يبق له
مطمع في أن يهدى إلى الحق من قريش أحداً ، كما أن غير قريش من القبائل
التي تجاورها ، والتي تجيء من مختلف أنحاء بلاد العرب حاجّة إليها ، قد رأّت
ما وصل محمد إليه من عزلة ، وما أحاطته به عداوة تجعل كل نصير
له عدواً لها وعوناً عليها . ومع اعتزاز محمد بحمزة وعمر ، ومع طمأنينته إلى
أن قريشاً لن تنال منه أكثر مما نالت لمنعته بقومه من بني هاشم وبنو عبد المطلب ،

فانه رأى رسالة ربه تقف في دائرة من اتبعه إلى يومئذ ، ممن يوشكون لقلتهم ولضعفهم أن يبدوا أو أن يُفْتَنُوا عن دينهم ، إذا لم يأتهم نصر الله والفتح . وتطاولت الأيام بحمد وهو يزداد بين قومه عزلة وتزداد قريش عليه حقداً . فهل ضعفت هذه العزلة من نفسه أو أوهنت له عزماً ؟ ! كلا ! بل زاده الإيمان بالحق الذي جاءه من ربه سمواً على هذه الاعتبار التي تفتت في عضد ذوى النفوس العادية ، ولا تزيد أصحاب النفوس الممتازة إلا سمواً وإيماناً . وظل محمد وأصحابه من حوله وهو أشد ما يكون في عزلته ثقة بنصر الله له وإعلاء دينه على الدين كله . لم ترزعزع منه أعاصير الحقد ، بل جعل يقيم بمكة طوال عامه لا يعنيه أن ذهب مال خديجة وماله ، ولا يضعضع من نفسه ضيق ذات يده ، ولا يتطلع بروحه الى شيء غير هذا النصر الذي لا ريب عنده في أن الله مؤتيه إياه . فاذا جاء موسم الحج واجتمع الناس من أنحاء شبه الجزيرة بمكة ، بدأ القبائل فدعاها الى الحق الذي جاء به ، غير آبه أن تبدى هذه القبائل الرغبة عن دعوته والاعراض عنه ، أو ترده ردداً غير جميل . ويتحرش به بعض سفهاء قريش حين إبلاغه الناس رسالته وينالونه بالسوء . فلا تغير مساهاتهم رضا نفسه وطمأنينته الى غده . إن الله ذا الجلال قد بعثه بالحق ، فهو لا ريب ناصر هذا الحق ومؤيده . وهو قد أوحى اليه أن يجادل الناس بالتي هي أحسن « فاذا الدِّي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ » وأن يقول لهم قولاً ليئناً لعالمهم يذكرون أو يخشون . فليصبر على أذاهم ، إن الله مع الصابرين .

نات محمد

ولم يطل بمحمد الانتظار أكثر من بضع سنين حتى بدت له في الأفق تباشير الفوز آتية طلائعها من ناحية يثرب . ولمحمد يثرب علاقة غير علاقة التجارة : له بها علاقة قرين ، وله فيها قبر كانت أمه تحج اليه قبل موتها في كل عام مرة . أمّا ذوو قريبه بها فأولئك بنو النجّار أحوال جدّه عبد المطلب .

تباشير الفوز
من يثرب

وأما ذلك القبر فقبر أبيه عبد الله بن عبد المطلب . الى هذا القبر كانت تحج
آمنة الزوج الوفية ، وكان يحج عبد المطلب الأب الذي فقد ابنه وهو في شرح
شبابه وريعان قوته . وقد صحب محمد أمه الى يثرب في السادسة من عمره فزار
معها قبر أبيه ثم فقلا عائدين ، فرضت آمنة في الطريق وماتت ودفنت بالأبواء
في منتصف الطريق بين يثرب ومكة . فلا عجب أن تبدأ تبشير الفوز لمحمد
من ناحية بلد له به هذه الصلة ، والى ناحيته كان يتجه حين يصلى جاعلاً قلبه
المسجد الأقصى بيت المقدس . مقام سلفيه موسى وعيسى . ولا عجب أن تهيه
المقادير ليثرب هذا الحظ ، ليتم لمحمد بها النصر ، وللإسلام بها الفوز والانتشار .
هيات المقادير ليثرب هذا الحظ بما لم تهيه لبلد آخر . فقد كان الأوسُ
والخزرجُ من عبّاد الأوثان يثرب يتجاورون مع يهودها جواراً كثيراً
ماشابته البغضاء ، وهاعدتى البغضاء الى القتال . وإن التاريخ ليروى أن المسيحيين
في الشام من كانوا يتبعون الدولة الرومانية الشرقية ، وكانوا يهتدون اليهود أشد
المقت لا اعتقادهم أنهم هم الذين صلبوا المسيح ونكّلوا به ، قد أغاروا على
يثرب ليقتلوا يهودها ، فلما لم يظفروا بهم استعانوا بالأوس والخزرج
لاستدراجهم ، ثم قتلوا عدداً منهم غير قليل مما أنزل اليهود عن مكان السيادة
الذي كان لهم ، ورفع عرب الأوس والخزرج الى مكانة غير مكانة العمال التي
كانوا مقصورين من قبل عليها . وقد حاول العرب من بعد ذلك أن يوقعوا
باليهود مرة أخرى ليزدادوا في المدينة العامرة بالزراعة وبالماء سلطاناً ، فنجحوا
في غدرهم بعض النجاح ، ثم فطن اليهود لوقعتهم بهم . بذلك تمكنت العداوة
والبغضاء في نفوس يهود يثرب لأوسها والخزرج ، وفي نفوس الأوس والخزرج
 لليهود . ورأى أتباع موسى أن مقابلة القتال بالقتال قد تهوى بهم الى الفناء ، أن
قد يجد الأوس والخزرج حلفاً من بني دينهم العرب على أهل الكتاب هؤلاء .
لذلك سلكوا في سياستهم خطة غير خطة الغلب في المعارك ، فاجتروا الى سياسة

الأوس
والخزرج
واليهود

الوقية والتفريق : إذ دسوا بين الأوس والخزرج وملثوا نفوس هؤلاء وأولئك حفيظة بعضهم على بعض ، مما جعل هؤلاء وأولئك على أهبة مستمرة للقتل والقتال ، وجعل اليهود بآمن منهم ومن عدوانهم ، يزيدون في تجارتهم وفي ثروتهم ويستعيدون ما فقدوا من سيادة ، ويستردون ما أضاعوا من دار ومن عقار .

كان لجوار اليهود والعرب يثرب فيما خلا هذا النزاع على السيادة والسلطان أثر آخر أعمق عند الأوس والخزرج مما كان عند سائر أهل جزيرة العرب، ذلك هو الأثر الروحي. فقد كان اليهود، كأهل كتاب ودعاة وحدانية، يأخذون على جيرانهم الوثنيين اتخاذهم الأوثان زُلْفَى إلى الله وينذرونهم بعث نبي يقضى عليهم ويشايح اليهود . ولم تصل هذه الدعوة إلى تهويد العرب لسببين . أولهما : أن ما كان بين النصرانية واليهودية من حرب جعل يهود يثرب لا يطعمون في أكثر من السلامة التي تهيء لهم سعة التجارة . والثاني : أن اليهود يحسبون أنفسهم شعب الله المختار ، ولا يرضون أن تكون لشعب غيرهم هذه المكانة ، فلا يدعون لذلك لدينهم ولا يرضونه يخرج من بني إسرائيل. برغم هذين السببين كان اتصال الجوار والتجارة في يثرب بين اليهود والعرب من شأنه أن يجعل أوس يثرب وخزرجها أكثر استماعاً للحديث في الشؤون الروحية وفي سائر شؤون الدين من غيرهم من العرب . يدلك على ذلك أن العرب لم تستجب لدعوة محمد الروحية مثلما استجابت يثرب .

كان سويد بن الصامت من كبار أشراف يثرب، حتى كان قومه يسمونه الكامل لجلده وشعره وشرفه ونسبه . وفي هذه الفترة التي تحدث عنها قدم سويد مكة حاجاً ، فتصدى له محمد فدعاه إلى الله وإلى الإسلام. فقال له سويد : لعل الذي معك مثل الذي معي . قال محمد : وما الذي معك ؟ قال : حكمة لقمان . فطلب إليه محمد أن يعرضها عليه فعرضها : فقال له محمد : إن هذا الكلام حسن

الأثر الروحي
لجوار اليهود

سويد بن
الصامت

والذي معي أفضل . هو قرآن أنزله الله على هدى ونورا . وتلا عليه القرآن ودعاه الى الاسلام : فطاب سويد نفساً بما سمع وقال : هذا حسن ، وانصرف يفكر فيه . وإن قوماً ليقولون حين قتلته الخزرج : إنه مات مسلماً .

وليس سويد بن الصامت هو المثل الوحيد الذي يدل على أثر تجاور اليهود والعرب يثرب من الناحية الروحية . فقد كان بين الأوس والخزرج من العداوة التي بث اليهود ما علمت . وكان كل منهم يلتزم الحلف من قبائل العرب ليقاتل الآخر . وكان من ذلك أن قدم أبو النخيسر أنس بن رافع مكة ومعه فتية من بني عبد الأشهل فيهم إياس بن معاذ يلتزمون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج . وسمع بهم محمد فأتاهم فجلس إليهم ودعاهم الى الاسلام وتلا عليهم القرآن . فقال إياس بن معاذ ، وكان غلاماً حدثاً ، : أي قوم ، هذا والله خير مما جئتم فيه . وعاد القوم الى يثرب لم يسلم منهم غير إياس ؛ لأنهم كانوا في شغل بالتمس الحلف استعداداً لواقعة بعاث التي اصطلح الأوس والخزرج جميعاً بنارها بعد قليل من عود أبي الحيسر ومن معه من مكة . لكن كلام محمد عليه السلام ترك في نفوسهم بعد هذه الواقعة من الأثر ما دعا الأوس والخزرج جميعاً ليلتمسوا في محمد نبياً ورسولاً وحليفاً وإماماً .

إياس بن معاذ

كانت وقعة بعاث بعد قليل من عود أبي الحيسر ومن معه إلى يثرب : واقعة بعاث
اقتتل فيها الأوس والخزرج قتالاً شديداً أملت عداوة متأصلة ، حتى لكان كل قوم يسائل بعضهم بعضاً إذا هم انتصروا : أيقون على أصحابهم أم يستأصلونهم ويجهزون عليهم . وكان أبو أسيد حضير الكنائب على رأس الأوس ، وكان في نفسه من الحقد على الخزرج أشده . فلما بدأ القتال دارت على الأوس الدائرة فولوا فراراً نحو نجد . فغيرتهم الخزرج . فلما سمع حضير تعبيرهم طعن بسنان رمحاً فخذته ونزل وصاح : وأعقره ! والله لأأريم حتى أقتل ، فان شتم يامعشر الأوس أن تسلموني فافعلوا . فعاد الأوس للقتال وبهم من الألم بما

أصاهم ما جعلهم يستبسلون مستبشرين ، حتى انهزمت الخزرج شر هزيمة .
وجعلت الأوس تحرق عليها نخلها ودورها ، حتى أجارها سعد بن معاذ الأشهلي :
وأراد حُصير أن يأتي الخزرج قصرأ قصرأ ودارأ دارأ يقتل ويهدم حتى
لا يبقى منهم على أحد ، لولا أن منعه أبو قيس بن الأسلت إبقاء على بني دينهم :
« فجوارهم خير من جوار الثعالب » .

واستعادت اليهود بعد هذا اليوم مكانتها يثرب ، حتى رأى المنتصر
والمهزوم من الأوس والخزرج جميعاً سوء ما صنعوا ، وفكروا في عاقبة أمرهم .
وتطأعوا إلى إقامة ملك عليهم ، واختاروا لذلك عبد الله بن محمد من الخزرج
المهزومة لمكانته وحسن رأيه . لكن تطوّر الأحوال تطوّرأ سريعاً حال دون
ما أرادوا . ذلك أن نفرأ من الخزرج خرجوا إلى مكة في موسم الحج ، فلقبهم
محمد فسألهم عن شأنهم وعرف أنهم من موالي يهود . وقد كان اليهود يثرب
يقولون لهم إذا اختافوا وإياهم : إن نبياً مبعوثاً الآن قد أظلم زمانه تبعه
فقتلكم معه قتل عاد وإرم . فلما كلم النبي أولئك النفر ودعاهم إلى الله ، نظر
بعضهم إلى بعض وقالوا : والله إنه للنبي الذي تواعدكم به يهود ، فلا يسبقنكم
إليه . وأجابوا محمداً إلى دعوته وأسلموا وقالوا له : « إنا قد تركنا قومنا —
أى الأوس والخزرج — ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فغسى
أن يجمعهم الله بك ، وإن يجمعهم عليك فلا رجل أعز منك » . وعاد هؤلاء
النفر إلى المدينة ومن بينهم اثنان من بني النجار أخوال عبد المطلب جد محمد
الذي كفله منذ مولده . عادوا فذكروا لقومهم إسلامهم : فألقوا قلوباً مفتوحة
ونفوساً متلهفة لدين يجمعهم موحدين كاليهود ، بل يجعلهم خيراً منهم . فلم تبق
دار من دور الأوس والخزرج جميعاً إلا وفيها ذكرٌ من محمد عليه السلام . فلما
استدار العام وعادت الأشهر الحرم وجاء موعد الحج لمكة . أتى الموسم اثنا عشر
رجلاً من أهل يثرب ، فالتقوا بالنبي بالعقبة فبايعوه بيعة العقبة الأولى . بايعوه

بداية الإسلام
بببب

العقبة الأولى

على ألا يشرك أحدهم بالله شيئاً ولا يسرق ولا يزنق ولا يقتل أولاده ولا يأتي
بهتان يفتره بين يديه ورجليه ولا يعصيه في معروف ، فإن وفى ذلك فله
الجنة ، وإن غشى من ذلك شيئاً فأمره إلى الله ، إن شاء عذب وإن شاء غفر .
وأنفذ محمد معهم مُصْعَبَ بنِ عُمَيْرٍ يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام
مصعب بن عمير ويفقههم في الدين .

ازداد الإسلام بعد هذه البيعة يثرب انتشاراً . وأقام مُصْعَبُ بين
المسلمين من الأوس والخزرج يعلمهم دينهم ويلاحظ معتبلاً ازدياد الأنصار
لأمر الله ولكلمة الحق . فلما أذنت الأشهر الحُرُم أن تعود ، لحق بمكة وقص
على محمد خبر المسلمين بالمدينة وما هم عليه من منعة وقوة ، وأهم سيجئون إلى
مكة موسم حج هذا العام الجديد أكثر عدداً وأعظم بالله إيماناً .

ودعت أخبار مُصْعَبِ محمداً ليفكر في الأمر طويلاً . هاهم أولاء أتباعه
يثرِب يزادون كل يوم عدداً وسلطاناً ، ولا يجدون من أذى اليهود ولا من أذى
المشركين ما يحده زملاؤهم بمكة من أذى قريش ! وهاهي ذى يثرب بهان
الرخاء أكثر مما بمكة : بها زروع ونخيل وأعناب ! أوليس من الخير أن يهاجر
المسلمون المكيون إلى إخوانهم هناك ليجدوا عندهم أمناً ويسلموا من فتنة
قريش إياهم عن دينهم ؟ وذكر بمحمد أثناء تفكيره أولئك نفر من يثرب
الذين كانوا أول من أسلم ، والذين ذكروا له ما بين الأوس والخزرج من
عداوة ، وأنهم إذا جمعهم الله به فلا رجل أعز منه . أوليس من الخير ، وقد
جمعهم الله به ، أن يهاجر هو أيضاً ؟ إنه لا يحب أن يرد على قريش مساءتها وهو
يعلم أنه أضعف منها ، وأن بنى هاشم وبنى المطلب إن منعوه من الاعتداء عليه
فإن ينصروه معتدياً . ولن يمنعوا الذين اتبعوه من اعتداء قريش عليهم ومن
إصابتها إياهم بأنواع المسامة . وإذا كان الإيمان أقوى سند يجعلنا نستعين بكل
شئ ونضحى عن طيب خاطر في سبيله بالمال والراحة والحرية والحياة ،

وإذا كان الأذى من طبعه أن يزيد الايمان استعاراً ، فان استمرار الأذى والتضحية يشغل المؤمن بهما عن دقة التأمل التي تزيد في أفق المؤمن سعة ، وفي إدراكه للحق قوة وعمقاً . وقد أمر محمد الذين اتبعوه من قبل أن يهاجروا إلى الحبشة المسيحية أن كانت بلاد صدق . وكان بها ملك لا يظلم عنده أحد . فأولى بالمسلمين ثم أولى أن يهاجروا إلى يثرب وأن يتقوا بأصحابهم المسلمين فيها ، وأن يتأزروا لذلك على دفع ما يمكن أن يصيبهم من شر ، ليكون لهم بذلك من الحرية في تأمل دينهم والجهرب ما يكفل إعلاء كلمته . كما يكفل نجاح الدعوة إليه ، دعوة لا تعرف الاكراه ، بل أساسها الرفق والاقناع والمجادلة بالتي هي أحسن .

مكبر محمد
في الهجرة

وكان الحاج من يثرب في هذه السنة - سنة ٦٢٢ ميلادية - كثيراً بالفعل . وكان من بينهم خمسة وسبعون مسلماً منهم ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان . فلما عرف محمد مقدّمهم فكر في بيعه ثانية لانقف عند الدعوة الى الاسلام على نحو ما ظل هو يدعو اليه ثلاث عشرة سنة متتابعة في رفق وهوادة مع احتمال صنوف التضحية والألم جميعاً ؛ بل تمتد الى ما وراء ذلك وتكون حليفاً يدفع به هؤلاء المسلمون عن أنفسهم الأذى بالأذى والعدوان بالعدوان . واتصل محمد سرّاً بزعمائهم وعرف حسن استعدادهم ، فواعدهم أن يلتقوا معه عند العقبة جوف الليل في أوّسط أيام التشريق . وكم مسلمو يثرب من معهم من المشركين أمرهم وانتظروا حتى اذا مضى ثلث الليل من يوم مواعدهم مع النبي خرجوا من رحالهم يتسللون تسلل القضا مستخفين مخافة أن يتكشف سرهم . فلما كانوا عند العقبة تسلقوا الشعب جميعاً وتسلقت المرأتان معهم ينتظرون مقدّم صاحب الرسالة .

بيعة العقبة
الثانية
أو الكبرى

وأقبل محمد ومعه عمه العباس بن عبد المطلب ، وكان ما يزال على دين قومه . لكنه عرف من قبل من ابن أخيه أن في الأمر حلفاً ، وأن الأمر قد

يجر إلى حرب ، وذكر أنه قد تعاهد مع من تعاهد من بني المطلب وبني هاشم أن يمنعوا محمداً . فليستوثق لابن أخيه ولقومه حتى لا تكون كارثة يصلى بنو هاشم وبنو المطلب بنارها ، ثم لا يجحدون من هؤلاء اليتريين نصيراً . لذلك كان هو أول من تكلم فقال : يا معشر الخزرج ، إن محمداً منا حيث قد علمتم . وقد منعناه من قومنا من هو على مثل رأينا فيه . وهو في عز من قومه ومنعة في بلده . وقد أبى إلا الانحياز إليكم وللحوق بكم . فان كنتم ترون أنكم وافون له فيما دعوتموه إليه ، ومانعوه ممن خالفه . فأنتم وما تحمّلتُم من ذلك : وإن كنتم مسلموه وخاذلوه بعد خروجه إليكم فمن الآن فدعوه .

قال اليتريون وقد سمعوا كلام العباس :

— سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله ، نخذ لنفسك ولربك ما أحببت .

فأجاب محمد بعد أن تلا القرآن ورغب في الاسلام :

— أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبنائكم .

وكان البراء بن معرور سيد قومه وكبيرهم . وكان قد أسلم بعد العقبة الأولى وقام بكل ما يفرض الاسلام . إلا أنه جعل قبة صلواته الكعبة . وكان محمد والمسلمون جميعاً يومئذ ما تزال قبلتهم المسجد الأقصى . ولما اختلف قومه معه واحتكموا إلى النبي أول وصولهم مكة ردّ محمد البراء عن اتخاذ الكعبة قبلته . فلما طلب محمد إلى مسلمي يثرب أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبنائهم مدّ البراء يده يبايعه على ذلك وقال :

— بايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة ورثاها

كأبراً عن كابر .

ولما يتم البراء كلامه إذ اعترض ابو الهيثم بن التيهان قائلاً :

يا رسول الله ، إننا بيننا وبين الرجال — أي اليهود — جبالاً نحن قاطعوها .

فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا .

فتبسم محمد وقال :

— بل الدّم الدّم والهدّم الهدّم . أتم منى وأنا منكم، أحارب من حاربتكم
وأسالم من سالمتم .

وهم القوم للبيعة ، فاعترضهم العباس بن عبادة قائلاً :

— يا معشر الخزرج : أتعلون عَلامَ تبايعون هذا الرجل ؟ إنكم
تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم ترون أنكم إذا
نُهكت أموالكم مصيبةً وأشرافكم قتلاً أسلتموه من الآن فدعوه ، فهو والله
إن فعلتم خزنى الدنيا والآخرة . وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه
إليه على نَهْكةِ الأموال وقتل الأشراف نخذوه ، فهو والله خير الدنيا
والآخرة .

فأجاب القوم : إنا نأخذ على مصيبة الأموال وقتل الأشراف . قال لنا
يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك ؟

وردّ عليهم محمد مطمئن النفس قائلاً : الجنة .

ومدّوا إليه أيديهم ، فبسط يده فبايعوه . فلما فرغوا من البيعة قال لهم
النبي : أخرجوا لي منكم اثني عشر نقيبا يكونون على قومهم بما فيهم . فاختر
القوم تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس . فقال النبي لهؤلاء النقباء : أتم
على قومكم بما فيهم كقلاء ككفالة الحوارين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل
على قومي . وكانت بيعتهم الثانية هذه أن قالوا : بايعنا على السمع والطاعة في
عُسرنا ويُسرنا ومنشئنا ومكْرهنا وأن نقول الحق أينما كنا لانحاف في الله
لومة لأئم .

تم ذلك كله جوف الليل في شِعب العقبة في عزلة من الناس والقوم
على ثقة من أنه لا تطلع عليهم عين إلا الله . لكنهم ما كادوا يتمونه حتى سمعوا
صوتا يصيح بقريش : إن محمداً والصباء معه قد اجتمعوا على حربكم . ذلك رجل

خرج لبعض شأنه فعرف من أمر القوم قليلا اتصل بسمعه ، فأراد أن يفسد عليهم تدبيرهم وأن يدخل في روعهم أن ما يبتوا بليل اقتضح . لكن الخزرج والأوس كانوا عند عهدهم ، حتى لقال العباس بن عباد لمحمد بعد أن سمع هذا المتجسس : والله الذي بعثك بالحق إن شئت لنميتن على أهل مئى غداً باسيافنا . فكان جواب محمد أن قال : « لم تؤمر بذلك ولكن ارجعوا الى رحالكم » ، فرجعوا الى مضاجعهم وناموا حتى أيقظهم الصبح .

قريش وبيعة
العقبة

على أن الصبح ما كاد يتنفس حتى علمت قريش نبأ هذه البيعة . فانزعجت فعدت جليتها على الخزرج في منازلهم يعاتبونهم ويقولون لهم : إنهم لا يريدون حربهم فما بالهم يحالفون محمداً لقتالهم ! . وانبعث المشركون من الخزرج يحلفون بالله ما كان من هذا شيء . أما المسلمون فاعتصموا بالصمت أن رأوا قريشاً مالت لتصديق شركائها في الدين . وعادت قريش لا تؤكد الخبر ولا تنفيه وجعلت تَدَنِّطْسُهُ عَلَيْهَا تَقْفُ عَلَى جَلِيَّةِ الْأَمْرِ فِيهِ . واحتمل أهل يثرب رحالهم وعادوا قاصدين بلدهم قبل أن تنق قريش بشيء مما حصل . فلما عرفت أن الخبر حق ، خرجت تطلب أهل يثرب ، فلم تلحق منهم الا بسعد ابن عباد ، أدركوه وردود إلى مسكة وعذبوه حتى أجاره جُبَيْر بن مُطْعِم ابن عَدِيّ والحارث بن أمية ، أن كان يجير لها من يخرجون في تجارتها الى الشام حين مرورهم يثرب .

لم تبالغ قريش قط في فزعها ولا في تتبعها الذين بايعوا محمداً على قاتلها . فقد عرفته ثلاث عشرة سنة متتابعة منذ بدء نبوته . ووقفت من الجهود للحرب السلبية التي أعلنت عليه ما أجهدتها وأجهدته . ونال منها ونال منه . عرفت ذلك القوى بالله المستمسك برسالة الحق لا يلين فيها ولا يداجي ولا يخاف فيها أذى ولا مساءة ولا قتلا . ولقد خيّل الى قريش بعد أن أرهقته ومن معه بألوان الأذى وبعد أن حاصرته في الشعب وبعد أن أدخلت الى نفس أهل

مكة جميعاً من الروع ما صدمهم عن اتباعه، أنها توشك أن تظفر به، وأن تحصر نشاطه في الدائرة الضيقة من الأتباع الذين ظلوا على دينه : وأنه ومن معه لا يلبثون الا قليلا حتى تضنيهم العزلة فيعودوا الى حكمها طائعين . أما اليوم وإزاء هذا الخلف الجديد فقد انفتح أمام محمد والذين معه باب الرجاء في الغلب، أو على الأقل باب الرجاء في حرية الدعوة الى عقيدتهم والطعن على الأصنام وعبادها . ومن يدري ما يكون أمر القوم من بعد ذلك في شبه جزيرة العرب كلها وقد نصرتهم يثرب بأوسها وخزرجها ، وقد جعلتهم بئامن من العدوان وفسحت لهم حرية القيام بفروض دينهم ودعوة غيرهم للانضمام اليهم . فاذا لم تقض قريش على هذه الحركة وما تزال في مهدها ، فالخوف من المستقبل لن يزال يساورها وفوز محمد عليها لن يزال يُقضى مَضْجَعَهَا .

دقة موقف
الحاشية

لذلك أعدت تفكر فيما تفعل لتجنب ما قام به محمد ولتقضى على هذه الحركة الجديدة . ولم يكن هو من ناحيته أقل من قريش تفكيراً . إن هذا الباب الذي فتح الله أمامه هو باب العزة لدين الله والسمو للكلمة الحق . فالمعركة الناشئة اليوم بينه وبين قريش هي أشد ما وقع منذ يوم بعثه ، وهي معركة حياة أو موت بالنسبة له ولها . والغلب لا ريب للصادقين . فليُجمِعْ أمره وليستعن بالله وليكن لما تكيد قريش أشد ازدياء مما كانت في كل ماسلف ، وليُقدِّم ولكن في حكمة وأناة ودقة : فالموقف موقف حنكة السياسي والقائد الدقيق المناورة .

وأمر أصحابه أن يلحقوا الأنصار بيثرب على أن يتركوا مكة متفرقين حتى لا يثيروا نائرة قريش عليهم . وبدأ المسلمون يهاجرون فُرَادَى أو في نفر قليل . لكن قريشاً فطنت للأمر فحاولت أن ترد كل من استطاعت رده إلى مكة لتفتته عن دينه أو لتعذبه وتنكث به . وبلغت من ذلك أنها كانت تحول بين الزوج وزوجه إذا كانت المرأة من قريش فلا تدعها تسير معه ، وأنها

هجرة المسلمين
الى يثرب

كانت تحبس من لم يطعها وتستطيع حبسه . لكنها لم تكن تقدر على أكثر من ذلك حتى لا تكون حرب أهلية بين مختلف قبائلها إذا هي همت بقتل واحد من أهل هذه القبائل . وتابعت هجرة المسلمين إلى يثرب ومحمد مقيم حيث هو ، لا يعرف أحد : أهو قد اعتزم الإقامة أم قرر الهجرة . وما كانوا ليعرفوا وقد أذن لأصحابه في الهجرة إلى الحبشة من قبل وظل هو بمكة يدعو سائر أهلها إلى الاسلام . وبلغ من ذلك أن أبا بكر استأذنه في الهجرة إلى يثرب ، فقال له : لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً . ولم يزد على ذلك .

قريش
وهجرة النبي

على أن قريشاً كانت تحسب لهجرة النبي إلى يثرب ألف حساب . لقد كثر المسلمون فيها كثرة جعلتهم يكادون يكونون أصحاب اليد العليا . وهامهم أولاء المهاجرون من مكة ينضمون إليهم فيزيدونهم قوة . فاذا لحق محمد بهم وهو على ما يعرفون من ثبات وحسن رأى وبعد نظر ، خشوا على أنفسهم أن يذمهم اليثريون مكة أو يقطعوا عليها طريق تجارتها إلى الشام ، وأن يجيعوها ، كما حاولوا هم أن يجيعوا محمداً وأصحابه حين وضعوا الصحيفة بمقاطعتهم وأكروههم على أن يلزموا الشعب وأن يقضوا فيه ثلاثين شهراً .

وإذا بقي محمد بمكة وحاولوا منعه الخروج منها فهم معرضون إلى مثل هذا الأذى من جانب اليثريين دفاعاً عن نبيهم ورسولهم . فلم يبق إلا أن يقتلوه ليستريحوا من كل هذا الهم الواصب . لكنهم إن قتلوه طالب بنو هاشم وبنو المطلب بدمه وأوشكت الحرب الأهلية أن تفشو في مكة فتكون شراً عليها مما يخشونه من ناحية يثرب . واجتمع القوم بدار الندوة يفكرون في هذا كله وفي وسيلة اتقائه . قال قائل منهم : احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه باباً ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله ، زهيراً والنابغة ومن مضى منهم ، حتى يصيبه ما أصابهم . لكن هذا الرأى لم يلق سمعاً . وقال قائل : نخرجه من بين أظهرنا ونفنيه من بلادنا ثم لا نبالي بعد ذلك من أمره

شيئاً . لكنهم خافوا أن يلحق بالمدينة وأن يصيبهم ما يفرقون منه . واتفوا على أن يأخذوا من كل قبيلة فتي شاباً جليداً وأن يعطوا كل فتي سيفاً صارماً يتاراً فيضربونه جميعاً ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه بين القبائل ، ولا تقدر بنو عبد مناف على قتالهم جميعاً ، فيرضون فيه بالدية وتستريح قريش من هذا الذي بدد شملها وفرق قبائلها شيعا . وأعجبهم هذا الرأي فاطمأنوا إليه واختاروا قيسانهم وباتوا يحسبون أن أمر محمد قد فرغ منه ، وأنه بعد أيام سيواري وتواري دعوته في التراب . وسيعود الذين هاجروا إلى يثرب إلى قومهم وإلى دينهم وآلهتهم ، وتعود بذلك لقريش وبلاد العرب وحدثها التي تمزقت ، ومكانتها التي تضععت أو كادت .

الفصل العشرون

هجرة الرسول

الأمر بالهجرة - علي في فراش النبي - في غار ثور - الخروج الى يثرب
قصة سراقبة بن جهم - مسلمو يثرب في انتظار الرسول
الاسلام بيثرب - دخول محمد المدينة

اتصل بمحمد نبأ ما بيتت قريش لقتله مخافة هجرته إلى المدينة واعتزازه الأمر بالهجرة بها ، وما قد يجر ذلك على مكة من أذى وعلى تجارتها مع الشام من بوار . ولم يكن أحد يشك في أن محمداً سينتزع الفرصة فيهاجر : علي أن ما أحاط به نفسه من كتمان لم يجعل لأحد الى سره سبيلا . حتى أبو بكر ، الذي أعد راحلتين منذ استأذن النبي في الهجرة فاستمهله ، قد بقى لا يعرف من الأمر إلا قليلا . ولقد ظل محمد بمكة حتى علم من أمر قريش ما علم وحتى لم يبق من المسلمين بها إلا القليل . وإنه لينتظر أمر ربه إذ أوحى اليه أن يهاجر . هنالك ذهب إلى بيت أبي بكر وأخبره بأن الله أذن له في الهجرة ، وطلب الصديق أن يصحبه في هجرته فأجاب إلى ما طلب .

هنا تبدأ قصة من أروع ما عرف تاريخ المغامرة في سبيل الحق والعقيدة والايان . كان أبو بكر قد أعد راحتيه ودفعهما إلى عبد الله بن أريقط يرعاهما لميعادهما . فلما اعتزم الرجلان مغادرة مكة لم يكن لدهما ظل من ريب في أن قريشاً ستبعتها . لذلك اعتزم محمد أن يسلك طرقا غير مألوفة وأن يخرج إلى سفره في موعد كذلك غير مألوف . وكان هؤلاء الشبان الذين أعدت قريش لقتله يحاصرون داره في الليل مخافة أن يفر . ففي ليلة الهجرة أسر محمد إلى علي

عن في فراش
البي

ابن أبي طالب أن يتسجى برده الأخضر وأن ينام في فراشه ، وأمره أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدي عنه الودائع التي كانت عنده للناس . وجعل هؤلاء الفتية من قريش ينظرون من فرجة الى مكان نوم النبي فيرون في الفراش رجلا فتطمئن نفوسهم إلى أنه لم يفر . فلما كان الثلث الأخير من الليل خرج في غفلة منهم الى دار أبي بكر وخرج الرجلان من خوخة في ظهرها وانطلقا جنوبا إلى غار ثور ، أن كان اتجاهها نحو اليمن مما لا يرد بالبال . ولم يعلم بمخبئها في الغار غير عبد الله بن أبي بكر وأخته عائشة وأسماء ومولاهم عامر بن فهيرة . أما عبد الله فكان يقضى نهاره بين قريش يستمع ما يأمرون بمحمد ليقصه ليلا على النبي وعلى أبيه . وأما عامر فكان يرعى غنم أبي بكر ، وكان إذا أمسى أراح عليهما فاحتلبا وذبحا ، وإذا عاد عبد الله بن أبي بكر من عندهما تبعه عامر بالغنم فغفى على أثره . وأقاما بالغار ثلاثة أيام كانت قريش أثناءها تجدد في طلبهما أي جدد . وكيف لا تفعل وهي ترى الخطر محققا بها إن هي لم تدرك محمدا ولم تحل بينه وبين يثرب . أما الرجلان فأقاما بالغار ومحمد لا يفتر عن ذكر الله ، إليه أسلم أمره وإليه تصير الأمور : وأبو بكر يُرهِفُ أذنه يريد أن يعرف هل الذين يَقْفُونَ أثرهما قد أصابوا من ذلك نجاحا . وأقبل فتيان قريش ، من كل بطن رجل ، بأسيا فمهم وعصبيهم وهراواتهم يدورون باحثين في كل الأنحاء ، حتى إذا التقوا براع سألوه فكان جوابه :

— قد يكونان بالغار ، وإن كنت لم أر أحداً أمه .

وتصَّبَّ أبو بكر عرقاً حين سمع جواب الراعي ، وخاف أن يقتحم الباحثون الغار عليهما ، فأمسك أنفاسه وبق لا حراك به وأسلم لله أمره . وأقبل بعض القرشيين يتسلقون إلى الغار ثم عاد أحدهم أدراجه ، فسأله أصحابه : مالك لم تنظر في الغار ؟ فقال : إن عليه العنكبوت من قبل ميلاد

محمد ، وقد رأيت حمامتين وحشيتين بفم الغار فعرفت أن ليس أحد فيه .
ويزداد محمد إيماناً في الصلاة ، ويزداد أبو بكر خوفاً ، فيقترب من صاحبه
ويلصق نفسه به ، فيهمس محمد في أذنه : — لا تحزن . إن الله معنا .

وفي رواية كتب الحديث : أن أبا بكر لما شعر بدنوا الباحثين قال هامساً :
— لو نظر أحدهم تحت قدميه لأبصرنا .

فأجابه النبي :

— يا أبا بكر . ما ظنك باثنين الله ثالثهما .

وزاد القرشيين اقتناعاً بأن الغار ليس به أحد أن رأوا الشجرة تدلت
فروعها إلى فوهته ، ولا سبيل إلى الدخول إليه من غير إزالة هذه الفروع .
إذ ذلك انصرفوا ، وسمع اللاجئان تناديهم للأووية من حيث أتوا ، فازداد
أبو بكر إيماناً بالله ورسوله ، ونادى محمد : الحمد لله ، الله أكبر .

معجزة الغار

نسيج العنكبوت والحمامتان والشجرة ، تلك هي المعجزة التي تقص كتب
السيرة في أمر الاختفاء بغار ثور . ووجه المعجزة فيها أن هذه الأشياء لم
تكن موجودة ، حتى إذا لجأ النبي وصاحبه إلى الغار أسرع العنكبوت إلى
نسيج بيتها تستر به من بالغار عن الأعين ، وجاءت الحمامتان فباضتا عند بابه ،
ونمت الشجرة ولم تكن نامية . وفي هذه المعجزة يقول المستشرق درمنج :

« هذه الأمور الثلاثة هي وحدها المعجزة التي يقص التاريخ الاسلامي
الجدد : نسيج عنكبوت وهوى حمامة ونماء شجيرة . . وهي أعاجيب ثلاث لها
كل يوم في أرض الله نظائر . »

على أن هذه المعجزة لم ترد في سيرة ابن هشام ، بل كل ما أورد هذا
المؤرخ في سياق قصة الغار ما يأتي : « عمدا إلى غار ثور — جبل أسفل مكة —
فدخلاه ، وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يتسمع لها ما يقول الناس فيهما ثماره ،
ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من الخبر . وأمر عامر بن فهيرة

بغفال بعض
السيرة بإيها

مولاه أن يرعى غنمه نهاره ثم يريحها عليهما إذا أمسى في الغار . وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما . . . فأقام رسول الله صلعم في الغار ثلاثاً . وجعلت قريش فيه حين فقدوه مائة ناقة لمن يرده عليهم . وكان عبد الله بن أبي بكر يكون في قريش نهاره ومعهم ، يسمع ما يأترون وما يقولون في شأن رسول الله صلعم وأبي بكر ، ثم يأتيهما إذا أمسى فيخبرهما الخبر . وكان عامر بن فهيرة مولى أبي بكر يري في رعيان أهل مكة ، فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبي بكر فاحتلبا ودبحا . فاذا عبد الله بن أبي بكر من عندهما إلى مكة تبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم حتى يعفى عليه . حتى إذا مضت الثلاث وسكن عنهما الناس . أتاهما صاحبهما الذي استأجرا بيعيريهما وبعير له . الخ هذا ما ذكر ابن هشام عن قصة الغار نقلناه إلى حين خروج محمد وصاحبه منه .

• وفي مطاردة قريش محمداً لقتله وفي قصة الغار هذه نزل قوله تعالى في سورة الأنفال : وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ . وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ » وقوله في سورة التوبة : وَإِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

في اليوم الثالث حين عرفا أن قد سكن الناس عنهما أتاهما صاحبهما بيعيريهما وبعير له ، وأتتهما أسماء بنت أبي بكر بطعامهما . فلما ارتحلا لم تجد ما تعلق به الطعام والماء في رحالهما فشقت نطاقهما وعلقت الطعام بنصفه وانطلقت بالنصف الآخر ، فسُميت لذلك « ذات النطاقين » . وامتطى كل رجل بعيره ، ومعهما طعامهما ومع أبي بكر خمسة آلاف درهم هي كل ماله . وزادها

المخرج
إلى غريب

اختفاؤهما بالغار وعلهما بامعان قريش في تتبعهما حرصاً وخذراً ، فتخذا الى يثرب طريقاً غير الطريق الذي ألف الناس . سلك بهما دليلهما عبد الله ابن أريقط أحد بني الدثئل ، معناً إلى الجنوب بأسفل مكة ثم متجهاً الى تهامة على مقربة من شاطئ البحر الأحمر . فلما كانا في غير الطريق الذي ألف الناس اتجه بهما شمالاً محاذياً للشاطئ مع الابتعاد عنه ، متخذاً من السبل ما قل أن يطرقه أحد . وأمضى الرجلان ودليلهما طيلة الليل وصدر النهار على رواحلهما ، لا يعبان بمشقة ولا يرضيهما تعب . وأية مشقة أخوف مما يخافان من قريش لصددهما عن الغاية التي يبتغيان بلوغها في سبيل الله والحق ! صحيح أن محمداً لا تساوره ريبة في أن الله ناصره . ولكن لا تُلْقُوا بأيديكم الى التهلكة . والله في عون العبد ما دام العبد في عون نفسه ، وفي عون أخيه . ولئن كانا قد تخطينا في أمان أيام الغار ، فان ما جعلته قريش لمن يرذهما أو يدك عليهما جدير بأن يستهوى نفوساً يغريها الكسب المادى ولو جاء من طريق الجريمة . ما بالك وهؤلاء العرب من قريش يعتبرون محمداً عدواً لهم ، وفي نفوسهم من خُلق الغيلة ما لا يأتف من الفتك بالأعزل والاعتداء على من لا يستطيع عن نفسه دفاعاً . فليكونا إذاً على أشد الحذر وليكونا كلهما أعيناً ترى وآذاناً تسمع وقلوباً تشعر وتعي .

فلم يخفهما حدسهما ؛ فقد أقبل على قريش رجل أخبرها أنه رأى ركة ثلاثة مروا عليه يعتقدهم محمداً وبعض أصحابه . وكان سر أفة بن مالك حاضراً فقال : إنما هم بنو فلان : ليضل الرجل ليفوز بمغنم النوق المائة . ومكث مع القوم قليلاً ثم عاد الى بيته فتدجج بسلاحه ، وأمر بفرسه فأرسل الى بطن الوادى حتى لا يراه أحد ساعة خروجه . وامتطاه ودفعه الى الناحية التي ذكر ذلك الرجل . وكان محمد وصاحباؤه قد أناخوا في ظل صخرة ليقبلوا وليرقبوا عن أنفسهم بعض ما أرهاقها من وصب ، ولينالوا من الطعام والشراب قليلاً علمهم

يستعيدون قوتهم وصبرهم. وبدأت الشمس تنحدر، وبدأ محمد وأبو بكر يفكران في امتطاء جملهم إذ كانوا من سُرّاقة قيد البصر. وكان جواد سُرّاقة قد كبا به قبل ذلك مرتين لشدة ما جهده. فلما رأى الفارس أنه وشيك النجاح وأنه مدرك الرجلين فراذهما إلى مكة أو قاتلها إن حاولا عن نفسيهما دفاعاً، نسي كبوني جواده ولزّه ليمسك بيده ساعة الظفر. لكن الجواد في قومه كبا كبوة عنيقة التي بها الفارس من فوق ظهره يتدحرج في سلاحه. وتطير سُرّاقة والتي في رُوعه أن الآلهة مانعة منه ضالته، وأنه معرض نفسه لخطر داهم إذا هو هم مرة رابعة لانفاذ محاولته. هنالك وقف ونادى القوم: أنا سُرّاقة بن جعشم. أنظر وني أكلمكم، فوالله لا أريكم ولا يأتكم مني شيء تكرهونه. فلما وقفا ينظرانه طلب إلى محمد أن يكتب له كتاباً يكون آية بينه وبينه. وكتب أبو بكر بأمر النبي كتاباً على عظم أو خزف ألقاه إلى سُرّاقة، فأخذه وعاد أدراجه، وأخذ نفسه بتضليل من يطاردون المهاجر العظيم بعد أن كان هو يطارده.

وانطلق محمد وصاحبه يقطعان بطون تهامة في قيظ محرق تتلظى له رمال الصحراء، ويحتازان إكاماً ووهاداً ولا يجدان أكثر الأمر ما يتقيان به شواظ الهاجرة، ولا يجدان إلا في صبرهما وحسن ثقتهما بالله وعظيم إيمانهما بالحق الذي أنزل على رسوله، ملجأ من قسوة ما يحيط بهما، وأمناً مما يتخوفان أن يفجأهما. وظلا كذلك سبعة أيام متتابعة يذبحان في حمارّة القيظ ويسريان على سفينة الصحراء الليل كله. يجدان في سكنته وفي ضوء النجوم اللامعة في ظلمته ما يطمئن له قلباهما وتستريح له نفساهما. فلما بلغا مقام قبيلة بني سهم وجاء إليهما شيخها برّيدة يحبيهما زالت مخاوفهما واطمأنت لنصر الله قلوبهما وقد صارا من يثرب قاب قوسين أو أدنى.

في فترة رحلتها هذه المصنية كانت الأخبار قد ترامت إلى يثرب بهجرة النبي وصاحبه ليلحقا أصحابها فيها، وكانت قد عرفت ما لقيها من عنت

لعل الطريق

مسلو يثرب
في انتظار
الرسول

قريش ومن تتبّعها إياهما . لذلك ظل المسلمون جميعاً بها وهم ينتظرون مقدم صاحب الرسالة بنفوس مملئة شوقاً لرؤيته والاستماع له . وكان الكثيرون منهم لما يروه وإن كانوا قد سمعوا من أمره ومن سحر بيانه ومن قوة عزمه ما جعلهم للقياه أشد اشتيافاً ، وفي انتظاره أشد تطاعاً . وإنك لتقدر مبلغ ما كانت تجيش به هذه النفوس حين تعلم أن من سادة يثرب من لم يروا قطُّ محمداً ، ومن اتبعوه بعد أن سمعوا أصحابه ممن كانوا أشد المسلمين لدين الله دعوة ولرسول الله حباً . جلس سعد بن زُرارة ومُصعب بن عُمير في حائط من حوائط بني ظَفَر واجتمع إليهما رجال ممن أسلم : فبلغ نباهما سعد بن معاذ وأسيّد بن حُصَير ، وكانا يومئذ سيدي قومهما . فقال سعد لحُصير : انطلق إلى هذين الرجلين اللذين أتيا دارنا ليسقيا ضعفاءنا ، فازجرهما وانهبهما ، فإن سعد ابن زُرارة ابن خالتي ولا أصبر عليه . فذهب أسيّد إليهما يزجرهما : فقال له مصعب : أو تجلس فتسمع ، فإن رضيت أمراً قبلته وإن كرهته كف عنك ما تكره . قال أسيّد : أنصفت . وركز حربته وجلس إليهما ، وسمع إلى مصعب فقام مسلماً وعاد إلى سعد بوجه غير الوجه الذي تركه به : فعاظ ذلك سعداً وقام هو إلى الرجلين فكان أمره كأمر صاحبه . وكان من أثر ذلك أن ذهب سعد إلى قومه فقال :

يا بني عبد الأشهل ، كيف تعلمون أمرى فيكم ؟

قالوا : سيدنا وأوصلنا وأفضلنا رأياً وأيمتنا نقيية .

قال : فإن كلام نساءكم ورجالكم على حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله .

فأسلم بنو عبد الأشهل جميعاً رجالاً ونساء .

وبلغ من انتشار الاسلام يثرب ومن بأس المسلمين فيها من قبل هجرة النبي إليها ما لم يحلم به مسلمو مكة ، وما طوع لبعض الشبان من المسلمين أن يعيشوا بأصنام المشركين من أهلهم . كان لعمرو بن الجموح صنم من خشب

يدعوه مَنَاءً، قد اتخذته في داره كما كان الأشراف يصنعون . وكان عمرو سيداً من سادات بني سَلَمَةَ وشريفاً من أشرافهم . فلما أسلم قتيان قومه كانوا يريدون بالليل على سنمه فيحملونه فيطرحونه على رأسه في إحدى الحفر التي يخرج أهل يثرب لقضاء حاجاتهم بها . فاذا أصبح عمرو فلم يجد الصنم التمسه حتى يعثر به ثم غسله وطهره وردّه مكانه وهو يبرق ويرعد ويتهدّد ويتوعد . وكرر قتيان بني سلمة عيبتهم بمناء ابن الجوح ، وهو كل يوم يغسله ويطهره . فلما ضاق بهم ذرعاً علق على الصنم سيفه وقال له : إن كان فيك خير فامتنع ، فهذا السيف معك . وأصبح فالتمسه فوجده في بئر مقروناً إلى كلب ميت والسيف ليس معه . فلما كلبه رجال قومه أسلم بعد أن رأى بعينه ما في الشرك والوثنية من ضلال يهوى بنفس صاحبه إلى درك لا يحمل بانسان .

يسيرُ عليك أن تقدر ، مع ما بلغ الاسلام من علو الشأن يثرب ، تحرق أهلها في انتظارهم مقدّم محمد عليهم بعد إذ علموا بهجرته من مكة . كانوا يخرجون كل يوم بعد صلاتهم الصبح إلى ظاهر المدينة يتلصقون حتى تغلبهم الشمس على الظلال في هذه الأيام الحارة من شهر يوليه . وبلغ هو قبّاء على فرسخين من المدينة فأقام بها أربعة أيام ومعه أبو بكر . وفي هذه الأيام الأربعة أسس مسجدها . وبينما هم بها وصلها على بن أبي طالب الذي ردّ الودائع التي كانت عند محمد لأصحابها من أهل مكة ثم غادرها يقطع الطريق إلى يثرب على قدميه . يسير الليل ويستخفي بالنهار . ويحتمل هذا الجهد المضني أسبوعين كاملين ليلحق بإخوانه في الدين .

وإن مسلمي يثرب ينتظرون يوماً كعادتهم إذ صاح بهم يهودى كان قد رأى ما يصنعون : « يا بني قَيْلَةَ ، هذا صاحبكم قد جاء . » وكان هذا اليوم يوم الجمعة فصلاها محمد بالمدينة . وهناك في المسجد الذي يبطن وادي رَأُونَا أقبل عليه مسلمو يثرب وكل يحاول أن يراه وأن يقترب منه ، وأن يملاً عينيه من

حول محمد
المدينة

هذا الرجل الذي لم ير من قبل ، والذي امتلأت مع ذلك نفسه بحبه وبالإيمان برسالته ، والذي يذكره كل يوم أثناء صلواته مرّات . وعرض عليه رجال من سادة المدينة أن يقيم عندهم في العدّد والعدّة والمنعة ، فاعتذر لهم وامتطى ناقته وألقى لها خطامها فانطلقت في طرق يثرب والمسلمون من حولها في حقل حافل يخلون لها طريقها . وسائر أهل يثرب من اليهود والمشركين ينظرون إلى هذه الحية الجديدة التي دبت إلى مدينتهم ، وإلى هذا القادم العظيم الذي اجتمع عليه من الأوس والخزرج من كانوا من قبل أعداء متقاتلين ، ولا يحول بخاطر أحدهم في هاتذ البرهة التي اعتدل فيها ميزان التاريخ إلى وجهته الجديدة ما أعدّ القدر لمدينتهم من جلال وعظمة يبقيان على الزمن ما بقى الزمن . وجعلت الناقة تسير حتى كانت عند مزبد لغلامين يقيمين من بني النجار ، هنالك بركت . ونزل الرسول عنها ، وسأل لمن المربد؟ فأجابه معاذ بن عفراء : إنه لسهّل وسهّل ابني عمرو وهما يقيمان له وسيرضيهما ، ورجا محمداً أن يتخذة مسجداً . وقبل محمد وأمر أن يبني في هذا المكان مسجده وأن تبني داره .

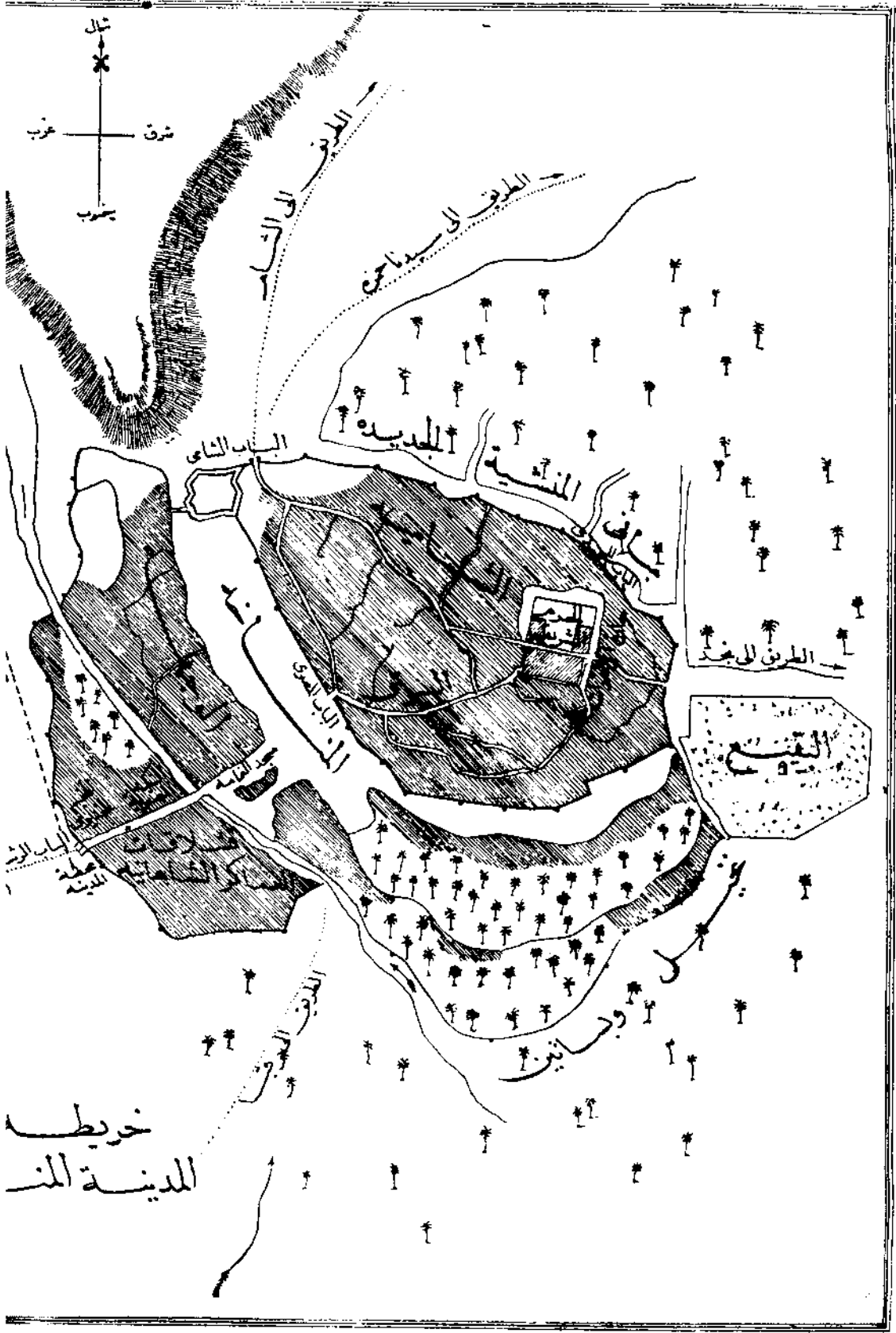
الفصل الحادي عشر

أول العهد يثرب

استقبال يثرب للمهاجر العظيم - بناء المسجد ومنزل النبي - تفكير محمد في حرية العقيدة لأهل يثرب جميعاً - يهود المدينة - مؤاخاة محمد بين المهاجرين والأنصار - معاهدته مع اليهود لتقرير حرية الاعتقاد زواج محمد من عائشة - الأذان للصلاة - مثل محمد وتعاليمه - قوة الدين الجديد وخوف اليهود منها - تحويل القبلة من المسجد الأقصى الى المسجد الحرام - وفد نصارى نجران الى المدينة - التقاء الأديان الثلاثة يثرب - تفكير المسلمين في موقفهم من قريش

خرج أهل يثرب لاستقبال محمد زرافات ووحداً، رجالاً ونساءً، بعد الذي ترامى إليهم من أخبار هجرته ومن اتهم قريش به، ومن احتمالته في أشد القيظ هذه الرحلة المضنية بين كئيبان تهامة وصخورها التي ترد ضوء الشمس لظى وسعيراً. وخرجوا يثربهم تطلعهم، لما انتشر من خبر دعوته في أنحاء شبه الجزيرة وما تقضى عليه هذه الدعوة من عقائد ورثها أهلها عن آباؤهم كانت عندهم موضع التقديس. لكن خروجهم لم يكن راجعاً الى هذين السببين وكفى. بل كان راجعاً أكثر من ذلك إلى أنه هاجر من مكة الى يثرب ليقم بها. فكل طائفة وكل قبيلة من أهل يثرب كانت ترتب على هذا المقام، من الناحية السياسية والاجتماعية، آثاراً شتى. هي التي استخفهم أكثر مما استخفهم التطلع ليخرجوا فينظروا الى هذا الرجل وليروا هل تؤيد سياهم حدسهم أو هي تدعوهم إلى تعديله. لذلك لم يكن المشركون ولا كان اليهود

استقبال
البريين النبي



خريطة
المدينة المنورة

الطريق إلى الشام

الطريق إلى المدينة المنورة

البحر الأحمر

الجديدة

المنسية

الطريق إلى نجد

القلعة

الرباط

الطريق إلى نجد

شمال
جنوب
غرب
شرق

أقل إقبالاً من المسلمين ، مهاجرينهم والأنصار ، على استقبال النبي . ولذلك أحاطوا به جميعاً وكلٌ يخفق قلبه خفقاً مختلفاً عن صاحبه باختلاف ما يجول بنفسه إزاء القادم العظيم . وقد اتبعوه إذ ألقى بخطام ناقته على غاربها في شئ من عدم النظام أدى إليه حرص كلٌّ على أن يحتل محياه ، وأن يحيط من نواحيه جميعاً بنظرة ترسم في نفسه صورة من هذا الذي عقد بيعة العقبة الكبرى مع من بايعه من أهل هذه المدينة لحرب الأسود والأحر من الناس ، والذي هجر وطنه وفارق أهله واحتمل عدوانهم وأدام ثلاث عشرة سنة متتابعة في سبيل توحيد الله توحيداً أساسه النظر في الكون واجتلاء الحقيقة من طريق هذا النظر .

بناء المسجد
ومساكن
الرسول

وبركت ناقة النبي عليه السلام على مرئيد سهل وسهيل ابني عمرو ، فباتعه لبيته مسجداً له . وأقام أثناء بنائه في دار أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري . وعمل محمد في بناء المسجد بيديه ، ودأب المسلمون من المهاجرين والأنصار على مشاركته في بنائه حتى أموه وأقاموا من حوله مساكن الرسول . وما كان بناء المسجد ولا كان بناء المساكن ليرهق أحداً وقد كانت كلها من البساطة بما يتفق وتعاليم محمد . كان المسجد فناءً فسيحاً بنيت جدرانها الأربعة من الآجر والتراب ، وسقف جزء منه بسعف النخل وترك الجزء الآخر مكشوفاً ، وخصت إحدى نواحيه لايواء الفقراء الذين لم يكونوا يملكون سكناً . ولم يكن المسجد يضاء ليلاً إلا ساعة صلاة العشاء إذ توقد فيه أنوار من القش أثناءها . وكذلك ظل تسع سنوات متتابعة شدت بعدها مصابيح إلى جذوع النخل التي كان يعتمد سقفه عليها . ولم تكن مساكن النبي أكثر من المسجد ترفاً ، وإن كانت بطبيعتها أكثر منه استنارة .

بنى محمد مسجده ومساكنه وأوى من بيت أبي أيوب إليها . ثم جعل يفكر في هذه الحياة الجديدة التي استفتح والتي نقلته ونقلت دعوته خطوة جديدة واسعة . فقد ألقى هذه المدينة وبين عشائها من التنافر ما لم تعرف

مكة ، لكنه ألحق قبائلها وبطونها تصبو إلى حياة فيها من السكينة ما يجنبها الخلاف والحزازات التي مزقتها في الماضي شرّ ممزق ، وما يهيء لها في المستقبل طمأنينة تطمع معها أن تكون أوفر من مكة ثروة وأعظم جاهاً . وما كانت ثروة يثرب ولا كان جاهها أول ما يعنى محمداً وإن كان بعض ما يعنيه ؛ إنما كان همه الأول والآخر هذه الرسالة التي ألقى الله عليه تبليغها والدعوة إليها والانداز بها . لقد حاربها أهل مكة من يوم بعثه إلى يوم هجرته أهول الحرب ، فحال ذلك دون امتلاء كل القلوب بنورها وكل الأتس إيماناً بها من خوف أذى قريش وعتها . والأذى والعتت يحولان بين الإيمان والقلوب التي لمّا يدخل الإيمان إليها . فيجب أن يؤمن المسلمون وأن يؤمن غيرهم بأن من اتبع الهدى ودخل في دين الله بما من من أن يصيبه الأذى ، ليزداد المؤمنون إيماناً ، وليقبل على الإيمان المتردد والخائف والضعيف . في هذا كان يفكر محمد أول طمأنينته إلى مسكنه . يثرب ، وإلى هذا كانت تتجه سياسته . وفي هذا الاتجاه يجب ان يترجم لحياته . هو لم يكن يفكر في ملك ولا في مال ولا في تجارة . إنما كان كل همه توفير الطمأنينة لمن يتبعون رسالته ، وكفالة الحرية لهم في عقيدتهم ككفالاتها لغيرهم في عقيدتهم . يجب أن يكون المسلم واليهودي والنصراني سواء في حرية العقيدة ، وفي حرية الرأي وحرية الدعوة إليه . فالحرية وحدها هي الكفيلة بانتصار الحق وتقدم العالم نحو الكمال في وحدته العليا . وكل حرب للحرية تمكين للباطل ونشر لجيوش الظلام لتقضى على جذوة النور المضيفة في النفس الانسانية ، والتي تصل بينها وبين الكون كله من أزلته إلى أبده ، صلة اتساق ومحبة ووحدانية ، لاصلة تفور وحرب وفناء .

هذه الوجهة في التفكير هي التي نزل بها الوحي على محمد منذ الهجرة ، وهي التي جعلته جنوحاً للسلم راغباً عن القتال مقتصداً طول حياته أشد القصد فيه . غير لاجئ إليه إلا لضرورة تقتضيه الدفاع عن الحرية ، دفاعاً

كفالة
حرية العقيدة

دعوة محمد
عن القتال

عن الدين وعن العقيدة. ألم يقل له أهل يثرب عن بايعوه في العقبة الثانية حين سمعوا المتجسس عليهم يصيح بقريش يئبها لأمرهم: « والله الذي بعثك بالحق إن شئت لنيمنن على أهل مئى غداً بأسيا فنا ». فكان جوابه: « لم نؤمر بذلك ». ألم تكن أول آية في القتال: « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ». ألم تكن الآية التي تلت هذه في أمر القتال قوله تعالى: « وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ». فتفكير محمد إذأ إنما كان متجها لغاية واحدة عليا هي كفالة حرية العقيدة والرأى كفالة في سبيلها وحدها أحل القتال . ودفاعا عنها أيج دفع المعتدى حتى لا يُقتن أحد عن دينه ، ولا يُظلم أحد بسبب عقيدته أو رأيه .

تفكير
أهل يثرب

بينما كانت هذه وجهة محمد في التفكير في أمر يثرب وما يجب لكفالة الحرية فيها، كان أهل هذه المدينة من استقبلوه يفكر ، وإن كان كل فريق يفكر على نحو يخالف تفكير غيره . فقد كان يثرب يومئذ المسلمون من مهاجرين وأنصار ، وكان بها المشركون من سائر الأوس والخزرج ، وكان بين هؤلاء وأولئك ما علمت . ثم كان بها اليهود يقيم منهم بنو قينقاع داخها و يقيم بنو قريظة في فدك وبنو النضير على مقربة منها وإلى هؤلاء يهود خيبر . أما المهاجرون والأنصار فقد ألق الدين الجديد بينهم بأوثق رباط ، وإن بقيت في نفس محمد بعض المخاوف أن ثور البغضاء القديمة بينهم يوماً ، مما جعله يفكر في وسيلة للقضاء على كل شبهة من هذا النوع تفكيراً كان له من بعد أثره . وأما المشركون من سائر الأوس والخزرج ، فقد ألقوا أنفسهم بين المسلمين واليهود ضعافاً تهكمتهم الحروب الماضية ، فاتجه همهم للوقعة بين هؤلاء وأولئك . وأما اليهود فبادروا بادىء الرأى إلى حسن استقبال محمد ظناً منهم أن في مقدورهم استمالته اليهم وإدخاله في دينهم ، والاستعانة به على تهويد جزيرة العرب حتى تقف في وجه النصرانية

التي أجنلت اليهود . شعب الله المختار . عن فلسطين أرض الميعاد ووطنهم القومى . وانطلق كلُّ على أساس تفكيره يمهّد أسباب النجاح لبلوغ غايته . هنا يبدأ دور جديد من أدوار حياة محمد لم يسبقه إليه أحد من الأنبياء والرسل . هنا يبدأ الدور السياسى الذى أبدى محمد فيه من المهارة والمقدرة والحكمة ما يجعل الانسان يقف دهشاً ، ثم يطأطئ الرأس إجلالاً وإكباراً . كان أكبر همه أن يصل يثرب موطنه الجديد الى وحدة سياسية ونظامية لم تكن معروفة من قبل فى سائر أنحاء الحجاز ، وإن كانت قد عرفت الى ما قبل ذلك بكثير ببلاد اليمن . فتنشاور هو ووزيره أبو بكر وعمر ، فكذلك كان يسميها . وقد كان أول ما انصرف اليه تفكيره بطبيعة الحال تنظيم صفوف المسلمين وتوكيد وحدتهم ، للقضاء على كل شبهة فى أن ثور العداوة القديمة بينهم . ولتحقيق هذه الغاية دعا المسلمين ليتآخوا فى الله أخوين أخوين . فكان هو وعلى بن أبى طالب أخوين . وكان عمه حمزة ومولاه زيد أخوين . وكان أبو بكر وخارجة بن زيد أخوين . وكان عمر بن الخطاب وعثمان بن مالك الخزرجى أخوين . وتآخى كذلك كل واحد من المهاجرين الذين كثير عددهم يثرب . بعد أن تلاحق اليها سائر من كان منهم بمكة فى أعقاب هجرة الرسول إليها ، مع واحد من الأنصار إزاء جعل له الرسول حكم إزاء الدم والنسب سواء . وبهذه المؤاخاة ازدادت وحدة المسلمين توكيداً .

وأظهر الأنصار من كرم الضيافة إزاء إخوانهم المهاجرين ما تقبله هؤلاء أول الأمر مغتبطين . ذلك بأنهم تركوا مكة وتركوا وراهم ما يملكون فيها من مال ومتاع ودخلوا المدينة ولا يكاد الكثيرون منهم يجدون قوتهم . ولم يكن منهم على جانب من الثراء والنعمة غير عثمان بن عفان . أما الآخرون فقليل منهم من احتمل من مكة شيئاً ينفعه . وقد ذهب حمزة عم الرسول يوماً يطلب إليه أن يجد له ما يقتات به . وكان عبد الرحمن بن عوف

وسعد بن الربيع أخوين . ولم يكن عبد الرحمن يملك يثرب شيئاً . فعرض سعد عليه أن يشاطره ماله . فأبى عبد الرحمن وطلب إليه أن يدلّه على السوق ، وفيها بدأ يبيع الزبدة والخبز ، واستطاع بمهارته التجارية أن يصل إلى الثروة في زمن قصير ، وأن يمهر إحدى نساء المدينة وأن تكون له قوافل تذهب في التجارة وتجيء . وصنع غير عبد الرحمن من بعض المهاجرين صديقه ، أن كان هؤلاء المكيين من الدراية في شؤون التجارة ما قيل معه عن أحدهم : إنه ليحيل بالتجارة رمل الصحراء ذهباً .

المشتغلون
بالتجارة

أما الذين لم يشتغلوا بالتجارة ، ومن بينهم أبو بكر وعمر وعلي بن أبي طالب وغيرهم ، فقد عملت أسرهم في الزراعة في أراضي الأنصار مزارعة مع ملاكها . وكان غير هؤلاء وأولئك يلقون من الحياة شدة وبأساء . لكنهم كانوا يأبون أن يعيشوا كلاً على غيرهم ؛ فكانوا يجهدون أنفسهم في العمل أشد الاجتهاد ، ويجدون في ذلك من لذة الطمأنينة لأنفسهم ولعقيدتهم ما لم يكونوا يجدون بمكة . على أن جماعة من العرب الذين وفدوا على المدينة وأسلموا ، كانوا في حال من العوز والمترية ، حتى لم يكن لأحدهم سكن يلجأ إليه . هؤلاء أفرد محمد لهم صُفَّة المسجد -- وهي المكان المسقوف منه -- يبيتون بها ويأوون إليها ، ولذلك سماها أهل الصُفَّة ، وجعل لهم رزقاً من مال المسلمين من المهاجرين والأنصار الذين آتاهم الله رزقاً حسناً .

المشتغلون
بالزراعة

اطمأن محمد إلى وحدة المسلمين بهذه المواخاة . وهي لا ريب حكمة سياسية تدل على سلامة تقدير وبعد نظر ، تبين مقدارهما حين نقف على ما كان من محاولة المناققين الواقعة بين الأوس والخزرج من المسلمين وبين المهاجرين والأنصار لافساد أمرهم . لكن العمل السياسي الجليل حقاً والذي يدل على أعظم الاقتدار ، فذلك ما وصل به محمد إلى تحقيق وحدة يثرب وإلى وضع نظامها السياسي بالاتفاق مع اليهود على أساس متين من الحرية

عودة محمد
واليهود

والتحالف . وقد رأيت اليهود كيف أحسنوا استقباله أملاً في استدراجه إلى دينهم . وقد بادر هو إلى رد تحيتهم بمثلها ، وإلى توثيق صلته بهم ، فتحدث إلى رؤسائهم وتقرب إليه كبارؤمهم وربط بينه وبينهم برابطة المودة كأهل كتاب موحدين . وبلغ من ذلك أن كان يصوم يوم صومهم ، وكانت قبلته في الصلاة ما تزال إلى بيت المقدس قبله أنظارهم ومثابة بنى إسرائيل جميعاً . وما كانت الأيام لتزیده باليهود أو لتزيد اليهود به إلا مودة وقرى . كما أن سيرته وعظيم تواضعه وجمال عطفه وحسن وفائه وفیض بره بالفقير والبائس والمحروم وما أورثه ذلك من قوة السلطان على أهل يثرب ، كل ذلك وصل بالأمر بينه وبينهم إلى عقد معاهدة صداقة وتقرير الحرية الاعتقاد وتحالف : هي ، في اعتقاد . من الوثائق السياسية الجديرة بالاعجاب على ممر التاريخ . وهذا الدور من حياة الرسول لم يسبقه إليه نبي أو رسول . فقد كان عيسى وكان موسى وكان من سبقهما من الأنبياء يقفون عند الدعوة الدينية يبتغونها للناس من طريق الجدال ، ومن طريق المعجزة ، ثم يتركون لمن بعدهم من الساسة وذوى السلطان أن ينشروا هذه الدعوة بالمقدرة السياسية وبالدفاع عن حرية إيمان الناس بها ، ولو دفاعاً مسلحاً . فيه الحرب والقتل والقتال . انتشرت المسيحية على يد الحواريين من بعد عيسى ، فظلوا ومن تبعهم يمدّبون ، حتى جاء من الملوك من لان قلبه لهذا الدين فأواه ونشره . وكذلك كان أمر سائر الأديان في شرق العالم وغربه . فأما محمد فقد اراد الله أن يتم نشر الاسلام وانتصار كلمة الحق على يديه ، وأن يكون الرسول والسياسي والمجاهد والفتاح ، كل ذلك في سبيل الله وفي سبيل كلمة الحق التي بُعث بها . وهو قد كان في ذلك كله عظيماً ، وكان مثل الكمال الانساني على ما يجب أن يكون .

كتب محمد بين المهاجرين والأنصار كتاباً واعد فيه اليهود وعاهدهم

وثيقة سياسية
شظيرة

وأقرهم على دينهم وأموالهم واشترط عليهم وشرط لهم . وهذا الكتاب يقرر أن : « المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أمة واحدة من دون الناس . وكل طائفة منهم تقدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وإن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحاً بينهم — والمفروح المقتل بالدين والعيال — أن يُعطوه بالمعروف في فداء أو عقل . والآيـالف مؤمن مولى مؤمن دونه . وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابغى دسيسة — أى طبيعة — ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم ، ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ولا ينصر كافرأ على مؤمن ، وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدانهم ، وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس . . . وإن من تبعنا من يهود فإن له النصر والاسوة غير مظلومين ولا متناصرٍ عليهم ، وإن اليهود ينفقون مع المسلمين ما داموا محاربين ، وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، ويهود بنى النجّار وبنى الحارث وبنى ساعدة وبنى جُشم وبنى ثعلبة وبنى الأوس ومواليهم وبطانتهم كبنى عوف سواء ، وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم . وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وبينهم النصح والصيحة والبرّ دون الأثم ، واليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة ، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ، ولا تجار حرمة إلا باذن أهلها . ولا تجار قريش ولا من نصرها . وإن بينهم النصر على من دهم يثرب ، وإذا دُعوا الى صلح يصلحون ويلبسونه فانهم يصلحون ويلبسونه ، وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده الى الله والى محمد رسول الله . » .

هذه هى الوثيقة السياسية التى وضعها محمد منذ ألف وثلاثمائة وخمسين سنة ، والتى تقرّر حرية العقيدة وحرية الرأى وحرمة المدينة وحرمة الحياة

وحرمة المال وتحريم الجريمة . وهي فتح جديد في الحياة السياسية والحياة المدنية في عالم يومئذ : هذا العالم الذي كانت تعبت به يد الاستبداد وتعيث فيه يد الظلم فساداً . ولئن لم يشترك في توقيع هذه الوثيقة من اليهود بنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع فانهم ما لبثوا بعد قليل أن وقّعوا بينهم وبين النبيّ صحفاً مثلها . وكذلك أصبحت المدينة وما وراها حراماً لأهلها ، عليهم أن ينضحوا عنها ويدفعوا كل عادية عليها ويتكافلوا فيما بينهم لاحترام ماقررت هذه الوثيقة فيها من الحقوق ومن صور الحرية .

طاب محمد نفساً بهذه النتيجة ، وسكن المسلمون الى دينهم وجعلوا يقيمون فرائضه مجتمعين وقيمونها فرادى لا يخافون أذى ولا يخشون فتنة . إذ ذلك بنى محمد بعائشة بنت أبي بكر ، وكانت في العاشرة أو الحادية عشرة من عمرها . وكانت فتاة رقيقة حلوة القسّمات محبة العشرة ، وكانت تخطو دراكاً من الطفولة الى النضال . وكانت ذات ولع باللعب والمرح . لكنها كانت نامية نمواً حسناً . ووجدت في محمد أول انتقالها اليه بمسكنها الى جانب مسكن سودة في جوار المسجد أباً باراً عطوفاً ، وزوجاً مشفقاً رقيقاً ، لا يأبى عليها أن تعبت وتلهو بالأعيان . وتسليه بذلك عن دائم تفكيره في العبء العظيم الذي ألقى عليه . وفي سياسة يثرب التي بدأ بتوجيهها الى خير وجهة .

في هذه الفترة التي سكن فيها المسلمون الى دينهم فرضت الزكاة وفرض الصيام وقامت الحدود . وتمكنت يثرب شوكة الاسلام . وكان محمد حين قدم المدينة إنما يجتمع إليه الناس للصلاة لحين مواقيتهم بغير دعوة ؛ ففكر في أن يدعو للصلاة ببوق كالبوق الذي يدعو به اليهود لصلاتهم . لكنه كره البوق فأمر بالناقوس ، فنجحت ليضرب به للصلاة . كما تفعل النصارى . على أنه بعد مشورة عمر وطائفة من المسلمين على رواية ، وبأمر الله على لسان الوحي في رواية أخرى ، عدل عن الناقوس أيضاً إلى الأذان ، وقال لعبد الله بن زيد بن

الأذان
للصلاة

ثعلبة : « قم مع بلال فألقيا عليه — أى صيغة الأذان — فليؤذن بها فإنه أندى صوتاً منك . وكان لامرأة من بنى النجار منزل إلى جانب المسجد أعلى منه ، فكان بلال يرقاه فيؤذن عليه . وكذلك صار أهل يثرب جميعاً يسمعون منذ الفجر من كل يوم دعوة إلى الاسلام مرتلة ترتيلاً حسناً بصوت رطب جميل يوجهها بلال مع كل ريح إلى كل النواحي ويلقى في أذن الحياة نداءه : « الله أكبر الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، حتى على الصلاة ، حتى على الفلاح ، الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله ، . وكذلك انقلبت مخاوف المسلمين أمناء وأصبحت يثرب مدينة الرسول . وأصبح غير المسلمين من أهلها يشعرون بقوة المسلمين قوة منبعثة من أعماق قلوب عرفت التضحية في سبيل الايمان وذوقت الأذى بسببه ألواناً ، وهامى ذى اليوم تحصد ثمرة الصبر وتستمع من حرية العقيدة بما قرّر الاسلام من أن ليس لانسان على انسان سيادة ، ومن أن الدين لله وحده والعبودية له وحده ، والناس أمام وجهه الأكرم سواسية لا يُجزؤن إلا بأعمالهم وبإتية التي تصدر هذه الأعمال عنها . وانفسح المجال أمام محمد ليعلن تعاليمه وليكون بذاته وبتصرفاته المثل الأسمى لهذه التعاليم ، وليضع بذلك حجر الأساس للحضارة الاسلامية .

الأخاء اساس
الحضارة
الاسلامية

وحجر الأساس هذا هو الاخاء الانساني إخاء يجعل المرء لا يكمل إيمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وحتى يصل به هذا الأخاء الى غاية البر والرحمة من غير ضعف ولا استكانة . سأل رجل محمداً : أى الاسلام خير؟ فقال : « تَطْعَم الطعام وتقرأ السلام على من عَرَفْت ومن لم تعرف . » وفي أول خطبة ألقاها بالمدينة قال : « من استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشقّة من تمر فليفعل ، ومن لم يجد فكلمة طيبة فان بها تجزى الحسنة عشر أمثالها . » وفي خطبته الثانية قال : « اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً . واتقوه حقّ تقاته واصدقوا الله صالح ما تقولون . وتحابوا بروح الله بينكم ، إن الله بغضب أن

يُنْكثَ عهده . . بهذا وبمثله كان يحدث أصحابه وكان يخطب الناس في مسجده ، مستنداً إلى جذع من جذوع النخل التي يعتمد عليها سقفه ، حتى أمر فضيحه له منبر من ثلاث درجات كان يقوم على درجته الأولى خطيباً . وكان يجلس على درجته الثانية .

ولم تكن أقواله وحدها دعامة الدعوة إلى هذا الإخاء الذي جعل منه حجر الزاوية في حضارة الإسلام ، بل كانت أعماله وكان مثله هو هذا الإخاء في أسنى صور كماله . كان رسول الله . لكنه كان يأبى أن يظهر في أي من مظاهر السلطان أو الملك أو الرياسة الزمنية . كان يقول لأصحابه : « لا تَطْرُقُونِي كما أطرت النصارى ابن مريم : إنما أنا عبد الله ، فقولوا عبد الله ورسوله . » وخرج على جماعة من أصحابه متوكئاً على عصا فقاموا له فقال : « لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً . » وكان إذا بلغ في مسيره أصحابه جلس منهم حيث انتهى به المجلس . وكان يمزح أصحابه ويخالطهم ويحدثهم . ويداعب صبيانهم ويُجلسهم في حجره . ويحيب دعوة الحرّ والعبد والأمة والمسكين . ويعود المرضى في أقصى المدينة ، ويقبل عذر المعتذر ويبدأ من لقيه بالسلام ، ويبدأ أصحابه بالمصافحة ، ولا يجلس إليه أحد وهو يصلي إلا خفف صلاته وسأله عن حاجته . فإذا فرغ عاد إلى صلاته . وكان أكثر الناس تبساً وأطيبهم نفساً ما لم ينزل عليه قرآن أو يعظ أو يخطب . وكان في بيته في مهنة أهله يغلى ثوبه ويرقع ويحلب شاته ويخسف نعله ويخدم نفسه ويعقل البعير ويأكل مع الخادم ويقضي حاجة الضعيف والبائس والمسكين . وكان إذا رأى أحداً في حاجة آثره على نفسه وأهله ولو كان بهم خصاصة . وكان لذلك لا يدخر شيئاً لغيره : حتى لقد توفى ودرعه مرهونة عند يهودي في قوت عياله . وكان جمّ التواضع ، شديد الوفاء ، حتى لقد وفد للنجاشي وفداً فقام يخدمهم ، فقال له أصحابه : يكفيك . فقال : إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين وإني

أحب أن أكاftهم . وبلغ من وفائه أنه ما ذكرت خديجة إلا ذكرها أطيب الذكر؛ حتى كانت عائشة تقول : ماغرتُ على امرأة ماغرتُ على خديجة ، لما كنت أسمعها يذكرها. ودخلت عليه امرأة فهش لها وأحسن السؤال عنها؛ فلما خرجت قال : إنها كانت تأتينا أيام خديجة ، وإن حسن العهد من الإيمان . وبلغ من طيبة نفسه ورقة قلبه أنه كان يدع بني بناته يداعبونه أثناء صلاته . بل لقد صلى بأمامة ابنة بنته زينب يحملها على عاتقه ، فاذا سجد وضعها وإذا قام حملها. ولم يقف بالبر والرحمة اللذين جعلهما دعامة الاخاء الذي قامت الحضارة الجديدة على أساسه عند الانسان . بل عدّاهما الى الحيوان كذلك . كان يقوم بنفسه فيفتح بابه لهرة تلمس عنده ملجأ . وكان يقوم بنفسه على تمريض ديك مريض ، وكان يمسح لجواده بكم قبيصه . وركبت عائشة بعيراً فيه صعوبة فجعلت تردده : فقال لها : عليك بالرفق . وكذلك شملت رحمته كل ما اتصل بها ، وأظلت كل من كان بحاجة إلى فيه ظلالتها .

رقع محمد
بالحيوان

وهي لم تكن رحمة ضعف ولا استكانة ، ولم تشبها شائبة من ولا استعلاء : إنما كانت إخاء في الله بين محمد والذين انصلوا به جميعاً . ومن ثم يفترق أساس حضارة الاسلام عن كثير من سائر الحضارات . الاسلام يضع العدل إلى جانب الاخاء ويزي أن الاخاء لا يكون إخاء إلا به . « فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ » . « وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ » . يجب أن يكون الدافع النفساني وحده والارادة الحرة المطلقة وابتغاء وجه الله دون أي اعتبار آخر ، مصدر الاخاء وما يدعو اليه من برّ ورحمة ، ويجب أن يصدر ذلك عن نفس قوية لا تعرف لغير الله إسلاما ، ولا تضعف ولا تتهالك باسم الورع أو التقوى . ولا يتسرب اليها خوف أو وهن الا عن معصية تجرحها أو إثم تقترفه . ولا تكون النفس قوية إذا كانت في حكم غيرها ، ولا تكون قوية إذا خضعت لحكم أهوائها وشهواتها

إخاء عدل
ورحمة

وقد هاجر محمد وأصحابه من مكة حتى لا يكونوا في حكم قريش ولا يُضعف
أذاها نفس أحد منهم . والنفس إنما تخضع لحكم الأهواء والشهوات إذا تحكم
الجسد في الروح وغلبت الشهوة العقل ، وأصبحنا نقيم للحياة الخارجة عنا
سلطانا على حياتنا نحن . على حين أنا في غنى عنها وأنا أصحاب السلطان عليها .
وكان محمد المثل الأعلى في القوة على الحياة قوة جعلته لا يأبى أن يعطي غيره
كل ما عنده ، حتى قال أحدهم: إن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى فاقة . ولما
لا يكون لشيء مما في الحياة سلطان عليه ، وليسكون له هو كل السلطان عليها .
كان شديد الزهد في مادتها ، على شدة رغبته في الاحاطة بها وفي معرفة
أسرارها ، وتوقه إلى غاية الحقيقة من أمرها . بلغ من زهده فيها أن كان فراشه
الذي ينام عليه أدما حشوه ليف ، وأنه لم يشبع قط ولم يتعمم خبز الشعير
يومين متواليين . وكان السويق طعام أكلته الكبرى ، وكان التمر طعام سائر
يومه . وكان الثريد مما لا يكثر له ولأهله تناوله . ولقد عانى الجوع غير مرة ،
حتى كان يربط على بطنه حجراً يكظم به على صيحات معدته . ذلك كان
معروف أمره في طعامه . وإن لم يمنعه ذلك عن أن ينال في بعض الأحيان من
أطياب الرزق ، وأن يُعزف عنه حبه زند الخروف والقرع والعسل والحلوى .
وكان زهده في اللباس كزهده في الطعام : أعطته امرأة يوماً ثوباً كان
بحاجة إليه . فطلب إليه أحدهم ما يصلح كفنألميت فأعطاه الثوب . وكان معروف
ثيابه القميص والكساء ، وكانا من صوف أو قطن أو تيل . على أنه في بعض
الظروف لم يكن يأبى أن يلبس من أقشة البين لباساً غنياً يناسب الظرف .
وكان يحتذى حذاء بسيطاً ، ولم يلبس خفا إلا حين أهداه النجاشي
خفين وسراويل .

مودة محمد علي
الحياة

مودة و
الطعام
واللباس

لم يكن هذا الزهد ولا هذه الرغبة عن الدنيا تقشُفاً للتقشف ، ولا كانا
من فرائض الدين . فقد جاء في القرآن: «كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ، وَفِي

الأثر : «إعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً وإعمل لآخرتك كأنك تموت غداً» .
 لكن محمداً أراد أن يضرب للناس المثل الأعلى في القوة على الحياة قوة لا يتطرق إليها ضعف ، ولا يستعبد صاحبها متاع أو مال أو سلطان أو أي مما يجعل لغير الله عليه سيادة . والاخاء الذي يستند إلى هذه القوة ويكون له من المظهر ما ضرب محمد له المثل الأعلى فيما رأيت ، إخاء محض بالغ غاية الاخلاص والسمو . إخاء لا تشوبه شائبة : لأن العدل يتضافر فيه مع الرحمة ، ولأن صاحبه لا يرضى أن تحمله عليه إلا إرادته الحرة المطلقة . لكن الاسلام إذ يضع العدل إلى جانب الرحمة يضع العفو إلى جانب العدل . على أن يكون عفواً عن مقدرة ، ليكون مظهر الرحمة صريحاً صحيحاً ، وليكون القصد منه إلى الإصلاح صادقاً .

هذا الأساس الذي وضعه محمد للحضارة الجديدة التي يقيمها يتلخص خير تلخيص فيما روى عن علي بن أبي طالب أنه سأل رسول الله عن سنته فقال : «المعرفة رأس مالي ، والعقل أصل ديني ، والحب أساسي ، والشوق مركبي ، وذكر الله أنيسي ، والثقة كنزى ، والحزن رفيقي ، والعلم سلاحى ، والصبر رداًئى ، والرضا غنيمتى . والفقر نخري ، والزهد حرفتى ، واليقين قوتى ، والصدق شفيعى ، والطاعة حسبي ، والجهاد خلقى ، وقرة عيني في الصلاة» .

تركت تعاليم محمد هذه وترك مثله وقدوته في النفوس أعمق الأثر . حتى لقد أقبل كثيرون على الاسلام ، وزاد المسلمون بالمدينة شوكة وقوة . هنالك بدأ اليهود يفكرون من جديد في موقفهم من محمد وأصحابه . لقد عقدوا معه عهداً ، وكانوا يطمعون في أن يضموه إلى دينهم وفي أن يزدادوا به على النصارى منعة وقوة . وهذا هو أقوى من هؤلاء وأولئك جميعاً ، وهذه كلمته تزداد ثباتاً . بل هذا هو يفكر في أمر قريش وإخراجها إياه وإخراجها المهاجرين

بدء
 مخاوف اليهود

من مكة، وقتنتها من استطاعت فنتته من المسلمين عن دينه . أتري اليهود
 يتركون دعوته تنتشر وسلطانة الروحي يمتد ، مكثفين بالأمن في جواره
 أمناً يزيد تجارتهم سعة وثروتهم ربحاً ؟ لعلمهم كانوا يسبون هذا لو أنهم
 أمنوا ألا تمتد دعوته إلى اليهود وألا تفشو في عامتهم ، على حين تقتضيه
 تعاليمهم ألا يعترفوا بنبي من غير بني إسرائيل . لكن حبراً عالماً من كبار
 أحبارهم وعلمائهم هو عبد الله بن سلام لم يلبث أن اتصل بالنبي حتى أسلم
 وأمر أهل بيته فأسلموا معه . وخشى عبد الله أن يقول اليهود فيه ، إذا علموا
 بإسلامه ، غير ما اعتادوا . فطلب إلى النبي أن يسألهم عنه ما شأنه ؟ قبل أن
 يعرف أحد منهم إسلامه . قالوا: سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وعالمنا . فلما خرج
 عبد الله إليهم وتيتوا ما صنع ، ودعاهم هو إلى الاسلام . خافوا عاقبة أمره
 فوقعوا به وأذاعوا عنه قالة السوء في أحياء اليهود كلها ؛ وأجمعوا أمرهم على
 أن يكيدوا لمحمد وينكروا نبوته . ولم يكن بأسرع من أن اجتمع إليهم من
 بقى على الشرك من الأوس والخزرج ومن أسلم منهما نفاقاً جرياً وراء مغنم
 أو إرضاء لذي عصبه وبأس .

إسلام
 عبد الله
 ابن سلام

وهنا بدأت حرب جدل بين محمد واليهود أشد لَدَدًا وأكبر مكرًا من
 حرب الجدل التي كانت بينه وبين قريش بمكة . في هذه الحرب اليتيرية تعاونت
 الدسيسة والنفاق والعلم بأخبار السابقين من الأنبياء والمرسلين، أقامتها اليهود
 جميعاً صفوفاً مترابطة مهاجمون بها محمداً ورسالته وأصحابه المهاجرين والأنصار .
 دسوا من أحبارهم من أظهر إسلامه ومن استطاع أن يجلس بين المسلمين يظهر
 غاية التقوى ، ثم ما يلبث الحين بعد الحين أن يبدى من الشكوك والريب
 ويلقى على محمد من الأسئلة ما يحسبه يززع في نفس المسلمين عقيدتهم به
 ورسالة الحق التي بدعو إليها . وانضم إلى اليهود جماعة من الأوس والخزرج
 الذين أسلموا هم أيضاً نفاقاً ليسألوا وليوقعوا بين المسلمين . وبلغ من تعنتهم

حرب الجدل
 بين محمد
 واليهود

أن اليهود منهم كانوا ينكرون ما في التوراة ، وأنهم جميعاً ، وكلهم يؤمنون بالله سواء منهم بنو إسرائيل والمشركون الذين يتخذون أصنامهم إلى الله زلي ، كانوا يسألون محمداً : إذا كان الله قد خلق الخلق فمن خلق الله ؟ ! وكان محمد يجيبهم بقوله تعالى : « قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ، اللهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ . » ، وفظن المسلمون لأمر خصومهم وعرفوا غاية سعيهم ، ورأوهم يوماً في المسجد يتحدثون بينهم خافضى أصواتهم قد لصق بعضهم ببعض ، فأمر بهم محمد فأخرجوا من المسجد إخراجاً عنيفاً . ولم يثنهم ذلك عن دسائسهم وسعيهم في الواقعة بين المسلمين . مرّ أحدهم : شاس بن قيس على نفر من الأوس والخزرج في مجلس جمعهم . فغاظه صلاح ذات بينهم وقال في نفسه : قد اجتمع ملائبي قبيلة بهذه البلاد : ومالنا معهم إذا اجتمع ملوئهم بها من قرار . وأمر قتي شابا من اليهود كان معهم أن ينتهز فرصة يذكر فيها يوم بُعثت وما كان من ظفر الأوس فيه على الخزرج . وتكلم الغلام . فذكر القوم ذلك اليوم وتنازعوا وتفاخروا واختصموا وقال بعضهم لبعض : إن شئتم عدنا إلى مثلها . وبلغ محمداً الأمر ، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه فدكرهم بما ألق الاسلام بين قلوبهم ، وجعلهم إخواناً متحابين ، وما زال بهم حتى بكى القوم وعانق بعضهم بعضاً واستغفروا الله جميعاً .

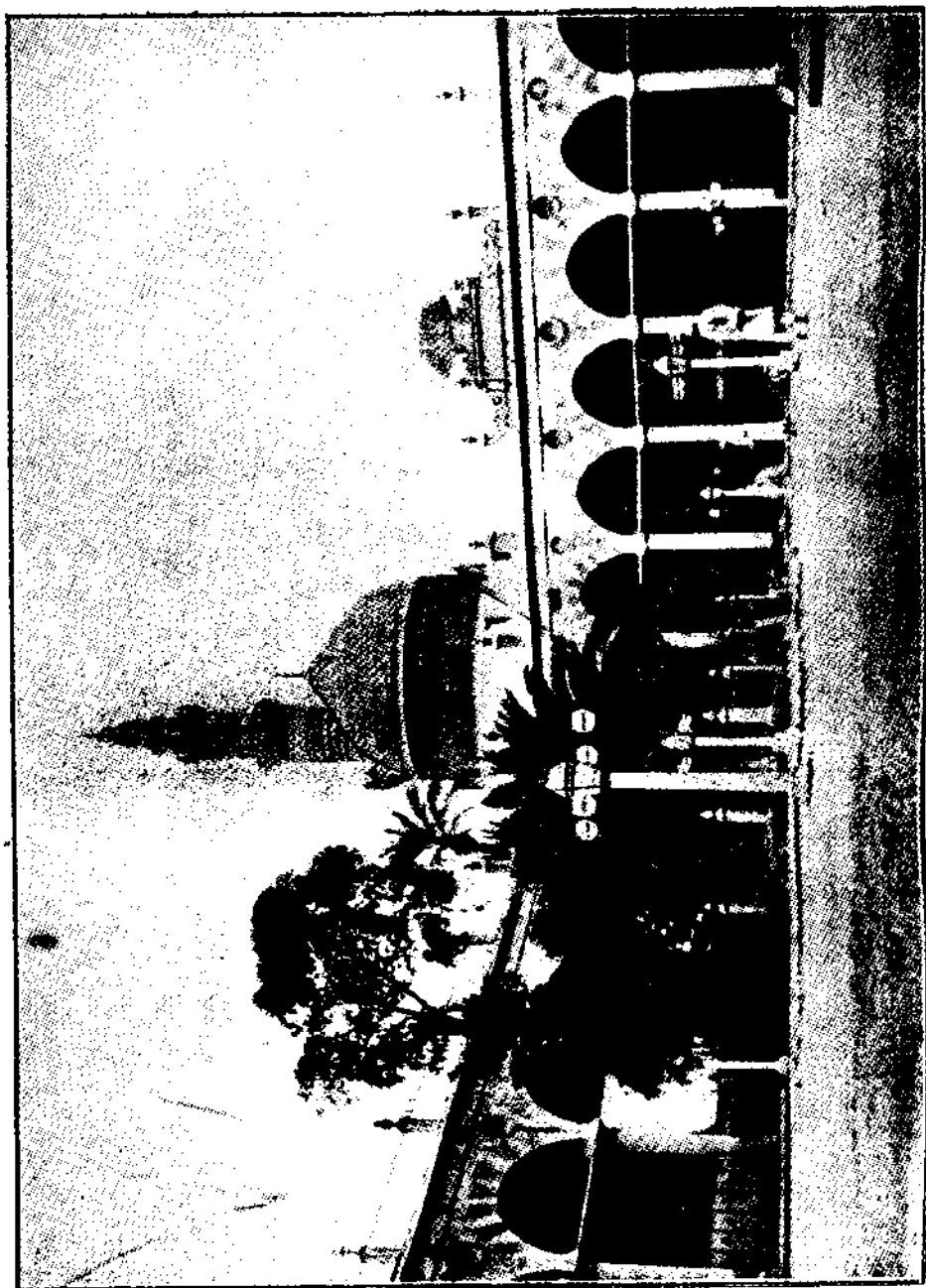
عائلة الوقعة
بين الأوس
والخزرج

بلغ الجدال بين محمد واليهود مبلغاً من الشدة يشهد به ما نزل من القرآن فيه . فقد نزل صدر سورة البقرة الى الآية الحادية والثمانين منها ونزل قسم عظيم من سورة النساء ، وكله يذكر هؤلاء الكفايين وإنكارهم ما في كتابهم وبلغهم لكفرهم وإنكارهم أشد اللعنة : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ، أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِّقُوا بَيْنَ قُلُوبِكُمْ وَفَرِّقُوا قُلُوبَكُمْ . وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا

يؤمنون . ولَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ .»

وبلغ الجدل بين اليهود والمسلمين حداً كان يصل أحياناً ، برغم ما بينهم من عهد ، الى الاعتداء بالأيدي . وحَسْبُكَ لتقدر هذا أن تعلم أن أبا بكر . على ما كان عليه من دَمَاءِ الْخُلُقِ وطول الأناة ولين الطبع ، تحدث الى يهودى يدعى فِنْحَاصٍ يدعوه الى الاسلام : فرد فِنْحَاصُ بقوله : « والله يا أبا بكر ما بنا الى الله من فخر وإنه إلينا لفقير ، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا . وإننا عنه أغنياء وما هو عنا بغنى . ولو كان غنياً عنا ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم ، إنها كم عن الربا ويعطيناه ، ولو كان غنياً ما أعطانا . » . وفِنْحَاصُ يشير هنا الى قوله تعالى : « وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضَاعِفُهُ لَكُمْ . » لكن أبا بكر لم يطق على هذا الجواب صبراً . فغضب وضرب وجه فِنْحَاصُ ضرباً شديداً ، وقال : والذي نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبينكم لضربت رأسك يا عدو الله . وشكا فِنْحَاصُ أمره الى النبي وأنكر ما قاله لأبى بكر فى الله : فزل قوله تعالى : « لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ، سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ . »

لم يكتف اليهود بالوقعة بين المهاجرين والأنصار وبين الأوس والخزرج من هؤلاء ، ولم يكفهم فتنة المسلمين عن دينهم ومحاولة ردهم الى الشرك دون محاولة تهويدهم ، بل زادوا على ذلك أن حاولوا فتنة محمد نفسه . ذلك أن أحبارهم وأشرافهم وساداتهم ذهبوا إليه وقالوا له : « إنك قد عرفت أمرنا ومنزلتنا ، وإننا إن اتبعناك اتبعتك اليهود ولم يخالفونا ، وإن بيننا وبين بعض قومنا خصومة فتحكم إليك فتفضى لنا فتبعك وتؤمن بك . » فزل فيهم قوله تعالى :



المسجد التوي

• وَأَنْ أَحْكُمُ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ . أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْتَغُونَ ؛ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ . .

صاق اليهود ذرعاً بمحمد ففكروا في أن يمكروا به وأن يقنعوه بالجلاء عن المدينة كما أجلاه أذى قريش إياه وأصحابه عن مكة . فذكروا له أن من سبقه من الرسل ذهبوا جميعاً إلى بيت المقدس وكان به مقامهم ، وأنه إن يكن رسولا حقا فجدير به أن يصنع صنيعهم وأن يعتبر المدينة وسطاً في هجرته بين مكة ومدينة المسجد الأقصى . لكن محمداً لم يحتج إلى طويل تفكير فيما عرضوا عليه ليعلم أنهم يمكرون به . وأوحى إليه الله يومئذ ، على رأس سبعة عشر شهراً من مقامه بالمدينة ، أن يجعل قبلته إلى المسجد الحرام بيت إبراهيم وإسماعيل ، فنزلت الآية : « قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا . قَوْلَ وَجْهِكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ . » وأنكر اليهود عليه ما فعل وحاولوا فتنه مرة أخرى بقولهم : إنهم يتبعونه إذا هو رجع إلى قبلته : فنزل قوله تعالى : « سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَاهَهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ، قُلْ لَهِ السُّمُورُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ، وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ ، وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ . . »

سرف القبة
الى مكة

ومد نصارى
نجران

في هذا الظرف وفد على المدينة وفد من نصارى نجران عدتهم ستون راكبا ، من بينهم من شرف فيهم ودرس كتبهم وحسن عليه في دينهم ، فكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرفوه ومولوه وأخدموه وبنوا

له الكنائس وبسطوا عليه الكرامات . ولعل هذا الوفد إنما جاء إلى مدينة النبي حين علم بما بينه وبين اليهود من خلاف، طمعاً في أن يزيد هذا الخلاف شدة حتى يبلغ به العداوة، فيريح النصرانية المتاخمة في الشام وفي اليمن من دسائس اليهود وعدوان العرب . واجتمعت الأديان الثلاثة الكتابية بمجيء هذا الوفد ومجداله النبي وقيام ملحمة كلامية عنيفة بين اليهودية والمسيحية والاسلام . فأما اليهود فكانوا ينكرون رسالة عيسى ومحمد إنكاراً فيه من العنت ما رأيت ، ويزعمون أن عزيراً ابن الله . وأما النصارى فكانوا يقولون بالتثليث وألوهية عيسى . وأما محمد فكان يدعو إلى توحيد الله ، وإلى الوحدة الروحية تنتظم العالم من أزله إلى أبده . كان اليهود والنصارى يسألونه عن يؤمن بهم من الرسل فيقول : « تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » . وكان ينكر عليهم أشد الانكار كل ما يلقى أية شبهة على وحدة الله ، ويذكر لهم أنهم حرّفوا الكلم بما في كتبهم عن مواضعه . وأنهم يذهبون إلى غير ما ذهب إليه النبيون والرسل الذين يُقرّون لهم بالنبوة ، وأن ما جاء به عيسى وموسى ومن سبقهم لا يختلف في شيء عما جاء هو به : لأن ما جاءوا به إنما هو الحقيقة الأزلية الخالدة التي تتكشف في جلال وضوحها وعظمة بساطتها لكل من تزد نفسه عن الخضوع لغير الله في عظمة وحدته ، ونظر في الكون على أنه وحدة متصلة نظرة سامية فوق أهواء الساعة ومطامع العاجلة وشهوات المادة ، مجردة عن الخضوع الأعمى لأوهام العامة ولما وجد عليه آباءه وأجداده .

أتى مؤتمر أعظم من هذا المؤتمر الذي شهدت يثرب تلتقي فيه الأديان الثلاثة التي ما تزال حتى اليوم تتجاذب مصابير العالم ، وتلتقي فيه لأسمى فكرة

مؤتمر الأديان
الثلاثة

وأجل غاية؟ لم يكن مؤتمراً اقتصادياً ولا كان مرماه أى غرض من هذه الأغراض المادية التي ينطح عالمنا اليوم عبثاً صخرتها؛ إنما كانت غاية روحية تقف من ورائها في أمر النصرانية واليهودية مطامع السياسة ومآرب أرباب المال وذوى الملك والسلطان، ويقف فيه محمد لغاية روحية إنسانية بحتة يمل عليه الله في سبيلها الصيغة التي يُلقى بها إلى اليهود وإلى النصارى وإلى الناس كافة، يقول لهم فيها: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ» .

ماذا يستطيع اليهود أو يستطيع النصارى أو يستطيع غيرهم أن يقولوا في هذه الدعوة: ألا يعبدوا إلا الله ولا يشركوا به شيئاً ولا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله؟ فأما الروح المخلصة الصادقة، فأما النفس الإنسانية التي كُرِّمَتْ بالعقل والعاطفة فلا تستطيع إلا أن تؤمن بهذا دون غيره. لكن في الحياة الإنسانية إلى الجانب النفساني جانبها المادي. فيها هذا الضعف الذي يجعلنا نقبل لغيرنا علينا سلطاناً بئس يشتري به أنفسنا وأرواحنا وقلوبنا. فيها هذا الغرور القتال للكرامة وللعاطفة ولنور النفس العاقلة. هذا الجانب المادى المصوّر في المال وفي الجاه وفي كاذب الألقاب والرتب هو الذي جعل أبا حارثة أكثر نصارى نجران علماً ومعرفةً يُبدل إلى رفيق له باقتناعه بما يقول محمد؛ فلما سأله رفيقه: فما يمنعك منه وأنت تعلم هذا؟ كان جوابه: يمنعني ما صنع بنا هؤلاء القوم، أشرفونا ومولونا وأكرمونا وقد أبوا إلا خلافة، فلو فعلت نزعوا منا كل ما ترى.

دعا محمد اليهود والنصارى إلى هذه الدعوة أو يُبَلِّغُ النصارى فأما اليهود فكان بينه وبينهم عهد المودعة. إذ ذاك تشاور النصارى ثم أعلنوا إليه أنهم رأوا ألا يلاعنوه وأن يتركوه على دينه ويرجعوا على دينهم.

تراجع وفد
النصارى
ورجعوا بهم

لكنهم رأوا حرص محمد على العدل حرصاً احتذى أصحابه فيه مثاله، فطلبوا إليه أن يعث معهم رجلاً يحكم بينهم في أشياء اختلفوا عليها من أقوالهم. وبعث محمد معهم أبا عبيدة بن الجراح ليقتضى بينهم فيما اختلفوا فيه. وجعل محمد يمكن للحضارة التي وضع حجر الأساس فيها بتعاليمه ومثله: وجعل يفكر هو وأصحابه من المهاجرين فيما لم يفهم التفكير لحظة فيه منذ هجرتهم من مكة: فيما يجب أن يكون موقفهم من قريش وأمرهم معهم. ولقد كان يدفعهم إلى هذا التفكير أكثر من دافع. ففي مكة كانت الكعبة بيت إبراهيم ومكان حجيجهم وحجيج العرب جميعاً. أترام ينقطعون عن هذا الواجب الديني المقدس عندهم اليوم أكثر مما كان مقدساً عندهم في الجاهلية! وفيها ما يزال لهم أهل تهوى إليهم نفوسهم وتشفق لبقائهم على الشرك أقدمتهم وقلوبهم. وفيها بقيت أموالهم ومتاعهم وتجارهم مما منعهم قريش منه حين هجرتهم. ثم إنهم إذ حضروا المدينة كانت موبوءة بالحمى فأصابهم منها عنت شديد، وبلغت منهم حتى جهدوا مرضاً وكانوا يصلون قعوداً. فزاد ذلك في تخننهم إلى مكة. وهم قد أخرجوا من مكة كارهين. فكأنهم خرجوا مغلوبين على أمرهم. وليس في طبع هؤلاء القرشيين أن يصبروا على الضيم أو يذعنوا للغلب دون تفكير في الثأر لأنفسهم منه. وإلى جانب هذه الدوافع جميعاً الدافع الطبيعي: دافع الحنين إلى الوطن. الحنين إلى المكان الذي منه نبتنا وفيه نشأنا وإلى أرضه وسهله وجبله ومائه كان أول حديثنا وأول صداقتنا وأول وذنا. هذه البقعة من الأرض نمتنا صغاراً فإليها أموانا كباراً. بها تتعلق قلوبنا وعواطفنا وأفئدتنا، وعننا ندود بقوتنا وبمالتنا ونضحي بمجهودنا وبحياتنا، وفيها نود أن ندفن بعد موتنا لنعود إلى ترابها الذي خرجنا منه. هذا الدافع الطبيعي أذكي في نفس المهاجرين سائر الدوافع وجعلهم لا يتفكرون يفكرون في قريش وفيما يجب أن يكون موقفهم منها. لن يكون هذا الموقف

التفكير
في أمر قريش
ومكة

موقف استسلام أو استخذاء وقد صبروا فيها على الأذى ثلاثة عشر عاماً
سويّاً . والدين الذي احتملوا فيه هذا الأذى والذي هاجروا في سبيله لا يقر
الضعف ولا اليأس ولا الاستكانة . وإذا كان يمتنع الاعتداء وينكره ويقرر
الاخاء ويدعو إليه ، فانه يفرض الدفاع عن النفس وعن الكرامة وعن حرية
العقيدة وعن الوطن . ولهذا الدفاع أتم محمد مع أهل يثرب بيعة العقبة الكبرى .
فكيف يؤدى المهاجرون هذا الفرض عليهم الله ولبيته الحرام ولوطنهم مكة
المحجب إلى قلوبهم ؟! هذا ما استتجه اليه سياسة محمد والمسلمين معه حتى يتم له
فتح مكة ، وحتى يعلو دين الله وتعلو كلمة الحق فيها .

الفصل الثاني عشر

السرايا والمناشات الأولى

تفكير محمد في أمر قريش - إيضاده السرايا لتخويف قوافلهم
غزوة عبد الله بن جحش في الشهر الحرام - الاسلام والقتال

استقر للسليين المُقام بالمدينة بعد أشهر من الهجرة ، فبدأ تخان المهاجرين
لمكة يزداد وبدوا يفكرون فيمن تركوا وما تركوا بها ، وما أنزلت قريش
بهم من الأذى ، فاذا عسائم يصنعون ؟ تذهب الكثرة من المؤرخين إلى أنهم
فكروا وفكر محمد على رأسهم في الانتقام من قريش لأنفسهم وفي مبادأتهم
بالعداوة والحرب . بل إن بعضهم ليذهب إلى أنهم فكروا في هذه الحرب
منذ مقدّمهم إلى المدينة . وإنما منعهم من إشعال نارها أنهم كانوا مازالون في
شغل باعداد مساكنهم وتنظيم وسائل معاشهم . ويستدل على ذلك بأن محمداً
أما عقد بيعة العقبة الكبرى لحرب الأحمر والأسود من الناس . وطبيعي
أن تكون قريش أول من يتجه اليهم نظره ونظر أصحابه ، مما فطنت له قريش
بُكرَةَ العقبة ، فخرجت في فرع تسأل الأوس والخزرج عنه .

ساسة السليين
بالمدينة

ويؤيد هذا البعض قوله بما وقع بعد ثمانية أشهر من مقام الرسول
والمهاجرين بالمدينة ، إذ بعث محمد عمه حمزة بن عبد المطلب في ثلاثين راكباً
من المهاجرين دون الأنصار إلى شاطئ البحر من ناحية العيص حيث لقي أبا
جَهْل بن هشام في ثلاثمائة راكب من أهل مكة ، وبأن حمزة كان على أهبة
مقاتلة قريش لولا أن حجز بينهم تجديث بن عمرو الجهتي ، وكان موادعا
الفريقين جميعاً ، فانصرف بعض القوم عن بعض دون قتال ؛ وإذ بعث

السرايا الأولى

محمدُ عبيدَةَ بن الحارث في ستين راجياً من المهاجرين دون الأنصار فساروا إلى ماء بالحجاز بوادي رَابِغٍ ، فلقبهم به جمع من قريش يزيد على مائتين على رأسهم أبو سُفْيَانٍ ، فانسحبوا من غير قتال ، إلا ماروي من أن سعد بن أبي وقاص رمى يومئذ بسهم « فكان أول سهم رمى به في الإسلام » : وإذا بعث سعد بن أبي وقاص في ثمانية من المهاجرين على رواية ، وفي عشرين منهم على رواية أخرى ، فخرجوا إلى أرض الحجاز ثم عادوا أن لم يصيبوا ما أرسلوا فيه .

حروج النبي
نفسه

ويزيد هذا البعض دليلاً تأييداً بأن النبي خرج بنفسه على رأس اثني عشر شهراً من مقدّمة إلى المدينة ، واستعمل عليها سعد بن عبّادة ، وسار إلى غزوة الأبواء حتى بلغ ودّان يريد قريشاً وبنى ضمرّة ؛ فلم يلق قريشاً وحالفته بنو ضمرّة ؛ وأنه بعد شهر من ذلك خرج على رأس مائتين من المهاجرين والأنصار إلى بواط ، يريد قافلة يقودها أمية بن خلف عدتها ألفتان وخمسمائة بعير ويحميها مائة محارب فلم يدركها ، أن اتخذت طريقاً غير طريق القوافل المعبّد ؛ وأنه بعد شهرين أو ثلاثة من عودته من بواط من ناحية رضوى استعمل على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد وخرج في أكثر من مائتين من المسلمين حتى نزل العشيّرة من بطن ينبع فأقام بها جمادى الأولى وليالي من جمادى الثانية من السنة الثانية للهجرة (أكتوبر سنة ٦٢٣) ينتظر مرور قافلة من قريش على رأسها أبو سفيان فقاتته ، وكسب من رحلته هذه أن وادع نبي مدليج وحلفاءهم من بني ضمرّة ؛ وأنه ما كاد يرجع إلى المدينة ليقم بها عشر ليال حتى أغار كرز بن جابر الفهري من المتصلين بمكة وبقريش على إبل المدينة وأغنامها . فخرج النبي في طلبه ، واستعمل على المدينة زيد بن حارثة ، وتابع مسيره حتى بلغ واديا يقال له سقوان من ناحية بدر وفاته كرز فلم يدركه . وهذه هي التي يطلق عليها كتاب السيرة اسم غزوة بدر الأولى .

أفلا يقوم هذا كله دليلا على أن المهاجرين فكروا وفكر محمد على رأسهم في الانتقام من قريش لأنفسهم وفي مبادأتهم بالعداوة والحرب؛ وهو على أقل تقدير— في رأى هؤلاء المؤرخين — يشهد بأنهم قصدوا من غزواتهم المبدئية هذه — والمؤرخون يسمون هذه الرحلات سرّايًا وعزّوات — الى غايتين؛ الأولى: الوقوع على قوافل قريش في ذهابها الى الشام أو عودتها منها حين رحلة الصيف، واحتمال ما يمكن احتماله من الأموال التي تذهب هذه القوافل وتعود بالتجارة فيها. والثانية: أخذ الطريق على قريش في رحلتها الى الشام بعقد الموادعات والأحلاف مع القبائل المتصلة ما بين المدينة وشاطئ البحر الأحمر، بما يسهل على المهاجرين مهاجمة هذه القوافل دون أن تلتقى في جوارها القبائل ما يحميها من محمد وأصحابه، حماية تمنع أخذ المسلمين رجالها وما لها أخذ عزيز مقتدر. وهذه السرايا التي عقد النبي عليه السلام ألويتها حمزة ولعبيدة بن الحارث ولسعد بن أبي وقاص، وهذه المحالفات التي عقدها مع نبي ضمّرة وبنى مُدليج وغيرهم، تؤيد الغاية الثانية وتشهد بأن أخذ طريق الشام على أهل مكة كان بعض ما قصد المسلمون اليه.

فأما أنهم بهذه السرايا التي بدأت بعد ستة أشهر من مقامهم بالمدينة، والتي اشترك فيها المهاجرون وخدمهم، كانوا يقصدون حرب قريش وغزو قوافلها، فذلك ما يقف الانسان منه موقف التردد والتفكير. فلم تكن سرّية حمزة لنزيد على ثلاثين رجلا من المهاجرين، ولم تزد سرّية عبّيدة على ستين. وكانت سرّية سعد لا تتجاوز ثمانية نفر على قول. وعشرين على قول آخر. وكان الموكلون بحماية قوافل قريش عادة أضعاف هذه الأعداد. وقد زادتهم قريش عدداً وعدّة منذ أقام محمد بالمدينة وبدأ يحالف القبائل التي بها والقريبة منها. ومهما يكن من بأس حمزة وأبي عبّيدة وسعد ممن كانوا يرأسون سرايا المهاجرين، فإن عدّة من معهم لم تكن لتشجعهم على الحرب.

عما جعلهم يعودون من هذه السرايا كلها دون قتال الا ما قيل عن السهم الذي أطلقه سعد .

ثم إن قوافل قريش كان يحميها من أهل مكة من تصلهم بالكثيرين من المهاجرين أو اصر القربى وصلات الدم ، فلم يكن يسيراً عليهم أن يقتل بعضهم بعضاً ، وأن يتعرض هؤلاء وأولئك لطلب النار ، وأن يعرضوا مكة والمدينة جميعاً لحرب أهلية استطاع المسلمون والوثنيون جميعاً اتقائها بمكة ثلاث عشرة سنة متتابعة من يوم بعث محمد إلى يوم هجرته . والمسلمون كانوا يعلمون أن بيعة العقبة كانت بيعة دفاعية تعهد فيها الأوس والخزرج بحماية محمد ، ولم يعاهدوه ولا عاهدوا أحداً ممن معه على العدوان : فليس من اليسير مع هذا كله التسليم مع المؤرخين ، الذين لم يبدعوا بكتابة تاريخ النبي إلا بعد قرنين من وفاته ، بأن هذه السرايا والرحلات الأولى كان يقصد بها إلى القتال بالفعل . فلا بد لها إذاً من تأويل أقرب إلى العقل وأكثر اتساقاً مع سياسة المسلمين في هذه الفترة الأولى من مقامهم بالمدينة ، وأدقّ تمسكاً مع سياسة الرسول التي كانت قائمة يومئذ على قواعد التفاهم والاتفاق مع مختلف القبائل ، ككفالة حرية الدعوة الدينية من ناحية ، وكفالة حسن المعاملة والجوار من الناحية الأخرى .

تعرض
تجارة قريش

والراجع عندي أن هذه السرايا الأولى إنما قصد بها إلى إفهام قريش أن مصالحهم تقتضيهم التفاهم مع المسلمين من أممهم الذين اضطروا إلى الجلاء عن مكة بسبب ما عانوا من الاضطهاد ، تفاهماً يقي الطرفين ثمرات العداوة والبغضاء ، ويكفل للمسلمين حرية الدعوة إلى الدين ، ولأهل مكة سلامة تجارتهم في طريقها إلى الشام . وقد كانت هذه التجارة التي تبعث بها مكة والطائف جميعاً ، والتي كانت تجيء إلى مكة من بلاد الجنوب ، تجارة واسعة النطاق ، حتى لقد كانت بعض القوافل تسير في ألبي بعيير ، هو لها تزيد على خمسين

ألف دينار؛ وكانت صادرات مكة السنوية، على ما قدرها المستشرق سبرجر، توازي مائتين وخمسين ألفاً من الدنانير، أى نحو مائة وستين ألف جنيه ذهباً. فاذا أيقنت قريش تعرُّض هذه التجارة للخطر آتياً من ناحية أبنائها الذين هاجروا إلى المدينة، دعاها ذلك إلى التفكير في التفاهم معهم تفاهماً طمَّع المسلمون في أن يكفل لهم ما كانوا يطمعون فيه من حرية الدعوة إلى دينهم، ومن حرية الدخول إلى مكة لأداء فرائض حجِّهم. ولم يكن مثل هذا التفاهم ممكناً ما لم تقدِّر قريش قوة المهاجرين من أبنائها على الإيقاع بها. وإيصاد طريق التجارة في وجهها. وهذا هو ما يفسر عندي رجوع حمزة ومن معه من المهاجرين الذين لقوا أبا جهل بن هشام عند ساحل الجزيرة لأول ما حجز مجدي بن عمرو الجهني بينهما، كما يفسر كثرة اتجاه المسلمين بسراياهم إلى طريق تجارة مكة في عدد لا يسهل معه تصوُّرهم مُقَدِّمين على الحرب. وهذا كذلك هو الذي يفسر حرص النبي، بعد ما بدأ من صكِّف قريش وعدم اعتدادها بقوة المهاجرين، على موادعة القبائل المقيمة على طريق هذه التجارة، والتحالف معها تحالفاً نمي خبره إلى قريش لعلها ترعوى وتعود إلى التفكير في التفاهم والاتفاق.

يدعم هذا الرأي بأقوى سند أن النبي عليه السلام لما خرج إلى بواط وإلى العُشيرة كان من بين الذين صحبوه عدد غير قليل من الأنصار أهل المدينة. والأنصار إنما بايعوه ليدفعوا عنه لا ليهاجموا معه. وسرى ذلك صريحاً حين غزوة بدر الكبرى، إذ يتردد محمد دون القتال حتى يوافق أهل المدينة عليه. وإذا كان الأنصار لا يرون مخالفة لبيعتهم في أن يعاهد محمد غيرهم من الناس، فليس معنى هذا أن يخرجوا معه لحرب أهل مكة وليس بين الفريقين من أسباب الحرب ما يبيحُه أخلاق العرب، أو يجيزه نظام صلاتهم بعضهم بعض. ومهما يكن في هذه الموادعات التي يعقد محمد من تقوية المدينة ومن

الأنصار
والمنزور
المهجور

إضعاف ما تطمع تجارة قريش فيه من أسباب الخاية ، فشتان ما بين ذلك وبين إعلان الحرب أو السعي إليها . فالقول إذأ بأن حمزة أو عبيدة بن الحارث أو سعد بن أبي وقاص إنما خرجوا لحرب قريش وتسمية سرّياتهم غزوات مرجوح عندنا فلا نكاد نسيغه . والقول كذلك بأن محمداً إنما خرج إلى الأبناء وبواط والعشيرة غازياً ، فيه تجوُّز كبير ترد عليه الاعتراضات التي قدمنا . ولا يفسر أخذ مؤرخي محمد به إلا أنهم لم يترجموا لمحمد الا في أواخر القرن الثاني للهجرة ، وأنهم كانوا متأثرين بالمغازي التي حدثت بعد ذلك منذ بدر الكبرى ، فاعتبروا ما سبقها من مناوشات يُقصد بها إلى غير الحرب سرايا ومغازي تضاف أيضاً الى حروب المسلمين أيام النبي .

والظاهر أن كثيرين من المستشرقين قد فطنوا لهذا الاعتراض وإن لم يشيروا بشيء في كتبهم إليه . وإنما يدعوننا الى الظن بفظنتهم له أنهم ، مع مجاراتهم مؤرخي المسلمين في قصد المهاجرين ومحمد على رأسهم الى حرب أهل مكة منذ الساعة الأولى من مقامهم بالمدينة ، قد أشاروا الى أن هذه السرايا الأولى إنما كان يُقصد بها الى نهب تجارة القوافل ، وأن النهب كان بعض طباع أهل البادية ، وأن أهل المدينة إنما أغرتهم الغنيمة والسلب بإتباع محمد على خلاف عهدهم في العقبة . وهذا كلام مردود . لأن أهل المدينة كأهل مكة لم يكونوا أهل بادية يعيشون على السلب والنهب ، وأنهم أكثر من أهل مكة كان في طبعمهم ما في طبعم من يعيشون على الزراعة مثلهم من حب الاستقرار . بما يجعلهم لا يتحركون الى قتال إلا للدافع قوى . أمّا المهاجرون فكان من حقهم أن يستخلصوا من أيدي قريش ما أخذت من أموالهم ، وإن لم يستعجلوا ذلك قبل بدر ، ولا هو كان الدافع للسرايا والغزوات الأولى . ثم إن القتال لم يُشرع في الاسلام ولم يقر به محمد وأصحابه لهذه الغاية البدوية التي يتوهم المستشرقون ، وإنما شرع وقام به محمد وأصحابه حتى لا يفتنهم عن دينهم أحد ،

طبيعة أهل
المدينة

وحتى يكون لهم من حرية الدعوة له ما يشاءون. وسنرى من بعدُ تفصيل هذا والدليل عليه . وعندئذ يزداد أماننا وضوحاً أن محمداً إنما كان يرمى من المعاهدات التي عقدت إلى تعزيز المدينة ، حتى لا يتطرق إلى قريش فيها مطمع ، فلا يحاولوا إغناء المسلمين فيها كما حاولوا من قبلُ إعادتهم من بلاد الحبشة : وأنه كان لا يأتى في نفس الوقت أن يعاهد قريشاً على أن تترك حرية الدعوة لدين الله طليقة ، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .

ولعل محمداً رمى من وراء هذه السرايا والرحلات المسلحة إلى غرض آخر . لعله رمى إلى إرهاب اليهود المقيمين في المدينة وعلى مقربة منها . فقد رأيت أن هؤلاء اليهود بعد أن طمعوا أول وصول محمد إلى المدينة في ضمه إليهم ، وبعد أن وادعوه وعاهدوه على حرية الدعوة للدين ، وعلى إقامة المسلمين شعائره وفرائضه . لم يلبثوا أن رأوا أمر محمد يستقر ولواء الإسلام يسمو ويرتفع حتى بدأوا يقلبون للنبي ظهر المجن ويعملون على الوقعة به . ولئن قعدوا عن مصارحته العداوة خشية أن تتعرض مصالحهم التجارية للارتباك إذا نشبت بين أهل المدينة حرب أهلية ، أو محافظة على عهد موادعتهم ، فانهم لجئوا إلى كل وسيلة للدم بين المسلمين . ولائحة البغضاء بين المهاجرين والأنصار . ولا يقاظ الأحقاد الماضية بين الأوس والخزرج بذكر يوم بُعثت وبإعادة ما قيل من الشعر فيه .

وقد فطن المسلمون لدستهم وللبالغتهم فيه ، وبلغوا من ذلك حتى حشروهم في زمرة المنافقين ، بل اعتبروهم شرّاً منهم ، فأخرجوهم من المسجد لإخراجاً عنيفاً وأبوا عليهم أن يجلسوا إليهم أو أن يتحدثوا معهم ، وانتهى النبي عليه السلام إلى الاعراض عنهم بعد إذ حاول إقناعهم بالحجة والدليل . وطبعاً أن لو تُرك حبل يهود المدينة هؤلاء على غارهم أن يستفحل أمرهم ، وأن يثيروا الفتنة التي يسعون لاثارتها . وليس يكفي في عرف الدقة السياسية

إرهاب اليهود

دساتر اليهود

التحذير منهم والتنبيه لكيدهم ؛ بل لا بد من إشعارهم أن للمسلمين من القوة ما يمكنهم من إخماد أية فتنة تقوم ، ومن القضاء على أسبابها واجتثاث أصولها . وخير وسيلة لهذا الأشعار إرسال السرايا والقيام بالمناورات الحربية في مختلف الأنحاء ، على ألا تتعرض قوات المسلمين إلى هزيمة تُطمع اليهود كما تُطمع قريشاً فيهم . وهذه المناورة هي ما وقع ، ووقع من رجال كحزمة سريعين إلى الغضب لا تكفي لصدّهم عن القتال وساطة موادع يدعو إلى السلم ، ما لم تكن المناوشة الحربية ثم الامساك عن القتال في عزّة وكرامة ، سياسة مرسومة ، وخطّة مبيّنة يُقصد بها إلى درك غايات معينة ، هي ما ذكرنا من تخويف اليهود من ناحية والاتفاق مع قريش من الناحية الأخرى ، على ترك الدعوة للدين وإقامة شعائره حرة مطلقّة من غير حاجة إلى حرب أو قتال .

الإسلام
والقتال

وليس معنى هذا أن الإسلام كان يومئذ يُنكر القتال دفاعاً عن النفس ودفاعاً عن العقيدة ، ودفعاً لمن يريد فتنة صاحبها عنها . كلا ! بل إن الإسلام ليفرض هذا الدفاع . وإنما معناه أن الإسلام كان يومئذ ، كما هو اليوم وكما كان دائماً ، ينكر حرب الاعتداء . « وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ » . وإذا كان لدى المهاجرين يومئذ ما يبيح لهم اقتضاء ما حجزت قريش من أموالهم عند هجرتهم ، فإن دفع فتنة المؤمنين عن دينهم كان أكبر عند الله ورسوله ، وكان الغاية الأولى التي تُشرع من أجلها القتال .

سرية عبد الله
بن حش

والحجة على ذلك ما نزل من الآيات في سرية عبد الله بن جحش الأسديّ ؛ فقد بعثه رسول الله في رجب من تلك السنة الثانية للهجرة ومعه جماعة من المهاجرين ، ودفع إليه كتاباً وأمره ألا ينظر فيه إلا بعد يومين من مسيره ، فيمضى لما أمره ولا يستكره من أصحابه أحداً . وفتح عبد الله الكتاب بعد يومين فاذا فيه : « إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم » . وعلم

أصحابه بالأمر وبأنه لا يستكره أحداً منهم، ففضوا معه جميعاً خلا سعد بن أبي وقاص الزهري وعتبة بن عَزْوَانَ اللذين ذهبا يطلبان بغيراً لها ضل فأسرتها قريش . وسار عبد الله ومن معه حتى نزلوا نخلة . هناك مرت بهم غير لقريش تحمل تجارة عليها عمر بن الحَضْرَمِي ، وكان يومئذ آخر رجب . وذاكر عبد الله بن جَحْش ومن معه من المهاجرين ما صنعت قريش بهم وما حجزت من أموالهم وتشاوروا وقال بعضهم لبعض : « والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم فليمتعنن منكم به . ولئن قتلتموهن لتقتلنهن في الشهر الحرام » . وترددوا وهابوا الاقدام ، ثم شجعوا أنفسهم وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم وأخذ ما معهم . ورمى أحدهم عمر بن الحضرمي بسهم فقتله وأسر المسلمون رجلين من قريش .

وأقبل عبد الله بن جحش بالغير والأسيرين حتى قدموا المدينة على الرسول . وحجز القوم لمحمد من مَغْنَمِهِم الخمس . فلما رآهم قال لهم : ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام . ووقف العير والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً . وأسقط في يد عبد الله بن جحش وأصحابه وعنفهم إخوانهم من المسلمين بما صنعوا . واتهزت قريش الفرصة فأثارت نائرة الدعاية ونادت في كل مكان : إن محمداً وأصحابه استحلوا الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال وأسروا الرجال . وأجاب المسلمون الذين كانوا بمكة أن إخوانهم في الدين من المهاجرين إلى المدينة إنما أصابوا ما أصابوا في شعبان . ودخلت يهود تريد إشعال نار الفتنة . إذ ذاك نزل قوله تعالى : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ، وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ ، وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ . وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ . وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا » . وسرئى عن المسلمين بزول القرآن بهذا الأمر

الفتنة أكبر
من القتل

دين الله . هنا يرفع المستشرقون والمبشرون عقائرهم صائحين : أرايتم ! هذا محمد يدعو دينه إلى الحرب وإلى الجهاد في سبيل الله ، أى إلى إكراه الناس بالسيف على اعتناق الاسلام . أليس هذا هو التعصب بعينه ؟ وهذا في حين تنكر المسيحية القتال وتمقت الحرب وتدعو إلى السلام وتنادى بالتسامح وتربط بين الناس برابطة الاخاء في الله وفي السيد المسيح . ولست أريد ، لكنى أناقش هؤلاء ، أن أذكر كلمة الانجيل : « ما جئت لألقى على الأرض سلاماً بل سيفاً . الخ » ولا ما تنطوى عليه هذه الكلمة من المعانى ، فالمسلمون يُقرؤون دين عيسى كما نزل به القرآن . وإنما أريد بادى الرأى أن أرد قولهم : إن محمداً دعا دينه إلى القتال لا كراه الناس بالسيف على اعتناق الاسلام . فهذه فرية ينكرها القرآن في قوله تعالى : « لا إكْرَادَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ » . وفي قوله تعالى : « وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ » . وفي كثير غير هاتين الآيتين الكريمتين .

والجهاد في سبيل الله معناه الصريح ، على نحو ما ورد في الآيات التي ذكرناها والتي نزلت في سرية عبد الله بن جحش ، قتال الذين يفتنون المسلم عن دينه ويصدون عن سبيل الله . وهذا هو القتال في سبيل حرية الدعوة إلى الله وإلى دينه . وبعبارة تمشي مع أسلوب عصرنا الحاضر : الدفاع عن الرأى بالوسائل التي يُقاتل بها أصحاب الرأى . فاذا أراد أحد أن يفتن رجلاً عن رأيه بالدعاوة وبالمنطق دون أن يحمله على ترك هذا الرأى بالقوة وبغير القوة من وسائل الرشوة والتعذيب ، لم يكن لأحد أن يدفع هذا الرجل إلا بدحض حجته وتفنيد منطقته . لكنه اذا حاول بالقوة المسلحة أن يصد صاحب رأى عن رأيه وجب دفع القوة المسلحة بالقوة المسلحة متى استطاع الانسان إليها سبيلاً . ذلك بأن كرامة الانسان تتلخص في كلة واحدة : عقيدته . العقيدة أتمن . عند من يقدر معنى الانسانية ، من المال ومن الجاه ومن السلطان ومن

الجهاد في
سبيل الله

الانسان
وعقيدته

الحياة نفسها، من هذه الحياة المادية التي يشترك الانسان والحيوان فيها، يأكلون ويشربون وتنمو أجسامهم وتقوى عضلاتهم . والعقيدة هي هذه الصلة المعنوية بين الانسان والانسان ، والصلة الروحية بين المرء وربّه : هي هذا الحظ الذي يمتاز به الانسان على سائر الحيوان بما في الحياة ، والذي يجعله يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ويؤثر البائس والفقير والمسكين على أهله ولو كان به وبهم خصاصة ، ويتصل بالكون كله ليعمل دائماً كي يبلغ الكون ما قدر الله له من كمال .

إذا ملكت هذه العقيدة إنساناً من الناس فحاول غيره فنتته عنها ، ولم يستطع دفاعاً عن نفسه ، فعل ما فعل المسلمون قبل هجرتهم الى المدينة ، فاحتمل المساء والأذى وصبر على الهوان والضميم ولم يصدّه جوع ولا حرمان أيّاً كان نوعه عن التمسك بعقيدته . وهذا الذي فعل المسلمون الأولون هو الذي فعل المسيحيون الأولون . لكن الصابرين لعقيدتهم ليسوا هم سواد الناس ولا جماعتهم ، وإمامهم الصفوة والمختارون ومن وهبهم الله من قوة الايمان ما يصغر معه كل أذى وكل ضميم ، وما يدك الرواسي ، وما تقول معه للجبل انتقل من مكانك ينتقل ، على حد تعبير الانجيل . لكنك اذا استطعت أن تدفع الفتنة بسلاح من يحاول الفتنة وأن تقف في وجه من يصد عن سبيل الله بوسائله ، وجب عليك أن تفعل ، وإلا كنت مزرع العقيدة ضعيف الايمان . وهذا ما فعل محمد وأصحابه بعد أن استقر لهم الأمر بالمدينة : وهذا ما فعل المسيحيون بعد أن استقر لهم السلطان في رومية وبعد أن لان قلب بعض عواهل رومية لدين المسيح .

المسيح
والقتال

يقول المبشرون : لكن روح المسيحية تنكر القتال على إطلاقه . ولست أقف لأبحث صحة هذا القول . لكن تاريخ المسيحية أمامنا شاهد عدل ، وتاريخ الاسلام أمامنا شاهد عدل . فنذ فجر المسيحية إلى يومنا هذا خُصبت

أقطار الأرض جميعاً بالدماء باسم السيد المسيح . خضبتها رومية وخضبتها أم
أوربا كلها . والحروب الصليبية إنما أذكى المسيحيون ولم يُدك المسلمون لهيها :
وظلت الجيوش باسم الصليب تنحدر من أوربا خلال مئات السنين قاصدة
أقطار الشرق الإسلامية ، تقاتل وتحارب وتُهرق الدماء . وفي كل مرة كان
البابوات خلفاء المسيح يباركون هذه الجيوش الزاحفة للاستيلاء على بيت
المقدس وعلى الأماكن النصرانية المقدسة . أفكان هؤلاء البابوات جميعاً
هرطقة وكانت مسيحياتهم زائفة ؟ أم كانوا أذعياء جهالاً لا يعرفون أن المسيحية
تنكر القتال على إطلاقه ؟ أم يقولون : تلك كانت العصور الوسطى عصور
الظلام فلا يحتاج على المسيحية بها ؟ ! إن يكن ذلك بعض ما قد يقولون ، فإن
هذا القرن العشرين الذي نعيش فيه والذي يسمونه عصر الحضارة الإنسانية
العليا ، قد رأى مارأت تلك العصور الوسطى المظلمة : فقد وقف لورد أَلْتْنِي
مثل الحلفاء ، انكلترا وفرنسا وإيطاليا ورومانيا وأمريكا ، يقول في بيت
المقدس في سنة ١٩١٨ حين استيلائه عليه أثناء الحرب الكبرى : اليوم
انتهت الحروب الصليبية .

وإذا كان من بين المسيحيين قديسون أنكروا القتال في مختلف العصور
وسمّوا بذواتهم الى الذروة من معنى الاخاء الانساني ، بل من معنى الاخاء
بين عناصر الكون كله ، فمن بين المسلمين كذلك قديسون سمّت نفوسهم هذا
السموّ واتصلوا بكل الوجود اتصال إخاء ومحبة وإشراق ملامتهم النفوس
بوحدّة الوجود . لكن هؤلاء القديسين ، من النصاري والمسلمين ، وإن صوروا
المثل الأعلى ، فانهم لا يمتثلون حياة الإنسانية اثناء تطورها الدائم وفي دأب
جهادها الى الكمال : إلى هذا الكمال الذي نحاول تصوّره ثم يقعد بنا العلم ويقعد بنا
الفن ويقعد بنا الخيال دون شيء من الدقة في إدراكه ، وإن نحن جازفنا بتصويره
تمهيداً لما نحاول من جهود في سبيله . وهذه أربع وخمسون وثلاثمائة وألف

القديسون في
الاسلام
والمسيحية

سنة قد انقضت منذ هجرة النبي العربي من مكة إلى يثرب والناس في مختلف العصور يزدادون في القتال افتنانا وفي صنع آلاته الجهنمية المدمرة دقة وإتقاناً. وما تزال كلمات نذ الحرب وإلغاء التسليح والتحكيم لا تزيد على أنها كلمات تقال في أعقاب كل حرب تنهك الأمم، أو على أنها دعاوات تُلقى في جو الحياة من أناس لم يستطيعوا حتى اليوم — ومن يدري فلعلهم لا يستطيعون يوماً — أن يحققوا منها شيئاً، وأن يحتلوا السلام الصحيح سلام الاخاء والعدل محل السلام المسلح نذير الحرب وطلیعة ويلاتهما.

الاسلام
دين الفطرة

والاسلام ليس دين وهم وخیال، ولا هو دين يقف عند دعوة الفرد وحده الى الكمال. إنما الاسلام دين الفطرة التي فُطِرَ الناس جميعاً عليها أفراداً وجماعات؛ وهو دين الحق والحرية والنظام. ومادامت الحرب في فطرة الناس، فتهذيب فكرتها في النفوس وحصرها في أدق الحدود الانسانية هي غاية ما تحتمل فطرة البشر وما يحقق للانسانية اتصال تطورها في سبيل الخير والكمال. وخير تهذيب لفكرة الحرب ألا تكون الا للدفاع عن النفس وعن العقيدة وعن حرية الرأي والدعوة اليه، وأن ترعى فيها الحرمات الانسانية تمام الرعاية. وهذا ما قرّر الاسلام على ما رأينا وما سنرى من بعد. وهذا ما نزل به القرآن، وضعناه وسنضعه تحت نظر القارىء في الظروف والمناسبات التي نزل فيها.

الفصل الثالث عشر

غزوة بدر الكبرى

خروج أبي سفيان إلى الشام — محاولة المسلمين قطع الطريق عليه .
نجاته في الذهاب — انتظارهم إياه في أوبته — علم قريش بتجهيز
المسلمين — خروجهم إلى بدر — نجاة أبي سفيان بتجارته — تردد
قريش والمسلمين في القتال — زوال التردد — موقف الفريقين
في بدر — حماسة المسلمين وانتصارهم

كانت سرية عبدالله بن جحش مفترق طرق في سياسة الاسلام، أن رمى
فيها واقد بن عبد الله التميمي عمر بن الحضرمي بسهم فقتله، فكان أول دم
أراق المسلمون؛ وأن نزلت فيها الآيات التي قدمنا: وأن شرع على إثرها قتال
الذين يفتنون المسلمين عن دينهم ويصدونهم عن سبيل الله. وكانت هذه
السرية مفترق طرق كذلك في سياسة المسلمين إزاء قريش، أن جعلت الفريقين
يتناظران بأساً وقوة، وأن جعلت المسلمين يفكرون تفكيراً جدياً في
استخلاص أموالهم من قريش بغزوهم وقتالهم. ذلك بأن قريشاً حاولت إثارة
شبه الجزيرة كلها على محمد وأصحابه أن قتلوا في الشهر الحرام، حتى لقد أيقن محمد
أن لم يبق في مصالحتهم أو في الاتفاق معهم رجاء. وقد خرج أبو سفيان في
أوائل الحريف من السنة الثانية للهجرة في تجارة كبيرة يقصد الشام، وهي التجارة
التي أراد المسلمون اعتراضها حين خرج النبي عليه السلام إلى العشيبة. لكنهم
إذ بلغوها كانت قافلة أبي سفيان قد مرت بها ليومين قبل وصولهم إليها.

تجارة
أبي سفيان

إذ ذلك اعتزم المسلمون انتظارها في عودتها . ولما تحين محمد انصرافها من الشام بعث طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد ينتظران خبرها ، فسارا حتى نزلا على كشد الجُمَني بالخوراء وأقاما عنده في خباء حتى مرت العير فأسرعا إلى محمد ليُفَضِّيا إليه بأمرها وما رأيا منها .

على أن محمداً لم ينتظر رسوله إلى الخوراء وما يأتيان به من خبر العير . فقد ترامي إليه أنها عير عظيمة ، وأن أهل مكة جميعاً اشتروا فيها ، لم يبق منهم رجل ولا بقيت امرأة استطاعت أن تساهم بحظ إلا فعلت وفعل ، حتى قوّم ما فيها بخمسين ألفاً من الدنانير . ولقد خشي إن هو انتظرهما أن تفوته العير في عودتها إلى مكة كما فاتته في ذهابها إلى الشام . لذلك ندب المسلمين وقال لهم : هذه عير قريش فاخرجوا إليها لعل الله ينفعكموها . وخفت بعض الناس وثقل بعض ، وأراد جماعة لم يسلموا أن ينضموا طمعاً في الغنيمة ، فأبى محمد عليهم الانضمام أو يؤمنوا بالله ورسوله .

أما أبو سفيان فكان قد اتصل به خروج محمد لاعتراض قافلته حين رحلتها إلى الشام ، تخاف أن يعترضه المسلمون حين أوبته بعد أن رحبت تجارته ، وجعل ينتظر أخبارهم . وكان الجهني الذي نزل عليه رسولا بمحمد بالخوراء بعض من سأل . ومع أن الجهني لم يصدقه الخبر فقد بلغه من أمر محمد والمهاجرين والأنصار معه مثل ما ترامي إلى محمد من خبره ، تخاف عاقبة أمره أن لم يكن من قريش في حراسة العير الا ثلاثون أو أربعون رجلاً . عند ذلك استأجر ضمضم بن عمرو الغفاري فبعثه مسرعاً إلى مكة ليستنفر قريشاً إلى أموالهم ، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه . ووصل ضمضم من مكة إلى بطن الوادي فقطع أذني بعيره وجذع أنفه وحوّل رحله ووقف هو عليه وقد شق قيصره من قبل ومن دُبُر وجعل يصيح : يا معشر قريش ! اللّطيمة اللطيمة ! أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه لا أرى

خروج
المسلمين
إلى بدر

رسول
أبي سفيان
إلى قريش

أن تدركوها . العَوْتُثُ العَوْتُثُ ! (واللطيمة المال والتجارة) . وما لبث أبو جهل أن سمعه حتى صاح بالناس من عند الكعبة يستنفرهم . وكان أبو جهل ، على ما بلغ السبعين ، رجلا خفيفاً حديد الوجه حديد اللسان حديد النظر . ولم تكن قريش بحاجة إلى من يستنفرها ، أن كان لكل منها في هذه العير نصيب .

على أن طائفة من أهل مكة كانت تشعر بما ظننت قريش المسلمين من أهلها حتى اضطرتهم إلى الهجرة إلى الحبشة . ثم الهجرة إلى المدينة ، فكانت تتردد بين النضير للذود عن أموالها والقعود رجاء ألا يصيب العير مكروه . وهؤلاء كانوا يذكرون أن قريشاً وكناة يذبحونها في دماء تبادل الفريقان إراقها . فإذا هي خفت إلى لقاء محمد لمنع عيرها منه خافت بنى بكر أن تهاجها من خلفها . وكادت هذه الحجة ترجح وتؤيد رأى القائلين بالقعود لولا أن جاء مالك بن جُعْشُم المدلجى وكان من أشرف بنى كنانة فقال : أنا لكم جار من أن تأتكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه . إذ ذاك رجحت كفة أبى جهل وعامر الحَضْرَمِيّ والدعاة إلى الخروج لدفع محمد والذين معه : ولم يبق لكل قادر على القتال عذر في التخلف أو يرسل مكانه رجلا . ولم يتخلف من أشرف قريش إلا أباهب الذى بعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة أن كان مديناً له في أربعة آلاف درهم وأفلس بها . وكان أمية بن خلف قد أجمع على القعود ، وكان شيخاً جليلاً جسماً ثقيلاً ، فأتاه بالمسجد عُنْبَةَ بن أبى مَعِيْظَ وأبو جهل ومع عقبة جحمة فيها بخور ومع أبى جهل مكحلة ومِرْوَد ، فوضع عقبة الجحمة بين يديه وقال : يا أباهب على استجمر فانما أنت من النساء ، وقال أبو جهل : اكنحل أباهب فانما أنت امرأة . فقال أمية : ابتاعوا إلى أفضل بعير في الوادى : وخرج معهم ، فلم يبق بمكة متخلف قادر على القتال .

أما النبي عليه السلام فقد خرج في أصحابه من المدينة لثمان ليال خلون

نار قريش
وكنانة

مسيرة جيش
المسلمين

من شهر رمضان للسنة الثانية من الهجرة ، وجعل عمرو بن أم مكتوم فيها على الصلاة بالناس وردّ أبا لبابة من الرّوحاء واستعمله على المدينة . وكانت أمام المسلمين في مسيرتهم رايتان سوداوان ، وكانت إبلهم سبعين بعيراً جعلوا يعقبونها ، كل اثنين منهم وكل ثلاثة وكل أربعة يَعْتَقِبُونَ بعيراً . وكان حظ محمد في هذا كحظ سائر أصحابه . فكان هو وعلى بن أبي طالب ومرثد بن مرثد الغنوي يعقبون بعيراً . وكان أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف يعقبون بعيراً . وكانت عدّة من خرج مع محمد الى هذه الغزوة خمسة وثلاثمائة رجل ، منهم ثلاثة وثمانون من المهاجرين وواحد وستون من الأوس والباقيون من الخزرج . وانطلق القوم مسرعين من خوف أن يفلت أبو سفيان منهم ، وهم يحاولون حيثما مروا أن يقفوا على أخباره . فلما كانوا بغرق الظبية لقوا رجلا من الأعراب فسألوه عن القوم فلم يجدوا عنده خبراً . وانطلقوا حتى أتوا واديا يقال له ذفران نزلوا فيه ، وهناك جاءهم الخبر بأن قريشاً قد خرجوا من مكة ليمنعوا غيرهم . هنالك تغيّر وجه الأمر . لم يبق هؤلاء المسلمون مهاجروهم والأنصار أمام أبي سفيان وعيره والثلاثين أو الأربعين رجلا معه . لا يملكون مقاومة محمد وأصحابه ؛ بل هذه مكة خرجت كلها وعلى رأسها أشرفها للدفاع عن تجارتها . فهب المسلمون أدركوا أبا سفيان وتغلبوا على رجاله وأسروا منهم من أسروا واقتادوا إبله وما عليها . فان تابت قريش أن تدرّكهم يحفزها حرصها على مالها والدفاع عنه وتؤازرها كثرة عديدها وعددها ، وأن توقع بهم وأن تسترد الغنيمة منهم أو تموت دونها . ولكن اذا عاد محمد من حيث أتى طمعت قريش وضمت يهود المدينة فيه ، واضطر الى موقف المصانعة واضطر أصحابه الى أن يحتملوا من أذى يهود المدينة مثل ما احتملوا من أذى قريش بمكة . وهيات إن هو وقف هذا الموقف أن تعلق كلمة الحق وأن ينصر الله دينه .

خروج قريش
من مكة

استشار الناس وأخبرهم عما بلغه من أمر قريش؛ فأدلى أبو بكر وعمر برأيهما، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله، امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون. فسكت الناس، فقال الرسول: أشيروا علي أيها الناس. وكان يريد بكلمته هذه الأنصار الذين بايعوه يوم العقبة على أن يمنعوه عما يمنعون منه آبائهم ونساءهم ولم يباعدوا على اعتداء خارج مدينتهم. فلما أحس الأنصار بأنه يريدهم. وكان سعد بن معاذ صاحب رأيهم، التفت إلى محمد وقال: لكأنك تريدنا يا رسول الله. قال: أجل. قال سعد: لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق. وأعطيناك على ذلك عهدنا وموآثيقنا على السمع والطاعة، فامض لما أردت فنحن معك. فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر غفخته لحضناه معك وما تخلف منا رجل واحد. وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً. إنا لصبرٌ في الحرب صدقٌ في اللقاء. لعل الله يريك منا ما تقرُّ به عينك. فسر بنا على بركة الله. ولم يكده سعد يتم كلامه حتى أشرق وجه محمد بالمسرة وبدا عليه كل النشاط وقال: سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين: والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم. وارتحلوا جميعاً، حتى إذا كانوا على مقربة من بدر انطلق محمد على بعيره حتى وقف على شيخ من العرب وسأله عن قريش وعن محمد وأصحابه، ومنه عرف أن غير قريش منه قريب.

كلمة الأنصار

إذ ذاك عاد إلى قومه فبعث علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد ابن أبي وقاص في نفر من أصحابه إلى ماء بدر يلتمسون له الخبر عليه. وعادت هذه الطليعة ومعها غلامان عرف محمد منهما أن قريشاً وراء الكهيب الذي بالعدوة القصوى. ولما أن أجابا: إنهما لا يعرفان عدوة قريش، سألهما محمد:

نطس
الأحبار

كم ينحرون كل يوم ؟ وأجابا : يوماً تسعاً ويوماً عشراً . فاستنبط النبي من ذلك أنهم بين التسعمائة والألف ، وعرف من الغلامين كذلك أن أشرف قريش جميعاً خرجوا المنعه ؛ فقال لقومه : « هذه مكة قد ألفت إليكم أفلاذاً كيديها » . إذاً فلا بد له ولهم أمام قوم يزيدون عليهم في العدد ثلاثة أضعاف أن يشحنوا عزائمهم وأن يوطنوا على الشدة أفئدتهم ونفوسهم ، وأن ينتظروا موقعة حامية الوطيس لا يكون النصر فيها إلا لمن ملأ الأيمان بالنصر قلبه . وكما عاد على ومن معه بالغلامين وبخبر قريش معهما ، فقد ذهب اثنان من المسلمين حتى نزلا بَدْرًا فأناخا إلى تلٍّ قريب من الماء وأخذوا وعاء لهما يستقيان فيه . وإنهما لعلى الماء إذ سمعا جارية تطالب صاحبها بدين عليها والثانية تجيبها : إنما تأتي العير غداً أو بعد غد ، فأعمل لهم ثم أفضيك الذي لك . وعاد الرجلان فأخبرا محمداً بما سمعا . فأما أبو سفيان فسبق العيرَ يَنْتَطِسُُ الاخبار حذر أن يكون محمد قد سبقه إلى الطريق . فلما ورد الماء وجد عليه مجدي بن عمرو فسأله : هل قد رأى أحداً ؟ وأجاب مجدي بأنه لم ير إلا راكبين أناخا إلى هذا التل ، وأشار إلى حيث أناخ الرجلان من المسلمين . فأتى أبو سفيان مناخهما فوجد في روث بعيريهما نوى عرفه من علائف يثرب ، فأسرع عائداً إلى أصحابه وعدل بالسير عن الطريق مساحلاً البحر مسرعاً في مسيره ، حتى بعد ما بينه وبين محمد ، ونجا .

انقلات أبي
سفيان ومحمد

وأصبح الغد والمسلمون في انتظار مروره بهم ، فاذا الأخبار تصلهم أنه فاتهم وأن مقاتلة قريش هم الذين مايزالون على مقربة منهم ، فينوى في نفوس جماعة منهم ما كان يملؤها من أمل في الغنيمة ، ويجادل بعضهم النبي كي يعودوا إلى المدينة ولا يلقوا القوم الذين جاءوا من مكة لقتالهم . وفي ذلك نزل قوله تعالى في سورة الأنفال . « وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ، وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ

يُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعُ ذَايِرَ الْكَافِرِينَ » .

وقريش ، هي أيضاً ، ما حاجتها إلى القتال وقد نجت تجارتهم ؟ أليس خيراً لهم أن يعودوا من حيث أتوا ، وأن يتركوا المسلمين يرجعون من رحلتهم بخُفَى حُسَيْنٍ ؟ كذلك فكر أبو سفيان ، وبذلك أرسل إلى قريش يقول لهم : إنكم قد خرجتم لتنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم ، فقد نجحها الله فارجعوا . ورأى من قريش رأيه عدد غير قليل . لكن أبا جهل ما لبث أن سمع هذا الكلام حتى صاح : والله لا نرجع حتى نردّ بدرأ فقيم عليه ثلاثا تنحر الجزر ونطعم الطعام ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابونا أبداً بعدها . ذلك أن بدرأ كانت موسماً من مواسم العرب . فانصراف قريش عنها بعد أن نجت تجارتهم قد تفسره العرب ، فيما رأى أبو جهل ، بخوفهم من محمد وأصحابه ، مما يزيد محمداً شوكة ويزيد دعوته انتشاراً وقوة . وبخاصة بعد الذي كان من سرية عبد الله ابن جحش وقتل الحضرمي وأخذ الأسرى والغنائم من قريش .

وتردد القوم بين اتباع أبي جهل مخافة أن يتهموا بالجن ، وبين الرجوع بعد أن نجت عيرهم . فلم يرجع إلا بنو زُهرة الذين اتبعوا مشوزة الأختس بن شريق وكان فيهم مطاعا . واتبعت سائر قريش أبا جهل حتى ينزلوا منزلاً يتهيئون فيه للحرب ثم يتشاورون بعدها . ونزلوا بالعدوة القصوى خلف كئيب من الرمل يحمون به . أما المسلمون الذين فاتتهم الغنيمة فقد أجمعوا أن يصمدوا للعدو إذا أجمع محاربتهم . لذلك بادروا إلى ماء بدر ، ويسر لهم مطر أرسلته السماء مسيرتهم إليها . فلما جاءوا أدنى ماء منها نزل محمد به . وكان الحُباب بن المنذر ابن الجُموح عليماً بالمكان . فلما رأى حيث نزل النبي قال : يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل أمنزلاً أنزلك الله فليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ قال محمد : بل هو الرأي والحرب والمكيدة . فقال :

ايكون قتال

رول المسلمين
بدرأ

يارسول الله ، فان هذا ليس بمنزل ؛ فانفض بالناس حتى نأتى أذنى ماء من القوم
فنزل ثم نَعَوَّرَ ماوراءه من القَلْبِ ، ثم نبى عليه حوضاً فتملأه ماء ، ثم نقابل
القوم فنشرب ولا يشربوا . ولم يلبث محمد أن رأى صواب ما أشار الحُبَابُ
به حتى قام ومن معه واتبع رأى صاحبه ، معلنا إلى قومه أنه بشرٌ مثلهم وأن
الرأى شورى بينهم . وأنه لا يقطع برأى دونهم ، وأنه بحاجة الى حسن
مشورة صاحب المشورة الحسنة منهم .

بناء العريش
للنبي

ولما بنوا الحوض أشار سعد بن مُعَاذ قائلًا : « يا نبي الله ، نبى لك عريشاً
تكون فيه ونُعيِدُ عندك ركائبك ثم نلقى عدوتنا : فان أعزنا الله وأظهرنا على
عدوتنا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت
بمن وراءنا من قومنا ، فقد تخلف عنك أقوام يابى الله ما نحن بأشد لك حباً
منهم . ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم يناصحونك
ويجاهدون معك » . وأثنى محمد على سعد ودعا له بخير ، وبنى العريش للنبي حتى
إذا لم يكن النصر في جانبه وجانب أصحابه لم يقع في يد عدوه واستطاع
اللاحق بأصحابه ييثرب .

صدق إيمان
المسلمين

هنا موضع لوقفه إعجاب بصدق إيمان المسلمين وعظيم محبتهم لمحمد
وإيمانهم برسالته . فهاهم أولاء يعلون أن قريشاً تفوقهم في العدد وأنها ثلاثة
أمتلهم ، وهم مع ذلك قد اعتزموا الوقوف في وجهها وقتالها . وهاهم أولاء
يرون الغنيمة فاتتهم فلم يصبح الطمع المادى هو الذى يحفزهم للقتال ، وهم مع
ذلك يقفون إلى جانب النبي يؤيدونه ويعززونه . وهاهم أولاء تتردد نفوسهم بين
الطمع في النصر وخوف الهزيمة ، وهم مع ذلك يفكرون في حماية النبي وتوقيته
أن يظفر به عدوه ويمهدون له سبيل الاتصال بمن ترك بالمدينة . فأى موقف
أدعى للاعجاب من هذا الموقف ، وأى إيمان يكفل النصر كهذا الايمان !
ونزلت قريش منازل القتال . ثم بعثوا من يقص لهم خبر المسلمين ، فجاءهم

بأنهم ثلاثمائة أو يزيدون قليلاً أو ينقصونه ، ولا كمين لهم ولا مورد ؛ ولكنهم مع ذلك قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم ، فلا يموت منهم رجل قبل أن يقتل رجلاً مثله . ولما كانت صفوة قريش قد خرجوا في هذا الجيش خشى بعض ذوى الحكمة منهم أن يقتل المسلمون كثرتهم فلا تبقى لمكة مكاتها . لكنهم مع ذلك خافوا حدة أنى جهل ورميه إياهم بالجن والخوف . على أن ذلك لم يمنع عتبة بن ربيعة من أن يقف بينهم قائلاً : « يا معشر قريش . إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً . والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلاً من عشيرته . فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب . فان أصابوه فذاك الذى أردتم ، وإن كان غير ذلك لم تتعرض منه لما تكرهون » . فلما بلغت أبا جهل مقالة عتبة استشاط غيظاً وبعث إلى عامر بن الحضرمي يقول له : « هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس وقد رأيت نارك بعينك ، فقم فانشد مقتل أخيك » . وقام عامر فصرخ : « وأعمراه . ولم يبق بعد ذلك من الحرب مفرئ . وأجمل القتال أن اندفع الاسود بن عبد الأسد المخزومي من بين صفوف قريش إلى صفوف المسلمين يريد أن يهدم الحوض الذى بنوا ، فعاجله حمزة بن عبد المطلب بضربة أطاحت بساقه فسقط إلى ظهره تشخب رجله دماً ، ثم أتبعه حمزة بضربة أخرى قضت عليه دون الحوض . ولا شيء أرفه لظبناً السيوف من منظر الدم . ولا شيء أشد إثارة في الانسان لعواطف القتال والحرب كمرأى رجل مات بيد العدو وقومه إياه وقوف ينظرون .

حمزة يقتل
ابن عبد الأسد

وما إن سقط الأسود حتى خرج عتبة بن ربيعة بين أخيه شينة وابنه الوليد بن عتبة ودعا الى المبارزة . وخرج إليه فتية من أبناء المدينة . فلما عرفهم قال لهم : ما لنا بكم من حاجة ، إنما نريد قومنا . ونادى مناديتهم : يا محمد ، أخرج إلينا أكفأنا من قومنا . وخرج إليهم حمزة بن عبد المطلب وعلى بن

أبي طالب وعبيدة بن الحارث . ولم يُمهّل حمزة شَيْبَةً ولا أمهلاً على الوليد أن قتلاهما ، ثم أمانا عبدة وقد ثبت له عُتْبَةٌ . فلما رأت قريش من ذلك ما رأت تراحف الناس والتقى الجمعان صبيحة الجمعة لسبعة عشر يوماً خلت من شهر رمضان ، ومحمد على رأس المسلمين يعدل صفوفهم . فلما رأى كثرة قريش وقلة رجاله وضعف عدتهم إلى جانب عدّة المشركين عاد إلى العريش ومعه أبو بكر ، وهو أشد ما يكون خوفاً من مصير ذلك اليوم ، وأشد ما يكون إشفافاً بما يصير إليه أمر الاسلام إذا لم يتم للمسلمين النصر ، واستقبل محمد القبلة واتجه بكل نفسه إلى ربه وجعل ينشّده ما وعده ويهتف به أن يتم له النصر . وبالغ في التوبة والدعاء والابتهال وجعل يقول : « اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولاك ، اللهم فضرّك الذي وعدتني : اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تُعبّد » . وما زال يهتف بربه ما إذا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه ؛ وجعل أبو بكر من ورائه يردّ على منكبيه رداؤه ويُهَيِّب به : يا نبي الله ، بعض مناشدتك ربك فإن الله منجز لك ما وعدك . لكن محمداً ظل فيما هو فيه أشد ما يكون توجهاً لله وأشد ما يكون تضرعاً وخشية واستعانة بربه على هذا الموقف الذي لم يتوقع المسلمون ولم يتخذوا له عدته ، حتى خفق خفقةً من نعاس رأى خلاها نصر الله ، وانتبه بعدها مستبشراً ، وخرج إلى الناس بحرّضهم ويقول لهم : والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيُقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة .

وسرت من نفسه القويّة ، أمدها الله من لدنه بما سماها فوق كل قوة ، إلى نفوس هؤلاء المؤمنين برسالته ، قوة ضاعفت عزهم ، وجعلت كل رجل منهم يعدل رجلين بل يعدل عشرة رجال . ويسير عليك أن تقدّر هذا إذا ذكرت ما لازدياد القوة المعنوية من أثر في النفس متى توافرت أسباب ازدياد هذه القوة المعنوية فيها . فدافع الوطنية يزيداها . وهذا الجندي الذي يقف مدافعاً

النقاء الجمين

دعا محمد
وابتهاله

القوة المعنوية

عن وطنه المهتد بالخاطر ويحس بحب الوطن إحساساً صادقاً ، تتضاعف قوته المعنوية بمقدار حبه لوطنه وإيمانه به . وبمقدار تخوفه من الخطر الذي يهدد العدو الوطن به . ولهذا تغرس الأمم في نفوس أبنائها منذ نعومة أظفارهم حب الوطن والاستهانة بالتضحية في سبيله . والإيمان بالحق والعدل وبالحرية وبالمعاني الانسانية السامية يزيد القوة المعنوية في النفس بما يضعف القوة المادية فيها . والذين يذكرون ما قام به الخلفاء في الحرب الكبرى من دعوة واسعة النطاق ضد الألمان أساسها أنهم يدافعون عن قضية الحرية والحق . ويحاربون في ألمانيا الجندية المسلحة ويمهدون لعهد سلام ونور ، يدركون ما كانت تضاعف هذه الدعوة من قوة في نفوس جنود الخلفاء بمقدار ما كانت تحيطهم به من عطف أكثر أمم العالم . وما الوطنية وما قضية السلام إلى جانب ما كان محمد يدعو إليه ! إلى اتصال الانسان بالوجود كله اتصالاً يندمج به فيه ويصبح معه قوة من قوى الكون الموجهة له سبيل الخير والنعمة والكمال . نعم ! ما الوطنية وما قضية السلام إلى جانب الوقوف في جانب الله ودفع الذين يفتنون المؤمنين عنه ، والذين يصدون عن سبيله ، والذين ينزلون بالانسان إلى درك الوثنية والاشراك ! إذا كانت النفس يزيد بها حب الوطن قوة بمقدار ما في الوطن كله من قوة ، ويزيدها حب السلام للانسانية قوة بمقدار ما في الانسانية كلها من قوة ، فما أكثر ما يزيد بها الإيمان بالوجود كله وبخالق الوجود كله من قوة !! إنه ليجعلها قديرة على أن تُسَيِّرَ الجبال وتحرك العوالم وتميمن بسلطانها المعنوي على كل من كان أقل منها في هذا الأمر إيماناً . وهذا السلطان المعنوي يزيد في قوتها المادية أضعافاً مضاعفة . فاذا لم يصل هذا السلطان المعنوي إلى غاية كماله بسبب ما كان بين المسلمين من خلاف قبل الواقعة ، لم تبلغ القوة المادية كل ما تطمح الى بلوغه : وإن هي زادت بفعل هذا الإيمان الذي ازداد قوة بتحريض محمد أصحابه فعوضهم بذلك عن قلة عددهم

تحريض محمد
المؤمنين

وعدتهم . وفي حال النبي وأصحابه هذه نزلت الآية : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ . الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ، فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ » .

ازداد المسلمون قوة بتحريض محمد إياهم ووقوفه بينهم ودفعهم لمقاتلة العدو والصيحة بهم إن الجنة من أحسن البلاء منهم ومن غمس يده في العدو حاسراً . ووجه المسلمون أكبر ههنا إلى سادات قريش وزعمائها يريدون استئصالهم ، جزاءً وفاقاً لما عذبوهم بمكة ، ولما صدوهم عن المسجد الحرام وعن سبيل الله . رأى بلالٌ أمية بن خلف وابنه ورأى بعض المسلمين الذين عرفوه بمكة حوله ، وكان أمية هو الذي عذب بلالا إذ كان يخرج به إلى رمضان مكة فيضعه على ظهره ويأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ليفته عن الاسلام فيقول بلال : أحدٌ أحدٌ . رأى بلال أمية فصاح به : أمية رأس الكفر ، لا نجوتُ إن نجأ . وحاول بعض المسلمين من حول أمية أن يحولوا دون قتله وأن يأخذوه أسيراً ، فصرخ بلال بأعلى صوته في الناس : يا أنصار الله ، رأس الكفر أمية بن خلف لا نجوتُ إن نجأ . واجتمع الناس ولم ينصرف بلال حتى قتل أمية . وقتل معاذ بن عمرو بن الجموح أبا جهل بن هشام . وخاض حمزة وعليٌ وأبطال المسلمين وطيس المعركة وقد نسي كل منهم نفسه ونسى قلة أصحابه وكثرة عدوه ، فثار النقع وامتلاً الجو بالغباب وجعلت هام قريش تطير من أجسادها ، والمسلمون يزدادون بإيمانهم قوة ويصيحون مهللين : أحدٌ أحدٌ ، وقد انهارت أمامهم حجب الزمان والمكان وأمدهم الله بالملائكة يبشرونهم ويزيدونهم ثبتيًا وإيمانا . حتى لكان الواحد منهم إذ يرفع

بلال
يقتل أمية
بن خفاف

سيفه ويهوى به على عنق عدوه إنما تحرك قوة الله يده . ووقف محمد وسط هذه المعركة ، يتمشى خلالها ملك الموت يَقْطُرُ رِقَبَةَ الْكُفْرِ ، فأخذ حَفْنَةً مِنَ الْحَصْبَاءِ فَاسْتَقْبَلَ بِهَا قَرِيشًا وَقَالَ : شَاهَتِ الْوُجُوهُ ! ثُمَّ نَفَحَهُمْ بِهَا وَأَمْرَاصِحَابِهِ فَقَالَ : شَدُّوا ، وَشَدَّ الْمُسْلِمُونَ وَمَا يَزَالُونَ أَقْوَلَ مِنْ قَرِيشٍ عِدْدًا . لَكِنْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ امْتَلَأَتْ بِنَفْحَةٍ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ نَفْسَهُ ، فَلَمْ يَكُنْ هُوَ الَّذِي يَقْتُلُ الْعَدُوَّ وَلَا كَانَ هُوَ الَّذِي يَأْسِرُ مِنْ يَأْسِرُ لَوْلَا هَذِهِ النَّفْحَةُ الَّتِي ضَاعَفَتْ قُوَّتَهُ الْمَعْنَوِيَّةَ بِمَا ضَاعَفَ قُوَّتَهُ الْمَادِيَّةَ . وَفِي ذَلِكَ نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا . سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ : فَأَضْرِبُوا قَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ . . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : « فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ، وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى » . وَلَمَّا آسَرَ الرَّسُولُ أَنَّ اللَّهَ أُنْجِزَهُ وَعَدَّهُ وَأَتَمَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ النَّصْرَ عَادَ إِلَى الْعَرِيشِ . وَقَرَّتْ قَرِيشٌ فَطَارَدَهُمُ الْمُسْلِمُونَ يَأْسِرُونَ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُقْتَلْ وَلَمْ يَسَاعَفْهُ حَسَنُ فِرَارِهِ بِالنَّجَاةِ .

هذه غزوة بدر التي استقر بها الأمر للمسلمين من بعد في بلاد العرب جميعاً ، والتي كانت مقدمة وحدة شبه الجزيرة في ظلال الإسلام ، ومقدمة الامبراطورية الإسلامية المترامية الأطراف ، والتي أقرت في العالم حضارة ما تزال ولن تزال ذات أثر عميق في حياته . ولقد تعجب إذ تعلم أن محمداً ، على ما كان من تحريضه أصحابه وما كان يرجو من استئصال عدو الله وعدوه ، قد طلب إلى المسلمين منذ اللحظة الأولى من المعركة ألا يقتلوا بني هاشم وألا يقتلوا بعض رجال من سادات قريش . مع أنهم اشتركوا في قتال المسلمين ، ومع أنهم كانوا سيقتلون من المسلمين من يستطيعون قتله . ولا تحسب أنه في ذلك أراد أن يحابي أهله أو أحداً ممن يمتنون له بصلة القرى ، فنفس محمد أسمى من أن تتأثر بمثل هذا ، وإنما ذكر لبني هاشم منعهم إياه مدى ثلاثة عشر

المسلمون
لا يقتلون
من أحسنوا
إلى المسلمين

عاماً من يوم بعثه إلى يوم هجرته ، حتى كان عمه العباس معه ليلة بيعة العقبة .
 وذكر لغير بنى هاشم من قريش من قاموا وهم على الكفر يطالبون بنقض
 الصحيفة التي اضطرت به قريش أن يلزم هو وأصحابه الشعب أن قطعت قريش
 بهم كل صلة وكل علاقة . فهذا المعروف الذي تقدم به هؤلاء . وأولئك قد
 اعتبره محمد حسنة يُجزى من قدمها بمثلها بل يُجزى بعشر أمثالها ، ولذلك كان
 شفيحاً لهؤلاء . وأولئك عند المسلمين ساعة القتال ، وإن أرى بعض هؤلاء القرشيين
 أن يستظفوا بهذا العفو على نحو ما فعل أبو البختري أحد الذين قاموا في نقض
 الصحيفة ، فقد أرى وقتل .

وتى أهل مكة الأدبار كاسفاً بالهم خشعاً من الذل أبصارهم ، ما يكاد
 أحدهم يلتقي نظره بنظر صاحبه حتى يوارى وجهه خجلاً من سوء ما حل بهم
 جميعاً . أما المسلمون فأقاموا يبدر إلى آخر النهار ، ثم جمعوا الذين قتلوا من قريش
 فحضروا لهم قليلاً فدفنهم فيه . وقضى محمد وأصحابه تلك الليلة في الميدان في شغل
 يجمع الغنيمة والسهر على الأسرى . وإذ جنَّ الليل جعل محمد يفكر في نصر
 الله المسلمين على قلة عددهم . وخذلانه المشركين الذين لم يكن لهم من قوة
 الإيمان عضدٌ تعزز به كثرتهم . جعل يفكر في هذا حتى سمعه أصحابه جوف
 الليل وهو يقول : يا أهل القليب . يا عتبة بن ربيعة ويا شيبه بن ربيعة .
 ويا أمية بن خلف ، ويا أبا جهل بن هشام ؛ واستمر يذكر من في القليب واحداً
 بعد واحد ! يا أهل القليب هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ! فإني وجدت
 ما وعدني ربي حقاً . قال المسلمون : يا رسول الله ، أتنادى قوماً جيفوا ؟
 قال عليه السلام : « ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون أن
 يجيبوني » . ونظر رسول الله في وجه أبي حذيفة بن عتبة فألفاه كثيراً قد
 تغير لونه ؛ فقال له : لعلك يا أبا حذيفة قد دخلك من شأن أهلك شيء ؟ قال
 أبو حذيفة : « لا والله يا رسول الله . ما شككت في أبي ولا في مضرعه ،

ولكنني كنت أعرف من أي رأياً وحلماً وفضلاً فكنت أرجو أن يهديه ذلك للإسلام ، فلما رأيت ما أصابه وذكرت ما كان عليه من الكفر بعد الذي كنت أرجوه أحرزتي أمره . . فطمأنه رسول الله ودعا له بخير .

ولما أصبح الصبح وآن للمسلمين أن يرتحلوا قافلين إلى المدينة بدءوا يتساءلون في الغنيمة لمن تكون ؟ قال الذين جمعوها : نحن جمعناها فهي لنا . وقال الذين كانوا يطاردون العدو حتى ساعة هزيمته : نحن والله أحق بها ، فقولانا لما أصبتموها . وقال الذين كانوا يحرسون محمداً مخافة أن يرتد إليه العدو : ما أنتم ولا هم أحق بها منا ، وكان لنا أن نقتل العدو ونأخذ المتاع حين لم يكن دونه من يمنع ، ولكننا خفنا على رسول الله كرامة العدو فقمنا دونه . فأمر محمد الناس أن يردوا كل ما في أيديهم من الغنائم ، وأمر بها أن تحمل حتى يرى فيها رأيه أو يقضى الله فيها بقضائه .

وبعث محمد إلى المدينة عبد الله بن رَوَاحَةَ وزيد بن حارثة بشيرين يُلقيان إلى أهلها بما فتح الله على المسلمين من النصر . وقام هو وأصحابه قافلين إلى المدينة ومعه الأسرى وما أصاب من المشركين من غنيمة جعل عليها عبد الله ابن كعب . وسار القوم . حتى إذا تخطوا مضيق الضفراء نزل محمد على كتيب فقسم هناك التَّفَلَّ الذي أفاء الله على المسلمين ، بين المسلمين على سواء . يقول بعض المؤرخين : إنه قسمه بينهم بعد إذ أخذ منه الخمس ، لقوله تعالى : «واعلموا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وللرَّسُولِ ولذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ إِن كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » . ويذهب الأَكثَرُونَ من كتاب السيرة ، والمتقدمون منهم خاصة ، إلى أن هذه الآية نزلت بعد بدر وبعد قسم فيها . وأن محمداً جعل القسمة بين المسلمين على سواء ، وأنه جعل للفارس مثل ما للفارس ، وجعل للورثة حصة من استشهد ببدر ، وجعل حصة

الخلافة
المسلمين على
النبي .

قسمته بينهم
على سواء .

لمن تختلف بالمدينة فلم يشهد بدرأ ما كان قائماً فيها بعمل للمسلمين ، ومن حرّضهم حين الخروج إلى بدر وتختلف هو لعذر قبله الرسول . وكذلك قسم النبي . بالقسط . فليس المقاتل وحده هو الذي اشترك في الحرب والنصر ، بل اشترك في الحرب والنصر كل من كان لعمله في الفوز حظاً أيضاً كان هذا العمل ؛ وسواء أكان في ميدان القتال أم كان بعيداً عنه .

قتل أسيرين

وفيما المسلمون في طريقهم إلى مكة قتل من الأسرى رجلان ؛ أحدهما النَّضْرُ بن الحارث والآخَرُ عُقْبَةُ بن أبي مُعَيْط . ولم يكن محمد ولا كان أصحابه إلى هاته اللحظة قد وضعوا للأسرى نظاماً يكون على مقتضاه قتلهم أو اقتداؤهم أو استرقاقهم . لكن النضر وعقبة كانا على المسلمين أيام مقامهم بمكة شراً مستطيراً . وكانا لا ينفكان يوصلان لهم من الأذى كل ما يستطيعان . قتل النَّضْرُ حين عرض الأسرى على النبي عليه السلام عند بلوغهم الأثيل . فقد نظر إلى النضر نظرة ارتعد لها الأسير وقال لرجل إلى جنبه : محمد والله قاتلي ، لقد نظر إلى بعينين فيهما الموت . قال الذي إلى جنبه : ما هذا والله منك إلا رعب . وقال النضر لمُصْعَب بن عُمَيْرٍ وكان أقرب من هناك به رحماً : كَلِّمْ صاحبك أن يجعلني كرجل من أصحابه ، فهو والله قاتلي إن لم تفعل . فكان جواب مصعب : إنك كنت تقول في كتاب الله وفي نبيه كذا وكذا ، وكنت تعذب أصحابه . قال النضر : لو أسرتك قريش ما قتلتك أبداً وأنا حي . قال مصعب : والله إنى لا أراك صادقا ، ثم إنى است مثلك فقد قطع الإسلام العمود . وكان النضر أسير المقداد وكان يطعم أن ينال في اقتداء أهله إياه مالا كثيراً . فلما رأى الحديث حول قتله صاح : النضر أسيرى . قال النبي عليه السلام : إضرب عنقه ، واللهم اغنِ المقداد من فضلك . فقتله علي بن أبي طالب ضرباً بالسيف .

ولما كانوا من طريقهم بعرق الظبية أمر النبي بقتل عُقْبَةَ بن أبي مُعَيْط

فصاح عقبة : فَمَنْ لِلصَّيِّةِ يَا مُحَمَّدُ ؟ . قال : النار . وقتله على بن أبي طالب أو قتله
عاصم بن ثابت ، على اختلاف في الرواية .

وقبل أن يصل النبي والمسلمون المدينة بيوم وصلها رسوله زيد بن
حارثة وعبد الله بن رَوَاحَةَ ودخل كل واحد من ناحية منها : فجعل عبد الله
ينادي على راحلته يبشر الأنصار بنصر رسول الله وأصحابه ويذكر لهم من
قَتَلَ من المشركين . وجعل زيد بن حارثة يصنع صنيعه وهو ممتط القوسى
ناقة النبي . وسرَّ المسلمون واجتمعوا وخرج من كان منهم في داره وانطلقوا
يهللون لهذا النصر العظيم . أما الذين بقوا على الشرك ، وأما اليهود فقد كُتِبَتْ
لهذا النبأ وحاولوا أن يُقنعوا أنفسهم وأن يقنعوا الذين أقاموا في المدينة من
المسلمين بعدم صحته ، فصاحوا : إن محمداً قتل وأصحابه هزموا وهذه ناقته نعرها
جميعاً ، ولو أنه انتصر لبقيت عنده ، وإنما يقول زيد ما يقول هذياناً من الفرع
والرعب . لكن المسلمين ما لبثوا أن تثبتوا من الرسولين ، وأن اطمانوا إلى
صحة الخبر حتى زاد بهم السرور لولا حادث طراً خفف من سرورهم .
ذلك الحادث هو موت رُقِيَّة بنت النبي . وكان تركها عند ذهابه إلى بدر مريضة
وترك معها زوجها عثمان بن عفان يمرضها . ولما أيقن المشركون والمنافقون
بنصر محمد أسقط في أيديهم ورأوا موقفهم من المسلمين قد أصبح موقف
هوان ومذلة ، حتى قال أحد زعماء اليهود : بطن الأرض اليوم خير من ظهرها
بعد أن أصيب أشراف الناس وساداتهم وملوك العرب وأهل الحرم والأمن .
ودخل المسلمون المدينة قبل أن يدخلها الأسارى بيوم . فلما جرى بهم
ورجعت سَوْدَةَ بنت زَمْعَةَ زوج النبي من مناعة ابني عفرام وكانت بها ، رأت
أبا يزيد سَهَيْل بن عمرو أحد الأسرى مجموعة يدها إلى عنقه بحبل ، فلم تملك
نفسها أن توجه إليه الكلام قائلة : أى أبا يزيد ! أسلتم أنفسكم وأعطيتكم بأيديكم .
ألا متهم كراماً ! فناداها محمد من البيت : يا سَوْدَةَ ! أعلى الله عز وجل وعلى

أخبار النصر
بالمدينة

"اليهود
والمشركون
بالمدينة

أسرى بدر

رسوله تحرّضين ! . فأجاب : يا رسول الله ! والله الذي بعثك بالحق ما ملكت
نفسى حين رأيت ما رأيت أن قلت ما قلت . وقرق محمد الأسارى بين أصحابه
وقال لهم : استوصوا بهم خيراً . وطفق من بعد ذلك يفكر فيما يصنع بهم .
أفقتلهم أم يأخذ منهم الفداء ؟ ! . إن منهم لأشداء في الحرب أقوياء في النضال ،
ومن امتلأت بالحق والضعيفة نفوسهم بعد الذى كان من هزيمتهم بيد
وما لحقهم من عار الأسر ، فإن هو قبل الفداء كانوا عليه حرباً وألباً ، وإن
هو قتلهم أثار في نفوس أهلهم من قريش ما ربما هدأ لو أنهم اقتدوم .

مقالة ابى بكر
وعمر في
الأسرى

وعرض الأمر على المسلمين يستشيرهم ويترك لهم الخيار . وكان المسلمون
قد أنسوا من الأسرى طمعاً في الحياة واستعداداً لفدية عظيمة . فقال هؤلاء : لو
بعثنا إلى أبى بكر فانه أوصل قريش لأرحامنا وأكثرهم رحمة وعظماً . ولانعلم
أحداً أثر عند محمد منه . وبعثوا إلى أبى بكر فقالوا له : يا أبابكر إن فينا الآباء
والاخوان والعمومة وبنى العم وأبعدنا قريب . كلّم صاحبك يمن علينا أو
يفادنا . فوعدهم خيراً . وخافوا أن يفسد ابن الخطاب عليهم أمرهم فأرسلوا إليه
بخام فقالوا له مثل قولهم لأبى بكر ، فنظر إليهم شزراً . وذهب وزيراً محمد إليه
فجعل أبو بكر يُليّنهُ وَيَقْشِرُهُ ويقول : يا رسول الله ، بأبى أنت وأُمى ، قومك
فيهم الآباء والأبناء والعمومة وبنى العم والاخوان ، وأبعدهم منك قريب .
فامننّ عليهم من الله عليك أو فادهم يستنقذهم الله بك من النار ، فتأخذ منهم
ما أخذت قوة للمسلمين ، فلعل الله أن يقبل بقلوبهم . وسكت محمد فلم يجبه ، فقام
فتنحى . وجاء عمر فجلس مجلسه وقال : يا رسول الله ، هم أعداء الله كذبوك
وقاتلوك وأخرجوك ، إضرب رقابهم ؛ هم رءوس الكفر وأئمة الضلالة
يُوطئ الله بهم الاسلام ويُذل بهم أهل الشرك . ولم يجب محمد . فعاد أبو بكر
إلى مقعده الأول وجعل يتلطف ويستعطف ويذكر القرابة والرحم ويرجو
لهؤلاء الأسرى الهدى إن هم أبقي على حياتهم . وعاد عمر مثال العدل الصارم

لا تأخذه فيه هوادة ولا رحمة . ولما فرغ أبو بكر وعمر من كلامهما قام محمد فدخل قُبته فمكث فيها ساعة ثم خرج والناس يخوضون في شأنهم ، يقف بعضهم في صف أبي بكر ، ويقف آخرون في صف عمر . فشاورهم فيما يصنع ، وضرب لهم في أبي بكر وفي عمر مثلاً . فأما أبو بكر فثله كمثل ميكال ينزل برضاء الله وعفوه عن عباده . ومثله في الأنبياء كمثل إبراهيم . كان ألين على قومه من العسل . قدمه قومه إلى النار وطرحوه فيها فما زاد على أن قال : « أَفْ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » . وأن قال : « فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » ، ومثله في الأنبياء كمثل عيسى إذ يقول : « إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » . ومثل عمر في الملائكة كمثل جبريل ينزل بالسخط من الله والنعمة على أعداء الله ، ومثله في الأنبياء كمثل نوح إذ يقول : « رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذَيَّارًا ، وَكَمِثْلُ مُوسَى إِذْ يَقُولُ : « رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » . ثم قال : « وَإِنْ بِكُمْ عَيْلَةٌ فَلَا يَفُوتُكُمْ رَجُلٌ مِنْ هَؤُلَاءِ إِلَّا بَفْدَاءٍ أَوْ ضَرْبَةٍ عَنُقٍ . وَتَشَاوَرِ الْقَوْمَ فِيمَا بَيْنَهُمْ . وَكَانَ مِنْ بَيْنِ الْأَسْرَى شَاعِرٌ هُوَ أَبُو عَزَّةَ عَمْرُو بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمِيرَةَ الْجُمُحِيِّ رَأَى خِلَافَ الْقَوْمِ وَاسْتَعْجَلَ النِّجَاةَ فَقَالَ : لِي خَمْسَ بَنَاتٍ لَيْسَ لهن شَيْءٌ فَتَصَدَّقْ بِي عَلَيْهِنَ يَا مُحَمَّدُ ، وَإِنِّي لِمُعْطِيكَ مَوْثِقًا لَا أَقَاتِلُكَ وَلَا أَكْثُرُ عَلَيْكَ أَبَدًا . فَأَمَّنَهُ النَّبِيُّ وَأَرْسَلَهُ مِنْ غَيْرِ فِدَاءٍ ، وَكَانَ هُوَ وَحْدَهُ الْأَسِيرُ الَّذِي ظَفَرَ بِهَذَا الْأَمَانِ . عَلَى أَنَّهُ مَا لَبِثَ أَنْ نَكَثَ بَعْدَهُ وَأَنْ عَادَ فِقَاتِلَ بَعْدَ عَامٍ فِي أَحَدِ فِئَتَيْ قَوْمِهِ وَقُتِلَ . وَظَلَّ الْمُسْلِمُونَ فِي تَشَاوُرِهِمْ زَمَانًا اتَّبَعُوا بَعْدَهُ إِلَى قَبُولِ الْفِدَاءِ . وَفِي قَبُولِهِمْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ مِنَ الْأَنْفَالِ : « مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُشْحَنَ فِي الْأَرْضِ . تَرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » .

يقف غير واحد من المستشرقين عند أسرى بدر هؤلاء وعند مقتل
النضُر وعُقْبَة ويتسألون: أليس في ذلك ما يدل على ظمأ هذا الدين الجديد
للدّم ظمأ لولاه لما قُتِلَ الرجال، وكان أكرم للمسلمين بعد أن كسبوا
الموقعة أن يردّوا الأسرى وأن يكتفوا بالشئ الذي غنموا؟. وذلك تساؤل
الذي يريد أن يشير في النفوس عوامل إشفاق لم يكن له يومئذ موضع،
ليكون له بعد ألف سنة من هذه الغزوة وما تلاها من غزوات وسيلة للنيل
من الدين ومن صاحب الدين. على أن هذا التساؤل ما يلبث أن ينهار ويتداعى
إذا نحن وازننا مقتل النضر وعقبة بما يجرى اليوم وما سيجرى دائماً مادامت
الحضارة الغربية، التي تتشعق بوشاح المسيحية، متحكمة في الأرض. فهل تراه
يوأزى شيئاً إلى جنب ما يقع باسم قمع الثورات في بلاد يحكمها الاستعمار على
كره من أهلها وبالرغم منهم؟ وهل تراه يوأزى شيئاً إلى جانب ما وقع من
مجازر الحرب الكبرى؟ ثم هل هو يوأزى شيئاً مما حدث أثناء الثورة الفرنسية
الكبرى وأثناء الثورات المختلفة التي وقعت وتقع في أمم أوروبا المختلفة؟.

وليس ريب في أن الأمر بين محمد وأصحابه كان ثورة قوّة من محمد
بعثه الله ليقوم بها في وجه الوثنية والمشركين من عبّادها، ثورة قامت أوّل
أمرها بمكة واحتمل محمد وأصحابه من أجلها ألوان العذاب ثلاثة عشر عاماً
سويّاً. ثم انتقل المسلمون إلى المدينة وحشدوا جموعهم وقواتهم بها، وما
تزال مبادئ الثورة قائمة على أشدها في نفوسهم وفي نفوس قريش جميعاً.
وانتقال المسلمين إلى المدينة وموادعتهم اليهود من أهلها وما قاموا به من
مناوشات سبقت بدراناً، وغزوة بدر هذه - ذلك كله كان سياسة الثورة ولم
يكن مبادئها. كان السياسة التي قرر القائم بهذه الثورة وأصحابه أن يتبعوا
لاقرار أسس المبادئ التي جاء الرسول بها. وسياسة الثورة شيء ومبادئها شيء.
آخر. والخطّة التي تتبع قد تختلف تمام الاختلاف عن الغاية المقصودة من

هذه الخطة . وإذا كان الاسلام يقصد إلى إعلان الأخوة في الأرض كبداً ، فيجب أن يسلك لذلك سبيله وإن اقتضى ذلك من العنف والشدة مالا مفر منه . وهذا الذي صنع المسلمون بأسرى بدر آية في الرحمة وفي الحسنى إلى جانب ما يقع في الثورات التي يتغنى أهلها بمعاني العدل والرحمة ، وهو لاشئ إلى جانب المجازر الكثيرة التي قامت باسم المسيحية من مثل مجزرة سان بارتلمي . هذه المجزرة التي تعتبر سبة في تاريخ المسيحية لاشئ من مثلها قط في تاريخ الاسلام . هذه المجزرة التي دُبِّرَت بليل وقام فيها الكاثوليك بذبح البروتستنتيين في باريس وفي فرنسا غدراً وغييلة في أحط صور الغدر وأبشع صور الغيلة . فاذا قتل المسلمون اثنين من أسرى بدر الخسین لأنهم كانوا قساة على المسلمين مدى الأعوام الثلاثة عشر التي احتمل المسلمون فيها صنوف الأذى بمكة ، فقد كان في ذلك من مزيد الرحمة ومن اعتبار الفائدة العاجلة ما نزلت معه الآية : « مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يَشْتَرَّ فِي الْأَرْضِ تَرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » .

مجزرة
سان بارتلمي

بينما كان المسلمون في فرحهم بنصر الله وما أفاء عليهم من المغنم كان الحيسمان بن عبد الله الخزاعي يحث الطريق إلى مكة ، حتى كان أول من دخلها وأخبر أهلها بهزيمة قريش ومصابها في كبرائها وأشرافها وسادتها . وقد ذهلت مكة أول الأمر فلم تصدق الخبر . وكيف لا تندهل وهي تسمع أخبار هزيمتها ومقتل السادة والأشراف منها ! لكن الحيسمان لم يكن يهذي وكان يؤكد ما يقول وهو أشد من قريش جزعاً لما أصابهم . فلما استوثقوا من روايته خرواً وصدقين ، حتى لقد حم أبو لهب ومات بعد سبعة أيام . وتشاورت قريش ما تصنع ، فأجمعت على ألا تنوح على قتلاها مخافة أن يبلغ محمداً وأصحابه فيشتموا بهم ، وألا تبعث في أسراها حتى لا يآرَبَ عليها محمد

السير إلى مكة

موت
أبو لهب

وأصحابه ويغلوا في الفداء . وانقضى زمن وقريش صابرة على محنتها حتى
 سنحت فرصة افتدائها أسراها . إذ ذاك قدم مِكرَز بن حفص في فداء سهيل
 ابن عمرو . وكأما عزّ على عمر بن الخطاب أن يُفتدى وينجو من غير أن
 يصيبه مكروه ، فقال : يا رسول الله ، دعني أنزع نَيْبِي سُهَيْل بن عمرو ويدعُ
 لسانه فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبداً . فكان جواب النبي هذا الجواب
 البالغ غاية السمو : لا أمثّل به فيمثل الله بي وإن كنت نبياً .

افتداء
 الأسرى

افتداء العاصي
 ابن الربيع
 وإسلامه

وبعثت زينب ابنة النبي تفتدى زوجها العاصي بن الربيع ، وكان فيما
 بعثت قلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاصي حين بنى عليها : فلما
 رآها النبي رق لها رقّة شديدة فقال : إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردّوا
 عليها مالها فافعلوا . ثم إنه اتفق فيما بينه وبين أبي العاصي على أن يفارق زينب
 وقد فرق الاسلام بينه وبينها . وبعث محمد زيد بن حارثة وصاحباً معه فجاء
 بها إلى المدينة . على أن أبا العاصي ما لبث بعد مدة إيساره أن خرج إلى الشام
 في مال لقريش : حتى إذا كان على مقربة من المدينة لقيته سرّية لمحمد فأصابوا
 ما معه ، فأنحدر تحت الليل إلى أن دخل على زينب واستجارها فأجارته . وردّ
 المسلمون على الرجل ماله فانطلق به آمناً إلى مكة . فلما ردّه لأصحابه من قريش
 قال : يا معشر قريش ! هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه ؟ قالوا لا !
 جزاك الله خيراً فقد وجدناك وفيئاً كريماً . قال : فاني أشهد أن لا إله إلا الله
 وأن محمداً عبده ورسوله . والله ما منعتني من الاسلام عنده إلا مخافة أن
 تظنوا أنني إنما أردت أن آكل أموالكم ، فلما أذاها الله إليكم وفرغت منها
 أسلت . وعاد إلى المدينة ورد عليه النبي زينب . واستمرت قريش تفتدى
 أسراها ، وكان الفداء يومئذ أربعة آلاف درهم للرجل إلى ألف إلا من لا شيء .
 عنده فقد منّ عليه محمد بحريته .

بكا قريش
 قتلها

لم يهون ذلك على قريش مصابها . ولا هو دعاها إلى أن تهادن محمداً

أو أن تنسى هزيمتها: بل ناحت من بعد ذلك نساء قريش على قتلاها شهراً كاملاً، فجززن شعر رموسهن، وكان يوتى براحلة الرجل أو بفرسه فينحزن حولها. ولم يخالفهن في هذا إلا هند بنت عتبة زوج أبي سفيان. ولقد مشى نساء منهن يوماً اليها فقلن: ألا تبكين على أهلك وأخيك وعمك وأهل بيتك! فقالت: أنا أبكيهم فيبلغ محمداً وأصحابه فيشمتوا بنا ويشمت بنا نساء بني الخزرج! لا والله حتى أتأر من محمد وأصحابه! والدهن على حرام حتى يغزو محمداً. والله لو أعلم أن الحزن يذهب من قلبي لبكيت: ولكن لا يذهب إلا أن أرى ثأري بعيني من قتلة الأجابة. ومكثت لا تقرب الدهن ولا تقرب فراش أبي سفيان وتحرض الناس حتى كانت واقعة أحد. أما أبو سفيان فنذر بعد بدر ألا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً.

هند وأبو
سفيان

الفصل الرابع عشر

بين بدر وأحد

المسلمون واليهود - غزوة بني قينقاع - جلاء اليهود عن المدينة -
قريش تتحرك - غزوة السويق - القبائل تتحرك فنفر -
هزيمة صفوان ابن مية

تركت بدر بمكة من عميق الأثر ما رأيت، تركت الحرص على الثأر من محمد والمسلمين يوم تهباً فرصة الثأر. لكن أثرها بالمدينة كان أوضح وأكثر اتصالاً بحياة محمد والمسلمين معه. فقد شعر اليهود والمشركون والمنافقون بعد بدر بمزيد قوة المسلمين: ورأوا هذا الرجل الأجنبي الذي وفد عليهم من أقل من عامين فاراً مهاجراً من مكة يزداد سلطاناً وبأساً. ويكاد يكون صاحب الكلمة في أهل المدينة جميعاً لافي أصحابه وخدمه. وكان اليهود، على ما رأيت، قد بدأ تدمرهم من قبل بدر وبدأت مناوشاتهم المسلمين، حتى لكان ما بين الفريقين من عهد المواقعة هو الذي حال في أكثر من ظرف دون الانفجار. لذلك ما كاد المسلمون يعودون من بدر معتزتين بالنصر حتى جعلت طوائف المدينة الأخرى تنغامز وتأنم. وحتى بدأت تغرى بهم وترسل الأشعار في التحريض عليهم. بذلك انتقل ميدان الثورة من مكة إلى المدينة، وانتقل من الدين إلى السياسة. فلم تبق دعوة محمد إلى الله هي وحدها التي تجارَب، ولكن سلطانه ونفوذاً أمره وملكته هو الذي كان موضع الرهبة والخوف، وسبب الاهتمام به والتفكير في اغتياله. ولم يكن محمد لتخفي عليه من ذلك كله خافية؛ بل كان يقع على أخباره جميعاً ويتصل بعلمه كل ما يدبرّ ضده. وجعلت النفوس من

أثر بدر
بالمدينة
(يناير سنة
٦٢٤ م)

اليهوديات يترجون

جانبي المسلمين واليهود تمتلئ بالغل والضغينة شيئاً فشيئاً ، رويداً رويداً ،
وجعل هؤلاء وأولئك يترقب كل بصاحبه الدوائر .

وكان المسلمون إلى حين نصرهم الله يبدر يخشون مواطنهم من أهل
المدينة : فلا تبلغ منهم الجرأة إلى الاعتداء على من يعتدى على مسلم منهم . فلما
عادوا منتصرين أخذ سالم بن عمير نفسه بالقضاء على أبي عفاك أحد بني
عمرو بن عوف : لأنه كان يرسل الأشعار يطعن بها على محمد وعلى المسلمين .
ويحرض بها قومه على الخروج عليهم : وظل كذلك بعد بدر يُغري بهم
الناس . فذهب إليه سالم في ليلة صائفة كان أبو عفاك نائماً فيها بفناء داره ،
فوضع سالم السيف على كبده حتى خَشَّ في الفراش . وكانت عصماء بنت
مروان من بني أمية بن زيد تعيب الاسلام وتؤذي النبي وتحرض عليه : وظلت
كذلك إلى ما بعد بدر . فجاءها يوماً عمير بن عوف في جوف الليل حتى دخل
عليها بيتها وحوّلها نفر من ولدها نيام ومنهم من تُرضعه : وكان عمير ضعيف
البصر ، فجثها بيده فوجد الصبي ترضعه ، فتجاه عنها ، ثم وضع سيفه في
صدرها حتى أنفذه من ظهرها . ورجع عمير من عند النبي بعد أن أخبره الخبر ،
فوجد بنيتها في جماعة يدفونها : فأقبلوا عليه فقالوا : يا عمير أنت قتلتها ؟ قال :
« نعم ! فسكيدوني جميعاً ثم لا تُنظرون . فوالذي نفسى بيده لو قلمت بأجمعكم
ما قالت لضربتكم بسيفي حتى أموت أو أقتلكم » . وقد كان من أثر جرأة
عمير هذه أن ظهر الاسلام في بني خَطْمَةَ ، وكانت عصماء زوج رجل منهم ،
فأظهر منهم من كان يخفي إسلامه وانضم إلى صف المسلمين وسار معهم .

ويكفي أن نضيف إلى هذين المثليين أن كعب بن الأشرف هو الذي
قال حين علم بمقتل سادات مكة : هؤلاء أشراف العرب وملوك الناس . والله
لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها ، وأنه لما
تيقن الخبر ذهب إلى مكة يحرض على محمد ويُشدد الأشعار ويكي أصحاب

قتل المسلمين
أبا عفاك
وعصاء .

مقتل كعب
ابن الأشرف

القليب ، وأنه رجع بعد ذلك إلى المدينة فجعل يُشَيِّبُ بنساء المسلمين . وأنت تعرف طبائع العرب وأخلاقها وتعرف مبلغ تقديرهم للعريضة وثورتهم من أجله . وقد بلغ من غيظ المسلمين أنهم أجمعوا على قتل كعب ، واجتمع في ذلك عدة منهم ، وذهب إليه أحدهم يستدرجه بالطعن على محمد إذ يقول له : كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء من البلاء ، عادتنا العرب ورمونا عن قوس واحدة وقطعت عنا السبل حتى ضاع العيال وجهدت الأنفس . ولما أنس إلى كعب وأنس إليه كعب طلب إليه مالا لنفسه ولجماعة من أصحابه على أن يرهنوه دروعهم . ورضى كعب على أن يجيشوه من بعد . وإنه لفي داره على بعد من المدينة إذ ناداه صدّر الليل أبو نائلة أحد المؤتمرين به ، فنزل إليه رغم تحذير عروسه إياه النزول في مثل هذه الساعة من الليل . وسار الرجلان حتى التقيا بأصحاب أبي نائلة وكعب آمن لا يخافهم . وخرج القوم يتماشون حتى مشوا ساعة بعدوا بها عن دار كعب وهم يتجادبون أطراف الحديث ويذكرون من حالهم وما وصلوا إليه من شدة ما يزيد في طمأنينة كعب . وفي هذه الأثناء كان أبو نائلة يضع يده في رأس كعب ويشمها ويقول : ما رأيت كالليلة طيبا أعطر قط . ولما لم تبق لدى كعب شبهة فيهم ، عاد أبو نائلة فوضع يده على شعر كعب ثم أخذ بقود رأسه وقال : اضربوا عدو الله : فضربوه بأسياهم حتى مات .

مخاوف اليهود
وعدوانهم

زاد هذا الحادث في مخاوف اليهود ، فلم يبق منهم إلا من يخاف على نفسه . على أن ذلك لم يسكتهم عن محمد ولا عن المسلمين حتى فاضت النفوس أي فيض . قدمت امرأة من العرب إلى سوق اليهود من بني قينقاع ومعها حلية جلست إلى صائغ منهم بها ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها وهي تأتي : فجاء يهودي من خلفها في سر منها فأثبت طرف ثوبها بشوكة إلى ظهرها فلما قامت انكشفت سواتها فضحكوا بها : فصاحت فوثب رجل من المسلمين

على الصائغ وكان يهودياً فقتله ؛ وشدت اليهود على المسلم فقتلوه ؛ فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود ، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع . وطلب محمد إلى هؤلاء أن يكفوا عن أذى المسلمين وأن يحفظوا عهد المودعة أو ينزل بهم ما نزل بقريش . فاستخفوا بوعيده وأجابوه : « لا يغرنك يا محمد أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة . إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أننا نحن الناس . . . فلم يبق بعد ذلك من سبيل لعدم مقاتلتهم إلا أن يتعرض المسلمون ويتعرض سلطانهم بمكة للتداعى ويصبحوا أحدوة قريش وقد جعلوا قريشاً بالأمس أحدوة العرب .

وخرج المسلمون فحاصروا بني قينقاع في دورهم خمسة عشر يوماً متتابعة لا يخرج منهم أحد ولا يدخل عليهم بطعام أحد ، حتى لم يبق لهم إلا النزول على حكم محمد والتسليم بقضائه . فلما سلموا قرر محمد ، بعد مشورة كبار المسلمين ، قتلهم جميعاً . فقام إليه عبد الله بن أبي بن سلؤل ، وكان لليهود كما كان للمسلمين حليفاً ، فقال : يا محمد ، أحسن في موالى . فأبطأ عليه النبي فكرر الطلب ، فأعرض النبي عنه فأدخل يده في جيب درع محمد . فتغير محمد وقال له : أرسلنى : وغضب حتى رأوا لوجهه ظللاً ، ثم أعاد وأثر الغضب في نبرات صوته : « أرسلنى ويحك ! » . قال ابن أبي : لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالى . أربعائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعونى من الاحمر والاسود تحصدهم في غداة واحدة ! . إني والله امرؤ أخشى الدوائر . وكان عبد الله ذا سلطان ما يزال فى المشركين من الأوس والخزرج . وإن كان هذا السلطان قد ضعف بقوة المسلمين . فرأى النبي فى إلحاحه ما جعله يعود إلى سكينته ، وبخاصة بعد إذ جاء عبادة بن الصّاميت يحدثه حديث ابن أبي . وما جعله يفكر فى أن يسدى هذه اليد لعبد الله وللشركين موالى يهود جميعاً حتى يصبحوا مدينين لاحسانه ورحمته : على أن تجلو بنو قينقاع عن المدينة جزاء لها على صنعها .

حصار
بني قينقاع

رجاء ابن أبي
الافتلوا

إجلاؤهم
عن المدينة

وقد حاول ابن أبي أن يتحدث مرة أخرى إلى محمد في بقائهم ومقامهم. لكن أحد المسلمين حال دون ابن أبي ولقاء محمد واشتجرا حتى شجَّ عبد الله . فقالت بنو قينقاع : والله لا نقيم بيلد تُشجَّ فيه يابن أبي ولا نستطيع عنك دفاعاً . وعلى ذلك سار بهم عبادة بعد الذي كان من تسليمهم وإذعانهم تاركين المدينة . تاركين وراءهم السلاح وأدوات الذهب الذي كانوا يصوغون ، حتى بلغوا وادي القرى . هناك أقاموا زمناً ، ومن هناك احتملوا ما معهم وساروا صوب الشمال حتى بلغوا أذرعات على حدود الشام وبها أقاموا . ولعلمهم إنما استهوتهم إلى الشمال أرض المعاد التي كانت وما تزال تهوى إليها أقدمة اليهود .

الوحدة
السياسية
في المدينة

خلت المدينة من اليهود بعد جلاء بني قينقاع عنها . فقد كان سائر اليهود المنتسبين للمدينة بعيداً عنها بخير وبأم القرى . ولهذا النتيجة كان يقصد محمد من إجلاؤهم . وهذا تصرف سياسي آية في الدلالة على الحكمة وبعد النظر . وهو مقدمة لم يكن منها بدٌ للأثار السياسية التي ترتبت بعد ذلك على خطة محمد . فليس شيء أضرَّ على وحدة مدينة من المدن من تنازع الطوائف فيها . وإذا كان نضال هذه الطوائف لا بدَّ منه فهو لا بدَّ منته إلى تغلب طائفة على سائرها غلبةً تنتهي إلى سيادتها . وقد تحدث بعض المؤرخين منتقداً تصرف المسلمين إزاء اليهود ، زاعماً أن حكاية المسئلة التي ذهبت إلى الصائغ كانت من اليسير تسويتها مادام قد قتل من المسلمين رجل ومن اليهود رجل . وقد نستطيع دفع هذا القول بأن مقتل اليهودي والمسلم لم يمحُ ما لحق المسلمين من إهانة في شخص المرأة التي عبث اليهودي بها ، وأن مثل هذه المسألة عند العرب ، أكثر منها عند غيرهم من الأمم جديرة أن تثور لها الثائرات ، وأن يقوم من أجلها القتال بين قبيلتين أو طائفتين سنوات متتابعة . وفي تاريخ العرب من ذلك أمثال يعرفها المطلعون على هذا التاريخ . لكن هنالك إلى جانب هذا الاعتبار اعتباراً آخر

أقوى منه . فحدث المرأة كان من حصار بني قينقاع وإجلائهم عن المدينة ما كان مقتل ولي عهد النمسا بسيرا جيفو سنة ١٩١٤ من الحرب الكبرى التي اشتركت فيها أوروبا جميعاً . هو إنما كان الشرارة التي ألهبت ما تأجج به نفوس المسلمين واليهود جميعاً لهباً أدى إلى انفجارها وإلى كل ما يحدث الانفجار من آثار . والحق أن وجود اليهود والمشركين والمنافقين إلى جانب المسلمين بالمدينة ، وما أذكى ذلك من أسباب الفرقة ، قد جعل المدينة من الناحية السياسية على بُرٍ كان لا مفرَّ له من أن ينفجر ، وقد كان حصار بني قينقاع وجلاؤهم عن المدينة أوّل مظاهر هذا الانفجار .

كان طبيعياً أن ينكمش غير المسلمين من أهل المدينة بعد جلاء بني قينقاع عنها ، وأن تبدو من الهدوء والسكينة في المظهر الذي يعقب كل عاصفة وكل إعصار . وعلى هذا الهدوء ظلّ الناس شهراً كاملاً كان جديراً أن يزداد إلى أشهر ، لولا أن أبا سفيان لم يُطق البقاء بمكة قابلاً تحت خزي هزيمة بدر دون أن يُعيد إلى أذهان العرب بشبه الجزيرة أن قريشاً ما تزال لها قوتها وعصبيتها ومقدرتها على الغزو وعلى القتال . لذلك جمع مائتين ، وقيل أربعين ، من رجال مكة وخرج فيهم مستخفين ، حتى إذا كانوا على مقربة من المدينة خرجوا سحراً فأتوا ناحية يقال لها العرّيض ، فوجدوا رجلاً من الأنصار وحليفاً له في حرث لها فقتلوهما ، وحرّقوا بيتين بالعريض ونخيلاً ، ثم رأى أبو سفيان أن يمينه بغزو محمد برّت فانكفاً هارباً . خائفاً أن يطلبه النبي وأصحابه . وندب محمد أصحابه فخرجوا في أثره وهو على رأسهم حتى بلغوا قرقر الكدّر وأبو سفيان ومن معه جادّون في الفرار يتزايد خوفهم فيلقون ما يحملون من زادهم من السوق . فاذا امر المسلمون بها أخذوها . ولما رأى محمد أن القوم أمعنوا في الفرار عاد وأصحابه إلى المدينة ، وقد انقلب فرار أبي سفيان عليه بعد أن كان يحسب الغزوة ترفع رأس قريش من مصاب بدر . وبسبب السويق الذي ألفت

غزوة السويق

قريش ، سُمِّيت هذه الغزوة من غزوات محمد غزوة السَّوِيق .
تداولت أبناء محمد هذه سَمْعَ العرب جميعاً . فأما القبائل البعيدة عنه فظلت
في مأمْنها لا تُتَعَنَّى إلا قليلاً بأمر هؤلاء المسلمين الذين كانوا إلى يوم بدر — أى
إلى أشهر قليلة خلت — أذلةً يلتمسون بالمدينة ملجأ ، والذين أصبحوا اليوم
يقفون في وجه قريش ويُجلون بنى قَيْنُقَاع ويرسلون الرعب إلى رُوع
عبدالله بن أُبَى ويطاردون أباسفيان ويظهرون مظهراً لم يكن من قبل
مألوفاً . فأما القبائل القريبة من المدينة فقد بدأت ترى ما يهدد مصيرها من
قوة محمد وأصحابه ، ومن تعادل هذه القوة مع قوة قريش بمكة تعادلاً تُحْشَى
نتائجهُ . ذلك بأن طريق الشاطي . إلى الشام هي الطريق المعبّدة المعروفة .
وتجارة مكة في مرورها بها مُنفيد هذه القبائل فائدة اقتصادية تذكر . وقد
عاهد محمد كثيراً من القبائل التي تناخم الشاطي . ، فهدد هذا الطريق وعرض
رحلة الصيف لمخاطر قد تُضطرب معها قريش الى العدول عن متاخمة الشاطي .
فماذا عسى أن يصيب هذه القبائل إذا انقطعت تجارة قريش ؟ وكيف تراهم
يحتلمون شظف الحياة في هذه البقاع الشديدة الشظف بطبعها ؟ فنحن إذا
أن تفكر في مصيرها وفيما عساه يصيبها من أثر هذا الموقف الجديد الذي لم
يُعرَف قبل هجرة محمد وأصحابه إلى يثرب ، والذي لم يصل إلى ما وصل إليه
من تهديد حياة هذه القبائل قبل بدر واتصار المسلمين فيها .

تهديد طريق
الشاطي .
إلى الشام

لكن بدرأ أدخلت الرعب الى قلوب هذه القبائل . أفترأها تُغير على
المدينة وتحارب المسلمين ، أم ماذا تراها تصنع ؟ ! بلغ محمداً أن جمعاً من
عُظَمَاءِ سُلَيْمِ اعترم الاعتداء على المسلمين : فخرج إلى قَرْقَرَةَ الكدر ليأخذ
عليهم الطريق . فلما وصل إلى ذلك المكان رأى آثار النعم ولم يجد في المجال أحداً ،
فأرسل نقرأ من أصحابه في أعلى الوادي وانتظر هو في بطنه ، فالتقى بغلام اسمه
يَسَار ، فسأله فلم منه أن الجمع ارتفع الى الماء ؛ فجمع المسلمون ما وجدوا من

روع العرب
من المسلمين

تَعِمُّ فاققسموه بعد أن أخذ محمد الخنس ، كنعن القرآن . قيل : وكان ماغنموا خمسمائة بعير أخرج خمسها وقسم الباقي فأصاب كل رجل بعيران . وبلغ محمد أن جمعا من بني ثعلبة ومُحَارِبِ بذي أمرٍ قد تجتمعوا يريدون أن يصيبوا من أطرافه . فخرج عليه السلام في أربعائة وخمسين من المسلمين ، فلقى رجلا من ثعلبة فسأله عن القوم فدله الرجل على مكانهم وقال له : إنهم يا محمد إن سمعوا بمسيرك هربوا في رموس الجبال ، وأنا سائر معك ودالك على عورتهم . فلما لبث المغيرون أن سمعوا باقتراب محمد منهم حتى فروا فوق الجبال . وبلغه أن جمعا كبيرا من بني سُليم يبحران تهبوا لقتاله ، فخرج في ثلاثمائة رجل فأعدوا السير ، حتى إذا كانوا دون بحران بليلة لقيهم رجل من بني سُليم ، فسأله محمد عنهم فأخبره أنهم تفرقوا وعادوا أدراجهم . وكذلك كان هؤلاء الأعراب في فرع من محمد وفي فرع على مصيرهم ، ما يكادون يفكرون في الكيد لمحمد وفي السير لملاقاته حتى تنخلع قلوبهم لمجرد سماعهم بسيره للقاتلهم .

وفي هذه الأثناء وقع مقتل كعب بن الأشرف على نحو ما قدمنا ، فأصاب اليهود أيضاً من الفرع ما جعلهم يلزمون دورهم لا يخرج أحد منهم مخالفة أن يصيبه ما أصاب كعبا . وزاد في فرعهم أن أهدر محمد دماءهم بعد الذي كان من أمر بني قَيْنَقَاعِ مما أدى إلى حصارهم . فجاءوا إلى محمد يشكون إليه أمرهم ويذكرون له مقتل كعب غيلةً بلا جرم ولا حدث علموه . فكان جوابه لهم : إنه آذانا وهجانا بالشعر ، ولو قر كما قر غيره من هو على مثل رأيه ما أصابه شر . وبعد حديث طال بينهم دعاهم إلى أن يكتب معهم كتاباً يحترمون به . وخافت اليهود وذلت وإن بقي في نفسها من محمد ما بدا من بعده أثره .

ماذا تصنع قريش بتجارتها إلى الشام وقد أخذ محمد عليها طريقها ؟ إن مكة تعيش من التجارة ، فإذا لم تجد الوسيلة إليها تعرضت لشر ما تعرض له مدينة مثاها . وهذا محمد أراد حصارها والقضاء في نفس العرب

فرع اليهود

قريش تسلك طريق العراق إلى الشام

على مكاتها . وقف صفوان بن أمية يوماً في قريش وقال لهم : « إن محمداً وأصحابه قد عوّروا علينا متّجرنا ، فما ندري كيف نصنع بأصحابه وهم لا يرحون الساحل ، وأهل الساحل قد وادعهم ودخل عامتهم معه ، فما ندري أين نسكن . وإن أفنا في دارنا هذه أكلنا رهوس أموالنا فلم يكن لها من بقاء . وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام في الصيف وإلى الحبشة في الشتاء . » قال له الأسود بن المطلب : تتسكّب الطريق على الساحل وخذ طريق العراق . ودلّه على فرات بن حيان من بني بكر بن وائل يدلّهم على الطريق . وقال لهم فرات : طريق العراق ليس يطؤها أحد من أصحاب محمد فإنما هي أرض نجد وفيآف . ولم يخف صفوان الفيافي أن كان الفصل شتاءً وحاجتهم إلى الماء قليلة ، وتجهّز صفوان من الفضة والبضائع بما قيمته مائة ألف درهم . وكان بمكة حين تدبير قريش خروج تجارتها ، يثربى هو نعيم بن مسعود الأشجعيّ عاد إلى المدينة ، وجرى على لسانه ذكر حديث قريش وما صنعت ، لأحد المسلمين . فأسرع هذا فنقل الخبر إلى محمد . وما لبث النبي أن بعث زيد بن حارثة في مائة راكب اعترضوا التجارة عند القردة (ماء من مياه نجد) ففرّ الرجال وأصاب المسلمون العير . فكانت أول غنيمة ذات قيمة غنمها المسلمون . وعاد زيد ومن معه فخمسها محمد وقسم ما بقى على رجاله ، وحجى بقرات بن حيان فعرض عليه أن يسلم لينجو فأسلم ونجا .

بغزوها
المسلمون

هل اطمأن محمد بعد هذا كله إلى أن الأمر قد استقر له ؟ هل خدعه يومه عن غده ، وهل خيّل له فزع القبائل منه وما غنم من قريش أن كلمة الله وكلمة رسوله قد اطمأنت ولم يبق للخوف عليها محل ؟ وهل جعل إيمانه بنصر الله إياه يلقي حبال الأمور على غواربها علماً منه بأن الأمر كله لله !! كلا ؛ فالأمر كله حقاً لله . لكنك لن تجد لسنة الله تبديلاً . وما ركّب الله في النفوس من سلائق لاسيّل إلى إنكاره . وقريش لها سيادة العرب ، وهي

القوم ؛ فمن قاتل بخر وجهن ؛ فإنه أقرن أن يحفظكم ويذكركم قتلى بدر ، ونحن قوم مستميتون لا نريد أن نرجع إلى دارنا حتى ندرك ثأرنا أو نموت دونه .
ومن قائل : « يا معشر قريش ! هذا ليس برأى أن تعرضوا حرمكم لعدوكم ، ولا آمن أن تكون الذبيرة عليكم فتفتضحوا في نساءكم . وفيما هم يتشاورون صاحبت هند بنت عتبة زوج أبي سفيان بن يعترض خروج النساء : « إنك والله سلّمت يوم بدر فرجعت إلى نساءك . نعم ! نخرج فتشهد القتال ولا يردنا أحد كما ردت الفتيات في سفرهم إلى بدر حين بلغوا الجحفة (والجحفة مكان) فقتلت الأحيّة يومئذ ، أن لم يكن من يحرضهم . وخرجت قريش ومعها نساؤها وعلى رأسهن هند وهى أشدهن على الثأر حرقة . أن قتل يوم بدر أبوها وأخواتها وأعز الناس عليها . خرجت قريش تقصد المدينة في ثلاثة ألوية عقدت في دار الندوة ، وعلى اللواء الأكبر منها طلحة بن أبي طلحة وهم ثلاثة آلاف ليس بينهم غير مائة رجل من تقيف ، وسائرهم من مكة سادتها ومواليها وأحايشها . وقد أخذوا معهم من العدة والسلاح الشيء الكثير وقادوا مائتي فرس وثلاثة آلاف بعير ومن بينهم سبعمائة دارع .

تهذيب قريش
للقتال

تهياً للقوم للسير بعد أن أجمعوا عليه والعباس بن عبد المطلب عم النبي بينهم واقف على أمرهم مطلع على كل دقيق وجليل من شأنهم . وكان العباس على حرصه على دين آبائه ودين قومه يحس لمحمد عليه بشعور العصبية وشعور الإعجاب . ويذكر له حسن معاملته إياه يوم بدر . ولعل الإعجاب والعصبية اللذين جعلاه يشهد مع محمد بيعة العقبة الكبرى ويتخاطب الأوس والخزرج بانهم إن لم يكونوا مانعي ابن أخيه مما يمنعون منه نساءهم وأولادهم فليدعوه إلى أهله يذودون عنه زيادهم من قبل ، هما اللذان دفعاه حين أجمعت قريش المسير في هذا العدد العظيم إلى أن يكتب كتابا يصف فيه صنيعهم وجمعهم وعدتهم وعديدهم ، ويدفع به إلى رجل غفاري يسير به إلى النبي حتى

مسيرة قريش
إلى المدينة

يلعب المدينة في ثلاثة أيام فيدفعه إليه . فأما قريش فسارت حتى بلغت الأبواء
ومرت بقبر آمنه بنت وهب ، فدفعت الحمية بعض الطائشين منها إلى التفكير
في نبشه . لكن زعماءها أبوا عليهم هذه الفعلة حتى لا تكون سنة عند العرب ،
وقالوا : لا تذكروا من هذا شيئاً ، فلو فعلنا نبشت بنو بكر وبنو خزاعة
موتانا . وتابعت قريش مسيرها حتى بلغت العقيق ثم نزلت عند بعض
السفوح من جبل أحدٍ على خمسة أميال من المدينة .

رسول العباس
إلى النبي

وبلغ الغفاري الذي بعثه العباس بن عبد المطلب بكتابه المدينة فوجد
محمدًا بقباء ؛ فذهب إليه فوجده على باب المسجد هناك يركب حماره ، فدفع
إليه الكتاب ، فقرأه عليه أبو كعب ، فاستكتمه محمد ما فيه وعاد إلى
المدينة فقصد إلى سعد بن أبي في داره فقص عليه ما بعث العباس به إليه
واستكتمه أيضاً إياه . على أن زوج سعد كانت بالمنزل وكانت تسمع ما دار
فلم يبق سراً . وبعث محمد أنسا ومُنسًا ابني فضالة يتنطسان خبر قريش
فألقياها قاربت المدينة وأطلقت خيلها وإبلها ترعى زروع يثرب المحيطة بها .
وبعث محمد من بعدهما الحباب بن المُنذر بن الجموح . فلما جاءه من خبرهم
بمثل ما أخبره العباس أخذته عليه السلام الحيرة . وخرج سلة بن سلامة ،
فاذا طليعة خيل قريش تقرب من المدينة وتكاد تدخلها . فعاد فخر قومه
بما رأى ، وخشى الأوس والخزرج وأهل المدينة جميعاً عاقبة هذه الغزوة التي
أعدت لها قريش خير ما أعدت في تاريخ حروبها ، حتى لقد بات وجوه
المسلمين من أهل المدينة وعليهم السلاح بالمسجد خوفاً على النبي . وحرست
المدينة كلها طيلة الليل . فلما أصبحوا جمع النبي أهل الرأي من المسلمين ومن
المتظاهرين بالاسلام — أو المنافقين على ما كانوا يدعون يومئذ وما نعتوا
في القرآن — وجعلوا يتشاورون : كيف يلقون عدوهم ؟

تشاور النبي
وأهل المدينة

رأى النبي عليه السلام أن يتحصنوا بالمدينة وأن يدعوا قريشاً

خارجها ، فاذا حاولوا اقتحامها كانوا أهلها فكانوا أقدر على دفعهم والتغلب عليهم . ورأى عبد الله بن أبي بن سلول رأى النبي وقال : « لقد كنا يارسول الله نقاتل فيها ونجعل النساء والأطفال في هذه الصياصي ونجعل معهم الحجارة ونسبك المدينة بالبنان فتكون كالحصن من كل ناحية . فاذا أقبل العدو رمته النسوة والأطفال بالحجارة وقاتلناه باسيافنا في السكك . إن مدينتنا يارسول الله عذراء مافضت علينا قط وما دخل علينا عدوٌ فيها إلا أصبناه ، وما خرجنا الى عدوٍ قط منها إلا أصاب منا ، فدعهم يارسول الله وأطعني في هذا الأمر ، فإني ورثت هذا الرأي عن أكبر قومي وأهل الرأي منهم . »

القائولون
بالحصن
بالمدينة

وكان كلام ابن أبي هذا هو رأي الأكاير من أصحاب الرسول من المهاجرين ومن الأنصار كما كان رأي الرسول عليه السلام . لكن قتيانا ذوى حمية لم يشهدوا بدرأ ورجالا شهدوها وأمتعهم الله بالنصر فيها وملاً الايمان قلوبهم أن ليس لقوة أن تغالبهم أو تتغلب عليهم أحبوا الخروج الى العدو وملاقاته حيث نزل ، مخافة أن يظن أنهم كرهوا الخروج وتحصنوا بالمدينة جنأ عن لقاءه . ثم إنهم إلى جانب المدينة وعلى مقربة منها أقوى منهم يوم كانوا يبدر لا يعرف أهلهم من أمرهم شيئاً . قال قائل منهم : « إني لا أحب أن ترجع قريش إلى قومها فيقولون : حصرنا محمداً في صياصي يثرب وآطامها فتكون هذه مُجرّة لقريش ، وهامم قد وطئوا سعفنا ، فاذا لم نذب عن عرضنا لم يزرع ، وإن قريشاً قد مكثت حولاً تجمع الجموع وتستجلب العرب من بواديا ومن تبعها من أحابيشها ثم جاءونا قد قادوا الخيل وامتطوا الابل حتى نزلوا بساحتنا ، أفحبسوننا في بيوتنا وصياصينا ثم يرجعون وافرين لم يُسكتموا ! . لئن فعلنا لآزادوا جرأةً ولشئوا الغارات علينا وأصابوا من أطرافنا ووضعوا العيون والأرصاد على مدينتنا ثم لقطعوا الطريق علينا . » وتعاقب الدعاة إلى الخروج يتحدث كلٌ حديثه ويذكرون جميعاً أنهم إذا ظفروهم الله بعدوهم فذلك الذي

والقائولون
بالخروج للقائ
العدو

حديث
الشجاعة
والاستعداد

أرادوا وذلك الذي وعد الله رسوله بالحق ، وإن هم انهزموا واستشهدوا كانت لهم الجنة .

وهو حديث الشجاعة وحديث الاستشهاد القلوب ، واستنفر روح الجماعة الأنفس لتجرى كلها في هذا التيار ، ولتحدث كلها على هذه النعمة ، فلم يبق تلك اللحظة أمام الجمع المائل في حضرة محمد المثل . القلب بالايان بالله ورسوله وكتابه وحسابه ، إلا صورة الظفر بهذا العدو المعتدى تفرقه سيوفهم أيدي سبا ، وبيعه بأسهم ببدأ شدرَ مدرَ ، وتستولى أيديهم على مغائمه ومحارمه : وصورة الجنة أعدت للذين قُتلوا في سبيل الله فيها ماتتشي الأنفس وتلذذ الأعين يلقون فيها أحبهم الذين شهدوا بدرًا واستشهدوا فيها ، « لا يسمعون فيها لغوًا ولا تأنيماً إلا قياًً سلاماً سلاماً » . قال خيشمة أبو سعد بن خيشمة : « عسى الله أن يُظفرنا بهم أو تكون الأخرى فهي الشهادة . لقد أخطأني وقعة بدر و كنت عليها حريصاً ، حتى بلغ من حرصي عليها أن ساهمت ابني في الخروج فخرج سهمه فرُزق الشهادة ، وقد رأيت ابني البارحة في النوم وهو يقول : إلحق بنا تراقنا في الجنة ، فقد وجدت ما وعدني ربي حقاً . وقد والله يا رسول الله أصبحت مشتاقاً إلى مرافقته في الجنة ؛ وقد كبرت سني ورق عظمي وأحبيت لقاء ربي » . فلما ظهرت الكثرة واضحة في جانب الذين يقولون بالخروج إلى العدو وملاقاته قال لهم محمد : إني أخاف عليكم الهزيمة ؛ فأبوا مع ذلك إلا الخروج . فلم يكن له إلا أن ينزل على رأيهم . وقد كانت الشورى أساس نظامه لهذه الحياة ، فلم يكن ينفرد بأمر إلا ما أوحى إليه من عند الله .

تغلب الفاتلين
بالخروج

وكان اليوم يوم جمعة : فصلّى بالناس وأخبرهم أن لهم النصر ما صبروا ؛ وأمرهم بالتهيؤ لعدوهم . ودخل محمد بيته بعد صلاة العصر ودخل معه أبو بكر وعمر فعماه وألبساه درعه وتقلد سيفه ، والناس أثناء غيبته هذه في جدل

يتحاورون . قال أُسَيْدُ بنُ حُضَيْرٍ وسعد بن مُعَاذٍ وكانا من أشار بالتحصن بالمدينة للذين رأوا الخروج منها : « لقد رأيتم رسول الله يرى التحصن بالمدينة فقلتم ما قلتم واستكرهتموه على الخروج وهو له كاره . فرُدُّوا الأمر إليه ، فما أمركم فافعلوه ، وما رأيتم له فيه هوى أو رأياً فأطيعوه . » ولأن الداعون للخروج لما سمعوا ، وحسبوا أنهم خالفوا الرسول إلى شيء قد يكون لله فيه آية . فلما خرج لهم وعليه درعه وقد تقنَّد سيفه أقبل عليه الذين كانوا يرون الخروج فقالوا : « ما كان لنا يارسول الله أن نخالفك فاصنع ما بدا لك ، وما كان لنا أن نستكرهك ، والأمر إلى الله ثم إليك » . قال محمد : « قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأيتتم . وما ينبغي لني إذا لبس لأمتي أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه . أنظروا ما أمركم به فاتبعوه ، والنصر لكم ما صبرتم . » وكذلك وضع محمد إلى جانب مبدأ الشورى أساس النظام . فإذا تم للكثرة رأى بعد بحث ، لم يكن لها أن تنقضه هوى أو لغاية ، بل يجب أن ينفذ الأمر على أن يُحسن من يتولى تنفيذه ويوجهه إلى حيث يتحقق نجاحه .

النظام
مع الشورى

وتقدم محمد بالمسلمين متجهاً إلى أحد . حتى نزل مكاناً به صنمان ، اسمهما الشيطان ، كان يُتحدَّث في الجاهلية اليهما بشيخ أعمى وشيخة عمياء . وهناك بصُر بكتيبة لا يعرف أهلها ، فسأل عنها فقيل : هؤلاء حلفاء ابن أبي من يهود . قال عليه السلام : لا يُستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك ما لم يُسلموا . فانصرف اليهود عائدتين إلى المدينة . إذ ذاك جعل حلفاء ابن أبي يقولون له : لقد نصحتك وأشرت عليه برأى من مضى من آباتك فكان رأيه مع رأيك ، ثم أبي أن يقبله وأطاع الغلمان الذين معه . وصادف حديثهم هوى من نفس ابن أبي ، فلما أصبحوا اتخذوا كتيبة من أصحابه . وبقى النبي وجمعه المؤمنون حقاً وعدتهم سبعمائة ، ليقاتلوا ثلاثة آلاف قرشي من أهل مكة كلهم موتور من يوم بدر ، وكلهم على ناره حريص .

حروب
الشورى

شود اليهود
وإبن أبي
إلى المدينة

تنظيم النبي
لصفوف

وسار المسلمون مع الصبح حتى بلغوا أحداً فأجازوا مسالكه وجعلوه
إلى ظهرهم . وجعل محمد يَصُفُّ أصحابه وقد وضع منهم خمسين من الرماة على
شِعب في الجبل وقال لهم : « احموا لنا ظهورنا فإنا نخاف أن يجيئوننا من
ورائنا ، والزموا مكانكم لا تبرحوا منه . وإن رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل
عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم ، وإن رأيتمونا نقتل فلا تعينونا ولا تدفعوا
عنا . وإنما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنبل ، فإن الخيل لا تُقَدِّم على النبل » .
ثم نهى غير الرماة أن يقاتل أحد حتى يأمر هو بالقتال .

فأمَّا قريش فصَفَّت صفوفها وجعلت على الميمنة خالد بن الوليد وعلى
الميسرة عِكْرِمَةَ بن أبي جَبَل ، ودفعت اللواء إلى عبد العزَّى طَلْحَةَ بن
أبي طلحة . وجعلت نساء قريش يمشين خلال صفوفها يضربن بالدفوف
والطبول ، فيكنن تارة في مقدمة الصفوف وتارة في مؤخرتها ، وعلى رأسهن
هند بنت عتبة زوج أبي سفيان وهن يقلن :

ويهاً نبي عبد الدَّارِ ويهاً حُمَاة الأديارِ
ضَرْباً بِكُلِّ بَتَّارِ

ويقلن :

إِن تُقْبِلُوا نَعَانِقُ وَتَقْرُشِ النَّمَارِقُ
أَوْ تَذُبُّرُوا نَقَارِقُ فَرَاقِ غَيْرِ وَأَمِقِ

واستعد الفريقان للقتال وكل يحرض رجاله . فأمَّا قريش فتذكر بدرأ
وقتلاها ، وأما المسلمون فيذكرون الله ونصره . ومحمد يخطب ويحض على
القتال ويعد رجاله النصر ماصبروا . مدَّ يده بسيف فقال : من يأخذ هذا
السيف بحقه ؟ فقام إليه رجال فأمسكه عنهم ، حتى قام أبو دُجَانَةَ سِمَاكُ
ابن خَرْشَةَ أَخْرَبِ بنى ساعدة فقال : وما حقه يارسول الله ؟ قال : أن تضرب
به في العدو حتى ينحني . وكان أبو دجانة رجلاً شجاعاً له عصاة حمراء إذا

أبو دجانة
وعصاة
الموت

اعتصب بها علم الناس أنه سيقا تل ، وأنه أخرج عصا به الموت . فأخذ السيف وأخرج عصا به وعصب بها رأسه وجعل يتبحر بين الصّفين على عادته إذ يختال عند الحرب . فلما رآه محمد يتبحر قال : « إنها لمشيئة يُعْضِبُهَا اللهُ إِلَّا فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ » .

وكان أول من أنشب الحرب بين الفريقين أبو عامر عمرو بن صبيح الأوسى ، وكان قد انتقل من المدينة إلى مكة يحرص قريشاً على قتال محمد : ولم يكن شهد بدرأ ، فخرج إلى أحد في خمسة عشر رجلاً من الأوس وفي عبيد أهل مكة . وكان يزعم أنه إذا نادى أهله من الأوس المسلمين الذين يجارون في صف محمد ، استجابوا له وانحازوا معه ونصروا قريشاً . فخرج فنادى : يا معشر الأوس ، أنا أبو عامر . فأجابه الأوس المسلمون : لا أنعم الله بك عيناً يا فاسق ! . ثم نشب القتال بينهم . وحاول عبيد قريش وحاول عكرمة ابن أبي جهل ، وكان على الميسرة ، أن يأخذ المسلمين من جناحهم . لكن المسلمين رشقوهم بالحجارة حتى ولى أبو عامر مدبراً . هنالك صاح حمزة بن عبد المطلب صيحة القتال يوم أحد : أُمَيْتٌ . أُمَيْتٌ . واندفع إلى قلب جيش قريش . فلقبه طلحة بن أبي طلحة حامل لواء أهل مكة فضربه حمزة بالسيف على يده النبي فتناول اللواء بالسرى ، فقظها حمزة بسيفه : فضم طلحة اللواء بذراعيه إلى صدره ، فذفق عليه حمزة بضربة أردته صريعاً . واندفع أبو دُجَانَةَ وفي يده سيف النبي وعلى رأسه عصا به الموت فجعل لا يلقى أحداً إلا قتله ، حتى شق صفوف المشركين ، فرأى إنساناً يخمش الناس خمشاً شديداً ، فحمل عليه بالسيف فولول ، فاذا هند بنت عتبة فارتد عنها مكرماً سيف الرسول أن يضرب به امرأة .

واندفعت قريش إلى القتال أيضاً ، ثور في عروقهها طلب النار لمن مات من أشرفها وساداتها منذ عام بيبر . ووقفت بذلك قوتان غير متكافئتين في العدد ولا في العُدّة . يحرك الكثرة العظيمة ثأراً لا يهدأ منذ

حمزة
وأبو دجانة
ولواة حمزة

بدر في النفوس ثأثره ، ويحرك الفئة القليلة عاملان : الدفاع عن العقيدة وعن الايمان وعن دين الله ، والدفاع عن الوطن وعمما يشتمل عليه هذا الوطن من مصالح . فأما المطالبون بالنار فكانوا أعز نفراً وأكثر جنداً ، وكان من ورائهم الظعن يحركهم وقد أعدت غير واحدة منهن مولى وعدته الخير الوفير لينتقم لها من جمعها في أب أو أخ أو زوج أو عزيز . كان حمزة ابن عبد المطلب من أعظم أبطال العرب وشجعانهم ، وكان قد قتل يوم بدر عتبة أبا هند كما قتل أخاها ونكل بكثير من الأعرزة عليها . وكان يوم أخذ كما كان يوم بدر أسد الله وسيفه البتار . قتل أرتاة بن عبد شرحبيل وقتل سباع بن عبد العزى بن العُبشاني ، وجعل يهد كل من لقي بسيفه فتسيل من جسده روحه . وكانت هند بنت عتبة قد وعدت وحشيًا الحبشي مولى جبير خيراً كثيراً إن هو قتل حمزة . كما قال له جبير بن مطعم مولاه وكان عمه قد قتل بيدر : إن قتلت حمزة عم محمد فأنت عتيق . روى وحشي قال :

وخرجت مع الناس وكنت رجلاً حبشياً أقذف بالحرية قذف الحبشة فلما أخطى بها شيئاً . فلما اتقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصره حتى رأيت في عرض الناس مثل الجمل الأورق يهذ الناس بسيفه هذا ، فهزرت حربتي ، حتى إذا رضيت عنها دفعها عليه فوقعت في نُسنته حتى خرجت من بين رجله وتركته وإياها حتى مات ، ثم أتيت فأخذت حربتي ورجعت إلى المعسكر وقعدت فيه ولم يكن لي بغيره حاجة ، إنما قتلته لأعتق . فلما قدمت مكة أعتقت .

مقتل حمزة
سيد الشهداء

قوامات
وقته نفسه

أما المدافعون عن الوطن فكان لهم مثل في قزمان أحد المناقضين الذين أظهروا الاسلام . تخلف عن الخروج يوم خرج المسلمون لأحد ، فلما أصبح عيَّره نساء بني ظقر فقلن : يا قزمان ، ألا تستحي لما صنعت ! ما أنت إلا امرأة ! خرج قومك فبقيت في الدار . فدخل قزمان بيته مغيضاً مخفياً فأخرج قوسه

وجعنته وسيفه ، وكان يعرف بالشجاعة ، فخرج يعدو حتى كان عند الجيش والنبي يسوتى صفوف المسلمين ، فتخطاها حتى كان في الصف الأول منها فكان فيه . وكان أول من رمى بنفسه من المسلمين ، وجعل يرسل نبلا كأنها الرماح . فلما كان آخر النهار فضل الموت على الفرار وقتل نفسه بعد أن أصاب من قريش سبع رجال في سويعة غير من قتل منهم بدء المعركة . ومرة به أبو العيذاق وهو يُسلم الروح فقال له : هنيئاً لك الشهادة يا قرمان ! . قال قرمان : إني والله ماقاتلت يا أبا عمر على دين . ما قاتلت إلا على الحفظ أن تسير قريش إلينا فتفتح حرمنا وتطأ سعفنا . والله إن قاتلت إلا عن أحساب قومي ، ولولا ذلك ما قاتلت .

أما المؤمنون حقاً ، وكان عددهم لا يزيد على سبعمائة يقاتلون ثلاثة آلاف ، فقد رأيت من فعال حمزة وأبي دُجانة ما يصور لك صورة من قوتهم المعنوية : قوة اثنتي عشرة أمماً صفوف قريش وكأنها الخيزران ، وتراجع أمامها أبطال قريش وكانوا بين العرب مضرب المثل في الاقدام والشجاعة . وانكشف المشركون منهزمين لا يلوون على شيء حتى أحيط بنسائهم وحتى وقع الصنم الذي احتملوا يتيامنون به من فوق الجمل الذي كان يحمله ومن خلال الهودج الذي كان يحتويه . والحق أن ظفر المسلمين في صبيحة يوم أجد كان معجزة من معجزات الحرب ، قد يفسرها بعضهم بمهارة محمد في وضعه الرماة في شعب الجبل يصدون الفرسان بالنبل فلا يتقدمون ولا يأتون المسلمين من خلفهم . وهذا حق . ولكن من الحق أيضاً أن ست المائة من المسلمين الذين هاجموا عدداً يوازي خمسة أمثالهم ، وعدة وعديداً في مثل هذه النسبة ، إنما دفعهم إلى معجزات البطولة التي أتوا شيء أعظم من مهارة القيادة ؛ ذلك هو الايمان ، الايمان الصادق بأنهم على الحق . ومن آمن بالحق لم تزججه قوة مادية مهما عظمت ، ولم تضعع من عزمته كل قوات الباطل وإن اجتمعت .

ظفر المسلمين
صبيحة أجد

وهل رأيت مهارة القيادة وحدها كانت تُعنى والرماة الذين وضعهم النبي في الشعب لم يكونوا إلا خمسين . فلو أن مائتين أو ثلاثمائة رجل هاجوهم مستقلين لما صمدوا ولا صبروا أمامهم . لكن القوة الكبرى ، قوة الفكرة ، قوة العقيدة ، قوة الإيمان الصادق بالحق العلي الأعلى ، هذه القوة لا غالب لها ما أراد صاحبها وجه الحق وحده . ولذلك تمزقت قريش في ثلاثة آلاف من فرسانها أمام هجمات ستائة مسلم ، وأوشكت نسوتها أن يؤخذن أسرى ذليلات . وتبع المسلمون عدوهم يضعون السلاح فيه حيث شاءوا حتى بعد عن معسكره ، فجعل المسلمون يتهبون الغنيمة ، وما أكثر ما كانت ! وصرهم ذلك عن اتباع عدوهم ابتغاء عَرَض الدنيا .

قوة العقيدة
والإيمان

ورآهم الرماة الذين أمرهم الرسول ألا يرحوا الشعب ولو رأوه وأصحابه يقتلون ، فقال بعضهم لبعض وقد سال لمرأى الغنيمة لُعابهم : « لِمَ تقيمون ها هنا في غير شيء . وقد هزم الله عدوكم وهؤلاء إخوانكم يتهبون عسكرهم ، فادخلوا فاغنموا مع الغانمين . » قال قائل منهم : « ألم يقل لكم رسول الله لا تبرحوا مكانكم وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا ؟ » . قال الأولون : « لم يرد رسول الله أن نبقى بعد أن أدل الله المشركين . » واختلفوا : فخطبهم أميرهم عبد الله بن جُبَيْرُ ألا يخالفوا أمر الرسول : فعصاه أكثرهم وانطلقوا ولم يبق معه إلا نفر دون العشرة . واشترك المطلقون في النهب وشغلوا كما شغل سائر المسلمين به . إذ ذاك اهتبل الفرصة خالد بن الوليد ، وكان على فرسان مكة ، فشد برجاله على مكان الرماة فأجلاهم . والمسامون ما زالوا نسوا إيمانهم ونسوا الوطن ولم يبق أمامهم إلا هذه المغنم يعسبون منها حتى لم يبق رجل منهم وقع في يده شيء إلا أخذه . وإنهم كذلك وقد صاح ابن الوليد صيحة أدركت قريش معها أنه دار برجاله وراء جيش المسلمين حتى عاد منهم كل هزيم وحتى أثنخوا في المسلمين ضرباً وقتلاً . هنالك دارت الدائرة : فألقى كل

اشتغال
المسلمين
بالغنيمة

خاتمة الرماة
من النبي وأخذ
خالد بن الوليد
مكانهم

الدائرة تدور
على المسلمين

مسلم ما كان بيده مما اتهب وعاد إلى سيفه يسنه ليقا تل به . ولكن هيات هيات ! لقد تفرقت الصفوف وتمزقت الوحدة وابتلع البحر اللجج من رجال قريش هذه الصفوة من المسلمين كانت الى ساعة تقا تل بأمر ربها تنضح عن إيمانها ، وهى الساعة تقا تل لتنجو من برائن الموت ومخالب المذلة . وكانت تقا تل متراصة متضامنة ، وهى الآن تقا تل مبعثرة متناكرة . وكانت تقا تل تحت قيادة قوية حازمة حكيمة ، وهى الآن تقا تل ولا قيادة لها . فلم يكن عجباً أن ترى مسلماً يضرب مسلماً بسيفه ولا يكاد يعرفه . وصاح صائح بالناس : إن محمداً قد قُتل ، فازدادت الفوضى وعظمت البلية ، واختلف المسلمون وصاروا يقتلون ويضرب بعضهم بعضاً ولا يشعرون لما هم فيه من العجلة والدهش . قتل المسلمون مواطنهم المسلم حسيل بن جابر أبا حذيفة وهم لا يعرفونه . وكان أكبرهم كل مسلم أن ينجو بنفسه إلا من عصم الله من أمثال على بن أبى طالب . وازدادت قوة المشركين المعنوية حتى صاح حامل لوائهم أبو سعد ابن أبى طلحة : أترعمون أن قتلناكم فى الجنة وقتلانا فى النار ! واللوات إنكم لتكذبون . ولو كنتم تؤمنون بما تقولون حقاً فليقدم منكم من يقا تلنى . وسمعه على فضربه بسيفه ضربة فلقت هامته . فتقدمت عمرة بنت علقمة الحارثية فتناولت اللواء من يد طلحة ثم أخذه منها صواب الحبشى فقتله سعد بن أبى وقاص . فتناوله بعده أربعة من قريش كان نصيبهم الموت متتابعين .

ازداد قوة
قريش المعنوية

على أن قريشاً ما لبثت أن سمعت بمقتل محمد حتى تدافعت تدافع السيل إلى الناحية التى كان فيها ، وكلُّ يريد أن يكون له فى قتله أو التمثيل به ما يفاخر الأجيال به . هنالك أحاط المسلمون القريبون من نبيهم به يدفعون عنه ويحمونه ، وقد عاد الإيمان فلا نفوسهم وملك قلوبهم وحسب اليهم الموت وهون عليهم الحياة الدنيا . وزادهم إيماناً واستماتة أن رأوا الحجارة التى تقذفها

ما أصاب
رسول الله

قريش قد أصابت النبي فوقع لشيقة فأصيبت رباعيته وشج في وجهه وكلمت شفته ودخلت حلقتان من المغفر الذي يستر به وجهه في وجته — وكان رامي الحجر الذي أصابه عتبة بن أبي وقاص — قتالاً وسار وأصحابه من حوله ، فاذا به يقع في حفرة حفرها أبو عامر يقع فيها المسلمون . هنالك أسرع إليه علي بن أبي طالب فأخذ يده ورفع طلحة بن عبيد الله حتى استوى ، وجعل يسير وأصحابه ، متسلقين أحداً ، ناجين من العدو واتباعه إياهم .

سأله المؤمنون
في الدفاع
عن الرسول

وفي لحظة قاموا كان قد اجتمع حولهم من المسلمين من استماتوا في الدفاع عن رسول الله استماتة لا يُقهر صاحبها أبداً . كانت أم عمارة الأنصارية قد خرجت أول النهار ومعها سقاء فيه ماء تدور به على المسلمين المجاهدين تسقى منهم من استسقى . فلما انهزم المسلمون ألقت سقائها واستلت سيفاً وقامت تباشير القتال تدب عن محمد بالسيف وترمي عن القوس حتى خلصت الجراح إليها . وترس أبو دجانة بنفسه دون رسول الله فحني ظهره والنبيل يقع فيه . ووقف سعد بن أبي وقاص إلى جانب محمد يرمي بالنبيل دونه ومحمد يناوله النبيل ويقول له : إرم فذاك أبي وأمي . وكان محمد قبل ذلك يرمي بنفسه عن قوسه حتى اندقت سيئتها . هذا ، فأما الذين ظنوا محمداً قد مات ومن بينهم أبو بكر وعمر فانتحوا الجبل وألقوا بأيديهم . فرآهم أنس بن النضر فقال : ما يجلسكم ؟ قالوا : قتل رسول الله . قال : فما تصنعون بالحياة بعده ! قوموا فموتوا على ما مات عليه . ثم استقبل القوم فقاتل قتالاً شديداً وأبلى بلاءً منقطع النظير . حتى إنه لم يقتل إلا بعد أن ضرب سبعين ضربة ، وحتى إنه لم يعرفه أحد إلا أخته ، عرفته من بنانه .

رحم قريش
موت النبي

وفرحت قريش بما اعتقدت من موت محمد . فراح أبو سفيان يفتقده في القتلى . ذلك بأن الذين كانوا ينضحون عنه عليه السلام لم يكذب أحد منهم خبر قتله إطاعة لأمرد حتى لا تتكاثر عليهم قريش فتغلبهم دونه . على

أن كعب بن مالك أقبل إلى ناحية أبي دجانة ومن معه فعرف محمداً حين رأى عينه تزهران تحت المغفر، فنادى بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أبشروا! هذا رسول الله. فأشار النبي إليه ليسكت. لكن المسلمين ما لبثوا أن عرفوا حتى نهضوا بالنبي ونهض معهم نحو الشعب. ومن حوله أبو بكر وعمر وعلي بن أبي طالب والزبير بن العوام ورهط غيرهم. وكان لصيحة كعب عند قريش كذلك أثرها. صحيح أن أكثرهم لم يصدقها وحسبها صيحةً أريد بها شدة عزائم المسلمين، إلا أن بعضهم اندفع وراء محمد والذين ساروا معه. وقد أدركهم أبي بن خلف وهو يقول: أين محمد؟ لآنجوت إن نجأ!. فطعنه الرسول بحربة الحارث بن الصمة طعنة جعلته يتقلب على فرسه ويعود أدراجه ليوت في الطريق. فلما انتهى المسلمون إلى فم الشعب خرج على فلاةٍ درّته ماء فغسل محمد به الدم عن وجهه وصب منه على رأسه؛ ونزع أبو عبيدة بن الجراح حلقى المغفر من وجه الرسول فسقطت ثناياه. وإنهم لكذلك إذ علا خالد بن الوليد على رأس فرسان معه الجبل، فقأتاهم عمر ابن الخطاب ورهط من أصحاب الرسول فردوهم. وازداد المسلمون في الجبل تصعيداً وقد نهكهم التعب وهدهم الجهد حتى صلى النبي الظهر قاعداً من الجراح التي أصابته، وصلى المسلمون خلفه قعوداً.

نجاة الرسول
ومن معه

فأما قريش فطارت بنصرها سروراً وحسبت نفسها اتقمت لبدر أشد الانتقام؛ حتى صاح أبو سفيان: يومٌ بيوم بدر والموعود العام المقبل. فأما هند بنت عتبة زوجة فلم يكفها النصر، ولم يكفها قتل حمزة بن عبد المطلب، بل انطلقت هي والنسوة اللاتي معها يمثّلن بالقتلى من المسلمين يُجدّ عن الآذان والأنوف، وجعلت هند لنفسها منها قلائد وأقراطاً، ثم إنها بقرت بطن حمزة وجذبت بين يديها كبده وجعلت تلوكها بأسنانها فلا تستطيع أن تسيغها. وبلغ من شناعة ما فعلت وما فعل النسوة من معها، بل ما فعل الرجال كذلك

التخيل بقى
المسلمين

من الفظائع ، أن تبرأ أبو سفيان من تبعها وأعلن أنه لم يأمر به وإن كان قد اشترك فيه ، بل قال يخاطب أحد المسلمين : إنه قد كان في قتلكم مثلٌ والله ما رضيت وما سخطت وما نهيت وما أمرت .

وانصرفت قريش بعد أن دفنت قتلاها وعاد المسلمون الى الميدان لدفن قتلاهم . وخرج محمد يلتمس عمه حمزة . فلما رآه قد بُقر بطنه ومُثل به حزن من أجله أشد الحزن وقال : لن أصاب بمثلك أبداً . ما وقفت موقفاً قط أعيظُ إلى من هذا . ثم قال : والله لئن أظهرنا الله عليهم يوماً من الدهر لأمثن بهم مُثلة لم يمثّلها أحد من العرب . وفي هذا نزل قوله تعالى : « وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ . وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ » . فعفا رسول الله وصبر ونهى عن المُثلة : وسجى حمزة برده وصلى عليه . وجاءت أخته صفية بنت عبد المطلب فنظرت اليه وصلت عليه واستغفرت له . ودُفن حمزة ، وأمر النبي بالقتلى فدفنوا حيث لقوا مصارعهم . وانصرف المسلمون الى المدينة ومحمد على رأسهم ، تاركين وراءهم سبعين من القتلى : يحز في نفوسهم الألم لما أصابهم من هزيمة بعد نصر ، ومن مذلة وهوان بعد ظفر لا ظفر مثله : وذلك كله لعصيان الرماة أمر النبي واشتغال المسلمين عن العدو بغنائمه .

ودخل النبي الى بيته وجعل يفكر . هاهم أولاء أهل يثرب من اليهود والمنافقين والمشركين يُظهرون السرور أشد السرور لما كان من هزيمته وهزيمة أصحابه . وهذا سلطان المسلمين بالمدينة كان قد استقر فلم يبق لأحد أن ينازع فيه ، وهذا هو يوشك أن يضطرب ويتزعزع . وهذا عبد الله بن أبي بن سلول قد خرج على الجماعة وعاد من أحد ولم يشترك في القتال بدعوى أن محمداً لم يسمع رأيه ، أو أن محمداً غضب على مواليه من اليهود . فلو أن هزيمة أحد

حزن محمد
على حمزة

دخول القتلى
والعود الى
المدينة

لا بد من
استرداد هبة
المسلمين

بقيت الكلمة الأخيرة بين المسلمين وقريش لهان أمر محمد وأصحابه على العرب من ناحية ، ولتضعض سلطانهم يثرب من ناحية أخرى ، ولكنوا عرضة لاستخفاف قريش بهم وإرسالها دعاية السخر والاستهزاء منهم في أنحاء شبه الجزيرة جميعاً . أضف إلى هذا ما قد يكون من اجترأ المشركين وعباد الأوثان على دين الله فتكون الطامة الكبرى . فلا بد إذاً من ضربة جريئة تخفف من وقع هزيمة أُحُد وترد إلى المسلمين قوتهم المعنوية ، وتدخل إلى روع اليهود والمنافقين الهيبة ، وتعيد إلى محمد وأصحابه سلطانهم يثرب قويتاً كما كان .

فلما كان الغد من يوم أُحُد : وكان الأحد لست عشرة ليلة مضت من شوال ، أذن مؤذنُ النبي في المسلمين بطلب العدو واستنفرهم لمطاردته ، على ألا يخرج إلا من حضر الغزوة . وخرج المسلمون . فوقع في رُوع أبي سفيان أن أعداءه جاؤوا من المدينة بمدد جديد يخاف لقاؤهم . وبلغ محمد بحمراء الأسد ، وكان أبو سفيان وأصحابه بالروحاء ، فزبه معبد الحزاعى وكان قد مر بمحمد ومن معه ، فسأله عن شأنهم فأجابهم معبد — وكان ما يزال على الشرك — :
« إن محمداً قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط ، وقد اجتمع معه من كان قد تحلف عنه . وكلهم أشد ما يكون عليكم حنقاً ومنكم للثأر طلباً » . على أن أبا سفيان فكر من جانبه فيما يكون لفراره من محمد ومن عدم مواجهته إياه بعد انتصاره عليه بأحد من الأثر . أفلا تقول العرب في قريش ما كان يودّ هو أن تقوله في محمد وأصحابه ! ولكن هبّه رجع إلى محمد فهزمه المسلمون ، إذاً ليكون ذلك القضاء الأخير على قريش قضاء لا تقوم لها من بعده قائمة أبداً . فلجأ إلى الحيلة ، فبعث مع ركب من عبد القيس يقصدون المدينة أن يلبغوا محمداً أنه قد أجمع السير إليه وإلى أصحابه ليستأصل بقيتهم . فلما أبلغ الركب الرسالة إلى محمد بحمراء الأسد لم يتضعض عزمه ولم تنه قوته ، بل ظل في مكانه يوحد النار طيلة الليل ثلاثة أيام متتابعة ، ليدل

الخروج
في الغد من
البيداء

قريشاً على أنه على عزمه وأنه منتظر رجعتهم . وأخيراً تدعذعت (١) همة
أبي سفيان وقريش وآثروا أن يبقوا على نصرهم بأحد وعادوا أدراجهم
ميممين مكة . ورجع محمد إلى المدينة وقد استرد كثيراً من مكانة تزعمت
على إثر أحد ، وإن كان المنافقون قد بدءوا يرفعون رموسهم ضاحكين من
المسلمين يسألونهم : إذا كانت بدر آية من الله برسالة محمد ، فماذا عسى أن
تكون آية أحد وماذا تكون دلالتها ؟ !

(١) تفرقت

الفصل السادس عشر

آثار أحد

اتهام القبائل المجاورة بالمسلمين - غزوة بني أسد - أمر الهذلي
مقتل خبيب وأصحابه بالرجم - مقتل المسلمين بئر معونة
إجلاء بني النضير عن المدينة - غزوة بدر الآخرة
غزوة دومة الجندل

عاد أبو سفيان من أحد إلى مكة وقد سبقته إليها أخبار النصر وهو
متملىء النفس غبطة وسروراً بما زال عن قريش من عار بدر . ولم يلبث أن
بلغها حتى قصد الكعبة قبل أن يدخل إلى بيته ، وبها رفع إلى كبير آلتهم
هبل آى الشاء والحمد . ثم حلق لِمَتَه ورجع إلى داره موفياً نذره ألا يقرب
زوجته حتى ينتصر على محمد . أما المسلمون فألفوا المدينة قد تنكر لهم الكثير
من أمرها ، رغم مطاردتهم عدوهم وحمودهم له ثلاثة أيام متتابعة من غير أن
يجترأ على الرجعة إليهم ، وهو المنتصر قبل أربع وعشرين ساعة عليهم .
ألفوا المدينة وقد تنكر لهم الكثير من أمرها وإن بقى سلطان محمد فيها السلطان
الأعلى . وشعر عليه السلام بدقة الموقف وخرج المركز ، لا فى المدينة
وحدها ، بل عند سائر قبائل العرب ممن كان الرعب منه قد داخل نفوسها .
بل ردت أحد إليها من السكينة ما يسمح لها أن تفكر فى معارضته ومناواته .
لذلك حرص على أن يقف من أخبار أهل المدينة ومن أخبار العرب جميعاً ،
على ما يمكنه من استعادة مكانة المسلمين وسطوتهم وهيبتهم فى النفوس .

ببشارة محمد
بعد أحد

سرية الأسد
ابن عبد الأسد

وكان أول ما بلغه بعد شهرين من أخذ أن بنى أسد، وعلى رأسهم
طليحة وسلمة ابنا خويلد قد سارا في قومها ومن أطاعهما يدعونهم إلى
مهاجمة المدينة والسير إلى محمد في عقر داره ليصيوا من أطرافه وليغنموا من
نعم المسلمين التي ترعى الزروع المحيطة بمدبتهم . وإنما شجعهم على ذلك اعتقادهم
أن محمداً وأصحابه ما يزالون مضعضعين من أثر أخذ . فالتى النبي أن اتصل
به الخبر حتى دعا إليه أبا سلمة بن عبد الأسد وعقد له لواء سرية تبلغ عدتها
مائة وخمسين منهم أبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص وأسيّد
ابن حضير وأمرهم بالسير ليلاً والاختفاء نهاراً وسلوك طريق غير مألوف
حتى لا يطلع أحد على خبرهم ، ففجعوا العدو بالانغارة عليه على غرة منه .
ونفذ أبو سلمة ما أمر به حتى جاء القوم ولم يستعدوا لنضال ، فأحاط بهم في
عماية الصبح ، وحض رجاله وحرضهم على الجهاد : فلم يستطع المشركون أن
يثبتوا لهم ، فوجه لواءين في طلبهم وطلب الغنيمة ، وأقام هو ومن معه حتى
عاد المطاردون بما غنموا فنحوا الخمس لله ورسوله وللمسكين وابن السبيل .
واقسموا الباقي ورجعوا إلى المدينة ظافرين وقد أعادوا إلى النفوس من هيبة
المسلمين شيئاً مما ضيقت أخذ . على أن أبا سلمة لم يعش بعد السرية طويلاً :
فقد كان جرح بأحد ولم يكن التام جرحه إلا ظاهراً . فلما أجهد نفسه نقر
الجرح وظل به حتى قضى عليه .

سرية عبدان
ابن أنيس

واتصل بمحمد من بعد ذلك أن خالد بن سفيان بن نبيح الهذلي
مقيم بنخلة أو بعرة وأنه يجمع الناس ليغزوه . فدعا إليه عبد الله بن أنيس
وبعثه يتجسس حتى يقف على جلية الخبر . وسار عبد الله حتى التقى بخالد
وهو في طعن يرتاد لمن منزلاً . فلما انتهى إليه سأله خالد : من الرجل ؟
فأجابه : أنا رجل من العرب سمع بك وجمعتك لمحمد فجاءك لذلك . فلم يخف
خالد أنه يجمع الجوع ليغزو المدينة . ولما رآه عبد الله في عزلة من الرجال

وليس معه إلا أولئك النسوة استدرجه للمسير معه ، حتى إذا أمكنته منه الفرصة حمل عليه بالسيف فقتله ، ثم ترك ظعائنه منكبات عليه بيكينه ، وعاد إلى المدينة فأخبر الرسول الخبر ، وهـدأت بنو لحيان من هذيل بعد موت زعيمها زمناً ثم فكرت تحتال لتثأر له .

في هذا الظرف وفد رهط من قبيلة تجاورهم إلى محمد يقولون له : إن فينا إسلاماً ، فابعث معنا نفرأ من أصحابك يعلموننا شرائعهم ويقرئونا القرآن . وكان محمد يبعث من أصحابه كلما دُعي إلى ذلك ليؤدوا هذه المهمة الدينية السامية ، وليدعوا الناس إلى الهدى ودين الحق وليكونوا للمحمد وأصحابه عيوناً على خصومهم وأعدائهم ، على نحو ما رأيت من ذلك كله فيمن بعثهم إلى المدينة على أثر العقبة الكبرى . لذلك بعث ستة من كبار أصحابه خرجوا مع رهط وساروا معهم . حتى إذا كانوا جميعاً على ماء لهذيل بالحجاز بناحية تدعى الرجيع غدروا بهم فاستصرخوا عليهم هذيلًا . ولم يرع المسلمون الستة وهم في رحالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف قد غشَّوهم . فأخذ المسلمون أسيافهم ليقاتلوا . لكن هذيلًا قالت لهم : إنا والله ما نريد قتلكم ولكننا نريد أن نصيب بكم من أهل مكة ، ولكم عهد الله وميثاقه ألا نقتلكم . ونظر المسلمون بعضهم إلى بعض وقد أدركوا أن الذهاب بهم إلى مكة فرأى أنما هو المذلة والهوان وما هو شر من القتل . فأبوا ما وعدت هذيل وانبروا لقاتلها وهم يعلمون أنهم في قلة عددهم لا يُطيقونه . وقتلت هذيل ثلاثة منهم . ولأن الثلاثة الباقون ، فأمسكت بتلابيبهم وأخذتهم أسرى وخرجت بهم إلى مكة تبيعهم فيها . فلما كانوا في بعض الطريق انزع أحد المسلمين الثلاثة ، عبد الله ابن طارق . يده من غلِّ الأسر ، ثم أخذ سيفه فاستأخر عنه القوم وطفقوا يرجونه بالحجارة حتى قتلوه . أما الأسيران الآخرون فقد تمت بهما هذيل مكة وباعتهما من أهلها . باعت زيد بن الدثينة لصفوان بن أمية الذي اشتراه

يوم الرجيع
(س ٢٦٥ م)

ليقتله بأبيه أمية بن خلف ، فدفع به الى مولى يقال له نَسْطَاس ليقبله . فلما وُذِمَ
سأله أبو سفيان : أنشدك الله يا زيد ، أنتحب أن محمداً الآن عندنا في مكانك
تضرب عنقه وأنت في أهلك ؟ . قال زيد : والله ما أحب أن محمداً الآن
في مكانه الذي هو فيه تُصِيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس في أهلي ! . فعجب
أبو سفيان وقال : ما رأيت من الناس أحداً يحبه أصحابه ما يحب أصحاب
محمد محمداً . وقتل نَسْطَاس زيدا ، فذهب شهيداً آمنته لدينه ولنبيه . أما خَبِيبُ
فحبس حتى خرجوا به ليصلبوه ، فقال لهم : إن رأيتم أن تدعوني حتى أركع
ركعتين فافعلوا : فأجازوه ما أراد : فركع الركعتين آمنهما وأحسنهما ثم أقبل
على القوم وقال : أمّا والله لولا أن تظنوا أني إنما طوَّلت جزعاً من القتل
لاستكرَّرت من الصلاة . ورفعه الى خشبة ، فلما أوثقوه اليها نظر اليهم بعين
مُغْضَبَةٍ وصاح : اللهم احصهم عدداً ، وأقتلهم بدداً ، ولا تغادر منهم أحداً .
فأخذت القوم الرجفة من صحته واستأقوا الى جنوبهم حذراً أن تصيبهم
لعنته ثم قتلوه . وكذلك استشهد خبيب كما استشهد زيد في سبيل بارئه وفي
سبيل دينه ونبيه : وكذلك ارتفع إلى السماء هذان الروحان الطاهران كان
في استطاعة صاحبيهما أن يستنقذاهما من القتل إذا رضيا الرِّدَّة عن دينها ،
لكنهما في يقينها بالله وبالروح وبيوم البعث . يوم تُجْزَى كل نفس بما كسبت ،
ولا تزر وازرة وزر أخرى ، رأيا الموت وهو غاية كل حي خير ما يكون
غاية للحياة في سبيل العقيدة وفي سبيل الايمان بالحق : ولكنهما آمنّا بأن
دمهما الزكي الطهور الذي أريق على أرض مكة سيدعو إليها إخوانهم المسلمين
يدخلونها فاتحين يحطمون أصنامها ويظهرونها من رجس الوثنية والشرك ،
ويردونها فيها إلى الكعبة بيت الله ما يجب لبيت الله من قداسة وتنزه عن أن
يذكر فيه اسم غير اسم الله .

حزن المسلمون وحزن محمد لما أصاب أصحابهم الستة الذين استشهدوا

قتل زيد
وخبيب

في سبيل الله بغدر هُدَيْلِ بهم ، وأرسل حسان بن ثابت أشعاره يرثي فيها خبيبا
 وزَيْدًا أَحْرَ الرِّثَاءِ . وازداد محمد تفكيراً في أمر المسلمين وخشى إن تكررت
 مثل هذه الأمور أن تستخفَّ العرب بشأنهم . ولا شيء أقتل لهيبتك من
 استخفاف الغير بشأنك . وإنه لقي تفكيره إذ قدم عليه أبو بَرَاءٍ عامر بن مالك
 مُتَلَاعِبِ الأَسِنَّةِ ، فعرض محمد عليه أن يُسَلَّمَ فلم يقبل ، ولكنه لم يُظهر
 للإسلام عداوة : بل قال : يا محمد ، لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد
 فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستحيوا لك . فخاف محمد على أصحابه أهل نجد
 وخشى أن يغدروا بهم ماغدرت هُدَيْلِ بخبيب وأصحابه . ولم يقتنع ولم يجب
 طلب أبي براء حتى قال : أنا لهم جار . فابعثهم فليدعوا إلى أمرك . وكان أبو بَرَاءٍ
 رجلا مسموع الكلمة في قومه لا يخاف من أجاره عادية أحد عليه . وبعث
 محمد المُنْدِرِ بن عمرو وأخا بني ساعدة في أربعين رجلا من خيار المسلمين
 فساروا حتى نزلوا بئر مَعُونَةَ بين أرض بني عامر وحرّة بني سُلَيْمِ . ومن
 هناك بعثوا حَرَامَ بن مَلْحَانَ إلى عامر بن الطُّفَيْلِ بكتاب محمد . فلم ينظر عامر
 في الكتاب بل قتل الرجل واستصرخ نبي عامر كي يقتلوا المسلمين . فلما أبوا
 أن يخفروا ذمة أبي بَرَاءٍ وجواره استصرخ عامر قبائل أخرى أجابته
 وخرجت معه حتى أحاطوا بالمسلمين في رحالهم . فلما رآهم المسلمون أخذوا
 سيوفهم وقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم لم ينج منهم إلا كَعْبُ بن زيد : إذ تركه
 ابن الطُّفَيْلِ وبه رمق فعاش ولحق بالمدينة ، وإلا عمرو بن أمية الذي أعتقه
 عامر بن الطُّفَيْلِ عن رقية زعم أنها كانت على أمه . ولقي عمرو رجلين في
 الطريق حين عودته بعد انطلاقه ، فحسبهما من القوم الذين عدّوا على أصحابه
 فأمهلهما حتى إذا ناما عدا عليهما فقتلهما ، وتابع مسيرته حتى بلغ المدينة
 فأخبر الرسول عليه السلام بما صنع ، فاذا الرجلان عامريتان من قوم أبي براء ،
 وإذا معهما عقد جوار من رسول الله اقتضاه أن يؤدي دِيَّتَهُمَا .

يوم بتر معونة
 (س ٢٦٢)

ووجد محمد لقتلى بئر معونة أشد الوجد وحزن من أجلهم أعمق الحزن ، وقال : هذا عمل أبي براء . لقد كنت لهذا كارها متخوفا . وشق على أبي براء إخفار عامر بن الطفيل إياه ، حتى لقد ذهب ابنه ربيعة فظعن عامراً بالرح انتقاماً منه لأبيه . وبلغ من حزن محمد أنه ظل شهراً كاملاً يدعو الله بعد أداء فريضة الفجر لينتقم لهم من قتلهم . وتأثر المسلمون جميعاً لهذه الكارثة التي أصابت إخوانهم في الدين وإن آمنوا بأنهم جميعاً استشهدوا وبأنهم جميعاً لهم الجنة .

يهود المدينة
وما نقوها

على أن أهل المدينة من المنافقين واليهود قد وجدوا فيما أصاب المسلمين بالرَّجيع وبئر معونة ما أعاد إلى ذاكرتهم انتصار قريش بأحد وما أنساهم نصر المسلمين على بني أسد وما أضعف في نفوسهم من هيبة محمد وأصحابه . وفكر النبي عليه السلام في هذه الحالة تفكير سياسي دقيق النظر بعيد مرامي الرأي ؛ فليس شيء أشد على المسلمين يومئذ خطراً من أن تضعف في نفوس مساكينهم بالمدينة هيبتهم ، وليس ما يطمع قبائل العرب فيهم أكثر من أن تشعر بهذا الانقسام الداخلي يوشك أن يثير حرباً أهلية إذا غزا المدينة غاز من جيرانها . ثم إنه قد رأى اليهود والمنافقين كأنهم يتربصون به الدوائر . فقدّر أن لا شيء خير من أن يستدرجهم لتتضح نياتهم . ولما كان اليهود من بني النضير حلفاء لبني عامر ، فقد ذهب إلى محلّتهم على مقربة من قباء في عشرة من كبار المسلمين بينهم أبو بكر وعمر وعلي ، وطلب إليهم معاونتهم في دية القتيلين اللذين قتل عمرو بن أمية خطأ ومن غير أن يعلم أن محمداً أجارهما . فلما ذكر لهم ما جاء فيه أظفروا الغبطة والبشر وحسن الاستعداد لاجابته . لكنه مالبث أثناء تبسّط بعضهم معه أن رأى سائرهم يتآمرون ويذهب أحدهم إلى ناحية ويبدو عليهم كأنهم يذكرون مقتل كعب بن الأشرف ، ويدخل أحدهم (عمرو بن جحاش بن كعب) البيت الذي كان محمد مستنداً إلى

انتار اليهود
بمحمد

جداره . إذ ذاك رابه أمرهم ، وزاده رية ما كان يبلغه من حديثهم عنه
 واثمارهم به . لذلك ما لبث أن انسحب من مكانه تاركا أصحابه وراه يظنون
 أنه قام لبعض أمره . أما اليهود فقد اختلط عليهم الأمر ولم يعودوا
 يعرفون ما يقولون لأصحاب محمد ولا ما يصنعون بهم . فان هم غدروا
 بهم فمحمد لا ريب منتقم منهم شر انتقام . وإن هم تركوهم فعمل ائثارهم
 بحياة محمد وأصحابه لا يكون قد اقتضح فيظل ما بينهم وبين المسلمين من
 عهد قائما . وحاولوا أن يقنعوا ضيوفهم المسلمين بما يزيل ما قد يكون
 رابهم من غير أن يشيروا إلى شيء منه . لكن أصحاب محمد استبطنوه فقاموا
 في طلبه فلقوا رجلا مقبلاً من المدينة عرفوا منه أن محمداً دخلها وأنه قصد
 تواراً إلى المسجد فيها . فذهبوا إليه . فلما ذكر لهم ما رابه من أمر اليهود ومن
 اعتزامهم الغدر به وتنبهوا إلى ما كانوا رأوا ، آمنوا بنفاد بصيرة الرسول
 وما أوحى إليه . وبعث النبي يدعو إليه محمد بن مسلمة وقال له : « إذهب
 إلى يهود بني النضير وقل لهم : إن رسول الله أرسلني إليكم أن اخرجوا من
 بلادى . لقد نقضتم العهد الذى جعلت لكم بما همتم به من الغدرى . لقد
 أجلتكم عشراً ، فن رأتى بعد ذلك ضربت عنقه . » وأبلىست بنو النضير فلم
 يجدوا لهذا الكلام دفعا ولم يحيروا جوابا إلا أن قالوا لابن مسلمة : يا محمد ،
 ما كنا نرى أن يأتي بهذا رجل من الأوس . وذلك إشارة إلى تحالفهم
 وإياهم من قبل في حرب الخزرج . فكان كل ما أجاب به ابن مسلمة :
 تغيرت القلوب .

إضافة إلى
 بنى النضير
 والحلابة

ومكث القوم على ذلك أياماً يتجهزون . وإنهم كذلك إذ جاء رسولان
 لعبد الله بن أبى يقولان : لا تخرجوا من دياركم وأموالكم وأقيموا فى حصونكم ،
 فان معى ألفين من قومي وغيرهم من العرب يدخلون معكم حصنكم ويموتون
 عن آخرهم قبل أن يوصل إليكم . وتشاورت بنو النضير فى مقالة بن أبى وهم

ابن أبى
 يعرض اليهود

أشد ما يكونون حيرة . فمنهم من لم يكن له بابن أبي أية ثقة . ألم يعد بني قَيْنُقَاع من قبل مثل ما يعد بني النَّضِير اليوم ، فلما جدَّ الجدَّ تخلى عنهم وولى مدبراً ! وهم يعلمون أن بني قُرَيْظَةَ لا ينصرونهم لما بينهم وبين محمد من عهد . ثم إنهم إن جلوا عن ديارهم إلى خَيْبَرَ أو إلى محلة قريبة استطاعوا أن يعودوا حين يُشمر نخيلهم الى يثرب يحنون ثمره ويعودون أدراجهم فلا يكونون قد خسروا كثيراً . قال كبيرهم حُجَيِّ بن أخطب : كلا ! بل أنا مرسل الى محمد : إنا لا نخرج من ديارنا وأموالنا ، فايضع مابداله . وما علينا إلا أن نرُم حصوننا نُدخل إليها ماشئنا وندرَّب أرقتنا ونقل الحجارة إليها ، وعندنا من الطعام ما يكفينا ستة ، وماؤنا لا ينقطع ولن يحصرنا محمد سنة كاملة . وانقضت الأيام العشرة ولم يخرجوا من ديارهم .

حصار بني
النضير

فأخذ المسلمون السلاح وساروا اليهم فقاتلوهم عشرين ليلة كانوا أثناءها إذا ظهروا على الدرب أو الدار تأخر اليهود الى الدار التي من بعدها بعد تخريبهم إياها . ثم أمر محمد أصحابه أن يقطعوا نخل اليهود وأن يُحرِّقوه حتى لا تبقى اليهود في شدة تعلقها بأموالها تتحمس للقتال وتقدم عليه . وجرع اليهود ونادوا : يا محمد ، قد كنت تهى عن الفساد وتعييه على من صنعه ، فما بال قطع النخل وتحريقها ! . وفي ذلك نزلت هذه الآية من سورة الحشر : **وَمَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْتَةٍ أَوْ نَرَةٍ كُتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِجَ الْفَاسِقِينَ** . وعبئاً انتظر اليهود نصر ابن أبي أو تقدم أحد من العرب لنجدتهم حتى لم تبقى لديهم رية في سوء مصيرهم إذا هم أصروا على متابعة القتال . فلما ملأ اليأس قلوبهم رعباً ، سألوا محمداً أن يؤمنهم على أموالهم ودمائهم وذراريهم حتى يخرجوا من المدينة . فصالحهم محمد على أن يخرجوا منها ، ولكل ثلاثة منهم بعير يحملون عليه ماشاءوا من مال أو طعام أو شراب ، ليس لهم غيره . واحتمل اليهود وعلى رأسهم حُجَيِّ بن أخطب . فنزل منهم من نزل خبيراً ،

وسار آخرون الى أذرعات بالشام، وتركوا وراءهم للمسلمين مغانم كثيرة من غلال وسلاح بلغ خمسين درعاً وثلاثمائة وأربعين سيفاً، ثم كان ماخلت اليهود من الأرض التي كانوا يملكون خيراً ما غنم المسلمون . على أن هذه الأرض لم تعتبر أسلاب حرب، ولذلك لم تقسم بين المسلمين، بل كانت لرسول الله خاصة يضعها حيث يشاء . وقد قسمها على المهاجرين الأولين دون الأنصار بعد أن استبق قسماً خصّصت غلته للفقراء والمساكين . وبذلك أصبح المهاجرون في غنى عن معونة الأنصار وأصبح لهم مثل ثروتهم . ولم يشترك في القسمة من الأنصار إلا أبا دُجّانة وسهل بن حنيفة فقد ذكرا فقرأ فأعطاهما محمد كما أعطى المهاجرين . ولم يُسلم من يهود بني النضير غير رجلين ، أسلماً على أموالهما فأحرزاهما .

ليس عسيراً أن يقدر الانسان قيمة نصر المسلمين وإجلاء بني النضير عن المدينة بعد الذي قدمنا من تقدير الرسول عليه السلام لما كان يخلقه بقاؤهم من تشجيع عوامل الفتنة، ومن دعوة المنافقين إلى أن يرفعوا رءوسهم كلما أصاب المسلمين شر . ومن التهديد بالحرب الأهلية اذا غزا المسلمين غاز من الأعداء . وفي جلاء بني النضير نزلت سورة الحشر وجاء فيها : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِأَخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا، وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولِيَنَّ الْأُذُنَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ . لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ اللَّهِ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ » . وتجري السورة بعد ذلك بذكر الايمان وسلطانه؛ الايمان بالله وحده لا تعرف النفس الانسانية التي تعرف قيمتها وكرامتها لغيره سلطاناً : « هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ . هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ

إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ
 سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ . هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ
 الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .»

كان
 سر النبي

كان كاتب سر النبي إلى حين إجماع بني النضير عن المدينة من اليهود
 ليتسنى له أن يبعث من الرسائل بالعبرية والسريانية ما يريد . فلما جلا اليهود
 خاف النبي أن يستعمل في أسراره غير مسلم ، فأمر فتعلم زيد بن ثابت من شبان
 المدينة المسلمين اللغتين المذكورتين ، وأصبح كاتب سر النبي في كل شؤونه . وزيد
 ابن ثابت هذا هو الذي جمع القرآن في خلافة أبي بكر ، وهو الذي عاد فراقب
 الجمع حين اختلفت القراءات في خلافة عثمان ، فوضع مصحف عثمان وأحرقت
 سائر المصاحف .

اطمأنت المدينة بعد إجماع بني النضير عنها . ولم يعد المسلمون يخشون
 المنافقين فيها ، واغبط المهاجرون بما أصابوا من أرض اليهود ، واغبط
 الأنصار أن لم يبق عليهم عيال غيرهم ، وتنفس الكل الصعداء ، وكانت قرة
 سكينه وهدوءه وطمأنينة استراح إليها المهاجرون والأنصار جميعاً . وظلوا كذلك
 حتى استدار العام منذ أضحى ، وذكر محمد عليه السلام قوله أني سفيان يوم بيوم
 بدر والموعود العام المقبل ودعوته محمداً للقاءه بيد مرة أخرى . وكان العام عام
 جذب ، وكان أبو سفيان يود لو يؤجل اللقاء إلى عام آخر . فبعث نعيماً إلى
 المدينة يقول للمسلمين : إن قریشاً جمعت جيشاً لا قبل لجيش في العرب بمواجهته
 لتحاربهم به حتى تقضى عليهم قضاء لا يعتبر ما تم بأحد إلى جانبه شيئاً . وبدا
 للمسلمين أن يجتنبوا الخطر ، فأظهر الكثيرون الرغبة عن النهوض والسير لبدر .
 لكن محمداً غضب لهذا الأستضعاف والتراجع وصاح بهم مُقسماً أنه ذاهب
 إلى بدر ولو ذهب وحده .

بدر الآخرة

لم يبق بعد هذه الغضبة العظيمة إلا أن يذوب كل تردد ويتلاشى كل

خوف وأن يحمل المسلمون سلاحهم وأن يذهبوا إلى بدر مع محمد الذى استعمل على المدينة عبد الله بن عبد الله بن أبى بن سلول . ونزل المسلمون بَدْرًا ينتظرون قريشاً مستعدين لقتالها . وخرجت قريش مع أبى سفيان من مكة فى أكثر من ألفى رجل . لكن أبى سفيان بداله أن يرجع بعد مسيرة يومين ، فنادى فى الناس : يا معشر قريش ؛ إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب وإن عامكم هذا جدد ، وإنى راجع فارجعوا . ورجع الناس وأقام محمد فى جيش المسلمين ينتظرهم ثمانية أيام متتابعة اتجر المسلمون بدر فيها فربحت تجارتهم ثم عادوا إلى المدينة مستبشرين بفضل من الله ونعمة . وفى بدر الآخرة هذه نزل قوله تعالى فى سورة آل عمران : « الَّذِينَ قَالُوا لِاخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ، قُلْ فَأذِرْهُمَا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ . وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ . الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ . الَّذِينَ قَالُوا نَحْنُ الْبَرَاءُ وَالنَّاسُ كَذِبَةٌ أَصْحَابُ بَدْرٍ قَاتِلٍ فَبَدَّلَ اللَّهُ فَخْرَهُمْ خِزْيَانًا لَدُنْهِ وَالشَّاكِرِينَ لَمْ يَنْصُرْهُمُ اللَّهُ فَكَانُوا مِنْ الْخاسِرِينَ . الَّذِينَ قَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ بَدْرٍ يُسُوفُونَ آلِ أَبِي سَفْيَانَ وَلِيَهُمُ فِي الْيَوْمِ الْحَاقِقِ . الَّذِينَ قَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ بَدْرٍ يُسُوفُونَ آلِ أَبِي سَفْيَانَ وَلِيَهُمُ فِي الْيَوْمِ الْحَاقِقِ . الَّذِينَ قَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ بَدْرٍ يُسُوفُونَ آلِ أَبِي سَفْيَانَ وَلِيَهُمُ فِي الْيَوْمِ الْحَاقِقِ . »

وكذلك محت غزوة بدر الآخرة أثر أحد محوًا تامًا ولم يبق لقريش إلا أن تنتظر عامًا آخر رازحة تحت عار من جيشها لا يقل وطأة عن عار هزيمتها فى بدر الأولى .

وأقام محمد بالمدينة مستريحاً إلى نصر الله إياه مطمئناً إلى ما عاد للمسلمين

من هيبتهم ، حذراً دائماً غدرة العدو ، بأثماً عيونهم في كل النواحي . وإنه لذلك إذ اتصل به أن جماعة من غطفان يتجمعون يريدون حربه . وكانت خطته أن يأخذ عدوه على غيرة قبل أن يُعدَّ العُدَّة لدفعه . لذلك خرج في أربعائة من رجاله حتى نزل ذات الرِّقَاع حيث اجتمع بنو مُحَارِب وبنو ثعلبة من غطفان ، تخافوه حين رأوه طلع عليهم في عُدَّة حربه مهاجماً مساكنهم . وتفرقوا تاركين وراءهم نساءهم ومَتَاعهم . واحتمل المسلمون ما استطاعوا وعادوا أدرأجهم إلى المدينة . على أنهم خافوا رجعة العدو عليهم فتناوبوا الحراسة ليل نهار ، وجعل محمد يصلي بهم أثناء ذلك كله صلاة الخوف . فكان جماعة منهم يظنون مستقبلين العدو مخافة لحاقه بهم في حين يصلي الآخرون مع محمد ركعتين . ولم يبدُ للعدوم أثر . بل عاد النبي وأصحابه إلى المدينة بعد غيابهم خمسة عشر يوماً عنها وهم بظفرهم جِدُّ فرحين .

غزوة
ذات الرِّقَاع

وخرج النبي بعد قليل من ذلك إلى غزوة أخرى هي غزوة دَوْمَةَ الجندل . ودَوْمَةُ الجندل واحة على حدود ما بين الحجاز والشام ، تقع في منتصف الطريق بين البحر الأحمر وخليج فارس . ولم يقابل محمد القبائل التي أراد مقاتلتها هناك ، والتي كانت تغير على القوافل . لأنها ما لبثت أن سمعت باسمه حتى أخذها الفرع وولت مدبرة وتركت للمسلمين ما احتملوا من غنائم . وأنت ترى من هذا التحديد الجغرافي لدومة الجندل مبلغ ما اتسع نفوذ محمد وأصحابه وما بلغ إليه سلطانهم وخوف شبه الجزيرة إياهم ، كما ترى كيف كان المسلمون يحتملون المتاعب في غزواتهم مستهينين بالقيظ والجذب وقلة الماء . مستهينين بالموت نفسه : يحرِّكهم إلى هذا النصر والظفر شيء واحد هو سلب قوتهم المعنوية : الايمان بالله وحده لا شريك له .

غزوة
دومة الجندل

آن لمحمد من بعد ذلك أن يطمئن بالمدينة عدة أشهر متتابعة ينتظر فيها موعد قريش لعامه القادم — سنة خمس من الهجرة — ويقوم بأمر ربه باتمام

التنظيم الاجتماعي للجماعة الإسلامية الناشئة تنظيمًا كان يتناول عدة ألوف يومئذ ليتناول الملايين ومئات الملايين من بعد ذلك ، ويقوم بإتمام هذا التنظيم الاجتماعي في ذقة وحسن سياسة . يوحى إليه ربه منه بما يوحى ، ويقر هو ما يتفق وأمر الوحي وتعاليمه ، ويضع من تفاصيل ذلك ما كان موضع التقديس من أصحابه يومئذ . وما ظل من بعد ذلك قائماً على الاجيال والدهور . لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

الفصل السابع عشر

ازواج النبي

زينب بنت خزيمة وأم سلمة - قصة زينب بنت جحش وكلام
المستشرقين فيها - وقائعها كما يرويها التاريخ الصحيح

في الفترة التي وقعت فيها حوادث الفصلين السابقين تزوج محمد من
زَيْنَب بنت خَزِيمَةَ ، ثم من أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة ، ثم من زينب
بنت جحش بعد أن طلقها زيد بن حارثة الذي تبناه محمد وأعتقه منذ اشتراه
يساراً لحديجة . هاهنا يصيح المستشرقون ويصيح المبشرون : انظروا ! لقد
انقلب محمد الذي كان بمكة داعية قناعة وزهد وتوحيد ورغبة عن شهوات
هذه الحياة الدنيا ، رجل شهوة يُسبل منظر المرأة لعابه ، ولا يكفيه ثلاث نسوة
في بيته ، بل يتزوج أولئك الثلاث اللاتي ذكرنا ، ويتزوج من بعدهن ثلاثاً
أخريات غير ریحانة . وهو لا يكفيه أن يتزوج ممن لا بُعُولَة لهن : بل هو
يُشغَف حباً بزينب بنت جحش وهي تحت زيد بن حارثة مولاه ، لغير شيء
إلا أنه مر بيت زيد وهو غائب فاستقبلته زينب ، وكانت في ثياب تبدي
محاسنها ، فوقع منها في قلبه شيء لجمالها ، فقال : سبحان مقلب القلوب ، ثم
كرر هذه العبارة ساعة انصرافه : فسمعتها زينب ورأت في عينه وهج الحب ،
فأنجبت بنفسها وأبلغت زيداً ما سمعت . فذهب من فوره إلى النبي يذكر له
استعداده لتسريحها : فقال له : أمسك عليك زوجك واتق الله . لكن زينب لم
تحسن من بعد عشرته فطلقها . وأمسك محمد عن زواجها وقلبه في شغل بها
حتى نزل قوله تعالى من سورة الأحزاب : « وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ

صحة
المستشرقين
في مسألة
زينب بنت
جحش

عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ ، وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ، فَلَمَّا قَصَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرَأَ زَوْجُهَا كَهَاتَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرَأَ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا . . . إِذْ ذَاكَ تَزَوَّجَهَا فَأُطْفِئَ بِزَوَّاجِهَا لِأَدْعَى حَبِّهِ وَمَتَوَهَّجَ غَرَامَهُ . فَأَيُّ نَبِيٍّ هَذَا ! وَكَيْفَ بِهِ يُبِيحُ لِنَفْسِهِ مَا يَحْرِمُهُ عَلَى غَيْرِهِ ! وَكَيْفَ بِهِ لَا يَخْضَعُ لِلْقَانُونِ الَّذِي يَقُولُ إِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَهُ عَلَيْهِ ! وَكَيْفَ بِهِ يَخْلُقُ هَذَا « الْحَرِيمَ » ، الَّذِي يَثِيرُ فِي النَّفْسِ ذِكْرَ الْمَلُوكِ الْمُتَرَفِّقِينَ بَدَلِ أَنْ يَثِيرَ فِيهَا ذِكْرَ الْأَنْبِيَاءِ الصَّالِحِينَ الْمُصْلِحِينَ ! ثُمَّ كَيْفَ بِهِ يَبْلُغُ مِنْهُ الْخُضُوعَ لِسُلْطَانِ الْحُبِّ فِي شَأْنِ زَيْنَبٍ حَتَّى يَصِلَ بِمَوْلَاهُ زَيْدًا إِلَى تَطْلِيْقِهَا ثُمَّ يَتَزَوَّجُهَا هُوَ ، وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ مُحَرَّمَاً فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَأَبَاحَهُ نَبِيُّ الْمُسْلِمِينَ إِرْضَاءً لِهَوَاهُ ، وَإِطْفَاءً لِدَاعِي حَبِّهِ .

ويطلق المبشرون والمستشرقون خيالهم العنان حين يتحدثون من تاريخ محمد في هذا الموضوع ، حتى يصور بعضهم زينب ساعة رآها النبي وهي نصف عارية أو تكاد ، وقد انسدل ليل شعرها على ناعم جسمها الناطق بما يمكنه من كل معاني الهوى ، وابتدأ آخرون أنه حين فتح باب بيت زيد لعب الهواء بأستار غرفة زينب وكانت ممددة على فراشها في ثياب نومها ، فعصف منظرها بقلب هذا الرجل الشديد الولوج بالمرأة ومقاتتها ، فدكتم ما في نفسه وإن لم يطق الصبر على ذلك طويلاً . . . وأمثال هذه الصور التي أبدع الخيال كثيرًا تراه في مؤير وفي درمنجيم وفي واشنطن إيرفينج وفي لامنس وغيرهم من المستشرقين والمبشرين . ومما يدعو إلى الأسف أن هؤلاء جميعاً اعتمدوا في روايتهم على ما ورد في بعض كتب السيرة وبعض كتب التفسير ، ثم أقاموا على ما صوروا قصوراً من الاستنباط في شأن محمد وصلته بالمرأة ، واستدلوا على ذلك بكثرة أزواجه حتى بلغن تسعاً في القول الراجح ، وحتى بلغن أكثر من ذلك في بعض الروايات .

بنت حنن
كا بصورها
المستشرقون

كان في مقدورنا أن نَجَبَه هذه الأقوال جميعاً بقولنا: فلتكن صحيحة. فإذا فيها مما يطعن على عظمة محمد أو على نبوته ورسالته؟ إن القوانين التي تجرى على الناس لاساطان لها على العظما، ولاسلطان لها من باب أولى على المرسلين والأنبياء. ألم ير موسى عليه السلام خلافاً بين رجلين هذا من شيعته وهذا من عدوه، فوكل الذي من عدوه ففضى عليه. وهذا قتلٌ محرمٌ في غير حرب ولا شبه حرب، وهذا مخالف للقانون. ومع ذلك لم يخضع موسى لقانون ولم يطعن ذلك في نبوته ولا في رسالته، ولم يطعن في عظمته. وشأن عيسى في مخالفة القانون أكبر من شأن موسى ومن شأن محمد ومن شأن الأنبياء والمرسلين جميعاً. فليس يقف أمره عند بسطة في القوة أو في الرغبة، بل خرج بولده وبجياته على قوانين الطبيعة وسننها جميعاً. تمثل لأمه مريم روح الرحمن بشراً سوياً لِيَهَبَ لها غلاماً زكياً، فعجبت وقالت: أنى يكون لى غلام ولم يمسنى بشر ولم أك بغياً! قال الرسول: إن الله يريد أن يجعله آية للناس. فلما جاءها الخاض قالت: ياليتنى ميت قبل هذا وكنت نسياً منسياً، فناداها من تحتم الآ تَحْزَنِي قد جعل ربك تحتمك سرياً، وأتت به قومها تحمله، فقالوا: لقد جئت شيئاً فرياً. فحدثهم عيسى في مهده قال: إني عبد الله إلى آخر ما قال. ومهما يكن من إنكار اليهود لهذا كله ومن نسبتهم عيسى إلى يوسف التجار نسبة ما يزال بعض العلماء أمثال رينان يأخذون اليوم بها، فقد كانت عظمة عيسى ونبوته ورسالته دليل معجزة الله فيه وخرقه لنواميس الكون وسنن الطبيعة وقوانين الخلق من أجله. فمن عجب أن يدعو المسيحيون المبشرون إلى الايمان بهذا الخروج على سنن الكون في أمر عيسى، وأن يأخذوا محمداً بما هو دونه، وما لا يزيد على أنه سموٌ عن الخضوع لقانون المجتمع يُسْمَحُ به لكل عظيم، ويُسْمَحُ به للملوك ورؤساء الدول الذين تقدسهم الدساتير وتجعل ذاتهم مصونة لا تمس.

كان في مقدورنا أن نَجَبَه هذه الأقوال جميعاً بهذا الرد، وكان فيه من

غير شك ما يسقط حجة المبشرين ومن ينهجون نهجهم من المستشرقين. لسكنا في هذا كنا نجني على التاريخ ونجني على عظمة محمد وجلال رسالته. فهو لم يكن كما صورته هؤلاء. وأولئك رجلاً يأخذ بعقله الهوى. وهو لم يتزوج من تزوج من نسائه بدافع من شهوة أو غرام. وإذا كان بعض الكتاب المسلمين في بعض العصور قد أباحوا لأنفسهم أن يقولوا هذا القول وأن يُقدّموا الخصوم الاسلام عن حسن نية هذه الحجة، فذلك لأنهم انحدر بهم التقليد إلى المادية، فأرادوا أن يصوروا محمداً عظيماً في كل شيء، عظيماً حتى في شهوات الدنيا. وهذا تصور خاطئ، يُنكره تاريخ محمد أشد إنكار، وتأتي حياته كلها أن تقره. فهو قد تزوج من خديجة وهو في الثالثة والعشرين من عمره، وهو في شرح الصبا وربيعان الفتوة ووسامة الطاعة وجمال القسّمات وكال الرجولية. مع ذلك ظلت خديجة وحدها زوجه ثمانياً وعشرين سنة حتى تخطى الحسين. هذا على حين كان تعدد الزوجات أمراً شائعاً بين العرب في ذلك الحين، وعلى حين كان لمحمد مندوحة في الزواج على خديجة أن لم يعيش له منها ذكر، في وقت كانت تواد فيه البنات، وكان الذكور وخدمهم هم الذين يعتبرون خلفاً. وقد ظل محمد مع خديجة سبع عشرة سنة قبل بعثه وإحدى عشرة سنة بعده وهو لا يفكر قط في أن يشرك معها غيرها في فراشه. ولم يعرف عنه في حياة خديجة ولم يعرف عنه قبل زواجه منها أنه كان ممن تغريهم مَقَاتن النساء في وقت لم يكن فيه على النساء حجاب، بل كانت النساء تتبرج فيه ويبدن من زينتهن ما حرم الاسلام من بعد. فمن غير الطبيعي أن تراه وقد تخطى الحسين ينيقاب فجأة هذا الانقلاب الذي يجعله ما يكاد يرى بنت جحش وعنده نساء خمس غيرها من بينهن عائشة التي أحبّ وظل يحبّ طوال حياته، حتى يُفْتَنَ بها وحتى تأخذ تفكيره ليله ونهاره. ومن غير الطبيعي أن تراه وقد تخطى الحسين يجمع في خمس سنوات أكثر من سبع زوجات، وفي سبع سنوات تسع زوجات، وذلك كله بدافع

من الرغبة في النساء رغبة صورها بعض كتاب المسلمين وحذا الافرنج حذوهم
تصويراً لا يابق في ضعته برجل مادى ، بله عظيم استطاعت رسالته أن تنقل
العالم وأن تغير مجرى التاريخ وما تزال على استعداد لأن تنقل العالم مرة
أخرى وتغير مجرى التاريخ طوراً جديداً .

خديجة
وحدها التي
اعقبت

وإذا كان هذا عجيباً وكان غير طبيعي ، فمن العجيب كذلك أن نرى
محمدًا تلد له خديجة ما ولدت من بنه وبناته إلى ما قبل الخمسين ، وأن نرى مارية
تلد له إبراهيم وهو حوالى الستين . وألا تلد غير هاتين من نسائه ، وكهن بين
شابة في مقتبل العمر لا يمنع مانع من ناحيتها ولا من ناحيته أن تحمل وأن
تلد ، وبين امرأة كملت لها أنوثتها فتخطت الثلاثين أو تخطت الأربعين وكان
لها ولد من قبل . فكيف تُفسر هذه الظاهرة العجبية من ظاهرات حياة النبي ،
هذه الظاهرة التي لا تخضع للقوانين الطبيعية في تسع نسوة جميعاً ! . هذا وقد
كانت نفس محمد كأنسان تهفو من غير ريب إلى أن يكون له ولد ، وإن كان
مقام النبوة والرسالة قد جعله من الناحية الروحية أباً للمسلمين جميعاً .

زواج سودة
بنت زمعة

ثم إن التاريخ ومنطق حوادثه أصدق شاهد يكذب رواية المبشرين
والمستشرقين في شأن تعدد زواج النبي . فهو ، كما قدمنا ، لم يشرك مع خديجة
أحدًا مدى ثمان وعشرين سنة . فلما قبضها الله إليه تزوج سودة بنت زمعة
أرملة السكران بن عمرو بن عبدشمس . ولم يرو راو أن سودة كانت من الجمال أو
من الثروة أو من المكانة بما يجعل لمطمع من مطامع الدنيا أثرًا في زواجه منها .
إنما كانت سودة زوجا لرجل من السابقين إلى الاسلام الذين احتملوا في
سبيله الأذى والذين هاجروا إلى الحبشة بعد أن أمرهم النبي بالهجرة عبر
البحر إليها . وقد أسلمت سودة وهاجرت معه ، وعانت من المشاق ما عانى
ولقيت من الأذى ما لقي . فإذا تزوجها محمد بعد ذلك ليعولها وليرتفع بمكاتها
إلى أمومة المؤمنين ، فذلك أمر يستحق من أجله أسمى التقدير وأجل الحمد .

أما عائشة وحَفْصَة فكانتا ابنتا وزيريه أبي بكر وعمر . وهذا الاعتبار هو الذى دعا محمداً أن يرتبط وإياهما برابطة المصاهرة بالتزوج من ابنتيهما ، كما دعاه أن يرتبط بعثمان وبعلى برابطة المصاهرة بتزويجه ابنتيه منهما . ولئن صح القول فى عائشة وفى حبه إياها ، فأنما ذلك حب نشأ بعد الزواج لآحينه . فهو قد خطبها إلى أبيها وما تزال فى التاسعة من عمرها . وهى بقيت سنتين قبل أن يبنى بها . فليس مما يقبل العقل أو يرضاه المنطق أن يكون قد أحبها وهى فى هذه السن الصغيرة . يؤيد ذلك زواجه من حفصة بنت عمر فى غير حب بشهادة أبيها نفسه . قال عمر : والله إن كنا فى الجاهلية ما نعدُّ للنساء أمراً حتى أنزل الله فىن ما أنزل وقسم لهن ما قسم . فبينما أنا فى أمر أأتمره إذ قالت لى امرأتى : لو صنعت كذا وكذا ! فقلت لها : وما لك أنت ولما هاهنا وما تكلفك فى أمر أريده ! فقالت لى : عجبا لك يابن الخطاب ! ما تريد أن تراجع أنت وإن ابنتك لتراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان . فأخذ ردأتى ثم أخرج مكاني حتى أدخل على حفصة ، فقلت لها : يا بنية إنك لتراجعين رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان ؟ . فقالت حفصة : والله إنا لتراجعه . فقلت : تعلمين أنى أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله . يا بنية لا يغرنك هذه التى قد أعجبها حسنهما وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم إياها . والله لقد علمت أن رسول الله لا يحبك ولولا أنا لطلقتك . أفرايت إذا أن محمداً لم يتزوج من عائشة ولم يتزوج من حفصة لحب أو لرغبة ، وإنما تزوج منهما ليمتن أو اصر هذه الجماعة الإسلامية الناشئة فى شخص وزيريه كما تزوج من سودة ليتعلم المجاهدون من المسلمين أنهم إذا استشهدوا فى سبيل الله فلن يتركوا وراهم نسوة وذرية ضعافاً يخافون عليهم عيلة .

يقطع فى ذلك زواجه من زينب بنت خزيمة ومن أم سلمة . فقد كانت زينب زوجاً لعبيدة بن الحارث بن المطلب الذى استشهد يوم بدر

زواج عائشة

زواج حفصة

زينب بنت
خزيمة
وأم سلمة

ولم تكن ذات جمال ، وإنما عرفت بطيبتها وإحسانها حتى لقبَّت أم المساكين . وكانت قد تحطَّت الشباب ، فلم تك إلا سنة أو سنتين ثم قبضها الله ، فكانت بعد خديجة الوحيدة من أزواج النبي التي توفيت قبله . أمّا أم سلمة فكانت زوجا لأبي سلمة وكان لها منه أبناء عدة . وقد سبق القول : إن أبا سلمة جرح في أحد ثم برأ جرحه ، فعقد له النبي للحرب بني أسد فشتتهم وعاد إلى المدينة بما غنم ثم نعر عليه جرح أحد وما زال به حتى قضى عليه . وقد حضره النبي وهو على فراش موته وظل إلى جانبه يدعو له بخير حتى مات فأسبل عينيه . وبعد أربعة أشهر من وفاته طلب محمد إلى أم سلمة يدها فاعتذرت بكثرة العيال وبأنها تحطَّت الشباب ، فما زال بها حتى تزوج منها وحتى أخذ نفسه بالعناية بتنشئة أبنائها . أفيزعم المبشرون والمستشرقون بعد ذلك أن أم سلمة كانت ذات جمال هو الذي دعا محمداً إلى التزوج منها؟ إن يكن ذلك فقد كانت غيرها من بنات المهاجرين والأنصار من تفوقها جمالاً وشباباً وثروة ونضرة ومن لا يبهره عبء عيالها . لكنه إنما تزوج منها لهذا الاعتبار السامى الذى دعاه ليتزوج زينب بنت خزيمة ، والذي زاد المسلمين به تعلقاً وجعلهم يرون فيه نبي الله ورسوله ، ويرون فيه إلى جانب ذلك أباً لهم جميعاً : أباً لكل مسكين ومحروم وضعيف وبائس وعاجز : أباً لكل من فقد أباه شهيداً فى سبيل الله .

ماذا يستنبط التحيص التاريخي التزيه مما تقدم ؟ يستنبط أن محمداً نصح بالزوجة الواحدة فى الحياة العادية . هو قد دعا إلى ذلك بمثله الذى ضربه فى حياة خديجة ، وبه نزل القرآن فى قوله تعالى : « فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً . . . وَكَأَنَّ تَسْتَبِيحُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ . . . » ولقد نزلت هذه الآيات فى أخريات السنة الثامنة للهجرة بعد أن كان قد بنى بأزواجه جميعاً ، ونزلت لتحدد عدد الزوجات بأربع وقد كان إلى حين نزولها لا حد له ، مما

التحيص
التاريخي
وما يستنبط

يسقط قول القائلين : إن محمداً أباح لنفسه ما حرم على الناس . ثم نزلت لتشديد بفضل الزوجة الواحدة وتأمراً بها لمجرد الخوف من عدم العدل ، ومع التأكيد بأن العدل غير مستطاع . على أنه رأى في ظروف حياة الجماعة الاستثنائية إمكان الحاجة للتعدد إلى أربع على شرط العدل . وهو قد دعا إلى ذلك بمثله الذي ضرب أيام غزوات المسلمين واستشهاد من استشده منهم . واعمرك هل تستطيع أن تقطع بأن الاقتصار على الزوجة الواحدة حين تحصد الحروب أو الأوبئة أو الثورات ألوف الرجال وملايينها ، خير من هذا التعدد الذي أبيع على طريق الاستثناء ؟ وهل يمكن لأهل أوروبا في هذا العصر الذي عقب الحرب الكبرى أن يقولوا بأن نظام الزوجة الواحدة نظام نافذ بالفعل . إن استطاعوا أن يقولوا إنه نافذ بالقانون ؟ أو لا يعود سبب الاضطراب الاقتصادي والاجتماعي الذي عقب الحرب إلى عدم التعاون المشروع بين الجنسين بالزواج تعاوناً قد كان من شأنه أن يعيد إلى الحال الاقتصادية شيئاً غير قليل من التوازن ؟ إنني لا أريد أن أقطع بالحكم . لكنني أترك الأمر لتفكير المفكر وتدبير المتدبر ، مع القول دائماً بأنه متى عادت الحياة العادية فخير ما يكفل سعادة الأسرة وسعادة الأمة اقتصار الرجل على زوجة واحدة .

أما قصة زينب بنت جحش ، وما أضفى بعض الرواة وأضفى المستشرقون والمبشرون عليها من أستار الخيال حتى جعلوها قصة غرام وولاء ، فالنار يخ الصحيح يحكم بأنهما من مفاخر محمد ، وأنه ، وهو المثل الكامل للإيمان ، قد طبق فيها حديثه الذي معناه : لا يكمل إيمان المرء حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه : وقد جعل نفسه أول من يضرب المثل لما يضع من تشريع يحجبه بتقاليد الجاهلية وعاداتها . ويُقرّ به النظام الجديد الذي أنزل الله هدى ورحمة للعالمين . ويكفي لهدم كل القصة التي قرأت عنها من أساسها أن تعلم أن زينب بنت

قصة زينب
بنت جحش

قراءة محمد
من زينة

جحش هذه هي ابنة أُمَيْمَةَ بنت عبد المطلب عمه رسول الله عليه السلام ،
وأُنها رُبِّيت بعينه وعنايته ، وأُنها كانت لذلك منه بمقام البنت أو الأخت
الصغرى ، وأُنه كان يعرفها ويعرف أُهي ذات مفاتن أم لا قبل أن
تتزوج زيداً ، وأُنه شهدها في نموها تحبو من الطفولة إلى الصبا إلى الشباب .
وأُنه هو الذي خطبها على زيد مولاه . إذا عرفت ذلك تداعت أمام نظرك
كل تلك الخيالات ، الأفاصيص من أنه مرةً بيت زيد ولم يكن فيه ، فرأى
زينب قُبهره حسنها وقال : سبحان مقلب القلوب ؛ أو أنه لما فتح باب زيد
عبث الهواء بالستار الذي على غرفة زينب فألقاها في قبصها ممددة وكأنها «مدّام
ريكامييه» فانقلب قلبه فجأة ونسى سودة وعائشة وحفصة وزينب بنت مخزوم
وأم سلمة ، ونسى كذلك ذكر خديجة التي كانت عائشة تقول : إنها لم تجد في
نفسها غيرةً من أحد من نساء النبي ، ما وجدت من ذكره خديجة . ولو أن شيئاً
من حبهما علق بقلبه لخطبها إلى أهلها على نفسه بدل أن يخطبها على زيد . وهذه
الصلة بين زينب ومحمد وهذا التصوير الذي صورناها به لا يدعان بعدهما
لتلك القصة الخيالية التي يروون أي أساس أو أي حق من البقاء .

حطه . يوم
على زيد
والأمة

وماذا يثبت التاريخ أيضاً ؟ يثبت أن محمداً خطب ابنة عمته زينب على
مولاه زيد ، فأبى أخوها عبد الله بن جحش أن تكون قرشية هاشمية ، وهي
فوق ذلك ابنة عمه الرسول ، وأن تكون تحت عبد رِقْ اشترته خديجة ثم أعتقه
محمد ؛ ورأى في ذلك على زينب عاراً كبيراً . وكان ذلك عاراً حقاً عند العرب
كبيراً . فلم تكن بنات الأشراف الشريفات ليتزوجن من مَوَالٍ وإن أعتقوا .
لكن محمداً يريد أن تزول مثل هذه الاعتبارات القائمة في النفوس على
العصية وحدها ، وأن يدرك الناس جميعاً أن لا فضل لعربي على أعجمي إلا
بالتقوى . « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . وهو لا يرى أن يستكره لذلك امرأة
من غير أهل . فلتكن زينب بنت جحش بنت عمته هي التي تحتمل هذا

الخروج على تقاليد العرب ، وهذا الهدم لعاداتها . مضحية في ذلك بما يقول
الناس عنها مما تحشى سماعه . وليكن زيد مولاه الذي تبى والذي أصبح بحكم
عادات العرب وتقاليدها صاحب حق في أن يرثه كسائر أبنائه سواء ، هو
الذي يتزوجها . فيكون مستعداً للتضحية التي أعد الشارع الحكيم للأدعياء
الذين اتخذوا أبناء . وليُبدِ محمد إصراره على أن تقبل زينب وأن يقبل أخوها
عبد الله بن جحش زيدا زوجاً لها . ولينزل في ذلك قوله تعالى : « وَمَا كَانَ
لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ
مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا » .

لم يبق أمام عبد الله وأخته زينب بعد نزول هذه الآية إلا الازدعان ،
فقالا : رضينا يا رسول الله . وزوجت زينب من زيد ، وساق النبي إليها عنه
مهرها . فلما سارت زينب إلى زوجها لم يسلس له قيادها ولا لأن إباؤها .
بل جعلت تؤذى زيدا وتفخر عليه بنسبها وبأنها لم يجر عليها رقب . واشتكى
زيد إلى النبي غير مرة من سوء معاملتها إياه واستأذنه غير مرة في تطلقها ،
فكان النبي يجيبه : « أمسك عليك زوجك واتق الله » . لكن زيدا لم يُطق
معاشره زينب وإباها عليه طويلاً فطلقها .

وكان الشارع الحكيم قد أراد أن يُبطل ما كانت تدين به العرب من
النصاق الأدعياء بالبيوت واتصالهم بأنسابها ومن إعطاء الدعوى جميع حقوق
الابن ومن إجرائهم عليه أحكامه حتى في الميراث وحرمة النسب ، وألّا يجعل
للمتبنّي والوصيق إلا حق المولى والأخ في الدين . فنزل قوله تعالى : « وَمَا جَعَلَ
أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْتَدِي
السَّبِيلَ » . ومعنى هذا أنه يجوز للمدعى أن يتزوج من كانت زوجاً لمن ادعاه ،
ويجوز للمتبنّي أن يتزوج من كانت زوجاً لمتبناه . ولكن كيف السبيل
إلى تنفيذ هذا ؟ ومن من العرب يستطيعه وينقض به تقاليد الأجيال السالفة

سفر
واضطر
أحبها للرب

شكوى
ربها
وطاعة إياها

حكمة الأدعياء
في الإسلام

جميعاً ؟ إن محمداً نفسه على قوة عزيمته وعميق إدراكه لحكمة الله في أمره قد وجد على نفسه الغضاضة في تنفيذ هذا الحكم بأن يتزوج زينب بعد تطليق زيدا بإياها ، ودار بخاطره ما يمكن أن يقول الناس في خرقه هذه العادة القديمة المتأصلة في نفوس العرب : وذلك ما يريدته تعالى في قوله : « وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ . وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ » . لكن محمداً كان القدوة في كل ما أمر الله به وما ألقى عليه أن يبلغ رسالته : فليخش ما يقول الناس في تزوجه من زوج زيد مولاه ، فذلك لا شيء إلى جانب خشية الله بتنفيذ أمره . ولتزوج من زينب ليكون قدوة فيما أبطل الشارع الحكيم من الحقوق المقررة للنبي والادعاء . وفي ذلك نزل قوله تعالى : « فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَا كُتَيْبًا لِيَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا » .

كيف
تزوج محمد
من زينب

هذه رواية التاريخ الصحيح في أمر زينب بنت جحش وزواج محمد منها . فهي ابنة عمته ، وكان يراها ويعرف ببلغ جمالها قبل أن تتزوج زيداً . وهو الذي خطبها على زيد . وهو كان يراها بعد أن تزوجت زيداً أن لم يكن الحجاب معروفاً يومئذ . على أنه كان من شأنها . بحكم صلة القرابة من ناحية وأنها زوج دعيه زيد من ناحية أخرى ، أن تتصل به لمصالحها ولتكرار شكوى زيد منها . وقد نزلت هذه الأحكام جميعاً فأيدها ما حصل من زواج زيد لزينب وتطليقه إياها وزواج محمد منها بعد ذلك . هذه الأحكام التي ترفع المُعتق إلى مكانة الحر الشريف والتي تُبطل حقوق الأدياء وتقضى عنها بصورة عملية لا محل للبس ولا لتأويل بعدها . أفيق بعد ذلك أثر لهذه الأفاصيص التي يكررها المستشرقون والمبشرون ويردها مؤير وإرفنج وسنير نجر وقيل ودر منجم ولا منس وغيرهم عن تناولوا كتابة حياة محمد ! لكنها شهوة التبشير المكشوف نارة ، والتبشير باسم العلم أخرى ، والخصومة

ولأنه رأى
المستشرقين
في قصة
بنت جحش ؟

القديمة للإسلام خصومة تأصلت في النفوس منذ الحروب الصليبية هي التي
تُسمى على هؤلاء جميعاً ما يكتبون ، وتجعلهم في أمر أزواج النبي . وفي أمر
زواجه من زينب بنت جحش ، يتجنّون على التاريخ ويلمسون أضعف
الرواية فيه . مما دُسَّ عليه ونسب إليه .

ولو أن ما ذكرنا كان صحيحاً ، لكان في مقدورنا أن نجبه بأن العظمة
لا تخضع لقانون . وبأن موسى وعيسى ويونس من قبل قد سموا في مولد
بعضهم وفي حياة بعض فوق نواميس الطبيعة وسنن الاجتماع فلم يطعن ذلك
في عظمتهم . لكن محمداً كان يضع سنن الاجتماع الصالحة بوحى ربه وكان
ينفذهها بأمر ربه . وكان بذلك المثل الأسمى والأُسوة الحسنة في تنفيذ ما أمر
ربه . أفكان أولئك المبشرون يريدونه على أن يُطلق أزواجه فلا يزيد على
الأربع كما شرع للمسلمين من بعد زواجه إياهن جميعاً ؟ وهل كانوا يومئذ
يُعرفونه من تقدمهم ؟ على أن معاملة محمد لأزواجه معاملة بلغت من السمو
ما رأيت شيئاً منه في حديث عمر بن الخطاب الذي سقنا وفيما سنذكر خلال
فصول هذا الكتاب ، ستكون المثل الناطق على أنه لم يحترم المرأة أحد
ما احترمها محمد ، ولم يسمُ بها إلى المكان اللائق ما سماها محمد .

سمو محمد
تلكه المرأة

الفصل الثامن عشر

غزوات الخندق وبنى قريظة

حي بن أخطب وتآليه العرب جميعاً على المسلمين - عشرة آلاف مقاتل يقصدون المدينة - سلمان الفارسي يشير بخفر الخندق حولها . حصار قريش وغطفان إياها - نقض بنى قريظة عهدهم مع المسلمين . ضياع الثقة بين العرب واليهود - انسحاب العرب عن المدينة محاصرة بنى قريظة والقضاء عليهم بالقتل

آن للمسلمين بعد إجلائهم بنى النضير عن المدينة ، وبعد بدر الآخرة وبعد غزوتي عطفان ودومة الجندل . أن يركنوا إلى شيء من الطمأنينة إلى الحياة بالمدينة . وذهبوا ينظّمون عيشتهم ، وكان من بعد أقل شظفاً بما غنموا في غزواتهم هذه ، وإن كانت قد صرفتهم في كثير عن الزرع والتجارة . وكان محمد على طمأنينته حذراً دائماً غدرة العدو ، دائماً عيونه وأرصاده في أنحاء شبه الجزيرة ينقلون إليه من أخبار العرب وما يأتمرون به . ما يمهد له دائماً فرصة الأهبة للدفاع المسلمين عن أنفسهم . ويسير عليك أن تقدر ضرورة الحذر والحيلة بعد كل الذي رأيت من غدرات قريش وغير قريش بالمسلمين ، ومن أن بلاد العرب كلها كانت في ذلك الحين ، وكانت من بعد ذلك في أكثر ظروف تاريخها الخاص ، أشبه بمجموعة جمهوريات ، مستقلة كل واحدة منها عن سائرهما ، تتخذ كل واحدة منها نظاماً هو إلى نظام القبائل أقرب ، مضطرة لذلك إلى الاحتماء بعادات وتقاليد لا يألّفها تصوّرنا في الأمم المنظمة . وكان محمد أشد ما يكون حذراً أن كان عربياً يقدر ما ركّب في الغريزة العربية من

الغريزة العربية
وحذر محمد

الحرص على الثار، وأن كانت قريش وكان يهود بني قَيْنُقَاع ويهود بني النَّضِير وعرب غَطَفَانَ وهُدَيْلَ والقبائل المتاخمة للشام ترتبص كل واحدة منها بمحمد وبأصحابه الدوائر، وتود كل واحدة منها لو تستطيع أن تجد الفرصة لادراك ثأرها من هذا الرجل الذي فرق العرب في دينها شيعاً، والذي خرج من مكة مهاجراً لا حول له ولا قوة إلا ما يملأ نفسه الكبيرة من الايمان، وها هو ذا في خمس سنوات قد أصبح له من الحول ومن القوة ما جعله مرهوب الجانب من أشد مدائن بلاد العرب، ومن أشد قبائلها حولاً وقوة. ولقد كان اليهود أبصر خصوم محمد بتعاليمه وبمصير دعوته، وكانوا أكثرهم تقديراً لما يصيبهم بانتصاره. فهم كانوا في بلاد العرب دعاة التوحيد، وكانوا ينافسون المسيحيين سلطانهم ويأملون مغالبتهم والتغلب عليهم. ولعلمهم كانوا على حق أن كانت النفس السامية أميل بطبعها إلى فكرة التوحيد، وأن كان التثليث المسيحي مما لا يسهل على هذه النفس السامية مساعه. وهذا محمد من صميم العرب ومن صميم الساميين يدعو إلى التوحيد بعبارات قوية حارة تأخذ بمجامع الفؤاد، وتصل إلى أعماق القلب، وتسمو بالانسان إلى ما فوق نفسه. وهذا هو قد بلغ من القوة حتى أخرج بني قَيْنُقَاع من المدينة وحتى أجلى بني النَّضِير عن ديارهم. فهل يتركونه وشأنه منصرفين إلى الشام وإلى وطنهم الأول بيت المقدس في أرض الميعاد، أم تراهم يحاولون تأليب العرب عليه ليأخذوا بالثأر منه ؟!

شدة خصومة
اليهود

كانت فكرة تأليب العرب هي الفكرة التي اختمرت في نفوس أكابر بني النَّضِير . وتنفيذاً لها خرج نفر منهم من بينهم حُجَيُّ بن أخطب وسَلَامُ ابن أبي الحُقَيْق وكنانة بن أبي الحُقَيْق ومعهم من بني وائل هُوَذَّة بن قَيْس وأبو عَمَّار حتى قدموا على قريش مكة . فسأل أهلها حُيَيَّا عن قومه فقال : تركتهم بين خيبر والمدينة يترددون حتى تأتوهم فتسيروا معهم إلى محمد وأصحابه ،

ورسل اليهود
إلى قريش

وسألوه عن قَرِيظَةَ فقال : أقاموا بالمدينة مكرأ بمحمد حتى تأتوهم فيميلوا معكم . وترددت قريش أن تُقَدِّمَ أم تُحْجِمَ ؛ فليس بينها وبين محمد خلاف إلا على الدعوة التي يدعو إلى الله . أفليس من الممكن أن يكون على حق وها هو ذا تزداد كلمته كل يوم رفعة وسموا ! . وقالت قريش لليهود : يا معشر يهود ، إنكم أهل الكتاب الأول وأصحاب العلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ؟ قالت اليهود : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه . وإلى ذلك يشير القرآن الكريم في قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نُصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَالطَّاعُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا . أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَهُ نَصِيرًا » . وفي موقف اليهود هذا من قريش وتفضيلهم وثبتهم على توحيد محمد يقول الدكتور إسرائيل ولفنسون في كتابه تاريخ اليهود في بلاد العرب : « كان من واجب هؤلاء اليهود ألا يتورطوا في مثل هذا الخطأ الفاحش وألا يصرَّحوا أمام زعماء قريش بأن عبادة الأصنام أفضل من التوحيد الإسلامي ولو أدى بهم الأمر إلى عدم إجابة مطلبهم ، لأن بني إسرائيل الذين كانوا مدة قرون حاملي راية التوحيد في العالم بين الأمم الوثنية باسم الآباء الأقدمين . والذين نكبوا بنكبات لا تحصى من تقتيل واضطهاد بسبب إيمانهم بالله واحد في عصور شتى من الأدوار التاريخية ، كان من واجبهم أن يضحوا بحياتهم وكل عزيز لديهم في سبيل أن يخذلوا المشركين . هذا فضلا عن أنهم بالتجأهم إلى عبدة الأصنام إنما كانوا يحاربون أنفسهم ويناقضون تعاليم التوراة التي توصيهم بالنفور من أصحاب الأصنام والوقوف معهم موقف الخصومة » .

اليهود يفضلون
الوثنية على
الإسلام

رأى يهودى
في ذلك

اليهود يولجون
سائر العرب

لم يكفِ حُجَيِّ بن أخطب واليهود الذي معه هذا الذي قاله القريش في تفضيل وثنتها على توحيد محمد حتى تنشط لمحاربتة ، وأن يأخذوا وإياهم

لذلك بعد أشهر موعداً؛ بل خرج أولئك اليهود إلى غطفان من قيس عيلان ومن بنى مرّة ومن بنى فزارة ومن أشجع ومن سليم ومن بنى سعد ومن أسد ومن كل من لهم عند المسلمين ثأر، وما زالوا بهم يحرّضونهم على الأخذ بثأرهم ويذكرون لهم متابعة قريش إياهم على حرب محمد، ويحمدون لهم وثبتهم ويعدّونهم النصر لا محالة. وخرجت الأحزاب التي جمع اليهود لحرب محمد وأصحابه. خرجت قريش وعلى رأسها أبو سفيان في أربعة آلاف مُجنّد وثلاثمائة جواد وخمسمائة وألف ممتط بعيره. وعقد اللواء في دار الندوة لعثمان بن طلحة الذي قتل أبوه وهو يحمل لواء قريش في أحد. وخرجت بنو فزارة وعلى رأسها عيينة بن حصن بن حذيفة في رجال كثير وألف بعير. أما أشجع ومرّة فجاء كل منهم في أربعائة محارب يترغم الحارث ابن عوف مرّة. ويترغم مسعر بن ربيعة أشجع، وجاءت سليم أصحاب بئر معونة في سبعمائة رجل، واجتمع هؤلاء وانحاز إليهم بنو سعد وأسد فصاروا في عشرة آلاف رجل أو نحوها، وشاركوا جميعاً تحت إمرة أبي سفيان قاصدين المدينة. فلما بلغوها تداول زعماء هاته القبائل الزعامة أثناء الحرب كل واحد منهم يوماً على التوالي.

فروع السير

واتصل نياً هذا السير بمحمد والمسلمين معه في المدينة ففرعوا. هاهي ذى العرب كلها قد أجمعت أمرها لتسحقنهم ولتقضين عليهم ولتسأصلنهم، وهاهي ذى قد جاءت في عدّة وعديد مالها في حروب العرب جميعاً من قبل مثل. وإذا كانت قريش قد انتصرت في أحد عليهم لما خرجوا من المدينة وكانت أقل من هاته الأحزاب عدداً أضعافاً، فماذا عسى أن يصنع المسلمون لمقابلة الألوف المؤلفة من رجال وخيل وإبل وأسلحة وذخيرة؟ ألم يكن إلى غير التحصن يثرب العذراء، على ما وصفها عبد الله بن أبي، سبيل. ولكن! أفيكفي هذا التحصن أمام تلك القوة الساحقة؟ وكان سلمان الفارسي يعرف من أساليب

حفر الخندق
حول المدينة

الحرب ما لم يكن معروفا في بلاد العرب . فأشار بحفر الخندق حول المدينة وتحصين داخلها . وسارع المسلمون الى تنفيذ نصيحته فَحَفَرَ الخندق وعمل فيه النبي عليه السلام بيديه ، فكان يرفع التراب ويشجع المسلمين بذلك أعظم التشجيع ويدعوهم الى مضاعفة الجهد . وأخذ المسلمون آلات الحفر من مَسَاحِ كَرَازِينَ وَمَكَاثِلَ من بنى قَرَابِطَةَ اليهود الذين بقوا على ولائهم . وبهذا الدأب والجهد المتصل تم حفر الخندق في ستة أيام . وفي هذه الاثناء كذلك حُصِّنَت جدران المنازل التي تواجه مَأْتَى العدو ، والتي يفصل الخندق بينه وبينها بنحو فرسخين . وعند ذلك أُخْلِيت المساكن التي ظلت خارج الخندق وجمى بالنساء والأطفال في هذه المنازل التي حُصِّنَت ، ووضعت الأحجار إلى جانب الخندق من ناحية المدينة لتكون سلاحا يرمى به عند الحاجة إليه .

دهش قريش
للخندق
ومواقع
عسكره ما قامه

وأقبلت قريش وأحزابها ، وهي ترجو أن تلقى محمداً بأحُد فلم تجد عنده أحداً ، فجاوزته إلى المدينة حتى فاجأها الخندق ، فعجبت أن لم تكن تتوقع هذا النوع من الدفاع المجهول منها ، وبلغ منها الغيظ حتى زعمت الاحتماء وراءه جنباً لا عهد للعرب به . وعسكرت قريش ومن تابعها بِمُجْتَمَعِ الأسيال من رُوْمَةَ وعسكرت غَطَفَانُ ومن تبعها من أهل نجد بِذَنْبِ نَقَمَى . أما محمد فخرج في ثلاثة آلاف من المسلمين فجعل ظهره إلى جيبيل سلَّعٍ وجعل الخندق بينه وبين أعدائه ، وهناك ضرب عسكره ونصبت له خيمته الحمراء . ورأت قريش والعرب معها أن لاسيدل إلى اجتياز الخندق فاكتفت بتبادل الترامي بالنبال عدة أيام متتابعة .

تردد العرب
في البقاء
والشتاء قارس

وأيقن أبو سفيان والذين معه أنهم مقيمون أمام يثرب وخندقها طويلا دون أن يستطيعوا اقتحامها ، وكان الوقت آتشد شتاء قارساً برده ، عاصفة رياحه ، يخشى في كل وقت مطره . وإذا كان يسيراً أن يحتفى أهل مكة وأهل غَطَفَانُ من ذلك كله بمنازلهم في مكة وفي غطفان . فالخيام التي ضربوا أمام

يُثْرِبُ لِاتْحَمِيمِهِ مِنْهُ قَبِيلاً . وَهُوَ بَعْدَ قَدْ جَاءَ وَإِيْرَتَجُونَ نَصْرًا مَيْسُورًا لَا يَكْتَلِفُهُمْ
غَيْرَ يَوْمٍ كَيَوْمِ أَحَدٍ ، ثُمَّ يَعُودُونَ أَدْرَاجَهُمْ يَتَغَنُّونَ بِأَنَاشِيدِ الْفُوزِ وَيَسْتَمْتَعُونَ
بِاقْتِسَامِ الْغَنَائِمِ وَالْأَسْلَابِ . وَمَاذَا عَسَى أَنْ يَمْسِكَ غَطْفَانَ عَنْ أَنْ تَعُودَ أَدْرَاجُهَا
وَهِيَ إِنَّمَا اشْتَرَكْتَ فِي هَذِهِ الْحَرْبِ لِأَنَّ الْيَهُودَ وَعَدْتَهُمَا مَتَى تَمَّ النَّصْرُ ثَمَارَ سَنَةِ كَامِلَةٍ
مِنْ ثَمَارِ مَزَارِعِ خَيْبَرَ وَحَدَاتِقِهَا . وَهَاهُنَا ذِي تَرَى النَّصْرَ غَيْرَ مَيْسُورٍ أَوْ هُوَ
عَلَى الْأَقْلِ غَيْرَ مُحَقَّقٍ : وَهُوَ يَحْتَاجُ مِنَ الْمَشَقَّةِ فِي هَذَا الْفَصْلِ الْقَارِسِ إِلَى
مَا يَنْسِبُهَا الثَّمَارَ وَالْحَدَاتِقَ . فَأَمَّا اتِّقَامُ قَرِيشٍ لِنَفْسِهَا مِنْ بَدْرٍ وَمَا لَحِقَ بِهَا بَعْدَ بَدْرٍ
مِنْ هَزَائِمٍ فَأَمْرُهُ مُدْرِكٌ عَلَى الْآيَامِ مَا دَامَ هَذَا الْخَنْدَقُ يَحْوِلُ دُونَ إِسْكَائِكِ
مُحَمَّدٍ بِالْتَّلَايِبِ . وَمَا دَامَتْ بَنُو قَرِيظَةَ تَمُدُّ أَهْلَ يَثْرِبِ بِالْمُؤْنَةِ مَدَدًا يَطِيلُ
أَمْدَ مَقَاوِمَتِهِمْ شَهْرًا وَشَهْرًا . أَفَلَيْسَ خَيْرًا لِلْأَحْزَابِ أَنْ يَعُودُوا أَدْرَاجَهُمْ ؟
نَعَمْ . . . لَكِنْ جَمْعٌ هُوَ لِأَحْزَابِ الْحَرْبِ مُحَمَّدٌ مَرَّةً أُخْرَى لَيْسَ بِالْأَمْرِ
الْمَيْسُورِ . وَقَدْ اسْتَطَاعَ الْيَهُودَ وَحُجَيْبُ بْنُ أَخْطَبِ عَلَى رَأْسِهِمْ أَنْ يَجْمَعُوا هَذِهِ
الْمَرَّةَ لِلاتِّقَامِ لِنَفْسِهِمْ مِنْ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ عَمَّا أَوْقَعَ بِهِمْ وَبَنَى قَيْنِقَاعَ مِنْ قِبَالِهِمْ .
فَإِنْ أَفَلَتْتَ الْفُرْصَةَ فَهِيَ هَيْبَاتٌ أَنْ تَعُودَ . وَإِنْ اتَّصَرَ مُحَمَّدٌ بِالنَّسْجَابِ
الْأَحْزَابِ فَالْوَيْلُ لِمَنْ الْوَيْلُ لِلْيَهُودِ .

خوف حوي
من النجاشي
الأحزاب

قَدَرُ حُجَيْبِ بْنِ أَخْطَبِ هَذَا كُلُّهُ وَخَافَ مَغْبِتَهُ وَرَأَى أَنْ لَا مَفْرَجَ مِنْ أَنْ
يَقَامَرَ بِآخِرِ سَهْمِ عِنْدِهِ . فَأَوْحَى إِلَى الْأَحْزَابِ أَنَّهُ مَقْنَعُ بَنِي قَرِيظَةَ بِنَقْضِ
عَهْدِ مَوَادِعَتِهِمْ مُحَمَّدًا وَالْمُسْلِمِينَ وَبِالانْضِمَامِ إِلَيْهِمْ . وَأَنَّ قَرِيظَةَ مَتَى فَعَلْتَ انْقِطَعِ
الْمَدَدُ وَالْمِيرَةُ عَنْ مُحَمَّدٍ مِنْ نَاحِيَةِ ، وَفَتَحَ الطَّرِيقَ لِدُخُولِ يَثْرِبِ مِنَ النَّسْجَابِ
الْأُخْرَى . وَسُرَّتْ قَرِيشٌ وَغَطْفَانٌ بِمَا ذَكَرَ حُجَيْبٌ . وَسَارِعَ هُوَ فَذَهَبَ يَرِيدُ
كَعْبَ بْنَ أَسَدٍ صَاحِبِ عَقْدِ بَنِي قَرِيظَةَ . وَقَدْ أَغْلَقَ كَعْبٌ دُونَهُ بَابَ حَصْنِهِ
لِأَوَّلِ مَا عَرَفَ مَقْدَمَهُ عَلَيْهِ ، مَقْدَرًا أَنْ غَدَرَ قَرِيظَةَ بِمُحَمَّدٍ وَنَقَضَ عَهْدَهُ
وَانْضَمَّ إِلَى عَدُوِّهِ قَدْ يَفِيدُهَا وَيُفِيدُ الْيَهُودَ إِذَا دَارَتِ الدَّوَابِرُ بِالْهَزِيمَةِ عَلَى

المسلمين ، ولكنه جدير بأن يمحوها محواً إذا هزمت الأحزاب وانصرفت قواتها عن المدينة . لكن حُيَّياً ما زال به حتى فتح له باب الحصن ثم قال له :
 « ويحك يا كعب ! جئتك بعز الدهر وبيحر طام . جئتك بقريش وبغطفان مع قادتها وسادتها ، وقد عاهدوني وعاهدوني على ألا يبرحوا حتى نستاصل محمداً ومن معه ، . وتردد كعب وذكر وفاة محمد وصداقه لعهدده . وخشي مغبة ما يدعوه حُيَّياً إليه . لكن حُيَّياً ما زال به يذكر له ما أصاب اليهود من محمد وما يوشك أن يصيبهم منه إذا لم تنجح الأحزاب في القضاء عليه ، ويصف له قوة الأحزاب وعُدَّتْها وعَدَدَهَا ، وأنها لم يمنعها غير الخندق من أن تقضى في سوية على المسلمين جميعاً . حتى لان كعب له ، فسأله : وماذا يكون إذا ارتدت الأحزاب ؟ هناك أعطاه حُيَّياً موثقاً إن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً أن يدخل معه في حصنه فيشاركه حظه . وتحركت في نفس كعب يهوديته فقبل ما طلب حُيَّياً ، ونقض عهده مع محمد والمسلمين وخرج من حياته .

عذوة
كعب قريظة

قريظة
نقض عهده

واتصل نبي الانضمام قريظة إلى الأحزاب بمحمد وأصحابه فاهتزوا له وخافوا مغبته . وبعث محمد سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج ومعهم عبد الله بن رواحة وآخوات بن جُبَيْر ليقفوا على جلية الأمر ، على أن يلحقوا به عند عودتهم إن كان حقاً حتى لا يفتوا في أعضاء الناس . فلما أتى هؤلاء الرسل ألفوا قريظة على أخبث ما بلغهم عنهم . فلما حاولوا ردهم إلى عهدهم طلب سعد إليهم أن يردوا إخوانهم يهود بني النضير إلى ديارهم . وأراد سعد بن معاذ . وكان حليف قريظة ، أن يُقنعها بخافة أن يحل بها ما حل ببني النضير أو ما هو شر منه ، فانطلقت اليهود ووقعوا في محمد عليه السلام وقال كعب : مَنْ رسول الله !! لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد . وكاد الفريقان يتشامان .

رسول محمد
بني قريظة

رجع رسل محمد إليه بما رأوا. هنالك عظم البلاء واشتد الخوف ورأى أهل المدينة طريق قريظة وقد فُتِحَ للأحزاب فدخلوا عليهم واستأصلوهم . ولم يكن ذلك محض خيال و وهم ؛ فهم قد رأوا قريظة تقطع المدد والميرة عنهم ، ورأوا قريشاً وغطفان منذ عادُ حَيَّ بن أخطب ينههم بانضمام قريظة إليهم قد تغيرت نفسياتهم وأخذوا يعدون أنفسهم للقتال . وذلك أن قريظة استمملت الأحزاب عشرة أيام تُعدُّ فيها عدتها على أن تقاتل الأحزاب المسلمين في هذه الأيام العشرة أشد القتال . وذلك ما فعلوا . فقد ألقوا ثلاث كتائب لمحاربة النبي . فأتت كتيبة ابن الأعور السلمي من فوق الوادي . وأتت كتيبة عبيدة بن حصن من الجنب . ونصب له أبو سفيان من قبل الخندق . وفي هذا الموقف نزلت هذه الآيات من سورة الأحزاب : ه إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ قَوْمِكُمْ وَمَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا . وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا . وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ، وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ، إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا .

مكة
الأحزاب
عوى

مكة
أهل يثرب

ولأهل يثرب أبلغ العذر إن هم بلغ منهم الفزع وزلزلت قلوبهم . ولئن قال منهم العذر في أن يقول : كان محمد يعدُّنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط . وللذين زاغت أبصارهم العذر في أن تزيع . وللذين بلغت قلوبهم الحناجر العذر في أن تبلغها . أليس هو الموت الذي يرون آتياً تقدح بالشرر عينه ، مصورة في بريق هذه السيوف تلعب في أيدي قريش وفي أيدي غطفان ، وتدب إلى القلب مخافته متسللة من منازل بني قريظة العذرة الخائنين ! . ألا ويل لليهود ! . ما كان أجدر محمد بأن

يقضى على بني النضير ، وأن يستأصلهم بدل أن يذرحهم يرتحلون موفورين
وأن يذر حياً والذين معه يؤلبون العرب على المسلمين ليستأصلوهم . ألا إنها
الطامة الكبرى والفرع الأكبر . ولا حول ولا قوة إلا بالله ! .

الذين اتحموا
الحندي

وسمت روح الأحزاب المعنوية حتى دفعت بعض فوارس من قريش ،
منهم عمرو بن عبدود وعكرمة بن جهل وضرار بن الخطاب ، أن يقتحموا
الحندي ، فتيموا مكاناً منه ضيقاً فضربوا خيلهم فاجتازته فجالت بهم في
السبخة بين الحندي وسنح . وخرج علي بن أبي طالب في نفر من المسلمين
فأخذوا عليهم الثغرة التي اقتحموا منها خيلهم ، وتقدم عمرو بن عبدود ينادى :
من يبارز ؟ ولما دعاه ابن أبي طالب إلى النزال قال في صلف : لم يا بن أخي ؟
فوالله ما أحب أن أقتلك . قال علي : لكني أحب والله أن أقتلك . فتنازلا
فقتله علي ؛ وفرت خيل الأحزاب منهزمة ، حتى اقتحمت الحندي من جديد
مولية الأدبار لا تلوى على شيء . وأقبل نوفل بن عبد الله بن المغيرة على
فارس له بعد ما غربت الشمس يريد أن يجتاز الحندي ، فهوى هو والفارس
فيه فصرعا وتحطما . وأرسل أبو سفيان يعرض دية جثته مائة من الإبل ،
فرفض النبي عليه السلام وقال : خذوه فانه خبيث خبيث الدية .

سبهاة فرجلة
المسلمين

وأعظمت الأحزاب نيرانها مبالغة في تحوير المسلمين وإضعافا
لروحهم ، وبدأ المتحمسون من قريظة ينزلون من حصونهم وآطامهم إلى منازل
المدينة القريبة منهم يريدون إرهاب أهلها . كانت صفية بنت عبد المطلب في
فارح حصن حسان بن ثابت ، وكان حسان فيه مع النساء والصبيان . فربهم
يهودي ضليل يُطيف بالحصن . قالت صفية مخاطبة حسان : إن هذا اليهودي
يُطيف يا حسان بالحصن كما ترى ، وإني والله ما آمنه أن يدل على عورتنا من
وراءنا من اليهود ، ورسول الله وأصحابه قد شغلوا عنا ، فانزل اليه فاقتله . قال
حسان : يغفر الله لك يا بنة عبد المطلب . والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا .

فأخذت صفة عموداً ونزلت من الحصن وضربت به اليهودى حتى قتلتها .
فلما رجعت قالت : يا حسان . إنزل اليه فاسلبه فإنه لم يمنعني من سلبه إلا أنه
رجل . قال حسان : مالى يابنة عبد المطلب بسلبه من حاجة !

وظل أهل المدينة في فرعهم وزلزال قلوبهم على حين جعل محمد يفكر
في الوسيلة للخلاص . ولم تكن الوسيلة مواجهة العدو بطبيعة الحال . فلتكن
الحيلة إذاً . فبعث إلى غطفان يبعدها ثلث ثمار المدينة إن هي ارتحلت .
وكانت غطفان قد بدأت تمحل فأظهرت امتعاضاً من طول هذا الحصار وما
لقوا من العنت أثناءه لغير شيء ، إلا إجابة حبي بن أخطب واليهود الذين معه .
ثم إن نعيم بن مسعود ذهب بأمر الرسول إلى قريظة ، وكانت لا تعرف أنه
أسلم . وكان لها ندما في الجاهلية . فذكرهم بما بينه وبينهم من مودة ، ثم ذكر لهم
أنهم ظاهروا قريشاً وغطفان على محمد ، وقريش وغطفان قد لا يستطيعان المقام
طويلاً فتخليان ما بينهما وبين محمد فينكحل بهم . ونصحهم لذلك ألا يقاتلوا
مع القوم حتى يأخذوا منهم رهناً يكونون بأيديهم حتى لا تتجنى قريش
وغطفان عنهم . واقتنعت قريظة بما قال . ثم إنه ذهب الى قريش فأسر لهم
أن قريظة ندموا على ما فعلوا من نكث عهد محمد ، وأنهم عاملون على استرضائه
وكسب مودته بأن يقدموا له من أشرف قريش من يضرب أعناقهم .
ولذلك نصحهم إن بعث اليهم اليهود يلتمسون رهائن من رجالهم ألا يبعثوا
منهم أحداً . وضع نعيم مع غطفان ما صنع مع قريش وحذرهم مثلما حذرهم .
وذبت الشبهة من كلام نعيم الى نفس قريش وغطفان . فشاوور زعماءهم ، فأرسل
أبو سفيان الى سعد سيد بني قريظة يقول له : قد يأسعد طالت إقامتنا وحصارنا
هذا الرجل ، وقد رأيت أن تعمدوا اليه في الغداة ونحن من ورائكم . فعاد
رسول أبي سفيان اليه بقول زعيم قريظة : إن غداً السبت . وإنا لانستطيع
القتال والعمل يوم السبت . فغضب أبو سفيان وصدق حديث نعيم ، وأعاد

سنة نعيم
بين الأحزاب
وقريظة

الرسول يقول لقريظة: اجعلوا سبباً مكان هذا السبت، فإنه لا بد من قتال محمد غداً، ولئن خرجنا لقتاله ولستم معنا لئبرأن من حلفكم ولنبدأن بكم قبل محمد، فلما سمعت قريظة كلام أبي سفيان كررت أنها لا تتعدى السبت وقد غضب الله على قوم منهم تعدوه فجعلهم قرده وخنازير، ثم أشاروا إلى الرهائن حتى يطمثنوا لمصيرهم، فلما سمع أبو سفيان لم يبق لديه في كلام نعيم ربية وبات يفكر ماذا عساه يصنع، وتحدث إلى غطفان فاذا هي تتردد دون الاقدام على قتال محمد متأثرة بما كان قد بدأها به من وعدها تلك ثمار المدينة وعداً لم يتم أن اعترضه سعد ابن معاذ وسادة المدينة من الأوس والخزرج ومن أصحاب مشورة رسول الله.

العاصفة
تقلع خيام
الأحزاب

فلما كان الليل عصفت ريح شديدة وهطل المطر هاتناً وقصف الرعد وخطف البرق، واشتدت العاصفة فاقلعت خيام الأحزاب وكفأت قدورهم وأدخلت الرعب إلى نفوسهم، وخيّل إليهم أن المسلمين انتهزوها فرصة ليعبروا إليهم وليؤقعوا فيهم، فقام طليحة بن خويلد فنادى: إن محمداً قد بدأكم بشرم فالنجاة النجاة، وقال أبو سفيان: يامعشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا منهم ما نكره، ولقينا من شدة الريح ماترون، فارتحلوا فاني مرتحل، فاستخف القوم ما استطاعوا حمله من متاع وانطلقوا وما تزال الريح تعصف بهم، وقرؤا هاربين، وتبعتهم غطفان، حتى إذا كان الصبح لم يجد محمد منهم أحداً، فانصرف راجعاً إلى المدينة والمسلمون معه يرفعون أكف الضراعة إلى الله شكراً أن رفع الضر عنهم وأن كفى المؤمنين شر القتال.

رحيل
الأحزاب

عاد محمد بعد رحيل الأحزاب يفكر في موقفه، لقد أذهب الله عنه عدوه الذي كان يهدده، لكن اليهود قادرين على أن يعودوا مثلها وأن يختاروا فضلاً من السنة غير الشتاء القارس الذي كان جند الله في هزيمة عدوه، ثم

إن قريظة ، لولا ارتحال الأحزاب ولولا ما وقع في صفوفها من شقاق
 وانقسام ، كانت على أهبة النزول إلى المدينة والفتك بالمسلمين والمعاناة على
 استئصالهم . لا تقطن إذا ذنب الأفي وتتركها . ولا بد من القضاء على بني
 قريظة بما فعلت . وأمر عليه السلام مؤذناً فأذن في الناس : من كان سامعاً
 مطيعاً فلا يصلين العصر إلا ببني قريظة : وقدم علياً برايته إليها . ومع ما كان
 عليه المسلمون من نصيب بعد طول حصار قريش وغطقان إياهم ، فقد خفوا
 لهذا القتال الذي لم يكن لديهم أي شك في نتيجته . صحيح أن بني قريظة
 يقيمون في حصون محصنة كالتي كانت لبني النضير : لكن هذه الحصون إن
 أغنتهم في الدفاع عن أنفسهم فلن تغنيهم في مهاجمة المسلمين . والميرة قد أصبحت
 في متناول يد أهل المدينة بعد جلاء الأحزاب عنها . لذلك خف المسلمون
 فرحين وراء علي حتى أتوا بني قريظة ، فاذا يهودها ومعهم حنّ بن أخطب
 النَّضْرِيّ يقعون في محمد بأقبح مقالة : يكذبونه ويطعنون عليه وينالون من
 عرض نسائه . . . وكأنا ما شعروا بعد الخذلان الأحزاب عن المدينة بما هبّ لهم .
 ولما جاء الرسول لقيه عليّ وطلب إليه ألا يدنو من حصون اليهود . فسأله
 محمد : ولم ؟ أظنك سمعت منهم لى أذى ! قال نعم . قال رسول الله : لورأوني لما
 قالوا من ذلك شيئاً . فلما دنا من حصونهم ناداهم : يا إخوان القردة ! هل أخزاكم الله
 وأنزل بكم نقمته ؟ . قالوا : يا أبا القاسم ما كنت جهولاً . وجعل المسلمون بقية
 نهارهم يتوافدون إلى بني قريظة حتى اجتمع جمعهم عندها : فأمرهم محمد بحصارها .
 ظل هذا الحصار خمساً وعشرين ليلة لم يقع خلالها إلا بعض تراشق
 بالنبل والحجارة ، ولم يجرؤ بنو قريظة أن يخرجوا من الآطام طول مدة
 الحصار مرة واحدة . فلما جهدوا وأيقنوا أن لن تمنعهم حصونهم من الهلاك
 شيئاً . وأنهم لا بد أن يقعوا في قبضة المسلمين وإن طال الزمن ، بعثوا إلى
 الرسول أن ابعث لنا أبا لُبَّابة نستشيره في أمرنا . وكان أبو لُبَّابة من

عزو قريظة

استطالة زمن
الحصار

الأوس حلفائهم . فلما رأوه قام إليه الرجال وأجهش النسوة والصبيان بالبكاء حتى رقى لهم . فقالوا له : أتري يا أبا لبابة أن تنزل على حكم محمد ؟ قال نعم . وأشار بيده إلى حلقه : إنه الذبح إن لم تفعلوا . وقد ندم أبو لبابة على إشارته هذه فيما روت السير . فلما انصرف أبو لبابة عنهم عرض كعب بن أسد أن يتابعوا محمداً على دينه وأن يُسلِّموا فيما منوا على دمائهم وأموالهم وأبنائهم . فرفض أصحاب سعد أن يسمعوا هذا الكلام منه وصاحوا به : لا تفارق حكم التوراة أبداً ولا نستبدل به غيره . فعرض عليهم أن يقتلوا نساءهم وأبنائهم وأن يخرجوا إلى محمد وأصحابه رجالاً مُصلتين بالسيف لم يتركوا وراءهم ثقلاً حتى يحكم الله بينهم وبين محمد . فان هلكوا لم يتركوا وراءهم نسلاً يخشون عليه وإن ظهروا اتخذوا النساء والأبناء . فرفضوا هذا العرض أيضاً قائلين : نقتل هؤلاء المساكين ! فما خير العيش بعدهم ! قال لهم سعد : لم يبق إذاً إلا أن تنزلوا على حكم محمد وقد سمعتم ما أعدت لكم . وتشاور القوم فيما بينهم وقال قائل منهم : إنهم لن يكونوا أسوأ من بني النضير مصيراً ، وإن أولياءهم من الأوس سيدفعون عنهم الشر . وإنهم إن عرضوا أن يرتحلوا إلى أذرعات بالشام لم يجد محمد بأساً من قبول عرضهم .

وبعثت قريظة إلى محمد تعرض عليه الخروج إلى أذرعات تاركة وراءها ما تملك ، فأبى ذلك عليها إلا أن تنزل على الحكم . فأرسلت إلى الأوس تقول لهم : ألا تأخذون لآخوانكم مثلما أخذت الخزرج لآخوانهم ! . فشى جماعة من الأوس إلى محمد فقالوا : يابني الله ، ألا تقبل من حلفائنا مثل الذي قبلت من حلفاء الخزرج ؟ . قال محمد : يامعشر الأوس ، ألا ترضون أن أجعل بيني وبين حلفائكم رجلاً منكم ؟ . قالوا بلى . قال : فقولوا لهم فليختاروا من شاءوا . فاختار اليهود سعد بن معاذ ، وكان مما أعماه القدر الذي كتب لهم لوح حظهم فأنسأهم مقدّم سعد إليهم أول نقضهم عهدهم . وتحذيره إياهم ، ووقعهم في

محمد أمامه . وسبهم المسلمين بغير حق . وأخذ سعد الموائيق على الفريقين أن يُسلم كلاهما لقضائه وأن يرضى به . فلما أعطوه الموائيق ، أمر بنو قريظة أن ينزلوا وأن يضعوا السلاح ففعلوا ، فحكم سعد فيهم أن تُقتل المقاتلة وتقسّم الأموال وتُسبي الذرية والنساء . فلما سمع محمد هذا الحكم قال : والذي نفسي بيده لقد رضى بحكمك هذا ، الله والمؤمنون وبه أمرت . ثم خرج إلى سوق المدينة فأمر فحُفرت بها خنادق ثم جرى باليهود أرسالا فضربت أعناقهم ، وفي هذه الخنادق دفنوا . ولم يكن بنو قريظة يتوقعون هذا الحكم من سعد بن معاذ حليفهم بل كانوا يحسبونه يصنع بهم ما صنع عبد الله بن أبي مع بنو قينقاع . ولعل سعداً ذكر أن الأحزاب لو اتصرت بخيانة بنو قريظة لما كان أمام المسلمين إلا أن يُستأصلوا وأن يقتلوا وأن يمثل بهم ، فجزاهم بمثل ما عرّضوا المسلمين له .

حكمه بقتل
اليهود

وقد أظهر اليهود من الجلد أمام القتل ماتراه في حديث حُسي بن أخطب حين قدّم لتضرب عنقه فظفر اليه النبي وقال : ألم يُخزك الله يا حيي ! فأجاب حيي : كل نفس ذائقة الموت ولي أجل لا أعددود ، ولا ألوم نفسي على عداوتك . ثم التفت إلى الناس فقال : أيها الناس ، إنه لا بأس بأمر الله . كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على نبي إسرائيل . ثم إن الزبير بن باطا القرظي كان قد من على ثابت بن قيس في يوم بُعث بأن خلى سبيله بعد أسره . فأراد ثابت أن يجزيه بعد حكم ابن معاذ على اليهود عن يده عنده . فذكر لرسول الله منة الزبير عليه واستوهبه دمه . وأجاب رسول الله طلبته . فلما عرف الزبير ما فعل ثابت قال له : شيخ كبير مثلي لا أهل له ولا ولد ماذا يصنع بالحياة ! . فاستوهب ثابت رسول الله دم امرأته وأولاده فوهبه إياه : ثم استوهبه ماله فوهبه إياه كذلك . فلما اطمأن الزبير إلى أهله وولده وماله سأل عن كعب بن أسد وعن حيي بن أخطب وعن عزال بن سموءل وعن

جلد اليهود
للقتل

زعما بني قريظة ، فلما علم أنهم قتلوا قال : إني أسألك يا ثابت بيدي عندك إلا ألحقني بالقوم ، فوالله ما في العيش بعد هؤلاء من خير . فما أنا بصابر لله فتنة ذلوح حتى ألقى الأحبة . وكذلك ضربت عنقه بمشيئته . وكان المسلمون لا يقتلون في غزواتهم النساء والذراري ؛ ولكنهم يومئذ قتلوا امرأة طرحت الرحا على مسلم فقتلته . وكانت عائشة تقول : والله ما أنسى عجباً منها طيب نفسها وكثرة ضحكها وقد عرفت أنها تقتل . وأسلم يومئذ من اليهود أربعة فنجوا من القتل .

وفي رأينا أن دم بني قريظة معلق في عنق حبي بن أخطب وإن كان قد قتل معهم . فهو قد حنث بالعهد الذي عاهد قومه من بني النضير حين أجلاهم محمد عن المدينة ولم يقتل منهم بعد النزول على حكمه أحداً . وهو بتأليه قريشاً وعظفان وتحزيبه العرب كلها لقتال محمد قد جثم العداوة بين اليهود والمسلمين وجعل هؤلاء يعتقدون أن بني إسرائيل لا تطيب نفوسهم إلا باستئصال محمد وأصحابه . وهو الذي حمل بني قريظة من بعد ذلك على نقض عهدها والخروج من حياها ، ولو أنها بقيت عليه لما أصابها من الشر شيء . وهو الذي دخل حصن بني قريظة بعد ارتحال الأحزاب ودعاهم لمواجهة المسلمين والدفاع عن أنفسهم بمقاتلتهم ، ولو أنهم نزلوا على حكم محمد منذ اليوم الأول واعترفوا بخطئهم في نقض عهدهم لما أهدرت دماؤهم وضربت أعناقهم . لكن العداوة بلغت من التأصل في نفس حبي وانتقلت منه إلى نفوس بني قريظة حدًا جعل سعد بن معاذ نفسه ، وهو حليفهم ، يؤمن بأنهم إن أبقى على حياتهم فإن تهدأ لهم نفس حتى يؤلبوا الأحزاب من جديد وحتى يجمعوا العرب لقتال المسلمين وحتى يقتلوهم عن آخرهم إن ظفروا بهم . فالحكم الذي أصدره على قسوته وشدته إنما كان متأثراً فيه بالدفاع عن النفس واعتباره بقاء اليهود أو زوالهم مسألة حياة أو موت بالنسبة للمسلمين .

دم بني قريظة
في عنق
حبي بن أخطب

وقسم النبي أموال بني قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين بعد أن أخرج منه الخمس . قسمه بأن كان للفارس سهمان ولفرسه سهم وللراجل سهم . وكانت الخيل يوم قريظة ستة وثلاثين فرساً . ثم بعث سعد بن زيد الأنصاري بطائفة من سبايا بني قريظة إلى نجد فابتاع بها خيلاً وسلاحاً زيادة في قوة المسلمين الحربية .

وكانت ريحانة إحدى سبايا بني قريظة قد وقعت في سهم محمد ، فعرض عليها الإسلام فأصرت على يهوديتها ، وعرض عليها أن يتزوجها فقالت : بل تتركني في ملكك فهو أخف عليّ وعليك . ولعل حرصها على اليهودية ورفضها الزواج يرجعان إلى عصبيتها لقومها وما كان باقياً في نفسها من كراهية للمسلمين ولنبيهم . ولم يتحدث أحد عن جمال ريحانة ما تحدثوا عن جمال زينب بنت جحش . وإن ذكر بعضهم أنها كانت جميلة وسيمة . وقد اختلفت السير فيها : أمي قد ضرب عليها الحجاب كما ضرب على نساء النبي أم أنها ظلت كسائر نساء العرب يومئذ لم يضرب عليها حجاب . وبقيت ريحانة في أسكك حتى ماتت عنده .

وطدت غزوة الأحزاب ووطد القضاء على بني قريظة للمسلمين في المدينة فلم يبق للنافقين فيها صوت قط . وذهبت العرب كلها تتحدث بقوة المسلمين وسلطانهم وبمقام محمد وقوته ورهبة جانبه . لكن الرسالة لم تكن للمدينة وحدها بل كانت للعالم بأسره . فما يزال على النبي وأصحابه إذاً أن يهدوا للكلمة الله وأن يدعوا الناس لدينه الحق . وأن يصدوا عنه كل معتد عليه ، وهذا ما فعلوا .

الفصل التاسع عشر

من الغزوتين الى الحديدية

المرأة والرجل في الاسلام - غزو بني حيان - قتل عيينة بن الأفرع
غزو بني المصطلق - حديث الافك

نظم
الديب

استتب الأمر لمحمد والمسلمين بعد غزوة الخندق وبعد القضاء على بني قريظة ، استتباً جعل العرب تخافهم أشد الخوف ، وجعل الكثيرين من قريش يفكرون : أليس خيراً لقريش لو أنها هادنت محمداً وصافته وهو منها وهي منه والمهاجرون معه بينهم كبرائها وسادتها . واستراح المسلمون بعد الذي اطمأنوا إليه من القضاء على اليهود بجوار المدينة قضاء لا تقوم لهم قيامة بعده . ومكثوا بالمدينة لذلك ستة أشهر يبشرون من تجارة الحياة ما يستمتعون معه بشيء من نعمة الحياة ، ويزدادون برسالة محمد إيماناً ولتعاليمه تمثلاً ، ويسيرون وإياه في طريق تنظيم الجماعة العربية تنظيمًا لم يكن مألوفاً عندها من قبل ، وانكته لم يكن منه بدءٌ في جماعة منظمّة ذات كيان ووحدة كالجماعة التي كانت تتكون تحت سلطان الاسلام رويداً رويداً . فقد كانت العرب في الجاهلية لا تعرف لها نظاماً ثابتاً إلا ما أقرته عاداتها . ولم يكن لها في أمر الأسرة ونظامها والزواج وحدوده والطلاق وقبوده وصيلات الزوجين والأبناء إلا ما تملى به طبيعة ذلك الجو الذي يغلو في الإباحة تارة . ليصل من الجود والتقيد إلى حدود الرق وعسفه تارة أخرى . فليتنظم الاسلام الجماعة الاسلامية الناشئة التي لما تكون تقاليدها ، ليمهدا في وقت قصير لتضع نواة حضارة تنتظم من بعد ذلك حضارة الفرس والروم والمصريين

وتطبعها بطابعها الاسلامى الذى يدرج رويداً رويداً حتى يصل إلى كاله
يوم ينزل قوله تعالى : « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي
وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا . »

ومهما يكن الرأى فى حضارة بلاد العرب قبل الاسلام وبدواتها ،
وهل كانت القرى من أمثال مكة والمدينة ذات حضارة لا تعرفها البادية أو
أنهما كانت أيضاً فى أوليات مراتب الحضارة ، فان صلات الرجل والمرأة
فى هذه الجماعة العربية كلها لم تكن تعدو . بشهادة القرآن وبشهادة ما بقى من
آثار ذلك العهد ، صلات الذكورة والأنوثة ، مع تفاوت تملى به مراتب
الطوائف والعشائر لا يخرجها عن هذا الوضع القريب من مراتب الانسان
الأول . ولذلك كان النسوة يهترجن فى الجاهلية الأولى ويُبدن من زيتهن
ما لا يقف أمره عند بُعولتهن ، وكن يخرجن فرأدى ومثنى وزرافات لحاجتهن
يقضينها فى غوطة فى الصحراء ، فيلقاهن الشبان والرجال وهن يتهادين فى
جماعاتهن فلا يأنى هؤلاء . ولا أولئك أن يتبادلوا أشهى النظرات ومعسول
الحديث مما يستريح له الذكر وتطمئن له الأنثى . وبلغ من أمر هذه الصلة وما
وقرت فى النفوس ، أن لم تأب هند زوج أنى سفيان أن تقول فى أشد موافق
الجِدِّ والشدة ، وهى تحت قريشاً حين الحرب يوم أحد :

إن تقبلوا نعانق ونفرض النمارق

أو تُدبروا نفارق فراق غير وامق

ولم يكن الزنا يومئذ بالجريمة ذات الخطر والشأن . ولقد ذكر الرواة
عن هند هذه ، على ما كان لأنى سفيان من مكاة وخطر . أحاديث غرام
وهوى لم تغير من مكاتتها فى قومها ولا بين أهلها . ثم إن المرأة كانت إذا
ولدت . ولم يعرف لمولودها أب ، لم تأب أن تذكر من لامسها من الرجال
لئنسب مولودها إلى أيهم كان أقرب إليه شهاً . ولم يكن إلى ذلك لتعداد

صلوات الرجل
والمرأة

أحداث
الهوى
ووثبات القتال

الزواج ولا للرق حدٌ أو قيد . كان للرجل أن يتزوج ما شاء . وأن يقسرى ما شاء ، وكان لهؤلاء . ولأولئك أن يلدوا ما شاموا . وكان الأمر في ذلك لا خطر له إلا أن يفتضح وتخشى معرته وما قد يجز وراه من أهاج تبادل لا يدري أحد ما ينجم عنها من خصومة وقتال . هنالك يتبدل الأمر غير الأمر ، وترى ما كانت المودة قد سترت من قبل من ملاحم الهوى ووثبات الغرام . قد هتكته الخصومة فجعلته سبياً لملاحم القتال ووثبات النزال . وإذا شبت الخصومة فلكل أن يقول ما شاء وأن يزعم ما يريد . وخيال العربي خصب بطبيعة عيشه تحت السماء وتجوّاله الدائم في طلب الرزق واضطراره للبغالة وللكذب أحياناً في شؤون التجارة . والعربي الكع بطبعه ، حتى لقد كانت لكاعة العرب وما تزال مضرب المثل . فاذا وقف زيد في السلم يحدث هنداً حديث هوى لم يزد على شهي اللفظ تساقطه لآلى التنايا العذاب ، رأيت زيدا حين الخصومة والحرب يرفع عقيرته بهند وقد لقيها أمامه متجرّدة يقول في نحرها وصدورها ونهدها وخصرها وعجزها وما دون ذلك ما شاءت له أفانين الخصومة واهتياج الخيال الذي لا يعرف في المرأة غير الأثي وغير ما تفرّش من المنارِق . ومع ما قضى الاسلام على هذه النفسية فقد بقي من آثارها ما تقرّؤه في مثل شعر عمر بن أبي ربيعة وما تأثر به شعر الغزل في العربية إلى عصور كثيرة ، وما لا يزال له أثره ، ولو إلى حد قليل ، في شعر عصرنا الحاضر . ربما بدا هذا التصوير للقارىء المُعجَب بالعرب وحضارتهم ، وللمُعجَب حتى بعرب الجاهلية ، مشوباً بشيء من الغلو . وللقارىء العذر من ذلك إذ يوازن بين هذه الصورة التي وضعنا أمامه وبين ما هو واقع بالفعل في عصرنا الحاضر ، وبين ما نرجو أن تصل إليه صلوات الرجل والمرأة في الزواج والطلاق وصلوات الزوجين والأبناء . لكن موازنة كهذه مخطئة جدية أن تجرّ إلى أخش الضلال . إنما يجب أن توازن الجماعة العربية التي صورنا إحدى نواحيها

المرأة عند
العرب وأوروبا
في ذلك العصر

في القرن السابع المسيحي بالجماعات الانسانية في ذلك العصر . وما أحسبنا
نغالي إذا قلنا : إن الجماعة العربية كانت ، مع ما وصفنا من أمرها ، خيراً بكثير
من الجماعات المعاصرة لها في آسيا وفي أوروبا . ولسنا نقف عند ما كان من ذلك
في الصين أو في الهند ، فما لدينا من المعلومات عنه قليل لا يساعفنا . لكن أوروبا
الشمالية وأوروبا الغربية كانت يومئذ في ظلمات تبيح لك أن تصوّر من نظام
الأسرة فيها ما تريد مما يقرب من أوليات مراتب الانسانية . وكانت رومية .
وهي صاحبة الشرع يومئذ وصاحبة الغلب والسيادة والمنافس الوحيد القوى
للفرس ، تجعل المرأة من الرجل في مكانة دون مكانة المرأة العربية من الرجل
حتى في البادية . كانت المرأة في شرائع رومية يومئذ معتبرة متاعاً مملوكاً للرجل
يتصرّف فيه كيف يشاء ، ويمتلك من أمره ما يريد . ويقدر له على الحياة
والموت . كانت تُعامل معاملة الرقيق سواء ، لا فارق بينها وبينه في نظر الشرع
الروماني . كانت مملوكة لأبيها ثم لزوجها ثم لابنها . وكان ملكهم إياها تاماً
كملكهم الرقيق وكملكهم الحيوان والجماد . وكان ينظر إلى المرأة على أنها مثار
الشهوة وعلى أنها لاسلطان لها على أنوثتها الحيوانية . حتى لم يكن بدءاً من اصطناع
نطاق العفة ومن التمسك بذلك قروناً متوالية ، بعد هذا العصر الذي نصف فيه
أحوال جزيرة العرب . ومع أن السيد المسيح عليه السلام كان براً بالنساء
عطوفاً عليهن ، حتى لقد قال حين أظهر بعض رجاله العجب لحسن معاملته
مريم المجدلّية : « من لم يكن منكم ذا خطيئة فليترمها بحجر » ، مع هذا ظلت
أوروبا المسيحية . كما كانت أوروبا الوثنية من قبل ، تزدرى المرأة شرّاً ذرّاً .
ولم تكن تنظر إلى صلاحها بالرجل على أنها صلاحات الذكورة والأنوثة وكفى :
بل على أنها صلة عبودية ورق ومهانة . مما طوع لبعض المتكلمين في عصور
مختلفة أن يتساءلوا : أللرأة روح وأنها ستحاسب ، أم أنها كالحيوان لا روح
لها ولا تعرف عند الله حساباً وليس لها في ملكوت الله متسع .

وكان محمد يقدر بما أوحى اليه أن لاصلاح للجماعة إلا بتعاون الرجل والمرأة ، على أنهما أخوان متضامنان تضامن مودة ورحمة ، وأن للنساء مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة . لكن الأخذ في ذلك بالطرفة لم يكن أمراً ميسوراً . ومهما يكن من إيمان العرب الذين اتبعوه به ، فإن أخذهم باليسير من الأمر وعدم تعريضهم للحرَج ، أدعى إلى مزيد إيمانهم ، أدعى إلى ازدياد أنصاره . وكذلك كان الشأن في كل إصلاح اجتماعي فرضه الله على المسلمين ، بل كذلك كان الشأن في فروض الدين ذاتها ، في الصلاة والصوم والزكاة والحج ، وكذلك كان الشأن في المحرمات كالخمر والميسر ولحم الخنزير وما إليها من مثليها . وقد بدأ محمد في شأن الاصلاح الاجتماعي وتقرير صلات ما بين الرجل والمرأة بالمثل يضربه فيما بينه وبين أزواجه بما كان المسلمون جميعاً يرونه ، أن لم يكن الحجاب قد فرض على نساء النبي إلى ما قبل غزوة الأحزاب ، كما لم يفرض تحديد الزوجات بأربع مع شرط العدل إلى ما بعد غزوة الأحزاب بل إلى ما بعد غزوة خيبر بأكثر من سنة . فكيف يصل النبي إلى توطيد علاقات الرجل والمرأة على أساس صالح ، تمهداً لهذه المساواة التي انتهى الاسلام إليها مساواة تجعل للنساء مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة .

كانت صلات الرجل والمرأة عند المسلمين كما كانت عند سائر العرب على ما وصفنا ، مقصورة على صلات الذكورة والأنوثة . وكان التبرج وإبداء الزينة بصورة تدعو إلى تحرش الرجال بالنساء ، كلها وجدوا الفرصة لذلك ، بعض ما يُدكى عواطف الجنس عند الرجل والمرأة على سواء ، وما يحول لذلك دون التقريب بينهما تقريباً أساسه المعنى الانساني السامي ، وأساسه الاشتراك الروحي في العبودية لله وحده . وقد نشأ عن قيام طوائف اليهود والمنافقين في المدينة وخصوصتهم لمحمد وللمسلمين أن بلغ تحرش هذه الطوائف

بالمسلمات حداً أدى إلى حصار بني قَيْنُقَاع كما رأيت ، وإلى إيصال الأذى بالمسلمات مما كانت تنشأ عنه مشاكل لا ضرورة لها . فلو أن المسلمات لم يُبدن زينتهن أثناء خروجهن لكان ذلك أدنى أن يُعرفن فلا يُؤذَن ، ولو فر ذلك هذه المشاكل . ولكان بدءاً حسناً لهذه المساواة التي يريد الإسلام تحقيقها بين الجنسين ، من غير أن يشعر المسلمون رجالاً ونساءً بانتقال في الفكرة لم يهدوا له . وفي هذا الظرف نزل قوله تعالى من سورة الأحزاب : « وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا كَتَبْنَا فَتَعَدُّوا حَتْمًا مِّمَّا أَنزَلْنَا وَإِنَّمَا مَثَرُ النَّبِيِّ الْقُلُوبُ أَلْيَنَ لِمَ بَنَنَّا لَهُم مَّرْضًا وَالْمَرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَتُذَوِّبَنَّهُمُ الْغَوَاغِي فِيهَا وَإِلَّا قَلِيلًا . مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا شُقِقُوا أُخْدُوا وَوُقِلُوا قَتِيلًا . سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا . »

هذا التمهيد سهل على المسلمين أن يقلعوا عن عادات العرب الأولى . كما أن ما قصد إليه شارع الإسلام من تنظيم الجماعة على أساس الأسرة ، طاهرة من أدران الدخيلة مما جعل الزنا جريمة كبرى ، قد جعل يسيراً على كل مسلم أن يقدر ما في تبرج الأشيء تبدئى به للذكر من عيب ومعرّة ، ما لم تكن صلة ما بين الرجل والمرأة تسمح بهذا التبرج . وذلك قوله تعالى في سورة النور : « قُلِ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ إِذَا طَعَنُوا فِي عُرْوَجِهِمْ مِنْ أُمَّسَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ . وَقُلِ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَحْفَظْنَ مِنْ أُمَّسَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي

وأيضاً عن
إعداد الزينة

إِخْوَانِهِمْ أَوْ نَبِيِّ أَخْوَانِهِمْ أَوْ نِسَائِهِمْ أَوْ مَمْلُوكَاتِكُمْ أَيْمَانُهُمْ أَوْ التَّائِبِينَ
غَيْرِ أَوْلَى الْإِرْبَةِ مِنَ الرَّجَالِ أَوْ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ
النِّسَاءِ، وَلَا يَضْرِبَنَّ بَارِجِلَهُنَّ لِيُعْلَمَ مَا يَخْفَيْنَ مِنْ زِينَتِهِنَّ، وَتَوْبُوا إِلَى
اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

وكذلك عمل الاسلام ، فتدرجت صلة ما بين الرجل والمرأة إلى غير
ما كانت ، فلم تبق صلة ذكورة وأنوثة إلا حيث لا فتنه من مثل هذه الصلة :
فأما في تجارة الحياة وفي علاقات الرجال والنساء جميعاً فالكل سواسية ،
والكل عباد الله ، والكل متضامنون للخير ولتقوى الله . فإذا فرط من أحدهم
أو من إحداهن ما يدرك في النفس معاني الجنس فذلك إثم يجب على من فرط
منه أن يتوب إلى الله إنه هو التواب الرحيم .

لكن ذلك كله لم يكن كافياً لينقل النفس العربية في أعوام قلائل من
اعتباراتها الأولى جميعاً ليغيرها في هذا الشأن كما غيرها في الايمان بالله وعدم
الشرك به نفساً جديدة . وذلك طبعي . فالمادة إذا تكيفت على صورة ما
لم يكن يسيراً أن تحوّلها إلا رويداً رويداً . ومهما تحوّلها فلن تحوّلها إلا قليلاً .
ذلك شأن حياة الانسان المادية . تطبعه العادات المتوارثة ، وتطبعه تقاليد
البيئة في تجارة حياته ، فإذا أريد به أن يتغير فقد وجب أن يتدرج في انتقاله
وتغيره . ثم إنه لن يستطيع هذا التدرج إلا إذا غير ما بنفسه . وقد يستطيع
الانسان أن يغير جانباً من جوانب نفسه بإزالة ما أمامها من حوائل تعوق
تمدها وانتشارها لتمثل الكون كله ، وهذا ما فعل الاسلام بالمسلمين في شأن
توحيد الله والايان به وبرسوله وباليوم الآخر : لكن كثيراً من جوانب
النفس العربية لم تحطم أمامه العوائق ، وخاصة في شؤون الحياة المادية ، فبق
المسلمون فيه قريبين مما كانوا قبل إسلامهم . وكذلك كان شأنهم فيما طبعتهم
عليه حياة الصحراء من تالكثو ، وفيما درجوا عليه من حب التحدث إلى النساء

الحياة الروحية
والحياة المادية

وبرغم ما أسلفنا من تعديل الدين الجديد نظرهم لصِلات ما بين الرجل والمرأة فقد ظلوا فيما سوى ذلك كما كانوا من قبل أو على مقربة منه . وكثيراً ما كان أحدهم يحب أن يدخل الى النبي بيته وأن يمكث عنده وأن يتحدث إليه وأن يتحدث الى نسائه . وقد كانت مهام النبوة العظمى أكبر من أن تدع محمداً يشغل نفسه بحديث هؤلاء الذين يجيئون اليه والذين يتحدثون الى نسائه وما ينقل نسائه إليه من أحاديثهم . لذلك أراد الله أن يخلى نيته من هذه المشاغل الصغرى ، فأُنزل عليه هذه الآيات من سورة الأحزاب :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَاظِرِينَ إِنَاءَهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ . وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ . وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِحُوا زُجُوجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا

وكما نزلت هذه الآيات حديثاً للمؤمنين وإرشاداً لإياهم الى واجبه من إزاء النبي وأزواجه ، فقد نزلت الآيات الآتية من سورة الأحزاب كذلك موجّهة الى أزواج النبي في هذا الشأن نفسه : قال تعالى : « يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَحْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقَلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا . وَقرن في بيوتكنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ، وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا

هذا هو التوسيد الاجتماعي للجماعة الاسلامية . أقام أساسه على تغيير نظرة الرجل والمرأة لما بينهما من صِلات ، وأراد أن يمحو من النفوس تسلط فكرة الجنس واعتبارها وحدها المتغلبة

على كل اعتبار ، وأراد بذلك أن يوجّه الجماعة وجهها الانسانية العليا التي لا تُشكر على الانسان استمتاعه بالحياة استمتاعاً لا يُضعف من حريته في أن يريد ، ومن باب أولى لا يسلبه هذه الحرية في أن يريد . والتي تجعل من الانسان صلة ما بين الكائنات جميعاً ، فترتفع به من مراتب زراعة الأرض ومن الصناعة ، ومن تجارة الحياة أياً كانت . لتصل به إلى مجاورة القديسين والاتصال بالملائكة المقربين . وقد جعل الاسلام من الصوم والصلاة والزكاة وسائل لهذا السمو بما تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، وبما تطهر النفس والقلب من شوائب الخضوع لغير الله ، وبما تقوى من أسباب الاخوة بين المؤمنين ، وبين الانسان وسائر مافي الكون .

هذا التنظيم للحياة الاجتماعية رويداً رويداً ، تمهيداً إلى الانتقال العظيم الذي أعدّه الاسلام له الانسانية . لم يمنع قريشاً والعرب من أن تترقب بمحمد الدوائر ، ولم يمنع محمداً من أن يكون دائم الحذر من ناحية ، سريعاً إلى النشاط لالقاء الرعب في قلوب خصومه من ناحية أخرى . من ذلك أنه بعد ستة أشهر من القضاء على بني قريظة شعر بشيء من الحركة في ناحية مكة ، ففكر في أن ينتقم الحبيب بن عدي وأصحابه ممن قتل بنو لحيان عند ماء الرجيع منذ سنتين خلتا . على أنه لم يجهر بقصده خيفة أن يتخذ العدو الحيطة لنفسه . فأظهر أنه يريد الشام ليصيب من القوم غيرة فأخذ قواته ويمم بها شمالاً . فلما اطمأن إلى أن قريشاً وجيرانها لم يبق منهم من يفتن لمقاصده انفتل راجعاً إلى ناحية مكة وأعدّ السير مسرعاً حتى بلغ منازل بني لحيان بغير أن . لكن قوماً رأوه أول انحداره إلى الجنوب فعرف منهم بنو لحيان قصده إياهم ، فاعتصموا برهوس الجبال هم ومتاعهم . وفات النبي أن يصيبهم : فبعث أبا بكر في مائتي راكب حتى بلغوا عسفان على مقربة من مكة : ثم كر رسول الله

غزوة
بنو لحيان

قافلا إلى المدينة في يوم قانظ بلغ من قيظه حتى كان النبي يقول : « آتبون تائبون إن شاء الله لرَبنا حامدون . أعود بالله من وَعَثَاء السفر وكتابة المُقَلَّب وسوء المنظر في الأهل والمال » .

غزوة
ذي قرد

ولم يكد محمد يقيم بالمدينة ليسالى بعد أوبته إليها حتى أغار عِيْنَة بن حصن على أطرافها . وكان بظاهاها إبل ترعى يحرسها رجل وامرأته . فقتل عِيْنَة وأصحابه الرجل وساقوا الإبل واحتملوا المرأة وانصرفوا يحسبون أنهم من اللحاق بمنجاة . لكن سلمة بن عمرو بن الأكوخ الأسلمي كان قد عدا يريد الغابة متوشحاً قوسه ونبله . فلما مر على ثنية الوداع وأشرف على ناحية من سلع بصر بالقوم قد اقتادوا الإبل واحتملوا المرأة ، فصاح : واصباحاه : وجعل يشتد في آثار القوم حتى إذا اقترب منهم رامهم بالنبل . وهو في أثناء ذلك لا ينفك يصيح . وبلغ محمداً صباح سلمة ، فنادى في أهل المدينة : الفرع الفرع ، فرامى الفرسان إليه من مختلف النواحي . فأمرهم فانطلقوا في أثر القوم ، وجيز هو قواته وسار على رأسها يتبعهم . وكان عِيْنَة ومن معه قد أخذوا السير مسرعين يريدون اللحاق بغطفان نجاة من المسلمين ، لكن فرسان المدينة أدركوا مؤخرتهم واستخلصوا شطر الإبل منهم . ولحق بهم محمد فأعانهم . ونجت المرأة المؤمنة التي كان العرب قد احتملواها . وأراد جماعة من أصحاب النبي أخذت منهم الخمسة مأخذها أن يتأثروا عينة . فردهم رسول الله ، أن علم أن عينة وأصحابه قد أدركوا غطفان واحتموا بهم . ورجع المسلمون إلى المدينة وجاءت امرأة الحارس في آثارهم على ناقة للمسلمين . وكانت المرأة قد نذرت إن أنجتها الناقة لتحننّها قرباناً إلى الله . فلما أخبرت النبي بنذرها قال : بئس ماجزيتها أن حملك الله عليها ونجّاك بها ثم تنحرينها . إنه لا نذر في معصية الله ولا فيما لا يملكين .

وأقام محمد بالمدينة بعد ذلك قرابة الشهرين . ثم كانت غزوة

غزوة
بنى المصطلق

بنى المصطلق بالمرّيسيع ، هذه الغزاة التي يقف عندها كل كاتب وكل مؤرخ
سيرة النبي العربي لا لأنها غزاة ذات قيمة ، أو لأن المسلمين أو عدوهم
أبلوا فيها بلاء خارقاً للعادة ، بل لأن الشقاق كاد يفشو بعدها في صفوف
المسلمين فحسمه الرسول بأحسن ما يكون عزيمة وحزماً ، ولأن من أثرها
أن تزوج الرسول من جويرية بنت الحارث ، ولأن هذه الغزوة أثمرت
حديث الافك عن عائشة حديثاً كان موقفها منه ، وهي لما نزل في السادسة
عشرة ، موقف إيمان وقوة تحطمت على جنباتهما كل القوى وعنت لجلالهما
كل الوجوه .

فقد بلغ محمداً أن بنى المصطلق ، وهم فرع من خزاعة ، يجمعون له في
حيثهم على مقربة من مكة ، وأنهم يحرّضون عليه يريدون قتله وعلى رأسهم
قائدهم الحارث بن أبي ضرار . ووقف محمد من أحد البدو على سرّ جمعهم
فأسرع في الخروج ليأخذهم على غرة ، كعادته في أخذ أعدائه ، وجعل لواء
المهاجرين لأبي بكر ولواء الأنصار لسعد بن عبادة . ونزل المسلمون على ماء
قريب من بنى المصطلق يقال له المرّيسيع . ثم أحاطوا ببني المصطلق ففر من
جاءوا نصرتهم . قتل من بنى المصطلق عشرة ولم يقتل من المسلمين إلا رجل
يقال له هشام بن صُبابة أصابه رجل من الأنصار وهو يحسبه خطأ من العدو .
ولم يجد بنو المصطلق بعد قليل من التراشق بالنبال مفراً من التسليم تحت
ضغط المسلمين القوي السريع ، فأخذوا أسرى هم ونساؤهم وإبلهم وماشيئهم .
وكان لعمر بن الخطاب في الجيش أجير يقود فرسه . فازدحم بعد انتهاء

ثمة عبد الله
ابن أبي

الموقعة مع أحد رجال الخزرج على الماء ، فاقتلوا فصايحاً ، يقول الخزرجي :
بامعشر الأنصار ، ويقول أجير عمر : يا معشر المهاجرين . وسمع عبد الله
ابن أبي النداء ، وكان قد خرج مع المنافقين في هذه الغزاة ابتغاء الغنيمة ، فثار
ما في نفسه على المهاجرين وعلى محمد من حفيفة ، وقال لجلسائه : لقد كثرنا

المهاجرون في ديارنا . والله ما أعدنا وإياهم إلا كما قال الأول : سَمَنَ كَلْبِكَ
يَأْكُلُكَ . أمّا والله لئن رجعنا إلى المدينة لَنُيَخْرِجَنَّ الْأَعْرَضُ مِنْهَا الْأَدْلَ . ثم قال
لمن حضر من قومه : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتوهم
أموالكم . أمّا والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم . ومشي
بعديته هذا ماشى إلى رسول الله بعد فراغه من عدوة ، وكان عنده عمر بن
الخطاب ، فهاج عمر لما سمع وقال : مرُّ به بلائاً فماتته . هنا ظهر النبي كدأبه
مظهر القائد المحنك والحكيم البعيد النظر . إذ التفت إلى عمر وقال : فكيف
يا عمر إذا تحدثت الناس وقالوا إن محمداً يقتل أصحابه ! .

لكنه قدر في نفس الوقت أنه إن لم يتخذ خطة حازمة فقد يستفحل
الأمر . لذلك أمر أن يؤذّن في الناس بالرحيل في ساعة لم يكن يرتحل المسلمون
فيها . وتراعى إلى ابن أبي ما بلغ النبي عنه ، فأسرع إلى حضرته ينفي ما نسب
إليه . ويخلف بالله ما قاله ولا تكلم به . ولم يغيّر ذلك من قرار محمد الرحيل
شيئاً . بل انطلق بالناس صيلة يومهم حتى أمسى ، وطيلة ليلتهم حتى أصبح ،
وصدّرَ يومهم الثاني حتى آذنتهم الشمس . فلما نزل الناس لم تلبث جنوبهم
أن مستت الأرض حتى وقعوا من فرط تعبهم نياماً . وأسى التعب الناس
حديث ابن أبي . وعادوا بعد ذلك إلى المدينة ومعهم ما حملوا من غنائم
بنى المصطلق وأسراهم وسبيهم . ومعهم جويرية بنت الخارث قائد الحزب
المخزيم وزعيجه .

بلغ المسلمون المدينة وأقام ابن أبي بها ولا تبدأ له نفس حسداً لمحمد
والمسلمين . وإن تظاهر بالاسلام بل بالايمان . وإن أصر على إنكار ما نقل
عنه لرسول الله عند ما امر يسيع . أثناء ذلك نزلت سورة المنافقين وفيها قوله
تعالى : هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى
يَنْفَضُوا : وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَقْفَهُونَ .

حسداً
على النبي

يَقُولُونَ لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرَابُ مِنْهَا الْأَذَلَّ، وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ
وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ، وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ . هـ . هنالك حسب
قوم أن هذه الآيات قضاء على ابن أبي ، وأن محمداً لا ريب أمر بقتله . فذهب
عبد الله بن عبد الله بن أبي ، وكان مسلماً حسن الإسلام ، فقال : يا رسول الله ،
إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه . فإن كنت فاعلاً
فمرفى به فأنا أحمل إليك رأسه . فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من
رجل أبرّ بوالده مني . وإني لأخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي
أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس فأقتله فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر فأدخل
النار . كذلك قال عبد الله بن عبد الله بن أبي لمحمد . وما أحسب عبارة
أبلغ من عبارته على إيجازها في قوة التعبير عن حالة نفسية تضطرب فيها
أقوى العوامل في النفس أثراً : تضطرب فيها عوامل البر بالأب وصدق
الايان والنخوة العربية والحرص على سكينه المسلمين حتى لا تتواتر التارات
بينهم ! فهذا ابن يرى أباه سيقتل فلا يطلب إلى النبي ألا يقتله ، لأنه يؤمن بأن
النبي إنما يصدع بأمر ربه . ويؤمن بكفر أبيه . وهو ، من خيفة ما يقتضيه البر
بأبيه وما تقتضيه الكرامة والنخوة أن يثار له من قتله . يريد أن يحمل على نفسه
وأن يقتل هو أباه وأن يحمل بنفسه إلى النبي رأسه وإن تقطع لذلك قلبه
وإن قرى ذلك كبده ! . وهو يجد في إيمانه بعض العزاء عن هذا الشطط الذي
يكلف نفسه مخافة أن يدخل النار إن هو قتل المؤمن الذي يأمر النبي بقتل
أبيه . أي جلاذ بين الايمان والعاطفة والخلق أشد من هذا الجلاذ ! وأية
مأساة نفسية أفنك بصاحبها من هذه المأساة ! أتدري بم أجاب النبي عبد الله
بعد أن سمع قوله ؟ قال له : إنا لا نقتله بل نترفق به ونحسن صحبته ما بق معنا .
يا أروعة العفو وجلاله ! محمد يترفق بهذا الذي يؤتب أهل المدينة عليه وعلى
أصحابه فيكون رفقه ويكون عفوهم أبعد أثراً من عقوبته لو أنه أنزلها . فقد

مأساة نفسية
بالعفة

عفو النبي
عن ابن أبي

كان عبد الله بن أبيّ بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه يعاتبونه ويعتفونه ويشعرونه أن حياته بعض هبات محمد إياه . وتذاكر النبي مع عمر يوماً شؤون المسلمين ، وجاء ذكر ابن أبيّ وما يعاتبه قومه وما يعتفونه ، فقال محمد : كيف ترى يا عمر ! أما والله لو قتلته يوم قلت لي اقتله لأرعدت له أنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته . قال عمر : قد والله علمتُ لأمرُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم بركة من أمرى .

حدث ذلك كله بعد أن عاد المسلمون إلى المدينة ومعهم ما معهم من السبي والغنائم . على أن أمراً حدث لم يترك باديء الرأي أثراً ، ثم كان له بعد ذلك حديث طويل . ذلك أن النبي كان إذا غزا ، أقرع بين نسائه فأيهن خرج سهمها خرج بها معه . وخرج سهم عائشة عشية غزاة بني المصطلق فخرج بها . وكانت عائشة نحيفة خفيفة ، فكانوا إذا جاءوا بالهودج إلى بابها خرجت إليه فأخذ الرجال به فشده إلى ظهر البعير وهم لا يكادون يشعرون بها فيه لحفة زنتها . ولما فرغ النبي من سفره وسار ومن معه مسيرتهم الطويلة المضنية التي ذكرنا ، اتجه بعد ذلك إلى المدينة . حتى إذا كان قريباً منها نزل منزلاً بات به بعض الليل ثم أذن في الناس بالرحيل . وكانت عائشة قد خرجت من خيمة النبي لبعض حاجتها والهودج موضوع أمام الخيمة في انتظار دخولها فيه . وكان لعائشة عقد أنسل من عنقه وهي في بعض حاجتها ، فلما قامت عائدة إلى الرجل التمس العقد فلم تجده فرجعت أدراجها تبحث عنه . ووجدته ورجعت إلى المعسكر لتستقل هودجها ، فاذا القوم قد شدوه إلى ظهر البعير وهم يحسبونها فيه ، وإذا هم قد ارتحلوا يحسبون أنهم حملوا معهم أشد أمهات المؤمنين حظوة عند النبي . ولم تجد هي في المعسكر داعياً ولا مجيباً . فلم يساورها الخوف وأيقنت أن القوم إذا افتقدوها فلم يجدوها رجعوا إليها ؛ فخير لها أن تبقى مكانها من أن تضرب في الصحراء على غير هدى فضل السبيل . لم يساورها الخوف

عائشة مع النبي
في يوم المصطلق

سحفت
عز الركب
ملا بحسب

فالتفت في جلبابها واضطجعت مكانها منتظرة عودة الباحث عنها . وإنما لني ضجعتها إذ مر بها صفوان بن المعطل السلمي وكان قد تخلف عن العسكر لبعض حاجته ، وكان يراها قبل أن يضرب الحجاب على نساء النبي . فلما بصُر بها على هذه الحال تراجع دهشاً وقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ! ظعينة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ما خلفك رحمك الله ؟ . فلم تجبه ، فقرب هو لها البعير واستأخر عنه وقال : اركبي ؛ فركبت ، وانطلق بالبعير سريعاً يطلب الناس فلم يدر بهم أن كانوا يُعجلون سيرهم يريدون المدينة ليستريحوا بها من عناء السير الذي أمر به رسول الله إطفاءً للفتنة التي كادت تقوم بسبب حديث ابن أبي : ودخل صفوان المدينة في وضح النهار بأعين الناس وعائشة على ظهر بعيره ، حتى إذا كانت عند منزلها من بين منازل نسوة الرسول نزلت فدلقت إليه ، ولا يجوز بخاطر أحد أن يحدث في أمرها قولاً أو شيئاً حول تأخرها عن الركب شبهة ، ولا يدور بخاطر الرسول ظنة سوء في ابنة أبي بكر أو في صفوان المؤمن الحسن الايمان .

عودها إلى
المدينة مع
صفوان

وما كان لحديث أن يدور وها هي ذى تدخل بأعين الناس المدينة في أعقاب العسكر الذين جاءوا لم يمتض بين مجيئهم ومجيئها وقت يحمل على ظنة أو يبعث إلى نفس ربية ، وها هي ذى تدخل بأعين الناس صافية الجبين مشرقة الوجه ، ليس في شيء من مظهرها ما يُريب . فلتجر إذا شؤون المدينة كما هي ، وليقتسم المسلمون الأسلاب والغنائم والسبايا مما أسروا من بني المصطلق ، ولينعموا بهذه الحياة الرخية التي تزداد على الأيام رخاء كلما زادهم إيمانهم على عدوهم عزاً ، وكلما أظفرتهم به عزيمتهم الصادقة واستماتتهم بالموت في سبيل الله وفي سبيل دينه وفي سبيل حرية العقيدة ، حرية كان العرب من قبل يابونها عليهم .

وكانت جُوَيْرِيَةَ بنت الحارث من سبايا بني المصطلق ، وكانت امرأة

فأما عبد الله بن أبيٍّ فوجد في هذا الحديث مرعىً خصيباً لشفاء ما في نفسه من غلٍّ ، وجعل يذيعه جهد طاقته . لكن جماعة الأوس وقفوا موقف الدفاع عن عائشة وقد كانت مضرب المثل في الطهر وسُمُو النفس . وكاد الحديث يؤدي إلى فتنة في المدينة . وبلغت هذه الأخبار محمداً فاضطرب لها . ماذا ؟ عائشة هذه تخونه ! هذا مستحيل . إنها الألفة والاباء : وإن لها من حبه إياها وشدّة عطفه عليها ما يجعل مجرد ظن كهذا إثمًا دونه كل إثم . نعم ! .. ولكن أف للنساء ! من ذا يستطيع أن يسبر غورهن وأن يصل إلى قرارة ما في نفوسهن . وعائشة بعد طفلة يافعة الشباب . وأى شيء هذا العقد الذي فقدت فذهبت تلتسمه جوف الليل ؟ وما بالها لم تُحدث له وهم ما يزالون في المعسكر من أمره ذكراً ؟ ! وتقلب النبي على أشواق الحيرة ، ما يدري أيصدق أم يكذب .

حيرة

مريض

أما عائشة فلم يجرؤ أحد على أن يبلغها من كل هذا الذي يقول الناس شيئاً ، وإن أنكرت من زوجها جفاء لم تعرفه منه ، ولا يتفق في شيء مع لطفه بها وحبه إياها . ثم إنها مرضت من بعد ذلك مرضاً شديداً . فكان إذا دخل عليها وأمها تمرّضها لم يزد على قوله : كيف تيكم ؟ ! ووجدت عائشة في نفسها لما رأت من جفاء النبي إياها ، وجعلت تحدث نفسها : ألا تكون جؤنرية قد حلت من قلبه محلها ! . وبلغ من ضيق ذرعها بجفاء محمد إياها أن قالت له يوماً : لو أذنت لي فانتقلت إلى أمي فرضتني ! . وانتقلت إلى أمها وفي نفسها من الدهشة لهذا التفريط في أمرها ما آذاها وآلمها . وظلت في مرضها بضعة وعشرين يوماً حتى نفثت . وهي لا تعرف من كل ما يدور حول اسمها من حديث شيئاً . أما محمد فقد بلغ من تأذيه بتراخي هذه الأخبار إليه أن قام يوماً في الناس يخطبهم فقال : « أيها الناس . ما بال رجال يؤذونني في أهلي ويقولون عليهم غير الحق ! . والله ما علمت منهم إلا خيراً . ويقولون ذلك لرجل والله

تأذي الرسول
من حديث
الناس

ما علمت منه إلا خيراً ، وما يدخل بيتاً من بيوتى إلا معي . فقام أسيد بن
 حُصَير فقال : يا رسول الله إن يكونوا من إخواننا الأوس تكفِكهم ، وإن
 يكونوا من إخواننا الخزرج فرنا بأمرك ، فوالله إنهم لأهل أن تضرب
 أعناقهم . وردَّ عليه سعد بن عبادَة بأنه إنما تقدّم بهذه المقالة لأنه يعرف أنهم
 من الخزرج ولو كانوا من الأوس ما قالها . وتناور الناس وكادت تقوم الفتنة
 لولا حكمة الرسول وحسن مُداخلته .

وانتهى الخبر آخر الأمر إلى عائشة ، حدّثها به امرأة من المهاجرين .
 فلما عرفته كاد يُغتشى عليها من هولها ، وانطلقت تبكي لا يحبس دمعها حابس
 حتى شعرت كأن كبدها تنصدع . وذهبت إلى أمها وقد أثقل الهمُّ كاهلها حتى
 كاد ينوء بها ، وقالت لها والعبرة تخنقها : يغفر الله لك يا أمّاء ! . تحدّث
 الناس بما تحدّثوا به ولا تذكرين لي من ذلك شيئاً ! . ورأت أمها الهمّ الذي
 بها ، فحاولت تخفيف أثره في نفسها فقالت : أي بُنيّة ، خفّي عليك الشأن .
 فوالله لقلّما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا كثرن وكثر
 الناس عليها . ولكن عائشة لم تتمعّر بهذا القول ، وزادها ألماً أن ذكرت جفاء
 النبي إياها بعد الذي كان من لطفه بها ، وأن شعرت بأنه قد وقع في نفسه من
 هذا الحديث أثر وقامت بنفسه منه ريبة . لكن ماذا عساها تستطيع أن
 تفعل ؟ ! أفتاحه القول وتذكر له الخبر وتُقسم له أنها بريئة ؟ ! هي إذاً تتهم
 نفسها ثم تدفع التهمة بالإيمان والتوسلات . أفترض عنه كما أعرض عنها
 وتجفوه كما جفاها ؟ . لكنه رسول الله وهو قد اصطفاها على نساءه ، وليس
 من ذنبه أن تحدّث الناس عنها بسبب تأخرها عن العسكر وعودها مع
 صفوان . رباها ! . ألهمها في هذا الموقف الدقيق مخرجا يتضح لمحمد معه الحق
 في أمرها ليعود إلى مثل ما كان من حبها والعطف عليها واللفظ بها .
 ولم يكن محمد خيراً منها مكاناً : فقد آذاه ما يتحدّث به الناس حتى اضطر

الخبر
 يبلغ عائشة

ما بينها أمها

حزينها

محمد يشاور
أسامة وعن

آخر الأمر إلى أن يتشاور مع خالصائه ماذا يصنع . فذهب إلى بيت أبي بكر ودعا إليه علياً وأسامة بن زيد فاستشارهما . فأما أسامة فنبى كل ما نسب إلى عائشة على أنه الكذب والباطل ، وأن الناس لا يعرفون كما لا يعرف النبي عنها إلا خيراً . وأما عليّ فقال : يا رسول الله ، إن النساء لكثير . ثم أشار باستجواب جارية عائشة لعلها تصدّقه . ودُعيت الجارية وقام لها عليّ فضربها ضرباً موجعاً وهو يقول : أصدقتى رسول الله ، والجارية تقول : والله ما أعلم إلا خيراً ، وتنبى عن عائشة قالة السوء . أخيراً لم يبق أمام محمد إلا أن يواجهه زوجها وأن يطلب إليها أن تعترف . ودخل عليها وعندها أبواها وعندها امرأة من الأنصار ، وهي تبكى والمرأة تبكى معها وقد هوى الأسى بنفسها إلى أعماق قرارات الحزن من هول ما ترى من ريبة محمد بهما : من ريبة هذا الرجل الذي تحب وتقدّس ، والذي به تؤمن وفيه تفتى . فلما رأته كفكفت دمعها وسمعت إليه وهو يقول : يا عائشة ، إنه قد كان ما بلغك من قول الناس فاتقى الله ، وإن كنت قد قارفت سويماً مما يقولون فتوبى إلى الله فإن الله يقبل التوبة عن عباده . فما إن أتم حديثه حتى نثر في عروقها دمها وجفت من عينها دمعها وتلفتت إلى ناحية أمها وإلى ناحية أبيها تنظر به يحيان . لكنهما سكتا فلم ينسبا بكلمة . فازدادت ثورة نفسها وصاحت بهما : ألا تجيبان ! قالا : والله ما ندرى به نجيب ، وعادا إلى وجومهما . هنالك لم تملك نفسها دون التشييع بالبكاء : وساعفتها دموعها لتهدى من الثورة المضطربة بين ضلوعها تكاد تُحرقها . ثم وجهت الكلام إلى النبي وهي تبكى فقالت : والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبداً ! . والله إنى لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس والله يعلم أنى بريئة لأقولن ما لم يكن . ولئن أنا أنكرت لا تصدّقونى . ثم سكتت برهة وعادت تقول : إنما أقول كما قال أبو يوسف : « صَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَيَّ مَا تَصِفُونَ » .

مواجهه محمد
عائشة

عائشة

فترة سكوت تلت هذه الثورة لم يعرف حاضرها طالت أو قصرت .
 على أن محمداً لم يبرح مجلسه حتى تغشاه من نزول الوحي ما كان يتغشاه ،
 فسجى ثوبه ووضع وسادة من آدم تحت رأسه . قالت عائشة : أما أنا
 فوالله ما فزعنت ولا باليت حين رأيت من ذلك ما رأيت . قد عرفت أني
 بريئة وأن الله غير ظلمي . وأما أبواي فما سئرى عن رسول الله صلى الله
 عليه وسلم حتى ظننت لتخرجن أنفسها قرآناً من أن يأتي من الله تحقيق ما قال
 الناس . فلما سئرى عن محمد جلس يتصبب عرقاً ، فجعل يمسحه عن جبينه
 ويقول : أشرى يا عائشة : قد أنزل الله براءتك . قالت عائشة : الحمد لله . وخرج
 محمد إلى المسجد فألقى على المسلمين هذه الآيات التي نزلت من سورة النور :
 « إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ
 خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ
 مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ » إلى قوله تعالى : « وَكُلُوا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ فَلْتُمْ
 مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ . هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ .
 يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . وَبَيَّنَّ اللَّهُ
 لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ
 فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
 وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . . وفي هذا الطرف كذلك نزلت عقوبة رمى المحصنات :
 « وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ
 ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ . .
 وتفيداً لحكم القرآن أمر بمسطح بن أثاثة وحصان بن ثابت وحصنة بنت
 جحش وكانوا ممن أفصح بالفاحشة فضرب كل منهم ثمانين جلدة . وعادت
 عائشة إلى مثل مكانها الأول من بيت محمد ومن قلبه . يقول السير ولئيم
 موير تعليقا على هذا الحادث ما ترجمته : « إن حياة عائشة قبل هذا

الوحي براءه
عائشة

رمى المحصنات
وتفديد حكمه
في رماة عائشة

الحادث وبعده تدعوننا إلى القطع ببراءتها وعدم التردد في دحض أية شبهة أثبتت حولها .

وقد استطاع حسان بن ثابت من بعد أن يعود إلى رضا محمد وعطفه عليه ، كما طلب محمد إلى أبي بكر ألا يحرم مستظحاً عطفه الذي عوّده إتياءه . وكذلك انقضى هذا الحادث ولم يبق له في المدينة كلمها من أثر . وأسرعت النقاهاة إلى عائشة وعادت إلى دارها من مساكن الرسول وإلى مكاتها من قلبه وإلى مركزها الرفيع من نفوس أصحابه المسلمين جميعاً . وبذلك فرغ النبي إلى رسالته وإلى سياسة المسلمين استعداداً لعهد الحديبية يفتح به الله على المسلمين فتحاً ميبناً .

الفصل العِشْرُونَ

عهد الحديبية

بعده ست سنوات بالمدينة — دعوة محمد الناس للحج — لا قتال
ولا حرب — قريش تقرر الحيلولة بين المسلمين ودخول مكة .
مفاوضات الصلح — أناة محمد وسياسته — عهد الحديبية فتح مبين .

انقضت ست سنوات منذ هجرة النبي وأصحابه من مكة إلى المدينة ،
وهم فيما رأيت من جهاد مستمر وغزو متصل بينهم وبين قريش تارة و بينهم
وبين اليهود أخرى . والاسلام أثناء ذلك يزداد انتشاراً ويزداد قوة ومنعة .
ومنذ السنة الأولى من الهجرة عدل محمد بقبلته عن المسجد الأقصى إلى المسجد
الحرام . وجعل المسلمون وجهتهم بيت الله الذي بنى إبراهيم بمكة ، والذي تجدد
بناؤه بعد ذلك حين رفع محمد حجره الأسود إلى مكانه من جداره وهو ما يزال
في فتوة الشباب ، وقبل أن يرد بخاطره أو بخاطر أحد من الناس ما سئلق الله
عليه من رسالة .

وكان هذا المسجد الحرام إلى مئات من السنين خلعت وجهة العرب في
عبادتهم يحجون إليه كل عام في الأشهر الحرم ، فمن دخله أثناءها كان آمناً ؛
فاذا انتفى المرء بأشد الناس له عداوة لم يستطع عنده أن يجرّد سيفاً أو يسفك
دماً . لكن قريشاً آلت على نفسها منذ هاجر محمد والمسلمون معه أن يصدّوهم
عن المسجد الحرام ، وأن يحولوا بينهم وبينه دون سائر العرب . وفي ذلك نزل
قوله تعالى منذ السنة الأولى للهجرة : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ
فِيهِ : قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ ، وَالْمَسْجِدِ

صد المسلمين
عن المسجد
الحرام

الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ . ونزل كذلك قوله تعالى من بعد غزوة بدر في سورة الأنفال : « وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ . إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ . » وفي هذه السنوات الست نزلت الآيات كثيرة متتابعة في هذا المسجد الحرام الذي جعله الله متابة للناس وأمثال . لكن قريشاً كانت ترى محمداً والذين معه كفروا بأهله هذا البيت هبلً واللات والعزى وسائر الأصنام معها . وكانت لذلك ترى حربهم وحرمانهم من الحج إلى الكعبة ، حتى يثوبوا إلى آلهة آبائهم . وواجباً عليها .

عن ابن عباس
في مكة

والمسلمون في أثناء ذلك يذوقون ألم الحرمان من أداء هذا الواجب الديني المفروض عليهم كما كان مفروضاً من قبل على آبائهم . والمهاجرون منهم يذوقون إلى جانب ذلك هما واصباً وألماً لذاتاً : ألم النفي وهم الحرمان من الوطن ومن أهلهم فيه . وهؤلاء وأولئك كانوا في نفوسهم بنصر الله رسوله ونصره إياهم وإعلاء دينهم على الدين كله ، يؤمنون بأن يوماً قريباً لا بد آت يفتح الله لهم فيه أبواب مكة ليظوفوا بالبيت العتيق ، وليؤدوا فريضة فرضها الله على الناس جميعاً . وإذا كانت السنة تمر تلو السنة فتساجل الغزوة الغزوة وتكون بدر ثم أحد ثم الخندق ثم ما بين هذه الغزوات وما بعدها ، فإن هذا اليوم الذي يؤمنون به لا ريب آت . وما أشدهم لهذا اليوم شوقاً ! وما أشد ما يشاركهم محمد في شوقهم وما يؤكد لهم أن هذا اليوم آت عما قريب .

العرب
والكعبة

والحق أن قريشاً ظلموا محمداً وأصحابه بمنعهم من زيارة الكعبة وأداء فرائض الحج والعمرة . فلم يكن هذا البيت العتيق ملكاً لقريش ، ولكنه كان

ملكاً للعرب جميعاً . وإنما كانت في قريش سدانة الكعبة وسقاية الحاج وما إلى ذلك من العناية بالبيت ورعاية زائريه . ولم يكن اتجاه قبيلة بعبادتها إلى صنم دون آخر ليبيح لقريش منعها من زيارة الكعبة والطواف بها والقيام بما تفرضه عبادة هذا الصنم من طقوس . فإذا جاء محمد ليدعو الناس إلى نبذ عبادة الأصنام ، وإلى التطهر من رجس الوثنية والشرك ، والسمو بالنفس إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، والارتفاع في سبيل ذلك فوق كل نقص . والارتفاع بالروح إلى حيث يستطيع إدراك وحدة الوجود والتوحيد بالله . وكان من فرائض ذلك حج البيت والعمرة . فمن العدوان منع أصحاب هذا الدين الجديد من أداء هذه الفريضة . لكن قريشاً خافت إن جاء محمد ومن حوله المؤمنون بالله وبرسالته . وهم من صميم أهل مكة . أن يتعلق سواد المكين بهم وأن يشعروا بما في بقائهم بعيدين عن أهلهم وأبنائهم من ظلم . فتكون هذه نواة حرب أهلية . ثم إن رؤساء قريش وأكابر أهل مكة لم ينسوا محمد والذين معه ما حطموا تجارتهم وحالوا بينهم وبين طريقهم المعبدة إلى الشام ، وما أثاروا بذلك في نفوسهم من حقد وبغضاء لن يخفف منها أن البيت لله وللعرب جميعاً . وأنهم لا يملكون من أمره إلا العناية به ورعاية زائريه . انقضت ست سنوات منذ الهجرة والمسلمون يتحرقون شوقاً يريدون زيارة الكعبة ويريدون الحج والعمرة . وإنهم مجتمعون بالمسجد ذات صباح إذ أنبأهم النبي بما ألهم في رؤياه الصادقة : ذلك أنهم سيدخلون المسجد الحرام إن شاء الله آمنين مخلقين رهوسهم ومُقَصَّرِينَ لا يخافون . فما كاد القوم يسمعون إلى رؤيا رسول الله حتى علا بحمد الله صوتهم . وحتى انتقل نبأ هذه الرؤيا إلى سائر أنحاء المدينة في سرعة البرق الخاطف . واكن كيف يدخلون المسجد الحرام ؟ أفيحاربون في سبيله ؟ أفيجلبون قريشاً عنه عنوة ؟ أم ترى تفتح قريش لهم طريقه مذعنة صاغرة ؟ !

نسب
والكعبة

أذن محمد
في الناس
الحج

كلا! لا قتال ولا حرب. بل أذن محمد في الناس بالحج في شهر
ذي القعدة الحرام. وأوفد رسله إلى القبائل من غير المسلمين يدعوهم إلى
الاشتراك وإيابه في الخروج إلى بيت الله آمنين غير مقاتلين. وحرص محمد
في نفس الوقت على أن يكون معه من المسلمين أكبر عدد مستطاع. وحكمته
في ذلك أن تعلم العرب كلها أنه خرج في الشهر الحرام حاجاً ولم يخرج غازياً،
وأنه أراد أداء فريضة فرضها الإسلام كما فرضها أديان العرب من قبل :
وأنه أشرك العرب معه ممن ليسوا على دينه في أداء هذه الفريضة. فان
أصرت قريش مع ذلك على مقاتلته في الشهر الحرام ومنعه من أداء ما يؤمن
العرب على اختلاف آلهتهم به، لم تجد قريش من العرب من يؤيدها في موقفها
ومن يعينها على قتال المسلمين، وكانت يامعائها في الصد عن المسجد الحرام
تصرف الناس عن دين إسماعيل وعن منة أبيهم إبراهيم، فأمن المسلمون بذلك
أن تجتمع العرب عليهم اجتماع الأحزاب من قبل. وكان لدينهم بذلك
ما يزيد شأنه، عند العرب الذين لا يؤمنون به، رفعة على رفعتهم. وما عسى أن
تقول قريش لقوم جاءوا محرمين. لا سلاح معهم إلا سيوفهم في غمودها،
يتقدمهم الهدى الذي ينحرون. ولا هبة لهم إلا أن يؤدوا بتطواف البيت
فريضة تؤديها العرب جميعاً؟!

سنة
المسلمين بالحج

أذن محمد في الناس بالحج، وطلب إلى القبائل من غير المسلمين الخروج
معه. فأبطأ عليه كثير من الأعراب. وخرج في أول ذي القعدة أحد الأشهر
الحرم بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب، يتقدمهم
على ناقته القصوى، فكانت عدة الذين خرجوا ألفاً وأربعمائة. وساق محمد
معه الهدى سبعين بدنة، وأحرم بالعمرة ليعلم الناس أنه لا يريد قتالاً،
وأنه إنما خرج زائراً بيت الله الحرام معظماً له. فلما بلغ ذا الحليفة عقص
الناس الرموس ولبوا بالحج وعزلوا الهدى ومازوا جوانبها النبي. ومن

بينها بعير أبي جهل الذي أخذوا بيد . ولم يحمل أحد من هذا الحجاج سلاحاً
إلا ما يحمل المسافر من سيف مُعَمَّد . وكانت أم سلمة زوج النبي معه
في هذه الرحلة .

وبلغ قريشاً أمر محمد ومن معه وأنها يسرون قبليهم حاجين ،
فامتلات نفس قريش بالخوف وجعلوا يُقَلِّبون هذا الأمر على وجوهه .
بحسبونه حيلة أراد محمد أن يحتال بها على دخول مكة بعد أن صدّهم
والأحزاب معهم عن دخول المدينة . ولم يثبهم ما علموا من إحرام خصومهم
بالعمرة وإذاعتهم في أنحاء الجزيرة كلها أنهم لا تحركهم إلا العاطفة الدينية
لقضاء فرض يُقرّه العرب جميعاً ، عن أن يقرروا الحيلولة دون محمد ودخول
مكة ، بالغاً ما بلغ الثمن الذي يدفعونه لتنفيذ قرارهم هذا . لذلك عقدوا لخالد
ابن الوليد وعكرمة بن أبي جهل على جيش يبلغ عدد فرسانه وخدم مائتين .
وتقدّم هذا الجيش حتى يحول بين محمد وأم القرى ، وبلغ من تقدمه أن
عسكر بذي طوى .

أما محمد فابع مسيرته . حتى إذا كان بعسفان لقيه رجل من بني كعب
ساله النبي عما قد يكون لديه من أخبار قريش ، فكان جوابه : « قد سمعتُ
بمسيرتك فخرجوا وقد لبسوا جلود النمر ونزلوا بذي طوى يعاهدون الله
لا تدخلها عليهم أبداً . وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموها إلى كراع
الغميم » . قال محمد : « يا ويح قريش لقد أهلكتهم الحرب : ماذا عليهم لو خلّوا
بني وبين سائر العرب ، فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا ، وإن أظهرني
الله عليهم دخلوا في الإسلام وأقرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ! فما تظن
قريش ! فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تفرد
هذه السالفة » . ثم وقف يفكر ماذا عساه يصنع . إنه لم يخرج من المدينة
غازياً وإنما خرج محرماً يريد بيت الله يؤدي عنده إلى الله فرضه ، وهو لم

فرس راجح
لمسكين

مكتوب
الكتاب

يتخذ للحرب عُدَّتْها ؛ فلعلمه إن حارب فلم ينتصر جعلت قريش من ذلك موضع فخارها ، بل لعلها إنما أوفدت ابن الوليد وعكرمة قصد إدراك هذه البغية حين علمت أنه لم يخرج مقاتلاً .

وفيما كان محمد يفكر كانت فرسان مكة تبدو على مرمى النظر ، يدل مرآها على أنه لا سبيل للمسلمين إلى درك غايتهم إلا أن يقتحموا هذه الصفوف اقتحاماً ، وأن تدور معركة تقف فيها قريش مدافعة عن كرامتها وعن شرفها وعن وطنها ؛ معركة لم يردها محمد وإنما حملته قريش عليها حملاً وألزمته خوض غمارها إلزاماً . إن المسلمين ممن معه لا تنقصهم الحمية ، وقد تكفهم سيوفهم إذا جرّدت من غمودها لدفع عدوان المعتدى ؛ لكنه يفوت بذلك قصده ، وقد يجعل لقريش عند العرب حجة عليه . وهو أبعد من هذا نظراً وأكثر حنكة وأدق سياسة . إذا . . . نادى في الناس قائلاً : مَنْ رجلٌ يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها ؟ وكذلك ظل مستقراً رأيه على سلوك سياسة السلم التي رسم منذ خرج من المدينة . ومنذ اعتزم الذهاب إلى مكة حاجاً . وخرج رجل يسلك بهم طريقاً وعرّاً بين شعاب مضيئة وجد المسلمون في سلوكها مشقة أي مشقة . حتى أفضت بهم إلى سهل عند مُنْقَطَعِ الوادي سلكو فيه ذات اليمين حتى خرجوا على نَيْبَةِ المُرَّارِ مهبط الحُدَيْبِيَّةِ من أسفل مكة . فلما رأَت خيل قريش ما صنع محمد وأصحابه ، ركضوا راجعين أدراجهم ليقفوا مدافعين عن مكة إذا دهمها المسلمون . ولما بلغ المسلمون الحُدَيْبِيَّةَ بركت القُصُوصَى (ناقة النبي) وظن المسلمون أنها جهّدت . قال رسول الله : « إنما حبسها حابس الفيل عن مكة . لا تدعوني قريش اليوم إلى خُطَّةٍ يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها . » ثم دعا الناس إلى النزول ؛ فقالوا له : يا رسول الله ، ما بالوادي ماء نزل عليه . فأخرج هو سهماً من كنانته فأعطاه رجلاً نزل به إلى بئر من الآبار المشورة في تلك الأنحاء ففرزه في

حرص محمد
على السلم

الرمال من قاع البئر فحش الماء ، فاطمأن الناس ونزلوا .

نزلوا ، ولكن قريشاً بمكة لهم بالمرصاد . وهي تؤثر الموت على أن يدخل محمد عليهم إيتاداً . فهل يُعذون لقريش عُدّة النزال فيحاربوها حتى يحكم الله بينهم وبينها وحتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً ؟! في هذا فكر بعضهم ، وفي احتماله فكرت قريش . وهو إذا كان وانتصر المسلمون فقد قضى على قريش عند العرب كلها قضاءً أخيراً ، وقد تعرّضت قريش لأن ينزع محمد منها سدانة الكعبة وسقاية الحاج وكل ما تفاخر به العرب من مراسم وطقوس دينية . ماذا تصنع إذا ؟! وقف المعسكران يفكر كلٌّ في الخطة التي يتبع . فأما محمد فضل على خطته التي رسم منذ أعدّ للعمرة عُدّته . خطة السلم والجنوح عن القتال إلا أن تهاجمه قريش أو تغدر به . وهنالك لا يبقى من انتضاء السيف مفرّاً . وأما قريش فترددت ثم فكرت في أن توفد إليه من رجالها من يعرف قوته من ناحية ، ومن يصدّه عن دخول مكة من الناحية الأخرى . وجاءه بُدَيْل بن وَرْقَاء في رجال من خُزَاعة يسألونه ما الذي جاء به . فلما اقتنعوا من حديثه بأنه لم يأت يريد حرباً وإنما جاء زائراً للبيت ومعظماً لحرمة . رجعوا إلى قريش يريدون إقناعهم ليُخَلّوا بين الرجل وأصحابه وبين البيت العتيق . لكن قريشاً اتهموهم وجهروهم وصاحوا بهم : أين جاء لا يريد قتالاً فوالله لا يدخل علينا عَسْوةً أبداً ولا تتحدّث بذلك عنا العرب . ثم بعثت قريش رسولا آخر لم يسمع إلا ما سمع صاحبه ولم يغامر بأن يتّهم عند قريش . وكانت قريش تعتمد فيما أعدت من قتال محمد على حلفائها من الأحابيش ، ففكرت أن توفد سيدهم لعله إذا رأى أن محمداً لا يسمع له ولا يتفاهم وإياه ازداد لقريش نصرة فوادم على محمد قوة . وخرج الحُكَيْمُ سيد الأحابيش قاصداً معسكر المسلمين . فلما رآه النبي مقبلاً أمر بالهدى أن تُطلق أمامه . لتكون تحت نظره دليلاً مادياً على أن هؤلاء الذين تريد قريش

فكر
المعسكرين

رسول قريش
إلى محمد

حربهم وإنما جاءوا حاجين معظمين البيت . ورأى الحائس الهذلي سبعين
بدانة تسيل عليه من عرض الوادي قد تأكلت أوبارها ، فتأثر لهذا المنظر
وثار في نفسه ثائرات دينه . وأيقن أن قريشاً ظالمة هؤلاء الذين لا يريدون
حرباً ولا عدواناً : فانقلب إلى قريش دون أن يلتقي محمداً وذكر لهم ما رأى .
فلما سمعوا حديثه غاظهم وقالوا له : اجلس فانما أنت أعرابي لا علم لك .
وغضب الحليس لمقاتتهم وأنذرهم أنه ما حالفهم ليصد عن البيت من جاء
معظماً إياه ، وأنهم إن لم يُخَلِّوا بين محمد وما جاء به نقر بالأحاييش عن مكة .
وخشيت قريش عاقبة غضبه فاسترضوه وطلبوا إليه أن يُنظرهم حتى
يفكروا في أمرهم .

سيرة عروة
ابن مسعود

ثم رأوا أن يوفدوا حكماً يطمثون إلى حكمته ، فتحدثوا في ذلك إلى
عروة بن مسعود الثقفي ، فاعتذر لهم بما رأى من تعنيفهم وسوء مقابلتهم لمن
سبقه من رسالهم . فلما اعتذروا له وأكذبوا أنه عندهم غير متهم وأنهم يطمثون
إلى حكمته وحسن رأيه ، خرج إلى محمد وذكر له : أن مكة بيضته . وأنه إن
يُفَضُّضها على أهله المقيمين بها بمن جمع من أوشاب الناس ثم انصرف هؤلاء
الأوشاب عنه . كان العار الخالد لقريش عاراً لا يرضاه محمد وإن اتصلت
الحرب بينه وبين قريش ما اتصلت . فصاح أبو بكر بعروة منكرأ أن ينصرف
الناس عن رسول الله . وكان عروة يتناول لحية محمد وهو يكلمه ، وكان المغيرة
ابن شعبه واقفاً على رأس الرسول يضرب يد عروة كلما تناول لحية محمد ، مع
علمه بأن عروة هو الذي دفع عنه قبل إسلامه ثلاث عشرة دية عن قتلي كان
المغيرة قاتلهم . ورجع عروة بعد أن سمع من محمد مثل ما سمع الذين سبقوه
من أنه لم يأت يريد حرباً وإنما جاء معظماً البيت مؤدياً فرض ربه . فلما كان
عند قريش قال لهم : « يا معشر قريش ، إني جئت كسرى في ملكه ، وقيصر
في ملكه ، والنجاشي في ملكه ، وإني والله ما رأيت ما سكا في قوم قط مثل

محمد في أصحابه ، لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه ، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه ، وإنهم لن يسلموه لشيء أبداً ، فرأوا رأيكم .

وظالت المحادثات على النحو الذي قدمنا : ففكر محمد في أن رسل قريش قد لا يكون لديهم من الأقدام ما يقنعون به قريشاً بالرأى الذي يرى . فبعث من جانبه رسولا يبالغهم رأيه هو . لكنهم عقروا جمل هذا الرسول وأرادوا قتله لولا أن منعه الأحابيش نخلوا سبيله . وقد دل أهل مكة بتصرفهم هذا على ما يسودهم من روح الخصومة والبغضاء مما ألقى له صبر المسلمين ، حتى لقد فكر بعضهم في القتال . وفيما هم كذلك يتبادلون الرسل يحاولون أن يصلوا إلى اتفاق ، كان بعض السفهاء من قريش يخرجون ليلاً يرمون عسكر النبي بالحجارة ؛ حتى خرج منهم أربعون أو خمسون رجلاً يوماً ليصيبوا من أصحاب النبي ، فأخذوا أخذاً وجمي بهم إليه . أفندري ماذا صنع ؟! عفا عنهم وخطى سبيلهم تشبهاً منه بخطة السلم واحتراماً للشهر الحرام أن يسفك فيه دم في الحادثة ، وهي من حرام مكة . وبهتت قريش حين عرفوا هذا وسقطت كل حجة لهم يريدون أن يزعموا بها أن محمداً يريد حرباً ، وأيقنوا أن كل اعتداء من جانبهم على محمد لن تنظر إليه العرب إلا على أنه غدر دنيء . لمحمد الحق في أن يدفعه بكل ما أوتي من قوة . ثم إنه عليه السلام حاول أن يمتحن صبر قريش مرة أخرى بإرسال

رسول يفاوضهم : فدعا إليه عمر بن الخطاب كي يبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له . قال عمر : . يا رسول الله إنى أخاف قريشاً على نفسي ، وليس بمكة من بني عدي بن كعب أحد يمنعني . وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتي عليها . ولكنني أدلتك على رجل أعز بها مني : عثمان بن عفان . فدعا النبي عثمان زوج ابنته وبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش . فخرج عثمان في رسالته ؛ فلقى لأول ما دخل مكة أبا بن سعيد فأجاره الزمن الذي يفرغ فيه من رسالته ، وانطلق عثمان إلى سادة قريش فأبلغهم رسالته . قالوا : يا عثمان

رسول محمد
إلى قريش

مودة عثمان
بن عفان

إن شئت أن تطوف بالبيت فطُف . قال : ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله : إنما جئنا لنزور البيت العتيق ولنعظم حرمة ولتؤدى فرض العبادة عنده . وقد جئنا بالهدى معنا ، فإذا نحرناها رجعنا بسلام . وأجابت قريش بأنها أقسمت لن يدخل محمد مكة هذا العام عنوة . وطال الحديث وطال احتباس عثمان عن المسلمين ، وتراعى إليهم أن قريشاً قتلت غيلة وغدراً . ولعل سادة قريش كانوا في هذه الأثناء يبحثون مع عثمان عن صيغة توافق بين قسمهم ألا يدخل محمد هذا العام مكة عنوة ، وبين حرص المسلمين على أن يطوفوا بالبيت العتيق ويؤدوا إلى رب البيت فرضه : ولعلمهم قد أنسوا إلى عثمان وكانوا في هذه الأثناء يبحثون وإياه عن تنظيم علاقاتهم بمحمد وتنظيم علاقات محمد بهم .

مهما يكن من الأمر فقد قلق المسلمون بالحديبية على عثمان أشد القلق ، وتمثل أمامهم غدر قريش وقتلهم إياه في هذا الشهر الذي لا تجيز فيه أديان العرب جميعاً لعدو أن يقتل في حرم الكعبة ولا في حرم مكة عدوه ، وتمثل أمامهم غدر قريش برجل ذهب إليهم في رسالة سلم وموادعة . ووضع كل منهم يده على قبضة سيفه سمة السدير وسمة البطش والغضب . ودخل في روع النبي عليه السلام أن قريشاً قتل عثمان فعدرت في الشهر الحرام ، فقال : « لا تبرح حتى تناجز القوم » . ودعا أصحابه إليه وقد وقف تحت شجرة في هذا الوادي فبايعوه جميعاً على ألا يفروا حتى الموت . وبايعوه وكلهم ثابت الايمان ، قوى العزيمة ، ممتليء حماسة لانتقام من غدر وقتل . وبايعوه بيعة الرضوان التي نزل فيها قوله تعالى في سورة الفتح : « لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا » . فلما أتم المسلدون البيعة ضرب عليه السلام باحدى يديه على الأخرى بيعة لعثمان كأنه حاضر معهم بيعة الرضوان :

وبهذه البيعة اهتزت السيوف في غمودها وتبدى للمسلمين جميعاً أن الحرب آتية لا ريب فيها ، وجعل كلُّ ينتظر يوم الظفر أو يوم الاستشهاد بنفس راضية وفؤاد مرتاح وقلب مطمئن . وإنهم لكذلك إذ ترامى إليهم أن عثمان لم يقتل ، ثم لم يطل بهم الأمر حتى جاء عثمان بنفسه إليهم . على أن بيعة الرضوان هذه بقيت مع ذلك ، كبيعة العقبة الكبرى ، علماً في تاريخ المسلمين . كان محمد يستريح إلى ذكره لما كشف من مائة الروابط بينه وبين أصحابه . ولما دل عليه من مبلغ إقدامهم على خوض مخاطر الموت لا يخافون . ومن أقدم على مخاطر الموت خافه الموت وعنت له جهة الحياة وكان من الفائزين . عاد عثمان فأبلغ محمداً ما قالت قريش . فهم لم تبق عندهم ربيعة في أنه وأصحابه إنما جاؤوا حاجين معظمين للبيت . وهم يقدرون أنهم لا يملكون منع أحد من العرب عن الحج والعمرة في الأشهر الحرم ، وهم مع ذلك قد خرجوا من قبل تحت راية خالد بن الوليد لقتاله وصدّه عن دخول مكة . وقد وقعت بين بعض رجالهم وبعض رجاله مناوشات : فإذا هم بعد الذي حدث تركوه يدخل مكة تحدثت العرب بأنهم انهزموا أمامه ، فتضععت في نظر العرب مكاتهم وسقطت هيبتهم . لذلك هم يُصرون على موقفهم منه هذا العام إبقاءً على هذه الهبة واستبقاءً لتلك المكاة . فليفكر وإياهم ، وهذه ظروفه وظروفهم ، لعلمهم جميعاً يجدون من هذا الموقف مخرجاً ، وإلا فليس إلا الحرب يدخلونها طوعاً أو كرهاً . بل إنهم لها لكارهون في هذه الأشهر . تقديرأ لحرمتها الدينية من ناحية ، ولأنها ، من الناحية الأخرى ، إذا لم تُحترم اليوم حرمتها ووقعت الحرب فيها . لم يأمن العرب في مستقبل أيامهم أن يجيئوا إلى مكة وأسواقها مخافة انتهاك الأشهر الحرم مرةً أخرى ، فيجنى ذلك على تجارة مكة وعلى أرزاق أهلها .

واتصل الحديث وعادت المفاوضات بين الفريقين كرة أخرى .

سأله فريش
ألى محمد

المعاوضات
بين القريظيين

وأوفدت قريش سُهَيْل بن عمرو وقالوا له : أتت محمداً فصالحه ، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا . فوالله لا تحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوةً أبداً . فلما انتهى سُهَيْل إلى الرسول جرت محادثات طويلة للصاح وشروطه كانت تكاد تنقطع في بعض الأحيان ، ثم يعيد اتصالها حرص الجانبين على النجاح . وكان المسلمون من حول النبي يسمعون أمر هذه المحادثات ويضيق بعضهم بأمرها صبراً ، أتمشد سُهَيْل في مسائل يتساهل النبي في قبولها . ولولا ثقة المسلمين المظنفة في نبيهم . ولولا إيمانهم به ، لما ارتضوا ما تم الاتفاق عليه ، ولقاتلوا ليدخلوا مكة أو لتكون الأخرى . فقد ذهب عمر بن الخطاب في أعقاب انتهاء المحادثات إلى أبي بكر ودار بينهما الحديث الآتي :

عمر — يا أبا بكر . أليس برسول الله ؟ !

أبو بكر — بلى !

عمر — أولسنا بالمسلمين ؟ !

أبو بكر — بلى !

عمر — فعلام نعطي الدينية في ديننا ؟ !

أبو بكر — يا عمر الزم مكانك ، فاني أشهد أنه رسول الله !

عمر — وأنا أشهد أنه رسول الله !

وانقلب عمر بعد ذلك إلى محمد وتحدث وإياه بمثل هذا الحديث وهو مغِيْظٌ مُحْتَقٌّ : لكن ذلك لم يغير من صبر النبي ولا من عزمه . وكل الذي قاله في ختام الحديث لعمر : « أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يُضَيِّعَنِي » . ثم كان بعد ذلك من صبر محمد حين كتابة العهد ما زاد في حفيظة بعض المسلمين . فقد دعا علي بن أبي طالب وقال له اكتب بسم الله الرحمن الرحيم . فقال سُهَيْل : أمسك ؛ لا أعرف الرحمن الرحيم ، بل اكتب باسمك اللهم . قال رسول الله :

أكتب باسمك اللهم. ثم قال: اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو. فقال سهيل: أمسك، لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أهلك. قال رسول الله: اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله. ثم كتبت العهدة من الطرفين وفيها أنهما تهادنا عشر سنين، في رأي أكثر كتاب السيرة، وسنتين في قول الواقدي، وأن من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشاً من رجال محمد لم يردوه عليه، وأنه من أحب من العرب مخالفة محمد فلا جناح عليه، ومن أحب مخالفة قريش فلا جناح عليه، وأن يرجع محمد وأصحابه عن مكة عامهم هذا على أن يعودوا إليها في العام الذي يليه فيدخلوها ويقيموا بها ثلاثة أيام ومعهم من السلاح السيوف في قُرْبها ولا سلاح غيرها.

عهد الحديبية
مارس سنة
(٦٢٨)

وما كاد هذا العهد يوقع حتى حالفت خُزاعة محمداً وحتى حالفت بنو بكر قريشاً. وما كاد هذا العهد يوقع حتى أقبل أبو جندل بن سهيل بن عمرو على المسلمين يريد أن ينضم إليهم ويسير وإياهم. فلما رأى سهيل ابنة ضرب وجهه وأخذ بتليبيه وجعل يحرقه ليرده إلى قريش وأبو جندل يصيح بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أورد إلى المشركين يفتنونني في ديني! وزاد ذلك في قلق المسلمين وعدم رضاهم عن العهد الذي عقد الرسول مع سهيل. لكن محمداً وجه إلى أبي جندل قوله: يا أبا جندل، اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين مخرجاً. إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناكم على ذلك وأعطونا عهد الله وإنا لا نغدر بهم. وعاد أبو جندل إلى قريش نفاذاً لعهد النبي ووعده. وقام سهيل راجعاً إلى مكة. وأقام محمد مضطرباً بما رأى من شأن من حوله. ثم صلى واطمأن، ثم قام إلى هذيه فنحره، ثم جلس فخلق رأسه إيداناً بالعمرة، وقد امتلأت نفسه بالسكينة والرضا. فلما رأى الناس صنيعه ورأوا سكينة توابوا بنحرون ويحلقون.

سعيد محمد
العهد

وإن منهم من حلق ومنهم من قصر . قال محمد : يرحم الله المحلقين . فتنادى الناس : والمقصرين يا رسول الله ؟ قال : يرحم الله المحلقين . فتنادى الناس في قلق : والمقصرين يا رسول الله ؟ قال : والمقصرين . قال بعضهم : فلمَ ظهرت يا رسول الله الترحيم للمحلقين دون المقصرين ؟ فكان جوابه : لأنهم لم يشكوا . لم يبق للمسلمين إلا أن يرجعوا إلى المدينة في انتظار أن يعودوا إلى مكة العام المقبل . وقد كان أكثرهم يحتمل هذه الفكرة على مضض ولا يهونها على نفسه إلا أنها أمر الرسول . فهم ليس لهم عادة بهزيمة ولا تسليم من غير قتال . وهم في إيمانهم بنصر الله رسوله ودينه لم تخالجهم ريبة في اقتحام مكة لو أن محمداً أمر باقتحامها : وأقاموا بالحدبية أياماً ، منهم من يتساملون في حكمة هذا العهد الذي عقد النبي ، ومنهم من تحدته نفسه بالشك في حكمته . ثم تحمّلوا وقفلوا راجعين . وإنهم لفي طريقهم بين مكة والمدينة إذ نزل الوحي على النبي بسورة الفتح . فإلى النبي على أصحابه قوله تعالى : **وَإِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِيَغْفِرَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَتُتِمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا** ، إلى آخر السورة . لم يبق إذاً ريب في أن عهد الحدبية فتح مبين ، وهو قد كان كذلك . وقد أثبت الأيام أن هذا العهد حكمة سياسية وبعد نظر كان لها أكبر الأثر في مستقبل الإسلام وفي مستقبل العرب كله . فقد كانت هذه أول مرة اعترفت قريش فيها بمحمد لا على أنه ناثرها خارج عليها ؛ ولكن على أنه نديها وعدلها ، فاعترفت بذلك بالدولة الإسلامية وقيامها . ثم إن إقرارها للمسلمين بحق زيارة البيت وإقامة شعائر الحج اعتراف منها بأن الإسلام دين مقرر معترف به من أديان شبه الجزيرة ، وهدنة السنين أو السنوات العشر قد جعلت المسلمين يطمئنون من ناحية الجنوب ولا يخشون غارة قريش ، ومهدت للإسلام أن يزداد انتشاراً . أفليست قريش ألد أعدائه وأشد محاربيه قد انتهت بالاذعان لئما لم تكن تُدعن

سورة الفتح

له من قبل قط ؟ ! وقد انتشر الاسلام بالفعل بعد هذه الهدنة انتشاراً أسرع
أضغاباً من انتشاره من قبل . كان الذين جاءوا إلى الحديبية ألفاً وأربعمائة .
فلما كان بعد عامين اثنين وجاء محمد لفتح مكة جاء في عشرة آلاف . وأشد
ما اعترض عليه من ساورتهم الشكوك في حكمة عهد الحديبية مانص عليه
العهد من أن من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء
قريشاً من المسلمين لم يردوه على محمد . وكان رأى محمد في هذا أن من ارتد عن
الاسلام ولجأ إلى قريش لم يكن جديراً بأن يعود إلى جماعة المسلمين ؛ وأن
من أسلم وحاول اللحاق بمحمد فسيجعل الله له مخرجاً . وقد صدقت الظروف
رأى محمد في ذلك بأسرع مما كان يظن أصحابه ، ودلت على أن الاسلام
كسب من صلح الحديبية أعظم الكسب . ومهد إلى ما جاء بعد ذلك بشهرين
اثنين من بدء محمد مخاطبة الملوك ورؤساء الدول الأجنبية يدعوهم إلى الاسلام .
صدقت الظروف رأى محمد بأسرع مما كان يظن أصحابه . فقد وقد أبو
بصير من مكة إلى المدينة مسلماً ينطبق عليه العهد يرده إلى قريش لأنه خرج
بغير رأى مولاه . فكتب أنزهر بن عوف والأخنس بن شريق إلى النبي
كي يرده ، وبعثا بكتابهما مع رجل من بني عامر ، معه مولى لهم . قال النبي :
يا أبا بصير ، إننا قد أعطينا هؤلاء القوم مائة من الغنم . ولا يصح لنا في ديننا
الغدر ، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، فانطلق
إلى قومك . قال أبو بصير : يا رسول الله أتدثني إلى المشركين يفتنونني في
ديني ! فكرر عليه النبي قوله . فانطلق مع الرجاءين : حتى إذا كان بذي الحليفة
سأل أحابن عامر أن يريه سيفه ، وما إن استوت قبضته في يده حتى علا به
العامري فقتله ، فخرج المولى يعدو ناحية المدينة حتى أتى النبي . فلما رآه قال :
إن هذا رجل قدرأى فرعاً . ثم قال للرجل : ويحك ! مالك ؛ قال : قتل صاحبك
صاحبي . ثم ما برح حتى طلع أبو بصير متوشحاً بالسيف موجهاً الحديث إلى

الحديبية
ص ١٠٦

ص ١٠٦

محمد وهو يقول : يا رسول الله ، وفيت ذمتك وأدّى الله عنك ، أسلمتني بيد القوم وقد امتنعت بديني أن أقتن فيه أو يُعَبِّتَ بي . ولم يُخَفِ الرسول إجماعه به وتمنيته أن لو كان معه رجال . ثم خرج أبو بصير حتى نزل العيصَ على ساحل البحر على طريق قريش التي كانوا يأخذون إلى الشام . وكان عهد محمد وقريش أن تترك هذه الطريق للتجارة لا يقطعها هو ولا تقطعها قريش . فلما ذهب أبو بصير إليها وسمع المسلمون المقيمون بمكة بأمره وبما كان من إجماع الرسول به . قر إليه منهم نحو سبعين رجلاً اتخذوه لهم إماماً ، وجعلوا وإياه يقطعون على طريق قريش ، حتى كانوا لا يظفرون بأحد منهم إلا قتلوه ولا تمر بهم غير إلا اقتطعوها . هنالك رأت قريش أنها أكبر خسارة بحرصها على هؤلاء المسلمين أن يظفروا بمكة ، وقدرت أن الرجل الصادق الايمان محاولة حبسه شرٌّ من إطلاق سراحه ، فهو لا بد متميز فرصة الفرار ، مقيمٌ على الذين حاولوا حبسه حرباً عواناً هم فيها الأخسرون . وكأما ذكرت قريش محمداً حين هاجر إلى المدينة وقطع عليهم طريق القوافل ، وخشيت أن يكرر أبو بصير هذا الصنيع : فبعثت إلى النبي تسأله بأرحامها إلا آوى هؤلاء المسلمين حتى يتركوا الطريق آمناً . ونزلت قريش بذلك عما أصر عليه سُبَيْل بن عمرو من رد المسلمين من قريش إلى مكة إذا هم ذهبوا إلى محمد بغير رأى مواليهم . وسقط بذلك الشرط الذي أحفظ عمر بن الخطاب والذي كان سبباً في ثورته التي ثار على أبي بكر . وآوى محمد أصحابه وعاد طريق الشام آمناً .

أما المهاجرات من قريش إلى المدينة فكان لمحمد فيهن رأى آخر . خرجت أم كلثوم بنت عذبة بن أبي معيط من بعد الهدنة ، فخرج أخوها عمارة والوليد يطلبان إلى رسول الله أن يردهما عليهما بحكم عهد الحديبية . لكن النبي أبى ورأى أن هذا العهد لا ينسحب على النساء . حكاه : وأن النساء إذا استجرن وجبت إجارتهن . ثم إن المرأة إذا أسلمت لم تُصبح حلاً لزوجهما

المهاجرات
المسلات

المشرك فوجب التفريق بينه وبينها. وفي ذلك نزل قوله تعالى من سورة
المتحة : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ
فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ، فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا
تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهُنَّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ . وَأَتُوهُنَّ
مَا أَنفَقُوا : وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ
أُجُورَهُنَّ ؛ وَلَا تَمْسِكُوا بِعِصْمِ الْكُفَّارِ . وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا
مَا أَنفَقُوا ؛ ذَلِكَ كُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَخَكِّمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . »
وكذلك صدقت الظروف حكمة محمد وبعد نظره ودقة سياسته ، وأثبت أنه
إذ عقد عهد الحديبية وضع حجراً لا ينقض في سياسة الاسلام وانتشاره .
وهذا هو الفتح المبين .

اطمأننت العلاقات بعد الحديبية بين قريش ومحمد أعظم الطمأنينة وأمن
كل جانب صاحبه ؛ واتجهت قريش كلها إلى التوسع في تجارتها ، لعلها تستعيد
من طريقها ما فقدته أيام اتصال الحرب بين المسلمين وبينها ، وحين سُدَّت
عليها طريق الشام وأصبحت تجارتها معرّضة للضياع . أما محمد فاتجه بفكره
إلى متابعة إبلاغ رسالته للناس جميعاً في مشارق الأرض ومغاربها ، واتجه
فكره إلى توسيد أسباب النجاح لطمأنينة المسلمين في شبه الجزيرة . وهذا
وذاك هو ما صنع بإرسال الرسل إلى الملوك في مختلف الدول ، وإجلاء اليهود
عن شبه جزيرة العرب إجلاء تاماً بعد غزوة خيبر .

ما صنع
قريش

ما صنع محمد

الفصل الحادي والعشرون

خير والرسل الى الملوك

الاسلام والتنظيم الاجتماعي - تحريم الخمر - رسل محمد إلى الملوك
والأمراء - المسامون واليهود - غزوة خير - القضاء الأخير
على سلطة اليهود - رد الملوك على رسل النبي - في انتظار عمرة القضاء .

عاد محمد والمسلمون معه من الحديدية قافلين إلى المدينة بعد ثلاثة أسابيع من تمام الصلح بينهم وبين قريش ألا يدخلوا مكة هذا العام وأن يدخلوها العام الذي يليه . عادوا وفي نفوسهم من أمر هذا الصلح شيء ، أن اعتبره بعضهم غير متفق مع كرامة المسلمين ، حتى نزلت سورة الفتح وهم في الطريق وتلاها النبي عليهم . وجعل محمد يفكر أثناء مقامهم بالحديدية وبعد عودهم منها ماذا عساه يصنع للزيد من تثبيت أصحابه ، ولزيادة انتشار دعوته . وانتهى به التفكير إلى إرسال رسله إلى هرقل وكسرى والمقوقس ونجاشي الحبشة وإلى الحارث الغساني وإلى عامل كسرى في اليمن ، كما انتهى به إلى ضرورة القضاء قضاء أخيراً على شوكة اليهود في شبه جزيرة العرب .

نضج الدعوة
الاسلامية

والحق أن الدعوة الاسلامية كانت قد بلغت يومئذ من النضج ما يجعلها دين الناس كافة . فهي لم تقف عند التوحيد وما يقتضيه التوحيد من عبادات ، بل انفرج ميدانها وتناولت من صور النشاط الاجتماعي العامة ما يوازي بينها وبين سمو فكرة التوحيد ، ويجعل صاحبهما أدنى إلى بلوغ مراتب الكمال الانساني وإلى تحقيق المثل الأعلى في الحياة . اختلف مؤرخو السيرة في تحريم الخمر متى كان ، وذهب بعضهم إلى أنه كان في السنة الرابعة للهجرة ،

تحريم الخمر

ولكن أكثرهم على أنه كان عام الحديبية . والفكرة في تحريم الخمر اجتماعية غير متصلة بالتوحيد من حيث هو التوحيد . ولا أدلة على ذلك من أن التحريم لم ينزل به القرآن إلا بعد انقضاء عشرين سنة أو نحوها على بعث النبي ، وأن المسلمين ظلوا يشربونها إلى أن نزل التحريم . ولا أدلة على ذلك من أن التحريم لم ينزل مرة واحدة ، بل نزل على فترات جعلت المسلمين يخفّفون منها ، حتى كان التحريم فاتهموا عن شربها . فقد روى عن عمر بن الخطاب أنه سأل عن الخمر وقال : اللهم بين لنا فيها : فنزلت الآية : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ » . وحتى كان منادى الرسول ينادى وقت الصلاة : لا يقربين الصلاة سكران . وعلى الرغم مما كان يقتضى هذا الأمر من الإقلال من الشراب وما كان له في هذه الناحية من أثر بالغ جعل الكثيرين يقلّون من الخمر ما استطاعوا . فبعد عاد عمر بعد زمن يقول : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً فانها تذهب العقل والمال . وقد كان عمر في حلٍّ من قولها أن كان العرب ، والمسلمون من بينهم ، يصل بهم الشراب إلى حد يجعلهم يعربدون ، يأخذ بعضهم بأحذية بعض ويهوى بعضهم على رأس بعض . دعا بعضهم جماعة إلى طعام وشراب . فلما تمّوا ذكروا المهاجرين والأنصار ، فأبدى أحدهم التعصّب للمهاجرين . فأخذ متعصب للأَنْصار بعظمة من عظام رأس الجزور الذي يأكلونه ففرح به أثب المهاجري . وشمل حيّان فتشاجرا فتشج بعضهم بعضاً فوقعت في أنفسهم الضغائن ، وكانوا من قبل ذلك أحبة متصافين ؛ إذ ذاك نزل

قوله تعالى : « إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ » . وقد كان أُنسُ السَّاقِ يَوْمَ حُرْمَتِ الْخَمْرِ ، فَلَمَّا سَمِعَ الْمَنَادِي بِتَحْرِيمِهَا يَادِرُ فَارَاقِمَهَا . لَكِنِ أُنْسًا لَمْ يَرِقْهُمْ هَذَا التَّحْرِيمُ فَقَالُوا : أَتَكُونُ الْخَمْرُ رَجْسًا وَهِيَ فِي بَطْنِ فُلَانٍ وَفُلَانٌ قَتَلَ يَوْمَ أُحُدٍ ، وَفِي بَطْنِ فُلَانٍ وَفُلَانٌ قَتَلَ يَوْمَ بَدْرٍ انزولُ قَوْلِهِ تَعَالَى :

« لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » .

وبما أمر به الإسلام من البر والرحمة وما دعا إليه من عمل الخير وما في عبادته من رياضة النفس والطبع وما يصل إليه الركوع والسجود في الصلاة من قتل غرور القلب . كل ذلك جعله الكمال الطبيعي للأديان التي سبقته ، وجعل الدعوة إليه للناس كافة . وقد كان هرقل وكسرى يومئذ على رأس دولتي الرومان والفرس أقوى دول العصر وصاحبي الإملاء على سياسة العالم وعلى مصير أمه جميعاً . وكانت الحرب مجالاً بين الدولتين كما رأيت : وكانت الفرس صاحبة الغلب أول الأمر فاستولت على فلسطين وعلى مصر : ووضعت يدها على بيت المقدس ونقلت منه الصليب . ثم دارت على الفرس الدائرة ، فعادت أعلام بيزنطة تخفق مرة أخرى على مصر وعلى سورية وفلسطين . واسترد هرقل الصليب بعد أن نذر إن هو تم له النصر أن يحج إلى بيت المقدس ماشياً حتى يرد الصليب فيه إلى مكانه . ويسير عليك إذ تذكر مكانة الدولتين أن تقدّر ما بيعته اسمهما من الرهبة إلى النفوس ومن الهيبة إلى القلوب حتى لا تفكر دولة في التعرّض لهما ، ولا يدور بخلد أحد أن يفكر

دولتا الرومان
والفرس

في غير خطبة ودّهما . وإذا كان ذلك شأن دول العالم المعروفة يومئذ جميعاً ، فقد كان أجدر ببلاد العرب أن يكون ذلك شأنها ، وقد كانت اليمن والعراق تحت نفوذ فارس ، وكانت مصر والشام تحت نفوذ هرقل ؛ فكان الحجاز وسائر شبه الجزيرة محصوراً في دائرة نفوذ الإمبراطوريتين . وكانت حياة العرب وقفاً على التجارة مع اليمن ومع الشام ؛ فكانت بذلك محتاجة أشد الحاجة إلى مصانعة كسرى وهرقل جميعاً حتى لا يُفسدا بسلطانهما عليها تجارتها . ثم إن العرب لم تكن تزيد على قبائل تشتد الخصومة بينها حيناً وتهدأ حيناً آخر ، ولا تربط بعضها ببعض رابطة تجعل منها وحدة سياسية تستطيع أن تفكر في مواجهة نفوذ الدولتين العظيمةتين . ولذلك كان عجيباً أن يفكر محمد يومئذ في أن يرسل رسله إلى الملاكين العظيمةين وإلى غسان واليمن ومصر والحبشة يدعوهم إلى دينه ، دون خشية مما قد يترتب على عمله هذا من نتائج ربما تجرّ على بلاد العرب كلها الخضوع لنير فارس أو بزنطة .

لكن محمد لم يتردد في دعوة هؤلاء الملوك جميعاً إلى دين الحق . بل خرج يوماً على أصحابه فقال : « أيها الناس ، إن الله قد بعثني رحمة وكافة فلا تختلفوا عليّ كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم . » قال أصحابه : « وكيف اختلف الحواريون يا رسول الله ؟ » . قال : « دعاهم إلى الذي دعوتكم إليه ، فأما من بعثه مبعثاً قريباً فرضي وسلم ، وأما من بعثه مبعثاً بعيداً فكره وجهه وتناقل . » ثم ذكر لهم أنه مرسل إلى هرقل وكسرى والمقوقس والحارث الغساني ملك الحيرة والحارث الحميري ملك اليمن وإلى نجاشي الحبشة يدعوهم إلى الاسلام . وأجابهم أصحابه إلى ما أراد . فصنع له خاتماً من فضة نقش عليه « محمد رسول الله » وبعث بكتبه يقول فيها ما نضع منه مثلاً أمام القارىء . كتابه إلى هرقل إذ جاء فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم . سلامٌ على من اتبع الهدى . أما بعدُ فإني أدعوك

رسل محمد
إلى الملوك
والامراء

بداية الاسلام . اسلم تسلم يؤتك الله اجرک مرتين . فان توليت فانما عليك
 اثم الاريسين . (يا هـل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم
 الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً ارباباً
 من دون الله . فان تولوا فقلوا اشهدوا باننا مسلمون » . ودفع بكتاب
 هرقل إلى دحية بن خليفة الكلبي ، وكتاب كسرى إلى عبد الله بن حذافة
 السهمي ، وكتاب النجاشي إلى عمرو بن أمية الضمري ، وكتاب المقوقس إلى
 حاطب بن أبي بلتعة ، وكتاب ملكي عمان إلى عمرو بن العاص السهمي ،
 وكتاب ملكي اليمامة إلى سديط بن عمرو ، وكتاب ملك البحرين إلى العلاء
 ابن الحضرمي ، وكتاب الحارث الغساني ملك تخوم الشام إلى شجاع بن وهب
 الأسدي ، وكتاب الحارث الحميري ملك اليمن إلى المهاجر بن أمية المخزومي .
 وانطلق هؤلاء جميعاً كل إلى حيث أرسله النبي . انطلقوا في وقت واحد على
 قول أكثر المؤرخين ، وانطلقوا في أوقات مختلفة على قول بعضهم .

أليس إرسال محمد هؤلاء الرسل عجبا يثير الدهشة ! أليس أشد إثارة
 للدهشة ألا تمضي ثلاثون عاماً بعد ذلك حتى إذا هذه البلاد التي أرسل محمد
 إليها رسله قد فتحها المسلمون وقد اعتنق أكثرها الاسلام ؟ لكن هذه الدهشة
 ما تلبث أن تتلاشى حين تذكر أن الأباطوريتين العظيمتين اللتين كانتا
 تزعمان تحضير عالم ذلك العصر ، وكانت حضارتهما هي الغالبة على العالم كله ،
 إنما كانتا تتنازعان الغلب المادي ، على حين كانت القوة الروحية فيهما جميعاً
 قد انحلت واضمحلت . فقد كانت فارس مقسمة بين الوثنية والمجوسية .
 وكانت مسيحية بزانية قد اضطربت بين مختلف المذاهب والفرق ، فلم تظل
 عقيدة سليمة تحرك النفوس وتقوى القلوب . بل انقلبت طقوساً يهيم
 بها رجال الدين على عقول السواد لحكمه واستغلاله . أما الدعوة الجديدة
 التي يدعو محمد إليها فكانت روحية صرفة ، وكانت ترتفع بالإنسان إلى أسمی

فارس و بزانية

مراتب الانسان . وحيثما التقت المادة والروح ، وحيثما انتطح هم الحاضر بأمل الخلود ، انهزمت المادة وعنا وجه الحاضر .

ثم إن فارس ويزنطية كانتا ، على عظم سلطانهما ، قد فقدتا قوة الابتكار وملكة الانشاء ، ونزلتا في عالم التفكير وفي عالم الشعور وفي عالم العمل إلى درك التقليد واحتذاء السلف ، واعتبار كل جديد بدعة وكل بدعة ضلالة . والجماعة الانسانية . كالفرد الانساني وككل كائن حي ، تتجدد كل يوم . فاما كانت مازال فتية شابة فكان تجددها خلقا وإنشاء ومزیداً في الحياة . وإما كانت قد بلغت الذرورة ولم تعد قادرة على الانشاء والخلق فهي تُنفق من رأس مال حياتها ، لحياتها لذلك في نقص مستمر وفي انحدار إلى درك النهاية . والجماعة الانسانية التي تنحدر إلى درك النهاية مصيرها أن يخلقها عنصر خارجي ، فيه فتوة الحياة ، خلقاً جديداً . والعنصر الخارجي المليء بقوة الحياة الفتية إلى جانب فارس ويزنطية لم يكن في ناحية الصين أو الهند ولا كان في ناحية أواسط أوروبا : إنما كان هذا العنصر محمداً . كانت دعوته في شباب فتوتها جديرة بأن تعيد إلى هذه النفوس . المتهدم داخلها بحكم الطقوس والخرافات القائمة منها مقام الايمان والعقيدة ، حياة فتية تجددتها وتردها إلى الحياة . وشعلة الايمان الجديد التي كانت تضيء نفس الرسول . وقوة نفسه التي سميت فوق كل قوة ، هي التي هدت إلهامه إلى أن يبعث بهؤلاء الرسل يدعون عظاما الأرض بدعاية الاسلام إلى دين الحق . دين الكمال ، دين الله جل شأنه : إلى الدين الذي يحزر العقول لتري والقلوب لتبصر ، والذي يضع للانسان في حياة العقيدة كما يضع له في نظام الجماعة ، قواعد عامة توازي بين سلطان الروح وقوة المادة التي تنطوي على الروح ، لتبلغ بالانسان من طريق هذه الموازنة إلى غاية ما يستطيع بلوغه من قوة على الحياة : قوة لا يشوبها وهمٌ ولا يشوبها غرور ، وتبلغ بالجماعة الانسانية بفضل ذلك النظام

من وجهة الاسلام
بين الروح والجسد

إلى خير مكان أُعِدَّ لها بعد أن تسلك ما قُدِّرَ لها من دروب التطور بين
كائنات الوجود جميعاً .

أفیرسل محمد رسله إلى هؤلاء الملوك وهو ما يزال يخشى غدر اليهود
الذين لا يزالون مقيمين شمال المدينة ؟ صحيح أنه قد عهد عهد الحديبية فأمن
قريشاً وأمن الجنوب كله : لكنه لن يأمن من ناحية الشمال أن يستعين هرقل
أو أن يستعين كسرى بيهود خبير وأن يحرك في نفوسهم ثاراتهم القديمة ،
وأن يذكرهم باخوانهم في الدين من بنى قريظة وبنى النضير وبنى قينقاع
وقد أجلاهم محمد عن ديارهم بعد أن حصرهم بها وقتلهم فيها وقتل منهم وسفك
دماءهم . واليهود أشد من قريش عداوة له ، لأنهم أحرص منهم على دينهم ،
ولأن فيهم ذكاء وعلماً أكثر مما في قريش . وليس من اليسير أن يُوادعهم
بصلح كصلح الحديبية ، ولا أن يطمئن لهم وقد سبقت بينه وبينهم خصومات
لم ينتصروا في إحداها . فما أجدرهم أن يتأروا لأنفسهم إذا هم وجدوا من
ناحية هرقل مدداً . لا بدّ إذاً من القضاء على شوكة هؤلاء اليهود قضاءً أخيراً
حتى لا تقوم لهم من بعد بلاد العرب قائمة أبداً . ولا بدّ من المسارعة إلى ذلك
حتى لا يكون لديهم من الوقت متسع للاستعانة بغطفان أو بغيرها من القبائل
المعادية لمحمد والموالية لها .

القضاء الأخير
على يهود شبه
الجزيرة

وكذلك فعل : فانه لم يقم بالمدينة بعد عودته من الحديبية إلا خمس
عشرة ليلة على قول ، وشهراً على قول آخر ، ثم أمر الناس بالتجهيز لغزو
خيبر على ألا يفزوا معه إلا من شهد الحديبية ، إلا أن يكون غازياً متطوعاً
ليس له من العنيفة شيء . وانطلق المسلمون في ألف وستمائة ومعهم مائة
فارس ، وكلهم واثق بنصر الله ، ذا كر قوله تعالى في سورة الفتح التي نزلت
في عهد الحديبية : « سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لِنَأْخُذُوهَا
ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ فَلَئِنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكَ

السير لغزو
خيبر

قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلِ قَسِيَّةٍ قَوْلُونَ بَلْ تَحْسُدُونََنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا . . . وقطعوا مراحل الطريق ما بين خيبر والمدينة في ثلاثه أيام لم تكذب خيبر تحسبهم أثناءها ، حتى لقد باتوا أمام حصونها . وأصبح الصباح وغدا عمال خيبر خارجين إلى مزارعهم ومعهم مساحيمهم ومسكاتلهم ؛ فلما رأوا جيش المسلمين ولّوا الأدبار يتصاحبون : هذا محمد والجيش معه . وقال الرسول حين سمع قولهم : خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين .

على أن يهود خيبر كانوا يتوقعون أن يغزوهم محمد ، وكانوا يودون أن يجدوا الوسيلة إلى الخلاص منه . أما بعضهم فنصح لهم أن يبادروا إلى تأليف كتلة منهم ومن يهود وادي القرى وتيماء تغزو يثرب ، دون اعتماد على البطون العربية في الغزاة . أما آخرون فكانوا يرون أن يدخلوا في حلف مع الرسول ، لعل ذلك يحرم ما ثبت في نفوس المسلمين ، والأنصار منهم خاصة بعد اشتراك حبي بن أخطب وجماعة من اليهود معه ، في تأليب العرب لاقحام المدينة وأخذها عنوة في غزوة الخندق . لكن النفوس من الجانبين كانت ملامى ، حتى لقد سبق المسلمون قبل غزوة خيبر بقتل كل من سلام بن أبي الحقيق واليسير بن رزام من زعماء خيبر . ولذلك كانت اليهود على اتصال دائم مع غطفان ، ولذلك استعانوا بهم أول ما تراهي إليهم خبر اعترام محمد غزوهم . ويختلف الرواة فيما كان من غطفان : أهى أعانتهم ، أم أن جيوش المسلمين قد حالت بينهما وبين خيبر . وسواء أكانت غطفان قد أعانت اليهود أم كانت قد وقفت بمعزل بعد أن وعداها محمد حظاً من الغنائم ، فقد كانت هذه الموقعة من أكبر المواقع ، أن كانت جموع اليهود في خيبر من أقوى الطوائف الاسرائيلية بأساً وأوفرها مالا وأكثرها سلاحا ، وأن كان المسلمون مؤمنين بأنه ما بقيت لليهود شوكة في شبه الجزيرة فستظل المنافسة بين

تفكر اليهود

مخاداة
القوتين
المتنافستين

دين موسى والدين الجديد حائلا دون تمام الغلب لهم . لذلك ذهبوا مستقلين لا يعرف التردد إلى نفوسهم سيلا . ووقفت قريش ووقفت شبه جزيرة العرب كلها متطلعة إلى هذه الغزوة ؛ حتى لقد كان من قريش من يتراهنون على نتائجها ولمن يتم الغلب فيها . وكان كثيرون من قريش يتوقعون أن تدور الدائرة على المسلمين لما عُرف من قوة حصون خيبر وقيامها فوق الصخور والجبال ، ولطول ممارسة أهلها للحرب والقتال .

وقف المسلمون أمام حصون خيبر متأهين كامل العُدّة . وتشاور اليهود فيما بينهم ، فأشار عليهم زعيمهم سَلَام بنِ مِشْكَم فأدخلوا أموالهم وعيالهم في حصن الوطيطح والسُّلام ، وأدخلوا ذخائرهم في حصن ناعم ، ودخلت المقاتلة وأهل الحرب في حصن نَظَاة ، ودخل سَلَام بنِ مِشْكَم معهم يَحْرَضُهُمْ على الحرب . والتقى الجمعان حول حصن نَظَاة واقتلوا قتالا شديداً ، حتى قيل : إن عدد الجرحى من المسلمين في هذا اليوم بلغ خمسين . فكم كان إذاً عدد الجرحى من اليهود ! وتُوُفِّي سَلَام بنِ مِشْكَم ، فتولى الحارث بن أبي زينب قيادة اليهود ، وخرج من حصن ناعم يريد منازلة المسلمين ؛ فدحره بنو الخزرج واضطروه أن يرتد إلى الحصن على أعقابِهِ . وضيق المسلمون الحصار على حصون خيبر واليهود يستهيتون في الدفاع عنها إيماناً منهم بأن هزيمتهم أمام محمد قضاء أخير على بني إسرائيل في بلاد العرب . وتتابعت الأيام ، فبعث الرسول أبا بكر براية إلى حصن ناعم كي يفتحه ، فقاتل ورجع ولم يكن الحصن قد فُتِح . وبعث الرسول عمر بن الخطاب في الغداة ، فكان حظه حظ أبي بكر . فدعا الرسول إليه في الغداة على بن أبي طالب ثم قال له : خذ هذه الراية فامض بها حتى يفتح الله عليك . ومضى على بالراية ، فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم ، فضربه رجل من اليهود فطاح تُرْسُهُ ، فتناول على باباً كان عند الحصن فتترس به ، فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فُتِح الحصن ، ثم جعل الباب قطرةً اجتاز

حصار حصون
خيبر

فتح الحصون

المسلمون عليها إلى داخل أبنية هذا الحصن ، وإنما سقط حصن ناعم بعد أن قُتِل قائده الحارث بن أبي زينب ، مما يدل على استماتة اليهود في القتال واستماتة المسلمين في الحصار وفي الهجوم .

وبعد حصن ناعم فتح المسلمون حصن القموص بعد قتال شديد ، وبعد أن قُتِل المؤونة عندهم قلة توجه بسببها جماعة منهم يشكون إلى محمد أمرهم ويطلبون إليه ما يسدون به رمقهم ، فلم يجد شيئاً يعطيهم إياه وأذن لهم في أكل لحوم الخيل . وقد رأى أحد المسلمين قطعاً من الغنم يدخل إلى أحد حصون اليهود ، فاختطف منه شاتين فذبحوهما وأكلوهما . على أنه بعد أن تم لهم فتح حصن الصعْب بن معاذ قُتِلت حاجتهم ، أن وجدوا فيه طعاماً كثيراً مكن لهم من متابعة قتال اليهود وحصارهم في سائر حصونهم . واليهود أثناء ذلك كله لا يسلمون في شبر أرض ولا يسلمون حصناً إلا بعد أن يدافعوا عنه دفاع الأبطال ، وبعد ألا يبقى لهم على صد هجوم المسلمين قوة . خرج مرْحَب اليهودي من أحد الحصون وقد جمع للحرب سلاحه وأكمل عدته وهو يرتجل :

استقبال اليهود

قد علمتُ خبيرُ أئى مرْحَبُ شاكى السلاح بطلٌ مُجْرَبُ
أطعنُ أحياناً وحيناً أضربُ إذا الليوثُ أقبلتُ تحرَبُ
إن حمائى للحمى لا يقربُ يُحجِمُ عن صولتى المُجْرَبُ

فصاح محمد بأصحابه : مَنْ لهذا ؟ قال محمد بن مسleme : أنا له يارسول الله . أنا والله الموتور النائر ! قُتِل أخى بالأمس . وقام إليه باذن النبي وتساولا حتى كاد مرْحَب يقته . لكن ابن مسleme اتقى سيفه بالدرقة فعضت به فأمسكته ، وضربه محمد بن مسleme حتى قتله . وكذلك كانت هذه الحرب بين اليهود والمسلمين ضروساً قاسية . وكانت منعة حصون اليهود تزيدها شدة وقسوة . حاصر المسلمون حصن الزبير وطال حصارهم إياه وقتلوا حوله قتلاً شديداً ، ومع ذلك لم يستطيعوا فتحه حتى قطعوا الماء عنه واضطروا اليهود فيه إلى

مبدأ يأس
اليهود

الخروج منه وإلى قتال المسلمين قتالاً انتهى بالأولين إلى أن يلوذوا بالفرار .
وكذلك جعلت الحصون تقع واحداً بعد الآخر في يد المسلمين، حتى انتهوا إلى
الوطيح والسُّلَّام بمنطقة الكتيبة آخر حصنين منيعين عندهم . هنالك استولى
على نفوسهم اليأس ، فطلبوا الصلح بعد أن حاز النبي أموالهم كلها بالشقِّ ونطأة
والكتيبة ، على أن يحقن النبي دماءهم . وقيل محمد وأبقاهم على أرضهم التي آلت
له بحكم الفتح ، على أن يكون لهم نصف ثمرها مقابل عملهم .

عامل محمد يهود خيبرَ بغير ما عامل به بنى قَيْسُقَاعَ وبنى النَّضِيرِ حين
أجلاهم عن أرضهم لأنه أمن بسقوط خيبر بأس اليهود ، وآمن بأنهم لن
تقوم لهم بعد ذلك قائمة أبداً . ثم إن ما كان بخيبر من الحدائق والمزارع
والنخيل كان يحتاج إلى الأيدي العاملة الكثيرة لاستغلاله وحسن القيام على
زراعته . ولئن كان أنصار المدينة أهل زراعة فإن أرضهم بها كانت بحاجة إلى
أذرعهم ، كما أن النبي كان بحاجة إلى جيوشه للحرب ، فهو لا يرضى أن يتركها
للزراع . وكذلك ظل يهود خيبر يعملون بعد أن انهار سلطانهم السياسي انهياراً
جنى على نشاطهم ، حتى لقد أسرع خيبر من ناحية الزراعة نفسها إلى البوار
والخراب . برغم ما كان من حسن معاملة النبي أهلها ومن عدل عبد الله بن
رَوَاحَةَ رسوله إليهم كل عام بينهم في القسمة . وقد كان من إحسان النبي معاملة
يهود خيبر أنه كان من بين ما غنم المسلمون حين غزوها عدة صحائف من
التوراة . فطلب اليهود ردّها ، فأمر النبي بتسليمها لهم ، ولم يصنع صنيع الرومان
حين فتحوا أورشليم وأحرقوا الكتب المقدسة وداسوها بأرجلهم ، ولا هو
صنع صنيع النصارى في حروب اضطهاد اليهود في الأندلس حين أحرقوا
كذلك صحف التوراة .

ولما طلب يهود خيبر الصلح أثناء محاصرة المسلمين إياهم في حصني
الوطيح والسلام بعث النبي إلى أهل فدك كي يُسلِّموا برسائته أو يُسَلِّموا أموالهم .

صلح خيبر
وانهيار
سلطانها
السياسي

يهود فدك

ووقع في نفوس أهل فدك الرعب بعد الذي علموا من أمر خير فتصالحوا على نصف أموالهم من غير قتال. فكانت خير للمسلمين لأنهم قاتلوا لاستخلاصها، وكانت فدك خالصةً لمحمد لأن المسلمين لم يُجلبوا عليها بخيل ولا ركاب.

وتجهز الرسول بعد ذلك كله للعود إلى المدينة عن طريق وادي القرى فتجهز يهودها لقتال المسلمين، وقاتلوا. لكنهم اضطروا للاذعان والصلح كما صنعت خير. أما يهود تيماء فقبلوا الجزية من غير حرب ولا قتال. وبذلك دانت اليهود كلها لسلطان النبي وانتهى كل ما كان لهم من سلطان في شبه الجزيرة، وأصبح محمد بمأمن من ناحية الشمال إلى الشام، كما صار من قبل ذلك بمأمن من ناحية الجنوب بعد صلح الحديبية. وبانهيار سلطان اليهود خفت بغضاء المسلمين، والأنصار منهم خاصة، إياهم وتغاضوا عن رجوع بعضهم إلى يثرب، ووقف النبي مع اليهود الذين بكوا عبد الله بن أبي وعزى ابنه فيه. وأوصى معاذ بن جبل بالأيقتن اليهود عن يهوديتهم. ولم يكلف يهود البحرين دفع الجزية وإن ظلوا متمسكين بدين آبائهم. وصلاح بنى غازية ونبي عريض بأن لهم الذمة وعليهم الجزية. وعلى الجملة دان اليهود لسلطان المسلمين وتضعف في بلاد العرب مركزهم، حتى اضطروا للمهاجرة تلك البلاد وكانوا من قبل بها أعزة، وحتى تم جلاؤهم في حياة الرسول على قول، وبعد وفاته على قول آخر.

إذعان
وادي القرى

إذعان اليهود
لسلطان
المسلمين

على أن إذعان أهل خيبر وسائر اليهود لمصيرهم في شبه الجزيرة لم يقع مرة واحدة بعد هزيمتهم، بل لقد كانت نفوسهم في أثر الهزيمة ملأى بالغل والغضب أوجب الغضب. أهدت زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم إلى محمد شاة بعد أن اطمأن وبعد أن وقع الصلح بينه وبين أهل خير. فجلس وأصحابه حولها لياًكلوها. وتناول عليه السلام الذراع فلاك منها مضغَةً فلم يُسغها. وكان بشر بن البراء معه قد تناول منها مثل ما تناول. فأما بشر فأساعها

الشاة
المسعوة

الأخير : فقالت صفية : أما والله يا نبي الله لو دِدْتُ أن الذي بك بي . فغمزها أزواج النبي ، فقال لهن : مضمضن . قلن : من أى شىء يا نبي الله ؟ قال : من تغامزكن بصاحبتهن ، والله إنها لصادقة . وبقيت صفية بعد النبي حتى خلافة معاوية ، وفيها توفيت ودُفنت بالبقيع .

ماذا فعل الله بالرسول الذين أوفد محمد إلى هرقل وكسرى والنجاشي وغيرهم من الملوك المحيطين ببلاد العرب ؟ وهل سافروا قبل غزوة خيبر ، أو أنهم حضروها حتى تم النصر للمسلمين فيها ثم سافروا من بعدها كل إلى ناحيته ؟ يختلف المؤرخون في ذلك اختلافاً كبيراً يصعب معه القطع في الأمر بقول . وأكبر ظننا أنهم لم يسافروا جميعاً في وقت واحد ، وأن منهم من سافر قبل خيبر ومنهم من سافر بعدها . فقد جاء في أكثر من رواية أن دِحْيَةَ ابن خليفة الكلبي حضر خيبر وهو مع ذلك الذي ذهب برسالة هرقل . سافر إليه وكان يومئذ عائداً يحف به النصر بعد أن تغلب على الفرس واستنقذ منهم الصليب الأعظم الذي أخذ من بيت المقدس ، وأن له أن يُتم نذرته وأن يحج إلى بيت المقدس ماشياً ليرد الصليب الأعظم مكانه . وكان قد بلغ من سياحته مدينة حمص حين حمل الخطاب إليه . هل حمله إليه جماعة من رجاله بعد أن أسلم دِحْيَةَ الخطاب إلى عامله على بصرى ، أم أنه اطلع عليه بعد أن أدخل جماعة من البدو ودِحْيَةَ على رأسهم يقدم إليه الكتاب بنفسه ؟ هذا ما اضطرب الرواية كذلك حوله . على كل حال فقد تُلى الخطاب عليه وترُجم له ، فلم يغضب ولم تتُرثر نائرتة ولم يفكر في إرسال جيش يغزو بلاد العرب ، بل رد على الرسالة رداً حسناً . جعل بعض المؤرخين يزعمون خطأ أنه أسلم . وفي نفس الوقت بعث الحارث العسائي إلى هرقل يخبره أن رسولا جاءه من محمد بكتاب رأى هرقل شبهه بالكتاب الذي أرسل إليه يدعوه الى الاسلام ، ويستأذن الحارث في أن يقوم على رأس جيش لمعاينة هذا المدعى

رسول النبي
إلى هرقل

جواب هرقل

النبوة . لكن هرقل رأى الخير في أن يكون الحارث بيت المقدس حين زيارته إياه ليزيد في جلال الحفلات برد الصليب إليه : ولم يعبأ بهذا الداعي إلى دين جديد . ولم يدُرْ بِخَلْدِهِ أن سنوات قليلة لن تحول حتى يكون بيت المقدس وتكون الشام في ظل الراية الاسلامية ، وأن العاصمة الاسلامية ستنتقل إلى دِمَشق ، وأن النضال بين دول الاسلام والامبراطورية الرومانية لن تهدأ تاثرته حتى يستولى الأتراك على القسطنطينية في سنة ١٤٥٣ . وحتى يحلوا كنيستها الكبرى مسجداً يكتب فيه اسم هذا النبي الذي حاول هرقل أن يظهر مظهر من لا يحفل به أو يُعنى بأمره . وأن تظل هذه الكنيسة مسجداً عدة قرون حتى يُحيلها المسلمون الأتراك متحفاً للفن البرنطى .

كسرى
وكتاب النبي

أما كسرى عاهل الفرس فانه مالبت أن تُلى عليه كتاب محمد يدعوه إلى الاسلام حتى استشاط غضباً وشق الكتاب : وكتب إلى بازان عامله على اليمن بأمره بأن يبعث اليه برأس هذا الرجل الذي بالحجاز . ولعله كان يحسب في هذا ما يخفف من آثار هزائمه أمام هرقل . فلما بلغت النبي مقالة كسرى وما فعل بكتابه قال : مزق الله ملكه . وأوفد بازان رسله برسالة إلى محمد . وفي هذه الأثناء كان كسرى قد خلفه ابنه شيرويه ، وكان النبي قد عرف ذلك فأخبر رسل بازان به وطلب إليهم أن يكونوا رسله إلى بازان يدعونه إلى الاسلام . وكان أهل اليمن قد عرفوا ما حل بفارس من هزائم وقد شعروا بانحلال سلطتها عنهم ، وقد اتصلت بهم انتصارات محمد على قريش وقضاؤه على سلطة اليهود . فلما رجع رسل بازان اليه وأبلغوه رسالة النبي كان سعيداً بأن يُسلم وأن يبقى عامل محمد على اليمن . وماذا ترى يطلب محمد إليه وما تزال مكة بينه وبينه ؟ . إذاً فله العُثم بعد أن تقلص ظل فارس في أن يحتمي بالقوة الناشئة الجديدة في بلاد العرب من غير أن تطلب اليه هذه القوة شيئاً . ولعل بازان لم يقدر يومئذ أن انضمامه إلى محمد إنما هو في الواقع نقطة ارتكاز قوية

للاسلام في جنوب شبه الجزيرة ، كما دلت الظروف عليه بعد عامين اثنين . وكان رد المقوقس عظيم القبط في مصر غير رد كسرى ، بل كان أجمل من رد هرقل . فقد بعث إليه يخبره أنه يعتقد أن نبياً سيظهر ، ولكنه سيظهر في الشام ، وأنه استقبل رسوله بما يجب له من إكرام ، وأنه بعث معه بهديّة جاريتين وبغلة بيضاء وحمراً ومقداراً من المال وبعض خيرات مصر . أما الجاريتان فأريّة التي اصطفاها النبي لنفسه والتي ولدت له إبراهيم من بعد ، وشيرين التي أهديت لحسان بن ثابت . وأما البغلة فأسمها النبي دُلْدُل ، وكانت فريدة بياضها بين البغال التي رأتها بلاد العرب . وأما الحمار فأسمى عُقَيْراً أو يعفوراً . وقيل محمد هذه الهدية . وذكر أن المقوقس لم يُسلم من خشية أن يسلبه الروم ملك مصر ، وأنه لولا ذلك لآمن ولكان من حظه الهدى .

وكان طبيعياً بعد الذي عرفنا من صلوات نجاشي الحبشة بالمسلمين أن يكون رده جميلاً ، حتى لقد ورد في بعض الروايات أنه أسلم وإن أثار طائفة من المستشرقين الشك حول إسلامه هذا . على أن الرسول بعث له غير كتاب دعوته إلى الإسلام بكتاب آخر يطلب إليه رد المسلمين الذين أقاموا بالحبشة إلى المدينة . وقد جهز لهم النجاشي سفينتين حملتاهم وعلى رأسهم جعفر ابن أبي طالب ومعهم أم حبيبة رَمْلَة بنت أبي سفيان بعد أن مات زوجها عبد الله بن جحش الذي جاء إلى الحبشة مسلماً ثم تنصّر وبقى على نصرانيته حتى مات . وقد أصبحت أم حبيبة بعد عودها من الحبشة من أزواج النبي ومن أمهات المؤمنين . ذكر بعض المؤرخين أن النبي تزوجها ليرتبط مع أبي سفيان برابطة النسب تؤكد العهد الحديبية . ورأى آخرون غير هذا وأن في زواج رَمْلَة من محمد . وأبو سفيان ما يزال على وثنيته ، ما تألم له نفسه ويغصّ به حلقه .

وأما أمراء العرب ، فقد رد أمير اليمن وعمان على رسالة النبي ردّاً فاحشاً

ورد أمير البحرين رداً حسناً وأسلم . ورد أمير اليمامة مظهراً استعداده للإسلام إذا هو نُصِب حاكماً ؛ فلعمري لمطامعه . ويذكرون أنه لم يلبث عاماً بعد ذلك حتى مات .

لماذا كانت
رمود أكثر
الملوك رقيقة

يستوقف القارىء ما فى إجابات أكثر هؤلاء الملوك والأمراء من رفق ومن حسن رأى . وأنه لم يُقتل أحد من رسل محمد ولم يسجن . بل عادوا إليه كلهم بما حملوا من رسالات فى أكثرها رقة وعطف ، وفى بعضها غلظة وشدة . فكيف تلقى أولئك الملوك رسالة الدين الجديد من غير أن يتألبوا على صاحب الدعوة له ، ومن غير أن يتضافروا على سحقه ؟ ذلك أن عالم يومئذ كان كعالمنا الحاضر ، قد طغت فيه المادة على الروح ، وأصبح فيه الترف غاية الحياة ، وأصبحت الأمم تقتتل حباً فى الظفر وإرضاء لمطامع ملوكها وساداتها وشفاء لغرور أنفسهم ، أو طمهاً فى مزيد من الترف تبلغه وتستمتع به . ومثل هذا العالم تهوى فيه العقيدة إلى طقوس تُقام فى العنن لا تؤمن النفوس التى تؤذيها بشئ ، بما وراءها ، ولا تُعنى إلا بأن تكون فى حكم صاحب السلطان الذى يُطعمها ويكسبها ويكفّل لها رخاء العيش وعرض الجاه وكثرة المال ، ولا تستمسك بهذه الطقوس إلا بمقدار ما تدرّ عليها من خير مادى . فاذا فاتها هذا الخير . خارت عزيمتها ، وتضعفت هممتها ، ووهنت فيها قوة المقاومة . لذلك لم يلبث الناس أن سمعوا دعوة جديدة للإيمان فيها بساطة وفيها قوة وفيها مساواة أمام رب واحد إتياءً وعباداً وإتياءً نستعين ، هو وحده الذى يملك ضمير النفوس ونفعها : شعاع من رضاه يبدد غضب ملوك الأرض جميعاً ، ومخافة غضبه تززع النفس وإن أغرقها الملوك كلهم فى النعمة والرضا ، والرجاء فى مغفرته متصل لمن تاب وآمن وعمل صالحاً — لم يلبث الناس أن سمعوا هذه الدعوة وأن رأوا صاحبها يقوى بها على الاضطهاد وعلى الظلم وعلى التعذيب وعلى كل ما فى الحياة المادية من قوى ؛ ويمتد بها سلطانه ، وهو

اليتم الفقير المحروم . إلى ما لم يحلم به أحد من قبله في بلده ولا في بلاد العرب كلها ، حتى اشرأبت الأعناق وأرهفت الآذان وشعرت النفوس بظلمتها وتطلعت الأرواح لمورد ربّها ، لولا بقية من الخوف والشك تقوم بينها وبين الحقيقة حجاباً . لذلك ردّ من ردّ من الملوك في رفق ورقة ؛ وبذلك ازداد المسلمون إيماناً على إيمانهم وقوة في يقينهم .

عاد محمد من خير ، وعاد جعفر والمسلمون معه من الحبشة ، وعاد رسل محمد من حيث أوفدهم ، والتقوا جميعاً بالمدينة كترّة أخرى . التقوا ليقضوا بقية عامهم هذا مشوقين ليوم في العام القابل يحجون فيه إلى مكة يدخلونها آمنين محلّقين رموسهم ومُقَصِّرِينَ لا يخافون . وقد بلغ من غبطة محمد ببقيا جعفر أن ذكر أنه لا يدري بأى هو أشد اغتباطاً : بالنصر على خير أو ببقيا جعفر . وفي هذه الفترة تجرى القصة التي تروى أن اليهود سحروا محمداً بفعل لبيد حتى كان يحسب أنه يفعل الشيء وهو لا يفعله . وهي قصة اضطربت فيها الروايات اضطراباً شديداً . يؤيد رأى بعضهم في أنها أقرب إلى أن تكون محض اختراع لا ظلّ من الحق فيها .

وأقام المسلمون آمنين بالمدينة مستمتعين بالعيش ناعمين بفضل من الله ورضوان ، لا يفكرون من أمر الغزو في أكثر من إرسال بعض السرايا للمعاينة من يفكر في الاعتداء على حقهم أو سلب شيء من مالهم ومتاعهم . فلما استدار العام كانوا في ذى القعدة إذ خرج النبي في ألفين من رجاله لعمرة القضاء نفاذاً لعهد الحديبية ، وإطفاء لظماً هذه النفوس الشديدة الظماً لأداء فرائض البيت العتيق .

عود المسلمين
من الحبشة

في انتظار
عمرة القضاء

الفصل الثاني والعشرون

عمرة القضاء

ركب المسلمين إلى مكة - جلاء قريش عن مكة - نزول المسلمين بها طواف محمد وهرولة - زواج محمد من ميمونة - رغبته إلى قريش أن يعرس بمكة ورفضهم ذلك - إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وثمان بن طلحة

استدار العام بعد الحديبية ، وأصبح محمد وأصحابه في حلٍّ ، بعهدهم مع قريش ، من الدخول إلى مكة ومن زيارة الكعبة . لذلك نادى الرسول في الناس كي يتجهزوا للخروج إلى عمرة القضاء بعد أن منعوا من قبلُ منها . ويسيرُ عليك أن تقدّر كيف أقبل المسلمون يُلبّون هذا النداء ، ومنهم المهاجرون الذين تركوا مكة منذ سبع سنوات ، ومنهم الأنصار الذين كانت لهم مع مكة تجارة ولهم إلى زيارة البيت الحرام هوى . لذلك زاد الركب إلى ألفين بعد أن كان ألفاً وأربعمئة في العام الذي سبقه . وتنفيذاً لعهد الحديبية لم يحمل أحد من هؤلاء الرجال سلاحاً إلا سيفاً في قرابه . لكن محمداً كان يخشى الغدر دائماً . فجهّز مائة فارس جعل على رأسهم محمد بن مسلمة ، وبعثهم طليعةً له على ألا يتخطوا حرم مكة . وأن يتحدروا إذا هم بلغوا مرّة الظهران إلى واد قريب منها . وساق المسلمون ، ومحمد على رأسهم يركب ناقته القصوى ، الهدى أمامهم ستين ناقة . وساروا من المدينة يحدهم شغف أي شغف بالدخول إلى أم القرى والطواف ببيت الله ، ويرقب كل واحد من المهاجرين أن يرى البقعة التي وُلد فيها ، والبيت الذي شبَّ عن الطوق بين جدرانه ،

خروج
المسلمين إلى
مكة

والأصحاب الذين غادر، وأن يتنسّم عرّفَ هذا الوطن المقدّس، وأن يلمس في إجلال وإعزاز ثرى القرية المباركة الميمونة التي أنجبت الرسول، والتي نزل فيها أول ما نزل من الوحي . وتستطيع أن تتصوّر هذا الجيش من المسلمين عدّتهم ألفان يُغذّون سيرهم تطفر أمامهم قلوبهم وترقص جَدلاً أفئدتهم، فاذا أناخوا جعل كل واحد منهم يقص على أصحابه آخر عهده بمكة أو أيام طفولته بها، أو يحدث عن أصدقائه فيها، أو عن المال الذي صحّى به في سبيل الله عند هجرته منها . تستطيع أن تتصوّر هذه المظاهرة الفذة من نوعها، يُزجى سيرها الايمان، ويجذب أصحابها إليه بيت جعله الله مشابة للناس وأمتاً؛ وإنك إذا لثرى بعين بصيرتك أى طرب كان يستخف هؤلاء الذين حيل بينهم وبين هذا الفرض المقدّس إذ يسرون إليه ليدخلوا مكة آمنين، محلّقين رهوسهم ومقصرين، لا يخافون .

وعرفت قريش بمقدّم محمد وأصحابه، فجالت عن مكة، نزولاً على صلح الحديبية، وصعدت في التلال المجاورة لها حيث ضربت الخيام، وحيث أوى منهم من أوى إلى في الشجر . ومن فوق أبنى قبئيس وجرّاء، ومن فوق كل مرتفع مُطلّ على مكة . أطل هؤلاء المسكيون ينظرون بعيون كلها التطلع إلى الطريد وأصحابه داخلين بلد البيت الحرام لا يصدّهم عنه صاد، ولا يحول بينهم وبينه حائل . وانحدر المسلمون من شمال مكة وقد أخذ عبد الله بن رَواحَة بحِطام القُصوى . وأحاط كبار الصحابة بالنبي عليه السلام، وسارت الصفوف من خلفهم ما بين راجل ومقعد غارب بعيه . فلما انكشف البيت الحرام أمامهم انحسرت شفاه المسلمين جميعاً عن صوت واحد منادية: لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ، متوجّهة بالقلوب والأرواح إلى وجهه الله ذى الجلال . محيطة في هالة من رجاء وإكبار بهذا الرسول الذى بعثه الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله . والحق أنه كان منظرًا فذاً من مشاهد التاريخ

حلا. قريش
عن مكة

نسون أمام
بيت الحرام

التي اهتزت لها أرجاؤه ، والتي جذبت إلى الاسلام قلوب أشدّ المشركين صلابة في وثنيته وفي عناده . وعلى هذا المنظر الفذ كانت تقع عيون أهل مكة ، وهذا الصوت المنبعث من القلوب يُدَوِّي : لتيك . لتيك . كان يخترق آذانهم فيهز قلوبهم هزاً . ولما بلغ الرسول المسجد اضطجع بردائه وأخرج عضده اليمنى ثم قال : اللهم ارحم امرأ أراحم اليوم من نفسه قوة . ثم استلم الركن عند الحجر الأسود وهزّوّل وهزّوّل أصحابه معه . حتى إذا استلم الركن اليماني مشى حتى استلم الحجر الأسود مُتَهَرِّلاً من جديد ثلاثة أطواف ومشى ساثرها . والألفان من المسلمين يهرولون كلما هزّوّل . ويمشون كلما مشى . وقريش تنظر من فوق أبي قُبَيْس فيأخذها لهذا المنظر البهر من كل مكان وتحسب أنها ، وكانت تحدّث عن محمد وأصحابه وأنهم في عُسرٍ وشدةٍ وجهد ، قد رأت ما يمحو من فؤادها كل وهمٍ بوهنٍ محمد وأصحابه . وفي حماسة هذه الساعة أراد عبد الله بن رَوَاحَةَ أن يقذف في وجه قريش بصيحة حرب ، فصده عمر . وقال له الرسول : « مَهْلًا يَا بْنَ رَوَاحَةَ . وقل لا إله إلا الله وحده ، نصر عبده ، وأعزّ جنده . وخذل الأحزاب وحده » — أو كما قال — فنادى بها ابن رَوَاحَةَ بأعلى صوته . وردّدها المسلمون من بعده ، فتجاوبت بأصدائها جوانب الوادي ، وارتفعت رهبتها إلى قلوب الذين تَسْتَمُّوا الجبال حوله .

ولما أتمّ المسلمون الطّواف بالكعبة انتقل محمد على رأسهم إلى الصفا والمروة فركب بينهما سبجاً ، كما كان يفعل العرب من قبل ، ثم نحر الهضبي عند المروة وحلق رأسه ، وأتمّ بذلك فرائض العُمرة . ولما كان الغد دخل محمد إلى الكعبة وبقي بها حتى صلاة الظهر . ولقد كانت الأصنام ما تزال تعمرها . مع ذلك علا بلال سقّفها وأذّن في الناس لصلاة الظهر عندها . وصلى النبي يومئذ بألفين من المسلمين صلاة الاسلام عند البيت الذي كان يُصَدُّ من سبع سنين

الطواف
بالكعبة

ثلاثة أيام
بمكة

مضت عن الصلاة عنده . وأقام المسلمون بمكة ثلاثة الأيام المفروضة في عهد
الحديبية . وقد خلت أم القرى من أهلها ، فجلس المسلمون خلالها لا يصيبهم
فيها أذى ولا يعترضهم أحد بسوء . والمهاجرون منهم يزورون دورهم
ويُزيرون أصحابهم من الأنصار إياها ، وكانوا جميعاً أصحاب هذا البلد
الأمين : وكلهم يسير سيرة الاسلام يُؤدّي إلى الله كل يوم صلواته فيقتل في
نفسه غرورها : ويُعين قوتهم ضعيفهم ، ويرزق غنيهم فقيرهم ؛ والنبي يتنقل
بينهم أباً مُحبباً محبوباً ، يبسم لهذا ويمزح مع ذلك ، ثم لا يقول إلا حقاً .
وقريش وسائر أهل مكة يُطلّون من منازلهم فوق السفوح على هذا المنظر
القدّ في التاريخ ، يرون رجالاً هذه أخلاقهم ، لا يشربون خمرأ ولا يأتون
معصية ولا يُغريهم الطعام ولا الشراب ولا تفتنهم في الحياة فتنة ، لا يعصون
الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . أى أثر يترك هذا المنظر الذي سما
بالإنسان إلى ما فوق أسمي مراتب الانسان ؟ ! يسيرٌ عليك أن تقدّره حين
تعلم أن محمداً عاد بعد ذلك بشهور ففتح مكة على رأس عشرة آلاف من
المسلمين .

كانت أم الفضل زوج العباس بن عبد المطلب عم النبي قد جعلت لها
أختها ميمونة يدها ، وكانت ميمونة في السادسة والعشرين من عمرها ، فجعلت
أم الفضل يد أختها للعباس . ولما رأت ميمونة ما رأت من أمر المسلمين في
عمرة القضاء هوّت إلى الاسلام نفسها ، فخاطب العباس ابن أخيه في أمرها
وعرض عليه أن يتزوجها . وكانت ميمونة هذه خالة خالد بن الوليد . فلما
أفضى العباس بالأمر إلى محمد قبل وأصدقها أربعمئة درهم . وكانت ثلاثة
الأيام التي نص عهد الحديبية عليها قد انقضت ؛ لكن محمداً أراد أن يتخذ من
زواجه ميمونة وسيلة لزيادة في التفاهم بينه وبين قريش . فلما جاءه سهيل بن
عمرو وحويطب بن عبد العزّي من قبل قريش يقولون لمحمد : « إنه قد

زواج محمد
ميمونة

انقضى أجلك فاخرج عنا» ، قال لهم : ما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم وصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه . . قال محمد ذلك وهو يعلم ما تركت عمرة القضاء في نفس أهل مكة من أثر ، وكيف سحرتهم وسكنت من خصوصتهم ، ويعلم أنهم إن قبلوا دعوته إلى الطعام فتحدث إليهم وتحدثوا إليه فتحت مكة أمامها طائفة . وهذا ما خشى سهيلٌ وحويتب . لذلك كان جوابهما : لا حاجة لنا في طعامك فاخرج عنا . ولم يتردد محمد في النزول على رأيهما تنفيذاً لعهد مع قومهما . فأذن في المسلمين بالرحيل ، وخرج المسلمون من ورائه . وخلف أبا رافع مولاة علي ميمونة حتى أتاه بها بسرف فبنى بها . وميمونة أم المؤمنين آخر أزواج النبي ، عمرت بعده خمسين سنة ، ثم طلقت أن تدفن حيث نبي بها رسول الله . وحمل محمد معه أختي ميمونة سلى أرملة عمه حمزة ، وعمارة البكر التي لم تتزوج .

خروج
المسلمين
إلى المدينة

وبلغ المسلمون المدينة وأقاموا بها . ومحمد لا يشك في عظم ما تركت عمرة القضاء من أثر في نفوس قريش وفي نفوس أهل مكة جميعاً ، ولا يشك فيما سينشأ عنها من آثار سريعة خطيرة .

وصدقت الأيام تقديره . فانه لم يلبث أن تحمل راجعاً إلى المدينة حتى وقف خالد بن الوليد فارس قريش المعلم وبطل أحد يقول في جمع منها : لقد استبان لكل ذي عقل أن محمداً ليس بساحر ولا شاعر ، وأن كلامه من كلام رب العالمين ، فحق علي كل ذي لب أن يتبعه . . وقد فرغ عكرمة ابن أبي جهل لما سمع ، فرد قائلاً : لقد صبوت يا خالد . ودار بينهما الحديث الآتي — :

خالد — لم أصبوت ولكني أسلمت .

عكرمة — والله إن كان أحق قريش ألا يتكلم بهذا الكلام إلا أنت .

خالد — ولم ؟

إسلام خالد
بن الوليد

عكرمة — لأن محمداً وضع شرف أريك حين جرح وقتل عمك وابن
عمك بيد فوائه ما كنت لأسلم ولاتكلم بكلامك ياخالد.
أما رأيت قريشاً يريدون قتاله !!
خالد — هذا أمر الجاهلية وحميتها . لكني والله أسلمت حين تبين
لي الحق .

وبعث خالد إلى النبي أفراساً وبعث إليه بافراره بالاسلام وعرفانه .
وبلغ اسلام خالد أبا سفيان ، فبعث في طلبه وسأله : أحق ما بلغه عنه . ولما
أجابه خالد أنه حق غضب وقال : « واللآت والعزى لو أعلم أن الذي تقول
حق لبدأت بك قبل محمد . » . قال خالد : « فوالله إنه لحق على رغم من رغم » .
فاندفع أبو سفيان في غضبه نحوه : فحجزه عنه عكرمة وكان حاضراً وقال :
« مهلاً يا أبا سفيان . فوالله لقد خفت للذي خفت أن أقول مثل ما قال خالد
وأكون على دينه . أتم تقتلون خالداً على رأيٍ رأيته وهذه قريش كلها تبايعت
عليه ، والله لقد خفت ألا يحول الحول حتى يتبعه أهل مكة كلهم » . وخرج
خالد من مكة إلى المدينة ، فانضم إلى صفوف المسلمين .

وأسلم من بعد خالد عمرو بن العاص ، وحارس الكعبة عثمان بن طلحة .
وقد أسلم باسلام هؤلاء كثير من أهل مكة واتبعوا دين الحق . وبذلك قويت
شوكة الاسلام ، وأصبح فتح مكة أبوابها لمحمد أمراً لا محل لريبة فيه .

اسلام عمرو
ابن العاص
وعثمان
ابن طلحة

الفصل الثالث والعشرون

غزوة مؤتة

اتجاه نظر محمد إلى الشام — توجيهه ثلاثة آلاف لغزوها — لواؤم
لزيد بن حارثة ، فإن أصيب فلجعفر بن أبي طالب ، فإن أصيب
فلعبد الله بن رواحة على الناس — الروم في مائة ألف أو مائتي ألف
التقاء الجيشين بمؤتة — موت الثلاثة أصحاب اللواء على التماق
الراية لخالد بن الوليد — مناورته وانسحابه

لم يكن محمد يستعجل فتح مكة وهو يعلم أن الزمن في صفه ، كما أن عهد
الحديبية لم يكن قد مضى عليه غير عام واحد ، ولم يكن قد جد ما يوجب
نقضه . ومحمد رجل وفاء لا ينقض كلمة قال ولا عهداً عقده . لذلك ذهب إلى
المدينة فأقام بضعة أشهر لم تقع خلالها غير مناوشات صغيرة ، كارسال خمسين
رجلاً إلى بني سُلَيْمٍ ليدعوهم إلى الإسلام وعذّر بنى سليم بهم وقتلهم إياهم بغياً
بغير حق ، حتى لم يكدر رئيسهم ينجو إلا بمحض المصادفة : وكغزو جماعة من
بنى الليث والظفر بهم والغنم منهم : وكعاقبة بنى مرّة على ما عذروا من قبل .
وكارسال خمسة عشر رجلاً إلى ذات الطلح على حدود الشام يدعون إلى
الإسلام دعوةً كان جزاؤهم عنها القتل لم ينج منه إلا رئيسهم . وقد كانت
ناحية الشام وهذه الجهات الشمالية مُتَّجَةً نظر النبي منذ أمن الجنوب بعهد
مع قريش وبإذعان عامل اليمن لدعوته . ذلك أنه كان يتوسّم طريق انتشار
دعوته إلى الإسلام أوّل مغادرتها حدود شبه الجزيرة ، فيرى الشام والبلاد
المجاورة هي المنفذ الأوّل لهذه الدعوة . لذلك لم تمض أشهر على مُقامه بالمدينة

بعد عودته من عمرة القضاء. حتى وجه ثلاثة آلاف هم الذين قاتلوا في مؤتة مائة ألف في رواية ومائتي ألف في رواية أخرى .

ويختلف الرواة في سبب غزوة مؤتة هذه . فيذهب بعضهم إلى أن قتل أصحابه في ذات الطلح كان سبب الغزو لتأديب هؤلاء الغادرين . ويذهب آخرون إلى أن النبي أرسل رسولاً من رسله إلى عامل هرقل على بصرى وأن أعرابياً من غسان قتل هذا الرسول باسم هرقل ، فبعث محمد بالذين قاتلوا في مؤتة لتأديب هذا العامل ومن ينصره .

وكما كان عهد الحديبية مقدّمة عمرة القضاء ففتح مكة ، كذلك كانت غزوة مؤتة مقدّمة تبوك وما كان بعد وفاة النبي من فتح الشام . وسواء أكان السبب الذي أدى إلى غزوة مؤتة هو قتل رسول النبي إلى عامل بصرى أو قتل رجاله الخمسة عشر في ذات الطلح ، فإنه عليه السلام دعا إليه في جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة (سنة ٦٢٩ م) ثلاثة آلاف من خيرة رجاله واستعمل عليهم زيد بن حارثة وقال : « إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس ، وإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس ، . وخرج هذا الجيش وخرج معه خالد بن الوليد متطوعاً ليدنّ بحسن بلائه في الحرب على حسن إسلامه . وودع الناس أمراء الجيش والجيش ، وسار معهم محمد حتى ظاهر المدينة ، يوصيهم ألا يقتلوا النساء ولا الأطفال ولا المكفوفين ولا الصبيان ، وألا يهدموا المنازل ولا يقطعوا الأشجار . ودعا عليه السلام ودعا المسلمون لهذا الجيش قائلين : صحبكم الله ودفع عنكم وردكم إلينا سلمين . وكان أمراء الجيش يفكرون كلهم في أخذ القوم من أهل الشام على غرة منهم . على عادة النبي في سابق غزواته ، فيُسرع إليهم النصر ويعودوا بالغنيمة . وسار القوم حتى بلغوا معان من أرض الشام وهم لا يعلمون ما هو ملاقيهم . لكن أبناء مسيرتهم كانت قد سبقتهم . فقام شُرْحبيل عامل هرقل

تجويد الروم
المقابل

على الشام فجمع جموع القبائل عن حوله ، وأوفد من جعل هرقل يمدّه بجيوش
من الاغريق ومن العرب . وتذهب بعض الروايات إلى أن هرقل نفسه تقدّم
بجيوشه حتى نزل مآب من أرض البلقاء على رأس مائة ألف من الروم . كما
انضم إليه مائة ألف أخرى من نخع وجذام والقين وسرا ، وبلي . ويقال : إن
تِيودُورَ أخا هرقل هو الذي كان على رأس هذه الجيوش لا هرقل نفسه .
على كل حال فقد بلغ المسلمين وهم بُعَاعَانُ أمر هذه الجموع . فأقاموا بها ليلتين
يفسكرون ماذا يصنعون أمام هذا العدد الذي لا قبل لهم به . قال قائل منهم :
نكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنخبره بعدد عدونا . فاما أن يمدنا
بالرجال وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له . وكاد هذا الرأي يسود لولا أن
تقدّم عبد الله بن رواحة . وكان إلى جانب شهامته وفروسيته شاعراً ، فقال :
يا قوم ! والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون : الشهادة . وما نقاتل
الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ؛ ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله
به : فانطلقوا ، فانما هي إحدى الحسينين : إما ظهور ، وإما شهادة . وامتدت
عدوى النخوة من الشاعر الشجاع إلى الجيش كله ، فقال الناس : فوالله صدق
ابن رواحة ! ومضوا ، حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل من
الروم والعرب بقرية يقال لها مَشَارِف . فلما دن العُدُوّ انحاز المسلمون إلى
قرية مُؤْتة أن رأوها خيراً من مَشَارِف لتحصنهم بها . وفي مؤتة بدأت
المعركة حامية الوطيس بين مائة أو مائتي ألف من جيوش هرقل وبين ثلاثة
آلاف من المسلمين .

الاستشهاد
زيد بن حارثة

بالجلال الايمان وروعة قوته ! حمل زيد بن حارثة راية النبي واندفع
بها في صدر العدو وهو موقن أن ليس من موته مفر . لكن الموت في هذا
المقام هو الاستشهاد في سبيل الله . وليس الاستشهاد دون النصر والظفر
مكاناً . وحارب زيد حرب المستميت حتى مرّفته رماح العدو . فتناول الراية

من يده جعفر بن أبي طالب وهو يومئذ في الثالثة والثلاثين من عمره ، وهو شاب تعدل وسامته شجاعته. وقاتل جعفر بالراية، حتى إذا أحاط العدو بفرسه اقتحم عنها فمقرها واندفع بنفسه وسط القوم منطلقاً انطلاقاً السهم يهوى سيفه برءوسهم حيثما وقع . وكان اللواء يمين جعفر فقطعت ، فأخذه بشماله فقطعت ، فاحتضنه بعضديه حتى قُتل . يقال إن رجلاً من الروم ضربه يومئذ ضربة قطعتة نصفين . فلما قُتل جعفر أخذ ابن رواحة الراية ثم تقدم بها وهو على فرسه فطاعن القوم ساعة ثم ولى . لكنه لام نفسه، فنزل عن فرسه وقال لنفسه : أقسمت بالله لتنزله ، إنى أراك تكبرهين الجنة ، ثم عاد إلى العدو فتقاتلهم حتى قُتل .

استشهد جعفر
بن أبي طالب

استشهد
بن رواحة

هو لاء زيد وجعفر وابن رواحة استشهدوا ثلاثتهم في سبيل الله في موقعة واحدة . لكن النبي لما علم بخبرهم كان على زيد وجعفر أكبر أسى وقال : إنهم لما رمقوا إليه في الجنة رأى في سرير عبد الله بن رواحة ازوراراً عن سريري صاحبيه : فسأل لم هذا ؟ فقيل له : مضياً وتردد عبد الله بعض التردد ثم مضى . أتري إلى هذه العبرة والموعظة الحسنة ! فاعلم معناها أن المؤمن لا يجوز له أن يتردد أو يخاف الموت في سبيل الله ، بل يجب عليه كلما مضى في أمر يؤمن بأنه لله أو للوطن أن يحمل حياته على كفه ، وأن يلقى بها في وجه من يقف في سبيله ، فاما فاز وظفر فبلغ ما يؤمن به من حق الله والوطن . وإما استشهد فكان المثل الحى لمن بعده ، والذكر الباقي لروح عظيم عرف أن قيمة الحياة ما يضحى بالحياة في سبيله ، وأن الامساك على الحياة في مذلة إهدار للحياة فما يستحق صاحبها بعد ذلك في الحياة ذكراً ؛ وأن الرجل يلقى بيديه إلى التهلكة إذا هو عرض حياته تعريضاً تذهب معه ضحية غرض وضيع ؛ وأنه كذلك يلقى بيديه إلى التهلكة إذا هو أمسك على حياته حين يدعوه داعى الحق جل شأنه ليقذف بها في وجه الباطل ليسحقه، فيوارىها هو

قتل الحى
بن الاستشهد

بالحجاب ، ويخاف عليها الموت خوفاً هو شر من الموت . وإذا كان التردد القليل من ابن ربيعة ، مع إقدامه بعد ذلك واستشهاده ، قد جعله في غير مكانة زيد وجعفر اللذين اقتحما صفوف الموت اقتحاما وطارا للاستشهاد فرحا ، فما بالك بالذي ينكص على عقبيه طمعاً في جاه أو مال أو غرض من أغراض الحياة ! . إنه إذا لالتحيرة الحقيرة وإن عرّض عند السواد جاهه ، وإن بدّ مال قارون ماله . وهل لنفس إنسانية أن تغتبط حقاً بشيء اغتباطها للتضحية في جانب ما تؤمن بأنه الحق يجعلها تزدري الحياة وأهل الحياة ، وتنتهي من ذلك إلى الاستشهاد في سبيل الحق ، أو إلى تملك الحق الحياة ! .

قُتِلَ ابن ربيعة بعد تردد ثم إقدام ! فأخذ الراية ثابت بن أرقم أحد بني العجلان ، فقال : يا معشر المسلمين ، اصطلحوا على رجل منكم . قالوا : أنت . قال : ما أنا بفاعل . فاصطلح الناس على خالد بن الوليد . فأخذ خالد الراية برغم ما رأى من تفرق صفوف المسلمين وتضعف قوتهم المعنوية . وكان خالد قائداً ماهراً ومحركاً للجيوش قل نظيره . لذلك أصدر أوامره ، فناور بالمسلمين حتى ضم صفوفهم فوقف من محاربة العدو عند مناوشات امتدت به حتى أرخى الليل سدوله ، وحتى وضع الجيشان السلاح إلى الصباح . أثناء ذلك أحكم خالد تدبير خُطته فوزع عدداً غير قليل من رجاله في خط طويل من مؤخرة جيشه أحدثوا ، إذ أصبح الناس ، من الضجة ما أدخل إلى رُوع عدوه أن مدداً جاءه من عند النبي . وإذا كان ثلاثة آلاف قد فعلوا بالروم الأفاعيل في اليوم الأول وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، وإن لم يستطيعوا أن يصمدوا ، فما عسى أن يصنع هذا المدد الذي جاء لا يدري أحد عدته !! لذلك تقاعس الروم عن مهاجمة خالد وسُرّوا بعدم مهاجمته إياهم ، وكانوا أكثر سروراً بانسحابه ومن معه راجعين إلى المدينة ، بعد معركة لم ينتصر فيها المسلمون وإن كان حقاً كذلك أن عدوهم لم ينتصر عليهم فيها .

منارة خالد
ابن الوليد

لذلك مالبت خالد والجيش معه أن دنوا من المدينة حتى تلقاهم محمد
 والمسلمون معه . وطلب محمد فأتى بعبد الله بن جعفر فأخذه وحمله بين يديه .
 أما الناس فجعلوا يَحْثُونَ على الجيش التراب ويقولون : يا قَرَار فررتم في سبيل
 الله ، فيقول رسول الله : ليسوا بالفرار ولكنهم الكُرَار إن شاء الله . ومع
 هذه التأسية من محمد للعائدين من مؤتة فقد ظل المسلمون لا يغفرون لهم
 انسحابهم وعودهم ، حتى كان سلمة بن هشام لا يحضر الصلاة مع المسلمين
 خشية أن يسمع من كل من رآه : يا قَرَار فررتم في سبيل الله . ولو لا ما كان
 بعد ذلك من فعال هؤلاء الذين حضروا مؤتة ، ومن فعال خالد بنوع خاص .
 لظلت مؤتة معتبراً لبعض ما نضح به إخوانهم في الدين جبينهم من عار الفرار .
 وقد بلغ الألم من نفس محمد منذ علم بقتل زيد وجعفر ، وحز الآسى في
 نفسه من أجلهما . لما أصيب جعفر ذهب محمد إلى منزله ودخل على زوجته
 أسماء بنت عميس . وكانت قد عجنت عجينها وغسلت بينها ودهنتهم ونظفتهم .
 فقال لها : اثيني بئني جعفر . فلما أته بهم تشتمهم وذرفت عيناه الدمع .
 قالت أسماء في لهف وقد أدركت ما أصابها : يا رسول الله ، بأبي أنت وأمي !
 ما بيكيك ؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء ؟ قال : نعم ! أصدبوا هذا اليوم .
 وازدادت عيناه بالدمع تهتاً . فقامت أسماء تصيح حتى اجتمع النساء إليها .
 أما محمد فخرج إلى أهله فقال : لا تعفلوا آل جعفر من أن تصنعوا لهم طعاماً
 فانهم قد شغلوا بأمر صاحبهم . ورأى ابنة مولاه زيد قادمة فربت على كتفها
 وبكى . وأظهر بعضهم دهشته لبكاء الرسول على من استشهد : فقال ما معناه :
 إنما هي عبرات الصديق يفقد صديقه .

الفرار الكرار

بكاء محمد
 المستشهدين

وفي رواية أن جثة جعفر حملت إلى المدينة ودُفنت بها بعد ثلاثة أيام
 من وصول خالد والجيش إليها . ومن يومئذ أمر الرسول الناس أن يكسفوا عن
 البكاء . فقد أبدل الله جعفرًا من يديه اللتين قطعنا جناحين طار بهما إلى الجنة .

أراد محمد بعد أسابيع من عود خالد أن يستردَّ هيبة المسلمين في شمال شبه الجزيرة ، فبعث عمرو بن العاص يستنصر العرب إلى الشام ، وذلك أن أُمَّة كانت من قبائل تلك النواحي ، فكان يسيراً عليه أن يتألفهم . فلما كان على ماء بأرض جُدَام يقال له السُّنْسُل خاف فبعث إلى النبي عليه السلام يستمده فأمدّه بأبي عُبَيْدَةَ بن الجراح في المهاجرين الأوّلين فيهم أبو بكر وعمر . وخاف محمد أن يختلف عمرو وهو حديث عهد بالاسلام مع أبي عُبَيْدَةَ من المهاجرين الأوّلين ، فقال لأبي عُبَيْدَةَ حين وجّههُ : لا تختلفا . وقال عمرو لأبي عُبَيْدَةَ : إنما جئتُ مدداً لي فأنا على قيادة الجيش . وكان أبو عُبَيْدَةَ رجلاً ليناً سهلاً هيناً عليه أمر الدنيا ، فقال لعمرو : لقد قال لي رسول الله : لا تختلفا . وإنك إن عصيتني أطعتك . وصلى عمرو بالناس . وتقدّم بالجيش فشنت جموع أهل الشام الذين أرادوا محاربتة ، وأعاد بذلك هيبة المسلمين في تلك الناحية . في هذه الأثناء كان محمد يفكر في مكة ومآلها . لكنه ، كما قدّمنا ، كان وفيّاً بعهد الحُدَيْبِيَّة . فأقام ينتظر انقضاء السنّتين ، وجعل أثناء ذلك يوفد السرايا ليسكنَ بها ثائرة القبائل التي تحدّثها نفوسها بالثورة . على أنه كان في غير حاجة إلى كبير عناء من هذه الناحية : فقد بدأت الوفود ترد إليه من مختلف النواحي تعلن إليه طاعتها وإذعانها ، وإنه كذلك إذ حدث ما كان مقدّمة لفتح مكة ، ولا استقرار الاسلام بها استقراراً أسبغ عليها إلى أبد الدهر أعظم القداسة .

الفصل الرابع والعشرون

فتح مكة

أثر موقعة مؤتة - نقض قريش عهد الحديبية - استعداد خزاعة النبي
على قريش - سفارة أبي سفيان إلى النبي وفضلها - تجهز المسلمين
عشرة آلاف يسبرون إلى مكة - رجاء محمد أن يفتح أم القرى من غير
إراقة للدماء - وفود العباس ثم وفود أبي سفيان إليه بظاهر مكة
دخول المسلمين فاتحين - المكيون الذين تحرشوا بجيش خالد بن الوليد
عفو محمد عن خصومه جميعاً - تطهير الكعبة من الأصنام

إسلام أهل مكة

عاد جيش المسلمين بعد موقعة مؤتة ولواؤهم لخالد بن الوليد . عادوا
لا متصرين ولا منكسرين ولكن راضين من الغنيمة بالاياب . وقد ترك
انسحابهم بعد موت زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبدالله بن رواحة
أثراً مختلفاً أشد الاختلاف عند الروم وعند المسلمين المقيمين بالمدينة وعند
قريش بمكة . أما الروم ففرحوا بانسحاب المسلمين وحمدوا ربهم أن لم يطل
القتال بهم . مع أن جيش الروم كان مائة ألف على قول ومائتي ألف على قول
آخر ، على حين كانت عدة المسلمين ثلاثة آلاف . وسواء أكان فرج الروم
راجعاً إلى ما أبدى خالد بن الوليد من الاستماتة في الدفاع والقوة في الهجوم
حتى لقد تحطمت في يده تسعة أسياف وهو يحارب بعد موت أصحابه الثلاثة .
أم كان راجعاً إلى مهارة خالد في توزيع الجيش في اليوم الثاني وإحداث

أثر مؤتة
واختلافه

ماحدث من الجلبة حتى ظن الروم أن مدداً جاءه من المدينة ، فان القبائل العربية المتاخمة للشام نظرت الى فعال المسلمين باعجاب أشد الاعجاب . وكان من ذلك أن أحد زعمائهم فروة بن عمرو الجُدَامِي ، وكان قائداً لفرقة من جيش الروم ، ما لبث أن أعلن إسلامه فقُبِض عليه بأمر من هرقل بتهمة الخيانة . وكان هرقل على استعداد للافراج عنه اذا هو عاد الى المسيحية . بل كان على استعداد أن يرده الى مركز القيادة الذي كان فيه . لكن فروة أبي وأصر على إباته وعلى إسلامه فقُتِل . وكان من ذلك أيضاً أن ازداد الاسلام انتشاراً بين قبائل نجد المتاخمة للعراق وللشام حيث كان سلطان الرومان في ذروته .

وزاد في انضمام الناس الى الدين الجديد اضطرابُ أحوال الدولة البرَنْطِيَّة اضطراباً جعل أحد عمال هرقل ، وقد كُتِف أن يدفع للجيش رواتبه ، يصيح في وجه عرب الشام الذين اشتركوا في الحرب : « انسحبوا . فالامبراطور لا يجد ما يدفع منه رواتب جنده الا بمشقة . وليس لديه لذلك ما يوزعه على كلابه . » . فلا عجب أن ينصرف هؤلاء عن الامبراطور وعن جنده ، وأن يزداد ضياء الدين الجديد أمامهم نوراً يهديهم الى صدق الحقيقة السامية التي يبشر الناس بها . لذلك اعتنق الاسلام في هذه الفترة ألوف من سُلمِي وعلی رأسهم العباس بن مرْداس ، ومن أشجع وعَطَفَان الذين كانوا حلفاء اليهود حتى نُكِب اليهود في خَيْبَر . ومن عَبَس ومن ذُبَّان ومن فَرَّارَة . فكانت وقعة مؤتة بذلك سبباً في استتباب الأمر للمسلمين في شمال المدينة الى حدود الشام ، وفي ازدياد الاسلام عزة وقوة ومنعة .

لكن أثرها في نفس المسلمين المقيمين بالمدينة كان غير هذا الأثر . فهم ما لبثوا أن رأوا خالداً والجيش معه عائد من تخوم الشام لم يتصرفوا على جيش هرقل حتى صاحوا في وجوههم : « يافرَّار فررتم في سبيل الله . » وحتى كان من نخجل بعض كبار رجال الجيش أن لزم بيته حتى لا يؤذيه

انتشار
الاسلام
في
شمال الجزيرة

صبيان المسلمين وشبّانهم بتهمة الفرار . أما أثر مؤتة في نفس قريش فكان أنها هزيمة قضت على المسلمين وعلى سلطاتهم حتى لم يبق إنسان يأبه لهم أو يقيم لعهدهم وزناً . فلتعدّ الأمور كما كانت قبل عمرة القضاء ، ولتعدّ الأمور كما كانت قبل عهد الحديبية . ولتعدّ قريش حرباً على المسلمين ومن في عهدهم من غير أن تحشى من محمد قصاصاً .

وصلح الحديبية كان قد قضى أنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده فليدخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فليدخل فيه . وكانت خزاعة قد دخلت في عهد محمد ، ودخلت بنو بكر في عهد قريش . وكانت بين خزاعة وبنو بكر ثارات قديمة سكنت بعد صلح الحديبية وانحياز كل من القبيلتين إلى فريق من المتصالحين . فلما كانت مؤتة وخيّل إلى قريش أن المسلمين قضى عليهم ، خيّل إلى بني الدّيل من بني بكر بن عبد مناة أن الفرصة سنحت لهم ليصيروا من خزاعة بثاراتهم القديمة . وحرصهم على ذلك جماعة من قريش منهم عكرمة بن أبي جهل وبعض سادات قريش وأمدوهم بالسلاح . وفيما خزاعة ذات ليلة على ماء لهم يدعى الوّبير اذ فاجأتهم بنو بكر فقتلوا منهم . ففرت خزاعة إلى مكة ولجئوا إلى دار بُدَيْل بن ورقاء وشكوا إليه نقض قريش ونقض بني بكر عهدهم مع رسول الله . وسارع عمرو بن سالم الخزاعي فعدا متوجّهاً إلى المدينة حتى وقف بين يدي محمد وهو جالس في المسجد بين الناس . وجعل يقص عليه ما حدث ويستنصره . قال رسول الله :
 . نُصِرْت يا عمرو بن سالم . ثم خرج بُدَيْل بن ورقاء في نفر من خزاعة حتى قدموا المدينة فأخبروا النبي بما أصابهم وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم . عند ذلك رأى النبي أن ما قامت به قريش من نقض عهده لا مقابل له إلا فتح مكة ، وأنه لذلك يجب أن يرسل إلى المسلمين في أنحاء شبه الجزيرة ليكونوا على أهبة لاجابة ندائه من غير أن يعرفوا وجهته بعد هذا الداء .

نقض قريش
عهد الحديبية

استنصار
خزاعة بالنبي

عناوف حكام
قريش

أما حكام قريش وذوو الرأي فيها فما لبثوا أن قدرُوا ما عرضهم له
عكرمة ومن معه من الشبان من خطر . فهذا عهد الحديدية قد نُقِصَ ، وهذا
سلطان محمد في شبه الجزيرة يزداد بأساً وقوة . ولئن فكر بعد الذي حدث في
أن ينتقم لخزاعة من أهل مكة لتتعرض المدينة المقدسة لأشد الخطر . فإذا
تراهم يصنعون ؟ أوفدوا أبا سفيان إلى المدينة لئسبث العقد وليزيد في المدة .
ولعل المدة كانت سنتين فكانوا يريدونها عشراً . وخرج أبو سفيان قائدهم
وحكيمهم يريد المدينة . فلما بلغ من طريقه عُسْفَانَ لقيه بُدَيْلُ بن ورقاء
وأصحابه ، تخاف أن يكون قد جاء محمداً وأخبره بما حدث ، فيزيد ذلك في
مهمته تعقيداً . وبرغم مانعي بديل مقابته محمداً فقد عرف من بعير راحلته أنه
كان بالمدينة . لذلك أثر ألا يكون محمد أول من يلقى . فجعل وجهته بيت ابنته
أم حبيبة زوج النبي .

أبو سفيان
بالمدينة

ولعلمها كانت قد عرفت عواطف النبي إزاء قريش وإن لم تكن تعلم ما
اعتزمه في أمر مكة . ولعل ذلك كان شأن المسلمين بالمدينة جميعاً . فقد أراد
أبو سفيان أن يجلس على فراش النبي فطوته أم حبيبة . فلما سأها أبوها :
أطوته رغبة بابيها عن الفراش أم رغبة بالفراش عن أبيها ، كان جوابها : هو
فراش رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأنت رجل مشرك نجس فلم أحب
أن تجلس عليه . قال أبو سفيان : والله لقد أصابك يابنية بعدى شر !
وخرج مغضباً ، فكلم محمداً في العهد وإطالة مدته ، فلم يرد عليه شيئاً . فكلم أبا
بكر ليكلم له النبي فأبى . فكلم عمر بن الخطاب فأغلظ له في الرد وقال : أنا
أشفع لكم إلى رسول الله ! فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به . ودخل
أبو سفيان على علي بن أبي طالب وعنده فاطمة . فعرض عليه ما جاء فيه
واستشفعه إلى الرسول فأبأه علي في رفق أنه لا يستطيع أحد أن يرد محمداً
عن أمر إذا هو اعتزمه . واستشفع رسول قريش فاطمة أن يجير ابنها الحسن

فضل سفارة
أبي سفيان

بين الناس؛ فقالت: ما ينجي أحد على رسول الله. واشتدت الأمور على أبي سفيان، فاستنصح علياً فقال له: والله ما أعلم شيئاً يُغني عنك شيئاً. لكنك سيد بني كنانة فقم فأجز بين الناس ثم الحق بأرضك؛ وما أظن ذلك مغنياً ولكني لا أجد لك غيره. فذهب أبو سفيان إلى المسجد وهناك أعلن أنه أجاز بين الناس. ثم ركب راحلته وانطلق ذاهباً إلى مكة وقابه يفيض أسى بما لقي من هوان على يد ابنته وعلى يد أولئك الذين كانوا قبل هجرتهم من مكة يرتجون منه نظرة عطف أو رضا.

عاد أبو سفيان إلى مكة، فقص على قومه ما لقي بالمدينة وما أجاز بين الناس في المسجد بمشورة علي، وأن محمداً لم يُجز جواره. قال قومه: وبلك والله إن زاد الرجل على أن لعب بك. وعادوا فيما بينهم يتشاورون.

أما محمد فقد رأى ألا يترك لهم الفرصة حتى يتجهزوا للقائه. ولئن كان واثقاً من قوته ومن نصر الله إياه، فقد كان يرجو أن يبغث القوم في غرة منهم، فلا يجردوا له دفعا فيسلخوا من غير أن تراق الدماء. لذلك أمر الناس بالتجهز. فلما تجهزوا أعلنهم أنه سائر إلى مكة وأمرهم بالجِدِّ، ودعا الله أن يأخذ العيون والأخبار عن قريش حتى لا تقف من سيرهم على نبأ.

وبينما الجيش على أهبة السير كتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً أعطاه امرأة من مكة مولاة لبعض بني عبد المطلب، وجعل لها جُعلاً على أن تبلغه قريشاً ليقفوا على ما أعد محمد لهم. وحاطب كان من كبار المسلمين. لكن في النفس الإنسانية جوانب ضعف تطغى في بعض الأحيان عليها وتهوى بها إلى ما لا ترضاه لنفسها. وما لبث محمد أن أحبط بالأمر خُبراً. فسارع فبعث علي بن أبي طالب والزيير بن العوام فأدركا سارة فاستنزلاها فالتصمى في رحامها فلم يجد شيئاً. فأنذرها على إن لم تخرج هذا الكتاب ليكشفتها. فلما رأت المرأة الجِدَّ منه قالت: أعرض. فأعرض، فخلت ذوائب شعرها فأخرجت الكتاب

تجهز المسلمين
لفتح مكة

كتاب
ابن أبي بلتعة
إلى قريش

منها فرداها إلى المدينة . ودعا محمد حاطباً يسأله ما حمله على ذلك . قال حاطب :
 يا رسول الله ، أما والله إنى لمؤمن بالله وبرسوله ما غيرت ولا بدلت ، ولكنى
 كنت امرأ ليس له فى القوم من أهل ولا عشيرة ، وكان لى بين أظهرهم ولد
 وأهل فصانعتهم عليهم . قال عمر بن الخطاب : دعنى يا رسول الله فلا ضرب
 عنقه فان الرجل قد نافق . قال رسول الله : وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع
 على (وفى رواية إلى ولم ترد فى المعاجم) أصحاب بدر يوم بدر فقال : اعملوا ما
 شئتم فقد غفرت لكم . وكان حاطب من أصحاب بدر . وإذ ذاك نزل قوله تعالى :
 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ،
 وتحرك جيش المسلمين من المدينة قاصداً مكة ليفتحها وليضع يده على
 البيت الحرام الذى جعله الله مثابة للناس وأمناً . تحرك هذا الجيش فى عدد
 لا عهد للمدينة به . فقد بعث القبائل من سُلَيْم ومُرَيْنَةَ وَعُظْفَانَ وغيرها من
 انضم إلى المهاجرين والأنصار وسار معهم فى بَلْب الحديد يسيلون فى فسيح
 الصحراء ، حتى كانوا إذا ضربوا خيامهم اكتست بها رمال البيداء فما يكاد
 يبدو منها للناس شئ . تحركوا وأخذ هؤلاء الألو فسيرهم وصاروا كلما
 تقدموا فيه انضم إليهم من سائر القبائل من زاد عددهم وزاد منعتهم ، وكلهم
 ممتلىء النفس بالإيمان أن لا غالب لهم من دون الله . وسار محمد على رأسهم
 وأكبر همه وكل تفكيره أن يدخل البيت الحرام من غير أن يُهريق نقطة
 دم واحدة . وبلغ الجيش مرَّ الظهران وقد كملت عدته عشرة آلاف لم يصل
 إلى قريش من أمرهم خبر ، فهى فى جدل مستمر ماذا تصنع لا تقاوم عدوة
 محمد عليها . أما العباس بن عبد المطلب عم النبي فقد تركهم فى جدلهم وخرج
 فى أهله حتى لقي محمداً بالجحفة . ولعل طائفة من بنى هاشم كانت بنياً أو شبهه
 من خروج النبي ، فأرادت أن تلحق به دون أن يصيبها أذى . فقد خرج سوى
 العباس أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم النبي ، وعبد الله بن

مسيرة حش
 المسلمين

خروج
 هاشم إلى النبي
 وإسلامه

أبي أمية بن المغيرة ابن عمته ، حتى اتصل بجيش المسلمين وهو بنيق العُقَاب
 فاستأذنا على النبي . فرفض أن يأذن لها ، وقال لزوجها أم سلمة حين كلمته في
 أمرهما : لا حاجة لي بهما ، أما ابن عمي فقد أصابني منه سوء ؛ وأما ابن عمتي
 وصهرى فقد قال بمكة ما قال . وبلغ أبا سفيان هذا الكلام فقال : والله ليؤذَنَ
 لي أو لآخذن يد بُنَى هذا ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً .
 فرق محمد ثم أذن لها فدخلت عليه فأسلما .

ورأى العباس بن عبد المطلب من جيوش ابن أخيه ومن قوته مراعاة
 وأزعجه . ولئن كان قد أسلم فإن ذلك لم يُخلِ قلبه من خشية ما يُحل بمكة إذا
 دهمها هذا الجيش الذي لا قبل لقوة في بلاد العرب به . أو ليس قد ترك مكة
 لأمسه ، أو ليومين أو ثلاثة أيام مضت ، وله بها من الأهل والخلدان
 والأصدقاء ما لم يقطع الإسلام الذي اعتنق منذ ساعات من وشأجه . ولعله
 أفضى بمخاوفه هذه إلى الرسول وسأله : ما يصنع إذ طلبت قريش أمانه ؟ ولعل
 ابن أخيه سرّ بمفاتيح العباس إياه في هذا ورجا أن يتخذ منه سفيراً يُلقى في
 قلوب القوم من قريش الرعب فيدخل مكة من غير أن يسفك دمأ ، وتظل
 مكة حراماً كما كانت وكما يجب أن تكون . وجلس العباس على بغلة النبي
 البيضاء وخرج عليها حتى جاء ناحية الأراك ، لعله يحمد خطاباً أو صاحب
 ابن أو أي إنسان ذاهباً إلى مكة ، يحمله إلى أهلها رسالة بقوة المسلمين وبأس
 جيوشهم . حتى يخرجوا إلى رسول الله فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة .
 وكانت قريش قد بدأت ، منذ نزل المسلمون مرّ الظهران (على أربع فراسخ
 من مكة) تشعر بأن خطراً يقترب منها : فأرسلت أبا سفيان بن حرب
 وبُدَيْل بن ورقاء وحكيم بن حكيم قريب خديجة ينتظسون الأخبار
 ويستطلعون مبلغ الخطر الذي تحس قلوبها . وإن العباس ليسير على بغلة النبي
 البيضاء إذ سمع حديثاً بين أبي سفيان بن حرب وبُدَيْل بن ورقاء كذلك يجري :

عباس بن
 عبد المطلب

أبو سفيان
 يستطلع
 قريش

أبو سفيان — ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكر .

بديل — هذه والله خزاعة حمشها الحرب .

أبو سفيان — خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها .
وعرف العباس صوت أبي سفيان فناداه بكنيته قائلاً : أبا حنظلة ،

تفرد
بالعباس

وأجاب أبو سفيان بدوره : أبا الفضل . قال العباس : ويحك يا أبا سفيان ! هذا رسول الله في الناس . واصباح قريش إذا دخل مكة عنوة ! قال أبو سفيان : فما الحيلة فداك أبي وأمي ؟ . فأركبه العباس في عجز البغلة ورد صاحبه إلى مكة وسار به ، والناس إذا رأوا البغلة عرفوها وتركوها تمر بمن عليها بين عشرة آلاف أوقدوا نيرانهم لتلحق الرعب في قلب مكة وأهلها . فلما مرت بنار عمر ابن الخطاب ورآها ، عرف أبا سفيان وأدرك أن العباس يريد أن يجيره . فأسرع إلى خيمة النبي وطلب إليه أن يضرب عنقه . قال العباس : إني يا رسول الله قد أجزته . إزاء هذا الموقف في تلك الساعة من الليل وبعد مناقشة لا تحلو من حدة بين العباس وعمر ، قال محمد : إذهب به يا عباس إلى رحلك ، فإذا أصبحت فأتني به . فلما كان الصباح وحى بأبي سفيان في حضرة النبي وبمسمع من كبراء المهاجرين والأنصار ، جرى الحوار الآتي :

أبو سفيان
في حضرة
الرسول

النبي — ويحك يا أبا سفيان ! ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله !

أبو سفيان — بأبي أنت وأمي ! ما أحلك وأكرمك وأوصلك ! والله

لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى شيئاً بعد .

النبي — ويحك يا أبا سفيان ! ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله !

أبو سفيان — بأبي أنت وأمي ! ما أحلك وأكرمك وأوصلك ! أما

والله هذه فان في النفس منها حتى الآن شيئاً !

فتدخل العباس موجهاً القول الى أبي سفيان أن يسلم ويشهد أن لا إله

إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقه . ولم يجد أبو سفيان أمام هذا

إلا أن يُسلم . فتوجه العباس بالقول الى النبي عليه السلام : يا رسول الله ، إن
أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر فاجعل له شيئاً . قال رسول الله : نعم ! من دخل
دار أبي سفيان فهو آمن . ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن . .
هذه الوقائع واردة عليها اتفاق المؤرخين وكتاب السيرة جميعاً . إلا أن
بعضهم يتساءل : أهي قد حدثت كلها بمحض المصادفة ؛ فخرج العباس الى النبي
كان قصده منه أن يذهب الى المدينة فاذا هو يلقي جيوش المسلمين بالجحفة ؛
وخرج بدليل بن ورقاء مع أبي سفيان بن حرب كان لمحض الاستطلاع مع
أن بدبلا ذهب قبل ذلك إلى المدينة وقصَّ على النبي ما لقيت خُزاعة وعرف
من النبي أنه ناصرها : وخرج أبو سفيان كان على جهل منه بأن محمداً قد
سار ليغزو مكة ؟ أم أن شيئاً من التفاهم ، قليلاً أو كثيراً ، كان قد حدث قبل
ذلك ، وأن هذا التفاهم هو الذي أخرج العباس للقاء محمد ، وأن هذا التفاهم
هو الذي جمع بين العباس وأبي سفيان ، وأن أبا سفيان كان قد وثق ، منذ
ذهب الى المدينة ليمد في عهد الحديبية ورجع صفر اليمين ، موقناً بأن لاسيل
نقرش الى ردِّ محمد ، وأيقن أنه إذا مهد للفتح السيل فستبقى له رياسته في
مكة ومقامه الكبير فيها . وأن الذي ربما كان وقع عليه التفاهم من ذلك لم
يتعدَّ محمداً والأشخاص الذين يعينهم الأمر ، بدليل ما هم به عمر من قتل
أبي سفيان ؟! من المغامرة أن نحكم . لكننا نستطيع أن نقرر مطمئنة نفوسنا
أنه سواء أكانت المصادفة هي التي ساقَت ذلك كله أم أن شيئاً من التفاهم قد
وقع عليه . فالحالان تدلان على دقة محمد ومهارته في كسب أكبر موقعة في
تاريخ الاسلام من غير حرب ومن غير إراقة دماء .

ثم إن ذلك لم يحدع محمداً عن أن يتخذ لدخول مكة كل ما لديه من
أهبة وحذر . وإذا كان النصر بيد الله يؤتاه من يشاء ، فإن الله لا يؤتي النصر إلا
من أعد له كل عُدته . واحتاط لكل دقيقة وجليلة قد تقف في سبيله . لذلك

بعضه حدث
ذلك كله .

عدة محمد
لدخول مكة

أمر أن يُحبس أبو سفيان بمضيق الوادي عند مدخل الجبل إلى مكة، حتى تمر به جنود المسلمين فيراها ليحدث قومه بها عن بيته، ولكي لا يكون في إسراره اليهم خيفة مقاومة من أي نوع تكون. ومرت القبائل بأبي سفيان، فأراعه منها إلا الكتيبة الخضراء. يحيط بمحمد فيها المهاجرون والأنصار لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد. فلما عرّف أبو سفيان أمرهم قال: يا عباس! ما لأحد بهؤلاء قبلاً ولا طاقة. والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً. ثم انطلق إلى قومه يصيح فيهم بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به. فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن.

وسار محمد في الجيش، حتى إذا انتهى إلى ذي طُوى ورأى من هناك مكة لا تقاوم استوقف كتابه ووقف على راحته وانحنى لله شاكرًا، أن فتح الله عليه مهبط الوحي ومقر البيت الحرام ليدخله والمسلمين آمنين مطمئنين. وفيما هو كذلك طلب أبو قحافة، ولم يكن قد أسلم كابته، إلى حفيده له أن تظهر به على أبي قُيس، وقد كان كُفَّ بصره. فلما ارتقت فوق الجبل سألتها ما ترى؟ قالت: أرى سواداً مجتمعاً. قال: تلك الخيل. ثم قالت: قد والله انتشر السواد. فقال: تلك الخيل دفعت إلى مكة، فأسرعي بي إلى بيتي. فنزلت وإياه؛ فلم يصل إلى بيته حتى كانت الخيل قد زحفت وتلقته قبل بلوغه إياه. شكر محمد لله أن فتح عليه مكة. ولكنه ظل مع ذلك متخذاً حذره.

• ذبح الجيش

فقد أمر أن يفرق الجيش أربع فرق. وأمرها جميعاً ألا تقاتل وألا تسفك دماً إلا إذا أكرهت على ذلك إكراهاً واضطرت إليه اضطراراً. وجعل الزبير بن العوام على الجناح الأيسر من الجيش وأمره أن يدخل مكة من شمالها. وجعل خالد بن الوليد على الجناح الأيمن وأمره أن يدخل من أسفل مكة، وجعل سعد بن عبادَةَ على أهل المدينة ليدخلوا مكة من جانبها الغربي. أما

أبو عبيدة بن الجراح فجعله محمد على المهاجرين وسار وإياهم ليدخلوا مكة من أعلاها في حذاء جبل هند . وفيما هم يتأهبون سمع بعضهم سعد بن عبادة يقول : اليوم يوم الملتحمة ، اليوم تستحل الحرة . وفي ذلك من نقض أمر النبي ألا يقتل المسلمون من أهل مكة ما فيه . لذلك رأى النبي حين بلغه ما قال سعد أن يأخذ الراية منه وأن يدفعها إلى ابنه قيس ، وكان رجلاً ضخماً ، لكنه كان أهدأ من أبيه أعصاباً .

دخلت الجيوش مكة فلم يلق منها مقاومة إلا جيش خالد بن الوليد . فقد كان يقيم في هذا الحى من أسفل مكة أشد قريش عداوة لمحمد ، ومن اشتركوا مع بني بكر في نقض عهد الحديبية بالغارة على خزاعة . هؤلاء لم يُرضهم ما نادى به أبو سفيان بل أعدوا عُدَّتْهم للقتال وأعد آخرون منهم عُدَّتْهم للفرار ، وقام على رأسهم صفوان وسهيل وعكرمة بن أبي جهل . فلما دخلت فرقة خالد أمطروها بنابهم . لكن خالد لم يلبث أن فرقتهم ولم يُقتل من رجاله إلا اثنان ضلَّ طريقهما وانفصلا عنه . أما قريش ففقدوا ثلاثة عشر رجلاً في رواية ، وثمانية وعشرين في رواية أخرى . ولم يلبث صفوان وسهيل وعكرمة أن رأوا الدائرة تدور عليهم حتى ولَّوا الأدبار تاركين وراءهم من حرضوهم على المقاومة يَصْلُون بأس خالد وبطش أبطاله معه . وفيما محمد على رأس المهاجرين يرقى مرتفعاً ينزل منه إلى مكة مطمئن النفس لفتحها في سكينته وسلم ، بَصُرَ بأم القرى وبما فيها جميعاً ، وبَصُرَ بتلغاع السيوف أسفل المدينة وبمطاردة جيش خالد لمن هاجمهم . هنالك أسف وصاح مغضباً بذكر أمره ألا يكون قتال . فلما علم بما كان ، ذكر أن الخيرة فيما اختاره الله . ونزل النبي بأعلى مكة قبالة جبل هند ، وهنالك ضُربت له قبة على مقربة من قبرى أبي طالب وخديجة ، وسئل : هل يريد أن يستريح في بيته ؟ فأجاب : كلا ! فأتوا مكة بيتاً . ودخل إلى القبة يستريح وقلبه مفعم بشكر الله

دخول مكة

أن عاد به عزيزاً منتصراً الى البلد الذي آذاه وعدّبه وأخرجه من بين أهله ودياره . وأجال بصره في الوادي وفي الجبال المحيطة به . في هذه الجبال التي كان يأوي الى شعابها حين يشتد به أذى قريش وتشتد به قطيعتها . في هذه الجبال ومن بينها حراء حيث كان يتحنّث حتى نزل عليه الوحي أن : « اقرأ باسمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقرأ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ، — أجال بصره في هذه الجبال وفي الوادي مبعثرة منازل مكة فيه يتوسطها البيت الحرام ، فبلغ من خضوعه لله أن تفرقت في عينه دموعه إسلام وشكر وإذعان للحق لا حق إلا هو ، إليه يرجع الأمر كله . وشعر ساعتئذ أن مهمة القائد قد انتهت . فلم يُقِمَّ بالقبة طويلاً بل خرج وامتطى ناقته القصوى وسار بها حتى بلغ الكعبة ، فطاف بالبيت سبعاً على راحلته يستلم الركن بمحجن في يده . فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة ففتح الكعبة ، فوقف محمد على بابها وتكاثر الناس في المسجد ، فخطبهم وتلا عليهم قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى كُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » . ثم سألهم : يامعشر قريش ، ما ترون أني فاعل فيكم ؟ قالوا : خيراً . أخ كريم وابن أخ كريم ! . قال : فاذهبوا فأنتم الطلقاء . وبهذه الكلمة صدر العفو العام عن قريش وعن أهل مكة جميعاً .

العفو العام

ما أجمل العفو عند المقدرة ! ما أعظم هذه النفس التي سمت كل السمو فارتفعت فوق الحقد وفوق الانتقام ، وأنكرت كل عاطفة دنيا ، وبلغت من النبل فوق ما يبلغ الانسان . هؤلاء قريش يعرف محمد منهم من ائتمروا به ليقتلوه ، ومن عدّبوهم وأصحابه من قبل ذلك ، ومن قاتلوه في بدر وفي أحد ، ومن حصروه في غزوة الخندق ومن ألّبوا عليه العرب جميعاً ومن لو استطاعوا قتله وتمزيقه إرباً إرباً لما ونوا عن ذلك لحظة ! هؤلاء قريش في قبضة محمد

وتحت قدميه ، أمره نافذٌ في رقابهم وحياتهم جميعاً معلقة بين شفتيه ، وفي سلطانه هذه الألوف المدججة بالسلاح تستطيع أن تُبدي مكة وأهلها في رجح البصر ! لكن محمداً ! لكن النبي ! لكن رسول الله ليس بالرجل الذي يعرف العداوة أو يريد بها أن تقوم بين الناس . وليس هو بالجبار ولا هو بالمتكبر . لقد أمكنه الله من عدوه ، فقدر فعفا ، فضرب بذلك للعالم كله ولأجياله جميعاً مثلاً في البر والوفاء بالعهد وفي سمو النفس سموً لا يبلغه أحد .

الصور في الكعبة ودخل محمد الكعبة فرأى جدرانها صوّرت عليها الملائكة والنبيون ،

ورأى إبراهيم مصوراً في يده الأزلام يستقسم بها ، ورأى بها تمثال حمامة من عيدان فكسرها بيده وألقاها إلى الأرض . أما صورة إبراهيم فنظر محمد إليها ملياً وقال : قاتلهم الله ! جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام . ما شأن إبراهيم والأزلام ! ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين . أما الملائكة الذين صوّروا نساء ذوات جمال فقد أنكر محمد صورهم أن ليست الملائكة ذكوراً ولا إناثاً : ثم أمر بتلك الصور كلها فطمست . وكانت حول الكعبة الأصنام التي كانت تعبدها قريش من دون الله قد شدّت إلى جذرها بالرصاص ، كما كان هبل داخل الكعبة ، فجعل محمد يشير إلى هذه الأصنام جميعاً بقضيب في يده وهو يقول : « وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً » . وألقيت الأصنام لوجوها وظهورها ، وظهر البيت الحرام بذلك منها . وأتم محمد بذلك في أول يوم لفتح مكة ما دعا إليه منذ عشرين سنة ، وما حاربه مكة أشد الحرب فيه . أتم تحطيم الأصنام والقضاء على الوثنية في البيت الحرام بمشهد من قريش . ترى أصنامها التي كانت تعبد ويعبد آباؤها . لا تملك لنفسها نفعا ولا ضراً . ورأى الأنصار من أهل المدينة ذلك كله . ورأوا محمداً يقوم على الصفا ويدعو ، غثيل اليهم أنه تارك المدينة إلى وطنه الأول وقد فتحه الله عليه ،

تظهر الكعبة من الأصنام

وقال بعضهم لبعض : أترون رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذ فتح الله عليه
 أرضه وبلده يقيم بها؟! ولعلمهم كانوا على حق في مخاوفهم . فهذا رسول الله .
 وبمكة البيت الحرام بيت الله ، وبمكة المسجد الحرام . لكن محمداً ما لبث أن
 أتم دعاءه حتى سألهم : ما قالوا؟ . فلما عرف بعد تردد منهم مخافتهم قال : معاذ الله !
 المَحْيَا مَحْيَاكم والمَمَات مَمَاتكم . فضرب بذلك للناس مثلاً في البر بعهده في بيعة
 العقبة . وفي الوفاء لأنصاره الذين وقفوا ساعة الشدة إلى جانبه ، برّاً ووفاءً
 لا يُنسيهما وطن ولا أهل ولا تُنسيهما مكة البلد الحرام .

ولما أن طهَّرت الكعبة من أصنامها ، أمر النبي بلالاً فأذن فوقها
 وصلى الناس بامامة محمد . ومن يومئذ إلى يومنا الحاضر . مدى أربعة عشر قرناً
 مضت لا تقطع . وبلال وخلفاء بلال من بعده ينادون بالأذان ، كل يوم
 خمس مرات من فوق مسجد مكة . ومدى أربعة عشر قرناً مضت من يومئذ
 يؤدّي المسلمون فرض الصلاة لله والصلاة على رسوله ، متوجهين إلى الله
 بقلوبهم وعقولهم ، مستقبِلين هذا البيت الحرام الذي طهره محمد يوم الفتح
 من أوثانه وأصنامة .

وأذعنت قريش لما حلّ بها واطمأنت لعفو محمد عنها وأقامت تنظر
 إليه وإلى المسلمين من حوله بعيون كلها الدهش والاعجاب يمازجها الخوف
 والحذر . لكن طائفة منها عدتْها سبعة عشر رجلاً ، كان محمد قد استنأها
 من رحمة وأمر ساعة دخول مكة أن يقتل رجالها ولو وُجدوا متعلّقين
 بأستار الكعبة ، كان قد فضّل بعضها الاختفاء ولاذ بعضها بالفرار . ولم يكن
 قرار محمد قتلهم لحقد منه أو غضب عليهم ؛ فهو لم يكن يعرف الحقد؛ ولكن
 لجرائم عظمى ارتكبوها . فأحدهم عبد الله بن أبي التَّرح كان قد أسلم وكان
 يكتب لمحمد الوحي ، فارتدّ مشركاً إلى قريش زاعماً أنه كان يزيف الوحي
 حين يكتبه . وعبد الله بن خَطَل كان قد أسلم ثم قتل مولى له وارتدّ مشركاً

وأمر جاريته قَرَّتْنَا وصاحبتها فكاتتا تغتَّيان بهجاء محمد فأمر بقتلها معه .
وعكرمة بن أبي جهل وكان من أشد الناس لِدَاداً في خصومة محمد والمسلمين
خصومة لم تهدأ حتى بعد فتح مكة ودخول خالد بن الوليد من أسفلها . أمر
محمد بعد دخول مكة ألا يُسْفَك بها دم أو يُقتل فيها أحد غير هذه الطائفة .
لذلك احتفى رجالها ونساؤها وقر منهم من قر . فلما استقر الأمر وهدأت
الحال ورأى الناس من فسحة صدر الرسول ومن عفوه الشامل مارأوا .
طمع بعض أصحابه في أن يعفو حتى عن هؤلاء الذين أمر أن يُقتلوا . فقام
عثمان بن عفان ، وكان أخا ابن أبي السرح للرضاعة ، حتى أتى به النبي فاستأمن
له ؛ فصمت محمد طويلاً ثم قال : نعم ، وأمنته . وأسلمت أم حكيم بنت الحارث
ابن هشام زوج عكرمة بن أبي جهل الذي قر إلى اليمن واستأمنت له محمداً
فأمنته ، فخرجت في طلبه وجاءت به . وعفا محمد كذلك عن صفوان بن أمية
وكان قد سحّب عكرمة في فراره إلى ناحية البحر يستقلّنه إلى اليمن ، فجى بهما
والسفينة التي تحماهما على أهبة إقلاعهما . وعفا محمد كذلك عن هند زوج
أبي سفيان التي مضغت كبد حمزة عم الرسول بعد استشهادها في أحد ، كما عفا
عن أكثر من أمر بقتلهم . ولم يقتل منهم الا أربعة منهم الخويرة الذي
أغرى على زينب بنت النبي حين رجوعها من مكة إلى المدينة ، ورجلان
أسلما ثم ارتكبا بالمدينة جريمة القتل وقرأ راجعين إلى مكة مرتدين إلى
الشرك ، وقيته ابن خطل التي كانت تؤذى النبي بغنائها .

الدهو عن
أسر النبي
قتله

خلا لونه
قتلوا في
حرامهم

وفي غداة يوم الفتح عثرت خُرَاعَة على رجل من هُذَيْل وهو مشرك
فقتلوه . فغضب النبي وقام في الناس خطيباً فقال : يا أيها الناس ، إن الله حرم
مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهي حرام من حرام من حرام إلى
يوم القيامة ، لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دمأ
أو يعضد فيها شجراً . لم تحلل لأحد كان قبلي ولا تحل لأحد يكون بعدي ، ولم

حريم مكة
على الناس
جميعاً

تحلل لي إلا هذه الساعة غضباً على أهلها ، ثم رجعت كحرمها بالأمس ، فليبلغ
الشاهد منكم الغائب . فمن قال لكم إن رسول الله قد قاتل فيها فقولوا إن الله قد
أحلها لرسوله ولم يحللها لكم يا معشر خزاعة . ارفعوا أيديكم عن القتل فلقد
كثرت إن نفع ، لقد قتلتم قتيلاً لأديته . فمن قتل بعد مقالى هذا فأهله بخير
المنظرين ، إن شاءوا قدم قاتله وإن شاءوا فعقله . ثم ودى بعد ذلك الرجل
الذى قتل خزاعة . وبهذا الخطاب وبتصرُّفه الذى زاد على السباحة والعمو
أمس ، كسب محمد قلوب أهل مكة بما لم يكونوا يقدرُونَ . فأقبلوا على الاسلام ،
ونادى مناد فيهم : « من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يترك في داره
صناً إلا حطمه » . ثم بعث جماعة من خزاعة ليصلحوا من العمد المحيطة بالبلد
الحرام . مما دل أهل مكة على ما لها في نفسه من القداسة وما زادهم له حباً .
فلما أخبرهم أنهم خير أمة يحب ، وأنه ما كان ليركهم أو يعدل بهم ناساً لولا
أنهم أخرجوه ، بلغ تعلقهم به غاية حدوده . وجاء أبو بكر بأبيه الذى ارتقى
قبباً يوم الرحف يقوده حتى وقف بين يدي النبي . فلما رآه محمد قال : هلاً
تركت الشيخ بمكانه حتى أكون أنا آتية فيه ! . قال أبو بكر : يا رسول الله
هو أحق أن يمشى اليك من أن تمشى إليه أنت . فأجلس النبي الشيخ بين يديه
ومسح صدره ثم قال له : أسلم . فحسن إسلامه . وكذلك أسمرت أخلاق النبوة
السامية هذا الشعب الذى كان ناثراً على محمد أشد الثورة ، والذى أصبح اليوم
بجده ويقده . وكذلك أسلمت قريش رجالاً ونساء وبايعت .

وأقام محمد بمكة خمسة عشر يوماً ينظم خلالها شؤون مكة ويفقه أهلها
في الدين . وفي هذه الأثناء بعث السرايا للدعوة إلى الاسلام لا للقتال ،
ولتحطيم الأصنام من غير سفك للدماء . وكان خالد بن الوليد قد خرج إلى
نخلة ليهدم العزى وكانت لبني شيبان . فلما هدمها خرج إلى جدية ، فلما رآه
القوم أخذوا السلاح ؛ فطلب اليهم خالد أن يضعوه فإن الناس قد أسلموا .

خالد بن الوليد
في جدية

قال رجل من جُذَيْمَةَ لقومه : ويلكم يا بنى جُذَيْمَةَ ! إنه خالد . والله ما بعد وضع السلاح إلا الإِسار ، وما بعد الإِسار إلا ضرب الأَعناق . قال له قومه : أتريد أن تسفك دمانا ! إن الناس قد أسلموا ووضع الحرب وأمن الناس . وما زالوا به حتى وضع سلاحه . عند ذلك أمر بهم خالد فغُسلوا ثم عرَّضهم على السيف فقتل من قتل منهم . فلما انتهى الخبر إلى النبي رفع يديه إلى السماء وقال : اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد . ثم بعث إليهم على ابن أبي طالب وقال له : اخرج إلى هؤلاء القوم فانظر في أمرهم واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك . وخرج على ومعه مال أعطاه النبي إيتاه . فلما بلغ القوم دفع الدية عن الدماء وعمما أصيب من الأموال . حتى إذا لم يبق شيء من دم أو مال إلا وداه ، أعطاهم بقية المال الذي بعث به رسول الله احتياطاً لرسول الله مما لا يعلم .

وفي الأسبوعين اللذين أقام محمد بمكة عتي على كل آثار الوثنية فيها ، لم ينتقل منها إلى الاسلام إلا سيدانة الكعبة أقرها في عثمان بن طلحة وأبنائه من بعده حتى يرث الله الأرض ومن عليها لا يأخذها منهم إلا ظالم ، وسقاية الحاج من زمزم جعلها لعمه العباس . وكذلك آمنت أم القرى ورفعت منار التوحيد ولواده ، وأضاءت العالم خلال الأجيال والقرون بنوره الوضاء .

الفصل الخامس والعشرون

حنين والطائف

تألب هوازن وثقيف بامرأة مالك بن عوف - تحصنهم بمضيق وادي حنين - خروج المسلمين إلى حنين تعجبهم كثرتهم - دخول المسلمين من مضيق الوادي في عماية الصبح - ضرب هوازن وثقيف إياهم من المرتفعات وارتدادهم منهزمين - ثبات محمد إلى الموت - صياح العباس بالمسلمين كي يعودوا - عودهم إلى رسول الله ومقاتلتهم وانتصارهم النبي، - المسيرة إلى الطائف - حصارها وعدم إمكان اقتحامها تحريق نخيلها - استرحامها النبي - رجوعه من الحصار اسلام هوازن - حديث الشيا - العود إلى الجمرات وقسمة النبي، العمرة - العود إلى المدينة

أقام المسلمون بمكة بعد فتحهم إياها فرحين بنصر الله إياهم . معتبين أن لم يسفك في هذا النصر العظيم الا الدم القليل ، مسارعين الى البيت الحرام كلما أذن بلال بالصلاة ، متجمعين حول رسول الله حيث أقام وأتى ذهب ، يعشى المهاجرون منهم دورهم ويتصلون بأهلهم الذين هدى الله بعد الفتح : ونفوسهم جميعاً مطمئنة الى أن الأمر قد استقر للاسلام وأن الجانب الأكبر من الجهاد قد كُتِلَ بالفوز والظفر . وإنهم لكذلك بعد خمسة عشر يوماً من مُقامهم بأمر القرى إذ ترامت اليهم أنباء أيقظت استنابهم للغبطة . تلك أن هوازن كانت تقيم على مقربة من مكة الى جنوبها الشرقي في جبال هناك . فلما

علت بما تم للسلدين من فتح مكة ومن تحطيم أصنامها ، خشيت أن تدور عليها
 الدائرة وأن يقتحم المسلمون عليها منازلها ، ففكرت فيما تصنع لانتقاء هذه
 الكارثة الوشيكة الوقوع ، ولصد محمد والكف من غلواء المسلمين الذين
 يعملون للقضاء على استقلال قبائل شبه الجزيرة وعلى ضمها كلها في وحدة
 تربطها . لذلك جمع مالك بن عوف النضرى ، هوازن وثقيفاً ، كما اجتمعت
 نضراً وجشماً ، ولم يتخلف عن الاجتماع من هوازن إلا كعب وكلاب .
 وكان في جشم دريد بن الصمة ، وكان يومئذ شيخاً كبيراً لا نفع منه في
 الحرب ، ولكنها الارتفاع برأيه بعد الذى عرّكه على السنين في مواقعها . وكذلك
 اجتمعت هذه القبائل كلها ومعها أموالها ونساؤها وأبناؤها ، وتمّ جمعها حين
 نزلت سهل أوطاس . فلما سمع دريد رغاء البعير ونهاق الخير وبكاء الصغير
 ونشطاء النساء سأل مالك بن عوف : لِمَ ساق مع المحاربين أموالهم ونساءهم
 وصغارهم ؟ فلما أجابه مالك بأنه إنما أراد أن يشجع بها المحاربين ، قال دريد :
 وهل يرد المنهزم شيء ! إنما إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه :
 وإن كانت عليك فبضحت في أهلك ومالك . واختلف مالك وإياه . وتبع
 الناس مالكا ، وكان شاباً في الثلاثين من عمره قوى الإرادة ماضى العزيمة .
 وتابعهم دريد ما يرد لهم رغم سابقته في الحرب رأياً . وأمر مالك الناس أن
 ينحازوا إلى قم حنين وعند مضيق الوادى . فاذا نزل المسلمون واديه فليشدوا
 عليهم شدة رجل واحد تضعض صفوفهم فيختلط حابلهم بنابلهم ويضرب
 بعضهم بعضاً وتدور عليهم الهزيمة ويحول أثر انتصارهم حين فتحوا مكة ،
 ويبقى لقبائل حنين في بلاد العرب جميعاً نهار النصر على هذه القوة التي تريد
 أن تُظَلَّ بسلاطنتها بلاد العرب جميعاً . وصدعت القبائل بأمر مالك
 وتحصنت بمضيق الوادى .

مسيرة مالك
 ابن عوف
 قبائل المسلمين

عصيان القبائل
 بمضيق الوادى

أما المسلمون فبادروا بعد أسبوعين من مقامهم بمكة وعلى رأسهم محمد

في عُدّةٍ وعديد لم يكن لهم من قبل بها عهد قط . ساروا في اثني عشر ألفاً من المقاتلين ، منهم عشرة آلاف هم الذين غزوا مكة وفتحوها ، وألفان من أسلم من قريش وبينهم أبو سفيان بن حرب ، وكلهم تلمع دروعهم ، وفي مقدمتهم الفرسان والابل تحمل الميرة والذخيرة . سار المسلمون في هذا الجيش الذي لم تعرف بلاد العرب من قبل مثاله ، يتقدم كل قبيلة علمها ، وتمتليء النفوس كلها إعجاباً بهذه الكثرة وبأن لا غالب اليوم لها ، حتى لقد تحدث بعضهم بذلك إلى بعض وجعلوا يقولون : لن تغلب اليوم لكثرتنا . وساروا حتى بلغوا حنيناً والمساء يُقبل ، فنزلوا على أبواب واديها وأقاموا بها حتى بُكرة الفجر . هنالك تحرك الجيش ، وركب محمد بغلته البيضاء في مؤخرته ، على حين سار خالد بن الوليد على رأس بني سُليم في المقدمة ، وانحدروا من مضيق حنين في وادٍ من أودية تهامة . ولأنهم كذلك منحطون إلى الوادي إذ شدت عليهم القبائل بامرة مالك بن عوف شدة رجل واحد وأصلوهم وابلًا من النبال وهم جميعاً ما يزالون في عماية الفجر . إذ ذاك اختلط أمر المسلمين واضطرب ، وعادوا منهزمين قد أخذ الخوف والفرع منهم كل مأخذ ، حتى أطلق بعضهم ساقيه للريح ، وحتى قال أبو سفيان بن حرب وعلى شفته ابتسامة المغتبط لفشل أولئك الذين انتصروا بالأمس على قريش : لا تنتهي هزيمتهم دون البحر . وقال شيبه بن عثمان بن أبي طلحة : اليوم أدرك تأري من محمد ، وكان أبوه قد قُتل في غزوة أحد . وقال كندة بن حنبل : ألا بطل السحر اليوم ! . فردّ عليه أخوه صفوان : أسكت فض الله فاك ! . فوالله لأن يرُبني رجل من قريش أحبّ إلى من أن يرُبني رجل من هوازن . تقع هذه الأحاديث والجيش يضطرب حابله بنابله والنبي في المؤخرة تمرّ عليه القبائل واحدة بعد الأخرى مولية الأدبار مهزومة لا تلوى على شيء .

ماذا تراه يصنع ! ؟ أفضيع تضحيات اثني عشرة سنة في هذه اللحظة

من عمایة الصبح ! أفتنحى عنه ربه وتخلّى عنه نصر الله إياه ! كلا ! كلا ! إن
يكون هذا ! دون هذا تبيد أم وتفتى أقوام ! ودون هذا الموت يدخل محمد
في غماره لعل في الموت لدين الله نصراً . وإذا جاء أجلهم فلا يستأخرون
ساعة ولا يستقدمون . وثبت محمد مكانه ، وأحاط به جماعة من المهاجرين
والأنصار ومعه أهل بيته ، وجعل ينادى في الناس إذ يمرون منهزمين : أين أيها
الناس أين ! لكن الناس كانوا فيما هم فيه من هول الفزع لا يسمعون إلى شيء
ولا يدور بتصورهم إلا هوازن وثقيف منحدرتين من معتمصهما بالقمم
تطاردانهم حتى تجيئنا عليهم ؛ ولم يخطئ تصورهم . فقد انحدرت هوازن من مكانها
يتقدّمها رجل على جمل له أحمر بيده راية سوداء في رأس ربح طويل ، وهو
كلما أدرك المسلمين طعن برمح هوازن وثقيف وأنصارهما منحدرين من
ورائه يطعنون . وثارت بمحمد حميته ، فأراد أن يندفع ببغلة البيضاء في صدر
هذا السيل الدافق من رجال العدو ، وليكن بعد ذلك أمر الله . لكن
أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب أمسك بخنطام بغلته وحال
دون تقدّمها .

وكان العباس بن عبد المطلب رجلاً جسيماً جهّزى الصوت قويته ، فنادى
بما أسمع الناس جميعاً من كل فج : يا معشر الأنصار الذين آووا ونصروا .
يا معشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة ، إن محمداً حتى فهلّموا . وكرر
العباس النداء حتى تجاوزت في كل جنبات الوادي أصداؤه . وهنا كانت المعجزة :
سمع أصحاب العقبة اسم العقبة فذكروا محمداً وذكروا عهودهم وشرفهم . وسمع
المهاجرون اسم محمداً فذكروا تضحياتهم وذكروا شرفهم . وسمع هؤلاء وأولئك
بسكينة محمديّة في نفر قليل من المهاجرين والأنصار كتبته يوم أُحد في وجه
هذا العدو الزاحف ، وصوّرت لهم نفوسهم ما قد ينشأ عن خذلانهم إياه من
تغلب المشركين على رسول الله ، وكان نداء العباس أثناء ذلك ما يزال يُدوّى

في آذانهم وتهتز لأصداثه أوتار قلوبهم . هنالك تصايحوا من كل صوب :
لَيْتَيْكَ لَيْتَيْكَ ! وارتدوا إلى المعركة مستبسلين .

رجوع
المسلمين
واستقامتهم

وبدأت محمد تعاوده الطمأنينة حين رآهم يعودون . فقد انحدرت
هوازن من مكانها وأصبحت وجهاً لوجه مع المسلمين في الوادي . وقد أضاء
النهار وطفى النور على عماية الفجر ، واجتمع حول رسول الله بضع مئات
استقبلوا القبائل وصبروا لهم ، وهم يزداد عددهم وتشد بعودتهم عزائم من خارت
من قبل عزائمهم . وجعل الأنصار يتصايحون : يا لئلا نصار ! ثم تنادوا :
يا للخزرج . ومحمد ينظر إلى تناحر القوم : حتى إذا رأى الصدام اشتد ورأى
رجالهم تسمو قلوبهم ويُطيحون بخصومهم نادى : الآن حمي الوطيس . إن
الله لا يُخلف رسوله وعدّه . ثم طلب إلى العباس فنذاه حفته من الحصى ألقى
بها في وجوه العدو قائلاً : شاهت الوجوه ! واندفع المسلمون إلى المعركة
مستهينين بالوت في سبيل الله مؤمنين بأن النصر لا محالة آت ، وأن من
استشهد منهم فله من هذا النصر أكبر من نصيب من بقى . وكان البلاء شديداً ،
حتى إن هوازن وثقيف ومن معهم ما لبثوا أن رأوا كل مقاومة غير مُجدية
وأنتهم معرضون للفناء عن آخرهم إذ فروا منهزمين لا يلوون على شيء ،
تاركين وراءهم نساءهم وأبناءهم وأموالهم غنيمةً للمسلمين ، الذين أحصوا هويومئذ
اثنين وعشرين ألفاً من الابل وأربعين ألفاً من الشاة وأربعة آلاف أوقية من
الفضة . أما الأسرى وعددهم ستة آلاف فقد نقلوا محروسين إلى وادي
الجعرانة حيث أوتوا إلى أن يعود المسلمون من مطاردتهم عدوهم ومن
حصار ثقيف بالطائف .

النصار
المسلمين
وما غنموا

تعقب
المسلمين
عدوهم

وتابع المسلمون مطاردتهم لعدوهم . وزادهم إغراء بهذه المطاردة أن
أمر الرسول أن من قتل مشركاً فله سَلْبُهُ . وأدرك ابن الدغنة جملاً عليه شجار
ظن به امرأة طمع في سلبها ، فأناخ الجملة فإذا شيخ كبير لا يعرفه الفتى هو

دُرَيْدُ بْنُ الصَّمَّةِ . وسأل دريد ربيعة : ما يريد به ؟ قال : أقتلك ، وأهوى عليه بسيفه فلم يُغْنِ شيئاً . قال دريد : بدس ما سلحتك أمك ! خذ سيفي هذا من مؤخر الرّحل ثم اضرب به ، وارفع عن العظام واخفض عن الدماغ ، فاني كذلك كنت أضرب به الرجال ؛ ثم إذا أتيت أمك فأخبرها أنك قتلت دُرَيْدُ بْنُ الصَّمَّةِ ، قَرَبَ وَاللَّهِ يَوْمٍ قَدْ مَنَعْتُ فِيهِ نَسَاءَكَ . ولما رجع ربيعة إلى أمه وأخبرها خبره قالت له : « حَرَّقَ اللَّهُ يَدَكَ ! إِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ لِيَذْكُرْنَا نِعْمَةً عَلَيْكَ . فَوَاللَّهِ لَقَدْ أَعْتَقَ لَكَ ثَلَاثَ أُمَّهَاتٍ فِي غَدَاةٍ : أَنَا وَأُمِّي وَأُمُّ أَبِيكَ . » . وتبع المسلمون هوازن حتى بلغوا أوطاساً ، وهناك أوقعوا بهم وهزموهم شر هزيمة ، وسبوا من احتملوا من النساء والأموال وعادوا بهم إلى محمد . أما مالك بن عوف النَّصْرِيُّ فقد ثبت برهته ثم فرّ وقومه مع هوازن حتى افترق عنهم عند نخلة ثم ولّى وجهه نحو الطائف فاحتفى بها .

وكذلك كان نصر المسلمين مؤزراً . وكانت هزيمة المشركين تامة بعد ذلك الفزع الذي أصاب المسلمين في عمارة الصبح ، وحين شدّ المشركون عليهم شدّة رجل واحد ضعفت صفوفهم وخلطت حابلهم بنايلهم . كان نصر المسلمين مؤزراً بفضل ثبات محمد والفئة القليلة التي أحاطت به . وفي ذلك نزل قوله تعالى من سورة التوبة : . لَقَدْ نَصَرَ كُمْ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ ثُمَّ وَانْتَسَبْتُمْ مُنْذِرِينَ . ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ . ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ، وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ،

هزيمة المشركين
تامة

على أن المسلمين لم يُحرزوا هذا النصر المؤزر رخيصاً ، بل دفعوا فيه ثمناً
 غالباً ألعلمهم لم يكونوا يدفعونه لولا تخاذلهم الأول وتدافعهم مهزومين ، ليقول
 فيهم أبو سفيان : إنهم لا يردهم إلا البحر . دفعوا الثمن غالباً من مهج الرجال
 وأرواح الأبطال الذين استشهدوا في الموقعة . ولئن لم تُحص كتب السيرة
 كل القتلى فقد ذكرت أن قبيلتين من المسلمين فَنِينَا أو كادتا ، وأن النبي صلى
 لأرواحهم كي يدخلهم الله الجنة ؛ لكنه كان النصر على كل حال ، النصر التام
 تغلب فيه المسلمون على خصومهم ، وغنموا منهم وأسروا ما لم يغموا ولم
 بأسروا من قبل . والنصر هو كل شيء في النضال أيّاً كان الثمن الذي يُدفع
 فيه مادام نصرأ شريفاً . لذلك اغتبط المسلمون بما جازاهم الله وظلوا يرتقبون
 قسمة النىء والعود بالغنيمة .

لكن محمداً كان يريد نصرأ أكثر روعةً وأعظم جلالاً . وإذ كان
 مالك بن عوف هو الذى قاد هذه المجموعة ثم احتفى بعد هزيمتها مع ثقيف
 بالطائف ، فليحاصر المسلمون الطائف وليضيّقوا عليها الحصار . وتلك كانت
 خُطّة محمد فى خيبر بعد أُحُد . وفى قُريظة بعد الخندق . ولعله إذ كر فى
 موقفه هذا ، يوم ذهب إلى الطائف لسنوات قبل المهجر يدعو أهلها إلى
 الاسلام فسخرها منه وقذف صديانهم بالأحجار . حتى اضطرّ إلى الاحتماء
 من أذاهم بحائط فيه كرم . ولعله إذ كر كيف ذهب يومئذ منفرداً ضعيفاً ،
 لا حول له ولا قوّة إلا حول الله وقوته ، وإلا هذا الايمان العظيم الذى
 ملأ صدره ويدك الجبال ، وها هو ذا الآن يذهب الى الطائف فى جمع من
 المسلمين لم تشهد جزيرة العرب فى ماضى تاريخها جمعاً مثله .

حصار الطائف

أمر محمد أصحابه إذاً أن يسيروا إلى الطائف ليحاصروا ثقيفاً وعلى
 رأسها مالك بن عوف بها . وكانت الطائف مدينة محصنة لها أبواب تُغلق عليها
 كما كثر مدن العرب فى ذلك العصر . وكان أهلها ذوى دراية فى حرب

الحصار وذوى ثروة طائلة جعلت حصونهم من أمنع الحصون . وقد سار المسلمون إليها ، فرتوا في مسيرتهم بليّة حيث يقوم حصن خاص للملك بن عوف فهدّموه ، كما حاربوا أثناء مسيرتهم كذلك حائطاً لرجل من ثقيف . وبلغ المسلمون الطائف ، فأمر النبيّ عسكره فنزل على مقربة منها وجمع أصحابه ليفكروا فيما يصنعون . لكن ثقيفاً ما لبثت أن رأتهم من أعلى حصونها حتى نالتهم بالنبل وقتلت جماعة منهم . ولم يكن من اليسير أن يقتحم المسلمون هذه الحصون المنيعة إلا أن يلجئوا إلى وسائل غير التي ألفوا حتى اليوم حين حاصروا قرية وخيبر . أتراهم إن هم اكتفوا بالحصار يصلون إلى تجويع ثقيف تجوعاً يحملها على التسليم ؟! وإذا هم أرادوا مهاجمتها فما عسى أن تكون هذه الوسائل الجديدة التي يهاجمونها بها ؟! هذه أمور تحتاج إلى التفكير وإلى الوقت : فلينسحب العسكر إذاً بعيداً عن مرمى النبل لكي لا يصيبه فيقتل رجال من المسلمين ، ثم ليفكر محمد فيما عسى أن يصنع . وأمر عليه السلام فنقل العسكر بعيداً عن مرمى النبل في مكان أقيم به مسجد الطائف بعد أن سلمت الطائف وأسلمت . ولم يكن من ذلك بُد وقد قتلت نبال ثقيف ثمانية عشر من المسلمين ، وجرح كثيرون ، بينهم أحد أبناء أبي بكر . وفي جانب من هذا المكان البعيد عن مرمى النبال ضربت خيمتان من جلد أحمر لزوجتي النبيّ أمّ سَلَمَة وزينب ، وكاتتا تسيران معه في كل هذه الوقائع منذ ترك المدينة . وبين هاتين الخيمتين كان محمد يقيم الصلاة . ولعل مسجد الطائف إنما أقيم في هذا المكان .

مسجد الطائف

وأقام المسلمون ينتظرون ما الله صانع بهم وبعدهم . قال أحد الأعراب للنبيّ : إنما ثقيف في حصنها كالثعلب في جُحره ، لا سبيل إلى إخراجه منه إلا بطول المكث ، فإن تركته لم يلحقك منه ضرر . لكننا شق على محمد أن يعود أدراجه من غير أن يصيب من ثقيف شيئاً . وكان لبني دؤس (إحدى القبائل المقيمة بأسفل مكة) علم بالرماية بالسَنَجِينِق وبمهاجمة الحصون في حماية الدبّابات ،

وكان أحد رؤسائها الطَّفِيل قد صحب محمداً منذ غزا خيبر وكان معه عند حصار الطائف ، فأوفده النبي إلى قومه يستنصرهم ؛ فجاء بطائفة منهم ، ومعهم أدواتهم . بلغت الطائف بعد أربعة أيام من حصار المسلمين إياها . ورعى المسلمون الطائف بالمنجنيق وبعثوا إليها بالذبايات دخل تحتها نفر منهم ، ثم زحفوا بها إلى جدار الطائف ليخرقوه . لكن رجال الطائف كانوا من المهارة بحيث أكرهوا هؤلاء على أن يلوذوا بالفرار . فقد أحمت قطعاً من الحديد بالنار ، حتى إذا انصر ألقته على الذبايات فخرقها ففر جنود المسلمين من تحتها خيفة أن يحترقوا ؛ فرمهم ثقيف بالنبل فقتلت جماعة منهم . لم يُفلح هذا المجهود إذاً أيضاً ولم يستطع المسلمون التغلب على مناعة هذه الحصون .

عن الطائف
المحبي

ماذا عساهم إذاً يصنعون ؟ فكّر محمد في هذا وفكر طويلاً . ولكن ! ألم ينتصر على بنى النضير ويُجلبها عن ديارها باحراق نخيلها ؟! وكروم الطائف أكبر قيمة من نخيل بنى النضير ، فهي كروم لها من ذبوع الاسم في بلاد العرب جميعاً ما تباهى به الطائفُ أخصب بلاد العرب ، وما جعل الطائف واحةً كأنها الجنة وسط هذه الصحارى . وأمر محمد فبدأ المسلمون يتفدون ، يقطعون ويحرقون الكروم التي ما يزال لها حتى اليوم مثل ما كان لها من شهرة وذبوع صوت . ورأى التفقيتُون هذا وأيقنوا أن محمداً جاذ فيه ، فبعثوا إليه أن يأخذه لنفسه إن شاء وأن يدعه لله وللرحم لما بينه وبينهم من قرابة . فاستمهل محمد رجاله . ثم نادى في ثقيف : إنه مُعتق من جاء إليه من الطائف . ففر إليه قرابة عشرين من أهلها عرف منهم أن بالحصون من الذخيرة ما يكفي أمداً طويلاً . هنالك رأى أن الحصار سيطول أمدُهُ ، وأن جيوشه تود الرجوع لاقتسام النوى الذي كسبوا . وأنه إن أصر على البقاء فقد ينفد صبرهم . لذلك آثر أن يرفع الحصار بعد شهر من وقوعه . وكان ذوالقعدة قد استهل ، فرجع بجيشه معتمراً وذكر أنه متجهز إلى الطائف إذا انتهت الأشهر الحرم .

طعم الكروم
ويحرقها

وانصرف محمد والمسلمون معه عن الطائف قافلين إلى مكة حتى نزلوا الجِعْرانة حيث تركوا غنائمهم وأسراهم . هنالك نزلوا يقتسمون . وفصل الرسول الخمس لنفسه ووزع ما بقي على أصحابه . وإنهم بالجعرانة إذ جاء وفد من هوازن قد أسلموا وهم يرتجون أن يرد عليهم محمد أموالهم ونساءهم وأبنائهم بعد أن طال عنهم غيابهم وبعد أن ذاقوا مرارة ما حل بهم . ولقى الوفد محمداً وخطبه أحدهم قائلاً : يا رسول الله ، إنما في الحظائر عمتك وخالاتك وحواضنك اللواتي كنَّ يَكْفُنُكَ . ولو أنا مَنَحْنَا للحارث بن أبي شمر أو للشَّهْمَانِ بن المُنْدِرِثِمِ نزل منا بمثل الذي نزلت به رجونا عطفه وعائدته علينا . وأنت خير المكفولين . ولم يخطيء هؤلاء في تذكير محمد بصلته بهم وقرابته منهم . فقد كانت بين السبايا امرأة تحضت الكهولة عثف عليها الجند المسلمون فقالت لهم : تَعَلَّمُوا ، والله إنى لأخت صاحبكم من الرضاة ، فلم يصدقوها وجاءوا بها محمداً فعرفها الشَّيْمَاء بنت الحارث بن عبد العزى ، وأدناها منه وبسط لها رداءه وأجلسها عليه ، وخيرها إن أحببت أبقاها وإن أحببت مَتَعَهَا ورَجَعَهَا إلى قومها : فاخترت الرجوع إلى قومها .

طبيعي ، وتلك صلة محمد بهؤلاء الرجال من هوازن الذين أقبلوا عليه مسلمين . أن يعطف عليهم وأن يجيهم إلى مطلبهم . فقد كان ذلك أبدأ شأنه مع كل من أسدى إليه يوماً من الدهر يداً . كان عرفان الجميل بعض شأنه ، والبرء بكلمة القلب في جبلته . فلما سمع مقاتلهم سألهم : أبناؤكم ونسائكم أحب إليكم أم أموالكم ؟ قالوا : يا رسول الله ، خيرتنا بين أموالنا وأحسابنا ، بل ترد علينا نساءنا وأبنائنا فهم أحب إلينا . فقال عليه السلام : « أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم . وإذا ما أنا صليت الظهر بالناس فقوموا فقولوا : إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا . فسأعطيك عند ذلك وأسأل لكم » . ونفذت هوازن قول النبي ، فأجابهم : أما

رواه
مؤلف

ما كان لي ولبنى عبد المطلب فهو لكم . قال المهاجرون : وما كان لنا فهو
لرسول الله . وكذلك قال الأنصار . أما الأقرع بن حابس عن تميم وعُيَيْنَةَ
ابن حصن فرضا ورفض العباس بن مرداس عن نبي سليم : لكن نبي سليم
لم يُقِرِّوا العباس على رفضه . هنالك قال النبي : أما من تمسك منكم بحقه من
هذا السبي فله بكل إنسان ست فرائض من أول سبي أضييه . وكذلك رُدَّت
نساء هوازن وأبناؤها إليها بعد أن أعلنت إسلامها .

وسأل محمد وفد هوازن عن مالك بن عَنُوف النصرى . فلما علم أنه
ما يزال بالطائف مع ثقيف طلب إليهم أن يبلغوه : أنه إن أتاه مسلماً ردَّ عليه
أهله وماله وأعطاه مائة من الإبل . ولم يبطله مالك حين علم بوعد الرسول
أن أسرج فرسه في سر من ثقيف وأن نجابها حتى لحق بالرسول ، فأعلن
إسلامه فأخذ أهله وماله ومائة من الإبل . وأوجس الناس خيفة إن أفتى
محمد هذه الأعطيات لمن يفدون عليه أن تنقص من قسمتهم من النوى ، فألحوا
في أن يأخذ كل فيأه وتها مسوا بذلك . فلما بلغ الهمس النبي وقف إلى جانب
بغير فأخذ وبرة من سنَّامه فجعلها بين أصبعيه ثم رفعها وقال : دأبها الناس .
والله مالي من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس . والخمس مردود عليكم .
وطلب إلى كل أن يرده ما غنم حتى تكون القسمة العدل ، فمن أخذ شيئاً في
غير عدل ولو كان إبرة كان على أهله عاراً وناراً وشناراً إلى يوم القيامة .

قال محمد هذه العبارة مغضباً بعد أن ردوا إليه رداءه الذي أخذوا وبعد
أن صاح بهم : ردوا إلى رداي أيها الناس ، فوالله لو أن لكم بعدد شجر تهامة
نعماً لقسمة عليكم ثم ما ألقيتوني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً . ثم إنه خمس
الغنيمة وأعطى من خمسها إلى الذين كانوا إلى أيام أشد الناس عداوة له نصيباً
على نصيبهم ، فأعطى مائة من الإبل كلاً من أبي سفيان وابنه معاوية وعليم
ابن الحارث بن كلدة والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وحويطب

رواه
مؤلف

عطاء بن قريظ
نفسه

ابن عبد العزى وسائر الأشراف ورؤساء العشائر من تألف بعد فتح مكة : وأعطى خمسين من الأبل من كانوا دون هؤلاء شأنًا ومكانة . وقد بلغ عدد الذين أعطاهم عشرات . وبدأ محمديو مندغاية في السباحة والكرم مما جعل أعداء الأمس تنطلق ألسنتهم بكل الثناء : ولم يدع لأحد من هؤلاء المؤلفّة قلوبهم حاجةً إلا قضاهما . أعطى عباس بن مرداس عددًا من الأبل لم يُرضه وعاتبه على أن فضل عليه عُسَيْبَةُ والأقرع وغيرهما . فقال النبي : اذهبوا به فاقطعوا عنى لسانه . فأعضوه حتى رضى . وكان ذلك قطع لسانه .

على أن هذا الذى تألف به النبي قلوب من كانوا إلى أمس أعداءه قد جعل الأنصار يتحدث بعضهم إلى بعض فيما صنع الرسول ، ويقول بعض لبعض : « لقي والله رسول الله قومه . » . ورأى سعد بن عبادة أن يبلغ النبي مقالة الأنصار ويؤيدهم فيها : فقال له النبي : اجمع لى قومك فى هذه الحظيرة . فجمعهم سعد وأتاهم النبي فدار الحوار الآتى : —

محمد — يا معشر الأنصار . ما قاله "بلغتني عنكم وجدةٌ وجدتموها فى أنفسكم ؟ ألم آتكم ضلّالاً فهذا كم الله . وعالةٌ فأغناكم الله . وأعداءٌ فألف الله بين قلوبكم ؟

الأنصار — بلى ! الله ورسوله آمن وأفضل .

محمد — ألا تجيبوننى يا معشر الأنصار !

الأنصار — بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ الله ورسوله المن والفضل .
محمد — أما والله لو شئتم لقتلتم ولصدقتهم ولصدقتهم : أتيتنا مكذباً بأفصد فذاك ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فأويناك . وعائلاً فأسيناك . أوجدتم يا معشر الأنصار فى العلالة من الدنيا تألفت بها قوماً ليُسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم ! ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم . فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار .

الأنصار
خطاب المؤلفّة
قوله

ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار .
اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار .

قال النبي هذه العبارات وكله التأثر، وكله فيض من الحب لهؤلاء الذين
بايعوه ونصروه واعتزوا به وأعزوه، حتى بلغ من تأثره أن بكى الأنصار
وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً .

وكذلك أظهر النبي رغبة عن هذا المال الذي غنم في حنين والذي بلغ
مالم يبلغه فيء من قبل . أظهر رغبته عنه وجعله وسيلة تتألف بها قلوب الذين
كانوا إلى أسابيع قليلة مشركين ليروا في الدين الجديد سعادة الدنيا والآخرة .
وإذا كان محمد قد عناه أمر هذا المال في قسمته حتى لقد كاد المسلمون يتممونه .
وإذا هو كان قد أغضب الأنصار بما أعطى المؤلفة قلوبهم ، فانه قد أظهر من
العدل ومن بعد النظر ومن حسن السياسة ما مكنته من أن يعود بهذه الألوف
من العرب وكلهم راضية نفسه مطمئن قلبه مستعد لأن يهب حياته في سبيل الله .
وخرج الرسول من الجعرة معتمراً إلى مكة . فلما قضى عمرته استخلف
عتاب بن أسيد على أم القرى وخلف معه معاذ بن جبل ليفقه الناس في دينهم
ويعلمهم القرآن . وعاد الأنصار والمهاجرون قافلين إلى المدينة ليقيم النبي بها
ريثاً يرزقه الله ابنه ابراهيم ، وليطمئن إلى شيء من سكون الحياة زمناً ثم يتجهز
إلى غزوة تبوك بالشام .

الفصل السادس والعشرون

ابراهيم ونساء النبي

العود إلى المدينة - بانث سعاد - وفاة زينب - مولد ابراهيم -
غيرة نساء النبي من مارية - مظاهرة حفصة وعائشة - حديث
المغافير - مارية في دار حفصة - هجر النبي نساءه شهراً
حديث عمر مع النبي - سورة التحريم

عاد محمد إلى المدينة بعد فتح مكة وبعد انتصاره في حنين وحصاره
الطائف، وقد ثبت في نفوس العرب جميعاً أن لم يبق لأحد قبلاً به في شبه
الجزيرة كلها، وأن لم يبق للسان أن ينطلق بإيذائه أو الطعن عليه، وعاد
والأنصار والمهاجرون معه وكلهم معتبط بفتح الله على نبيه بلد المسجد الحرام،
وبما هدى أهل مكة إليه من الاسلام، وبما دان له العرب به على اختلاف
قبائلهم من الطاعة والاذعان. عادوا جميعاً إلى المدينة ليطمئنوا إلى شيء من
سكينة الحياة بعد أن ترك محمد وراه عتّاب بن أُسيّد على أم القرى ومُعَاذ
ابن جبل ليفقه الناس في دينهم وليعلمهم القرآن. وقد ترك هذا النصر، الذي
لم يعرف له في تاريخ العرب وفي رواياتهم نظير، أثراً بالغاً في نفوس العرب
جميعاً. ترك أثراً في نفوس العظماء والسادة الذين كانوا لا يتوهمون بحجى يوم
يدينون فيه لمحمد بطاعة أو يرتضون دينه لأنفسهم ديناً؛ وفي نفوس الشعراء
الذين ينطقون بلسان هؤلاء السادة مقابل ما يلقون من عطفهم وتأيدهم، أو
مقابل ما يلقون من تأييد القبائل ومؤازرتها؛ وفي نفوس تلك القبائل البادية
التي لم تكن تعدل بحريتها شيئاً ولا كان يدور بخاطرها أن تنضم تحت لواء

ترتفع
أو تنسج
الحارة

غير لواتها الخاص أو تموت دون ذلك في حرب و طعان تفنى خلالها فناء تاماً . وماذا يجدى على الشعراء شعرهم ، وعلى السادة سيادتهم ، وعلى القبائل احتفاظها بذاتيتها ، أمام هذه القوة الخارقة للطبيعة ، لا تقف قوة أمامها ولا يجرؤ سلطان على اعتراضها ! .

حديث كتب
بن زهير

ولقد بلغ الأثر من نفوس العرب أن كتب بُجَيْر بن زُهَيْر إلى أخيه كَعْب بعد مُنْصَرَف النبي عن الطائف يخبره أن محمداً قتل رجلاً بمكة ممن كانوا يهجونه ويؤذونه ، وأن من بقى من هؤلاء الشعراء قد هربوا في كل وجه ، وينصح إليه أن يطير إلى النبي بالمدينة ، فإنه لا يقتل أحداً جاءه تائباً ، أو ينجو بنفسه إلى حيث شاء من أغوار الأرض . وإنما قص بجزء حقاً ؛ فلم يقتل بمكة بأمر محمد خلا أربعة ، منهم شاعر آذى النبي هجأؤه ، ومنهم اثنان آذيا زينب ابنته حين أرادت باذن زوجها أن تهاجر من مكة لتلحق أباهما . وأيقن كعب صدق أخيه وأنه إلا جاء محمداً ظل حياته طريداً مشرداً . لذلك أسرع إلى المدينة ونزل عند صديق له قديم . فلما أصبح غدا إلى المسجد واستأمن النبي وأنشده قصيدته :

بانت سعاد قلبي اليوم متبولٌ مُتَمِيمٌ إثرها لم يُفد مكبولٌ

فعفا النبي عنه وحسن من بعد ذلك إسلامه .

ومؤيد الخليل
عليه السلام

وكان من هذا الأثر كذلك أن بدأت القبائل تُقبل على النبي تقدم الطاعة بين يديه . قدم وفد من طيء وعلى رأسهم زيد الخليل . فلما انتهوا إليه أحسن استقبالهم ، وتحدث إليه زيد ، فقال النبي له : ماذا كرتى رجل من العرب بفضل ثم جأنى إلا رأيت دون ما يقال فيه إلا زيد الخليل فإنه لم يبلغ كل ما فيه . ودعاه زيد الخليل بديلاً من زيد الخليل . وأسلمت طيء وزيد على رأسها .

وكان عدي بن حاتم الطائي نصرانياً ، وكان من أشد العرب كراهية

لمحمد . فلما رأى أمره وأمر المسلمين في شبه الجزيرة ، تحمّل في إبله بأهله وولده ولحق بأهل دينه من النصارى بالشام . وإنما فرّ عدى حين أوفد النبي عليّ ابن أبي طالب ليهدم صنم طيء . وهدم عليّ الصنم واحتمل الغنائم والأسرى ومن بينهم ابنة حاتمٍ أخت عدى التي حبّست في حظيرة بياب المسجد كانت السبايا تحبس فيها . ومرّ بها النبي فقامت إليه وقالت : يا رسول الله ، هلك الوالد وغاب الرافد . فامتنّ عليّ من الله عليك . وأعرض عنها النبي حين علم أن رافدها عدى بن حاتم الفار من الله ورسوله . لكنها راجعته ، وذكر هو ما كان لأبيها في الجاهلية من كرم أعلى به ذكر العرب . فأمر بتسريحها وكساها كسوة حسنة وأعطاهما نفقتها وحملها مع أول ركب قاصد إلى الشام . فلما لقيت هناك أخاها وذكرت له ما أكرمها به محمد ، عاد إليه فألقى بنفسه إلى صفوف المسلمين . وكذلك جعل السادة وجعلت القبائل تقدّ إلى محمد بعد فتح مكة وبعد انتصار حنين وحصاره الطائف ، تدين له بالرسالة وبالاسلام ، وهو في مقامه ذلك بالمدينة مطمئن إلى نصر الله وإلى شيء من سكينه الحياة .

لكن سكينه حياته لم تكن يومئذ صفواً . فقد كانت زينب ابنته إذ ذاك مريضة مرضاً خشى منه عليها . وهو منذ آذاها الحويرث وهبتار حين خروجها من مكة أذى أفرعها فأجهضها ، قد ظلت مهدّمة العافية . وانتهى المرض بوفاتها . وبموتها لم يبق لمحمد من عقبه إلا فاطمة ، بعد أن ماتت أم كلثوم كما ماتت رقية قبل زينب . وحزن محمد لفقدتها وذكر لها رقة شئائلها وجميل وفاتها لزوجها أبي العاصي بن الربيع حين بعثت تفتديه من أبيها وقد أسره يسدر ، وتفتديه برغم إسلامها وشركه ، وبرغم محاربتة أباها حرباً لو انتصرت قريش فيها لما أبقت لمحمد عليّ حياة . ذكر محمد رقة شئائلها وجميل وفاتها وذكر مالاقت من ألم المرض طوال أيامها منذ عادت من مكة إلى حين وفاتها . وكان محمد يشارك كل ذي ألم ألمه ، وكل ذي مُصاب مصابه . وكان

موت زينب
ابنة النبي

يذهب إلى أطراف المدينة وإلى ضواحيها يعود المريض ويواسي البائس ويأسو جراح الكليم . فاذا أصابه المقدار في ابنته بعد ما أصابه من قبل في أختها وكما أصابه ما قبل رسالته في إخوتها ، فلا جرم أن يحزن ويشتد به جوى الحزن . وإن وجد من برّ الله ورفقه به ما يعزّيه كيما يسلو .

مولد إبراهيم

ولم يطل انتظاره التأساء ؛ فقد رزقه الله من مارية القبطية غلاماً دعاه إبراهيم تيمناً باسم إبراهيم جدّ الأنبياء ، الحنيف المسلم . وكانت مارية إلى يومئذ ومنذ أهداها المقوقس الى النبي في مرتبة السرارى ، فلم يكن لها من أجل ذلك منزلٌ إلى جوار المسجد كما كان لأزواج النبي أمهات المؤمنين ؛ بل أنزلها محمد بالعالية من ضواحي المدينة في المحل الذي يقال له اليوم مشربة أم إبراهيم بمنزل تحيط به كروم ، كان يختلف اليها فيه كما يزور الرجل ملك يمينه . وكان قد اختارها حين أهداها المقوقس اليه مع أختها سيرين وجعل سيرين لحسان ابن ثابت . ولم يكن محمد يرجو أن يُعقب بعد أن ظل أزواجه جميعاً من بعد وفاة خديجة ، ومنهن الفتاة الفتيّة ومنهن النّصف التي أعقبت من قبل ، لم تبشر إحداهن بخصب عشرة أعوام متتابعة . فلما حملت مارية ثم ولدت إبراهيم وقد تحظى هو إلى الستين فاضت بالمسرة نفسه وامتلاً هذا القلب الانساني الكبير أنساً وغبطة ، وارتفعت مارية بهذا الميلاد في عينه إلى مكانة سمت بها عن مقام مواليه إلى مقام أزواجه ، وزادتها إلى ذلك عنده حظوة ومنه قرباً .

غيرة أزواج النبي

كان طبيعياً أن يدسّ ذلك إلى نفوس سائر أزواجه غيرةً تزايدت أضعافاً بأنها أم إبراهيم وبأنهن جميعاً لا ولد لهن . ولم تكن نظرة النبي إلى هذا الطفل إلا تزيد هذه الغيرة كل يوم في نفوسهن اشتعالاً . فهو قد أكرم سلمى زوج أبي رافع قابلة مارية أيما إكرام . وهو قد تصدق يوم وُلد بوزن شعرة ورفاً على كل واحد من المساكين . وهو قد دفعه لترضعه أم سيف ، وجعل في حيازتها سبعمائة من الماعز ترضعه لهنها . وهو قد كان يمر كل يوم بدار مارية

ليراه ، وليزداد أنساً بابتسامة الطفل البريئة الطاهرة ، ومسرة بنموه وجماله .
أى شىء أشد من هذا كله إثارة للغيرة في نفوس أزواج لم يلدن ؟ وإلى أى حد
تدفع الغيرة أولئك الأزواج !!

حمل النبي إبراهيم يوماً بين ذراعيه إلى عائشة وهو قياض بالبشر ،
ودعاها لترى ما بين إبراهيم وبينه من عظيم الشبه . فظنرت عائشة الى الطفل
وقالت : إنها لا ترى بينهما شبيهاً . ولما رأت النبي فرحاً بنمو الطفل لاحظت
في غضب ، أن كل طفل ينال من اللبن ما يناله إبراهيم يكون مثله أو خيراً منه
نموًا . وكذلك كان مولد إبراهيم سبباً أثار من زوجات النبي امتعاضاً
لم يقف أثره عند هذه الاجابات الجافة بل تعداه الى أكثر منها ، وترك
في تاريخ محمد وفي تاريخ الاسلام من الأثر ما نزل به الوحي وقَدَسه كتاب
الله الكريم .

وكان طبيعياً أن يحدث هذا الأثر . فقد جعل محمد لنسائه من المكانة
ما لم يكن معروفاً قط عند العرب . قال عمر بن الخطاب في حديث له : والله
إن كنا في الجاهلية ما نعدُّ للنساء أمراً حتى أنزل الله تعالى فيهن ما أنزل وقسم
هن ما قسم . فبينما أنا في أمر أئتمره إذ قالت لى امرأتى : لو صنعت كذا
وكذا . فقلت لها : وما لك أنت ولما هاهنا وما تكلفك في أمر أريده ! فقالت
لى : عَجَباً لك يا بن الخطاب ! ما تريد أن تُراجِعَ أنت وإن ابنتك لتراجع
رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان . قال عمر : فأخذ
ردائى ثم أخرج مكائى حتى أدخل على حفصة فقلت لها : يا بنتى ، إنك
لتراجعين رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان ؟ فقالت
حفصة : والله إنا لتراجعنه . فقلت : تعلمين أنى أحَدَرَك عقوبة الله وغضب
رسوله . يا بنتى لا يغرنك هذه التى قد أعجبها حسنها وحب رسول الله صلى
الله عليه وسلم إياها . ثم خرجت حتى أدخل على أم سلمة لقرأتى منها فكلمتها

النبي والنساء

فقال لى أم سلمة : عجبا لك يا بن الخطاب ! قد دخلت فى كل شىء حتى تبغى أن تدخل بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه ! قال عمر : فأخذتني أخذاً كسرتني به عن بعض ما كنت أجد نخرجت من عندها ، . ورؤى فى صحيح مسلم أن أبا بكر استاذن على النبي ودخل بعد أن أذن له ، ثم استأذن عمر ودخل أيضاً بعد الاذن ، فوجد النبي جالساً وحوله نساؤه واجماً ساكناً . فقال عمر : « لأقولن شيئاً أضحك النبي صلى الله عليه . ثم قال يا رسول الله : لو رأيت بنت خارجة تسألني النفقة ، فقمتم إليها فوجأت عنقها . فضحك رسول الله وقال : هُنَّ حولي يسألني النفقة . فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها ، وقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها ، كلاهما يقول : تسألن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ليس عنده . فقلن : والله لا نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أبداً شيئاً ليس عنده . . رواه مسلم .

وإنما دخل أبو بكر وعمر على النبي لأنه عليه السلام لم يخرج للصلاة؛ فتسالم المسلمون بعدها عما منعه . وفى حديث أبي بكر وعمر مع عائشة وحفصة نزل قوله تعالى فى سورة الأحزاب : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأزْوَاجِكِ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا فَعَالَيْنَ أُمْتَعَكُنَّ وَأَسْرَحَكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا . وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا . »

سأله النبي
بأتمرن به

ثم إن نساء النبي كنَّ يَأتمرن به . فقد كان إذا صلى العصر دار على نسائه فيدنون منهن . فدخل على حفصة فى رواية وعلى زينب بنت جحش فى رواية ، فاحتبس عندها أكثر مما كان يحتبس ، فأحدث ذلك الغيرة فى نفوس سائر نسائه . قالت عائشة : « فتواطأت أنا وحفصة إن أيتنا ما دخل عليها النبي صلى الله عليه وسلم فلتقل إنى أجد ريح مَغَافِير . أكلت مغافير ؟ (والمغافير شىء حلوه ریح قوية كريهة ، وكان النبي لا يحب الرائحة الكريهة) . فدخل

على إحداهما فقالت له ذلك ، فقال : بل شربت عسلا عند زينب بنت جحش
ولن أعود له . وروى سَوْدَة وكانت تواطأت على مثل ذلك مع عائشة أن
النبي لما دنا منها قالت له : أكلت مغاير ؟ قال لا . قالت : فما هذه الريح ؟ قال :
سقتني حفصة شربة من عسل . قالت : جَرَسَتْ نَحْلَه العُرْفُظ (أى رعت
النحل شجر العرظ الذي يثمر المغاير) . ودخل على عائشة فقالت له ما قالت
سَوْدَة . ثم دخل على صفية فقالت له مثل قولها . فخرمه على نفسه . فلما فعل
قالت سودة : سبحان الله ! والله لقد حرماناه . فنظرت إليها عائشة نظرة ذات
مغزى وقالت لها : اسكتي .

طبيعي^٤ وقد جعل النبي لأزواجه هذه المكاة ، بعد أن كن كغيرهن من
نساء العرب لا رأى لهن . أن يتغالين في الاستمتاع بحرية لم يكن لمثيلاتهن بها
عهد ، وأن تبلغ إحداهن من مراجعة النبي حتى يظل يومه غضبان . وكم
أعرض عنهن ، وكم هجر بعضهن ، حتى لا يدفعن رفقتهن إلى مزيد من غلوهن .
وإلا تخرج بإحداهن الغيرة إلى غير لائق بالسداد . فلما ولدت مارية إبراهيم
خرجت الغيرة بأزواج النبي عما أذبن به ، حتى كان هذا الحديث بينه وبين
عائشة إذ تنكر عليه كل شبه بين إبراهيم وبينه . ولتكاد تشتم مارية بما يعرف
النبي برامتها منه .

وحدث أن كانت حفصة يوماً قد ذهبت إلى أبيها فتحدثت عنده .
وجاءت مارية إلى النبي وهو في دار حفصة وأقامت بها زمناً معه . وعادت
حفصة فوجدتها في بيتها ، فجعلت تنتظر خروجها وهي أشد ما تكون غيرة ،
وجعلت كلما طال بها الانتظار تزداد الغيرة بها شدة . فلما خرجت مارية
ودخلت حفصة على النبي ، قالت له : ، لقد رأيت من كان عندك . والله لقد
سديتني . وما كنت لتصنعها لولا هوائى عليك . وأدرك محمد أن الغيرة قد تدفع
حفصة إلى إذاعة ما رأت والتحدث به إلى عائشة أو إلى غيرها من أزواجه .

تورث
نساء النبي

فأراد إرضاءها بأن حلف لها أن مارية عليه حرام إذا هي لم تذكر بما رأت شيئاً. ووعده حفصة أن تفعل . لكن الغيرة أكلت صدرها فلم تطق كتمان ما به ، فأسترته إلى عائشة . وأومات هذه إلى النبي بما رأى منه أن حفصة لم تصنُ سره . ولعل الأمر لم يقف عند حفصة وعائشة من أزواج النبي . ولعلهن جميعاً وقد رأين ما رفع النبي من مكانه مارية قد تابعن عائشة وحفصة حين ظاهرتا على النبي على أثر قصة مارية هذه ، وإن تكن لذاتها قصة لا شيء فيها أكثر مما يقع بين رجل وزوجه ، أو رجل وما ملكت يمينه مما هو حِلُّ له ، وبما لا موضع فيه لهذه الضجة التي أثارَت ابنتا أبي بكر وعمر محاولتين أن تقتصنا لِنفسيهما من النبي عن ميله للمارية . ولقد رأينا أن شيئاً من الجفوة وقع بين النبي وأزواجه في ظروف مختلفة بسبب النفقة أو بسبب غسل زينب أو لغير ذلك من الأسباب التي تدل على أن أزواج النبي كن يجدن عليه أن يكون لعائشة أحب ، أو أن يكون للمارية أهوى .

بيت
بنت جحش
وعائشة

وبلغ من أمرهن أن أوفدن إليه يوماً زينب بنت جحش وهو عند عائشة تصارحه بأنه لا يعدل بين نسائه وأنه لخبه لعائشة يظلمهن . ألم يجعل لكل امرأة يوماً وليلة ! ثم رأت سوددة انصراف النبي عنها وعدم بشاشته لها فوهبت يومها وليلتها لعائشة إرضاءً للرسول . ولم تقف زينب من سفارتها عند الكلام في ميل النبي عن العدل بين نسائه ، بل نالت من عائشة وهي جالسة بما جعل عائشة تتحفز للرد عليها لولا إشارات من النبي كانت تهدىء من حدتها . غير أن زينب اندفعت وُلج بها الاندفاع وبالغت في النيل من عائشة حتى لم يبق للنبي بدٌّ من أن يدع لِحُميرائه أن تدافع عن نفسها . وتكلمت عائشة بما ألهم زينب وسر النبي ودعاه للاستعجاب بابنة أبي بكر .

منازعات
أمهات
المؤمنين

وبلغت منازعات أمهات المؤمنين في بعض الظروف وبسبب إثارة بعضهم بالحجة على بعض حدًّا هم النبي معه أن يطلق بعضهم لولا أنهم جعلته في

حلٌّ أن يُؤثر من يشاء منهم على من يشاء . فلما ولدت مارية لإبراهيم لجئت بهن
 الغيرة أعظم لجأج ، وكانت بعائشة أُلج . ومدّهن في لجأج الغيرة بهن
 هذا الرِّفق الذي كان محمد يعاملهن به ، وهذه المكانة التي رفعهن إليها . ومحمد
 ليس خليفاً ليشغل وقته بهذا اللجأج وليدع نفسه لعبت نسائه . فلا بد من درس
 فيه حزم وفيه صرامة يرذّ الأمور بين أزواجه إلى نصابها ، ويدع له طمأنينة
 التفكير فيما فرض الله عليه للدعوة إلى رسالته . ولكن هذا الدرس هجرهن
 والتهديد بفراقهن ، فان ثبتن إلى رشادهن فذاك ، وإلا متعن وسرحهن
 سراحاً جميلاً .

هجر النبي نسائه

وانقطع النبي عن نسائه شهراً كاملاً لا يكلم أحداً في شأنهن ، ولا يجرؤ
 أحد أن يفتح حديثهن . وفي خلال ذلك الشهر اتجه بتفكيره إلى ما يجب
 عليه وعلى المسلمين للدعوة إلى الاسلام ولمدة سلطانه فيما وراء شبه الجزيرة .
 على أن أبابكر وعمر وأصحاب النبي جميعاً — وما كان أكثرهم! — كانوا في قلق
 أشد القلق على ما قدّر مصيراً لأمهات المؤمنين ، وما يتعرّضن له من غضب
 رسول الله ، وما يجر إليه غضب الرسول من غضب الله وغضب ملائكته .
 بل لقد قيل : إن النبي طلق حفصة بنت عمر بعد الذي كان من إفشائها ما وعدت
 أن تكتمه . وقد سرى الهمس بين المسلمين أن النبي مطلق أزواجه . وأزواجه
 خلال ذلك مضطربات نادمات ، أن دفعتهن الغيرة إلى إيذاء هذا الزوج الرفيق
 بهن ، هو منهن الأخ والأب والابن وكل ما في الحياة وما وراء الحياة . وجعل
 محمد يقضى أكثر وقته في خزانة له ذات مشرّبة ، يجلس غلامه ربّاح على
 أسنكفّتها (أي عتبّتها) ما أقام هو بالخزانة ، ويرقى هو إليها على جذع من
 نخل هو الحشونة كل الحشونة .

وإنه لفي خزانه يوم أوفى الشهر الذي نذر فيه هجر نسائه على التمام .
 وقد أقام المسلمون بالمسجد مطرقين ينكتون الحصى ويقولون : طلق

رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه، ويُبدون لذلك أَسَى يبدو على
وجوههم واضحاً عميقاً، إذ قام عمر من بينهم فقصده إلى مُقام النبي بجزائره
ونادى غلامه رباحاً كي يستأذن له على رسول الله. ونظر إلى ربّاح يروم
الجواب، فاذا ربّاح لا يقول شيئاً علامة أن النبي لم يأذن. فكرر عمر النداء
ولم يجب ربّاح مرةً أخرى. فرفع عمر صوته قائلاً: «يا ربّاح استأذن
لي عندك على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاني أظنه ظن أني جئت من أجل
حفصة. والله لئن أمرني بضرب عنقها لأضربن عنقها». وأذن النبي فدخل
عمر فجلس ثم أجال بصره فيما حوله وبكى. قال محمد: «ما يُبكيك يا ابن
الخطاب؟». وكان الذي أبكاه هذا الحصر الذي رأى النبي مضطجعاً عليه
وقد أثر في جنبه، والخزانة لا شيء فيها إلا قبضة من شعير ومثلها من
قرظ وأفيق (أى جلد) معلق. فلما ذكر عمر ما يبكيه علمه محمد من
وجوب الاعراض عن الدنيا مارد إليه طمأنينته. ثم قال عمر: يا رسول الله.
ما يشق عليك من أمر النساء؟ إن كنت طلقتهن فان الله معك وملائكته
وجبريل وميكائيل وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك. ثم انعكف يحدث النبي
حتى تحسّر الغضب عن وجهه وحتى ضحك. فلما رأى عمر ذلك منه ذكر له أمر
المسلمين بالمسجد وما يذكرون من طلاقه نساءه. فلما ذكر النبي أنه لم يطلقهن
استأذنه في أن يفضى بالأمر لأولئك المقيمين بالمسجد ينتظرون. ونزل إلى
المسجد فنادى بأعلى صوته: لم يطلق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) نساءه.
وفي هذه القصة نزلت الآيات الكريمة من أول سورة التحريم: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ
لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَتَّغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ
رَحِيمٌ». قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ
النَّحِيمُ». وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا تَبَتَّأَ بِهِ
وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ

قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ . إِنْ تَوْبَتَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا . وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ . عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ مَسْلَمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا . . . وبذلك انتهى الحادث وثاب إلى نساء النبي رشادهن ورجع هو إليهن تائبات عابدات مؤمنات ، وعادت إلى حياته البيئية السكينة التي يحتاج إليها كل إنسان لأداء ما فرض عليه أداؤه .

حكم النقد
التاريخي الزهري

ما قصصت الآن عن هجر محمد نساءه ، وتخييره إياهن ومقدمات هذا الهجر ونتأجه والوقائع التي سبقت وأدت إليه ، هو في رأي الرواية الصحيحة لتاريخ هذا الحادث ، رواية يتضافر على تأييدها ما جاء في كتب التفسير وفي كتب الحديث ، وما جاء متفرقاً عن أخبار محمد ونسائه في كتب السيرة المختلفة . بيد أنه لم تكن واحدة من هذه السير تقص الحوادث أو تضع المقدمات والتأجج بالصورة التي سردنا هنا . وأكثر السير تمر بهذا الحادث مراراً دون أن تقف عنده ؛ وكأنما تجده خشن الملمس فتخشى أن تقربه . وبعضها يقف عند رواية خبر العسل والمغافير ولا يشير بكلمة إلى مسألة حفصة ومارية . فأما المستشرقون فيجعلون مسألة حفصة ومارية وإفضاء حفصة إلى عائشة بما عاهدت النبي أن تكتمه ، سبب كل الذي وقع ؛ ليحاولوا بذلك أن يضيفوا جديداً لما يلقون في رُوع قرائهم عن النبي العربي من أنه كان رجلاً محباً للنساء حباً معيياً . وعندى أن المؤرخين المسلمين لا عذر لهم في إغفال هذه الوقائع ولها مغزاهما الدقيق الذي سقنا شيئاً من أمره . وأن المستشرقين يتخطون الدقة التاريخية متأثرين في ذلك بهواهم المسيحي . فالنقد التاريخي الزهري يأتي كل الآباء على أي إنسان ، بله عظيم كمحمد ، أن يجعل من إفضاء حفصة لعائشة بأنها

وجدت زوجها في بيتها مع مولاة له هي ملك يمينه وهي بذلك حلٌ له . سبياً
لهجر محمد نساءه جميعاً شهراً كاملاً ، وتهديده إياهن جميعاً بأن يطلقهن . والنقد
التاريخي النزيه يأتي كذلك أن تكون حكاية العسل سبب هذا الهجر والتهديد .
فإذا كان الرجل عظيماً كمحمد ، رفيقاً كمحمد ، واسع الصدر طويل الأناة
متصفاً بما لمحمد من سائر الصفات التي يُقَرَّ له بها مؤرخوه جميعاً على
سواء ، كان اعتبار أي من الحادئين لذاته سبياً لهذا الهجر والتهديد بالطلاق
مما يَزَوَّرَ عنه النقد التاريخي وينأى عنه بجانبه أشد النأي . وإنما يطمئن هذا
النقد ويستقيم منطق التاريخ إذا سبقت الحوادث المساق الذي لا مفر معه
من أن تؤدي إلى نتائجها المحتومة ، فتصبح بذلك أموراً طبيعية يسبقها العقل
ويرضاها العلم . وما فعلنا نحن هو في نظرنا المساق الطبيعي للحوادث ، وهو
الذي يتفق مع حكمة محمد وعظمته وحزمه وبعد نظره .

دفع اعتراض
المستشرقين

ويتحدث بعض المستشرقين عما نزل من الآيات في مستهل سورة
التحریم بما نقلنا هنا ، ويذكر أن كتب الشرق المقدسة جميعاً لم تشر إلى مثل
هذا الحادث المنزلي على هذه الصورة . وما أحسبنا بحاجة إلى أن نذكر ما ورد
بالكتب المقدسة جميعاً والقرآن من بينها عن قوم لوط ونقيصتهم وما كان
من مجادلتهم الملوك ضيق لوط ، ولا ما ورد في هذه الكتب عن امرأته
وأنها كانت من الغابرين . بل إن التوراة لتقص نبأ ابنتي لوط إذ سَقْنَا أباهما
حتى ثمل ليلتين متاليتين ليقرب كل واحدة منهما ليلةً كما يُحصبها فتلد ، مخافة
فناء آل لوط بعد إذ أنزل الله بهم من الجزاء ما أنزل . لكن الكتب المقدسة
جميعاً جعلت من قصص الرسل وسيرهم وما صنعوا وما أصابهم عبرة للناس .
وقد تناول القرآن من ذلك الكثير ، قص الله فيه على رسوله أحسن القصص .
والقرآن لم ينزل لمحمد وحده ، وإنما نزل للناس كافة . ومحمد نبيٌ ورسول
خلت من قبله الرسل الذين قص القرآن أخبارهم . فاذا قص القرآن من أخبار

محمد وتناول من سيرته ليكون للسليين مثلا ، وليكون للسليين فيه أسوة حسنة ، وأشار إلى حكته في تصرفاته ، فلا شيء من ذلك يخرج عما أوردت سائر الكتب المقدسة وما أورد القرآن من سير الأنبياء . فاذا ذكرت أن هجر محمد نساءه لم يكن لسبب منفرد من الأسباب التي رويت في شأنه ، ولم يكن لأن حفصة أفضت إلى عائشة بما فعل محمد مع مارية مما يحق لكل رجل مع أزواجه وما ملكت يمينه ، رأيت في هذه الملاحظة التي يسيدها بعض المستشرقين ما لا يثبت أمام النقد التاريخي ، ولا يتفق مع منطق الحوادث وما جرت به الكتب المقدسة في شأن الأنبياء وحياتهم وأخبارهم .

الفصل السابع والعشرون

تبوك وموت إبراهيم

الخراج وجبايته - أنباء تهيو الروم - نفي محمد في المسلمين لتهيئوا
للقاتل بالشام - الخوالم المنافقون - شدة محمد معهم - الجيش العرم
في لظى الطريق إلى الشام - انسحاب الروم خوفاً من محمد
عهده ليوحنا ولأمراء الحدود - العود إلى المدينة - مرض إبراهيم
وفاته وبكاء محمد إياه

لم يغير هذا الحادث المنزلى وهذا الاضراب والاضطراب بين النبي
وأزواجه من سير الشؤون العامة شيئاً . وكانت الشؤون العامة بعد فتح مكة
وإسلام أهلها قد بدأ يتضاعف خطرهما ، وقد بدأت العرب جميعاً تحس جلال
هذا الخطر . فالبيت الحرام كان بيت العرب المقدس يحتجون إليه منذ أجيال
طويلة . وهذا هو البيت الحرام وما يتصل به من سدانة ورفادة وسقاية وما
يتصل بالحج إليه من مختلف الطقوس قد أصبح في حكم محمد وفي حكم الدين
الجديد . فلا جرم إذا أن تزداد شؤون المسلمين العامة لفتح مكة ، ون يزداد
العرب إحساساً بسلطانهم في كل ناحية من شبه الجزيرة . وازدياد الشؤون
العامة يحتاج بطبعه إلى مزيد في النفقات العامة . لذلك لم يكن بد من أن يدفع
المسلمون زكاة العشر وأن يدفع العرب الذين أصروا على جاهليتهم ما يفرض
عليهم من خراج . قد يُخرجهم ذلك وقد يدعوهم إلى التذمر وإلى أكثر من
التذمر . لكن ما اتصل بالدين الجديد من نظام في شبه الجزيرة جديد لم يجعل
من جمع العشر والخراج مخرجاً . ولهذا الغاية أوفد محمد صيارفه بعد قليل من

انقضاء الزكاة
والخراج

عوده من مكة ليجمعوا اليه عشر إيراد القبائل التي دانت للإسلام من غير
أن يتعرضوا لأصول أموالها . وذهب هؤلاء كلٌ وجهته . فتلقته القبائل
بالترحاب ودفعت لهم زكاة العشر طيبة بدفعها نفوسهم ، لم يند عن ذلك غير
فرع من بني تميم وغير بني المصطلق . فقد كان الصيرف يقتضى قبائل في
جوار بني تميم زكاة العشر وهم يدفعونها من إبلهم وأموالهم ، فسارعت
بنو العنبر (فخذٌ من بني تميم) اليه قبل أن يطالبها بزكاتها تحمل نبالها
وسيوفها وطرده من أرضها . فلما بلغ الخبر محمداً بعث اليهم عيينة بن حصن
على رأس خمسين فارساً انقضوا عليهم في سرٍّ منهم فقروا . وأصاب المسلمون
الأسرى والسبايا وهم يزيدون على خمسين رجلاً وامرأة وطفلاً ، وعادوا موفورين
إلى المدينة : وحبس النبي هؤلاء الأسرى . وكان من بني تميم جماعة أسلبوا
وقاتلوا إلى جانب النبي عند فتح مكة وفي حنين ، وكان منهم من لا يزال على
جاهليته . فلما عرفوا ما أصاب أصحابهم من بني العنبر أرسلوا إلى النبي وفداً
من أشرفهم نزلوا إلى المدينة ودخلوا المسجد ونادوا النبي من وراء حجراته
أن اخرج إلينا يا محمد . وآذى نداؤهم النبي ، فما كان ليخرج اليهم لولا أن أذن
لصلاة الظهر . فلما رأوه ذكروا ما صنع عيينة بأهلهم ، كما ذكروا ما كان لمن
أسلم منهم من جهاد إلى جانبه ، وما لقومهم من مكانة بين العرب ؛ ثم قالوا له :
إنا جئناك نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا . فقام خطيبهم عطار بن حاجب ،
فلما فرغ دعا رسول الله ثابت بن قيس ليرد عليه . ثم قام شاعرهم الزبير بن
ابن بدر فقال ، وأجابه حسان بن ثابت . فلما انتهت المفاخرة قال الأقرع
ابن حابس : وأبي إن هذا الرجل لمؤتى له ، لخطيبه أخطب من خطيبنا ،
ولشاعره أشعر من شاعرنا . ولأصواتهم أعلى من أصواتنا . وأسلم القوم
فاعتق النبي الأسرى ورددهم إلى قومهم .

فاما بنو المصطلق فاتهم لما رأوا الصيرف قهراً بأخافوا عاقبة أمرهم وأوفدوا

إلى النبي من ذكر له أن الخوف في غير محل له هو الذي أذى إلى ما وقع من سوء التفاهم .

ولم تكن ناحية من نواحي شبه الجزيرة إلا بدأت تحس سلطان محمد . ولم تحاول طائفة أو قبيلة أن تقاوم هذا السلطان إلا بعث النبي إليها قوة تحملها على الاذعان بدفع الخراج والبقاء على دينها أو بالاسلام ودفع الزكاة . وفيما عينه على بلاد العرب جميعاً حتى لا ينتقض فيها منتقض وحتى يستتب الأمن في ربوعها من أقصاها إلى أقصاها ، إذ اتصل بمحمد نبأ من بلاد الروم أنها تهتت . جيوشاً لغزو حدود العرب الشمالية غزواً ينسى الناس انسحاب العرب الماهر في مؤتة ، وينسى الناس ذكر العرب وسلطان المسلمين الزاحف في كل ناحية ليتأخم سلطان الروم في الشام وسلطان فارس في الحيرة . واتصل به هذا النبأ مجسماً أيما تجسيم . فلم يتردد برهة في تقرير مواجهة هذه القوى بنفسه والقضاء عليها قضاءً يقضى في نفوس سادتها على كل أمل في غزو العرب أو في التعرض لهم . وكان الصيف لما ينته . والقيظ في أوائل الخريف يصل إلى درجات تجعله أشد من قيظ الصيف في هذه الصحارى إرهاباً وقتلاً . ثم إن الشقة من المدينة الى بلاد الشام طويلة شاقة تحتاج إلى الجلد وتحتاج إلى المؤونة وإلى الماء . إذاً لا مفر من أن يطالع محمد الناس بعزمه السير إلى الروم وقतालهم حتى يأخذوا لذلك عدتهم . ولا مفر من أن يخالف محمد بذلك تقاليد في سابق غزواته حين كان يتوجه في كثير من الأحيان بجيشه إلى غير الناحية التي إليها يقصد . تضليلاً للعدو حتى لا يفشو خبر مسيرته . وأرسل محمد في القبائل جميعاً يدعوها للتهيؤ كما تعدت أكبر جيش يمكن إعداده ، وأرسل الى سراة المسلمين ليشاركوا في تجهيز هذا الجيش بما آتاهم الله من فضله ، وليحرضوا الناس على الانضمام اليه ، حتى يكون من الأهبة بما يدخل الروع في نفوس الروم الذين عرفوا بوفرة عدتهم وكثرة عديدهم .

تهتت الروم
للغزو

دعوة محمد
لغزو الروم

بم عسى أن يستقبل المسلمون هذه الدعوة إلى هجر أبنائهم ونسائهم وأموالهم
 في شدة القيظ ليقطعوا فيافي وصحارى مجربة قليلة الماء ، ثم ليلقوا عدواً غلب
 الفُرس ولم يقهره المسلمون ؟ أفيدفعهم إيمانهم وحبهم للرسول وشديد تعلقهم
 بدين الله الى الاقبال على دعوته متدافعين بالمناكب حتى يضيق بهم فضاء
 الصحراء ، دافعين أمامهم أموالهم وإبلهم ، مَدْرَعِينَ بِسِلَاحِهِمْ ، مَثِيرِينَ أَمَامَهُمْ
 مِنَ النَّعْجِ مَا إِنْ يَكَادُ يَبْلُغُ الْعَدُوَّ نَبْوَهُ حَتَّى يَوْتِيَ الْأَدْبَارَ لَا يَلْوِي عَلَى شَيْءٍ ؟
 أم تُمَسِّكُهُمْ مَشَقَّةُ الطَّرِيقِ وَشِدَّةُ الْحَزِّ وَمَخَافَةُ الْجُوعِ وَالْعَطَشِ فَيَتَقَاعَسُونَ
 وَيَتَرَاجِعُونَ ؟ لقد كان في المسلمين يومئذ من هؤلاء وأولئك : كان فيهم أولئك
 الذين أقبلوا على الدين بقلوب ممتلئة هدى ونوراً ، ونفوس غمرها ضياء الإيمان
 فلا تعرف غيره ، وكان فيهم من دخل في دين الله رغباً ورهباً : رغباً في مغائم
 الحرب بعد أن أصبحت قبائل العرب كلها لا تثبت أمام غزو المسلمين فتسلم لهم
 ثم يؤذوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون . ورهباً من هذه القوة التي تضطرب
 أمامها كل قوة ويخشى سلطانها كل ملك . فأما الأولون فأقبلوا لدعوة رسول
 الله خفافاً مسرعين ، ومنهم الفقير الذي لا يجد الدابة يحمل نفسه عليها ، ومنهم
 الغنى ماله بين يديه يقدمه في سبيل الله راضيةً نفسه طامعاً في الاستشهاد
 والانحياز الى جوار الله . وأما الآخرون فتناقلوا وبدموا يلتمسون الأعذار
 وجعلوا يتهامسون فيما بينهم يهزمون بدعوة محمد إياهم لهذا الغزو الناقب في ذلك
 الجؤ المحرق . هؤلاء هم المنافقون الذين نزلت فيهم سورة التوبة ، فيها أعظم دعوة
 للجهاد وأشد تخويف من عذاب الله يصيب من تخلف عن إجابة رسوله .

قال قوم من المنافقين بعضهم لبعض : لا تنفروا في الحر ؛ فنزل قوله

تَعَالَى : هـ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ . فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْشُرُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . . وقال محمد للجد بن قيس أحد بني سلمة : يا جد ، هل لك العام

تلقى المسلمين
 دعوة الرسول

المنافقون

في جلاد بنى الأصفر؟ فقال: «يا رسول الله، أو تأذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل أشدُّ عُجْبًا بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر ألا أصبر». وبنو الأصفر هم الروم. فأعرض عنه رسول الله، وفيه نزلت هذه الآية: «وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَآتَيْنَاهُمُ الْمَالَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّجْتَنِبُونَ غِلَظَ الْعِقَابِ وَأَنَّهُمْ كَافِرِينَ» . وانهز الذين تنطوى قلوبهم على بغضاء محمد هذه الفرصة ليزيدوا المنافيين نفاقاً، وليحرّضوا الناس على التخلف عن القتال. هؤلاء لم ير محمد أن يتهاون معهم خيفة أن يستفحل أمرهم، ورأى أن يأخذهم أخذ عزيزٍ مُّقْتَدِرٍ. بلغه أن ناساً منهم يجتمعون في بيت سُؤَيْلِمَ اليهودي يثبطون الناس ويُلقون في نفوسهم التخاذل والتخلف عن القتال، فبعث إليهم طَلْحَةَ بنَ عُبَيْدِ اللَّهِ في نفر من أصحابه، فخرق عليهم بيت سُؤَيْلِمَ ففر أحدهم من ظهر البيت فانكسرت رجله، واقحم الباقون النار فأفلتوا ولكنهم لم يعودوا لمثلها، ثم كانوا مثلاً لغيرهم فلم يجرؤ أحد بعدهم على مثل فعلهم.

تجهيز جيش
العسرة

وقد كان لهذه الشدة في أخذ المنافيين ومن معهم أثرها. فقد أقبل الأغنياء وذوو اليسار فأنفقوا نفقة عظيمة لتجهيز الجيش: أنفق عثمان بن عفان وحده ألف دينار، وأنفق كثيرون غيره كل في حدود طاقته، وتقدم كل قادر على نفقة نفسه بَعْدَتِهِ ونفقته. وأقبل كثيرون من الفقراء يريدون أن يحملهم النبي معه، فحمل منهم من استطاع، واعتذر للباقيين وقال: لا أجد ما أحملكم عليه، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا ما ينفقون. ولبكائهم هذا أطلق عليهم اسم البكّائين. واجتمع لمحمد في هذا الجيش، الذي سُمِّيَ جيش العسرة لشدة ما لاقى منذ يوم تكوينه، ثلاثون ألفاً من المسلمين.

اجتمع الجيش وقام أبو بكر فيه يوم الناس للصلاة في انتظار عود محمد

من تدير شؤون المدينة أثناء غيبته . وقد استخلف عليها محمد بن مسلمة ،
 وخلف على بن أبي طالب على أهله وأمره بالاقامة فيهم ، وأصدر ما رأى أن
 يصدر من الأوامر ، ثم عاد إلى الجيش يتولى قيادته . وكان عبد الله بن أبي
 قد خرج في جيش من قومه يسير به إلى جانب جيش محمد . لكن النبي رأى
 أن يظل عبد الله وجيشه بالمدينة ، لأنه كان ما يزال ضعيف الثقة به وبصحته
 إيمانه . وأمر فتحرك الجيش وثار التقع وصهلت الخيل وارتقت نساء المدينة
 سقفا يشهدن هذا الجحفل الجزار يتوجّه محترقاً الصحراء صوب الشام ،
 مستهيناً في سبيل الله بالحرّ والظأ والمسغبة ، تاركاً وراءه القواعد والخوالب
 من آثروا الظل والتعنة والذدة على إيمانهم وعلى رضا الله عنهم . ولقد حرك
 منظر الجيش يتقدمه عشرة آلاف فارس ومنظر النسوة مأخوذات بجلاله
 وقوته بعض نفوس لم تحركها دعوة الرسول فتعاسست ولم تتبعه . رجع
 أبو خيثمة بعد أن رأى هذا المنظر فوجد امرأتين له قد رشت كل واحدة
 منهما عريشها وبردت له فيه ماء وهيات له فيه طعاماً ، فلما رأى الرجل ما صنعتا
 قال : رسول الله في الضحّ والريح والحرّ وأبو خيثمة في ظل بارد وطعام مهياً
 وامرأة حسناء في ماله مقيم : هيئاً لي زاداً حتى ألحق به ! فهياتا له زاده ولحق
 بالجيش . ولعل جماعة من الخوالب قد فعلوا فعل أبي خيثمة بعد أن رأوا
 ما في التقاعس والخوف من سنار ومذلة .

مسيرة جيش
العسرة

وسار الجيش حتى بلغ الحِجْرَ وبها أطلال لمنازل ثمود منقورة في
 الصخر . هنالك أمر رسول الله بالنزول فاستقى الناس من بئرها . فلما راحوا
 قال لهم : لا تشربوا من ماءها شيئاً ولا تتوضئوا منه للصلاة . وما كان من
 عجيب عجزتموه فاعلفوه للابل ولا تأكلوا منه شيئاً . ولا يخرجنّ منكم أحد
 إلا ومعه صاحب له . ذلك أن المكان لم يكن أحد يمر به وكانت تعصف
 أحياناً عواصف الرمل تطمر الناس والابل . ولقد خرج رجلان على خلاف

النزول بالحجر

أمر الرسول احتملت أحدهما الريح وطمرت الآخر الرمال . فلما أصبح الناس ألقوا هذه الرمال قد طمت البثر فلم يبق بها ماء ففزعوا خيفة الظأ وقدروا لما بقي من طول الطريق . وإنهم لكذلك إذ مرّت بهم سحابة أمطرتهم فاروتوا وأصابوا من الماء ما شاءوا وزايلهم الفزع وطار أكثرهم سروراً وأقبل بعضهم على النبيّ يقولون : إنها معجزة . فلم يرض قولهم ، وكان جوابه لهم : إنما هي سحابة مارة .

وانطلق الجيش بعد ذلك قاصداً تبوك . وكانت الروم قد بلغها أمر هذا الجيش وقوته فأثرت الانسحاب بجيشها الذي كانت وجهت إلى حدودها ليتحصن داخل بلاد الشام في حصونها . فلما انتهى المسلمون إلى تبوك وعرف محمد أمر انسحاب الروم ونمى إليه ما أصابهم من خوف ، لم ير محلاً لتبّعهم داخل بلادهم . وأقام عند الحدود يتحدّى من شاء أن ينازله أو يقاومه ، ويعمل لكفالة هذه الحدود حتى لا يتخطى من بعد ذلك إليها أحد . وكان يوحنا بن رؤبة صاحب أبنلة أحد الأمراء المقيمين على الحدود . ولقد وجه إليه النبي رسالة أن يدع أو يغزوه : فأقبل يوحنا وعلى صدره صليب من ذهب وقدم الهدايا وتقدم بالطاعة وصالح محمداً وأعطاه الجزية ، كما صالحه أهل جزيّاء وأذرح وأعطوه الجزية . وكتب رسول الله لهم كتب أمن ، هذا نص أحدها وهو ما كتب ليوحنا : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذه أمانة من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنا بن رؤبة وأهل أبنلة سلفهم وسيّارتهم في البر والبحر لهم ذمة الله ومحمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدّاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه ، وإنه طيب لمحمد أخذه من الناس ، وإنه لا يحل أن يُمنعوا ماء يردونه ولا طريقاً يريدونه من برّ أو بحر ، . وإيداناً بالموافقة على هذا العهد أهدى محمد إلى يوحنا رداء من نسج اليمن وأحاطه بكل صنوف الرعاية ، بعد أن اتفق على أن تدفع

الانسحاب الروم

معاهدة
أهل الحدود

أيلة جزية قدرها ثلاثمائة دينار في كل عام .

لم يبق محمد بحاجة إلى القتال بعد انسحاب الروم وبعد معاهدة البلاد الواقعة على الحدود معه وبعد أمنه عودة الجيوش البيزنطية من هذه الناحية لولا خيفة انتقاض أكيدر بن عبد الملك الكندي النصراني أمير دومة ومعاوته جيوش الروم إذا جاءت من ناحيته . لذلك بعث إليه خالد بن الوليد في خمسمائة فارس وانقلب هو بجيشه راجعاً إلى المدينة . وأسرع خالد بالانتقاض على دومة في غفلة من مليكها الذي خرج في ليلة مقمرة ومعه أخ له يسمى حسان يطاردان بقر الوحش . ولم يلق خالد مقاومة تذكر حتى أخذ حساناً وأخذ أكيدر أسيراً وهدده بالقتل إن لم تفتح دومة أبوابها . وفتحت المدينة الأبواب فداءً لأميرها ، وساق خالد منها ألفي بعير وثمانمائة شاة وأربعمائة وسق من بُرّ وأربعمائة درع ، وذهب بها ومعه أكيدر حتى لحق بالنبي في عاصمته . هنالك عرض محمد الإسلام على أكيدر فأسلم وأصبح له حليفاً .

لم يكن عود محمد على رأس هذه الألوف من جيش العسرة من حدود الشام إلى المدينة بالأمر الهين . فلم يدرك كثيرون من هؤلاء مغزى الاتفاق الذي عقد مع أمير أيلة والبلاد المجاورة له ، ولم يقيموا كبير وزن لما حققه محمد بهذه الاتفاقات من تأمين حدود شبه الجزيرة وإقامة هذه البلاد معاقل بينه وبين الروم ، بل كان كل الذي نظروا إليه أنهم قطعوا هذه الشقة الطويلة وتحملوا في قطعها ما تحملوا من الأذى وهام أولاء يعودون لم يغنموا ولم يأسروا ، بل لم يقاتلوا ، وكل الذي فعلوا أن أقاموا بتبوك قرابة عشرين يوماً . فهل لهذا قطعوا الصحراء في شدة القيظ في حين كانت ثمار المدينة قد طابت وأن أن يستمتع الناس بها ! وجعل جماعة منهم يستهزئون بما فعل محمد ، فينقل من ملاء الإيمان قلوبهم نبأهم إليه ، يأخذ المستهزئين بالشدة حيناً وباللين حيناً ، والجيش يسير قافلاً إلى المدينة ومحمد يحفظ النظام في صفوفه؛ حتى إذا انتهى

عود بن الوليد

دومه

عود بن الحسين

إلى المدينة

إليها لم يلبث ابن الوليد أن لحقه بها . لحقه بها ومعها أكيدر ومعها ما حمل من دومة من إبل وشاء وبر ودروع ، وعلى أكيدر حلة من ديباج موشى بالذهب بُهت أهل المدينة لمآها .

هنالك اضطرب الذين تخلفوا عن اتباعه اضطراباً ردّ المستهزئين الى صوابهم . جاء المتخلفون يعتذرون وأكثرهم يشوب معاذيره الكذب . وأعرض محمد عما صنعوا تاركاً لله حسابهم . لكن ثلاثة صدقوا الله ورسوله فاعترفوا بتخلفهم واعترفوا بذنوبهم . هؤلاء الثلاثة هم كعب بن مالك ومُرارة ابن الربيع وهلال بن أمية . وهؤلاء الثلاثة أمر محمد فأعرض المسلمون عنهم خمسين يوماً ما يكلمهم أحد ولا تصل بينهم وبين مسلم تجارة . ثم تاب الله على هؤلاء الثلاثة وعفا عنهم ونزل فيهم قوله تعالى في سورة التوبة : « لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ . وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » .

من يومئذ بدأ محمد يشتد في معاملة المنافقين شدة لم يألوا من قبل . وذلك أن عدد المسلمين زاد زيادة تجعل عبث المنافقين بهم خطراً يخشى منه ويجب تلافيه وعلاجه . وهم إذا ازدادوا من بعد أضعاف زيادتهم اليوم — وذلك ما لم يقم بنفس محمد ريب فيه بعد أن وعده ربه لينصرن دينه ويُعَلِّينَ كَلِمَتَهُ — كان المنافقون خطراً عظيماً . ولقد كان له من قبل حين كان الاسلام محصوراً بالمدينة وما حولها أن يشرف بنفسه على ما يجري بين المسلمين . أمّا وقد انتشر الدين في أنحاء بلاد العرب جميعاً وهاهو ذا يشارف الانتقال منها ، فكل تهاون مع المنافقين شرٌ تخشى مغبته وخطراً ما أسرع

ما يستشرى إذا لم تحتج جرثومته . بنى جماعة مسجداً بنى أو أن (بينه وبين المدينة ساعة من نهار) ، وإلى هذا المسجد كان يأوى جماعة من المنافقين يحاولون أن يحرّفوا كلام الله عن مواضعه وأن يفرّقوا بذلك بين المؤمنين ضراراً وكفرأ . وطلبت هذه الجماعة الى النبي أن يفتح المسجد بالصلاة فيه ، وكان طلبهم هذا قبل تبوك ؛ فاستمهلهم حتى يعود . فلما عاد وعرف من أمر المسجد وحقيقة ما قصد اليه من إقامته أمر بإحراقه ، فضرب بذلك مثلاً ارتعدت له فرائص المنافقين خافوا وانكشوا ، ولم يبق لهم من يحميمهم إلا عبد الله بن أبي شيخهم وقائدهم .

احراق مسجد
الضرار

على أن عبد الله لم يعمر بعد تبوك غير شهرين مرض إثرهما وتوفى . ولما كان ما بينه وبين النبي منذ نزل المدينة قد جعل محمداً لا يناله إلا بالحسنى ، فانه ما لبث أن دُعي للصلاة عليه حتى صلى وقام على قبره إلى أن دفن وفرغ منه . وبوفاته انهار ركن المنافقين وآثر من بقي منهم أن يُخلص لله توبته .

بغزوة تبوك تمت كلمة ربك في شبه الجزيرة كلها ، وأمن محمد كل عادية عليها ، وأقبل سائر أهلها وفوداً عليه يقدمون الطاعة ويعلنون لله الاسلام ، فكانت هذه الغزوة بذلك خاتمة غزوات النبي عليه السلام . وكذلك أقام محمد بالمدينة معتبطاً بما أفاه الله عليه . وفي هذه الأثناء كان ابنه ابراهيم قرّة عينه له ستة عشر شهراً أو ثمانية عشر شهراً . فكان إذا فرغ من استقبال الوفود ومن القيام بأمر المسلمين ومن أداء حق الله ورسالته وحق أهله جميعاً لهم ، اطمأنت نفسه برؤية هذا الطفل الذي ظل يتزعزع وينمو ويزداد شبهة بمحمد وضوحاً يزيد أباه له حباً وبه تعلقاً . وخلال هذه الأشهر جميعاً كانت حاضنته أم سيف ترضعه وتسقيه لبن الماعز التي أهداها النبي إليها . ولم يكن تعلق محمد بابراهيم لغاية في نفسه لها اتصال برسالته أو بمن يخلفه . فقد كان عليه السلام في إيمانه بالله وبرسالته لا يفكر في ولده ولا فيمن يرثه ؛ بل كان يقول : نحن معاشر

تبوك خاتمة
الغزوات

نقطة النبي
ابراهيم

كيف يعوّلها النبي والقرآن معرّفه ورث سليمان داود ؟

الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة، إنما هي العاطفة الانسانية في أسمى معانيها: العاطفة الانسانية التي بلغت من السمو في نفس محمد ما لم تبلغه في نفس أحد غيره، العاطفة الانسانية التي جعلت العربي يرى فيمن يخلفه من الذكّر ان صورة من صور الخلود — هذه العاطفة هي التي جعلت محمداً يخلع على إبراهيم كل هذا الحب ويرمقه من العطف بما لا عطف بعده. ولقد زاد هذه العاطفة رقة وقوة في نفسه أنه فقد أولاده القاسم والطاهر والطيب في طفولتهم وهم ما يزالون في حجر أمهم خديجة، وأنه فقد بناته بعد خديجة واحدة بعد الأخرى بعد أن كبرن وصرن أزواجا وأمّهات، فلم يتبق له منهن غير فاطمة. هؤلاء الأبناء والبنات الذين تساقطوا من حوله فرقدوا بعينه تحت الثرى. تركوا في نفسه قرحة أليم اندملت بمولد إبراهيم وأثمرت مكانها رجاء وأملا. وكان حلاله أن يمتلي بهذا الأمل غبطة واستبشاراً.

لكن هذا الأمل لم يكن ليطول إلا تلك الأشهر التي ذكرنا. فقد

مرض إبراهيم

بعدها مرضاً خيف منه على حياته، فنقل إلى نخل بجوار مشربة أم إبراهيم، وقامت من حوله مارية وأختها سيرين تمرّضانه. ولم يطل بالطفل المرض. فلما كان في الاحتضار وأخبر النبي بأمره، أخذ بيد عبد الرحمن ابن عوف يعتمد عليه لشدة ألمه، حتى أتيا إلى النخل بجوار العالية التي تقوم المشربة اليوم مكانها، فوجد إبراهيم في حجر أمه يجود بنفسه، فأخذه فوضعه في حجره وقلبه يَجِفُّ ويده تضطرب، وقد ملك الحزن عليه فؤاده وبدت صورة الألم على قسّمات وجهه. وضعه في حجره وقال: «إنا يا إبراهيم لانغني عنك من الله شيئاً». ثم وحّم وذرفت عيناه، والغلام يجود بنفسه وأمّه وأختها تصيحان فلا ينههما رسول الله. فلما استوى إبراهيم جثماناً لا حراك به ولا حياة فيه وانطفأ بموته ذلك الأمل الذي تفتّحت له نفس النبي زمناً، زادت عينا محمد تهتاناً وهو يقول: «يا إبراهيم لولا أنه أمر حق، ووعد صدق

موت إبراهيم
وحزن النبي

وأن آخرنا سيلحق بأولنا، لحزننا عليك بأشد من هذا». وبعد أن وجم هنيهة قال: «تدمع العين ويحزن القلب ولا تقول إلا ما يرضى الرب، وأنا يا إبراهيم عليك لمحزونون».

ورأى المسلمون ما بمحمد من حزن، وحاول حكماؤهم أن يردوه عن الامعان فيه، فذكروه بما نهى عنه؛ فقال: «ما عن الحزن نهيت وإنما نهيت عن رفع الصوت بالبكاء. وإنما ترون بي أثر ما في القلب من محبة ورحمة. ومن لم يُبْدِ الرحمة لم يبد غيره عليه الرحمة». أو كما قال. ثم إنه حاول كظم حزنه وتبريد لوعته ونظر إلى مارية وإلى سيرين نظرة عطف، وطلب اليهما أن تهونا عليهما قائلاً: إن له لمرضعاً في الجنة. ثم إن أم بردة غسلته — أو غسله الفضل بن عباس، في رواية أخرى — وحمل من بيتها على سرير صغير وشيعه النبي وعمه العباس وطائفة من المسلمين إلى البقيع حيث دفن بعد أن صلى النبي عليه. فلما تم دفنه أمر محمد بسد القبر ثم سوى عليه بيده ورش الماء وأعلم عليه بعلامة وقال: إنها لا تضر ولا تنفع ولكنها تُقَرِّعُ عَيْنَ الْحَيِّ. وإن العبد إذا عمل عملاً أحب الله أن يتقنه.

ووافق موت إبراهيم كسوف الشمس؛ فرأى المسلمون في ذلك معجزة وقالوا: إنها انكسفت لموته. وسمعهم النبي. أثرى قرظ حبه لأبراهيم وشديد جزعه لموته قد جعله يتعزى بسماع مثل هذه الكلمة أو يسكت على الأقل عنها أو يعذر الناس إذ يراهم مأخوذين بما يحسبونه المعجزة؛ كلا! فمثل هذا الموقف إن لاق بالذين يستغلون في الناس جهالتهم، أو لاق بالذين يخرجهم الحزن عن رشادهم. فهو لا يليق بالنزيه الحكيم، فما بالك بالرسول العظيم! لذلك نظر محمد إلى الذين ذكروا أن الشمس انكسفت لموت إبراهيم فخطبهم فقال: «إن الشمس والقمر آياتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته. فاذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله بالصلاة». آية عظيمة أكبر

من ألا ينسى الرسول رسالته في أشد المواقف التي تملأ نفسه بالفجعة والهول! لقد وقف من تناول من المستشرقين هذا الحديث لمحمد موقف الاجلال والاعظام، ولم يستطيعوا كتم إعجابهم وإكبارهم وإعلان عيرفانهم بصدق رجل لا يرضى في أدق المواقف الا الصدق والحق .
تُرى ماذا كان شعور أزواج النبي بفجيئته في إبراهيم وحزنه الشديد عليه ؟

أما هو فتعزى بفضل الله وبمتابعته أداء رسالته وبازدياد الاسلام انتشاراً في هذه الوفود التي كانت ماتفتاً تتوارد اليه من كل صوب : حتى لقد دعيت هذه السنة العاشرة من الهجرة سنة الوفود ، وهي السنة التي حج أبو بكر فيها كذلك بالناس .

الفصل الثامن والعشرون

عام الوفود وحج أبي بكر بالناس

دخول العرب أفواجاً في دين الله - إسلام عروة بن مسعود الثقفي
وقتل أهل الطائف له - أخذ القبائل المجاورة الطريق على ثقيف
وفدها إلى النبي وشروطه - إسلام الوفد وإسلام الطائف وهدم
صنمها اللات - حج أبي بكر بالناس - لحاق علي بن أبي طالب به
سورة براءة - أساس الدولة الإسلامية المعنوية
الجهاد في الإسلام وتسويغه

بغزوة تبوك تمت كلبة ربك في شبه جزيرة العرب كلها، وأمن محمد من كل عادية عليها. والحق أنه لم يلبث أن عاد بعد هذه الغزوة إلى المدينة حتى بدأ من كان ما يزال على شركه من أهل شبه الجزيرة يفكر. ولئن كان المسلمون الذين صحبوا محمداً في مسيره إلى الشام، وكابدوا من صنوف المشاق واحتملوا من القيظ والظمأ أهوالاً، قد عادوا وفي نفوسهم شيء من السخط أن لم يقاتلوا ولم يفتنوا بسبب انسحاب الروم إلى داخل الشام ليتحصنوا بمعاقلهم فيها، فإن هذا الانسحاب قد ترك في نفس قبائل العرب المحتفظة بكيانها وبدينها أثراً عميقاً، وترك أثراً أعمق في نفس قبائل الجنوب باليمن وحضرموت وعمان. أليس الروم هؤلاء هم الذين غلبوا الفرس واستردوا منهم الصليب وجاءوا به إلى بيت المقدس في حفل عظيم، وفارس كانت صاحبة السلطان على اليمن وعلى البلاد المجاورة لها أزماناً طويلة! فإذا كان المسلمون على مقربة من اليمن ومن غيرها من البلاد العربية جميعاً،

أثر تبوك

من العرب
الى الاسلام

فما أجدر هذه البلاد بأن تتضمن كلها في تلك الوحدة التي تستظل بعلم محمد ، علم الاسلام ، لتكون بمنجاة من تحكم الروم والفرس جميعاً . وماذا يضتر أمراء القبائل والبلاد أن يفعلوا وهم يرون محمداً يُثبَّت من جابه معلناً الاسلام والطاعة في إمارته وعلى قبيلته . فلتكن السنة العاشرة للهجرة إذا سنة الوفود ، وليدخل الناس في دين الله أفواجاً ، وليكن لغزوة تبوك ولانسحاب الروم أمام المسلمين من الأثر أكثر مما كان لفتح مكة والانتصار في حُنين وحصار الطائف .

إسلام عروة
ابن مسعود

ومن حسن صنيع القدر أن كانت الطائف ، التي قاومت النبي أثناء حصارها ما قاومت حتى انصرف المسلمون عنها دون اقتحامها ، هي أول من أسرع الى إعلان الطاعة بعد تبوك ، وإن ترددت طويلاً في إعلان هذه الطاعة . فقد كان عروة بن مسعود أحد سادة ثقيف المقيمين بالطائف غائباً باليمن أثناء غزو النبي ببلاده بعد موقعة حنين . فلما عاد الى موطنه ورأى النبي انتصر في تبوك وعاد الى المدينة ، أسرع إليه يعلن إسلامه وحرصه على دعوة قومه لاعتناق دين الله . ولم يكن عروة ليجهل محمداً وعظم أمره ، وقد كان أحد الذين تفاوضوا وإتياءه عن قريش في صلح الحديبية . وعرف النبي بعد إسلام عروة اعتزاهم الذهاب الى قومه يدعوهم الى الدين الذي دخل فيه . وقد كان النبي يعرف من تعصب ثقيف لصلتها باللات ومن نخوتها وشدتها ما جعله يحذر عروة ويقول له : إنهم قاتلوك . لكن عروة اعتزَّ بمكانه من قومه . فقال : يا رسول الله . أنا أحب اليهم من أبصارهم . وذهب عروة فدعا قومه الى الاسلام ؛ فقتلوا فيما بينهم ولم يُبدوا له رأياً . فلما كان الصباح قام هو على علية له ينادى الى الصلاة . هنالك صدقت فراسة الرسول . فلم يُطق قومه صبراً ، فأحاطوا به ورموه بالنبل من كل وجه فأصابه سهم قاتل . واضطرب من حول عروة أهله ؛ فقال وهو يسلم الروح : « كرامة أكرمني الله بها .

مقتل عروة

وشهادة ساقها الله إلى ، فليس في إلا ما في الشهداء الذين قُتلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يرتحل عنكم . ثم طلب أن يدفن مع هؤلاء الشهداء فدفنه أهلهم معهم .

ولم يذهب دم عُرْوَةَ هَدْرًا ؛ فقد كانت القبائل التي تحيط بالطائف قد أسلمت كلها ، وقد رأت في هذا الذي صنعت ثقيف بسيد من ساداتها إثمًا ونكرًا . ورأت ثقيف من أثر ذلك أنهم صاروا لا يأمن لهم شرب ، ولا يخرج منهم رجل إلا اقتطع ، وأيقنوا أنهم إن لم يحدوا سبيلا إلى صلح أو هدنة مع المسلمين فصيرهم لاريب إلى الفناء . وأمر القوم فيما بينهم وتحدثوا إلى كبير منهم (عبد ياليل) كي يذهب إلى النبي يعرض عليه صلح ثقيف معه . وحشى عبد ياليل أن يُصيه من قومه ما أصاب عُرْوَةَ بن مَسْعُود ، فلم يقبل أن يخرج إلى محمد حتى أوفدوا معه خمسة آخرين ، اطمان إلى أنه إذا خرج معهم ثم عادوا شغل كل رجل منهم رهطه . ولقي المُغيرة بن شُعْبَةَ القوم حين دنوا من المدينة . فأسرع يريد أن يخبر النبي خبرهم . ولقيه أبو بكر يشتد في السير ؛ فلما عرف منه ما جاء فيه طلب إليه أن يدع له هذه البشرية يزقها إلى رسول الله . ودخل أبو بكر فأخبر النبي بقدم وفد ثقيف عليه .

وكان هذا الوفد ما يزال يعتزُّ بقومه ، وما زال يذكر حصار النبي للطائف وانصرافه عنها . فبالرغم مما علمهم المغيرة كيف يحثون النبي بتحية الاسلام لم يرضوا حين قابله إلا أن يحثوه بتحية الجاهلية . ثم إنهم ضربت لهم قُبَّة خاصة في ناحية من المسجد أقاموا بها يُصرون على الحذر من المسلمين وعدم الطمأنينة إليهم . وكان خالد بن سعيد بن العاص هو الذي يمشی بينهم وبين رسول الله في مفاوضاتهم وإيثاره ؛ فكانوا لا يقطعون طعاماً يأتيهم من عند النبي حتى يأكل منه خالد . وقام هذا بالسفارة ، فأبلغ محمداً أنهم ، مع استعدادهم للاسلام ، يطلبون إليه أن يدع لهم صنمهم الآلات ثلاث سنين

رسول الله
أبو بكر

صلى الله
عليه وسلم
ورفض النبي
ذلك

لا يهدمها وأن يُعفيهم من الصلاة . وأبي محمد عليهم ما طلبوا من ذلك أشد إباء . ومع أنهم نزلوا يطلبون أن يدع اللات سنتين ثم أن يدعها سنة ثم أن يدعها شهراً واحداً بعد انصرفهم إلى قومهم ، فقد كان إياؤه في ذلك حاسماً لا تردّد فيه ولا هوادة . وكيف تريد بنبيّ يدعو إلى دين الله الواحد القهار ويهدم الأصنام فلا يذر منها باقية أن يتهاون في أمر صنم منها وإن كان لقومه من المنعة ما كان لثقيف بالطائف . فالإنسان إمّا أن يؤمن وإمّا ألا يؤمن ، وليس بين الطرفين إلا الارتباب والشك . والشك والايمن لا يجتمعان في قلب كما لا يجتمع الايمان والكفر . وبقاء اللات طاغية ثقيف علماً على أنهم ما يزالون يداولون عبادتهم بينها وبين الله جلّ شأنه إشرارك بالله . والله لا يغفر أن يُشرك به .

طلبه الناس
من قسطن
ورصد

وطلبت ثقيف إعفاءها من الصلاة : ففرض محمد قائلاً : إنه لا خير في دين لا صلاة فيه . ونزل الثقيفون عن بقاء اللات وقبلوا الاسلام وإقامة الصلاة . لكنهم طلبوا ألا يكسروا أو تانهم بأيديهم . إنهم حديثو عهد بايمان وقومهم ما يزالون في انتظارهم ليروا ما صنعوا ، فليجنّبهم محمد تحطيم ما كانوا يعبدون وما كان يعبد آباؤهم . ولم ير محمد أن يشتد في هذه أيضاً . فسيّان أن يكسر الثقيفون الصنم وأن يكسره غيرهم : فهو سيهدم وستقوم في ثقيف عبادة الله وحده . قال عليه السلام : أمّا كسر أو تانكم بأيديكم فسنعفيكم منه . وكتب لهم رسول الله ثم أمرَ عليهم عثمان بن أبي العاص . وكان من أحدثهم سناً . أمرته عليهم رغم حداثة سنّته : لأنه كان أحرصهم على الفقه في الاسلام وتعلّم القرآن ، بشهادة أبي بكر والسابقين إلى الاسلام . وأقام القوم مع محمد ما بقى من رمضان وصاموا وإيتاه وهو يبعث لهم بفظورهم وسحورهم . فلما آن لهم أن ينصرفوا إلى قومهم أوصى محمد عثمان بن أبي العاص قائلاً : تجاوز في الصلاة واقدر الناس بأضعفهم ، فان فيهم الكبير والصغير والضعيف وذا الحاجة .

عاد القوم إلى بلادهم، فوجه النبي معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة ابن شعبة، وكانت لها بثقيف مودة وحرمة، ليقوما بهدم اللات. وقدم أبو سفيان والمغيرة لهدم الصنم. فهدمه المغيرة ونساء ثقيف حُسراً بيكين، ولا يجرؤ أحد أن يقترب منه بعد الذي كان من اتفاق وفد ثقيف والنبي على هدمه. وأخذ المغيرة مال اللات وحليها فقضى منه، بأمر الرسول وبالاتفاق مع أبي سفيان، ديناً كان على عذرة والأسود. وبهدم اللات وبإسلام الطائف كانت الحجاز كلها قد أسلمت، وكانت سطوة محمد قد امتدت من بلاد الروم في الشمال إلى بلاد اليمن وحضرموت في الجنوب. وكانت هذه البلاد الباقية في جنوب شبه الجزيرة تهباً كلها لتنضم إلى الدين الجديد ولتقف على الدفاع عنه وعن وطنها كل قوتها. وكانت وفودها تسير لذلك من جهات مختلفة قاصدة كلها إلى المدينة لتعلن الطاعة ولتدين بالاسلام.

هدم اللات

لوفود تترى
إلى المدينة

بينما كانت الوفود تترى إلى المدينة كانت الأشهر الحرم يتلو أحدها الآخر حتى اقترب موعد الحج. ولم يكن النبي عليه السلام قد أدى الفريضة إلى يومئذ على تمامها كما يؤذيها المسلمون اليوم. أفقره يخرج في عامه هذا شكراً لله على ما نصره على الروم، وما أدخل الطائف في حظيرة الاسلام، وما جعل الوفود تجيء إليه من كل فج عميق؟ إن شبه الجزيرة ما يزال بها من لم يؤمن بالله ورسوله. ما يزال بها الكفار وما يزال بها اليهود والنصارى. والكفار على عهدهم في الجاهلية ما يزالون يحجون إلى الكعبة في الأشهر الحرم. والكفار نجس. فليبق إذا بالمدينة حتى يُتيم الله كلمته وحتى يأذن الله له بالحج إلى بيته. وليخرج أبو بكر في الناس حاجاً.

حج أبو بكر
للسنة

وخرج أبو بكر في ثلاثمائة مسلم قاصداً إلى مكة. لكن العام قد يتلو العام والمشركون ما يزالون يحجون بيت الله الحرام. أليس بينه وبين الناس عهدٌ عامٌ ألا يُصدَّ عن البيت أحد جاءه، ولا يخاف أحد في الشهر الحرام؟!؟

أليست بين محمد وبين قبائل من العرب عهود الى آجال مسماة ، فما دامت هذه العهود فسيظل بيت الله يحج إليه من يشرك بالله ومن يعبد غير الله ، وسيظل المسلمون يرون طقوس الجاهلية تؤدى بأعينهم حول الكعبة وهم بحكم هذه العهود الخاصة وهذا العهد العام لا قبل لهم بصد أحد عن حجه وعبادته . ولئن كانت الأوثان التي يعبد العرب قد حُطِّمَ الكثير منها وحطم منها كل ما كان في الكعبة أو حولها ، فإن هذا الاجتماع في بيت الله المقدس اجتماعاً يضم الثائرين على الشرك وعلى الوثنية والمقيمين على هذا الشرك وهذه الوثنية ، تناقض غير مفهوم . ولئن استطاع أحد أن يفهم حج اليهود والنصارى جميعاً الى بيت المقدس ، على أنه أرض الميعاد لليهود ومولد المسيح للنصارى ، فلن يستطيع أحد أن يفهم اجتماع عبادتين حول بيت تُحطَّم فيه الأصنام وتُعبد فيه الأصنام التي حُطِّمَت . لذلك كان طبيعياً أن يحال بين المشركين وبين الاقتراب من البيت الذي طُهر من الشرك ومُسحت عنه كل معالم الوثنية . وفي هذا نزلت الآيات من سورة براءة . لكن موسم الحج بدأ والمشركون قد أتى منهم من أتى من كل فجٍّ يقضى مناسك حجه . فليكن هذا الاجتماع أو أن تبليغهم أمر الله بنقض كل عهد بين الشرك والايمان الا من عنده عُدَّة لأجلٍ فإنه يبقى إلى أجله .

ولهذه الغاية أوفد النبي علي بن أبي طالب كي يلحق بأبي بكر ، وكي يخاطب الناس حين الحج يوم عرفة بما أمر الله ورسوله . وحضر علي في أثر أبي بكر والمسلمين الذين برزوا الى الحج معه كي يؤدى رسالته . فلما رآه أبو بكر قال له : أمير أم مأمور ؟ قال علي : بل مأمور . وأخبره بما جاء فيه ، وأن النبي إنما بعثه لينادي في الناس لأنه من أهل بيته . فلما اجتمع الناس بمنى يؤدون مناسك الحج وقف علي بن أبي طالب وإلى جانبه أبو هريرة ، فنادى علي في الناس يتلو قوله تعالى :

وبراءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين . فسبحوا
 في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله
 مخزي الكافرين . وأذأن من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج
 الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله . فإن تبتم فهو خير
 لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا
 بعذاب أليم . إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم
 شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن
 الله يحب المتقين . فإذا انسלخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث
 وجدتموهم وخذوهم واحضروهم واقعدوا لهم كل مرصد ، فإن
 تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله عفور رحيم .
 وإن أحد من المشركين استجارك فأجزه حتى يسمع كلام الله ثم
 أبلغه ما منه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون . كيف يكون للمشركين
 عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما
 استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين . كيف وإن يظهروا
 عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذممة يرضونكم بأفواههم وتأبى
 قلوبهم وأكثرهم فاسقون . اشتروا آيات الله ثمناً قليلاً فصدوا
 عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون . لا يرقبون في مؤمن إلا ولا
 ذممة وأولئك هم المعتدون . فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة
 فآخؤاكم في الدين وثفضل الآيات لقوم يعلمون . وإن نكثوا
 أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم
 لا أيمان لهم لعنهم ينتهون . ألا ثقاتيلون قوماً نكثوا أيمانهم
 وهموا بإخراج الرسول وهم بدء، وكم أول مرة ، اتخشونهم فالله أحق
 أن تخشوه إن كنتم مؤمنين . قاتلوهم بعد بهم الله بأيديكم ويخزهم

وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ . وَيُذْهِبْ غَيْظَ
قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ
تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا
رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةَ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَا تَعْمَلُونَ . مَا كَانَ
لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ ،
أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ . إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ
مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ
فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ . أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ
الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ،
لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . الَّذِينَ آمَنُوا
وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ
اللَّهِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ . يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ
وَجَنَّتِ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ . خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنْ اللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ
عَظِيمٌ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ
إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَاُولَئِكَ هُمُ
الظَّالِمُونَ . قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ
وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا
أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ
بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ . لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ
كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ
عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحَّبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ . ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ
عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ
كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ . ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ

يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا
يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمْ
اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ
الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ .
وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزْيَرُ بْنُ أَبِي كَثِيمٍ وَالنَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ
بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلْتَهُمُ اللَّهُ أَنْتُمْ يَتُوفَكُونَ .
اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا
أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ .
يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ
كَرِهَ الْكَافِرُونَ . هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ
عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا كَثِيرٌ
مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ
سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ يَكْتَنِرُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
قَبَشَرُهُمْ بَعْدَ ابْنِ أَبِي كَثِيمٍ . يَوْمَ يُخْفَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا
جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ
تَكْتُمُونَ . إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ
يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ
فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَمَا قَاتَلْتُمُوكُمْ كَمَا كَفَّهَ
وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ .

وقف على في الناس وهم يؤذون مناسك الحج بمتى فتلا عليهم هذه الآيات
من سورة التوبة نقلناها هنا كاملة لغرض سنيته . فلما أتم تلاوتها وقف هنيهة
ثم صاح بالناس : أيها الناس إنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام

مع المشركين
من الحج

مشرک ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فهو إلى مدته . صاح عليٌّ في الناس بهذه الأوامر الأربعة ، ثم أجلَّ الناس أربعة أشهر بعد ذلك اليوم ليرجع كل قوم إلى مآمنهم وبلادهم . ومن يومئذ لم يحج مشرك ، ولم يطف بالبيت عريان . ومن يومئذ وُضِعَ الأساس الذي تقوم عليه الدولة الإسلامية .

هذا الأساس هو الذي جعلنا نسجل هنا صدر سورة التوبة كله ، ودعا الحرصُ على أن يدرك العرب جميعاً هذا الأساسَ عليَّ بن أبي طالب إلى الأبد . يكتفى بقراءة هذه الآيات من براءة يوم الحج ، على ما اتفقت عليه الرواية ، بل جعله يقرؤها على الناس من بعد ذلك في منازلهم ، على ما جاءت به روايات كثيرة . وإنك إذ تتلو صدر براءة هذا وتعيد تلاوته بامعان وروية لتشعر حقاً بأنها الأساس المعنوي في أقوى صورته لكل دولة ناشئة تقوم . ونزول براءة ، كلها بعد آخر غزوة من غزوات النبي ، وبعد أن جاء أهل الطائف يعلنون انضمامهم للدين الجديد ، وبعد أن أصبح الحجاز كله ومعه تهامة ونجد منضوياً تحت راية الإسلام ، وبعد أن أعلن كثير من قبائل الجنوب في شبه الجزيرة الأذعان لمحمد والاتصوا لدينه . يجلو الحكمة التاريخية في نزول الآيات التي تنتظم أساس الدولة المعنوي في هذا الظرف . فالدولة لتسكون قوية يجب أن تكون لها عقيدة معنوية عامة يؤمن بها أهلها ويدافعون جميعاً عنها بكل ما أوتوا من عتاد وقوة . وأية عقيدة أعظم من الإيمان بالله وحده لا شريك له . وأية عقيدة أكبر سلطاناً على النفس من أن يحس الإنسان نفسه متصل بالوجود في أسْمَى مظاهره ، لا سلطان عليه لغير الله ولا رقيب غير الله على ضميره . فاذا وجد الذين يقومون في وجه هذه العقيدة العامة التي يجب أن تكون أساس الدولة ، فأولئك هم الفاسقون ، وأولئك هم نواة الثورة الأهلية والفتنة الماحقة . وأولئك يجب لذلك ألا يكون لهم عهد ، ويجب أن تقاثلهم

الأساس
المعنوي للدولة
لناشئة

الدولة . فان كانوا ثائرين على العقيدة العامة ثورة جامعة وجب قتالهم حتى يُذعنوا . وإن كانت ثورتهم على العقيدة العامة غير جامعة ، كما هو الشأن في أهل الكتاب ، فيجب أن يدفعوا الجزية عن يدهم صاغرون .

النظر إلى المسألة من الجهة التاريخية والجهة الاجتماعية يهديننا إلى هذا التقدير لمغزى الآيات التي تلا القارىء ها هنا من سورة التوبة . وهو يهدى إلى هذا التقدير كل منصف نزيه القصد . لكن الذين أسرفوا في أحكامهم على الاسلام وعلى رسوله يذرون هذا النظر جانبا ويعرضون لهذه الآيات القوية غاية القوة من سورة التوبة على أنها دعوة إلى التعصب لا تتفق مع ما ترصاه الحضارة الفاضلة من تسامح ، دعوة إلى قتال المشركين وقتلهم حيث ثقفهم المؤمنون في غير رفق ولا هوادة ، دعوة إلى إقامة الحكم على أساس البطش والجبروت . هذا كلام تقرأه في كثير من كتب المستشرقين . وهو كلام تهوى إليه الأذهان التي لم تنضج عندها ملكة النقد الاجتماعي والتاريخي حتى من أبناء المسلمين . وهو كلام لا يتفق مع الحقيقة التاريخية ولا يتفق مع الحقيقة الاجتماعية في شيء . وهو لذلك يؤدى بأصحابه عند تفسيرهم ما أوردنا من سورة التوبة وما جاء من مشابهة في مواضع كثيرة من القرآن تفسيراً يأباه منطق الحوادث في سيرة الرسول تمام الآباء ، وتأباه حياة النبي العظيم في تسلسلها من يوم بعث ربه إياه وقيامه بالدعوة إلى دين الحق ، إلى يوم اصطفاه الله إليه .

ويجمل بنا لبيان ذلك أن نسال عن الأساس المعنوي للحضارة الحاكمة اليوم ، ثم نقيس به هذا الأساس المعنوي الذي دعا محمد إليه . فالأساس المعنوي للحضارة الحاكمة اليوم هو حرية الرأي حرية لا حد لها ، ولا حد للتعبير عنها إلا بالقانون . وحرية الرأي هذه هي لذلك إذا عقيدة يدافع الناس عنها ويضحون في سبيلها ويجاهدون لتحقيقها ويحاربون من أجلها ، ويعتبرون

المسرفون في
أحكامهم على
الاسلام
والرسول

حرية الرأي
والحضارة
الغربية

ذلك كله آية من آيات المجد التي يُفخرون بها الأجيال ويتباهون بها على ما سبقهم من العصور . ومن أجل ذلك يقول المستشرقون الذين أشرنا إليهم: إن دعوة الاسلام لمقاتلة من لا يؤمن بالله واليوم الآخر دعوةٌ إلى التعصب تتنافى مع هذه الحرية . وهذه مغالطة مفضوحة إذا عرفت أن قيمة الرأي الدعوة له والعمل به . والاسلام لم يدعُ المناوأة المشركين من أهل الجزيرة إذا هم أذعنوا ولم يدعوا إلى شركهم ولم يعملوا به وقيموا طقوسه . والحضارة الحاكمة اليوم تحارب الآراء التي تُناقض مواضع العقيدة منها بأشد ما كان يحارب المسلمون المشركين ، وتفرض على من يعتبر كتابياً بالنسبة لهذه الحضارة الحاكمة ماهو شر من الجزية ألف مرة .

ولسنا نضرب المثل لذلك بما كان حين محاربة تجارة الرقيق وإن آمن الذين كانوا يقومون بهذه التجارة بأنها لا حرمة فيها . لانضرب هذا المثل حتى لا يقال إننا لانستنكر هذه التجارة ، وإن كان الاسلام لم يدعُ إلى أكثر من محاربة ما يستنكر . لكن أوروبا اليوم ، أوربا صاحبة الحضارة الحاكمة تؤيدّها أمريكا وتعزّزها قوات الجنوب في آسيا والشرق الأقصى منها ، قد حاربت البلشفية وهي مستعدة لمحاربتها أشد الحرب . ونحن في مصر مستعدون للاشتراك مع الحضارة الحاكمة لمحاربة البلشفية . والبلشفية ليست مع ذلك إلا رأياً في الاقتصاد يحارب الرأي الذي تدين به الحضارة الحاكمة اليوم . أفنكون دعوة الاسلام لمحاربة المشركين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه دعوةً وحشية إلى التعصب وضد الحرية ، وتكون الدعوة إلى محاربة البلشفية الهادمة للنظام الاجتماعي في الحضارة الحاكمة . دعوةً إلى الحرية في العقيدة والرأي وإلى احترامها!

محاربة البلشفية
وهي رأي
اقتصادي

محاربة محلات
الأسرى

ثم إن قوماً رأوا في غير بلد من بلاد أوروبا أن التهذيب النفسى يجب أن يتصل به التهذيب الجسمى ، وأن ما تواضع الناس عليه من ستر الجسم كله

أو بعض أعضائه أشد إثارةً للمعاني الجنسية في النفس وأشد ذلك إفساداً للخلق من أن يسير الناس وكلهم عريان . وبدأ أصحاب هذا الرأي يتفقدونه وأقاموا محلات العرى في غير مدينة من المدن ، وأقاموا أما كن يغشاها من شاء للتدرب على هذا التهذيب الجسمي . لكن هذا الرأي لم يلبث أن بدأ ينتشر حتى رأى القائمون بالأمر في كثير من البلاد أن في انتشار مظاهره إفساداً للتهذيب الخُلقي يضّر بالجماعة ، فحرموا محلات العرى ، وحاربوا القائمين بالرأي . ونهوا بالقانون عن إنشاء أما كن هذا التهذيب الجسمي . وما نشك في أن هذا الرأي لو أنه انتشر في أمة بأسرها لكان سبباً لاعلان الحرب عليها من أمم أخرى على أنها مفسدةٌ للحياة المعنوية في الانسان ، كما أثرت حروب بسبب الرقيق ، وكما تشار حروب أو ما يشبهها بسبب تجارة الرقيق الأبيض وبسبب الاتجار بالمخدرات . لماذا ذلك كله ؟ لأن حرية الرأي على إطلاقها يمكن أن تحتل ما بقيت حبيسة في حدود القول الذي لا يتصل منه بالجماعة ضرر أو أذى . فاذا أوشك هذا الرأي أن يثير في الجماعة الانسانية الفساد فقد وجبت محاربة هذه التأثيرات ووجبت محاربة مظاهر الرأي جميعاً ، بل وجبت محاربة الرأي نفسه ، وإن اختلفت مظاهر هذه الحرب بمقدار ما يترتب على هذه المظاهر من فساد في الجماعة يُخشى منه على قوامها الخُلقي أو الاجتماعي أو الاقتصادي .

هذه هي الحقيقة الاجتماعية المعترف بها والمقررة لدى الحضارة الحاكمة اليوم . ولو أردنا أن نستقصى مظاهر ذلك وآثاره في مختلف الشعوب لطلال بنا البحث ، وليس ها هنا موضعه . على أنك تستطيع أن تقول إن كل تشريع يراد به قمع أية حركة اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية إنما هو حرب للرأي الذي تصدر عنه هذه الحركة . وهذه الحرب تجد مايسوغها في مبلغ ما يصبب الجماعة الانسانية من ضرر إذا نُفذت الآراء التي تُشَبِّب الحرب عليها . فاذا

التشريع منع
لحرية الرأي
له ما يسرعه

أردنا أن نقدر دعوة الاسلام إلى مقاتلة الشرك وأهله وحرهم حتى يذعنوا، وهل هذه الحرب مسوغة أو غير مسوغة، فيجب أن ننظر فيما تمثله فكرة الشرك هذه وما تدعو إليه. فان اتفقت الكلمة على فادح ضررها بالجماعة الانسانية في مختلف عصورها كان إعلان الاسلام الحرب عليها له ما يسوغه، بل له ما يوجبه.

والشرك الذى كان موجوداً حين قيام محمد عليه السلام بالدعوة الى دين الله الحق لم يكن يمثل عبادة الأصنام وكفى. ولو أنه كان كذلك لوجبت محاربهه؛ فمن الازدراء للعقل الانسانى وللكرامة الانسانية أن يعبد الانسان حجراً. لكن هذا الشرك كان يمثل مجموعة من التقاليد والعقائد والعادات، بل كان يمثل نظاماً اجتماعياً هو شر من الرق وشر من البلشفية وشر من كل ما يتصور العقل فى هذا القرن العشرين. كان يمثل وأد البنات وتعدد الزوجات الى غير حد، حتى ليحل للرجل أن يتزوج ثلاثين وأربعين ومائة وثلاثمائة امرأة وأكثر من ذلك، وكان يمثل الربا فى أغش ما يستطيع الانسان أن يتصور الربا، وكان يمثل الإباحية الخلقية فى أسفل صورها، وكانت جماعة الوثنيين العرب شرّ جماعة أخرجت للناس. نود أن يجيب كل منصف على هذا السؤال: لو أن جماعة من الناس وضعت لنفسها اليوم نظاماً فيه من الطقوس والعادات وأد البنات، وتعدد الزوجات، وإباحة الرق لسبب أو لغير سبب، واستغلال الأموال استغلالاً فاحشاً، ثم قامت ثورة على ذلك كله تحاول تحطيمه والقضاء عليه، أقتسّم هذه الثورة بالتعصب والعمل ضد حرية الرأى! وإذا افترضنا أن أمة اطمأنت إلى هذا النظام الاجتماعى المنحط وأوشكت أن تنتقل منها العدوى الى غيرها من الدول، فأعلنت عليها هذه الدول حرباً، أف تكون هذه الحرب مسوغة أم غير مسوغة؟! وهل تكون مسوغة أكثر من الحرب الكبرى الأخيرة التى أطاحت بملايين أهل هذا

مسورة
من حياة
المشركين

العالم لغير سبب إلا للشهه الجشع من جانب دول الاستعمار! . وإذا كان ذلك شأنها فاعسى أن تكون قيمة نقد المستشرقين للآيات التي تلا القارىء من سورة براءة، ولدعوة الاسلام إلى حرب الشرك وأهله ممن يدعون إلى إقامة نظام فيه ما ذكرنا، وشرُّ مما ذكرنا! .

وإذا كانت هذه هي الحقيقة التاريخية في شأن هذا النظام الذي كان قائماً في بلاد العرب يظنه علم الشرك والوثنية، فهناك أيضاً حقيقة تاريخية أخرى مستمدة من حياة الرسول . فهو قد أنفق منذ بعثه الله برسالته ثلاث عشرة سنة متتابعة يدعو الناس فيها إلى دين الله بالحجة ويجادلهم بالتي هي أحسن . وهو فيما قام به من غزوات لم يكن معتدياً قط، وإنما كان مدافعاً عن المسلمين دائماً؛ مدافعاً عن حريتهم في الدعوة إلى دينهم الذي يؤمنون به ويضحون بحياتهم في سبيله . وهذه الدعوة القوية غاية القوة إلى قتال المشركين على أنهم نجسٌ، وأنهم لا عهد لهم ولا ميثاق، وأنهم لا يرعون في مؤمن إلا ولا ذمة، إنما نزلت بعد آخر غزوة غزا النبي: غزوة تبوك . فاذا حلَّ الاسلام ببلاد تفتش فيها الشرك وحاول أن يقيم فيها هذا النظام الاجتماعي والاقتصادي الهدام الذي كان قائماً في شبه الجزيرة حين بعث النبي، فدعا المسلمون أهلها إلى ترك هذا النظام وإلى الأخذ بما أحلَّ الله وتحريم ما حرم فلم يدعوا . فليس من منصف إلا يقول بالثورة عليهم وبقتلهم حتى تتم كلمة الحق، وحتى يكون الدين كله لله . ولقد أتمر هذا الذي تلا على من براءة وما نادى في الناس بالآ يدخل الجنة كافر . وبألا يحج بعد العام مشرك، وبألا يطوف بالبيت عريان، خير الثمرات، حتى أزال كل تردد من نفوس القبائل التي كانت ما تزال متباطئة في تلبية دعوة الاسلام .

وبذلك دخلت في الاسلام بلاد اليمن ومهزة والبحرين واليمامة، ولم يبق من يناوىء محمداً إلا عدداً قليلاً أخذتهم العزة بالآثم وغرهم بالله الغرور .

الثورة على
الشرك وسوغه

عامة
القبائل

من هؤلاء عامر بن الطفيل الذي ذهب مع وفد بني عامر ليستظلوا براءة الاسلام. فلما كانوا عند النبي امتنع عامر ولم يُسلم، وأراد أن يكون للنبي نداً. وأراد النبي أن يُقنعه كما يسلم، فأصرَّ على إبانته فخرج وهو يقول: أما والله لأملأنها عليك خيلاً ورجالا. قال محمد: اللهم اكفني عامر بن الطفيل!. وانصرف عامر يريد قومه. وإنه لبي بعض الطريق إذ أصابه الطاعون في عنقه وقضى عليه وهو في بيت امرأة من بني سَكُول. قضى عليه وهو يردد: يا بني عامر! أعمدَةٌ كغدة البعير وموتة في بيت سَكُولية!. أما أربد بن قيس فقد أبي أن يسلم وعاد إلى بني عامر، ولم يطل به المقام بل أحرقتة صاعقة حين خرج على جمل له يبيعه. ولم يمنع إياه عامر وأربد قومه من أن يُسلوا. ومن هؤلاء بل هو شرُّهم مكاناً مسيلة بن حبيب: فقد جاء في وفد بني حنيفة من أهل اليمامة، وخلفه القوم على رحالهم وذهبوا إلى رسول الله فأسلوا وأعطاهم النبي، فذكروا له مسيلة، فأمر له بمثل ما أمر للقوم، وقال: أما إنه ليس بشركم مكاناً، وذلك لحفظه رحال أصحابه. فلما سمع مسيلة قولهم ادعى النبوة وزعم أن الله أشركه مع محمد في الرسالة، وجعل يسجع لقومه ويقول لهم فيما يقول مضاهاة للقرآن: لقد أنعم الله على الحُبَلَى، أخرج منها نسمةً تسعى، من بين صفاق وحشاً. وأحل مسيلة الخمر والزنا ووضع عن قومه الصلاة، وانطلق يدعوا الناس إلى تصديقه. فأما من عدا هؤلاء من العرب فأقبلوا يدخلون في دين الله أفواجا من أطراف شبه الجزيرة وعلى رأسهم رجال من أعز الرجال من أمثال عدي بن حاتم وعمرو بن معدي كرب. وبعث ملوك حمير رسولا بكتاب منهم إلى النبي يعلنون فيه إسلامهم. فأقر لهم إسلامهم وكتب إليهم بما لهم وما عليهم في شرع الله. فلما انتشر الاسلام في جنوب شبه الجزيرة، بعث محمد من السابقين إلى الاسلام من يفقههم في دينهم ويتبثهم فيه.

لم تُطلِ الوقوف عند وفود العرب إلى النبي كما فعل بعض الأقدمين من

أربد بن قيس

امر سبئ

كتاب السيرة، لتشابه أمرهم في الانضواء تحت راية الاسلام . ولقد أفرد ابن سعد في طبقاته الكبرى لوفادات العرب على الرسول خمسين صفحة كبيرة نكتني بأن نذكر منها أسماء القبائل والبطون التي أوفدتها . فقد جاءت وفود من : مُزَيْنَةَ ، وأَسَدَ ، وتَمِيمَ ، وَعَبْسَ ، وَقَرَارَةَ ، ومُرَّةَ ، وثَعْلَبَةَ ، ومُجَارِبَ ، وسعد بن بكر ، وكِلابَ ، ورؤُوسَ بن كِلابَ ، وعُقَيْلَ بن كعبَ ، وجَعْدَةَ ، وقُشَيْرَ بن كعبَ ، وبنى البَسْكَاءَ ، وكِنَانَةَ ، وأَشْجَعَ ، وبَاهِلَةَ ، وسُلَيْمَ ، وهلال ابن عامر ، وعامر بن صَعْصَعَةَ ، وثَقَيْفَ . وجاءت وفود ربيعة من : عبد القيس ، وبكر بن وائل . وتَغْلِبَ ، وحنيفة ، وشَيْبَانَ . وجاء من اليمن وفود من طيِّئٍ ، وتُجَيْبَ ، وخَوْلَانَ . وجُعْفَى . وصداء . ومُرَادَ ، وزُيَيْدَ ، وكِنْدَةَ ، والصدَفَ ، وخُشَيْنَ وسعد هُدَيْمَ ، وبليِّ ، وبَهْرَاءَ ، وعُدْزَةَ ، وسلامانَ ، وجُهَيْنَةَ ، وكلبَ ، وجَرَمَ ، والأزْدَ ، وعَسَّانَ ، والحارث بن كعبَ ، وهَمْدَانَ ، وسعد العَشِيرَةَ ، وعَنْسَ . والدارِيِّينَ ، والرهاويينَ حتى من مَذْحِجَ ، وغامدَ . والنخَعِ ، وبَجِيلَةَ ، وخَنْعَمَ ، والأشْعَرِيْنَ ، وحَضْرَمَوْتَ . وأزْدَ عُمَانَ ، وغافِقَ ، وبارقَ ، ودَوْسَ ، وثَمَالَةَ ، والحُدَّانَ ، وأسَلَمَ . وجُدَّامَ ، ومَهْرَةَ ، وحِمَيْرَ ، ونَجْرَانَ ، وجَيْشَانَ . وكذلك لم يبق في شبه الجزيرة بطن أو قبيلة حتى أسلم إلا من قدمنا .

كان ذلك شأن المشركين من أهل شبه الجزيرة . سارعوا إلى اعتناق الاسلام وتركوا عبادة الأوثان ، وتطهرت بلاد العرب جميعاً من الأصنام وعبادتها . وتم ذلك كله بعد تبوك طواعيةً واختياراً ، من غير أن تزحف نفس أو يهرق دم . فماذا صنع اليهود والنصارى مع محمد ، وماذا صنع محمد معهم ؟ .

الفصل التاسع والعشرون

حجة الوداع

محمد وأهل الكتاب - موقفه من النصارى - مجادلته إياهم - وحدة موقف محمد منهم - بعث على بن أبي طالب إلى اليمن - دعوة محمد الناس للحج ومجيئهم إلى المدينة من كل صوب - مسيرتهم في نحو مائة ألف إلى مكة - مناسك الحج - خطبة محمد

منذ تلا على بن أبي طالب صدر سورة براءة على الحاج من مسلمين ومشركين حين حج أبو بكر بالناس، ومنذ أذن فيهم بأمر محمد حين اجتمعوا بمعى ألا يدخل الجنة كافر، وألا يحج بعد العام مشرك، وألا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فهو له إلى مدته، أيقن المشركون من أهل بلاد العرب جميعاً أن لم يبق لهم إلى المقام على عبادة الأوثان سبيل، وأنهم إن يفعلوا فليأذنوا بحرب من الله ورسوله. وقد كان ذلك شأن أهل الجنوب من شبه جزيرة العرب حيث اليمن وحضرموت؛ لأن أهل الحجاز وما والاها شمالاً كانوا قد أسلموا واستظلوا براية الدين الجديد. وكان الأمر في الجنوب مقسماً بين الشرك والمسيحية. فأما المشركون فأقبلوا، كما رأيت من قبل، يدخلون في دين الله أفواجا ويبعثون وفودهم إلى المدينة فيلقون من النبي كل حفاوة بهم تزيدهم على الإسلام إقبالا، وتردأ أكثرهم إلى إمارته فتجعله أشد على دينه الجديد حرصاً. وأما أهل الكتاب من اليهود والنصارى فقد نزلت فيهم بماتلا على من سورة التوبة هذه الآيات: «قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ

بعد حج
أبي بكر بالناس

تفريق
الإسلام بين
الوثنية
والمسيحية

وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا
الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ . ، إلى قوله تعالى . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن
كثيراً من الأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ نِيّاً كَلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ
وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا
يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . يَوْمَ يُحْنَى عَلَيْهَا فِي نَارِ
جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ
لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ . .

يقف كثيرون من المؤرخين أمام هذه الآيات من سورة التوبة ختام
مازل من القرآن ، يسألون أنفسهم : هل أمر محمد عليه السلام في شأن
أهل الكتاب بغير ما أمر به من قبل أثناء سنى رسالته ؟ . ويذهب بعض
المستشرقين إلى القول بأن هذه الآيات تضع أهل الكتاب والمشركون فيما
يشبه المساواة : وأن محمداً ، وقد ظفر بالوثنية في شبه الجزيرة بعد أن استعان
عليها باليهودية وبالمسيحية ، معلناً خلال أعوام رسالته الأولى أنه إنما جاء
مبشراً بدين عيسى وموسى وإبراهيم والرسل الذين خلوا من قبل ، قد جعل
وجهته إلى اليهود الذين بدوه العداوة ، فظل بهم حتى آجلاهم عن شبه الجزيرة .
وأثناء ذلك كان يتوّدذ إلى النصارى وتنزل عليه الآيات تُشيد بحسن إيمانهم
وجميل مودّتهم ، وينزل عليه قوله تعالى من سورة المائدة « لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ
النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ، وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ
مُودَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ، ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قَسِيصِينَ
وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ » . وهاهو ذا الآن يجعل وجهته إلى النصرانية
يريد بها ما أراد باليهودية من قبل ، فيجعل شأن النصارى كشأن الذين
لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر : وهو يصل إلى ذلك بعد أن أجاز النصارى
من اتبعه من المسلمين حين ذهبوا إلى الحبشة يستظلون بعدل نجاحيها . وبعد

أن كتب محمد لأهل نَجْران وغيرهم من النصارى يُقرهم على دينهم وعلى القيام بطقوس عبادتهم . ويذهب أولئك المستشرقون إلى أن هذا التناقض في خطة محمد هو الذى أدى الى استحكام العداوة بين المسلمين والنصارى من بعدُ ، وأنه هو الذى جعل التقريب بين أتباع عيسى وأتباع محمد غير ميسور إن لم يكن فى حكم المستحيل .

والأخذ بظاهر هذه الحجة قد يُغرى الذين يستمعون إليها بالميل إلى أنها تصف جانباً من الحق ، إن لم تُغزهم بتصديقها . فأمّا تتبع التاريخ والتدقيق فى ظروف نزول الآيات وأسباب نزولها ، فلا يدع محلاً للريب البتة فى وحدة موقف الاسلام ، وموقف محمد ، من الأديان الكتابية منذ بدء رسالته إلى ختامها . فالمسيح ابن مريم روح الله وكلته ألقاها الى مريم . والمسيح ابن مريم عبد الله أتاه الكتاب وجعله نبياً وجعله مباركاً أينما كان وأوصاه بالصلاة والزكاة مادام حياً . ذلك ما نزل به القرآن منذ بدء الرسالة إلى ختامها . والله أحدٌ لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد : ذلك روح الاسلام وأساسه منذ اللحظة الأولى ، وذلك روح الاسلام مادام العالم . ولقد ذهب وفد من نصارى نجران الى النبي مجادلونه فى الله ، وفى نبوة عيسى لله من قبل أن تنزل سورة التوبة بزم من طويل ، ويسألون محمداً : إن عيسى أمه مريم فمن أبوه ؟ . وفى ذلك نزل قوله تعالى من سورة آل عمران : « إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكْفُرْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ . فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ . إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ . قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا

يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ. وفي هذه السورة، سورة آل عمران، يتوجه الحديث حديثاً معجزاً إلى أهل الكتاب يعاتبهم لم يصدّون عن سبيل الله من آمن، ولم يكفرون بآيات الله وهي التي جاء بها عيسى وجاء بها موسى وجاء بها إبراهيم، قبل أن تحرّف عن مواضعها وقبل أن يوجهها التأويل بما تهوى أغراض هذه الحياة الدنيا ومتاعها الغرور. وفي كثير من السور توجيه للحديث على النحو الذي وُجّه به في سورة آل عمران. ففي سورة المائدة يقول تعالى:

«لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ. مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ بُيِّنْ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أُنَّى يُؤْفَكُونَ». وفي سورة المائدة كذلك يقول تعالى: «وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ، قَالَ سُبحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ، إِلَى آخِرِ هَذِهِ الْآيَاتِ الَّتِي نَقَلْنَا فِي تَقْدِيمِ هَذَا الْكِتَابِ. وسورة المائدة هي التي من بين آياتها الآية التي يحتج بها المؤرخون من النصارى، ويتخذونها دليلاً على تطور موقف محمد منهم مع ظروفه السياسية؛ إذ يقول تعالى: «لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا، وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قَسِيصِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ».

والآيات التي نزلت في سورة براءة ونحدثت عن أهل الكتاب لم تتحدث عنهم في إيمانهم بالمسيح ابن مريم، وإنما تحدثت عنهم في شركهم بالله وفي أكلهم أموال الناس بالباطل وفي كنزهم الذهب والفضة. والاسلام يرى ذلك

خروجاً من أهل الكتاب على دين عيسى . يجعلهم يُحِلُّون ما حَرَّمَ اللهُ
 ويصنعون صنيع من لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ، وهو مع ذلك يجعل
 من إيمانهم بالله ، على الرغم من ذلك كله ، شفيحاً لهم لا تجوز معه مساواتهم
 بالوثنيين ، ويكفي معه إن هم أصروا على أن يجعلوا الله ثالث ثلاثة وعلى أن
 يحلوا ما حَرَّمَ اللهُ . أن يدفعوا الجزية عن يدهم صاغرون .

تابع الوفود

كانت هذه الدعوة التي أذن على بها يوم حج أبو بكر بالناس آية
 إسلام الناس من أهل الجنوب في شبه الجزيرة ودخولهم في دين الله أفواجا .
 فقد توالى الوفود تتراى على المدينة كما قدمنا من قبل ، ومن بينها وفود من
 المشركين ووفود من أهل الكتاب . وكان النبي يُكرم كل وافد عليه ويرد
 الأمراء مكرمين إلى إماراتهم . من ذلك ما سبق لنا ذكره في الفصل الماضي .
 ومنه أن الأشعث بن قيس قدم في وفد كندة في ثمانين راكباً ، دخلوا المسجد
 على النبي وقد رجّلوا لِمَمَّهِمْ وتكحلوا ولبسوا حجب الحبر بطنوها بالحرير .
 فلما رآهم النبي قال : ألم تُسَلِّمُوا ؟ قالوا بلى . قال : فما هذا الحرير في أعناقكم !
 فشقوه . وقال له الأشعث : يا رسول الله ، نحن بنو آكل المرار وأنت ابن
 آكل المرار . فتبسّم النبي ونسب ذلك إلى العباس بن عبد المطلب وربيعة
 ابن الحارث . وقدم وائل بن حجر الكندي مع الأشعث وكان أمير بلاد
 الشاطىء من حضرموت فأسلم ، فأقره النبي في إمارته على أن يجمع العشر من
 أهل بلاده ليرده إلى جباة الرسول . وكلف النبي معاوية بن أبي سفيان أن
 يصحب وائلا إلى بلاده . وأبى وائل أن يردفه أو أن يعطيه نعليه يتقى بهما
 حَمَارَةَ القَيْظِ مكثفياً بأن يدعه يسير في ظل بعيره . وقبل معاوية ذلك على
 مخالفته لما جاء به الإسلام من التسوية بين المسلمين ومن جعل المؤمنين إخوة ،
 حرصاً على إسلام وائل وقومه .

ولما انتشر الإسلام في ربوع اليمن ، أوفد النبي مُعَاذاً إلى أهله يعلمهم

ويفقههم وأوصاه قائلاً: «يَسِّرْ وَلَا تَعَسِّرْ، وبَشِّرْ وَلَا تُنْفِرْ»، وإنك ستقوم على قوم من أهل الكتاب يسألونك: ما مفتاح الجنة؟ فقل: شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. . . وذهب معاذ ومعه طائفة من المسلمين الأولين ومن الجبأة يعلمون الناس ويقضون بينهم بقضاء الله ورسوله. . . وبانتشار الإسلام في ربوع شبه الجزيرة، من شرقها إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها، انتقلت هذه الأمة العربية التي كانت إلى ما قبل عشرين سنة قبائل متنافرة تشن كل واحدة منها الغارة على الأخرى كلها ووجدت في ذلك مغنماً، فأصبحت أمة واحدة يظنها لواء واحد هو لواء محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وتدين كلها بدين واحد هو الإسلام، وتتجه قلوبها جميعاً إلى عبادة الله وحده لا شريك له. وبذلك ظهرت من رجس الوثنية واستراحت إلى حكم الواحد القهار. وبذلك هدأت الخصومات بين أهلها: فلم يبق لغزو أو خصومة موضع، ولم يبق لأحد أن يستل سيفه من قرابه إلا أن يدافع عن وطنه أو يدفع المعتدى على دين الله.

وحدة العرب
في ظل
الإسلام

على أن جماعة من نصارى نجران احتفظوا بدينهم مخالفين في ذلك الأكثرين من قومهم بنى الحارث الذين أسلموا من قبل. إلى هؤلاء وجه النبي خالد بن الوليد يدعوهم إلى الإسلام كي يسلموا من مهاجمته. ولم يلبث خالد أن نادى فيهم حتى أسلموا وحتى بعث خالد وفداً منهم إلى المدينة لقيه النبي فيها بالترحيب والمودة. ثم إن جماعة من أهل اليمن عز عليهم أن يخضعوا للواء الإسلام، أن كان الإسلام قد ظهر بالحجاز، وأن كانت اليمن هي التي اعتادت أن تغزو الحجاز فلم يغزها الحجاز من قبل أبداً. إلى هؤلاء أرسل النبي علي بن أبي طالب يدعوهم إلى الإسلام. لكنهم استكبروا أول أمرهم وقابلوا دعوة علي بمهاجمته: فلم يلبث علي أن شتمهم على الرغم من صغر سنه وأنه لم يكن معه إلا ثلاثمائة فارس. وارتد المنهزمون ينظمون من جديد صفوفهم.

إسلام أهل
الكتاب

نجران الوعود
إلى المدينة

يد أن علياً أحاط بهم وأوقع في صفوفهم الرعب، فلم يحدوا من التسليم بدءاً .
وسلموا وأسلموا وحسن إسلامهم، وأنصتوا إلى تعليم معاذ وأصحابه . وكان
وفدهم آخر وفد استقبله النبي بالمدينة قبل أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى .

بجهر النسي
الحج

بينما كان علي يتأهب للعود إلى مكة كان النبي يتجهز للحج ويأمر الناس
بالتجهز له . ذلك أن أشهر السنة استدارت وأقبل ذوالقعدة وأوشك أن يوتى .
ولم يكن النبي قد حج الحج الأكبر وإن يكن قد اعتمر فأذى الحج الأصغر
قبل ذلك مرتين . وللحج مناسك يجب أن يكون عليه السلام قدوة المسلمين
فيها . وما كاد الناس يعرفون ماصح عليه عزم النبي ودعوته إيتاهم للحج معه
حتى انتشرت الدعوة في كل ناحية من شبه الجزيرة ، وحتى أقبل الناس على
المدينة ألوفا ألوفا من كل فجٍ وحدب : من المدائن والبوادي ، من الجبال
والصحارى . من كل بقعة من هذه البلاد العربية المترامية الأطراف ، والتي
استنارت كلها بنور الله ونور نبيه الكريم . وحول المدينة ضُربت الخيام لمائة
ألف أو يزيدون جاءوا تلبية لدعوة نبيهم رسول الله عليه أفضل الصلاة وأتم
السلام . جاءوا إخوة متعارفين تجمع بينهم المودة الصادقة والأخوة الإسلامية ،
وكانوا إلى سنوات قبل ذلك أعداء متنافرين . وجعلت هذه الألوف المؤلفة
تجوس خلال المدينة وكلُّ باسم الثغر ، وضاح الطلعة . مشرق الجبين ، يصف
اجتماعهم انتصار الحق وانتشار نور الله انتشاراً ربط بينهم وجعلهم جميعاً
كالبنيان المرصوص .

مسيرة المنبر
إلى الحج

وفي الخامسة والعشرين من ذى القعدة من السنة العاشرة للهجرة سار
النبي وأخذ نساءه جميعاً معه ، كلُّ في محفَّتها . سار وتبعه هذا الجمع الزاخر ،
يذكر طائفة من المؤلفين أنه كان تسعين ألفاً ، ويذكر آخرون أنه كان
أربعة عشر ومائة ألف . ساروا يحدوهم الايمان وتملاً قلوبهم الغبطة الصادقة
لسيرهم إلى بيت الله الحرام يؤدّون عنده فريضة الحج الأكبر . فلما بلغوا

أحد أصحابه وما يزال غضبان . فقال : من أغضبك يا رسول الله أدخله الله النار . فكان جواب الرسول : أو ما شعرت أني أمرت الناس بأمر فاذا هم يترددون ؟ ولو أني استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ ما سقت الهندي معي حتى أشتريه . ثم أحل كما حلتوا . كذلك روى مسلم . فلما بلغ المسلمين غضبُ رسول الله حلّ الألوف من الناس إجماعهم على أسف منهم ، وحلّ نساء النبي وحلّت ابنته فاطمة مع الناس ، ولم يبق على إجماعهم إلا من ساق الهندي معه .

عودة عين
من النص

وبينما المسلمون في حجيجهم أقبل على عائداً من غزوته باليمن وقد أحرم للحج لما علم أن رسول الله حجج بالناس . ودخل على فاطمة فوجدها قد حلّت إجماعها ؛ فسألها فذكرت له أن النبي أمرهم أن يحلوا بعمرة . فقام فذهب إلى النبي فقص عليه أخبار سفرته باليمن . فلما أتم حديثه ، قال له النبي : انطلق فظف بالبيت وحل كما حل أصحابك . قال علي : يا رسول الله . إنني أهملت كما أهملت . قال النبي : ارجع فاحلل كما حل أصحابك . قال علي : يا رسول الله ، إنني قلت حين أحرمت : اللهم إنني أهلٌ بما أهل به نبيك وعبدك ورسولك محمد . فسأله النبي : أمعه هدى ؛ فلما نفي علي أشركه محمد في هديه وثبت علي على إجماعهم وأدى مناسك الحج الأكبر .

أخبار مناسك
الحج

وفي الثامن من ذي الحجة يوم التروية ذهب محمد إلى منى ، فأقام بخيامه فيها وصلى فروض يومه بها وقضى الليل حتى مطلع فجر يوم الحج ، فصلّى الفجر وركب ناقته القصواء^(١) حين بزغت الشمس ويمّم بها جبل عرفات والناس من ورائه . فلما ارتقى الجبل أحاط به ألوف المسلمين يتبعونه في مسيرته ، ومنهم الملبي ومنهم المكبر وهو يسمع ذلك ولا ينكر على هؤلاء ولا على هؤلاء . وضربت للنبي قبة بئمة (قرية بشرق عرفات) وكان ذلك بعض ما أمر به . فلما زالت الشمس أمر بناقته القصواء فرحلت ثم سار حتى أتى بطن الوادي

(١) تقدمت « القصواء » غير مرة هكذا « القصوى » بالقصر ، وهو تعريف ورد في كثير من الكتب

من أرض عُرْتَةَ ، وهناك نادى في الناس وما يزال على ناقته بصوت جَهْوَرَى
كان يردده مع ذلك من بعده ربيعة بن أمية بن خلف . وهو يقف بين عبارة
وأخرى قائلاً بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

« أيها الناس ، اسمعوا قولي فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا
بهذا الموقف أبداً .

« أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم
كحرمة يومكم هذا ، وكحرمة شهركم هذا .

« وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت .
« فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها .

« وإن كل ربا موضوع (أى مهدر) ولكن لكم رموس أموالكم
لا تظلمون ولا تظلمون .

« قضى الله أنه لا رباً ، وأن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله .

« وأن كل دم كان في الجاهلية موضوع ، وأن أول دماءكم أضع دم

ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب

« أما بعد أيها الناس ، فإن الشيطان قد يئس من أن يُعْبَدَ بأرضكم هذه

أبداً . ولكنه إن يُطْعَ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ فَقَدْ رَضِيَ بِهِ مِمَّا تَحْقِرُونَ مِنْ
أَعْمَالِكُمْ فَاحْذَرُوهُ عَلَى دِينِكُمْ .

« أيها الناس إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه

عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحتلوا ما حرم الله ويحرموا

ما أحل الله . وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض .

« وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حُرُمٌ ، ثلاثة متوالية

ورجب مفرد الذى بين جمادى وشعبان .

« أما بعد ، أيها الناس ، فإن لكم على نساءكم حقاً ولهن عليكم حقاً . لكم

عليهن ألا يوطئن فراشكم أحداً تكرهونه ، وعليهن ألا يأتين بفاحشة
 مبينة . فان فعلن فان الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع وتضربوهن
 ضرباً غير مبرح . فان اتبين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف . واستوصوا
 بالنساء خيراً فانهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً . وإنكم إنما أخذتموهن
 بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله .

« فاعقلوا أيها الناس قولي فاني قد بلغتُ وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم
 به فلن تضلوا أبداً أمراً بيناً : كتاب الله وسنة رسوله .

« أيها الناس ، اسمعوا قولي واعقلوه . تَعَلَّمَنَّ أن كل مسلم أخ للمسلم وأن
 المسلمين إخوة فلا يحل لامرئٍ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ،
 فلا تظلمن أنفسكم .

« اللهم هل بلغت ؟

كان النبي يقول هذا وريبعة يردده من بعده مَقْطَعاً مَقْطَعاً ويسأل الناس
 أئناء ذلك ليحفظ بيقة أذهانهم . فكان النبي يكلفه أن يسألهم مثلاً : إن
 رسول الله يقول : هل تدرون أي يوم هذا ؟ فيقولون : يوم الحج الأكبر .
 فيقول النبي : قل لهم : إن الله قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا
 ربكم كحرمة يومكم هذا . فلما بلغ خاتمة كلامه وقال : اللهم هل بلغت ، أجاب
 الناس من كل صوب نعم . فقال : اللهم اشهد .

اليوم آكلت
 لكم دينكم

ولما أتم النبي خطابه نزل عن ناقته القصواء وأقام حتى صلى الظهر
 والعصر ثم ركبها حتى بلغ الصخرات : هناك تلا عليه السلام على الناس
 قول الله تعالى : « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي
 وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا . . فلما سمعها أبو بكر بكى أن أحسن أن النبي
 وقد تمت رسالته قد دنا يومه الذي يلي فيه ربه .

وترك النبي عرفات وقضى ليله بالمزدلفة ، ثم قام في الصباح فنزل بالمشعر

الحرام ، ثم ذهب إلى منى وألقى في طريقه إليها الجمرات : حتى إذا بلغ خيامه نحر ثلاثاً وستين ناقة ، واحدة عن كل سنة من سنى حياته . ونحر على ما بقي من الهندي المائة التي ساق النبي منذ خروجه من المدينة . ثم حلق النبي رأسه وأتم حجّه . أتم هذا الحج . يسميه البعض حجة الوداع ، وآخرون حجة البلاغ ، وغيرهم حجة الاسلام . وهي في الحق ذلك كله . فقد كانت حجة الوداع ، رأى فيها محمد مكة والبيت الحرام للمرة الأخيرة . وكانت حجة الاسلام ، أكمل الله فيها للناس دينه وأتم عليهم نعمته . وكانت حجة البلاغ ، أتم النبي فيها بلاغه للناس ما أمره الله ببلاغه . وما محمد إلا نذير .

الفصل الثالث، الأثون

مرض النبي ووفاته

تفكيره في غزو الروم — جيش أسامة — بدء مرض النبي — ذهابه إلى مقابر المسلمين وصلاته على أهل حنين — شكواه من وجع رأسه الحمى — أمره أبا بكر أن يصلي بالناس — صحو الموت اختيار الرفيق الأعلى

ان حجة
الوداع

تمت حجة الوداع وآن لعشرات الألوف ممن صحبوا النبي فيها أن يعودوا إلى ديارهم، فأوجد منهم أهل نجد، وأتاهم أهل تهامة، وانحدر إلى الجنوب أهل اليمن وحضرموت وما حاذها. وسار النبي وأصحابه ميممين المدينة، حتى إذا بلغوها أقاموا بها في أمن من ناحية شبه الجزيرة كلها، وفي تفكير متصل من جانب محمد في أمر البلاد الخاضعة للروم والفرس بالشام ومصر والعراق. إنه أمن من ناحية شبه جزيرة العرب جميعاً بعد أن دخل الناس في دين الله أفواجا، وبعد أن جعلت الوفود تتري إلى يثرب تعلن الطاعة وتمنياً ظلها تحت لواء الاسلام، وبعد أن انحاز العرب جميعاً اليه في حجة الوداع. وكيف لا يُخلص ملوك العرب في ولائهم للنبي ولدينه ولم يُبق لهم أحد ما أبقاه لهم النبي الأُمي من سلطان واستقلال ذاتي. أو لم يُبق بدهان عامل فارس على أرض اليمن في ملكه حين أعلن بدهان إسلامه وحرص على وحدة العرب وألقى نيرَ الجوس؟ ولم يكن ما يقوم به بعضهم في أنحاء من شبه الجزيرة من حركات تشبه الانتقاص ليستغرق من النبي شيئاً من التفكير أو ليشير في نفسه شيئاً من المخاوف بعد

أن انبسط سلطان الدين الجديد في كل الأنحاء، وعنت كل الوجوه للحق
القيوم، وآمنت القلوب بالله الواحد القهار .

لذلك لم يُشر قيام الذين قاموا إذ ذاك يدعون النبوة عناية محمد ولا
اهتمامه . صحيح أن بعض القبائل القاصية عن مكة كانت تُسرع بعد الذي
عرفت عن محمد ونجاح دعوته الى الاستماع لمدعى النبوة من أهل قبيلتهم ،
وتودّ لو يكون لها من الحظ ما أوتيت قريش ؟ وأن هذه القبائل كانت لبعدها
عن مقرّ الدين الجديد لا تعرف كل أمره . لكن الدعوة الحق الى الله كانت
قد تأصلت في بلاد العرب ، فلم تك اليسير حربها ، وما لاقى محمد في سبيل هذه
الدعوة كان قد انتشر في الآفاق خبره ، ولم يكن مستطاعاً لغير ابن عبد الله
احتماله . وكل ادعاء أساسه البهتان لا مفرّ أن ينكشف سريعاً بهتانه . فكل ادعاء
للنبوة لم يكن مقدراً له أى نجاح ذى بال . قام طليحة زعيم بنى أسد وأحد
أشاوس العرب في الحرب ومن ذوى السلطان بنجد ، وزعم أنه نبيٌّ ورسول ،
وأيد زعمه بالنبؤ بموقع الماء في يوم كان قومه فيه يسرون ويكاد الظما
يقتلهم . لكنه بقى خائفاً من الانتقاض على محمد طوال حياة محمد ولم يُعلن
الثورة إلا بعد أن قبض الله اليه رسوله . وهزم ابن الوليد طليحة في ثورته
هذه فانضم من جديد إلى صفوف المسلمين وحسن إسلامه . ولم يكن مُسيلمته
ولا كان الأسود العنسيّ خيراً مكاناً من طليحة طيلة حياة النبي . بعث مسيلة
إلى النبيّ عليه السلام يقول : إنه نبي مثله : « وإن لنا نصف الأرض ولقريش
نصف الأرض ، ولكن قريشاً قوم لا يعدلون . » فلما نُتلى الخطاب نظر النبي
لرسولى مسيلة وأبدى لها أنه كان يأمر بقتلها لولا أن الرسل في أمن ، ثم
أجاب مسيلة بأنه سمع إلى كتابه وما فيه من كذب . « وإن الأرض لله يرثها
من يشاء من عباده الصالحين . والسلام على من اتبع الهدى . » وأما الأسود
العنسيّ ، صاحب اليمن بعد موت بدهان ، فقد جعل يدعى السحر ويدعو

مدعو النبوة
طليحة
والأسود
ومسيلة

الناس إليه خفية ، حتى إذا عظم أمره سار من الجنوب وطرّد عمال محمد على
الين ، وتقدّم إلى نجران وقتل فيها ابن بدهان ووارث عرشه . وبني بزوجه ،
ونشر في تلك الأصقاع سلطانه . ولم يُبَرِّ استفحال أمره عناية محمد ولا
استدعى من اهتمامه أكثر من أن بعث إلى عماله بالين كي يحيطوا بالأسود
أو يقتلوه . ونجح المسلمون في تأليب الين من جديد على الأسود ، وقتلته زوجته
انتقاماً منه لقتله زوجها الأول ابن بدهان .

الفقيه و
غزو الروم

كان تفكير محمد وكانت عنايته متجهين إذاً إلى الشمال بعد عودته من
حجة الوداع ، وكان من ناحية الجنوب آمناً مطمئناً . والحق أنه منذ غزوة
مؤتة ، ومنذ عاد المسلمون قانعين من الغنيمة بالاياب مكتفين بما أبدى خالد
ابن الوليد من مهارة في الانسحاب . كان محمد يحسب لناحية الروم حسابها ، ويرى
ضرورة توطيد سلطان المسلمين على حدود الشام حتى لا يعود إليها الذين جلوا
عن شبه الجزيرة إلى فلسطين يناوتون أهلها . ولهذا جهّز الجيش العرم الذي
جهّز حين بلغه تفكير الروم في مهاجمة حدود شبه الجزيرة ، وسار هو على
رأسه حتى بلغ تبوك ، فألقى الروم قدانسحبوا إلى داخل بلادهم وحصنهم من
هيئته . لكنه مع هذا ظلّ يقدر لناحية الشمال أن تنور الذكريات بحمأة المسيحية
وأصحاب الغلب في ذلك العصر من أهل الأمبراطورية الرومانية . فعملوا
الحرب على من أجلوا النصرانية عن نجران وغير نجران من أنحاء بلاد العرب .
لذلك لم يطُل بالمسلمين المُقام بالمدينة بعد عودهم من حجة الوداع بمكة حتى أمر
النبي بتجهيز جيش عرم إلى الشام . جعل فيه المهاجرين الأولين ومنهم
أبو بكر وعمر ، وأمر على الجيش أسامة بن زيد بن حارثة .

وكان زيد يومئذ حداثاً لا يكاد يعدو العشرين من سنّه ، فكان
لامارته على المتقدمين الأولين من المهاجرين ومن كبار الصحابة ما أثار دهشة
النفوس لولا إيمانها الصادق برسول الله . والنبي إنما أراد بتعيين زيد أن

يقيمه مقام أبيه الذي استشهد في موقعة مؤتة ، وأن يجعل له من نغار النصر ما يجزى به ذلك الاستشهاد ، وما يبعث إلى جانب ذلك في نفس الشباب الهمة والحمية . ويعودهم على الاضطلاع بأعباء أجسام التبعات . وأمر محمد أسامة أن يُوطي الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين على مقربة من مؤتة حيث قتل أبوه ، وأن ينزل على أعداء الله وأعدائه في عمية الصبح ، وأن يُمنع فيهم قتلا ، وأن يُحرقهم بالنار ، وأن يتم ذلك ديرا كما حتى لا تسبق إلى أعدائه أنباؤه . فاذا أتم الله له النصر لم يُضِل بقاءه بينهم وعاد غائماً مظفراً .

توصية النبي
أسامة

وخرج أسامة والجيش معه إلى الجُرف على مقربة من المدينة يتجهزون للسفر إلى فلسطين . وإنهم نوى جهازهم إذ حال مرض رسول الله ، ثم اشتداد المرض به ، دون مسيرهم . وقد يسأل إنسان : كيف يحول مرض رسول الله دون مسيرة جيش أمره هو بجهازه وسفره ! . لكن مسيرة جيش إلى الشام يقطع البيد والصحارى أياماً طويلة ليست بالأمر الهين . ولم يكن يسهل على المسلمين ، والنبي أحب إليهم من أنفسهم ، أن يتركوا المدينة وهو يشكو المرض وهم لا يعلمون ما وراء هذا المرض . ثم إنهم لم يعرفوا قط من قبل أنه شكا مرضاً ذا بال . فهو لم يُصَب من المرض بأكثر من فقد الشهية في السنة السادسة من الهجرة حين قيل كذباً : إن اليهود سحروه ، ومن ألم أصابه واحتجم من أجله حين أكل من الشاة المسمومة في السنة السابعة من الهجرة . ثم إن حياته وتعاليمه كانت تنأى به وبكل من يتبعها عن المرض . فهذا الزهد في الطعام ونيل القليل منه ، وهذه البساطة في الملابس والعيش ، وهذه النظافة التامة نظافة يقتضيها الوضوء ويحبها محمد ويحرص عليها ، حتى ليقول : إنه لولا خيفته أن يشق على قومه لفرض عليهم السواك في اليوم خمس مرات ، وهذا النشاط الدائم : نشاط العبادة من ناحية ونشاط الرياضة من ناحية أخرى ، وهذا القصد في كل شيء ، وفي الملذات قبل كل شيء ، وهذا السموة عن عبث

مرض
رسول الله

ماذا حال
المرض دون
مسيرة الجيش

الأهواء، وهذه الرفعة النفسية لا تُدانيها رفعة . وهذا الاتصال الدائم بالحياة
 وبالكون في خير صور الحياة وأدق أسرار الكون - هذا كله يجنب صاحبه
 المرض ويجعل الصحة بعض حظه . فإذا كان سليم التكوين قوى الخلق، كما
 كان محمد، جفاه المرض ولم يعرف إليه سيلا . فإذا مرض كان طبيعياً أن يخاف
 محبوبه وأصحابه ، وكان طبيعياً أن يخافوا وهم قد رأوا ما عاناه من مصاعب الحياة
 خلال عشرين سنة متتابة . فهو منذ بدأ يجهر بدعوته في مكة منادياً الناس
 بعبادة الله وحده لا شريك له وبترك الأصنام بما كان يعبد آباؤهم ، قد لقي من
 العنت ما تنوء به النفوس مما شئت عنه أصحابه الذين أمرهم فهاجروا إلى الحبشة .
 وما اضطره للإحتماء بشعاب الجبل حين أعلنت قريش قطيعته . وهو حين
 هاجر من مكة إلى المدينة بعد بيعة العقبة قد هاجر في أدق الظروف وأشدّها
 تعريضاً للخطر . وهاجر وهو لا يعرف ما فُدرّ له بالمدينة . ولقد كان بها في
 الفترة الأولى من مقامه موضع دس اليهود وعيهم . فلما نصره الله وأذن أن
 يدخل الناس من أنحاء شبه الجزيرة في دين الله أفواجا ، ازداد عمله
 وتضاعف مجهوده ، وظل الأمر يقتضيه من بذل الجهود ما ينوء بالعصبة
 أولى القوة . وإن له عليه الصلاة والسلام في بعض الغزوات لمواقف
 تشيب من هولها الولدان . وأى موقف أشد هولاً من موقفه يوم أحد
 حين ولّى المسلمون وسار هو يصعد في الجبل ورجال قريش يشتدون في تتبّعه
 ويرمونه حتى كسرت رباعيته ! وأى موقف أشد هولاً من موقفه يوم
 حنين حين ارتد المسلمون في عمية الصبح مولّين الأدبار . حتى قال أبو سفيان:
 إن البحر وحده هو الذي يردّهم ، ومحمد واقف لا يرتد ولا يراجع وينادي
 في المسلمين: إلى أين إلى أين ! إلى إلى . . . حتى عادوا وحتى انتصروا ! . والرسالة!
 والوحي ! وهذا المجهود الروحي المضني في اتصاله بسر الكون وبالملا الأعلى ،
 هذا المجهود الذي روى بسببه عن النبي أنه قال : شيتني هود وأخواتها . رأى

أصحاب محمد هذا كله ورأوه يحمل العبء. صُلباً قوياً لا يعرف المرض اليه طريقاً. فاذا هو مريض بعد ذلك كله، فمن حق أصحابه أن يخافوا وأن يتمهلوا في السير من معسكرهم بالجُرُف إلى الشام حتى تطمئن نفوسهم إلى ما يكون من أمر الله في نبيه ورسوله.

وحادث وقع جعلهم أشدَّ خوفاً. فقد أرق محمد ليلةً أوّل ما بدأ يشكو وطال أرقه، وحدثته نفسه أن يخرج في ليل تلك الأيام، أيام الصيف الرقيقة النسيم، فيما حول المدينة. وخرج ولم يستصحب معه أحداً إلا مولاه أبا مويهبة. أفندرى أين ذهب؟ ذهب إلى بَقِيع الغَرَقد حيث مقابر المسلمين على مقربة من المدينة. فلما وقف بين المقابر قال يخاطب أهلها: «السلام عليكم يا أهل المقابر. لبيئ، لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه. أقبلت الفتن كقِطْع الليل المظلم يتبع آخرها أولها، الآخرة شرٌّ من الأولى». حدث أبو مويهبة أن النبي قال له أوّل ما بلغنا بَقِيع الغرقد: إني أمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع فانطلق معي. فلما استغفر لهم وأن له أن يؤوب، أقبل على أبي مويهبة فقال له: يا أبا مويهبة، إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم خيّرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة. قال أبو مويهبة: بأبي أنت وأمي! اغد مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة. قال محمد: لا والله يا أبا مويهبة! لقد اخترت لقاء ربي والجنة.

تحدث أبو مويهبة بما رأى وما سمع. لأن النبي بدأ يشكو المرض غداة تلك الليلة التي زار فيها البقيع، فاشتد خوف الناس ولم يتحرك جيش أسامة. صحیح أن هذا الحديث الذي يُروى عن أبي مويهبة يلقاه بعض المؤرخين بشيء من الشك، ويذكرون أن مرض محمد لم يكن وحده هو الذي حال دون تحرك الجيش إلى فلسطين، وأن تدمر الكثيرين من تعيين حدّث كإسامة على رأس جيش يضم جِلة المهاجرين الأوّلين والأَنْصار كان أكبر من مرض

حطاب الذي
أهل المقابر

محمد في عدم تحرك الجيش أثراً . وقد اعتمد هؤلاء المؤرخون في تدوين رأيهم هذا على وقائع يتلوها القارىء في هذا الفصل . ولئن كنا لاناقش أصحاب هذا الرأي رأيهم في تفاصيل هذا الذي روى أبو موهبة ، فإنا لانرى مسوغاً لانكار الحادث من أساسه ، وإنكار ذهاب النبي إلى بقيع الغرقد واستغفاره لأهل المقابر من ساكنيه ودقة إدراكه اقتراب ساعته ، ساعة الدنوّ من جوار الله . فالعلم لا ينكر في عصرنا الحاضر مناجاة الأرواح على أنها بعض مظاهر الحياة النفسية (Psychique) ، ودقة الإدراك لدنوّ الأجل يؤتاها الكثيرون : حتى يستطيع أى إنسان أن يقص بما عرف من وقائع ذلك شيئاً غير قليل . ثم إن هذه الصلة بين الأحياء والموتى وهذه الوحدة بين الماضى والمستقبل ووحدة لا يحدّها زمان ولا مكان ، قد أصبحت مقررة اليوم وإن كنا بطبيعة تكويننا نقصّر عن استجلاء صورتها . فاذا كان ذلك بعض ما نرى اليوم وبعض ما يقرّه العلم ، فلا محل لانكار هذا الحادث الذى روى أبو موهبة من أساسه ، ولا محل لهذا الانكار بعد الذى عُرف في أدوار حياة محمد كلها من قوّة اتصاله النفسى والروحى بعوالم الكون اتّصالاً يجعله يدرك في هذا الشأن أضعاف ما يدرك الموهوبون في هذه الناحية .

داع مائة

وأصبح محمد في الغداة ومراً بعائشة فوجدتها تشكو صداعاً في رأسها وتقول وارأساه ! فقال لها وقد بدأ يحس ألم المرض : بل أنا والله يا عائشة وارأساه . لكن شكوه لم يكن قد اشتد إلى الحد الذى يلزمه الفراش أو يحول بينه وبين ما عود أهله وأزواجه من تَلُظف ومفاكهة . كررت عائشة الشكوى من صداعها حين سمعته يشكو : فقال لها : وماضرك لو مُتَّ قبلى فقمْتُ عليك وكفنتك وصليتُ عليك ودفنتك ! . وأثارت هذه الدُعابة غيرة الأنوثة في نفس عائشة كما أثارت عندها حب الحياة والحرص عليها . فأجابت : .هـ . ليسكن ذلك حظّ غميرى . والله لكأنى بك لو قد فعلتُ ذلك لقد رجعتُ إلى بيتي

فأعرستَ فيه ببعض نساءك» . وتبسم النبي وإن لم يمكّنه الألم من متابعة الدعابة. فلما سكن عنه الألم بعض الشيء قام يطوف بأزواجه كما عودهن . لكن الألم جعل يعاوده وتزداد به شدته: حتى إذا كان في بيت ميمونة لم يُطق مغالبتها ورأى نفسه في حاجة إلى التمريض . هنالك دعا نساءه إليه في بيت ميمونة واستأذنه . بعد أن رأى حاله ، أن يمرض في بيت عائشة . وأذن له أزواجه في الانتقال؛ فخرج عاصباً رأسه يعتمد في مسيرته على علي بن أبي طالب وعلى عمه العباس وقدماه لا تكادان تحملانه حتى دخل بيت عائشة .

وزادت به الحمى في الأيام الأولى من مرضه ، حتى لكان يشعر كأن به منها لهماً . لكن ذلك لم يكن يمنعه ساعة تنزل الحمى من أن يمشى إلى المسجد ليصلى بالناس . وظل كذلك عدة أيام، لا يزيد على الصلاة ولا يقوى على محادثة أصحابه أو خطابهم . على أن ذلك لم يمنعه من أن يصل إلى أذنه الهمس بما يقول الناس أنه أمر غلاماً حدثاً على جيلة المهاجرين والأنصار لغزو الشام! لذلك وعلى الرغم من أنه كان يزداد وجعه كل يوم شدةً شعر بضرورة التحدث إلى الناس حتى يعهد إليهم ، فقال لأزواجه وأهله : هربوا على سبع قرب من آبار شتى حتى أخرج إلى الناس فأعهد إليهم . وجرى بالماء من آبار مختلفة وأقعد أزواجه في مخضب لحفصة - والمخضب : الطست - وصبب عليه ماء القرب السبع حتى طفق يقول : **حَسْبُكُمْ حَسْبُكُمْ** . ولبس ثيابه وعصب رأسه وخرج إلى المسجد وجلس على المنبر، فحمد الله ثم صلى على أصحاب أحد واستغفر لهم وأكثر من الصلاة عليهم، ثم قال : « أيها الناس أنفذوا بعث أسامة، فلعمري لئن قلتم في إمارته لقد قلتم في إمارته أبيه من قبله ، وإنه لخليق للإمارة وإن كان أبوه لخليقاً لها . وسكت محمد برهة خيم الصمت على الناس أثناءها ثم عاد إلى الحديث فقال : « إن عبداً من عباد الله خيرته الله بين الدنيا والآخرة وبين ما عنده فاختر ما عند الله » وسكت محمد من جديد والناس

شدد حمى

حروجه
إلى المسجد

كأما على رموسهم الطير . لكن أبا بكر أدرك أن النبي إنما يعني بهذه العبارة الأخيرة نفسه ، فلم يستطع لرفة وجدانه وعظيم صداقته للنبي أن يمسك عن البكاء ، ثم قال : بل نحن نقديك بأنفسنا وأبنائنا ! . وخشى محمد أن تمتد عدوى التأثر من أبي بكر إلى الناس ، فإشار إليه قائلاً : على رسلك يا أبا بكر . ثم أمر أن تُتقفل جميع الأبواب المؤدية إلى المسجد إلا باب أبي بكر . فلما أفضلت قال : إني لا أعلم أحداً كان أفضل في الصحبة عندي بدأ منه . وإني لو كنت متخذاً من العباد خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن صحبة وإخاء إيمان حتى يجمع الله بيننا عنده . ونزل محمد عن المنبر يريد أن يعود بعد ذلك إلى بيت عائشة ، ولكنه لم يلبث أن التفت إلى الناس وقال :

إيضاحه
المهاجرين
بالأنصار

« يا معشر المهاجرين استوصوا بالأنصار خيراً فإن الناس يزيدون والأنصار على هيتها لا تزيد . وإنهم كانوا عيبتى التي أويت إليها ، فأحسنوا إلى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئتهم . »

ودخل محمد بيت عائشة . لكن المجهود الذي أنفق يومئذ وهو في مرضه قد كان من شأنه أن زاد وطأة المرض شدة . وأى مجهود بالنسبة لمرريض تساوره الحثي يخرج بعد أن تُصَبَّ عليه سبع قرب من الماء ، ويخرج مُثقله أكبر الشواغل : جيش أسامة ، ومصير الأنصار من بعده . ومصير هذه الأمة العربية التي ربط الدين الجديد بأقوى الأواصر وأمتن الروابط بينها . لذلك حاول أن يقوم في غده ليصلى بالناس كما عودهم ، فإذا هو لا يقدر . إذ ذلك قال : مروا أبا بكر فليصل بالناس . وكانت عائشة ما تزال تحرص على أن يؤدي النبي الصلاة لما في ذلك من مظهر الصحة ، فقالت : إن أبا بكر رجل رقيق ضعيف الصوت كثير البكاء . إذا قرأ القرآن . قال محمد : مروه فليصل بالناس . فكررت عائشة قولها : فصاح محمد بها والمرض يهزه : إنكن صواحب يوسف . مروه فليصل بالناس . وصلى أبو بكر بالناس كأمر النبي . وإنه لغائب يوماً

أمره بالانك
أن يصل بالناس

إذ دعا بلال الى الصلاة ونادى عمر أن يصلى بالناس مكان أبى بكر، وكان عمر جهير الصوت، فلما كبر في المسجد سمعه محمد من بيت عائشة فقال: فأين أبو بكر؟ يأتي الله ذلك والمسلمون. ومن هنا ظن بعضهم أن النبي استخلف أبابكر من بعده أن كانت الصلاة بالناس أول مظهر للقيام مقام رسول الله .

وبلغت به شدة المرض حداً آلمه. ذلك أن الحمى زادت به، حتى لقد كانت عليه قטיפه فاذا وضع أزواجه وعواده أيديهم من فوقها شعروا بجر هذه الحمى المضنية . وكانت ابنته فاطمة تعودده كل يوم، وكان يحبها ذلك الحب الذي يمتلىء به وجود الرجل للابنة الوحيدة الباقية له من كل عقبه . لذلك كانت اذا دخلت على النبي قام إليها وقبأها وأجلسها في مجلسه . فلما بلغ منه المرض هذا المبلغ دخلت عليه فقبلته . فقال : مرحباً بابنتي ، ثم أجلسها الى جانبه وأسر لها حديثاً فبكت، ثم أسر لها حديثاً آخر فضحكت . فسألها عائشة في ذلك؛ فقالت: ما كنت لأفشى سر رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما مات ذكرت أنه أسر لها أنه سيفبض في مرضه هذا فبكت ، ثم أسر أنها أول أهله ياحقه فضحكت . وكانوا الاشتداد الحمى به يضعون الى جواره إناء به ماء بارد، فما يزال يضع يده فيه ويمسح بها على وجهه . وكانت الحمى تصل به حتى يُعشى عليه أحياناً ثم يفيق وهو يعانى منها أشد الكرب : حتى قالت فاطمة يوماً وقد حز الألم في نفسها لشدة ألم أبيها : واكرب أباه ! فقال : لا كرب على أهلك بعد اليوم . يريد أنه سيتقل من هذا العالم عالم الآسى والألم .

وحاول أصحابه يوماً تهوين الألم على نفسه ، فذكروا له نصائحهم ألا يشكو المريض . فأجابهم : إن ما به أكثر مما يكون في مثل هذه الحال برجلين منهم . وفيما هو في هذه الشدة وفي البيت رجال قال : هلموا أكتب لكم كتاباً لا تصلوا بعده أبداً . قال بعض الحاضرين : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد غلبه الوجد ، وعندكم القرآن ، وحسبنا كتاب الله . ويذكرون أن عمر هو

ابنته فاطمة
وحدثها

مدوا الكتاب

الذى قال هذه المقالة . واختلف الحضور ، منهم من يقول : قرَّبوا يكتب لكم كتاباً لا تضلُّوا بعده ، ومنهم من يأبى ذلك مكثفياً بكتاب الله . فلما رأى محمد خصومتهم قالوا ، قوموا . وما فنى ، ابن عباس بعدها يرى أنهم أضاعوا شيئاً كثيراً بأن لم يسارعوا الى كتابة ما أراد النبي إملأه . أمّا عمر فظل ورأيه ، أن قال الله في كتابه الكريم : « مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ » .

وتناقل الناس ما بلغ من اشتداد المرض بالنبي ، حتى هبط أسامة وهبط الناس معه من الجُرف إلى المدينة . ودخل أسامة على النبي في بيت عائشة ، فاذا هو قد أصمّت فلا يتكلم . فلما بصُرُّ بأسامة جعل يرفع يده إلى السماء ثم يضعها على أسامة علامة الدعاء له .

ورأى أهله وهذه حاله أن يُسِعِفوه بعلاج ، فأعدت أسماء قرية ميمونة شراباً كانت عرفت أثناء مقامها بالحبشة كيف تُعدّه ، وانتهزوا فرصه إغماءه من إغماءات الحمى فصبّوه في فيه . فلما أفاق قال : من صنع هذا ؟ ولم فعلنموه ؟ . قال عمته العباس : خشينا يا رسول الله أن تكون بك ذات الجنب . قال : ذلك داء ما كان الله عزّ وجلّ ليقدفني به ! . ثم أمر بمن في الدار خلا عمته العباس أن يتناولوا هذا الدواء لم تستشّن منهم ميمونة رغم صيامها .

وكان عند محمد أول ما اشتد المرض به سبعة دنائير خاف أن يقبضه الله إليه وما تزال باقية عنده ، فأمر أهله أن يتصدّقوا بها . لكن اشتغلهم بتمريضه والقيام في خدمته واطراد المرض في شدته أنساهم تنفيذ أمره . فلما أفاق يوم الأحد الذي سبق وفاته من إغمائه سألهم : ما فعلوا بها ؟ فأجابت عائشة إنها ما تزال عندها . فطلب إليها أن تحضرها ووضعها في كفة ثم قال : « ما ظن محمد بربه لو لقي الله وعنده هذه » . ثم تصدّق بها جميعاً على فقراء المسلمين . وقضى محمد ليله هادئاً مطمئناً نزلت عنه الحمى ، حتى لكان الدواء الذى سقاه أهله قد فعل فعله وقضى على المرض عنده . وبلغ من ذلك أن

غضبه لمعالجة
أهله إياه .

استطاع أن يخرج ساعة الصبح إلى المسجد عاصباً رأسه معتمداً على علي بن
أبي طالب والفضل بن العباس ، وكان أبو بكر ساعته يصلي بالناس . فلما
رأى المسلمون النبي وهم في صلاتهم قد خرج إليهم كادوا يُفْتَنُونَ فرحاً به
وتفرجوا . فأشار إليهم أن يشبثوا على صلاتهم . وسر محمد بما رأى من ذلك
أكبر السرور واعتبط له أعظم الغبطة . وأحسن أبو بكر بما صنع الناس وأيقن
أنهم لم يفعلوه إلا لرسول الله ، فنكص عن مصلاه يريد أن يتخلى لمحمد عن
مكانه . فدفعه محمد في ظهره وقال : صل بالناس ، وجلس هو إلى جنب أبي بكر
فصلى قاعداً عن يمينه . فلما فرغ من صلاته أقبل على الناس رافعاً صوته حتى
سمعه من كانوا خارج المسجد فقال : « أيها الناس : سَعُرَت النار وأقبلت الفتن
كقَطْع الليل المظلم . وإني والله ما تَمَسُّكُون علي بشيء ، إني والله لم أُحِلَّ إلا
ما أُحِلَّ القرآن ولم أُحَرِّمُ إلا ما حَرَّمَ القرآن . ولعن الله قوماً اتخذوا قبورهم
مساجد » .

ولقد عظم فرح المسلمين بما رأوا من ظاهر التقدم في صحة النبي حتى
أقبل عليه أسامة بن زيد يستأذنه في مسيرة الجيش إلى الشام ، وحتى مثل بين يديه
أبو بكر قائلاً : يا نبي الله ، إني أراك قد أصبحت بنعمة من الله وفضل كما تحب .
واليوم يوم بنت خارجه ، أفأتيها ؟ فأذن النبي له في ذلك . وانطلق أبو بكر إلى
السنح بأطراف المدينة حيث تقيم زوجته . وانصرف عمر وعلي لشؤونهما .
وتفرق المسلمون وكلهم سعيد مستبشر ، بعد أن كانوا إلى أمس عابسين
مغمومين لما يتصل بهم من أخبار النبي ومرضه واشتداد الحمى به وإغمائه .
وعاد هو إلى بيت عائشة والسرور لرؤية هؤلاء المسلمين قد امتلأ بهم المسجد
يفعم قلبه ، وإن كان يحس جسمه ضعيفاً غاية الضعف . وعائشة تنظر إلى هذا
الرجل الذي يمتلئ قلبها تقديساً لجلال عظمته ، وقد ملكها الاشفاق عليه
لضعفه ومرضه ، فهي تودّ لو تبذل له حشاشة نفسها لتردّ إليه القوة والحياة .

لكن خروج النبي إلى المسجد لم يكن إلا الصحو الذي يسبق الموت .
فقد كان يزداد بعد دخوله إلى البيت في كل لحظة ضعفاً ، وكان يرى الموت يدنو ،
ولم يبق لديه ريب في أنه لم يبق له في الحياة إلا سويعات . ترى ماذا عساه كان
يشهد في هذه السويعات الباقية له على فراق الحياة ؟ أفكان يستذكر حياته منذ
بعثه الله هادياً ونبيّاً وما لاقى فيها وما أمم الله عليه من نعمته وما شرح به
صدره من فتح قلوب العرب لدين الحق ؟ أم كان يقضيها مستغفراً ربه متوجّهاً
إليه بكل روحه على نحو ما كان يفعل كلّ حياته ؟ أم أنه كان يعاني هذه
الساعات الأخيرة من آلام النزاع ما لم يُبق لديه قوة الاستذكار ؟ تختلف
الروايات في ذلك اختلافاً كبيراً . وأكثرها على أنه دعا في هذا اليوم القاطن
من أيام شبه الجزيرة (٨ يونيو سنة ٦٣٢) بآنا . فيه ماء بارد كان يضع يده
فيه ويمسح بمائه وجهه ، وأن رجلاً من آل أبي بكر دخل إلى عائشة وفي يده
سواك ، فنظر إليه محمد نظراً دل على أنه يريد أن يأخذته عائشة من قريبا
ومضغته له حتى لا يَأْخُذَ . وأعطته إياه فاستنّ به . وأنه وقد شقّ عليه النزاع توجهه
إلى الله يدعوه : اللهم أعني على سكرات الموت . قالت عائشة وكان رأس
النبي في هذه الساعة في حجرها : وجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يثقل في حجرى ، فذهبت أنظر في وجهه فاذا بصره قد شخص وهو يقول :
بل الرفيق الأعلى من الجنة . قلت خيّرْتَ فاخترت والذي بعثك بالحق .
وقبض رسول الله بين سحري ونحري ودولتي لم أظلم فيه أحداً . فنسفت
وحدائثه سنى أنه صلى الله عليه وسلم قبض وهو في حجرى . ثم وضعت رأسه
على وسادة وقلت ألتدم مع النساء وأضرب وجهى . . أمات محمد حقاً ؟
ذلك ما اختلفت العرب يومئذ فيه اختلافاً كاد يثير بينهم الفتنة وما تؤدى
الفتنة إليه من حرب أهلية لولا أن أراد الله بهم وبدينه الحق الخفيف خيراً .

الصحو الذي
يسبق الموت

بل الرفيق
الأعلى
من الجنة

الفصل الحادى والثلاثون

دفن الرسول

اختلاف المسلمين هل مات محمد - عمر يخطب الناس بأنه لم يمّت .
أبو بكر يعود فيخطبهم بأنه مات ويتلو عليهم القرآن - اقتناع المسلمين
بقول أبي بكر - خوف الخلاف فيمن يقوم بأمر المسلمين -
بيعة السقيفة ثم البيعة العامة لأبي بكر - تجهيز النبي وغسله -
مرور الناس به رجالاً فَنساءً فصبياناً - دفنه حيث قبض
إنفاذ جيش أسامة إلى الشام وانتصاره - آخر ما قال الرسول
صلى الله عليه وسلم

اختار النبي عليه السلام الرفيق الأعلى في بيت عائشة ورأسه في حجرها
فوضعت رأسه على وسادة وقامت تلتمد وتضرب وجهها مع النساء اللاتي
أسرعن إليها لأول ما بلغن الخبر . وفوجئ المسلمون بالمسجد بهذه الضجة ،
لأنهم رأوا النبي في الصباح وكل شيء يدل على أنه عوفي ، مما جعل أبا بكر
يذهب إلى زوجته بنت خارجه بانسئخ . لذلك أسرع عمر إلى حيث كان جثمان
النبي وهو لا يصدق أنه مات . ذهب فكشف عن وجهه فألقاه لاجراك به ،
فحسبه في غيوبة لا بد أن يفيق منها . وعبثاً حاول المغيرة إقاعه بالحقيقة الأليمة :
فقد ظل مؤمناً بأن محمداً لم يمّت . فلما ألح المغيرة قال له : كذبت . وخرج معه
إلى المسجد وهو يصيح : « إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قد توفى ، وأنه والله مامات ولكنه ذهب الى ربه كما

مول المسلمين
لمخر الوفاة

عمر يكذب
الوفاة

ذهب موسى بن عمران؛ فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل: قد مات. ووالله ليرجعن رسول الله كما رجع موسى. فليُقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أنه مات.، واستمع المسلمون بالمسجد الى هذه الصيحات من جانب عمر يرسل الواحدة تلو الأخرى وهم في حال أشبه شيء بالذهول. لئن كان محمد قد مات حقاً فواحر قلباه! ويا لله! الناصب لأولئك الذين رأوه وسمعوا له وآمنوا بالله الذي بعثه بالهدى ودين الحق، هم يُذهل القلب ويذهب باللب. وإن كان محمد قد ذهب الى ربه. كما يقول عمر، فذلك ادعى للذهول؛ وانتظار أوبته حتى يرجع كما رجع موسى أشد إمعاناً في العجب. لذلك أحاطت جموعهم بعمر وهم أدنى إلى تصديقه وإلى الايمان بأن رسول الله لم يموت. وكيف يموت وقد كان معهم منذ ساعات يروونه ويسمعون الى صوته البهوري والى دعائه واستغفاره! وكيف يموت وهو خليل الله الذي اصطفى لتبليغ رسالته وقد دانت له العرب كلها وبقى أن يدين له كسرى وأن يدين هرقل بالاسلام! وكيف يموت وهو هذه القوة التي هزت العالم مدى عشرين سنة متوالية وأحدثت فيه أعنف ثورة روحية عرف التاريخ. لكن النساء هناك مازلن يلتدمن ويضربن وجوههن علامة أنه مات. ولكن عمر هاهنا في المسجد ما يزال ينادى بانه لم يموت وبأنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، وبأن الذين يقولون بموته إنما هم المنافقون؛ هؤلاء المنافقون الذي سيضرب محمد أيديهم وأعناقهم بعد رجعته. أي الأمرين يصدق المسلمون؟ لقد أخذهم الفرع أول الأمر، ثم ما زالت بهم أقوال عمر تبعث الى نفوسهم الأمل برجعة النبي حتى كادوا يصدقون أمانيهم ويصورون منها لأنفسهم حقائق يكادون يستريحون إليها.

عبي. أبي بكر
من السنج

وإنهم كذلك إذ أقبل أبو بكر آتياً من السنج وقد بلغه الخبر الفادح. وبصراً بالمسلمين وبعمر يخطبهم، فلم يقف طويلاً ولم يلتفت إلى شيء، بل قصد

إلى بيت عائشة فاستأذن ليدخل فقيل له : لا حاجة لأحد اليوم باذن . فدخل
فألقى النبي ﷺ في ناحية من البيت عليه بُرْد حبرة ، فأقبل حتى كشف عن
وجهه ثم أقبل عليه يقبله وقال : مَا أَطْيَبَكَ حَيًّا وَمَا أَطْيَبَكَ مَيِّتًا ! . ثم إنه أخذ
رأس النبي ﷺ بين يديه وحنق بمعارف وجهه التي بقيت لم يُنكرها عدوان الموت
عليها وقال : بأبي أنت وأمي ! أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها ثم لن
تصديق بعدها موتة أبدًا ! . ثم أعاد الرأس إلى الوسادة وردَّ البُرْدَ على وجهه
وخرج وعمر ما يزال يكلم الناس ويُقنعهم بأن محمداً لم يموت . وفسح الناس
لأبي بكر طريقاً فلما دنا من عمر ناداه : على رسنك يا عمر : أنصت ! . لكن عمر
أبى أن يسكت أو ينصت واستمر يتكلم . فأقبل أبو بكر على الناس وأشار
إيهم بأنه يكلمهم . وَمَنْ كَأَبِي بَكْرٍ فِي هَذَا الْمَوْقِفِ ! . أليس هو الصديق صفيّ
النبي ﷺ وَمَنْ لَوْ اتَّخَذَ النَّبِيُّ خَلِيلًا لَا تَخْذُهُ خَلِيلًا ! . لذلك أسرع الناس إلى تلبية
دعوته وانصرفوا إليه عن عمر : فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ، إنه
من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت .
ثم تلا قوله تعالى : « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ .
أَفَأَنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ . وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ
فَلَنَ يَصُرَّ اللَّهُ شَرِيحًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ » . وكان عمر قد أنصت حين
رأى انصراف الناس إلى أبي بكر : فلما سمع أبا بكر يتلو هذه الآية خسر إلى
الأرض ما تحمله رجلاه موقناً أن رسول الله قد مات . وأما الناس فقد أخذوا
من قبل بأقوال عمر ، حتى لقد ألقوا أنفسهم إذ سمعوا هذه الآية يتلوها
أبو بكر وكأنهم لم يكونوا يعلمون أنها نزلت . وكذلك زايل القلوب كل شك
في أن محمداً قد اختار جوار الرفيق الأعلى وأن الله قد ضمنه إليه .

من كان يعبد
محمداً فإن
محمداً قد مات

أفكان عمر غالباً حين اقتنع بأن محمداً لم يموت وحين دعا الناس إلى
مثل اقتناعه ؟ كلا ! وإن العلماء ليحدثونا اليوم بأن الشمس ستظل تتناثر على

الغمام محمداً
حقاً

حَقَّبَ الذَّهْورَ حَتَّى يَجِيءَ يَوْمَ تَفْنَى فِيهِ . أَفِيصَدَّقُ أَحَدَ هَذَا الْكَلَامِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَسَاوِرَهُ الشُّكُوكُ فِي إِمْكَانِهِ ؟ هَذِهِ الشَّمْسُ الَّتِي تَرْسَلُ مِنْ ضِيَائِهَا وَمِنْ حَرَارَتِهَا مَا يَحْيِي الْعَالَمَ بِهِ كَيْفَ تَفْنَى وَكَيْفَ تَنْطَفِئُ . ثُمَّ يَبْقَى الْعَالَمُ بَعْدَهَا يَوْمًا ! . وَمُحَمَّدٌ لَمْ يَكُنْ أَقْلًا مِنَ الشَّمْسِ ضِيَاءً ، وَلَا حَرَارَةً ، وَلَا قُوَّةً . وَكَأَنَّ الشَّمْسَ مُحْسِنَةً فَقَدْ كَانَ مُحَمَّدٌ مُحْسِنًا . وَكَأَنَّ الشَّمْسَ تَتَّصِلُ بِالسَّكَّاتِ كُلِّهَا ، فَقَدْ كَانَ رُوحُ مُحَمَّدٍ يَتَّصِلُ بِالسَّكَّاتِ جَمِيعًا ، وَمَا زَالَ ذَكَرَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْظُرُ الْكُونَ كُلَّهُ . فَلَا عَجَبَ إِذَا اقْتَنَعَ عَمْرٌ بِأَنَّ مُحَمَّدًا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَمُوتَ . وَهُوَ حَقًّا لَمْ يَمُتْ وَلَنْ يَمُوتَ .

رجوع الجيش
الى المدينة

وكان أسامة بن زيد قد رأى النبي صباح ذلك اليوم حين خرج الى المسجد وظن كما ظن المسلمون جميعاً أنه تعافى ، فذهب ومن كان قد عاد الى المدينة من الجيش المسافر الى الشام ، ولحق بالمعسكر بالجرف وأمر الجيش بالتجهز للمسير . وإنه لكذلك إذ لحق به الناعي نذيراً بوفاة النبي ، فعاد أدراجه وأمر الجيش فرجع كله الى المدينة ؛ ثم ذهب هو فركز علمه عند باب عائشة وانتظر ما سيكون من أمر المسلمين من بعد .

في سقيفة
بني ساعدة

والحق أن المسلمين كانوا من أمرهم في حيرة . فهم لم يلبثوا بعد أن سمعوا أبا بكر ، وبعد أن أيقنوا أن محمداً قد مات ، حتى انحاز حتى من الأنصار الى سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة ، واعتزل علي بن أبي طالب والزبير ابن العوام وطلحة بن عبيد الله في بيت فاطمة ، وانحاز المهاجرون ومعهم أسيد ابن حضير في بني عبد الأشهل الى أبي بكر . وإن أبا بكر وعمر لكذلك إذ أتت بينهما بنبا الأنصار الذين انحازوا الى سعد بن عبادة ، ثم يردف النبا بقوله : فان كان لكم بأمر الناس حاجة فأدركوا الناس قبل أن يتفاقم أمرهم ورسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته لم يُفْرَغْ مِنْ أَمْرِهِ قَدْ أَغْلَقَ دُونَهُ الْبَابَ أَهْلَهُ . قَالَ عَمْرٌ مُوجِّهًا حَدِيثَهُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ : انْطَلِقْ بِنَا إِلَى إِخْوَانِنَا هَؤُلَاءِ مِنْ

الأنصار حتى تنظر ما هم عليه . وإنهم لني طريقهم إذ لقبهم من الأنصار رجلاً صالحاً ، فذكروا للمهاجرين ما تملاً عليه القوم وسألام : أين يريدون ؟ فلما علموا أنهم يريدون الأنصار قالوا : لا عليكم إلا تقربوهم ؛ يامعشر المهاجرين اقتضوا أمركم . قال عمر : والله لنا تينهم . وانطلقوا حتى نزلوا بهم في سقيفة بني ساعدة ، فاذا بين ظهريهم رجل مُزَمَّل ، قال عمر بن الخطاب : من هذا ؟ قالوا : سعد بن عبادة ، به وجع . فلما جلس المهاجرون قام خطيب الأنصار فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعدُ فنحن أنصار الله وكتيبة الاسلام ، وأتم يامعشر المهاجرين رهطٌ منا وقد دقت دافة من قومكم وإذا هم يريدون أن يحتازونا من أصلنا وينصبونا الأمر .

سأله أبي بكر
للأنصار

وكانت هذه روح الأنصار أثناء حياة النبي . لذلك لم يلبث عمر أن سمع هذا الكلام حتى أراد أن يدفعه ؛ فأمسك به أبو بكر مخافة شدته وقال : على رسلك يا عمر ! . ثم قال موجهاً كلامه للأنصار : « أيها الناس . نحن المهاجرون أول الناس إسلاماً ، وأكرمهم أحساباً ، وأوسطهم داراً ، وأحسنهم وجوهاً ، وأكثرهم ولادةً في العرب ، وأمسهم رحماً برسول الله . أسلمنا قبلكم ، وقُدِّمنا في القرآن عليكم ، فقال تبارك وتعالى : « وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ » . فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار ، إخواننا في الدين وشركاؤنا في النية . وأنصارنا على العدو . أما ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل ، وأنتم أجدر بالشاء من أهل الأرض جميعاً . فأما العرب فلن تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحَيِّ من قريش ، فمنا الأمراء ومنكم الوزراء . . هناك استشاط أحد الأنصار غضباً وقام فقال : أنا جُذَنُلها المحكك وعُدَّ نِقْسُها المَرَجَب ، منا أمير ومنكم أمير يامعشر قريش . قال أبو بكر : بل منا الأمراء ومنكم الوزراء ، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين ، فبايعوا أيهما شقتم ؛ وأخذ بيد عمر بن الخطاب وبيد أبي عُبَيْدَةَ بن الجراح وهو

جالس بينهما . هنالك كثر اللغظ وارتفعت الأصوات وخيف الاختلاف ؛
فنادى عمر بصوته الجهورى : ابسُطْ يدك يا أبا بكر . فبسط أبو بكر يده
فبايعه عمر وهو يقول : ألم يأمر النبي بأن تصلى أنت يا أبا بكر بالمسلمين ؟
فأنت خليفته ؛ ونحن نبايعك فبايع خير من أحب رسول الله منا
جميعا ، . ومست هذه الكلمات قلوب الحاضرين من المسلمين أن كانت
معبرة حقاً عما ظهر من إرادة النبي حتى هذا اليوم الأخير الذى رآه الناس
فيه ، ففضى ذلك على ما بينهم من خلاف ، وأقبلوا فبايع المهاجرون ثم بايع
الأنصار .

بيعة أبي بكر
بالسقيفة

وإذ كان الغد من ذلك اليوم ، جلس أبو بكر على المنبر وتقدم ابن
الخطاب فتكلم قبل أبي بكر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إني قد قلت لكم بالأمس
مقالة ما كانت مما وجدتها فى كتاب الله ولا كانت عهداً عهدته الى رسول الله ،
ولكنى قد كنت أرى أن رسول الله سيدبر أمرنا ويبقى ليكون آخرنا . وإن
الله قد أبقى فيكم كتابه الذى به هدَى رسوله . فان اعتصمتم به هذا كم الله لما
كان هداه له . وإن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله (صلى الله
عليه وسلم) وثانى اثنين إذ هما فى الغار : فقوموا فبايعوه . فبايع الناس
أبا بكر بيعة العامة بعد بيعة السقيفة .

بيعة العامة
بعد بيعة
السقيفة

وقام أبو بكر بعد أن تمت البيعة فألقى فى الناس هذا الخطاب الذى
يعتبر آية من آيات الحكمة وفصل الخطاب . قال رضى الله عنه بعد أن حمد
الله وأثنى عليه : « أما بعدُ أيها الناس فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم .
فان أحسنتُ فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى . الصدق أمانة ، والكذب خيانة ،
والضعيف فيكم قوىّ عندى حتى أريح عليه حقه إن شاء الله ، والقوىّ فيكم
ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله . لا يدع قوم الجهاد فى سبيل
الله إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمهم الله بالبلاء .

خطاب أول
الخلفاء
الراشدين

أطيعوني ما أطعت الله ورسوله . فان عصيتُ الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم .
قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله . .

وبينا المسلمون يختلفون ثم يتفقون على بيعة أبي بكر بيعة السقيفة ثم
بيعة العامة ، كان جثمان النبي حيث كان على سرير موته يُحيط به الأقربون من
أهله . فلما تمت البيعة لأبي بكر أقبل الناس على جهاز رسول الله كي يدفوه .
وقد اختلفوا فيما بينهم أين يدفن : قال جماعة من المهاجرين : يُدفنُ في مكة
مسقط رأسه وبين أهله . وقال غيرهم : بل يدفن في بيت المقدس حيث دُفن
الانبياء قبله . وما أدري كيف قال أصحاب هذا الرأي وبيت المقدس كان
ما يزال بأيدي الروم ، وكان بين الروم والمسلمين من العداوة منذ موته ما جهز
رسول الله جيش أسامة للتأرله . ولم يرض المسلمون هذا الرأي ولا هم رضوا
أن يدفن النبي بمكة ، ورأوا أن يدفن بالمدينة التي آوته ونصرته والتي استظلت
قبل غيرها بلواء الاسلام . وتحدثوا أين يدفن ؟ قال فريق منهم : يدفن
بالمسجد حيث كان يخطب الناس ويعظهم ويصلي بهم ؛ ورأى هؤلاء أن يدفن
حيث المنبر أو الى جانبه . لكن هذا الرأي لم يلبث أن رُفض لما رُوي عن
عائشة أن النبي كان عليه رداء أسود حين اشتد به وجعه فكان يضعه مرة على
وجهه ويكشفه مرة عنه وهو يقول : قاتل الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم
مساجد ! ثم قضى أبو بكر بين الناس إذ قال : إني سمعت رسول الله صلى الله
عليه وسلم يقول : ما قبض نبيٌ إلا دفن حيث يُقبض . وبذلك تقرر أن يحفر
له مكان الفراش الذي قبض فوقه .

وتولى أهله الأقربون وفي مقدمتهم علي بن أبي طالب والعباس بن
عبد المطلب وولداه الفضل وقُثم وأسامه بن زيد غسل النبي . وكان أسامة
ابن زيد وشُقران مولى النبي هما اللذان يصبان الماء عليه وعلى يغسله وعليه
قميصه ؛ فقد أبوا أن يرفعوا عنه القميص . وكانوا أثناء ذلك يجردون به طيباً

أين يدفن
جثمان الرسول

غسل النبي

حتى كان على يقول : بأبي أنت وأمي اما أطيعك حياً وميتاً! . ويذهب بعض المستشرقين إلى أن هذه الرائحة الذكية ترجع إلى ما اعتاد النبي طوال حياته من التطيب حتى كان يرى الطيب بعض ما حُبِّب إليه من هذه الحياة الدنيا . فلما فرغوا من غسله وعليه قميصه كُفِّن في ثلاثة أثواب ثوبين صُحَّارين و بُرِدَ حَبْرَةَ أدرج فيه إدراجا . ولما تمَّ الجهاز على هذا النحو تُرِكَ الجثمان حيث كان وفتحت الأبواب للمسلمين يدخلون من ناحية المسجد يطوفون يُلقون على نبيهم نظرة الوداع ويصلون على النبي ثم يخرجون وقد هوى الحزنُ بنفوسهم إلى قرار سحيق .

وداع الجثمان
الطاهر

وامتلأت الحجرة حين دخل أبو بكر وعمر يصليان مع المسلمين لا يؤتمهم في صلاتهم هذه أحد . فلما استوى الناس بالمكان وقد علاهم الصمت قال أبو بكر : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته . نشهد أن نبي الله ورسوله قد بلغ رسالة ربه وجاهد في سبيله حتى أتم الله النصر لدينه ، وأنه وفي بوعدة ، وأمر ألا نعبد إلا الله وحده لا شريك له . وكان المسلمون يجيئون عند كل جملة من كلام أبي بكر في هيبة وخشوع : آمين آمين . فلما فرغ الرجال من صلاتهم وخرجوا أدخل النساء ثم أدخل الصبيان من بعدهم . وهؤلاء وأولئك جميعاً كلُّ واحدٍ واجف قلبه محزون فواده يفري الأسى كبده لفراق رسول الله خاتم النبيين ، وتساوره على دين الله أشد الخشية من بعده . وإني لأستعيد الساعة بعد أكثر من ألف وثلاثمائة سنة من ذلك اليوم

من ساعات
التاريخ الرمزية

صورة هذا المشهد الرهيب المهوب فتمتلىء نفسى هيبة وخشوعاً ورهبة . هذا الجثمان المستحى في ناحية من الحجرة التي ستصبح غداً قبراً والتي كانت إلى أمس بساكنها حياة ورحمة ونوراً ، هذا الجثمان الطاهر لذلك الرجل الذي دعا الناس إلى الهدى والحق وكان لهم المثل الأعلى في البر والرحمة والاقدام والهدى وإنصاف المظلوم والانتصاف من كل معتمد أثيم ، وهذه الجموع تمر

به كاسفة البال كسيرة الطّرف، وكلّ رجل وكل امرأة وكل صبيّ يذكر في هذا الرجل الذي اختار جوار ربّه أباه وأخاه وصاحبه ووفية ونبيّ الله ورسوله. أية قداسة كانت تمتلئ بها تلك القلوب العامرة بالايان الممتلئة إشفاقاً لما يخبأ الغد بعد موت الرسول. أستعيد الساعة صورة هذا المشهد الرهيب فأراني شاخصاً له مأخوذاً به ممتلئ القلب من جلال هيئته أكاد لا أجد إلى الانصراف عنه سيلاً.

تليل عقائد
المستضعفين

وكان من حقّ المسلمين ان تساورهم الخشية. فنذ ذاع خبر موت النبيّ في المدينة وتراى إلى قبائل العرب المحيطة بها اشرأت اليهودية والنصرانية ونجم النفاق وتبلبت عقائد المستضعفين من العرب وهم أهل مكة بالرجوع عن الاسلام، بل أرادوا ذلك، حتى خافهم عتّاب بن أسيد عامل النبيّ على أم القرى فتواري منهم. ولولا أن قام سهيل بن عمرو بينهم فقال بعد أن ذكر وفاة النبيّ: إن ذلك لم يزد الاسلام إلا قوة، فمن رابنا ضربنا عنقه، ثم قال: يا أهل مكة كنتم آخر من أسلم، فلا تكونوا أول من ارتد، والله ليؤمن الله عليكم هذا الأمر كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، لما رجعوا عن رديتهم. وقد كان للعرب في حفر قبورهم طريقتان: إحداهما لأهل مكة يحفرون القبر مُسطّح القاع؛ والأخرى لأهل المدينة يحفرونه مقوّساً. وكان أبو عبيدة ابن الجراح يضرّح كحفر أهل مكة، وأبو طلحة زيد بن سهل هو الذي يحفر لأهل المدينة. وحار أهل النبيّ أي الطريقتين يسلكون في حفر قبره. فبعث عمه العباس رجلين يدعو أحدهما أبا عبيدة ويدعو الآخر أبا طلحة. فأما المبعوث إلى أبي عبيدة فلم يعد به وجاء المبعوث إلى أبي طلحة به فلدّ رسول الله على طريقة أهل المدينة. فلما كان المساء وبعد أن مرّ المسلمون بالجثمان الطاهر وودّعوه الوداع الأخير اعتزم أهل النبيّ دفنه، فانتظروا حتى مضى هزيع من الليل وفرشوا القبر برداء أحمر كان النبيّ يلبسه، ثم أنزله الذين تولّوا غسله

دفن النبي

إلى المقبر الأخير لرفاته وبنوا فوقه باللين وأهلوا التراب فوق القبر . قالت عائشة : ما علنا بدفن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سمعنا صوت المساحي من جوف الليل ، وقالت فاطمة مثل هذا القول . وكان دفنه ليلة الأربعاء الرابع عشر من شهر ربيع الأول ، أي بعد يومين من اختياره الرفيق الأعلى .

عائشة وحجرة
القبر

وظلت عائشة من بعد ذلك تعيش بمنزلها في الحجرة المجاورة لحجرة القبر سعيدة بهذا الجوار الكريم . ولما مات أبو بكر دفن الى جوار النبي ، كما دُفن عمر الى جواره من بعد . ويُروى أن عائشة كانت تزور حجرة القبر سافرة إلى أن دفن عمر بها إذ لم يكن بها الى يومئذ غير أبيها وزوجها . فلما دُفن عمر كانت لا تدخل إلا محتجة لابسة كامل ثيابها .

ولم يكد المسلمون يفرغون من جهاز رسول الله ودفنه حتى أمر أبو بكر أن يُنفذ جيش أسامة لغزو الشام تنفيذاً لما كان قد أمر رسول الله به . وقد أبدى بعض المسلمين من الاعتراض على ذلك ما أبدوا أيام مرض النبي . وانضم عمر الى المعترضين ورأى ألا يشتت المسلمون وأن يحتفظ بهم في المدينة مخافة أمر قد يدعو اليهم . لكن أبا بكر لم يتردد برهة في تنفيذ أمر الرسول ، ورفض أن يستمع الى قول الذين أشاروا بتعيين قائد أسن من أسامة وأكثر منه في الحرب دُرْبَة . وتجهز الجيش عند الجرف وأسامة على رأسه ، وخرج أبو بكر يودعه . هنالك طلب الى أسامة أن يعنى ابن الخطاب من الذهاب معه ليبقى بالمدينة يشير على أبي بكر . ولم تمض عشرون يوماً على مسيرة الجيش حتى أغار المسلمون على البلقاء وحتى انتقم أسامة للمسلمين ولأبيه الذي قُتل بمؤتة أشد انتقام . وقد كانت صحيحة الحرب في تلك الأيام المظفرة : « يامنصور أمت » . وكذلك نفذ أبو بكر و نفذ أسامة أمر النبي وعاد بالجيش الى المدينة تمتطياً الجواد الذي قتل أبوه بمؤتة عليه ، يتقدمه اللواء الذي عقده له رسول الله بيده .

إنفاذ جيش
أسامة

الأنبياء
لا يورثون

ولما قبض النبي طلبت فاطمة ابنته إلى أبي بكر أن يردها عليها ما ترك من أرض بقدك وخيبر . لكن أبا بكر أجابها بقول أيها : « نحن معاشر الأنبياء لا نُورث ما تركناه صدقة » . ثم قال لها : فأما إن كان أبوك قد وهبك هذا المال فاني أقبل كلتك في ذلك وأتقذ ما أمر به . وأجابت فاطمة بأن أباها لم يفض إليها بشيء . من ذلك ، وإنما أخبرتها أم أيمن بأن ذلك كان قصده . عند ذلك أصر أبو بكر على استبقاء قدك وخيبر وردهما إلى بيت مال المسلمين .

الميراث
الروحي العظيم

وكذلك خرج محمد من هذه الحياة الدنيا لم يترك شيئاً من عرَضها الزائل لأحد بعده ، خرج منها كما دخل إليها وقد ترك فيها للناس هذا الدين القيم ، ومهد فيها لهذه الحضارة الاسلامية الكبرى التي تفتي العالم ظلالتها من قبل وستفتي ظلالتها من بعد ، وأقر فيها التوحيد ، وجعل فيها كلمة الله العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، وقضى فيها على الوثنية في كل صورها ومظاهرها القضاء المبرم ، ودعا الناس فيها أن يتعاونوا على البر والتقوى لا على الأثم والعدوان ، وترك من بعده كتاب الله هدى للناس ورحمة ، وكان فيها المثل الأسمى والأسوة الحسنة . وكان من آخر ما ضربه للناس من الأمثلة أن قال للناس يوم كلمهم أثناء مرضه : « أيها الناس من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقد مني ، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليستقد منه ، ومن أخذت له مالا فهذا مالي فليأخذ منه ، ولا يخش الشحاء فهي ليست من شأنى » . وادعى عليه رجل ثلاثة دراهم فأعطاه عوضها ، ثم ترك العالم بعد ذلك مخلفاً هذا الميراث الروحي العظيم الذي ما يزال ينتشر في العالم حتى يتم الله كلمته وينصر دينه على الدين كله ولو كره الكافرون .

صل الله عليه
وسلم

صلى الله عليه وسلم .

خاتمة الكتاب

أرجو أن أكون قد وفقت إلى تحقيق ما قصدت إليه من تأليف هذا الكتاب ، وأن يكون قد تم كما أردت بحثاً علمياً توخيت فيه الحقيقة العلمية وحدها ، وأن أكون قد مهدت به السبيل إلى مباحث في موضوعه أكثر استفاضة وعمقاً تجلوا أمام العلم من المسائل النفسية والروحية ما يهدى الانسانية طريقها إلى الحضارة الجديدة التي تلتبسها . فهذا الكتاب ليس إلا بداية البحث من ناحية علمية إسلامية في هذا الموضوع الجليل . وما أشك في أن التعمق فيه يكشف عن أسرار كثيرة ظن الناس زمناً أن لا سبيل إلى تعليلها تعليلاً علمياً ثم إذا مباحث علم النفس تفسرها وتجلوها واضحة للمتعمقين . فحياة محمد حياة إنسانية بحتة بلغت أسمى ما يستطيع الانسان أن يبلغ . ولقد كان صلى الله عليه وسلم حريصاً على أن يقدر المسلمون أنه بشر مثلهم يوحى اليه ، حتى كان لا يرضى أن تنسب اليه معجزة غير القرآن ، ويصارع أصحابه بذلك . لما جهد المسلمون عطشاً أثناء مسيرة جيش العسرة إلى غزوة تبوك ثم أمطرتهم السماء ، ذهب بعضهم اليه يقول إنها معجزة ، فكان جوابه : « إنما هي سخاية مارة » . ولما كسفت الشمس يوم اختار الله ابنه إبراهيم إلى جواره قال الناس : إن هذا الكسوف معجزة ، فكان جوابه : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت إنسان ولا لحياته » . ذلك بأنه يريد ألا يعبد أحد إلا الله ، وأن يقف المسلمون من أمر الرسول عند محبته وإجلاله والصلاة والسلام عليه . وذلك مادعا أبا بكر حين خطب الناس إثر وفاة النبي ، والناس مختلفون أممات أم لم يميت ، إلى أن يقول : « من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت » .

وهذا الذي جرى عليه النبي وقال به أبو بكر يوم وفاته هو ما حال بين

كثير من علماء المسلمين وكتابهم والوقوف عند ما أضيف إلى سيرة النبي من خوارق وضعها بعض الغلاة مضاهاة لما ورد في القرآن عن عيسى وموسى ، أو دستها من دسوا الاسرائيليات على الاسلام وتبنيه ليزيفوا بها العقائد وليعشوا بها الشك إلى نفوس من يؤمنون بأن سنة الله لن تجد لها تبديلا . وما كان محمد بحاجة إلى الخوارق لاثبات رسالته وقد كانت حياته قبل الرسالة مضرب المثل في الصدق والكرامة والأمانة ، وكانت حياته بعد الرسالة كلها التضحية في سبيل الله وفي سبيل الحق الذي بعثه الله به ، تضحية استهدفت فيها حياته للموت مرات ، بعد أن أغراه قومه بالمال وبالملك وبكل المغريات . وما كان محمد بحاجة إلى الخوارق لاثبات رسالته ، ولا كان بحاجة إلى أكثر مما قال لعنه أبي طالب حين مشى إليه قريش لينهى ابن أخيه عنها ، فلما حدث الشيخ محمداً في ذلك كانت الكلمة التي وجهت التاريخ وجهته قوله : « يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » . ثم احتماله بعد ذلك ما احتمل حتى أظهر الله هذا الأمر .

وقد بلغت هذه الحياة الانسانية من السمو ومن القوة ما لم تبلغه حياة غيرها . وبلغت هذا السمو في نواحي الحياة جميعاً . وما بالك بحياة إنسانية اتصلت بحياة الكون كله من أزله إلى أبده ، واتصلت بخالق الكون بفضل منه ومغفرة . ولولا هذا الاتصال ، ولولا صدق محمد في رسالة ربه ، لرأينا الحياة على كر الدهور تنقن مما قال شيئاً . لكن ألفاً وثلاثمائة وخمسين سنة انقضت وما يزال بلاغ محمد عن ربه آية الحق والهدى . وبحسبنا على ذلك مثلاً واحداً نضربه ؛ ذلك ما أوحى الله إلى محمد أنه خاتم الأنبياء والمرسلين . انقضت أربعة عشر قرناً لم يقل أحد خلالها إنه نبي أو إنه رسول رب العالمين فصدة الناس . قام في العالم أثناء هذه القرون رجال تسنموا ذروة العظمة في

غير ناحية من نواحي الحياة فلم يوهب أحدهم هبة النبوة أو الرسالة . ومن قبل محمد كانت النبوات تترى والرسل يتتابعون ، يندر كل قومه أنهم ضلوا ويرددهم إلى الدين الحق ولا يقول أحدهم إنه أرسل للناس كافة أو أنه خاتم الأنبياء والمرسلين . أما محمد فيقولها فتصدق القرون كلامه . ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وهدى ورحمة للعالمين .

ولقد جاء محمد للناس بدين الحق ، ووضع لهم أساس حضارة هي وحدها الكفيلة بسعادتهم . ليس هذا الأساس اقتصادياً كأساس الحضارة الغربية الحاكمة اليوم . إنما هو أساس رוחى يدعو الانسان إلى حسن إدراك صلته بالوجود ومكانه منه قبل كل شيء . فاذا بلغ من هذا الإدراك حد الايمان دعاه إلى إدامة تهذيب نفسه وتطهير فؤاده ، وتغذية قلبه وعقله بالمبادئ السامية ، مبادئ الاباء والأئمة والأخوة والمحبة والبر والعطف . وعلى أساس هذه المبادئ ينظم الانسان الحياة الاقتصادية . هذا التدرج هو أساس الحضارة الاسلامية كما جاء بها محمد . فهي حضارة روحية أولاً . والنظام الروحي فيها هو أساس النظام التهذيبي أو النظام الخلقى إن شئت . والمبادئ الخلقية هي أساس النظام الاقتصادى ، أو النظام المادى ، فلا يجوز أن يضحي بشيء من هذه المبادئ فى التنظيم الاقتصادى . وأنت ترى أن هذا التدرج يجعل أساس الحضارة الاسلامية يختلف عن أساس هذه الحضارة التى تحكم العالم اليوم وتتحكم فيه أعظم الاختلاف ؛ بل هو على النقيض منه تماماً .

فالنظام الاقتصادى أو المادى هو الأساس الأول للحضارة الغربية . ومن ثم نشأت فى الغرب مذاهب تريد أن تجعل كل شيء فى الحياة خاضعاً لحياة العالم الاقتصادية ، كما أراد غير واحد أن يضع تاريخ الانسانية بوحى ما كان من مدد أو جزر اقتصادى فى أعماها المختلفة . وقواعد الخلق أقيمت وتقام فى كثير من مذاهب الفلسفة الغربية على القواعد النفعية المادية البحتة . أما

المسألة الروحية فهي في نظر أهل هذه الحضارة الغربية مسألة فردية صرفة فلا محل لأن يعنى الناس بجماعة أنفسهم بها . وفي اعتقادى أن هذا التصور للحياة هو الذى جر على الانسانية ما تعاني في العصور الأخيرة من محن . وهو الذى يجعل كل تفكير في منع الحرب وفي توطيد أركان السلام في العالم قليل الجدوى غير مرجو الثمرة . فمادامت صلتى بك أساسها الرغيف الذى آكل أنا أو تأكل أنت ، وقائمة بذلك على أساس القوة الحيوانية في كل منا ، فسيظل كل منا يرقب الفرصة التى يحسن فيها الاحتيال للحصول على رغيف صاحبه ، وسيظل كل منا ينظر للآخر على أنه خصمه لا على أنه أخوه ، وسيظل الأساس الخلقى الكمين في النفس ، يحتجى حتى تدفع الحاجة لظهوره . أساساً حيوانياً بحتاً ، تحركه المنفعة وحدها وتنزلق عليه المعانى الانسانية السامية والمبادئ الخلقية الكريمة ، مبادئ الايثار والمحبة والاخوة ، فلا يكاد يمسكها ولا تكاد تعلق به .

وفي يقينى أن التصور الاسلامى للحضارة هو التصور الجدير بالانسانية الكفيل بسعادتها . ولو أنه استقر في النفوس وحكم الحياة حكم الحضارة الغربية اليوم إياها لتبدلت الانسانية غير الانسانية ، ولانهارت مبادئ يؤمن الناس اليوم بها ، ولقامت مبادئ تكفل معالجة أزمات العالم الحاضر على هدى نورها . فالإيمان أولاً ، والإيمان قبل كل شيء ، هو ما يجب أن يلتزمه الانسان ويستريح اليه ، والإيمان شيء ، والاسلام شيء آخر . قال تعالى في آخر سورة الحجرات : « قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم » . وقال تعالى : « يمينون عليك أن أسلموا قل لا تتموا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين » . والإيمان شعور روحى يحس به الانسان يملاً نفسه كلما اتصل بالكون وفقى في لا نهاية المكان والزمن وامثل الكائنات كلها في نفسه ، وهو مع ذلك

كله ذرة من هذه العوالم تجرى كلها على سنن تمسكها وتسبح كلها بحمد الله :
 بارئها وخالقها . أهو جل شأنه مائل فيها متصل بها ، أم هو مستقل بنفسه منفصل
 عنها ؟ هذه مضاربات جدلية عقيمة تضل ولا تهدي وتضر ولا تنفع . وهي
 بعد لا تزيدنا علماً . « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ، قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا
 أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » . وإذا كنا حتى اليوم لا ندرك ما الكهرياء وإن
 رأينا بأعيننا آثارها ، ولا نعرف ما الأثير وإن عرفنا كيف ينقل على موجاته
 الصوت والصورة ، وكانت تكفيينا هذه الآثار لتؤمن بالكهرياء وبالأثير .
 فما أشدنا غروراً ونحن نشهد كل يوم من بديع صنع الله إذا نحن لم نؤمن به
 حتى نعرف كنهه . تزه جل شأنه عما يصفون . إن غاية ما نعرف أن الزمان
 والمكان وكل ما نصوره لأنفسنا في الوجود أمور نسبية بالنسبة لنا ، إن هي
 إلا أسماء سميناها لنفيد من الحياة خير ما في الحياة . أما في الحق فانها وحدة
 برأها الله وذراًنا فيها لنسير في الأرض ولنطوّرها وتطوّرنا باذن الله أطواراً
 ثم نُرَدُّ إلى عالم الغيب والشهادة يحكم الله فينا بحكمه إنه حكيم حميد .

يوم يؤمن الانسان بهذا ، وهذا هو الحق ، ويجعله أساس حياته ، فقد
 وجب عليه أن يلتمس سته الله في الكون ليجعلها سته ونظامه . ولا سبيل
 إلى معرفة هذه السته إلا بادامة الاتصال بالكون والنظر فيه والتماس العون
 من الله للاهتداء إلى أسراره . إليه تعالى يتجه الانسان بقلبه وروحه ، إياه
 يعبد وإياه يستعين . وهذه هي الصلاة ، وهذا هو الاتصال بالله شكر الله على
 نعمته والتماساً للعون منه أن يهدينا إلى ما نهدى إليه . فاذا أثقل جسمنا وروحنا
 وطفت ماديتنا على إنسانيتنا ، فقد وجب أن تكف جهد الطاقة عما يجعل
 الجسم يثقل الروح ويجعل المادة تطفئ على الانسانية . وذلك هو الصوم . فاذا
 بلغ الانسان من طريق هذه الرياضة الهداية إلى ما يهتدى اليه من سنن الكون
 وأسراره ازداد لاخوانه بنى الانسان حباً ، وتحاب بنو الانسان جميعاً في الله

وتعاونوا على البر والتقوى، ورحم قويمهم ضعيفهم، ونزل غنيهم لفقيرهم عن حظ من ماله. وتلك هي الزكاة، والمزيد عليها هي الصدقة، وهي تزيد الناس محبة بعضهم لبعض وتدعوهم ليجتمعوا من أطراف الأرض ليزداد بعضهم لبعض في الله محبة. وخير مكان يجتمعون حوله إنما هو بيت الله بمكة. وهذا هو الحج. وهذه قواعد الاسلام وفرائضه على ما نزل به الوحي وما بينه محمد عبد الله ورسوله.

النفس الراضية المطمئنة إلى هذا الايمان لا تستريح دون الدأب لمعرفة أسرار الكون وسنته ليزداد اتصالاً بالله. وسيلها في هذه المعرفة البحث والنظر في خلق الله مما في الكون نظراً علمياً دعا القرآن إليه وجد المسلمون الأولون فيه، وهو الآن الطريقة العلمية الحديثة في الغرب. وكلما ازداد المؤمن معرفة لهذه الأسرار أقام على أساس إيمانه ومعرفته مبادئ الخلق التي يحمل نفسه عليها في الحياة. وقد جاء في القرآن الكريم من هذه المبادئ أمثلاً وأسماءها كما كان مثل محمد في حياته على ما رأيت غاية ما تطمح إليه النفس وترجو بلوغه. فاذا حلت هذه المبادئ السامية من النفس محل الايمان نظمت على أساسها سلوكها في الحياة وتجارها وأقامت على أساسها قواعد المعاملات الاقتصادية بين الناس.

لست أطمع في هذه الخاتمة أن أصور الحضارة الاسلامية ونظامها.. فهذا التصوير يحتاج إلى بحث مستفيض يستغرق كتاباً في حجم هذا الكتاب أو أكبر منه. وحسبي بياناً لذلك أن أشير إلى أن الربا، وهو أساس الحياة الاقتصادية الحاضرة، قد حرمه الاسلام تحريماً قاطعاً، وأن هذا التحريم للربا قاعدة أساسية للحضارة التي تكفل للعالم سعادته؛ وأن أذكر أن الاشتراكية الاسلامية اشتراكية لم تُبحث بعد، وهي في اقتناعي اشتراكية لا تقوم على أساس من حرب رأس المال ومن نضال الطوائف، وإنما

تقوم على أساس خلقى سام يكفل إخاء الطوائف وتكافلها وتعاونها على البر والتقوى . وإنما قصدت من هذه اللبحة السريعة وهذه الإشارة الموجزة غاية الإيجاز إلى بيان ما فى بحث حياة محمد وتعاليمه من نواحيها المختلفة من خير للانسانية كلها لا للسليين وحدهم ؛ وأن هذا الرجل الذى بعثه الله لهداية الناس كافة ما تزال حياته وما تزال تعاليمه ولما يكشف البحث فيها عن غاية ما أراد الوحي منها . فاذا أنا دعوت ، كما دعوت فى تقديم هذا الكتاب ، إلى التخصص فى هذه الدراسة على الطريقة العلمية الصحيحة . الطريقة التى تريد الحق لوجه الحق وحده ولا ترضى استنباط الحيل ولا خداع الحق ، فأنما أدعو إلى عمل واجب للخير الانسانية كلها إذا أريد توجيهها وجهة الكمال .

ولعل الله يتيح لى حظ المشاطرة بنصيب فى هذه البحوث ، أو يتيح لى القيام بدراسة بدائية فى بعضها ، كما قت بهذه الدراسة البدائية فى حياة محمد ، وأن يجعل لى من الغبطة والسعادة بدراساتى المقبلة ما أفاء على من سعادة وغبطة بالبحوث التى أدت إلى وضع هذا الكتاب . إنه سميع مجيب .

شكر واعتذار

لما صح عزمي على طبع هذا الكتاب بعد أن راجعت مواده وصحتها وأضفت إليها وحذفت منها ، فكرت في أن أجعل منه حظاً للفقراء والمحتاجين شكر الله على توفيقه إياي في وضعه وطبعه . وأردت أن أشرك في زكاة الشكر هذه رجلاً أقدر بمجهوده وأعرف بره بالفقراء وذوى الحاجات ، ذلك الرجل هو زعيم مصر الاقتصادي العظيم طلعت باشا حرب مدير بنك مصر وشركاته الأربعة عشر ، فذهبت إليه وذكرت له ما صح عزمي عليه من طبع عشرة آلاف نسخة تكون الطبعة الأولى على أن أجعل ألفاً منها للجمعية الخيرية الإسلامية ، وطلعت باشا من كبار أعضائها ، وطلبت إليه أن أطبع الكتاب بمطبعة مصر . فلم يتردد الرجل في أن يبدل لي من مختلف صور العون غاية ما رجوت . فشكراً له على صنيع كان له فضل معاونتي أكبر المعاونة في الاسراع إلى إصدار الكتاب ، وشكراً له على ما شاركني في هذه المعاونة القيمة للجمعية الخيرية الإسلامية . جزاه الله عن صالح مجهوده وعظيم عمله في سبيل وطنه وفي سبيل الله خير الجزاء .

و كنت أحسب أني أستطيع طبع الكتاب في ستة أسابيع . لكن أناقة محمود بك خاطر مدير مطبعة مصر وحرصه على أن يظهر الكتاب في خير ثوب له ، جعلاني أطمئن إلى أناة ربما أقلقت بعض الذين عاونوا على طبع الكتاب بالاشتراك فيه قبل ظهوره ، وبذلك أناحت إخراج الكتاب في هذا الثوب الذي أعجبني ويعجب القراء . فلطبعة مصر ولحمود بك خاطر أجزل الشكر على ما صنعوا .

ولقد ذكرت في تقديم الكتاب ما عاونني به الأستاذ عبد الرحيم محمود المصحح بدار الكتب أثناء تأليف الكتاب حين كان يستعير لي الكتب من

دار الكتب من غير حاجة منى إلى الذهاب إليها . وليس يسيراً على أن أفيه
في هذه الكلمة حقه من الشكر على معاونته إياى فى تصحيح الكتاب أثناء
طبعه ، وفى ضبط الأعلام والآيات القرآنية : حتى ما أحسب القارى يقع على
خطأ مطبعى يقف عنده . ولئن بقيت بعض هفوات لا تخفى فليس يستحق
التنبه عليه منها إلا خطأ نأسف لعدم التنبه إليه ، وذلك فى آخر كلمة فى السطر
العاشر من الصفحة ٥٣ . فقد وردت كلمة (البلد) وصحتها (بلدأ) فى آية :
« وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدأ آمناً الخ ، .

ويرجع الفضل فى تنسيق الصحف الأولى من الكتاب إلى فن
الأساتذة الخطاطين محمد حسنى وسيد إبراهيم ومصطفى بك غزلان .
فلحضراتهم جزيل شكرى .

وقد اشترك فى وضع فهارس الأعلام كل من حضرات الأساتذة
الشيخ احمد عبد العليم البردوانى ، وعلى احمد الشهداوى افندى ، وإبراهيم
الايارى افندى . وعبد الحفيظ شلبى افندى المصححين بالقسم الأدبى بدار
الكتب المصرية .

ولو أتى أردت أن أشكر كل من عاونتى فى طبع هذا الكتاب لما
أمنت أن يحىى النسيان على بعضهم . لكنى مع ذلك لا أستطيع أن أغفل
الأستاذ على فوده الذى كان عونى وعون الأستاذ عبد الرحيم محمود . وأعتذر
لسائر من عاونونى عن عدم ذكر أسماهم وأشكرهم .

وأحمد الله وأرجو أن يوفقنا إلى الخير وإلى حسن أداء واجبتنا
فى الحياة .

محمد حسين خليل
٦

فهرس

فصول الكتاب

- صفحة
١
تقديم الكتاب - محمد عليه الصلاة والسلام
- الامبراطورية الاسلامية الأولى - الاسلام والمسيحية - المسلمون
وعيسى - الروم والمسلمون - علم الغرب وأدبه - جهود التمدن الاسلامى -
المبشرون والجامدون - كيف فكرت فى وضع هذا الكتاب .
- ٢٦
الفصل الأول - بلاد العرب قبل الاسلام
- مهذ الحضارة الأولى - اليهودية والمسيحية - الفرق المسيحية وتناحرها
بجوسية فارس - شبه جزيرة العرب - طريقا القوافل فيها - اليمن
وحضارتها - بقاء شبه الجزيرة على الوثنية .
- ٤٦
الفصل الثانى - مكة . والكعبة . وقريش
- موقع مكة - ابراهيم واسماعيل - قصة الفداء والذبح - زمزم -
زواج اسماعيل من جرم - بناء الكعبة - ولاية جرم أمر مكة - قصى
وأولاده - اجتماع أمر مكة لقصى القرشى - هاشم وعبد المطلب - وظائف
مكة الزمنية والدينية - الحاج إلى الكعبة - قصة أبرهة والفيل - عبد الله
ابن عبد المطلب - قصة فدائه .

الفصل الثالث - محمد . من ميلاده إلى زواجه

زواج عبد الله من آمنه - وفاة عبد الله - مولد محمد - رضاعه في
 بنى سعد - قصة الملكين - مقامه خمس سنوات بالبادية - موت آمنه -
 كفالة عبد المطلب لإياه - موت عبد المطلب - كفالة أبي طالب لإياه -
 خروجه الى الشام في الثانية عشرة من عمره - حرب الفجار - يرعى الغنم -
 خروجه في تجارة خديجة الى الشام - زواجه من خديجة .

الفصل الرابع - من الزواج إلى البعث

صفة محمد - بناء المكين الكعبة - حكم محمد بينهم في الحجر الأسود -
 حكام قريش والوثنية - أبناء محمد وبناته - موت أبنائه - زواج بناته -
 ميل محمد للعزلة - تحنئه في حراء - الرؤيا الصادقة - أول الوحي .

الفصل الخامس - من البعث الى إسلام عمر

حديث خديجة وورقة بن نوفل - فتور الوحي - إسلام أبي بكر -
 المسلمون الأولون - دعوة محمد أهله للإسلام - إغراء قريش شعراءها
 بمحمد - ذكر محمد آلهة قريش بالسوء - سفارة قريش الى أبي طالب - موقف
 محمد من عمه - تعذيب قريش للمسلمين - هجرة المسلمين الى الحبشة - إسلام عمر

الفصل السادس - قصة الغرانيق

عود مهاجرى الحبشة - الغرانيق العلاء - تمسك المستشرقين بقصتها -
 أسانيدهم في ذلك - ضعف هذه الأسانيد - القصة ظاهرة الكذب ينفيها
 التحريض العلي .

الفصل السابع - مساءات قريش

إعلان عمر إسلامه وصلاة المسلمين عند الكعبة - صحيفة المقاطعة - جهود قريش في محاربة محمد - سلاح الدعاية - سحر البيان - جبر النصراني - تأثر قريش بالدعوة الجديدة - الطفيل الدوسي - وفد النصاري - ما منع قريشاً أن يتابع محمداً - المنافسة - الخوف على مكانة مكة - الفرع من البعث .

الفصل الثامن - من نقض الصحيفة إلى الاسراء

فرار المسلمين من مكة إلى شعاب الجبل - عدم اختلاطهم بالناس إلا في الأشهر الحرم - قيام زهير وأصحابه في نقض الصحيفة - وفاة أبي طالب وخديجة - إيذاء قريش محمداً - ذهاب محمد إلى الطائف ورد ثقيف إياه - الاسراء والمعراج .

الفصل التاسع - بيعة العقبة

رد القبائل لمحمد رداً غير جميل - بشار الفوز من ناحية يثرب - صلات اليهود بالأوس والخزرج - إسلام بعض اليربيين - وقعة بعاث . بيعة العقبة الصغرى - مصعب بن عمير - عوده مع الحاج إلى مكة بعد عام . المسلمون من يثرب - بيعة العقبة الكبرى - أنباؤها عند قريش - اتجارها بمحمد كي تقتله - إذنه لمسلمي مكة بالهجرة إلى يثرب .

الفصل العاشر - هجرة الرسول

الأمر بالهجرة - علي في فراش النبي - في غار ثور - الخروج

إلى يثرب — قصة سراقة بن جعشم — مسلو يثرب في انتظار الرسول — دخول محمد المدينة .

١٨٤ الفصل الحادى عشر — أول العهد ييثرب

استقبال يثرب للهاجر العظيم — بناء المسجد ومنزل النبي — تفكير محمد في حرية العقيدة لأهل يثرب جميعاً — يهود المدينة — مؤاخاة محمد بين المهاجرين والأنصار — معاهدته مع اليهود لتقرير حرية الاعتقاد — زواج محمد من عائشة — الأذان للصلاة — مُثُل محمد وتعاليمه — قوة الدين الجديد وخوف اليهود منها — تحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام — وفد نصارى نجران إلى المدينة — التقاء الأديان الثلاثة ييثرب — تفكير المسلمين في موقفهم من قريش .

٢٠٦ الفصل الثانى عشر — السرايا والمناوشات الأولى

تفكير محمد فى أمر قريش — إيفاده السرايا لتخويف قوافلهم — غزوة عبد الله بن جحش فى الشهر الحرام — الاسلام والقتال .

٢٣٠ الفصل الثالث عشر — غزوة بدر الكبرى

خروج أبى سفيان إلى الشام — محاولة المسلمين قطع الطريق عليه — نجاته فى الذهاب — انتظارهم إياه فى أوبته — علم قريش بتجهيز المسلمين — خروجهم إلى بدر — نجاة أبى سفيان بتجارته — تردد قريش والمسلمين فى القتال — زوال التردد — موقف الفريقين فى بدر — حماسة المسلمين وانتصارهم .

الفصل الرابع عشر - بين بدر وأحد

المسلمون واليهود - غزوة نبي قينقاع - جلاء اليهود عن المدينة -
قريش تتحرك - غزوة السَّوِيق - القبائل تتحرك فتفرض هزيمة
صفوان بن أمية .

الفصل الخامس عشر - غزوة أحد

استعداد قريش بمكة - خروجها للغزو - كيف علم محمد به -
تشاور المسلمين في التحصن بالمدينة أو الخروج لملاقاة العدو - انتصار
المسلمين ثم هزيمتهم - خروج النبي من المدينة غداة أحد ليلحق بالمتصدين
فيغزوم - عودُ أبي سُفيان وقريش إلى مكة .

الفصل السادس عشر - آثار أحد

اتجار القبائل المجاورة بالمسلمين - غزوة نبي أسد - أمر الهذلي -
مقتل خبيب وأصحابه بالرجيع - مقتل المسلمين بيئر معونة - إجلاء
نبي النصير عن المدينة - غزوة بدر الآخرة - غزوة دومة الجندل .

الفصل السابع عشر - ازواج النبي

زينب بنت خزيمة وأم سلمة - قصة زينب بنت جحش وكلام
المستشرقين فيها - وقائمه كما يرويها التاريخ الصحيح .

الفصل الثامن عشر - غزوات الخندق وبنى قريظة

حي بن أخطب وتآليه العرب جميعاً على المسلمين - عشرة آلاف

صفحة
مقاتل يقصدون المدينة - سلمان الفارسي يشير بحجر الخندق حولها -
حصار قريش وغطفان إياها - تقض بنى قريظة عهدهم مع المسلمين -
ضياع الثقة بين العرب واليهود - انسحاب العرب عن المدينة - محاصرة
بنى قريظة والقضاء عليهم بالقتل .

٣١١ الفصل التاسع عشر - من الغزواتين الى الحديبية

المرأة والرجل في الاسلام - غزو بنى لحيان - قتل عينة بن
الأقرع - غزو بنى المصطلق - حديث الافك .

٣٣٢ الفصل العشرون - عهد الحديبية

بعد ست سنوات بالمدينة - دعوة محمد الناس للحج - لا قتال ولا
حرب - قريش تقرر الحيلولة بين المسلمين ودخول مكة - مفاوضات
الصلح - أناة محمد وسياسته - عهد الحديبية فتح مدين .

٣٤٩ الفصل الحادى والعشرون - خيبر والرسل الى الملوك

الاسلام والتنظيم الاجتماعى - تحريم الخمر - رسل محمد الى الملوك
والأمراء - المسلمون واليهود - غزوة خيبر - القضاء الأخير على سلطة
اليهود - رد الملوك على رسل النبي - فى انتظار عمرة القضاء .

٣٦٧ الفصل الثانى والعشرون - عمرة القضاء

ركب المسلمين الى مكة - جلاء قريش عن مكة - نزول المسلمين بها
طواف محمد وهروثه - زواج محمد من ميمونة - رغبته الى قريش أن يعرس
بمكة ورفضهم ذلك - إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة

الفصل الثالث والعشرون — غزوة مؤتة

اتجاه نظر محمد الى الشام — توجيهه ثلاثة آلاف لغزوها — لواؤهم
لزيد بن حارثة ، فان أصيب فلجعفر بن أبي طالب ، فان أصيب فلعبد الله
ابن رواحة على الناس — الروم في مائة ألف أو مائتي ألف — التقاء
الجيشين بمؤتة — موت الثلاثة أصحاب اللواء على التعاقب — الراية لخالد بن
الوليد — مناورته وانسحابه .

الفصل الرابع والعشرون — فتح مكة

أثر موقعة مؤتة — نقض قريش عهد الحديبية — استعداد خزاعة
النبي على قريش — سفارة أبي سفيان إلى النبي وفشلها — تجهز المسلمين
عشرة آلاف يسرون إلى مكة — رجاء محمد أن يفتح أم القرى من غير
إراقة للدماء — وفود العباس ثم وفود أبي سفيان إليه بظاهر مكة — دخول
المسلمين فاتحين — المكيون الذين تحرشوا بجيش خالد بن الوليد — عفو
محمد عن خصومه جميعاً — تطهير الكعبة من الأصنام — إسلام أهل مكة .

الفصل الخامس والعشرون — حنين والطائف

تألب هوازن وثقيف بامرأة مالك بن عوف — تحصنهم بمضيق
وادي حنين — خروج المسلمين إلى حنين تعجبهم كثرتهم — دخول المسلمين
من مضيق الوادي في عمماية الصبح — ضرب هوازن وثقيف إياهم من
المرتفعات وارتدادهم منهزمين — ثبات محمد إلى الموت — صياح العباس
بالمسلمين كي يعودوا — عودهم إلى رسول الله ومقاتلتهم وانتصارهم — النهي
المسيرة إلى الطائف — حصارها وعدم إمكان اقتحامها — تحريق نخيلها —

استرحاها النبي - رجوعه من الحصار - إسلام هوازن - حديث
الشيء - العود إلى الجعرانة وقسمة الفيء - العمرة - العود إلى المدينة .

٤١٠ الفصل السادس والعشرون - إبراهيم ونساء النبي

العود إلى المدينة - بانت سعاد - وفاة زينب - مولد إبراهيم -
غيرة نساء النبي من مارية - مظاهرة حفصة وعائشة - حديث المغابير -
مارية في دار حفصة - هجر النبي نساءه شهراً - حديث عمر مع النبي -
سورة التحريم .

٤٢٣ الفصل السابع والعشرون - تبوك وموت إبراهيم

الخراج وجبايته - أبناء تهيؤ الروم - نفي محمد في المسلمين لتيهوا
للقتال بالشام - الخوارج المنافقون - شدة محمد معهم - الجيش العرم
في لظى الطريق إلى الشام - انسحاب الروم خوفاً من محمد - عهده ليوحنا
ولأمراء الحدود - العود إلى المدينة - مرض إبراهيم - وفاته وبكاء
محمد إياه .

٤٣٦ الفصل الثامن والعشرون - عام الوفود وحج أبي بكر بالناس

دخول العرب أفواجاً في دين الله - إسلام عروة بن مسعود الثقفي
وقتل أهل الطائف له - أخذ القبائل المجاورة الطريق على ثقيف - وفدها
إلى النبي وشروطه - إسلام الوفد وإسلام الطائف وهدم صنمها اللات -
حج أبي بكر بالناس - لحاق علي بن أبي طالب به - سورة براءة - أساس
الدولة الإسلامية المعنوية - الجهاد في الإسلام وتسويغه .

الفصل التاسع والعشرون - حجة الوداع

٤٥٣

محمد وأهل الكتاب - موقفه من النصارى - مجادلته لإيهم - وحدة موقف محمد منهم - بعث على بن ابى طالب إلى اليمن - دعوة محمد الناس للحج ومجيئهم إلى المدينة من كل صوب - مسيرتهم فى نحو مئة ألف إلى مكة مناسك الحج - خطبة محمد .

الفصل الثلاثون - مرض النبى ووفاته

٤٦٥

تفكيره فى غزو الروم - جيش أسامة - بدء مرض النبى - ذهابه إلى مقابر المسلمين وصلاته على أهل حنين - شكواه من وجع رأسه - الحمى - أمره أبا بكر أن يصلى بالناس - صحو الموت - اختيار الرفيق الأعلى .

الفصل الحادى والثلاثون - دفن الرسول

٤٧٨

اختلاف المسلمين هل مات محمد - عمر يخطب الناس بأنه لم يميت - أبو بكر يعود فيخطبهم بأنه مات ويتلو عليهم القرآن - اقتناع المسلمين بقول أبى بكر - خوف الخلاف فيمن يقوم بأمر المسلمين - بيعة السقيفة ثم البيعة العامة لأبى بكر - تجهيز النبى وغسله - مرور الناس به رجالاتهم فصياناً - دفنه حيث قبض - إنفاذ جيش أسامة إلى الشام وانتصاره - آخر ما قال الرسول صلى الله عليه وسلم .

خاتمة

٤٨٩

شكر واعتذار

٤٩٦

فهرس الأعلام

١٢٨، ١٢٥، ٨٨، ٧٢	(١)
ابن الأعرور السلمي - ٣٠٢	آدم (عليه السلام) - ٧٠٥
ابن أم مكتوم الأعمى - ١٤٨، ١٣٨	آمنة بنت وهب (أم النبي صلى الله عليه وسلم) - ٧١، ٦٩، ٦٨، ٦٧
ابن بدهان - ٤٦٧	٢٥٥، ١٦٣، ٧٥، ٧٤، ٧٢
ابن الحويرث = عثمان بن الحويرث	أبان بن سعيد - ٣٤٠
ابن الخطاب = عمر بن الخطاب	إبراهيم عليه السلام - ٤٧، ٤٦، ٥
ابن الدغنة ربيعة (بن رفيع السلمي) -	٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٣
٤٠٢، ٤٠١	٥٤، ٥٥، ٥٦، ٦٣، ١٥٤
ابن رواحة = عبد الله بن رواحة	١٥٩، ١٥٥، ٢٠١، ٢٣٨، ٣٣٢
ابن العاص = عمرو بن العاص	٣٣٥، ٣٩٢، ٤١٣، ٤٥٤، ٤٥٦
ابن عباس (عبد الله) - ١٤٨، ٧٠	إبراهيم الأياري - ٤٩٧
ابن هشام راوى السيرة - ١٧٨، ١٥٦	إبراهيم بن محمد (عليه السلام) -
ابنة حاتم الطائي - ٤١٢	٩١، ٢٨٧، ٣٦٤، ٤٠٩، ٤١٠
أبو أمية بن المغيرة المخزومي - ٨٨	٤١٣، ٤١٤، ٤١٦، ٤٢٣
أبو أيوب خالد الأنصاري - ٣٦١	٤٣٢، ٤٣٣، ٤٣٤
أبو البخترى بن هشام - ٢٣٣، ١٤٧	أبرهة الأشرم - ٣٦، ٤٦، ٦٣
أبو براء عامر بن مالك ملاعب	٦٤، ٦٨
الأسنة - ٢٧٥، ٢٧٤	ابن أبي = عبد الله بن أبي
أبو بصير (عتبة بن أسيد بن	ابن إسحاق (محمد ابن إسحاق) - ٧٠
جارية) - ٣٤٧، ٣٤٦	

١٤٧ ، ١٥٠ ، ٢٠٦ ، ٢١٠ ،
 ٢٢٢ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٣١ ،
 ٢٣٢ ، ٢٣٦
 أبو حذيفة بن عتبة - ٢٣٣
 أبو الحكم = أبو جهل
 أبو حنظلة = أبو سفيان
 أبو الحيسر أنس بن رافع - ١٦٥
 أبو خيثمة - ٤٢٨
 أبو دجاجة - ٢٦٠ ، ٢٦٢ ، ٢٦٥ ،
 ٢٦٦ ، ٢٧٨
 أبو رافع مولى النبي - ٣٧١
 أبو سعد بن أنى طلحة - ٢٦٤
 أبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب -
 ١٠٦ ، ٣٨٥ ، ٤٠٠
 أبو سفيان بن حرب بن أمية - ٦٦
 ٦٧ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ،
 ١٤٠ ، ٢٠٧ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ،
 ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٤٢ ،
 ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ،
 ٢٥٩ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ،
 ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٣ ،
 ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ،
 ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ،

أبو بكر بن أبي قحافة التيمي (رضي
 الله عنه) - ٤ ، ٢١ ، ٩٧ ،
 ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١١٠ ، ١٢١ ،
 ١٥٣ ، ١٦٠ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ،
 ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ،
 ١٨٨ ، ١٨٩ ، ٢٠٠ ، ٢٢٣ ،
 ٢٢٤ ، ٢٢٧ ، ٢٣٨ ،
 ٢٥٢ ، ٢٥٧ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ،
 ٢٧٥ ، ٢٧٩ ، ٢٨٨ ، ٣١٩ ،
 ٣٢١ ، ٣٢٥ ، ٣٣١ ، ٣٣٩ ،
 ٣٤٣ ، ٣٤٧ ، ٣٥٧ ، ٣٧٩ ،
 ٣٨٣ ، ٣٩٥ ، ٤٠٤ ، ٤١٥ ،
 ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢٧ ،
 ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ،
 ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٥٣ ، ٤٥٧ ،
 ٤٦٣ ، ٤٦٧ ، ٤٦٥ ، ٤٧٣ ،
 ٤٧٤ ، ٤٧٦ ، ٤٧٨ ، ٤٧٩ ،
 ٤٨٠ ، ٤٨١ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣ ،
 ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ،
 أبو جندل بن سهيل بن عمرو -
 ٣٤٤
 أبو جهل بن هشام - ١١٠ - ١١٤ ،
 ١١٥ ، ١٣٧ ، ١٤٠ ، ١٤٦ ،

أبو كعب الغفاري - ٢٥٥
 أبو لبابة (بشير بن عبد المنذر) -
 ٣٠٧ ، ٣٠٦ ، ٢٢٣
 أبو لهب عبد العزى بن عبد المطلب -
 ١٠٦ ، ١٠٥ ، ١٠٤ ، ٩١ ، ٦٧
 ٢٤٠ ، ١٥٢ ، ١٤٦ ، ١٠٩
 أبولون - ١١
 أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفي -
 ١٤٠
 أبو مويهبة مولى الرسول - ٤٧٠ ،
 ٤٧١
 أبو نائلة (سلكان بن سلامة) - ٢٤٥
 أبو الهيثم بن التيهان - ١٦٩
 أبنى بن خلف - ٢٦٦
 الشيخ احمد عبد العليم البردوني
 المصحح بدار الكتب المصرية - ٤٩٧
 الأستاذ أحمد لطفى السيد (الموظف
 بدار الكتب المصرية) - ١٩
 الأخنس بن شريق - ١٣٧ ، ١٤٠ ،
 ٣٤٦ ، ٢٢٦
 إدريس (عليه السلام) - ١٥٥
 أربد بن قيس - ٤٥١
 أرطاة بن عبد شرحبيل - ٢٦١

٣٧٢ ، ٣٦٤ ، ٣٤٠ ، ٣١٢
 ٣٨٦ ، ٣٨٤ ، ٣٨٣ ، ٣٨٠
 ٣٩٠ ، ٣٨٩ ، ٣٨٨ ، ٣٨٧
 ٤٦٩ ، ٤٤٠ ، ٤٠٧ ، ٤٠٣ ، ٣٩٩
 أبو سلة بن عبد الأسد - ٢٠٧ ،
 ٢٨٩ ، ٢٧١
 أبو طالب بن عبد المطلب - ٦٧ ،
 ٨٣ ، ٨٢ ، ٧٧ ، ٧٦ ، ٧٥ ، ٦٨
 ١٠٧ ، ١٠٤ ، ١٠٢ ، ١٠١ ، ٩٧ ،
 ١٤٦ ، ١١٦ ، ١٠٩ ، ١٠٨
 ١٥١ ، ١٥٠ ، ١٤٩
 أبو العاص بن الربيع بن عبد شمس -
 ٤١٢ ، ٢٤١ ، ٩١
 أبو عامر عمرو بن صفيى الأوسى -
 ٢٦٩
 أبو عبيدة بن الجراح - ٢٠٤ ، ١٠٣ ،
 ٤٨٢ ، ٣٩٠ ، ٣٧٩ ، ٢٧١ ، ٢٦٦
 ٤٨٦
 أبو عفك - ٢٤٤
 أبو غبشان الخزاعى - ٥٧
 أبو الغيداق - ٢٦٢
 أبو قحافة - ٣٨٩ ، ٣٩٥
 أبو قيس بن الأسلت - ١٦٦

٤٨١، ٣٢٨
 الاشعث بن قيس - ٤٥٧
 الاقرع بن حابس - ٤٠٨، ٤٠٧
 أكيدر بن عبد الملك الكندي
 النصراني - ٤٣٠، ٤٣١
 أم أيمن (حاضنة النبي صلى الله عليه
 وسلم) - ٦٩، ٧٤، ٧٥، ٤٨٨
 أم جميل زوج أبي لهب - ١١٠
 أم حبيبة بنت أبي سفيان أم المؤمنين
 - ٣٨٣، ٣٩٤، ٨٩ -
 أم حكيم بنت الحارث بن هشام -
 ٣٩٤
 أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة أم
 المؤمنين - ٢٨٣، ٢٨٨، ٢٨٩
 - ٢٩١، ٣٢٦، ٣٨٦، ٤٠٤ -
 ٤١٥، ٤١٤
 أم سيف حاضنة إبراهيم ابن الرسول -
 ٤١٣، ٤٣٢
 أم الفضل بنت الحارث زوج
 العباس - ٣٧٠
 أم قصى فاطمة بنت سعد بن سيل -
 ٥٦
 أم كلثوم ابنة الرسول - ٩٠، ٩١

إرفنج - ٢٩٣، ٢٢
 أرباط - ٣٦
 أزهر بن عوف - ٣٤٦
 إساف - ٦١، ٦٢، ١٠٤
 أسامة بن زيد بن حارثة - ٣٢٩،
 ٤٦٥، ٤٦٧، ٤٦٨، ٤٧٠، ٤٧٢، ٤٧٣
 ٤٧٤، ٤٧٥، ٤٧٦، ٤٧٨، ٤٨١، ٤٨٣
 ٤٨٧، ٤٨٤
 إسحاق (عليه السلام) - ٤٨، ٥٠، ٥٢
 أسد بن عبد العزى - ٦٧
 الدكتور إسرائيل ولفنسون - ٢٩٧
 الاسكندر - ١٤١
 أسماء بنت أبي بكر - ١٧٦، ١٧٨
 أسماء بنت عميس زوج جعفر - ٣٧٨،
 ٤٧٥
 إسماعيل (عليه السلام) - ٤٦، ٤٧
 ٤٨، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٣، ٥٥
 ٥٦، ٦١، ٦٣، ٢٠١، ٢٣٥
 الأسود - ٤٤٠
 الأسود بن عبد الأسد المخزومي - ٢٢٨
 الأسود بن عبد المطلب - ٢٥١
 الأسود العنسي - ٤٦٦
 أسيد بن حضير - ١٨١، ٢٥٨، ٢٧١

(ب)

- بارتلى - ۱۱
بازان - ۳۶۳
باقوم الرومى - ۸۷
بيلياندر - ۱۱
بحير بن زهير - ۴۱۱
بحيرا الراهب - ۷۶
بدهان - ۴۶۶، ۴۶۵
بديل بن ورقاء - ۳۸۷، ۳۸۳، ۳۳۸
البراء بن معرور - ۱۶۹
البراض بن قيس الكنانى - ۷۸
بريدة شيخ نبى سهم - ۱۸۰
بريدو - ۱۱
بشر بن البراء - ۳۶۱، ۳۶۰
بشر القرشى - ۷۸
بلال الحبشى - ۱۹۳، ۱۲۵، ۱۱۰
، ۲۳۱، ۳۲۲، ۳۶۹، ۳۹۳
، ۳۹۷، ۴۷۴
بنت خارجة (حبيبة زوج أبى بكر) -
، ۴۱۵
بنت مضاى بن عمرو زوج اسماعيل -
، ۵۱
الكونت بولنغليه - ۱۱

۴۱۲، ۲۵۲

- أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط - ۳۴۷
أم هانئ ابنة أبى طالب - ۱۵۳
أمامة بنت زينب ابنة الرسول -
، ۱۹۵
إميل در منجم (المستشرق) - ۱۰
، ۱۲، ۷۳، ۱۵۴، ۱۵۶، ۱۷۷،
، ۲۸۴، ۲۹۳
أميمة بنت عبد المطلب - ۲۹۱
أمية بن أبى الصلت - ۶۶، ۱۰۴
، ۱۰۹، ۱۴۰
أمية بن خلف - ۲۰۷، ۲۲۲، ۲۳۱
، ۲۳۳، ۲۷۳
أمية بن عبد شمس - ۶۷، ۵۹
أنس - ۳۵۱
أنس بن فضالة - ۲۵۵
أنس بن النضر - ۲۶۵
إنوسان الثامن - ۱۱
أهيب بن عبد مناف - ۶۸
أوزوريس - ۲۷
أولار - ۲۲
أياس بن معاذ - ۱۶۵
إيزيس - ۲۷

جوستنيان - ٣٦
 جويرة بنت الحارث بن أبي
 ضرار - ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٥ ،
 ٣٢٦ ، ٣٢٧
 (ح)
 الحارث بن أبي زينب - ٣٥٨ ، ٣٥٧
 الحارث بن أبي شمر - ٤٠٦
 الحارث بن أبي ضرار - ٣٢٦ ، ٣٢١
 الحارث بن أمية - ١٧١
 الحارث الخيري - ٣٥٢ ، ٣٥٣
 الحارث بن الصمة - ٢٦٦
 الحارث بن عبد العزى (زوج
 حليلة السعدية) - ٧١
 الحارث بن عبد المطلب - ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٦
 الحارث بن عوف - ٢٩٨
 الحارث الغساني - ٣٤٩ ، ٣٥٢ ،
 ٣٥٣ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣
 الحارث بن هاشم - ٦٠
 الحارث بن هشام - ٢٥٣ ، ٤٠٧
 حاطب بن أبي بلتعة - ٣٥٣ ، ٣٨٤ ،
 ٣٨٥
 الحباب بن المنذر بن الجوح - ٢٢٦ ،
 ٢٢٧ ، ٢٥٥

بيل - ١٠
 بيزر باسكال - ١١
 بيزر (فزابل) - ١١
 (ت)
 القديس تبريها - ٤٣
 ترفافجان - ١١
 تيودر (أخو هرقل) - ٣٧٥
 (ث)
 ثابت بن أرقم - ٣٧٧
 ثابت بن قيس - ٣٠٨ ، ٣٠٩
 ثوية (جارية أبي لهب) - ٧١
 (ج)
 جان داماسين - ١٠
 جانيه - ١١
 جبر النصراني - ١٣٢ ، ١٣٦
 جبير بن مطعم بن عدى - ١٧١ ،
 ٣٥٣ ، ٣٦١
 جييرد نوجن - ١٠
 الجد بن قيس - ٤٢٦
 جعفر بن أبي طالب - ٦٧ ، ١٠٢ ،
 ١١٧ ، ١١٨ ، ٣٦٤ ، ٣٦٦ ، ٣٧٣ ،
 ٣٧٤ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٨٠ ،
 جعفر باشا ولي - ٢٠

حمزة بن عبد المطلب - ٦٧ ، ٦٨ ،

١٢٢ ، ١٢١ ، ١١٥ ، ١١٤ ، ٧١ ،

١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٤٩ ، ١٦١ ،

١٨٨ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢١٠ ،

٢١١ ، ٢١٣ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ،

٢٣١ ، ٢٦٠ - ٢٦٢ ، ٢٦٦ ،

٢٦٧ ، ٢٩٤

حمزة بنت جحش - ٢٢٦ ، ٢٣٠ ،

٢٣١

حُناطة الحميري - ٦٣

حواء - ٥

الحويث (بن تقيذ) - ٣٩٤ ، ٤١٢ ،

حويطب بن عبد العزى - ٢٥٣ ،

٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٤٠٧ ،

الحيسان بن عبد الله الخزاعي -

٢٤٠

حي بن أخطب النضيري - ٢٧٧ ،

٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣٠٠ - ٣٠٤ ،

٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣٥٦ ،

(خ)

خارجة بن زيد - ١٨٨

خالد بن سعيد بن العاص - ٤٣٨

خالد بن سفيان بن نبيح الهذلي -

٢٧٠ ، ٢٧١ ،

خالد بن الوليد - ٢٥٩ ، ٢٦٣ ،

٢٦٦ ، ٢٢٦ ، ٢٣٧ ، ٢٤٢ ،

حَيّ بنت حليل بن حبشية - ٥٧

حبيبة بنت خارجة - ٤١٥ ، ٤٧٦ ،

٤٧٨

حذافة السهمي - ٢٥٣

حرام بن ملحان - ٢٧٤

حرب بن أمية - ٦٧ ،

حُسان (أخو أكيدر بن عبد الملك) -

٤٣٠

حسان بن ثابت - ٢٧٤ ، ٣٠٣ ،

٣٠٤ ، ٣٢٦ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٤١٣ ،

الحسن بن علي - ٦٧ ، ٣٨٣ ،

حسيل بن جابر أبو حذيفة - ٢٦٤

الحضرمي = عامر الحضرمي

حضير الكتاب أبو أسيد - ١٦٥ ،

١٦٦

حفصة بنت عمر بن الخطاب (أم

المؤمنين) - ٢٥٢ ، ٢٨٨ ، ٢٩١ ،

٤١٠ ، ٤١٤ - ٤١٨ ، ٤٢٠ ،

٤٢٢ ، ٤٧٢ ،

الحكم بن كيسان - ٢١٥

حكيم بن حكيم - ٢٨٦

الحليس (سيد الأحابيش) - ٣٣٨ ،

٣٣٩

حليل بن حبشية - ٥٧

حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية -

٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ،

درونی - ۱۱
 درید بن الصمة - ۳۹۸، ۴۰۲
 دکاستری - ۱۱
 دلدل (بغلة الرسول) - ۳۶۴
 دوزی - ۱۱
 دیودور الصقلی - ۵۴
 (ذ)
 ذات النطاقین = أسماء بنت أبی بکر
 ذو نفر - ۶۳
 ذونواس الحمیری - ۳۶، ۳۵
 (ر)
 رباح (مولى الرسول) - ۴۱۹
 ربیعة بن أمیة بن خلف - ۴۶۲
 ربیعة بن البراء - ۲۷۵
 ربیعة بن الحارث بن عبد المطلب -
 ۴۵۷، ۴۶۲، ۴۶۳
 ربیعة بن حرام - ۵۶
 ربیعة بن رفیع = ابن الدغنة
 رقیة بنت محمد علیه السلام - ۹۰
 ۹۱، ۲۳۶، ۲۵۲، ۴۱۲
 مدام ركامیه - ۳۹۱
 رودلف دُلوهَیم - ۱۱
 رولان - ۱۱
 ریحانة (بنت عمرو) - ۲۸۳، ۳۱۰
 ریمون لیون - ۱۱
 رینان - ۱۱، ۲۸۵

۳۶۷، ۳۷۰ - ۳۷۴، ۳۷۷
 ۳۷۸، ۳۷۹، ۳۸۰، ۳۸۱
 ۳۸۹، ۳۹۰، ۳۹۴، ۳۹۵
 ۳۹۶، ۳۹۹، ۴۳۰، ۴۳۱
 ۴۵۸، ۴۶۶، ۴۶۷
 خیب بن عدی - ۲۷۰، ۲۷۳
 ۲۷۴، ۳۱۹
 خدیجة بنت خویلد بن أسد ۶۷
 ۶۸، ۷۴، ۸۲، ۸۶، ۹۰، ۹۱
 ۹۲، ۹۴، ۹۶، ۹۷، ۹۸، ۱۰۰
 ۱۰۱، ۱۰۳، ۱۰۵، ۱۱۰، ۱۴۶
 ۱۴۹، ۱۵۰، ۱۵۳، ۱۶۲، ۱۹۵
 ۲۴۱، ۲۸۲، ۲۸۶، ۲۸۷، ۲۸۹
 ۲۹۱، ۳۸۶، ۴۱۳، ۴۳۳
 الخطاب - ۸۹
 خیس - ۲۵۲
 خوات بن جیر - ۳۰۱
 خویلد بن أسد بن عبد العزی - ۶۷
 ۸۲، ۸۴
 خیمة أبو سعد بن خیمة - ۳۵۷
 (د)
 داود (علیه السلام) - ۱۵۵
 دبرجلی القسیس - ۱۱
 دحیة بن خلیفة الکلبی - ۳۵۲، ۳۶۲
 دراج بن ربیعة بن حرام - ۵۶
 درمنجم = إمیل درمنجم

زينب بنت خزيمة - ٢٨٨ ، ٢٨٣ ،

٢٨٩

زينب بنت الرسول - ٩٠ ، ٩١ ،

٢٤١ ، ٣٩٤ ، ٤١٠ ، ٤١٢ ،

زينب بنت مخزوم - ٢٩١

(س)

سارة (زوج ابراهيم عليه السلام) - ٤٨

٥١ ، ٥٠

سالم بن عمير - ٢٤٤

سان بارتلمي - ٢٤٠

ساتليير - ١١

سباع بن عبد العزى بن الغبشاني

٢٦١

سبرنجر المستشرق - ١١ ، ٢٢ ، ٢١٠ ،

٢٩٣

سراقة بن مالك بن جعشم - ١٧٥ ،

١٧٩ ، ١٨٠

سعد بن أنى سيد بنى قريظة - ٢٥٥ ،

٣٠٤ ، ٣٠٧

سعد بن أنى وقاص الزهرى - ١٠٣ ،

٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١١ ،

٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٢٤ ، ٢٦٤ ،

٢٦٥ ، ٢٧١

سعد بن الربيع - ١٨٩

سعد بن زرارة - ١٨١

سعد بن زيد الأنصارى - ٣١٠

رينو - ١٠

(ز)

الزبير بن باطا القرظى - ٣٠٨

الزبير بن عبد المطلب - ٧٩

الزبير بن العوام - ١٠٣ ، ٢٢٤ ،

٢٦٦ ، ٣٨٤ ، ٣٨٩ ، ٤٨١

زمنة بن الأسود - ١٤٧

زهير بن أبى أمية - ١٤٦ ، ١٤٧ ،

زهير بن أبى سلى - ١٧٣

زهرة بن كلاب - ٥٦

زيد بن حارثة - ٢٢ ، ٩٠ ، ١٠٢ ،

١٥٧ ، ١٨٨ ، ٢٠٧ ، ٢٢٤ ،

٢٣٦ ، ٢٤١ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ ،

٢٧٩ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٩١ ،

٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ -

٣٧٨ ، ٣٨٠

زيد الخيل - ٤١١

زيد بن الدثنة - ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ،

زيد بن سهل أبو طلحة - ٤٨٦

زيد بن عمرو - ٨٩

زيد بن محمد = زيد بن حارثة

زينب بنت جحش - ٢٢ ، ٢٨٣ ،

٢٨٤ ، ٢٨٦ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ -

٢٩٤ ، ٣١٠ ، ٣٢٦ ، ٤٠٤ ،

٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٧

زينب بنت الحارث - ٣٦٠ ، ٣٦١

سهل بن عمرو - ١٨٣ ، ١٨٥
سهيل بن عمرو - ١٨٣ ، ١٨٥
سهيل بن عمرو أبو يزيد - ٢٢٦ ،
٢٤١ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٧
٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٩٠ ، ٤٠٧ ، ٤٨٦
سودة بنت زمعة (أم المؤمنين) -
١٥٣ ، ١٩٢ ، ٢٢٦ ، ٢٨٧
٢٨٨ ، ٢٩١ ، ٤١٦ ، ٤١٧
سويد بن الصامت - ١٦٤ ، ١٦٥
سويلم اليهودي - ٤٢٧
سيد أمير علي - ١٨
سيرين (أخت مارية) - ٣٦٤ ، ٤١٣
٤٣٣ ، ٤٣٤
سيف بن ذي يزن الحميري - ٣٦ ، ٣٧
(ش)
شارلمان - ١١
شاس بن قيس - ١٩٩
شجاع بن وهب الأسدي - ٣٥٣
شرحبيل (عامل هرقل) - ٣٧٤
شعيب (عليه السلام) - ٥٤
شقران (مولى الرسول) - ٤٨٤
شهربراز - ٤
شول - ١١
شبية بن ربيعة - ١٥١ ، ١٥٢ ، ٢٢٨
٢٢٩ ، ٢٣٣
شبية بن عثمان بن أبي طلحة - ٣٩٩

سعد بن عبادة (سيد الخزرج) -
١٧١ ، ٢٠٧ ، ٣٠١ ، ٣٢١
٣٢٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٤٠٨
٤٨١ ، ٤٨٢
سعد بن معاذ الأشهلي (سيد الأوس) -
١٦٦ ، ١٨١ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧
٢٥٨ ، ٣٠١ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩
سعید بن جبیر - ١٤٨
سعید بن زيد - ١٢٢ ، ٢٢١
السكران بن عمرو بن عبد شمس - ٢٨٧
سلام بن أبي الحقيق - ٢٩٦ ، ٣٥٦
سلام بن مشكم - ٣٥٧ ، ٣٦٠
سلمان الفارسي - ٢٩٥ ، ٢٩٨
سلمة بن خويلد - ٢٧١
سلمة بن سلامة - ٢٥٥
سلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلمي -
٣٢٠
سلمة بن هشام - ٣٧٨
سلمي (أرملة حمزة) - ٣٧١
سلمي (زوج أبي رافع ، قابلة مارية) -
٤١٣
سلمي بنت عمرو الخزرجية - ٥٩ ، ٦٠
سليط بن عمرو - ٣٥٣
سليمان (عليه السلام) - ١٥٤ ، ١٥٥
سماك بن خرشة - ٢٥٩
سهل بن حنيف - ٢٧٨

طلحة بن عبيد الله - ١٠٣ . ٢٢١ .

٤٨١ . ٤٢٧ . ٢٦٥

طلعت باشا حرب - ٤٩٦

طليحة بن خويلد (زعيم بني أسد) -

٤٦٦ . ٣٠٥ . ٢٧١

الطيب بن محمد (عليه السلام) - ٨٥ .

٤٣٣ . ٩٠

(ع)

عاتكة بنت عبد المطلب - ١٤٧

العاص بن هشام بن المغيرة - ٢٢٢

عاصم بن ثابت - ٢٣٦

عامر الحضرمي - ٢٢٢ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨

عامر بن الطفيل - ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٤٥١

عامر بن فهيرة - ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨

عائشة أم المؤمنين - ١٥٣ ، ١٧٦ .

١٨٤ ، ١٩٢ ، ٢٥٢ ، ٢٨٦ .

٢٨٨ ، ٢٩١ ، ٣٠٩ ، ٣٢١ .

٣٢٤ - ٣٣١ ، ٤١٠ ، ٤١٤ .

٤١٨ ، ٤٢٠ ، ٤٢٢ ، ٤٦٠ .

٤٧١ ، ٤٧٣ - ٤٧٧ ، ٤٨٤ ، ٤٨٧

عبادة بن الصامت - ٢٤٦ ، ٢٤٧

العباس بن عبادة - ١٧٠ ، ١٧١ .

العباس بن عبد المطلب - ٦٧ ، ٧٦ .

١٠١ ، ١٠٢ ، ١٦٨ ، ٢٣٣ .

٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٧٠ ، ٣٨٠ .

٣٨٥ - ٣٨٩ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ .

شيبه بن هاشم - ٦٠

شبرويه بن كسرى - ٣٦٣ ، ٣٨٠ ، ٣٧

الشيامة بنت الحارث بن عبد العزى -

٤٠٦ ، ٧٤ ، ٧١

(ص)

صالح (عليه السلام) - ٥٤

صفوان بن أمية - ٢٤٣ ، ٢٥١ .

٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٧٢ ، ٣٩٠ .

٣٩٤ ، ٣٩٩

صفوان بن المعطل السلمى - ٢٢٥

٣٢٦ ، ٣٢٨

صفية بنت يحيى بن أخطلب النضيرية

(أم المؤمنين) - ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٤١٦

صفية بنت عبد المطلب - ٢٦٧

٣٠٣ ، ٣٠٤

صواب الحبشى - ٢٦٤

(ض)

ضرار بن الخطاب - ٣٠٣

ضمضم بن عمرو الغفارى - ٢٢١

(ط)

الطاهر بن الرسول (عليه السلام) -

٨٥ ، ٩٠ ، ٤٣٣

الطفيل بن عمرو الدوسى - ١٣٢ .

١٣٦ ، ١٣٧ ، ٤٠٥

طلحة بن أبي طلحة = عبد العزى

طلحة بن أبي طلحة

عبد الله بن أنيس - ٢٧١
 عبد الله بن جبير - ٢٦٣
 عبد الله بن جحش الأسدي - ٢٠٦
 ٢١٣ - ٢١٦ ، ٢٢٠ ، ٢٢٦
 ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٦٤
 عبد الله بن جعفر - ٢٧٨
 عبد الله بن خطل - ٣٩٣
 عبد الله بن رواحة - ٢٣٤ ، ٢٣٦
 ٣٠١ ، ٣٠٩ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩
 ٣٧٢ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٧
 ٣٨٠
 عبد الله بن الزبير - ١٠٦
 عبد الله بن زيد بن ثعلبة - ١٩٢
 عبد الله بن سلام - ١٩٨
 عبد الله بن طارق - ٢٧٢
 عبد الله بن عبد المطلب - ٤٦ ، ٦٢
 ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٤ ، ١٦٣
 عبد الله بن كعب - ٢٣٤
 عبد الله بن محمد - ١٦٦
 عبد المطلب بن هاشم - ٤٦ ، ٦١ -
 ٦٤ ، ٦٧ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦
 ٧٩ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ١٠١ ، ١٦٢
 ١٦٣ ، ١٦٦
 عبد مناف بن قصي - ٥٧ ، ٥٨
 ٥٩ ، ٦٧
 عبد ياليل - ٤٣٨

، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٣٤ ، ٤٥٧ ،
 ، ٤٦٢ ، ٤٧٢ ، ٤٧٥ ، ٤٨٦ ، ٤٨٤
 العباس بن مرداس - ٣٨١ ، ٤٠٧ ،
 ٤٠٨
 عبد الحفيظ شلي - ٤٩٧
 عبد الدار بن قصي - ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٧
 عبد الرحمن بن عوف - ١٠٣ ، ١٨٨ ،
 ١٨٩ ، ٢٢٣ ، ٤٣٣
 عبد الرحيم محمود - ٢٠ ، ٤٩٦
 عبد شمس بن عبد مناف - ٥٨ ، ٥٩
 ٦٠ ، ٦٧
 عبد العزى طلحة بن أبي طلحة - ٢٥٤ ،
 ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٤
 عبد العزى بن عبد المطلب = أبو هب
 عبد العزى بن قصي - ٦٧
 عبد الله بن أبي بكر - ١٧٦ ، ١٧٧ ،
 ١٧٨
 عبد الله بن أبي ربيعة - ١١٧
 عبد الله بن أبي السرح - ٣٩٣ ، ٣٩٤
 عبد الله بن أبي بن سلول - ٢٤٦ ،
 ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨
 ٢٦٧ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٨٠ ،
 ٢٩٨ ، ٣٠٨ ، ٣٢١ ، ٣٢٥
 ٣٢٧ ، ٣٦٠ ، ٤٢٨ ، ٤٣٢
 عبد الله بن أريقط - ١٧٥ ، ١٧٩
 عبد الله بن أمية بن المغيرة - ٣٨٥

عزال بن سموم - ٣٠٨
 عمرو بن عبد الله بن عمير الجحفي
 أبو عزة الشاعر - ٢٥٣، ٢٣٨
 العزى (صنم) - ٩٣، ٩١، ٨٩
 . ١٢٨، ١٠٧، ١٠٥، ١٠٤، ١٠٢
 . ٣٩٥، ٣٧٢، ٣٣٣
 عزير - ٢٠٢
 عصماء بنت مروان - ٢٤٤
 عطاء - ١٤٨
 عطارد بن حاجب - ٤٢٤
 عفير (حمار النبي) - ٣٦٤
 عقبة بن أبي معيط - ٢٣٥، ٢٢٢
 ٢٣٩، ٢٣٦
 عقيل بن أبي طالب - ٦٧
 عكرمة بن أبي جهل - ٢٥٩، ٢٥٣
 . ٣٣٧، ٣٣٦، ٣٠٣، ٢٦٠
 . ٣٨٣، ٣٨٢، ٣٧٢، ٣٧١
 ٣٩٤، ٣٩٠
 العلاء بن الحضرمي - ٣٥٣
 علي بن أبي طالب - ١٠١، ٦٧
 . ١٧٥، ١٢١، ١٠٤، ١٠٢
 . ١٩٧، ١٨٩، ١٨٨، ١٨٢
 . ٢٢٨، ٢٢٥، ٢٢٤، ٢٢٣
 . ٢٣٦، ٢٣٥، ٢٣١، ٢٢٩
 . ٢٦٦، ٢٦٥، ٢٦٤، ٢٥٢
 . ٣٠٦، ٣٠٣، ٢٨٨، ٢٧٥

عبيد الله بن جحش - ٨٩
 عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب -
 ٢٨٨، ٢٢٩، ٢١١، ٢٠٨، ٢٠٧
 عتاب بن أسيد - ٤١٠، ٤٠٩، ٤٨٦
 عثمان بن مالك الخزرجي - ١٨٨
 عتبة بن أبي لهب - ٩١
 عتبة بن أبي وقاص - ٢٦٥
 عتبة بن ربيعة - ١١٥، ١٥١، ١٥٢
 ٢٦١، ٢٣٣، ٢٢٩، ٢٢٨
 عتبة بن غزوان - ٢١٤، ٢١٥
 عتبية بن أبي لهب - ٩١
 عثمان بن أبي العاص - ٤٣٩
 عثمان بن الحويرث - ٨٩
 ٩٢، ٩٠
 عثمان بن طلحة - ٢٩٨، ٣٦٧، ٣٧٢
 ٣٩٦، ٣٩١
 عثمان بن عفان - ٩١، ١٠٣
 . ٢٧٩، ٢٥٢، ٢٣٦، ١٨٨
 . ٣٤٢، ٣٤١، ٣٤٠، ٢٨٨
 ٤٢٧، ٣٩٤
 عداس النصراني - ١٥١، ١٥٢
 عدى بن حاتم الطائي - ٤١١
 ٤٥١، ٤١٢
 عروة بن عتبة الهوازلي - ٧٨
 عروة بن مسعود الثقفي - ٣٣٩
 ٤٤٠، ٤٣٨، ٤٣٧، ٤٣٦

٤٨٧، ٤٨٥، ٤٨٣ - ٤٧٨، ٤٧٦
 عمرة بنت علقمة الحارثية - ٢٦٤
 عمرو بن أم مكتوم - ٢٢٣
 عمرو بن أمية الضمري - ٢٧٤
 ٣٥٣، ٣٧٥
 عمرو بن جحاش بن كعب - ٢٧٥
 عمرو بن الجوح - ١٨٢، ١٨١
 عمرو بن الحضرمي - ٢٢٠، ٢١٤
 عمرو بن سالم الخزاعي - ٣٨٢
 عمرو بن العاص السهمي - ١٠٦
 ٣٧٢، ٣٦٧، ٣٥٣، ١١٧
 ٣٧٩
 عمرو بن عبد ود - ٣٠٣
 عمرو بن معد يكرب - ٤٥١
 عمير بن عوف - ٢٤٤
 العوام بن خويلد بن أسد - ٦٧
 عيسى عليه السلام - ٨٠٦، ٥٠٣
 ٤٠، ٢٩، ٢٨، ١٤، ١٣، ٩
 ١١٢، ١٠٦، ٨٣، ٧٧، ٤٢
 ١٥٩، ١٥٥، ١٥٤، ١١٩
 ١٩٤، ١٩٠، ١٧٠، ١٦٣
 ٢١٨، ٢١٧، ٢١٦، ٢٠٢
 ٣١٤، ٢٩٤، ٢٨٥، ٢٣٨
 ٤٥٦ - ٤٥٤، ٤٤١، ٣٥٢
 عيينة بن الأقرع - ٣١١
 عيينة بن حصن بن حذيفة - ٢٩٨

٣٥٧، ٣٤٣، ٣٢٩، ٣٢٦
 ٤١٢، ٣٩٦، ٣٨٤، ٣٨٣
 ٤٤٥، ٤٤١، ٤٣٦، ٤٢٨
 ٤٧٢، ٤٦١، ٤٥٨، ٤٥٣
 ٤٨٤، ٤٨١، ٤٧٦
 علي احمد الشهداوي (المصحح بدار
 الكتب المصرية) - ٤٩٧
 علي فودة - ٤٩٧
 عليم بن الحارث بن كلدة - ٤٠٧
 عمارة (أخت ميمونة) - ٣٧١
 عمارة بن عقبة - ٣٤٧
 عمارة بن الوليد بن المغيرة - ١٠٨
 عمر بن أبي ربيعة - ٣١٣
 عمر بن أسد - ٨٤
 عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) - ٢١
 ٩٧، ١١٠، ١٢١، ١٢٣
 ١٢٢، ١٣٠، ١٢٧، ١٢٦
 ١٨٩، ١٨٨، ١٦١، ١٤٩
 ٢٣٧، ٢٢٤، ٢٢٣، ١٩٢
 ٢٥٧، ٢٥٢، ٢٤١، ٢٣٨
 ٢٨٨، ٢٧٥، ٢٦٦، ٢٦٥
 ٣٢٤، ٣٢٢، ٣٢١، ٢٩٤
 ٣٥٠، ٣٤٧، ٣٤٣، ٣٤٠
 ٣٨٣، ٣٧٩، ٣٦٩، ٣٥٧
 ٤١٤، ٤١٠، ٣٨٧، ٣٨٥
 ٤٧٤، ٤٦٧، ٤١٩، ٤١٧، ٤١٥

قس (بن ساعدة) - ١٠٤٠٧٨ -
القصواء (ناقة الرسول عليه السلام) -
٣٦٨ . ٣٦٧ . ٣٣٧ . ٣٣٥
٤٦٣ . ٤٦١ . ٣٩١
قصي بن كلاب - ٥٥ - ٦٧ . ٥٨
قيس بن سعد بن عبادة - ٣٩٠
قيصر (ملك الروم) - ٩٠ . ٣٦
٣٣٩ . ٣٠٢ . ١٤١
قيته بن خطل - ٣٩٤
(ك)
كارليل - ١١
كرز بن جابر الفهري - ٢٠٧
كسرى أبرويز - ٣٧٠ . ٣٦٠ . ٣٤١
٣٥١ . ٣٤٩ . ٣٣٩ . ٣٠٢
٣٦٤ - ٣٦٢ . ٣٥٥ . ٣٥٢
٤٧٩
كعب بن أسد - ٣٠٧ . ٣٠١ . ٣٠٠
٣٠٨
كعب بن الأشرف - ٢٤٥ . ٢٤٤
٢٧٥ . ٢٥٠
كعب بن زهير - ٤١١
كعب بن زيد - ٢٧٤
كعب بن مالك - ٤٣١ ، ٢٦٦
كلاب بن مرة - ٥٦
كلدة بن حنبل - ٣٩٩
كنانة بن أبي الحقيق - ٢٩٦

٤٠٨ . ٤٠٧ . ٣٢٠ . ٣٠٢

(غ)

غليوم بستيل - ١١

(ف)

فاطمة بنت الخطاب - ١٢٢ . ١٢١

فاطمة بنت الرسول عليه السلام -

٩٠ . ٩١ . ١١٠ . ١٥٠ . ٢٥٢ .

٣٨٣ . ٤٣٣ . ٤٦١ . ٤٧٤ . ٤٨٨

فرات بن حيان - ٢٥١

فرانسيسك ميشيل - ١٠

فرعون موسى - ٢٨ . ١١١ . ١١٢

فروة بن عمرو الجذامي - ٣٨١

الفضل بن العباس - ٤٣٤ . ٤٧٦ ،

٤٨٤

فنحاص اليهودي - ٢٠٠

فوستر - ١٢

فيفس - ١١

فيل - ٢٢ . ٢٩٣

فيميون - ٣٥

(ق)

قارون - ١٤١

القاسم بن الرسول (عليه السلام) -

٨٥ . ٩٠ . ٤٣٣

قتادة - ١٤٨

قثم بن العباس - ٤٨٤

قزمان المنافيق - ٢٦١ . ٢٦٢

الشيخ محمد مصطفى المراغي - ٢٠

الأستاذ محمود بك خاطر - ٤٩٦

مراثى - ١١

مرارة بن الربيع - ٤٣١

مرثد بن مرثد الغنوي - ٢٢٣

مرحب اليهودي - ٣٥٨

مروان (أمير المدينة) - ٦٢

مريم (عليها السلام) - ٢٨٠، ٦٠٥

٤٥٥، ٢٨٥، ١١٩، ٤٢، ٢٩

مسطح بن أثانة - ٣٣١، ٣٣٠

مسعر بن رخيلة - ٢٩٨

مسلم بن الحجاج القشيري (صاحب

الصحيح) - ٤٦١

مسلة بن حبيب - ٤٥١

مسلة بن عقيل بن أبي طالب - ٦٧

مسيلة (الكذاب) - ٤٦٦

مصعب بن عمير - ١٦٦، ١٦٧

٢٣٥، ١٨١

مضاض بن عمرو بن الحارث

الجرهمي - ٦١٠، ٥٦

المطعم بن عدى - ١٤٧

المطلب بن عبد مناف - ٥٨، ٦٠

٦٧

معاذ بن جبل - ٣٦٠، ٤٠٩، ٤١٠

٤٥٧، ٤٥٩

معاذ بن عفراء - ١٨٣

كثانة بن الربيع - ٣٦١

كوسان دبرسقال - ١١، ٧٠

(ل)

اللات (صنم) - ٩٣، ٩١، ٥٤

١٠٢، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٧

١٢٨، ١٥٢، ٣٢٣، ٣٧٢

٤٣٦ - ٤٤٠

لامنس - ٢٩٣، ٢٨٤

ليد بن الأعصم - ٣٦٦

لقمان - ١٦٤

لورد النبي - ٢١٨

لوط (عليه السلام) - ٤٣١

(م)

ماحوم (الصنم) - ١١

مارية القبطية - ٢٨٧، ٣٦٤، ٤١٠

٤١٣، ٤١٦ - ٤١٨، ٤٢٠

٤٣٣، ٤٣٤

مالك بن جعشم المدلجي - ٢٢٢

مالك بن عوف النصرى - ٣٩٧

٣٩٩، ٤٠٢ - ٤٠٤، ٤٠٧

ماهوم - ١١

مجدى بن عمرو الجهني - ٢٠٦، ٢١٠

٢٢٥

الشيخ محمد عبده - ١٥، ١٢٩

محمد بن مسلة - ٢٧٦، ٣٥٨

٣٦٧، ٤٢٨

وأائل بن حجر الكندي - ٤٥٧
وحشى الحبشى (مولى جبير) - ٣٦١
ورقة بن نوفل - ٧٤، ٨٩، ٩٢
٩٧ - ٩٩، ١٠٤، ١٠٩
الوليد بن عتبة بن ربيعة - ٢٢٨، ٢٢٩
الوليد بن عقبة - ٣٤٧
الوليد بن المغيرة - ٨٧، ١٣٥
١٣٨، ١٤٠
وليم موير - ٢٢، ٥٢، ٧٣، ١٢٥
١٢٧، ٢٨٤، ٢٩٣، ٣٣٠
وهب بن عبد مناف - ٦٨
وهرز - ٣٧

(ى)

يحيى (عليه السلام) - ١٥٥
يسار - ٢٤٩، ٢٨٣
اليسير بن زمام - ٣٥٦
يعرب بن قحطان - ٥١
يعفور = عفير
يعقوب (عليه السلام) - ٣٢٩
يوحنا بن رؤبة - ٤٢٣، ٤٢٩
يوسف (عليه السلام) - ٤٧٣
يوسف النجار - ٢٨٥
يوليوس قيصر - ٢٩
يونس بن متى (عليه السلام) -
١٥٢، ٢٩٤

هاشم بن عبد مناف - ٤٦، ٥٨
٦٠، ٦٧، ٧٩، ٨٨
هالة بنت عبد مناف أم حمزة - ٦٨
هبار بن الأسود بن المطلب - ٤١٢
هبل (صنم) - ٤٤، ٦١، ٦٢، ٦٧
٨٨، ٩١، ٩٣، ١٠٤، ١٠٥
١٠٧، ١٤١، ٢٧٠، ٣٣٣، ٣٩٢
هرقل - ٣٠١، ٣٠٥، ٣٤٩
٣٥١، ٣٥٣، ٣٥٥، ٣٦٢
٣٦٣، ٣٧٤، ٣٧٥، ٣٨١، ٤٧٩
هشام بن صباية - ٣٢١
هشام بن عمرو - ١٤٧
هلال بن أمية - ٤٣١
هند بنت أبي طالب = أم هانيء
هند بنت عتبة - ٢٤٢، ٢٥٤، ٢٥٩
٢٦٠، ٢٦٦، ٣١٢، ٣١٣، ٣٩٤
هوتنجر - ١١
هود (عليه السلام) - ٤٥
هوذة بن قيس - ٢٩٦
هورس - ٢٧
هيرن - ٣٣
هيرودوت - ٥٤
(و)
واشنطن أرفنج - ٢٨٤
واقد بن عبد الله التيمي - ٢٢٠
الواقدي - ٣٤٤

فهرس الأسم والقبائل والطوائف

٢٤٨ ، ٢٥٦ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩
 ٢٨٩ ، ٢٢١ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩
 ٢٣٥ ، ٢٥٠ ، ٢٥٦ ، ٢٥٩
 ٢٦٠ ، ٢٦٧ ، ٢٧٠ ، ٢٨٥
 ٢٨٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٢ ، ٤٠٠
 ٤٠١ ، ٤٠٧ ، ٤١٠ ، ٤٧٠

٤٧٣ ، ٤٨١ ، ٤٨٣

أهل تهامة - ٦٣

أهل حنين - ٤٦٥

أهل كندة - ٤٤

أهل النبي - ٤٨٦

الأوس - ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٧٠ ، ١٧٠

١٧١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٧ ، ١٨٩

١٩١ ، ١٩٨ - ٢٠٠ ، ٢٠٦

٢٠٩ ، ٢١٢ ، ٢٢٢ ، ٢٤٦

٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٧٦ ، ٣٠٥

٣٠٧ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨

إيطاليا - ٢١٨

(ب)

بارق - ٤٥٢

باهلة - ٤٥٢

بجيلة - ٤٥٢

البروتستانتيون - ١٦ ، ٢٤٠

(١)

الآشورية - ٢٦

آل أبي بكر - ٤٧٧

آل جعفر - ٢٧٨

آل فرعون - ١٥٦

الأتراك - ٣٦٣

الأحباش = الحبشة

الآريسيون - ٣٥٣

الأزد - ٤٥٢

أزد اليمن - ٣٨

أسد = بنو أسد

أسد عمان - ٤٥٢

أسلم - ٤٥٢

أشجع - ٢٩٨ ، ٣٨١ ، ٤٥٢

الآشعريون - ٤٥٢

الآعاجم = العجم

الآغريق - ٣٧٥

الآفغان - ٢

الآلمان - ٢٣٠

أمريكا - ٢١٨

الآنصار - ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٧ -

١٩٠ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧

٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ،

بنو زهرة - ٢٢٦، ١٠٥، ٧٩، ٦٨
بنو ساعدة - ٢٧٤، ٢٥٩، ١٩١
بنو سعد - ٢٩٨، ٧٣، ٧١، ٧٠، ٦٨
بنو سعد بن بكر - ٤٥٢، ٧٤
بنو سلمة - ٤٢٦، ١٨٢
بنو سلول - ٤٥١
بنو سليم - ٣٧٣، ٢٩٨، ٢٥٠، ٢٤٩
٤٥٢، ٤٠٧، ٣٩٩، ٣٨٥
بنو سهم - ١٨٠
بنو شيان - ٤٥٢، ٣٩٥
بنو ضمرة - ٢٠٨، ٢٠٧
بنو ظفر - ٢٦١، ١٨١
بنو عامر - ٣٤٦، ٢٧٥، ١٦١
بنو عامر بن صعصعة - ٤٥١، ١٥٢
٤٥٢
بنو عبد الأشهل - ٢٨١، ١٦٥
٤٨١
بنو عبد الدار - ٢٥٩، ٨٧، ٥٨
٤٥٢
بنو عبد المطلب - ١٠٩، ١٠٤، ٦٨
١٦٩، ١٦٧، ١٦١، ١١٤، ١١٠
٤٠٧، ٤٠٦، ٣٨٤، ١٧٣
بنو عبد مناف - ١٢١، ١٠٥
١٧٤، ١٤٠
بنو العجلان - ٣٧٧
بنو عدى - ٨٧

البطالسة - ٤٢
بكر بن وائل = بنو بكر بن وائل
بلي - ٤٥٢، ٣٧٥
بنو أسد - ٢٧٥، ٢٧١، ١٠٥، ٨٢
٤٥٢، ٢٩٨، ٢٨٩
بنو إسرائيل = اليهود
بنو الأصفر = الروم
بنو أمية - ١٠٩، ٨٩، ٧٥
بنو أمية بن زيد - ٢٤٤
بنو البكا - ٤٥٢
بنو بكر - ٣٩٠، ٣٤٤، ٢٥٥، ٢٢٢
بنو بكر بن عبد مائة - ٣٨٢
بنو بكر بن وائل - ٤٥٢، ٢٥١
بنو تميم - ٤٥٢، ٤٢٤، ٤٠٧
بنو تميم - ١٠٥، ٧٩
بنو ثعلبة - ٤٥٢، ٢٨١، ٢٥٠، ١٩١
بنو جشم - ٣٩٨، ١٩١
بنو الحارث - ٤٥٨، ١٩١
بنو حمير = حمير
بنو حنيفة - ٤٥٢، ٤٥١، ١٦١، ١٥٢
بنو خزاعة = خزاعة
بنو الخزرج = الخزرج
بنو خطمة - ٢٤٤
بنو الدئل - ١٧٩
بنو دوس - ٤٥٢، ٤٠٤
بنو الدليل - ٣٨٢

بنو النضير - ١٨٧ ، ١٩٢ ، ٢٧٠ ،
٢٧٥ - ٢٧٧ ، ٢٧٩ ، ٢٩٥ ،
٢٩٦ ، ٣٠١ ، ٣٠٣ ، ٣٠٦ ،
٣٠٧ ، ٣٠٩ ، ٣٥٥ ، ٣٥٩ ،
٣٦١ ، ٤٠٥

بنو هاشم - ٧٥ ، ٧٩ ، ٨٩ ، ١٠١ ،
١٠٤ ، ١٠٩ ، ١١١ - ١١٤ ،
١١٦ ، ١٢٧ ، ١٣١ - ١٣٣ ،
١٤٧ ، ١٦١ ، ١٦٧ ، ١٦٩ ،
١٧٣ ، ٢٢٢ ، ٢٣٣ ، ٢٨٥

بنو هوازن - ٧٤

بنو وائل - ٢٩٦

بهران - ٣٧٥ ، ٤٥٢

البيزنطيون - ١٠ ، ٣٥١ ، ٤٣٠

(ت)

تجيب - ٤٥٢

تغلب - ٤٥٢

تميم = بنو تميم

تيوزوفية الهند - ١٤ ، ٢٣

(ث)

ثعلبة = بنو ثعلبة

ثقيف - ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٥١ ، ١٥٢ ،

١٦١ ، ٢٥٤ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ،

٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٣ ، ٤٠٥ ،

٤٠٧ ، ٤٣٦ ، ٤٣٩ ، ٤٥٢ ،

ثمالة - ٤٥٢

بنو عدى بن كعب - ٣٤٠

بنو عريض - ٣٦٠

بنو عمرو بن عوف - ٢٤٤

بنو العنبر - ٣٢٤

بنو غازية - ٣٦٠

بنو فزارة - ٢٩٨ ، ٣٨١ ، ٤٥٢

بنو قريظة - ١٨٧ ، ١٩٢ ، ٢٧٧ ،

٢٩٥ ، ٢٩٧ ، ٢٩٩ - ٣١١ ،

٣١٩ ، ٣٥٥ ، ٤٠٣

بنو قبيلة = الأوس والخزرج

بنو قيتقاع - ١٨٧ ، ١٩٢ ، ٢٤٥ -

٣٥٠ ، ٢٧٧ ، ٢٩٦ ، ٣٠٠ ،

٣٠٨ ، ٣١٦ ، ٣٥٥ ، ٣٥٩ ،

بنو كعب - ٣٢٦ ، ٣٩٨

بنو كنانة - ٦٨ ، ١٢٤ ، ٢٢٢ ،

٣٨٤ ، ٤٥٢

بنو لحيان - ٢٧٢ ، ٣١٩

بنو الليث - ٣٧٣ ،

بنو محارب - ٢٥٠ ، ٢٨١ ، ٤٥٢ ،

بنو مخزوم - ٨٢ ، ١٠٥ ، ١١٥ ،

بنو مدلج - ٢٠٧ ، ٢٠٨ ،

بنو مرة - ٢٩٨ ، ٣٧٣ ، ٤٥٢ ،

بنو المصطلق - ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ -

٣٢٦

بنو النجار - ٧٤ ، ١٦٢ ، ١٦٦ ، ١٨٣ ،

١٩٣

الخزرج - ١٦٤، ١٦٣، ١٦١، ٦ -
١٨٢، ١٧١ - ١٦٩، ١٦٧
١٩٨، ١٨٩، ١٨٧، ١٨٣
٢١٢، ٢٠٩، ٢٠٦، ٢٠٠
٢٥٤، ٢٤٦، ٢٤٢، ٢٢٣
٣٠٧، ٣٠٥، ٢٧٦، ٢٥٥
٣٥٧، ٣٢٨، ٣٢٣، ٣٢١
٤٠١

خشين - ٤٥٢

خولان - ٤٥٢

(د)

الداريون = بنو عبد الدار

دوس = بنو الدوس

(ذ)

ذبيان - ٣٨١

(ر)

ربيعة - ٤٥٢، ٥٦

الرهاويون - ٤٥٢

رؤاس بن كلاب - ٤٥٢

الروم - ٤، ٩، ٣٦، ٣٨، ٦٦،

٢٠١، ٢٠١، ٣١١، ٣٥١، ٣٥٩،

٣٦٤، ٣٧٣، ٣٧٥، ٣٧٧،

٣٨٠، ٣٨١، ٤٢٣، ٤٢٥،

٤٢٧، ٤٢٩، ٤٣٠، ٤٣٦،

٤٣٧، ٤٦٥، ٤٦٧، ٤٨٤،

رومانيا - ٢١٨

تمود - ٤٢٨، ٥٤

(ج)

جدام - ٤٥٢، ٣٧٥

جدية - ٣٩٦، ٣٩٥

جرم - ٤٥٢

جرهم - ٤٦، ٥٠، ٥١، ٥٥، ٥٧

جشم = بنو جشم

جعدة - ٤٥٢

جعفي - ٤٥٢

جهينة - ٤٥٢

جيشان - ٤٥٢

(ح)

الحارث بن كعب - ٤٥٢

الحبشة - ٣، ١٣، ٢٧، ٢٥٢، ٢٥٣،

٣٣٨ - ٣٤٠

الحدان - ٤٥٢

حضر موت - ٤٥٢

حمير - ٣٥، ٣٨، ٥٩، ٤٥١، ٤٥٢،

حنيفة = بنو حنيفة

الحواريون - ١٣، ١٩، ٢٨،

١٠٥، ١٧٠، ٣٥٢،

(خ)

خشم - ٤٥٢

خزاعة - ٥٦، ٥٧، ٣٥٥، ٣٢١،

٣٢٨، ٣٤٤، ٣٨٠، ٣٨٢،

٣٨٣، ٣٩٤، ٣٩٥، ٣٨٨،

العرب - ٢، ٢١، ٢٢، ٤٢، ٤٣،
 ٥٠، ٥٢، ٦١، ٦٣، ٦٥، ٦٦،
 ٦٨، ٧١، ٧٢، ٧٥، ٧٩، ٨٩،
 ٩٢، ١٠٤، ١٠٩، ١١٣، ١١٥،
 ١٢٩، ١٣٣، ١٣٥، ١٤٠،
 ١٤١، ١٤٤، ١٤٦، ١٤٩،
 ١٥٠، ١٥٢، ١٦٠، ١٦١،
 ١٦٣، ١٦٥، ١٧٩، ١٨٩،
 ٢٠٢، ٢٠٤، ٢١٠، ٢٢٤،
 ٢٢٦، ٢٢٨، ٢٣٦، ٢٤٤ -
 ٢٥١، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٦١،
 ٢٦٢، ٢٦٧، ٢٧١، ٢٧٤ -
 ٢٧٧، ٢٧٩، ٢٨٦، ٢٩١ -
 ٢٩٣، ٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٩،
 ٣٠٣، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١٣،
 ٣١٥، ٣١٦، ٣١٩، ٣٢٠،
 ٣٢٥، ٣٢٢، ٣٢٤، ٣٣٨،
 ٣٤٠، ٣٤٥، ٣٥٠، ٣٥٢،
 ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٦٤، ٣٦٩،
 ٣٧٥، ٣٧٩، ٣٩١، ٤٠٣،
 ٤٠٩، ٤١٢، ٤١٤، ٤١٦،
 ٤٢٣، ٤٢٤، ٤٢٥، ٤٢٦،
 ٤٣١، ٤٣٦، ٤٤١، ٤٤٥،
 ٤٤٩، ٤٥١، ٤٥٢، ٤٥٣،
 ٤٦٥، ٤٦٦، ٤٧٧، ٤٧٩،
 ٤٨٢، ٤٨٦

(ز)

زيد - ٤٥٢

(س)

سعد بن بكر = بنو سعد بن بكر

سعد العشرة - ٤٥٢

سعد هذيم - ٤٥٢

سلامان - ٤٥٢

سليم = بنو سليم

(ش)

شهران - ٦٣

شيبان = بنو شيبان

(ص)

الصابئون - ١١٣، ٥٣

صداء - ٤٥٢

الصدف - ٤٥٢

(ط)

طبي - ٤١١، ٤١٢، ٤٥٢

(ع)

عاد - ١٦٦، ٥٤

عامر بن صعصعة = بنو عامر بن

صعصعة

عبد القيس - ٢٦٨، ٤٥٢

العبريون - ٥٢

عبس - ٣٨١، ٤٥٢

العثمانيون - ٢

العجم - ٣٧، ١٩٤

١٢١ - ١٢٥ - ١٢٧ - ١٢٩
١٣٨ - ١٤٠ - ١٤٣ - ١٤٦ - ١٥٣
١٦٠ - ١٦٢ - ١٦٥ - ١٦٧ - ١٧٠
١٧٩ - ١٨١ - ١٨٤ - ١٨٦
١٨٧ - ١٩١ - ١٩٦ - ١٩٨
٢٠١ - ٢٠٤ - ٢٠٦ - ٢١٥
٢٢٠ - ٢٢٣ - ٢٣٥ - ٢٣٧
٢٣٩ - ٢٤٣ - ٢٤٦ - ٢٤٨
٢٦٠ - ٢٦٢ - ٢٧٠ - ٢٧٥ - ٢٧٩
٢٨١ - ٢٩٢ - ٢٩٥ - ٢٩٧
٣٠٤ - ٣٠٦ - ٣٠٩ - ٣١١ - ٣١٢
٣١٩ - ٣٢٢ - ٣٤٩ - ٣٥٥ - ٣٥٧
٣٦٣ - ٣٦٧ - ٣٧٣ - ٣٨٠
٣٨٢ - ٣٩٣ - ٣٩٥ - ٣٩٩ - ٤١٢
٤٣٧ - ٤٦٦ - ٤٦٩ - ٤٨٢

قريظة = بنو قريظة

قشير بن كعب - ٤٥٢

قصي بن كلاب - ٤٦

قيس عيلان - ٢٩٨

القين - ٣٧٥

(ك)

الكاثوليك - ١٦ - ٢٤٠

كعب = بنو كعب

كلاب - ٣٩٨ - ٤٥٢

كلب - ١٥٢ - ١٦١ - ٤٥٢

كنانة = بنو كنانة

عقيل بن كعب - ٤٥٢

عنس - ٤٥٢

(غ)

غافق - ٤٥٢

غامد - ٤٥٢

الغساسنة - ٢٠ - ٥٩ - ٦٣ - ٦٥

٣٧٤ - ٣٥٢ - ٤٥٢

غطفان - ٢٤٩ - ٢٨١ - ٢٩٥ - ٢٩٦

٢٩٨ - ٣٠٤ - ٣٠٦

٣٠٩ - ٣٢٠ - ٣٥٥ - ٣٥٦

٣٨١ - ٣٨٥

(ف)

الفرس - ٣٠ - ٣١ - ٣٧ - ٤٠ - ٤١٤

٦٦ - ٧٦ - ١٣٥ - ٢٣٤ - ٣١١

٣١٤ - ٣٥١ - ٣٦٢ - ٣٦٣

٤٢٦ - ٤٣٦ - ٤٣٧ - ٤٦٥

فزارة = بنو فزارة

الفندال - ٢٩ - ٤١

(ق)

القبط - ٣٦٤

قريش - ٤٤ - ٤٥ - ٤٦ - ٥٧

٦٣ - ٦٥ - ٦٦ - ٧٠ - ٧٦ - ٧٨

٨٠ - ٨٢ - ٨٤ - ٨٩ - ٩٥

٩٧ - ٩٩ - ١٠١ - ١٠٤ - ١٠٦

١١١ - ١١٤ - ١١٧ - ١١٩

١٦٣، ١٦١، ١٥٦، ١٤٣، ٩٤ -

١٨٨، ١٨٣، ١٦٩، ١٦٧ -

٢١٢، ٢٠٣ - ١٩٨، ١٩٢

٢٢٩، ٢٢٦، ٢٢٤، ٢١٣ -

٢٥٨، ٢٥٠، ٢٤٨ - ٢٤٣

٢٧٩، ٢٧٥، ٢٦٨، ٢٦٧ -

٢٨٥، ٢٩٨، ٢٩٥، ٢٨٥ -

٣١١، ٣٠٩، ٣٠٨، ٣٠٥ -

٣٤٩، ٣٤٨، ٣٢٢، ٣١٥ -

٣٦١، ٣٦٠، ٣٥٨ - ٣٥٥

٣٦٣، ٣٦٦، ٣٨١، ٤٤٠ -

٤٤١، ٤٥٢ - ٤٥٤، ٤٦٨ -

٤٦٩، ٤٨٦

يهود البحرين - ٣٦٠

يهود بني عوف - ١٩١

يهود بني النجار - ١٩١

يهود بني النضير - ٢٧٨

يهود تيماء - ٣٦٠، ٣٥٦

يهود خيبر - ١٨٧، ٣٥٦، ٣٥٩

يهود المدينة - ١٨٤، ٢٢٣

يهود وادي القرى - ٣٦٠، ٣٥٦

(ه)

هذيل - ٢٧٢، ٢٧٤، ٢٩٦، ٣٩٤

الهكسوس - ٤٨

هلال بن عامر - ٤٥٢

همدان - ٤٥٢

الهنود - ١٤٤

هوازن - ٧٨، ٧٩، ٣٩٧، ٤٠٢ -

٤٠٦، ٤٠٧

(و)

الوثنية الاغريقية - ٤٢

الوثنية المصرية - ٤٢

الوثنية اليونانية - ٢٧

الوثنيون - ٢، ٢٦، ٣٥، ٤١، ٤٣

٥٣، ٥٤، ٦٥، ١٠٨، ١١١ -

١١٩، ١٦٤، ٢٠٩، ٢٧٣ -

٢٣٤، ٢٥٣، ٣٩٢، ٤٤١ -

٤٤٩، ٤٥٤، ٤٥٧، ٤٥٨، ٤٨٨ -

(ي)

اليمن - ٢٧

اليهود - ٥، ٨، ٢٣، ٢٦، ٢٨ -

٢٥، ٣٦، ٤١، ٤٢، ٤٨، ٥٢ -

٦٥، ٦٦، ٧٦، ٧٨، ٨٩، ٩١ -

فهرس الأماكن

	(١)
أم القرى = مكة	آسيا - ٤٤٧.٣١٤.٠٢
أمريكا - ٤٤٧.٠٣	آشور - ٢٨ - ٢٦
الأندلس - ٩٠٣.٢ - ٥٩.٠١١	الأبواء - ٢١١.١٦٣.٠١٠٠.٧٥
أنطاكية - ١١	٢٥٥
انكلترا - ٢١٨.٢٩	أبو قبيس - ٣٨٩.٣٦٩.٣٦٨
أوربا - ٢٣٩.٢١٨.٢٩.٣.٢	الأثيل - ٢٣٥
٤٤٧.٣٥٤.٣١٤.٢٩٠.٢٤٨	أجساد - ٨٠
أوربا الشمالية - ٣١٤	أحد - ٢٦٥.٢٦٠ - ٢٥٨.٢٥٥
أوربا الغربية - ٣١٤	٢٩٩.٢٧٥
أورشليم - ٣٥٩	أذرح - ٤٢٩
أوطاس - ٣٩٨	أذرعات - ٣٠٧.٢٧٨.٢٤٧.٠٤
أيلة - ٤٣٠.٤٢٩	الأراك - ٣٨٦
إيوان كسرى - ٣٧	أرض بني عامر - ٢٧٤
(ب)	أرض جنام - ٣٧٩
باب أبي بكر - ٤٧٣	أرض العرب = بلاد العرب
باب الصفا - ٨٨	إرم - ١٦٦
بادية الشام - ٣١	إسبانيا - ٢
باريس - ٢٤٠	أستراليا - ١٥٩
البحر الأبيض المتوسط - ٢٧.٢٦	إفريقية - ٢
٤١.٣٦	أفغانستان - ٢
البحر الأحمر - ٣٦.٣٤.٣٣.٣١	الأقصر - ١٨
٢٠٨.١٧٩.٥٦.٤٦.٣٨	ألمانيا - ٢٣٠
٢٨١	

٤٠٥ ، ٤٠٣ ، ٣٩٩ ، ٣٩٨
٤٢٣ ، ٤١٨ ، ٤١٢ ، ٤١٠
٤٣٦ ، ٤٣٢ ، ٤٣٠ ، ٤٢٥
٤٥٠ ، ٤٤٧ ، ٤٤٥ ، ٤٤٠
٤٥٢ - ٤٥٤ ، ٤٥٨ ، ٤٦٠
٤٦٥ - ٤٦٧ ، ٤٦٩ ، ٤٧٧

البلد الحرام = مكة

البلقاء - ٤٧٥ ، ٤٦٨

البلقان - ٢

البندقية - ١٥٩

بواط - ٢١٠ ، ٢١١

بولونيا - ٢

البيت = البيت الحرام

بيت إبراهيم = البيت الحرام

بيت أبي بكر الصديق (رضى الله

عنه) - ١٧٦ ، ٣٢٩

بيت إسماعيل = البيت الحرام

البيت الحرام - ٤٥ - ٥٧ ، ٦١ -

٦٤ ، ٦٨ ، ٧٨ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ١٤٧

١٨٤ ، ٢٠١ ، ٢٠٥ ، ٢١٤

٢١٥ ، ٢٣١ - ٢٣٦ ، ٢٣٨

٢٣٩ ، ٢٤١ ، ٢٦٦ - ٢٦٩

٢٨٥ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ -

٢٩٣ ، ٢٩٧ ، ٤١٠ ، ٤٢٣

٤٤٠ ، ٤٤٥ ، ٤٥٣ ، ٤٦٠

بيت الخيرة - ٦٣

بحر الروم = البحر الأبيض

بحر القلزم = البحر الأحمر

بحران - ٢٥٠

البحرين - ٣٥٣ ، ٣٦٥ ، ٤٥٠

بدر - ٢٠٧ ، ٢٢٠ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦

٢٣٣ ، ٢٨٠ ، ٣٧٢

برقة - ٢

بصرى - ٤ ، ٧٦ ، ٨٢ ، ٣٦٢

٣٧٤

البييع (بييع الغرقند) - ٣٦٢ ، ٤٣٤

٤٧٠ ، ٤٧١

بكة = مكة

بلاد الروم - ٣٦ ، ٤٤٠

بلاد العرب - ٢ ، ٣ ، ١٤٠ ، ٧٠٥

٢٢ ، ٢٦ ، ٣١ - ٣٨ ، ٤١

٤٤ ، ٤٥ ، ٥٢ - ٥٩ ، ٦٢

٦٤ ، ٦٧ ، ١١٦ ، ١١٩ ، ١٣٠

١٣٣ - ١٣٥ ، ١٤١ ، ١٦٢

١٦٤ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٨٤

١٨٧ ، ٢١٠ ، ٢٢٠ ، ٢٣٢

٢٤٨ ، ٢٦٨ ، ٢٨١ ، ٢٩٥

٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣١٢ ، ٣١٤

٣٣٦ ، ٣٤٥ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩

٣٥٢ ، ٣٥٥ - ٣٥٧ ، ٣٦٠

٣٦٢ - ٣٦٤ ، ٣٦٦ ، ٣٧٣

٣٧٩ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٦

بيت عائشة = دار عائشة

البيت العتيق = البيت الحرام

بيت اللات - ٦٣

بيت لحم - ١٥٤ ، ١٥٩

بيت المقدس - ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٦٠ ،

١٦٣ ، ١٩٠ ، ٢٠١ ، ٢١٨ ،

٢٩٦ ، ٣٥١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ،

٤٣٦ ، ٤٤١ ، ٤٨٤

بيت ميمونة = دار ميمونة

بيت اليمن - ٦٣

بئر معونة - ٢٧٠ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ،

٢٩٨

بئر نطية - ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٤٠ ،

٤١ ، ٩٠ ، ٣٥٢ ، ٣٥٤ ، ٣٨١ ،

(ت)

تبوك - ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣٢ ، ٤٦٧ ،

التركستان - ٢

تهامة - ٣٤ ، ٦٤ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ،

١٨٤ ، ٤٠٧ ، ٤٤٥ ، ٤٦٥ ،

تونس - ٢

(ث)

ثنية المرار - ٣٣٧

ثنية الوداع - ٣٢٠

(ج)

جبال اليمن - ٣٥

جبل سيناء - ١٥٤ ، ١٥٩

جبل هند - ٣٩٠

الجحفة - ٣٥٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٨ ،

جدة - ٤٦ ، ٨٧ ،

جرباب - ٤٢٩

الجرف - ٤٦٨ ، ٤٧٠ ، ٤٧٥ ، ٤٨١ ،

الجزائر - ٢

الجزيرة = بلاد العرب

جزيرة العرب = بلاد العرب

الجرانة - ٤٠١ ، ٤٠٦ ، ٤٠٩

(ح)

الحبشة - ٢٨ ، ٣٠ ، ٣٦ ، ٤٢ ، ٦٣ ،

٨٩ ، ٩٧ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٩ ،

١٢١ ، ١٢٣ ، ١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ،

١٥٣ ، ١٦٨ ، ١٧٣ ، ٢١٢ ، ٢٢٢ ،

٢٥١ ، ٢٨٧ ، ٣٥٢ ، ٣٦٤ ، ٣٦٦ ،

٤٥٤ ، ٤٦٩

الحجاز - ٩٣ ، ٤٤ ، ٤٨ ، ٥٢ ، ٥٤ ،

٧٨ ، ١٨٨ ، ٢٠٧ ، ٢٧٢ ، ٢٨١ ،

٣٥٢ ، ٤٤٠ ، ٤٤٥ ، ٤٥٨ ،

الحجر - ٥٤ ، ٤٢٨

الحجر الأسود - ٥٤ ، ٨٥ ، ٨٧ ،

٨٨ ، ٣٢٢ ، ٣٦٩

الحديبية - ٣٣٧ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ،

٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٩

حراء - ٨٥ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ١٠٠ ،

٣٦٨ ، ٣٩١

الخليج الفارسي - ٣١ - ٣٤ .

٢٨١

الخدق - ٢٩٥ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣

٣٠٣

خير ٢٤٧ ، ٢٧٧ ، ٢٩٦ ، ٣٠٠

٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٦١ .

٤٨٨

(د)

دار أبي بكر = بيت أبي بكر الصديق

دار أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري

- ١٨٥

دار بُدِيل بن ورقاء - ٣٨٢

دار حفصة - ٤١٠ ، ٤١٦

دار خديجة - ٨٣

دار عائشة - ٣٢٧ ، ٤٧٢ ، ٤٧٦ ،

٤٧٨ ، ٤٨٠ ، ٤٨١

دار عبد الله بن جدعان - ٧٩

دار عبد المطلب - ٧٠

دار فاطمة - ٤٨١

دار مارية - ٤١٣

دار ميمونة - ٤٧٢

دار الندوة - ٥٧ ، ١٠٧ ، ١٧٣ ،

٢٥٢ ، ٢٥٤ ، ٢٩٨

دارة الكعبة - ٦٦

الداروم - ٤٦٨

دجلة - ٣١ ، ٣٣

الحرم = البيت الحرام

الحرم المكي = البيت الحرام

حرة بني سليم - ٢٧٤

حصن بني قريظة - ٣٠٩

حصن الزبير - ٣٥٨

حصن السلام - ٣٥٧ ، ٣٥٩

حصن الصعب بن معاذ - ٣٥٨

حصن القموص - ٣٥٨

حصن ناعم - ٣٥٧ ، ٣٥٨

حصن نطاة - ٣٥٧

حصن الوطيح - ٣٥٧ ، ٣٥٩

حضر موت - ٥٤ ، ٤٣٦ ، ٤٤٠ ،

٤٥٣ ، ٤٥٧ ، ٤٦٥

حمراء الأسد - ٢٦٨

حصن - ٣٦٢

حين - ٣٩٧ - ٣٩٩

الخوراء - ٢٢١

حوض البحر الأبيض المتوسط -

٣٠ ، ٤١

حوض البحر الأحمر - ٣٠ ، ٤١

الحيرة - ٢ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٦ ، ٤٢ ،

٥٦ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٧٨ ، ١١٩ ،

١٣٥ ، ٣٥٢ ، ٤٢٥

(خ)

خليج عدن - ٣١

خليج العقبة - ٥٤

٣٢ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٣ ، ١١٢ ،
 ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٣١٤ (ز)
 زمزم - ٤٦ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٦ ، ٦٠ -
 ٦٢ ، ٦٦ ، ١٠٦ ، ٣٩٦ (س)
 السبخة - ٣٠٣
 سد مأرب - ٣٥ ، ٣٨
 سدني - ١٥٩
 سرف - ٣٧١ ، ٤٦٠
 سفوان - ٢٠٧
 سقيفة بني ساعدة - ٤٨١
 السلت - ٢٩
 السلسل - ٣٧٩
 سلع - ٣٠٣ ، ٣٢٠
 السنج - ٤٧٦ ، ٤٧٩
 سورية = الشام
 سراجيفو - ٢٨٤ (ش)
 الشام - ٢ ، ٤ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣٣ ،
 ٤٢ ، ٥٠ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٩ ، ٦٥ ،
 ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٦ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٩ ،
 ٩٠ ، ١١٩ ، ١٦٠ ، ١٦٣ ،
 ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ، ٢٠٢ ،
 ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ،
 ٢٤١ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ -

دمشق - ٣٦٣
 دومة الجندل - ٢٨١ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ،
 ديار ثمود - ٧٦ ، ٨٣ (ذ)
 ذات الرقاع - ٢٨١
 ذات الطلح - ٣٧٣ ، ٣٧٤
 ذفران - ٢٢٣
 ذنب نغمي - ٢٩٩
 ذو أمر - ٢٥٠
 ذو أوان - ٤٣٢
 ذو الخليفة - ٢٣٥ ، ٣٤٦ ، ٤٥٩
 ذو طوى - ٣٣٦ ، ٣٨٩
 ذو المجاز - ٧٧ ، ٧٨ ، ١٣٤ (ر)
 رابع - ٢٠٧
 ربوع تهامة - ٣٩
 ربوة الصفا - ٤٦٠
 الرجيع - ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٥ ، ٣١٩ ،
 رضوى - ٢٠٧
 الركن الشامي - ٨٨
 الركن اليماني - ٨٧ ، ٣٦٩
 الروحاء - ٢٢٣ ، ٢٦٨
 روسيا - ٢
 الروم = بلاد الروم
 رومة - ٢٩٩
 رومية - ٢ ، ٣ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٠ ،

(ع)

العالية - ٤٣٣
العراق - ٢٠٠٢، ٣٦، ٤٧، ٥١
٤٥٢، ٨٩، ٢٥١ - ٣٥٣، ٣٨١
٤٦٥
عرفات - ٧٨، ٤٤١، ٤٦١، ٤٦٣
عرق الظبية - ٢٢٣، ٢٣٥
عرنة - ٢٧١
العريض - ٢٤٨
عسفان - ٣١٩، ٣٣٦، ٣٨٣
العشيرة - ٢٠٧، ٢١٠، ٢١١، ٢٢٠
العقبة - ١٦٦، ١٦٨
العقيق - ٢٥٥
عكاظ - ٧٧، ٧٨، ١٣٤
عمان - ٣٥٣، ٣٦٤، ٤٣٦
العيص - ٢٠٦، ٢٤٧

(غ)

الغار = غار حراء
غار ثور - ١٧٥ - ١٧٩
غار حراء - ٩٣، ٩٦
الغال - ٢٩
گران - ٣١٩
غزة - ٦٠، ٦٩

(ف)

فارس - ٢ - ٤، ١٤، ٣٧، ٤٠
٥٩، ١٣٦، ١٤٤، ٣٥٢، ٣٥٤

٢٥٣، ٢٧٨، ٢٨١، ٢٩٦، ٣٠٧
٣١٩، ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٥١ - ٣٥٣
٣٦٠، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٧٣ -
٣٧٥، ٣٧٩، ٣٨١، ٤٠٩
٤١٢، ٤٢٣، ٤٢٥، ٤٢٨ -
٤٣٠، ٤٣٦، ٤٦٥، ٤٦٧
٤٧٠، ٤٧٢، ٤٧٦، ٤٧٨
٤٨١، ٤٨٧

شبه جزيرة العرب = بلاد العرب
الشرق الأقصى - ٢٦، ٢٣ - ٤٤٧، ٢٨
شعب العقبة - ١٤٧، ١٤٩، ١٦٨،
١٧٠، ١٧١، ١٧٣، ٢٣٣

(ص)

صحراء إفريقية الكبرى - ٣٢
صخرة يعقوب - ١٥٤
الصفاء - ٥٠، ٥٢، ١٠٤، ١٠٦
١٢١، ١٢٢، ٣٦٩، ٣٩٢، ٤٦٠
صنعاء - ١٤
الصين - ٢، ٩، ٢٦، ٣١٤، ٣٥٤

(ط)

الطائف - ٤٠، ٦٣، ٧٤، ٧٦
٧٨، ١٤٦، ١٥١، ١٦١، ٢٠٩
٢١٣، ٣٩٧، ٤٠٢، ٤١٠
٤١٢، ٤٣٦، ٤٤٠ - ٤٤٥

٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٦٠
 كنيسة القديس بطرس - ٤٣
 (م)
 مأرب - ٣٥
 مجنة - ٧٧ ، ٧٨ ، ١٣٤
 المحيط الهندي - ٣١ ، ٢٤
 مدرسة الاسكندرية - ٤٢
 مدين - ٥٤ ، ٧٦ ، ٨٣
 المدينة - ٤٠ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٥ ، ٦٩ ، ٧١ ،
 ٧٤ ، ٧٥ ، ٩١ ، ١١٦ ، ١٦١ -
 ١٦٨ ، ١٧٢ ، ١٧٦ ، ١٧٩ ، ١٨٥ ،
 ١٨٧ ، ١٩٤ ، ١٩٧ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ،
 ٢٠٤ ، ٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢١٧ ، ٢١٥ ،
 ٢١٩ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ،
 ٢٢٨ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ ،
 ٢٤٣ ، ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٥٦ ،
 ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦٧ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ ،
 ٢٨١ ، ٢٨٩ ، ٢٩٥ ، ٣٠٠ -
 ٣٠٣ ، ٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣١٢ ، ٣١٥ ،
 ٣٢٠ ، ٣٢٢ ، ٣٢٥ ، ٣٢٧ ، ٣٣١ ،
 ٣٣٤ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ،
 ٣٤٩ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ،
 ٣٦٤ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٧١ ، ٣٧٤ ،
 ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٨٠ ، ٣٨٥ ، ٣٨٨ ،
 ٣٩٢ ، ٣٩٤ ، ٤٠٤ ، ٤٠٩ ، ٤١٢ ،
 ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤٢٤ ، ٤٢٨ ، ٤٣٠ -

٣٦٣ ، ٤٢٥ ، ٤٣٦ ، ٤٦٥
 فارغ (حصن حسان بن ثابت) - ٣٠٣
 فدك - ١٨٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٤٨٨
 الفرات - ٣٠ ، ٣١ ، ٤١
 فرنسا - ٢٢ ، ٢٤٠
 فلسطين - ٢٨ ، ٢٣ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٥١ ،
 ٥٢ ، ١١٢ ، ١١٨ ، ٣٥١ ، ٤٦٧ ،
 ٤٦٨ ، ٤٧٠
 فينقيا - ٢٦ ، ٢٨
 (ق)
 قباء - ١٨٢ ، ٢٥٥ ، ٢٧٥
 قبر أبي طالب - ٣٩٠
 قبر خديجة - ٣٩٠
 القردة - ٢٥١
 قرقرة الكدر - ٢٤٨ ، ٢٤٩
 القسطنطينية - ٢ ، ٣٦٣
 (ك)
 كراع الغميم - ٣٣٦
 الكعبة - ٣٦ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٥٢ ، ٥٤ -
 ٦٥ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٧٨ ، ٨٥ -
 ٩٣ ، ٩٩ ، ١٠٧ ، ١١١ ، ١١٤ ،
 ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ،
 ١٣٦ ، ١٦٩ ، ٢٠٤ ، ٢٢٢ ،
 ٢٧٠ ، ٢٧٣ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ،
 ٢٣٨ ، ٢٤١ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ،
 ٢٧٢ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٦ -

النيل - ١١٢

(هـ)

الهند - ٢ ، ٩ ، ١٤ ، ٢٨ ، ٣٢ ،

٣١٤ ، ٣٥٤

(و)

وادي القرى - ٥٤ ، ٧٦ ، ٨٣ ، ٣٦٠

الوتير - ٣٨٢

ودان - ٢٠٧

(ي)

يثرب = المدينة

اليامة - ٣٥٣ ، ٣٦٥ ، ٤٥٠ ، ٤٥١

العين - ٣٤ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٣

٤٤ ، ٤٦ ، ٥٠ ، ٥٦ ، ٥٩ ، ٦٣ -

٦٥ ، ٧٨ ، ١٧٦ ، ١٨٨ ، ١٩٦ ،

٢٠٢ ، ٣٤٩ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٦٤ ،

٣٧٣ ، ٣٩٤ ، ٤٢٩ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ،

٤٤٠ ، ٤٥٠ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٥٧ ،

٤٥٨ ، ٤٦٥ ، ٤٦٧

ينبع - ٢٠٧

اليونان - ٢٦ ، ٢٨

٣٤٧ ، ٣٤٩ ، ٣٦٣ ، ٣٦٦ ، ٣٧٣

٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨٢ ، ٣٩٣ ، ٣٩٥ -

٣٩٩ ، ٤٠٤ ، ٤٠٦ ، ٤٠٩ ، ٤١١ ،

٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٤٠ ، ٤٥٣ ، ٤٥٩ ،

٤٦٠ ، ٤٦٧ ، ٤٦٩ ، ٤٨٤

منازل بني لحيان - ٣١٩

منى - ١٧١ ، ١٨٧ ، ٤٤١ ، ٤٤٤ ، ٤٥٣

٤٦١ ، ٤٦٣

مؤتة - ٣٧٥

(ن)

الناصره - ١١٢

نجد - ٣٤ ، ٣٩ ، ٤٤ ، ٥٦ ، ٧٨ ،

١٦٥ ، ٢٥١ ، ٢٧٤ ، ٢٨١ ، ٢٩٩

٣١٠ ، ٤٤٥ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦

نجران - ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٢ ، ٦٥ ،

١١٩ ، ٢٠٣ ، ٤٥٥ ، ٤٦٧

نخلة - ٧٨ ، ٨٩ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢٧١ ،

٣٩٥ ، ٤٠٢

نمرة - ٤٦١

النمسا - ٢٤٨

نيق العقاب - ٣٨٦

فهرس الغزوات والوقائع والأيام

٢١٢ ، ٢٠٠ ، ٢٩٨ ، ٢٨٩
 ٢٩١ ، ٢٧١ ، ٢٥١ ، ٢٣٣
 ٤٦٩ ، ٤٠٠ ، ٣٩٩ ، ٣٩٤
 ٤٧٢
 غزوة الأحزاب - ٢٩٥ ، ٣١٠ ،
 ٣١١ ، ٣١٥ ، ٣٣٣ ، ٣٥٦ ،
 ٣٩١ ، ٤٠٣ ،
 غزوة بدر - ٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢١١ ،
 ٢٢٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ - ٢٣٧ ،
 ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ،
 ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ،
 ٢٥٦ - ٢٦١ ، ٢٦٦ ، ٢٦٩ ،
 ٢٧٠ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٨ ،
 ٢٩٥ ، ٣٠٠ ، ٣٣٣ ، ٣٣٦ ،
 ٣٥١ ، ٣٨٥ ، ٣٩١ ، ٤١٢ ،
 غزوة بني أسد - ٢٧٠ ،
 غزوة بني قينقاع - ٢٤٣ ،
 غزوة بني لحيان - ٣١١ ،
 غزوة بني المصطلق - ٣١١ ، ٣٢١ ،
 ٣٤٢
 غزوة تبوك - ٩ ، ٣٧٤ ، ٤٠٩ ،
 ٤٢٣ ، ٤٢٢ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ،
 ٤٥٠ ، ٤٥٢ ،

بيعة الرضوان - ٣٤١ ، ٣٤٢ ،
 بيعة السقيفة (سقيفة بني ساعدة) -
 ٤٧٨ ، ٤٨٢ ، ٤٨٤ ،
 بيعة العقبة الصغرى - ١٦٩ ،
 بيعة العقبة الكبرى - ١٦١ ، ١٨٥ ،
 ١٨٧ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٩ ،
 ٢١١ ، ٢٢٤ ، ٢٣٣ ، ٢٥٤ ،
 ٢٧٢ ، ٣٤٢ ، ٣٩٣ ، ٤٠٦ ،
 ٤٦٩
 الحديبية - ٣١١ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ،
 ٣٤٥ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٥٠ ،
 ٣٥٥ ، ٣٦٠ ، ٣٦٤ ، ٣٦٦ ،
 ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٧٠ ، ٣٧٣ ،
 ٣٧٤ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨٢ ،
 ٣٨٣ ، ٣٨٥ ، ٣٩٠ ، ٤٣٧ ،
 حرب الفجار - ٧٧ ، ٧٩ ، ٨٤ ،
 الحرب الكبرى - ٢١٨ ،
 الحروب الصليبية - ٢١٨ ، ٢٩٤ ،
 عام الفيل - ٦٤ ، ٧٠ ،
 غزوة الأبواء - ٢٠٧ ،
 غزوة أحد - ٤٣ ، ٢٣٨ ، ٢٤٢ ،
 ٢٤٣ ، ٢٥٣ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ،
 ٢٦٧ - ٢٧١ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ،

غزوة غطفان - ٢٩٥ - ٣٠٢
غزوة مؤتة - ٣٧٣ - ٣٧٤ - ٣٧٨
٣٨٠ - ٣٨٢ - ٤٢٥ - ٤٦٧ - ٤٦٨
٤٨٧
غزوة اليمى - ٤٦١
فتح مكة - ١٢٦ - ٣٧٤ - ٣٨٠
٣٩٤ - ٣٩٧ - ٣٩٨ - ٤٠٨
٤١٢ - ٤٢٤ - ٤٣٧
يوم بُعث - ١٦١ - ١٦٥ - ١٩٩
٣٠٨ - ٣١٢

غزوة حنين - ٣٩٧ - ٤٠٩ - ٤١٠
* ٤١٢ - ٤٢٤ - ٤٣٧ - ٤٦٩
غزوة الخندق = غزوة الأحزاب
غزوة خيبر - ٣١٥ - ٣٤٨ - ٣٤٩
٣٥٥ - ٣٥٦ - ٣٦٠ - ٣٦٢
٣٦٦ - ٣٨١ - ٤٠٣ - ٤٠٥
غزوة دومة الجندل - ٢٧٠ - ٢٨١
٢٩٥
غزوة السويق - ٢٤٣ - ٢٤٩ - ٢٥٣
غزوة الطائف - ٣٩٧